﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ۚ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ ۚ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٤٠﴾﴾ [الأنفال: الآيات ٣٨ ـ ٤٠].

﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [الأنفال: الآية ٣٨].

لما بين الله (جل وعلا) أن الكفار يُحشرون إلىٰ جهنم، وأنهم يضم بعضهم إلى بعض فيُركم بعضهم فوق بعض فيجعلون في نار جهنم، أمر نبيه ﷺ أن يقول لهم: إنهم إن انتهوا عما هم عليه من الكفر، ورجعوا إلىٰ ما يرضي ربهم فآمنوا به وصدقوا رسوله، يغفر لهم جميع ما سلف منهم من الكفر، ولا يكون عليهم ذنب من جميع ما مضىٰ. ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ يا نبي الله قل لهم ﴿إِن يَنتَهُواْ﴾ لم يقل له: خاطبهم، حتىٰ يقول: إن تنتهوا يغفر لكم ما قد سلف. كأنه أمره بتبليغهم: إن ينتهوا عما هم عليه من الكفر يُغفر لهم. وحذف الفاعل لأن من المعلوم أنه لا يغفر ما سلف إلا الله وحده، فليس هنالك غيره، يحتمل أن يكون هو الفاعل؛ ولذا حذف الفاعل للعلم به وعدم الحاجة إلى ذكره؛ لأنه معروف ﴿يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾. وقوله: ﴿مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ أي: ما مضىٰ قبل انتهائهم من جميع ما ارتكبوه من أنواع الكفر والمعاصي، وهذا معنىٰ قوله: ﴿إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ ﴿وَإِن يَعُودُواْ﴾: اختلف العلماء في المراد بالعود هنا[1]، فقال بعض العلماء: هذه الآيات من سورة الأنفال نزلت بعد وقعة بدر، والمعنىٰ ﴿وَإِن يَعُودُواْ﴾ للقتال كما فعلوا يوم بدر ﴿فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: طريقة الله فيما مضىٰ بين رسله وأتباعهم وبين الكفرة[2].

---

(١) انظر: ابن جرير (١٣/٥٣٦)، القرطبي (٧/٤٠٣).

(٢) المصدران السابقان.

قال بعض العلماء: ﴿ٱلْأَوَّلِينَ﴾ يعني الذين هلكوا منكم فقتلوا وأُسروا يوم بدر، مضت سنة الله فيهم، فأظهر عليهم نبيه، ونصره عليهم، فإن عدتم إلىٰ القتال أجرىٰ عليكم تلك السنة؛ لأنه لا تجد لسنة الله تبديلاً. وقال بعض العلماء: المراد بالأولين الأمم الماضية ممن قبلنا؛ لأن كل أمة كذبت رسولها وتمردت علىٰ ربها أهكلها الله (جل وعلا)، يعني: وإن تعودوا إلى ذلك الكفر والطغيان أهلككم كما فعل بجميع الأمم قبلكم ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [المؤمنون: الآية ٤٤] وهذان الوجهان في قوله ﴿سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: سنة الله فيهم، وأصل السنة: الطريقة والشريعة، والشريعة في اللغة: الطريق، والشرائع: الطرق، وكون السنة هي الطريق الذي يُمشىٰ عليه، أمر معروف في كلام العرب، ومنه قول لبيد بن ربيعة في معلقته[١]:

من معشر سنَّتْ لهم آباؤهم ... ولكلِّ قومٍ سنَّةٌ وإمامُها

أي: طريقة متبعة، وطريقة الله مع الكفرة أنهم إن كذبوا رسله وتمردوا عليه أهلكهم، كما نطقت به الآيات القرآنية بكثرة، وهذا معنىٰ قوله: ﴿وَإِن يَعُودُوا۟ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾.

وقال بعض العلماء: المراد بالعَوْد هنا: الاستمرار، أي: وإن يستمروا على ما هم عليه من الكفر فقد مضت سنة الأولين. وربما أطلقت العرب ابتداء الفعل على دوامه، مثل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب: الآية ١] أي: استمر ودم على تقواه. هذان الوجهان في قوله: ﴿وَإِن يَعُودُوا۟ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الأنفال: الآية ٣٨].

وأمر الله النبي ﷺ وأصحابه قال: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ [الأنفال: الآية ٣٩] (لا تكون) مضارع منصوب بـ (أن) مضمرة بعد (حتىٰ)، و (لا) النافية لا تمنع من ذلك النصب ﴿حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ قال أكثر العلماء[٢]: المراد بالفتنة هنا: الشرك. أي: حتىٰ لا يبقىٰ شرك على

(١) شرح القصائد المشهورات (١/١٠٤).

(٢) انظر ابن جرير (١٣/٥٣٨).

وجه الأرض. ويدل لهذا المعنىٰ قوله بعده ـ يليه ـ: ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ لأن الدين لا يكون كله لله إلا إذا لم يبق على وجه الأرض شرك، فعندئذٍ يكون الدين كله لله. ويؤيد هذا المعنىٰ وهذا التفسير الذي دلت عليه القرينة القرآنية قوله ﷺ: «**أُمرت أن أُقاتل الناس حتىٰ يقولوا: لا إله إلا الله، فإذا قالوها منعوا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها، وحسابهم على الله**»[(١)]. هذا هو الأظهر. وجاء في صحيح البخاري في تفسير هذه الآية عن عبد الله بن عمر (رضي الله عنهما) ما يدل على أن المراد بالفتنة: فتنة الرجل عن دينه، كالمستضعف الذي إذا آمن حبسوه وأوثقوه، أو قتلوه حتىٰ يترك دينه[(٢)]، يعني: قاتلوهم حتىٰ ينتشر الإسلام، وتنكسر شوكة الكفر، بحيث لا يقدرون على رد إنسان عن دينه، ولا قتل إنسان ولا ضربه ولا إيثاقه بسبب الإسلام؛ لأنهم كانوا في أول الإسلام يفتنون الضعفاء عن دينهم، فكان أمية بن خلف ـ قبحه الله ـ يعذب بلالاً فيضجعه في نهار الصيف في رمضاء مكة، فيضع الحجارة على صدره ويعذبه ليكفر بمحمد ﷺ، وهو يقول: أحد أحد. وكذلك أوذوا كثيراً، فقُتل في ذلك أبو عمار بن ياسر وأمه، وأما هو فلما أرادوا أن يفعلوا به ذلك وخاف القتل قال كل ما يريدون منه، فسب رسول الله ﷺ، وسيأتي ـ إن شاء الله ـ إيضاح قصته في الآية النازلة به في سورة النحل في قوله: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا﴾ الآية [النحل: الآية ١٠٦]. وهذا معنىٰ قوله: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ [الأنفال: الآية ٣٩] والقول الأول يدخل فيه هذا؛ لأنه إذا انتفىٰ الشرك لا يكون هناك كافر يفتن المسلمين عن دينهم، وهذا معنىٰ قوله: ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾.

﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟﴾ عن كفرهم وأسلموا: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾ جل وعلا ﴿بِمَا

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٣) من سورة الأنعام.

(٢) البخاري في التفسير، باب: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾. حديث رقم: (٤٦٥٠) (٨/٣٠٩). وانظر الحديث بعده رقم: (٤٦٥١).

﴿يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فهو بصير بعملهم يجازيهم عليه، ﴿وَإِن تَوَلَّوْا﴾ [الأنفال: الآية ٤٠] أعرضوا ولم يرجعوا عن كفرهم ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ﴾ جل وعلا ﴿مَوْلَاكُمْ﴾ ناصركم عليهم، لا يحزنكم توليهم وإعراضهم وإصرارهم على الكفر، فالله مولاكم ناصركم عليهم، و (المولى) وزنه في الميزان الصرفي (مَفْعَل) من الولاية، والمولى في لغة العرب[١]: هو كل من ينعقد بينك وبينه سبب يجعلك تواليه ويواليك؛ ولذا كثر إطلاق المولى على ابن العم؛ لأن عصبية العمومة تجعله ينتصر لك وتنتصر له. وقد أطلق الموالي على العصبة في قوله: ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾ [النساء: الآية ٣٣] العصبة الوارثون. ومنه قول الفضل بن العباس من ذرية أبي لهب[٢]:

مَهْلاً بني عَمِّنَا مَهْلاً مَوالينا لا تظهروا لنا ما كان مَدْفُونَا

ومن هذا المعنى قول طرفة بن العبد[٣]:

وأَعْلَمُ عِلْماً لَيْسَ بالظَنِّ أَنَّهُ إذَا ذَلَّ مَوْلَى المرءِ فهو ذَلِيلُ

ولكون المولى في لغة العرب يطلق على كل من بينك وبينه سبب موالاة يواليك بها وتواليه بها، وكثرت معانيه فأُطلق على بني العم، وعلى العصبة، وعلى المعتَقِيْن، والمُعْتِقِين بالفتح والكسر، وعلى الناصر، وعلى الصاحب؛ لأن كلّا ينعقد بينك وبينه سبب، فلما انعقد بين الكفار وبين النار سبب تجعلهم يدخلونها، ويخلدون فيها، وهي تؤذيهم بحرها قال تعالى: ﴿هِيَ مَوْلَاكُمْ﴾ [الحديد: الآية ١٥] فجعل النار مولاهم لانعقاد السبب بينهم وبينها بكفرهم، وكونها دار الله التي يُعذب بها أعداءه، فهذا معنى قوله: ﴿أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ﴾ [الأنفال: الآية ٤٠] وهذه ولاية نصر.

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٥١) من سورة الأنعام.

(٢) البيت في الكامل للمبرد (١٤١٠/٣)، القرطبي (٧٨/١١)، الدر المصون (٥٦٧/٧). وقائله هو الفضل بن العباس بن عتبة بن أبي لهب، من شعراء بني أمية. وصدر الشطر الثاني: «لا تنبشوا بيننا».

(٣) مضى عند تفسير الآية (١١٦) من سورة الأنعام.

وقد أُطلقت الولاية في القرآن بالنسبة إلىٰ الله (جل وعلا) إطلاقين: أُطلق المولىٰ بمعنىٰ الولاية الخاصة، وهي: النصر والتمكين والتوفيق، كقوله هنا: ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ﴾ وقوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ﴾ [التحريم: الآية ٤] وهذا كثير في القرآن؛ ولذا قال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾﴾ [محمد: الآية ١١] أي: لا مولى لهم ولاية نصر وتمكين. وأطلق المولىٰ صادقاً بالكفار؛ لأنها ولاية خلق وقدرة وربوبية وملك، وهو في قوله: ﴿ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ﴾ [الأنعام: الآية ٦٢] وهي في الكفار؛ لأنه مولى الكفار ولاية ملك وتصرف ونفوذ قدرة، ومولى المؤمنين ولاية نصر وتمكين وثواب. فهذا معنىٰ قوله: ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ﴾.

﴿نِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ (نعم) فعل جامد لإنشاء [المدح][1]. والتحقيق أنه فعل ماض جامد[2]؛ لأن تاء التأنيث تدخل عليه:

نِعْمتْ جَزَاءُ المتقين الجنَّة   دارُ الأَمَاني والمُنَى والمنَّة[3]

خلافاً لمن زعم أن (نِعْم) اسم. قالوا: لأن أعرابياً قيل له: ولدت امرأتك بنتاً. فقال: ما هي بنعم الولد[4]، فأدخل عليها حرف الجر الذي هو الباء، ودخول حرف الجر من علامات الاسم. والمحققون من علماء العربية: أن (نِعْم وبئس) فعلان ماضيان جامدان لإنشاء [المدح أو][5] الذم. قالوا: وقول الأعرابي: ما هي بِنِعْم الولد. وقول الآخر: نِعْمَ السَّير على بِئْسَ العَيْر[6]. محكي قول محذوف، أي: ما هي بولد مقول في جنسه نِعْم، نِعْمَ الولد.

---

(١) في الأصل: «الذم». وهو سبق لسان.
(٢) انظر: شرح شذور الذهب ص٢١، ضياء السالك (١/٤٠)، (٣/٩١).
(٣) البيت في شرح شذور الذهب ص٢١.
(٤) انظر: ضياء السالك (١/ص٤٠)، (٣/٩١).
(٥) ما بين المعقوفين [ ] زيادة يقتضيها السياق.
(٦) المصدر السابق.

وقوله: ﴿نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ (المولىٰ) فسرناه الآن، و (النصير): (فَعِيْلٌ) بمعنىٰ (فَاعِل)، بمعنىٰ الناصر، وأصل النصر في لغة العرب: إعانة المظلوم، وتخليصه بالإعانة من الظلم، فالله (جل وعلا)، كأنه في هذه الآية بيَّن الثناء على نفسه، الثناء الكامل الذي يستحقه في ولايته لأوليائه، ونصره لهم.

قال بعض العلماء: بين (المولى) و(النصير) عموم وخصوص من وجه، يجتمع (المولىٰ) و(النصير) في بني عمك وعصبتك إذا كانت لهم قدرة على نصرك، وإعانتك على عدوك، فإذا جاء دونك بنو عمك وعصبتك ومنعوك من أعدائك، اجتمع فيهم أن كل واحد منهم مولى، وأنه نصير، وينفرد (المولى) عن (النصير) في قرابتك وعصبتك إذا كانوا ضعفاء، لا يقدرون علىٰ نصرتك، فالواحد منهم مولى وليس بنصير، إذ لا طاقة له على النصر، وينفرد (النصير) عن (المولىٰ) بالأجنبي الذي ليس بينك وبينه سبب ولاية إذا نصرك وأعانك ومنعك من عدوك، فهو نصير وليس بمولىٰ. وهذا واضح.

قال تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾ إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ۚ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَٰدِ ۙ وَلَٰكِن لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾﴾ [الأنفال: الآيتان ٤١، ٤٢].

يقول الله جل وعلا: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾﴾ [الأنفال: الآية ٤١].

(اعلموا) معناه: تيقنوا؛ لأن العلم إذا أُطلق في القرآن معناه اليقين في

جميع القرآن، وقد جاء في حرف في سورة الممتحنة إطلاق العلم مراداً به الظن الغالب، وهو قوله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ﴾ [الممتحنة: الآية ١٠] ﴿عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ﴾ [الممتحنة: الآية ١٠] أي: غلب على ظنكم، ظناً قوياً مزاحماً لليقين، ولا يكاد العلم في غير هذا الموضع يُطلق في القرآن إلا مراداً به اليقين الجازم، الذي لا يخالجه ظن ولا وَهْمٌ ولا شك.

﴿أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ﴾ (ما) موصولة، و (أن) مصدرية، أن الذي غنمتم من شيء، وصيغ الموصول قد تقرر في علم الأصول أنها من صيغ العموم[١]؛ لأن الموصول يعم كل ما تشمله صلته، و ﴿مِن شَيْءٍ﴾ بيان للموصول، من شيء كائناً ما كان، إلا ما سنذكره مما أخرجه دليل مُخصِّص.

﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾ قراءة جماهير القراء، منهم السبعة: ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾ وفي بعض الروايات الضعيفة عن بعض السبعة: ﴿فإن لله خمسه﴾ وقد رواه الجعفي عن أبي عمرو[٢]، أما الرواية التي عليها جمهور القراء، وهي رواية السبعة الصحيحة عنهم: ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾ وهنا محذوف دل عليه المقام: فحقه أن لله خمسه، أو: فواجب حتم أن لله خمسه. والخُمس معروف، ﴿وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ وهذه الآية الكريمة من سورة الأنفال قد تضمنت أحكاماً كثيرة من أحكام الجهاد، ومن أحكام الغنائم[٣]، وقد يحتاج لها المسلمون؛ لأنا نرجو الله (جل وعلا) أن يرفع علم الجهاد، ويقوي كلمة لا إله إلا الله، وأن تخفق رايات المسلمين في أقطار الدنيا، فيحتاجون إلى تعلم ما تضمنته هذه الآية الكريمة من أحكام الجهاد، ولما كان القرآن العظيم هو مصدر جميع العلوم؛ لأنه الكتاب الذي حوىٰ جميع العلوم، وكانت أصول جميع الأشياء كلها فيه، أردنا هنا أن

(١) مضى عند تفسير الآية (١٣١) من سورة الأنعام.

(٢) انظر: البحر (٤٩٩/٤).

(٣) انظر: هذه التفاصيل في الأضواء (٣٥١/٢).

نبين جُملاً من الأحكام التي أشارت إليها هذه الآية الكريمة، ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم﴾ معناه: الذي غنمتم، وهي الغنائم التي يحوزها المسلمون من أموال الكفار إذا انتصروا عليهم فقهروهم، وأموال الكفار على قسمين[1]:

قسم: ينتزعه المسلمون منهم بالقوة والغلبة.

وقسم: يصل إلى المسلمين من غير انتزاع بالقوة من أهله الكفار.

والاصطلاح المشهور عند الفقهاء أن بينهما فرقاً، أن الغنيمة هي ما ينتزعه المسلمون بالقوة من الكفار، أما ما ييسرُهُ الله للمسلمين بلا قتال فهو المُسمىٰ بـ (الفيء) وحكمهما مختلف على التحقيق الذي عليه جماهير العلماء ودل عليه القرآن؛ لأن الفيء هو المال الذي يناله المسلمون من الكفرة من غير أن ينتزعوه بالقوة، ولا أن يوجفوا عليه بخيل ولا ركاب، كأموال بني النضير، فإنهم نزلوا على حكم النبي ﷺ، ومكنه الله من أموالهم من غير أن تنتزع منهم بالقوة، وقد سمح لهم النبيّ ﷺ أن يحملوا على الإبل ما قدروا أن يحملوه، واستثنى السلاح كما ستأتي تفاصيله في سورة الحشر؛ لأنها كلها نزلت في قصة بني النضير، هذا هو الفيء، وهو المذكور في سورة الحشر، وقد نص الله في سورة الحشر على أن مصارفه هي مصارف خُمس الغنيمة؛ لأنه قال هنا: ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [الأنفال: الآية ٤١] وقال هناك: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾ فبين بقوله: ﴿فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾ [الحشر: الآية ٦] الفرق بين الفيء والغنيمة؛ لأنه مال لم تنتزعوه بالقوة والسلاح من أهله، ولم تسرعوا في انتزاعه على الخيل والركاب التي هي الإبل. ثم قال مبيناً مصارفه وأنها هي مصارف الخُمس: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [الحشر: الآية ٧] مثل ما ذكر هنا في مصارف الخُمس سواء بسواء، وشذ بعض العلماء فقال: إن الفيء والغنيمة

---

(١) السابق (٣٥٢/٢).

سواء. وهذا القول مشهور عن قتادة وطائفة من العلماء، وهو قول وإن كانت تساعده اللغة فالشرع والحقيقة الشرعية لا تساعده؛ لأن العرب تُطلق في لغتها الفيء علىٰ جميع ما يُغنم، وهو معنىٰ معروف في كلامها، ومنه قول مهلهل بن ربيعة التغلبي أخي كليب[1]:

فلا وأبي جليلة ما أفأنا من النعم المؤبل من بعير
ولكنا نهكنا القوم ضرباً على الأثباج منهم والنحور

يعني: لم نشتغل بالغنائم، وإنما اشتغلنا بقتل الرجال.

وربما أُطلق الفيء في القرآن مراداً به كل غنيمة، كقول قتادة، وذلك في قوله: ﴿وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ﴾ [الأحزاب: الآية ٥٠] لأن المسبيات حكمها في هذا سواء، سواء كانت فيئاً أو غنيمة، إلا أن الاصطلاح المعروف هو التفرقة بين ما أُوجف عليه بالخيل والركاب، وبين ما أُخذ عفواً من غير انتزاع بالقوة، كما قال هنا: ﴿أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ﴾ فبيّن أنهم غنموه وانتزعوه منهم قهراً، وقال في الآخر الذي هو الفيء: ﴿فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾ [الحشر: الآية ٦] فكيف تستحقونه ولم تنتزعوه بالقوة، ولم توجفوا عليه بالخيل ولا الإبل؟!

والإيجاف: الإسراع كما هو معروف.

وهذه الآية الكريمة دلت علىٰ أن أربعة أخماس الغنيمة [أنه][2] للمجاهدين الغانمين الذين غنموها؛ لأن قوله: ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾ الآية يدل علىٰ أن المعنىٰ: وأما الأخماس الأربعة فهي للغانمين المجاهدين، ويدل علىٰ ذلك إسناده غنيمته إليهم في قوله: ﴿أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ﴾ وهذا هو

---

(١) البيتان من قصيدة يرثي فيها أخاه كليباً، ونص البيتين كما في ديوانه ص٤١، وفي «شعراء النصرانية قبل الإسلام» ص١٧٠ هكذا:

فلا وأبي أميمة ما أبوها من النعم المؤثل والجزور
ولكنا طعنا القوم طعناً على الأثباج منهم والنحور

والبيتان ذكرهما الشيخ (رحمه الله) في الأضواء (٢/٣٥٣) كما هنا.

(٢) في الأصل: «أنهم».

التحقيق، وعليه جماهير العلماء، أن أربع أخماس الغنيمة للمسلمين المجاهدين الذين غنموها، تُقسم بينهم بالسواء، وأن خُمس الغنيمة هو يُصرف في هذه المصارف المذكورة وسنوضحها ـ إن شاء الله ـ واحداً واحداً. هذا هو المذهب الحق وعليه جماهير العلماء، وخالف في هذا قوم من العلماء ـ منهم طائفة من علماء المالكية وغيرهم[(١)] ـ قالوا: إن الغنائم كلها والفيء شيء واحد، وأن التصرف فيه كله لرسول الله ﷺ يعطي الغانمين ما شاء ويمنعهم ما شاء. وهذا القول وإن قال به جماعة من المالكية وغيرهم من العلماء فهو خلاف التحقيق.

والذين قالوا هذا القول استدلوا بأدلة كلها مردودة مجاب عنها، قالوا: من أدلته أن الغنائم هي الأنفال، وقد تقدم في أول السورة قوله تعالىٰ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِۖ﴾ [الأنفال: الآية ١] فصرح بأنها لله وللرسول ﷺ ولم يجعل للغانمين فيها حقاً مستقلاً إذا لم يشأ الرسول ﷺ أن يعطيهم. قالوا: ويتأيد هذا بأمور، منها: أن النبي ﷺ لم يقسم مكة حين افتتحها عنوة، وأنه (صلوات الله وسلامه عليه) في غزوة حنين لما أخذ غنائم هوازن أعطىٰ صفوان بن أمية ما ملأ بين جبلين من الغنم، وأعطى عيينة بن حصن مائة من الإبل، والأقرع بن حابس مائة من الإبل، وأعطىٰ عطايا كثيرة، ولم يعط الأنصار منها شيئاً، حتى غضب الأنصار وقالوا: يعطي الغنائم عنا لقريش وسيوفنا تقطر من دمائهم!! فعلم النبي ﷺ بما قالوا فأرسل مَنْ جمعهم وقال: «**ألم أجدكم متعادين فألف الله بين قلوبكم بي؟!**» قالوا: بلىٰ. قال: «**ألم أجدكم علىٰ شفا حفرة من النار فأنقذكم الله منها بي؟**» قالوا: بلىٰ يا رسول الله ـ ﷺ ـ. فلما عدّد عليهم بعض النعم التي أنعم الله عليهم بسبب رسول ﷺ اعترفوا بذلك كله وسكتوا، قال لهم: «**ألا تجيبونني يا معشر الأنصار؟!**» قالوا: وكيف نجيب رسول الله ﷺ؟؟! قال: «**قولوا: ألم يكذبك الناس فصدقناك؟ ألم يُعادك الناس فآويناك ونصرناك؟!**» ثم قال: «**يا معشر الأنصار ألا ترضون بأن يرجع الناس إلى بيوتهم بالشاة والبعير، وترجعون إلى بيوتكم برسول الله ﷺ؟**» قالوا: رضينا

---

(١) انظر: المغني (٣٠٤/٩) القرطبي (٢/٨)، الأضواء (٣٥٤/٢).

برسول الله ﷺ قسمة. وطابت نفوسهم[١]. قال قائل هذا القول من المالكية وغيرهم من العلماء كقتادة: لو كانت الغنيمة مستحقة للغانمين ولم يكن للإمام أن يفعل فيها كيف يشاء، كيف يفضّل النبي ﷺ المؤلفة قلوبهم كالأقرع بن حابس، وعيينة بن حصن، وصفوان بن أمية ويمنع الأنصار، والأنصار أحق؟! وكيف يفضّل الأقرع بن حابس التميمي، وعيينة بن حصن الفزاري على العباس بن مرداس السلمي وهو حسن الإسلام جداً؟! وقد غار منهم العباس بن مرداس حتى قال شعره المشهور، قاله أمام النبي ﷺ لما أعطى عُيينة مئة، والأقرع مئة، وأعطى العباس بن مرداس قليلاً، قال: مخاطباً لرسول الله ﷺ[٢]:

أتجعل نهبي ونهب العُبيدِ ... بين عُيينةَ والأقْرعِ

وما كان حصن ولا حابس ... يفوقانِ مرداسَ في مجمعِ

وما كنت دون امرىء منهما ... ومن تضع اليومَ لاَ يُرفعِ

وقد كنت في الحرب ذَا تُدْرَإِ ... فلم أُعطَ شيئاً ولم أُمنعِ

---

(١) أصل هذا الخبر في البخاري، (من حديث عبدالله بن زيد بن عاصم رضي الله عنه) كتاب المغازي، باب: غزوة الطائف في شوال سنة ثمان. حديث رقم: (٤٣٣٠) (٤٧/٨) وأخرج بعضه برقم (٧٢٤٥). ومسلم في الزكاة، باب إعطاء المؤلفة قلوبهم على الإسلام...، حديث رقم: (١٠٦١) (٧٣٨/٢). ومن حديث أنس عند مسلم في نفس الكتاب والباب، حديث رقم: (١٠٥٩) (٧٣٣/٢ ـ ٧٣٧). وأخرجه أحمد (٧٦/٣) من حديث أبي سعيد رضي الله عنه.

(٢) جاءت هذه الأبيات في روايات متعددة على تفاوت بينها في بعض الألفاظ مع زيادة في بعض الأبيات، ففي صحيح مسلم (١٠٦٠) وغيره الاقتصار على الأبيات الثلاثة الأولى، وبعضهم يزيد رابعاً، وأكثر ما وقفت عليه سبعة أبيات وهي عند ابن هشام في السيرة، وفي سُبل الهدى والرشاد (٣٩٩/٥) هكذا:

كَانَتْ نِهَاباً تَلاَفَيْتُهَا ... بِكَرِّي عَلَى الْمُهْرِ فِي الأَجْرَعِ

وَإِيقَاظِيَ الْقَوْمَ أَنْ يَرْقُدُوا ... إِذَا هَجَعَ النَّاسُ لَمْ أَهْجَعِ

فَأَصْبَحَ نَهْبِي وَنَهْبُ الْعُبَيْـ ... ـدِ بَيْنَ عُيَيْنَةَ وَالأَقْرَعِ

وَقَدْ كُنْتُ فِي الْحَرْبِ ذَا تُدْرَإٍ ... فَلَمْ أُعْطَ شَيْئاً وَلَمْ أُمْنَعِ

وَإِلاَّ أَفَائِلَ أَعْطَيْتُهَا ... عَدِيدَ قَوَائِمِهَا الأَرْبَعِ

وَمَا كَانَ حِصْنٌ وَلاَ حَابِسٌ ... يَفُوقَانِ مِرْدَاسَ فِي الْمَجْمَعِ

وَمَا كُنْتُ دُونَ امْرِىءٍ مِنْهُمَا ... وَمَنْ تَضَعِ الْيَوْمَ لاَ يُرْفَعِ

وإلا أباعيرَ أُعطيتُها عديدَ قوائمه الأربعِ
وكانت نِهَاباً تلافيتُها بِكَرِّي على المُهْرِ في الأجْرَعِ
وإيقاظيَ القومَ أن يرقُدُوا إذا هَجَعَ الناسُ لم أهجَعِ

إلى آخر شعره. قالوا: لو كانت الغنيمة للغانمين لما فضل الأقرع وعيينة على العباس بن مرداس وهو أحسن منهما إسلاماً، ولما فضل المؤلفة قلوبهم على الأنصار وهم أحسن منهم إسلاماً. قالوا: فعطايا النبي هذه ـ ﷺ ـ كما أعطى من مئات الإبل، وأعطىٰ من الورق والرقيق، وأعطىٰ صفوان بن أمية ما ملأ بين جبلين من الغنم، قالوا: هذا يدل على أن الغنيمة ليست استحقاقاً محضاً للغانمين، وإنما يفعل الإمام فيها ما يشاء، قالوا: وكذلك لما فتح مكة لم يغنم أموال أهل مكة، ولم يقسم دورها ولا أرضها [فلو كان قَسْمُ الأخماس الأربعة على الجيش واجباً لفعله ﷺ لما فتح مكة. قالوا: وكذلك غنائم هوازن في غزوة حنين، أعطى منها عطايا عظيمة جداً للمؤلفة قلوبهم. وأجاب الجمهور عن كونه ﷺ][1] /٤/ب أعطى المؤلفة قلوبهم، وأعطىٰ عيينة مئة، والأقرع مئة، وصفوان ما ملأ بين جبلين غنماً ونحو ذلك من العطايا، أنه فعل ذلك بعدما استطاب نفوس الغانمين عنه، وأن الغانمين طابت له نفوسهم بذلك للمصلحة العامة، وهي تأليف قلوب الرجال الذين لهم شوكة عظيمة وأتباع كثيرون ليقوىٰ بهم الإسلام، وقد فعل ذلك برضا الغانمين وطيب أنفسهم عن ذلك له ﷺ، أما عدا كونه لم يقسم دور مكة ورباعها فقد أجاب عنه الشافعي (رحمه الله) جواباً لكنه غير ناهض بالحقيقة والإنصاف[2]؛ لأن الشافعي (رحمه الله) مع جلالته وعلمه يرى أن مكة المكرمة ـ حرسها الله ـ أنها فتحت صلحاً لا عنوة، ويظن أن قوله ﷺ: **«من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن ألقىٰ السلاح فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو**

---

(١) في هذا الموضع انقطع التسجيل. وتم استيفاء النقص من كلام الشيخ (رحمه الله) في الأضواء (٣٥٥/٢) وجعلت ذلك بين معقوفين.

(٢) انظر: الأضواء (٣٥٦/٢).

آمن»[١]. يظن أنها نوع صلح أو شبه صلح، والتحقيق الذي لا شك فيه: أن مكة ـ حرسها الله ـ إنما فُتحت عنوة وقهراً بالسيف لا صلحاً، وتأمين النبي ﷺ لبعض الناس لا يقتضي الصلح؛ لأن الصلح أمر عام. والدليل على أنها فتحت عنوة أمور كثيرة وأدلة واضحة لا لبس فيها[٢]، منها: ما ثبت في صحيح مسلم وغيره من وقوع القتال فيها يوم فتح مكة؛ لأن النبي ﷺ جعل خالد بن الوليد يوم فتح مكة على المُجَنِّبَة اليمنىٰ، وجعل الزبير بن العوام على المُجَنِّبَة اليسرىٰ، وجعل أبا عبيدة على الحُسَّر[٣] وأخذوا بطن الوادي، ولم يتلقهم أحد إلا أناموه، فقتلوا من قريش قوماً كما هو معروف. وهذا ثابت في الصحيح وغيره، ورجز حماس بن قيس المشهور يدل على ذلك؛ لأن حِمَاس بن قيس هذا رجل حليف لقريش، وكان يقول لزوجته: إنه يجعل لها أزواج رسول الله ﷺ خدماً، وكان يقول لها: إذا جئتك فارّاً فأغلقي الباب دوني، وكان يرتجز ويقول[٤]:

إنْ يُقْبِلُوا اليَومَ فما لي عِلَّهْ ... هَذَا سِلاَحٌ كَامِلٌ وأَلَّهْ

وذُو غِرَارَيْنِ سَرِيعُ السَّلَّهْ

وكان يوم فتح مكة اجتمع مع الجماعة الذين جاءهم خالد بن الوليد، فرأىٰ القتل وجاءها منهزماً، فقالت له: أين الذي كنت تقوله أنك تُخدمني نساءهم، وأني أغلق الباب دونك؟! فقال لها رجزه المشهور، وهو معروف عند علماء التاريخ وأصحاب المغازي[٥]:

---

(١) أخرجه مسلم في الجهاد والسير، باب فتح مكة. حديث رقم: (١٧٨٠) (١٤٠٥/٣) من حديث أبي هريرة (رضي الله عنه). وأخرجه أبو داود في الخراج والإمارة، باب ما جاء في خبر مكة. حديث رقم: (٣٠٠٥، ٣٠٠٦) (٢٥٦/٨، ٢٥٩) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) انظر: صحيح مسلم (١٤٠٥/٣)، زاد المعاد (٤٢٩/٣)، الأضواء (٣٥٦/٢، ٣٧٣).

(٣) وهم الذين لا دروع لهم.

(٤) الأبيات في ابن هشام ص١٢٤٩، الأضواء (٣٧٥/٢).

(٥) تقدمت هذه الأبيات، ونصها في ابن هشام (ص١٢٥٠):

إنك لو شهدت يوم الخندمه ... إذ فر صفوان وفر عكرمه

وأبو يزيد قائم كالمؤتمه ... واستقبلتهم بالسيوف المسلمه

يقطعن كل ساعد وجمجمه ... ضرباً فلا يُسمع إلا غمغمه

لهم نَهِيتٌ خلفنا وهمهمه ... لم تنطقي في اللوم أدنى كلمه

إِنَّكِ لو شَهِدتِ يومَ الخَنْدَمَهْ إذ فرَّ صفوانُ وفرَّ عِكْرِمَهْ
واسْتَقْبَلَتْنا بالسيوفِ المسلمه لهم نَهِيتٌ خَلفنَا وهَمْهَمَه
يَقْطَعْنَ كلَّ سَاعِدٍ وجُمجُمه ضرباً فلا تسمع إلا غمغمه
لم تنطقي باللَّومِ أدنى كَلِمَه

وهذه الأدلة وغيرها تدل على أن مكة فُتحت عنوة لا صلحاً. ومن الأدلة على ذلك: ما ثبت في الصحيح أن النبي (صلوات الله وسلامه عليه) أمر بقتل مقيس بن صبابة، وابن خَطَل، وجاريتين معهما، ولو وُجدوا متعلقين بأستار الكعبة. ولو كانت مكة صلحاً لما أمر بقتل مقيس بن صبابة، وابن خَطَل، والجاريتين المذكورتين معهما[١]، كما هو ثابت معروف، ومما يدل على أنها فتحت عنوة ما ثبت في الصحيح عن أم هانىء أنها أجارت رجلًا من أحمائها بني مخزوم؛ لأن زوجها هبيرة بن أبي وهب المخزومي أجارته، وجعلت له الأمان، فجاءه علي ابن أبي طالب (رضي الله عنه) ليقتله، فشكته إلى النبي ﷺ، فقال ﷺ: **«أجرنا من أجرت يا أم هانىء»**[٢] فلو كانت مكة مفتوحة صلحاً لما أخذ علي السيف ليقتل المخزوميين الذين أجارتهما أخته أم هانىء (رضي الله عنها)، إلى غير ذلك من الأدلة.

ولكن التحقيق أن الأرض المغنومة لها حكم خاص سنبينه الآن؛ لأن الغنيمة أقسام[٣]، منها: ما هو كالذهب والفضة والحيوان، وهذا لا خلاف

---

(١) البيهقي في الدلائل (٥/٥٩)، وابن سعد في الطبقات (٢/١/٩٨). وذكره ابن هشام في السيرة ص١٢٥١، وابن القيم في بالزاد (٣/٤١١)، وابن كثير في تاريخه (٤/٢٩٧ - ٢٩٩) وأخرج الشيخان من حديث أنس (رضي الله عنه): «أن رسول الله ﷺ دخل عام الفتح وعلى رأسه المغفر، فلما نزعه جاء رجل فقال: إن ابن خَطَل متعلق بأستار الكعبة. فقال: «اقتلوه»». البخاري في جزاء الصيد، باب دخول مكة بغير إحرام. حديث رقم: (١٨٤٦)، (٤/٥٩) وأطرافه: (٣٠٤٤، ٤٢٨٦، ٥٨٠٨). ومسلم في الحج، باب جواز دخول مكة بغير إحرام. حديث رقم: (١٣٥٧) (٢/٩٨٩).

(٢) البخاري في الصلاة، باب الصلاة في الثوب الواحد ملتحفاً به. حديث رقم: (٣٥٧) (١/٤٦٩)، ومسلم في صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب صلاة الضحى... حديث رقم: (٣٣٦) (١/٤٩٨).

(٣) انظر: القرطبي (٨/٤)، الأضواء (٢/٣٦٧).

عند من يُعْتَدُّ به من العلماء أنه يُقسم ويُخمَّس، أما أرض العدو التي فتحها المسلمون فللعلماء فيها أقوال[١]: فبعض العلماء يقول: عندما يستولي عليها المؤمنون تصير وقفاً عاماً للمسلمين. وهذا مذهب مالك (رحمه الله) وجماعة من العلماء.

وبعض العلماء يقول: يجب قسم الأرض المغنومة كما قسم النبي ﷺ أرض خيبر وأرض بني قريظة.

وجماعة من العلماء قالوا: الإمام مخير في ذلك، إن رأىٰ المصلحة في قَسْمِها قَسَمَها، وإن رأىٰ المصلحة في إبقائها وقفاً للمسلمين تركها وقفاً للمسلمين، فإذا اقتضىٰ نظر الإمام أن يقسمها قسمها وكانت مملوكة للغانمين، وكانت أرض عشورٍ لا أرض خراج، وإن رأىٰ الإمام أن يتركها لعامة المسلمين خزانة لهم ـ كما هو رأي عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) ـ تركها وقفاً للمسلمين، وكانت أرض خراج لا أرض عشور، يؤخذ الخراج ممن هو يستغلها ويكون لعموم المسلمين. وهذا المذهب بالتخيير هو الحق ـ إن شاء الله ـ والنبي ﷺ اختار أن يقسم أرض قريظة وأرض خيبر، واختار أن يترك قسمة دور مكة. وقد فهم عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) من فعل النبي ﷺ أن الأرض التي غنمها المسلمون واحتلوا بلادها بالقوة أن الإمام مخير فيها، فَهِمَ ذلك من فعل النبي ﷺ؛ ولذا ثبت عنه في الصحيح أنه قال: لولا آخر المسلمين لما فتحت علي قرية إلا قسمتها على الغانمين كما قسم رسول الله ﷺ أرض خيبر[٢]. وعمر لم يفعل هذا الصنيع متهجماً على كتاب الله في قوله: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم﴾ الآية [الأنفال: الآية ٤١]. وإنما فهم من فعل رسول الله ﷺ التخيير في ذلك، وكلامه صريح في أنه يعتقد أنه مخير؛ لأنه قال: ـ «لولا آخر المسلمين لما فُتحت علي قرية إلا قسمتها كما قسم النبي ﷺ أرض خيبر» وهذا فيه مصلحة عظمىٰ؛ لأن الغانمين لو قسموا الأرض عندما غنموها فإن آخر المسلمين يكونون لا غلة

---

(١) القرطبي (١٨/٢٢ ـ ٢٣)، الأضواء (٢/٣٦٧).

(٢) البخاري في فرض الخمس، باب الغنيمة لمن شهد الوقعة. حديث رقم: (٣١٢٥) (٦/٢٢٤).

لهم، ويكون الإسلام وجيوش الإسلام والأموال التي يحتاج بها لحماية بيضة الإسلام وقمع الكفار وإقامة الجهاد يكون ذلك لا يوجد له شيء، فوجود تلك الأرضين الكثيرة لها خراج كثير عظيم يستعين به المسلمون على شراء السلاح، وتهيئة الجيوش، وتعبئة الرجال للقتال في سبيل الله (جل وعلا)، أن هذا هو المصلحة؛ ولأجل تخيير الإمام لم يقسم النبي ﷺ مكة، وقد ثبت أن النبي ﷺ قسم بعض خيبر ولم يقسم بعضها، قال بعض العلماء: البعض من خيبر الذي لم يقسمه رسول الله ﷺ إنما ترك قسمه لهذا الاختيار؛ لأنه مخير في القسم والإبقاء. والصحيح أن الذي لم يقسمه من أرض خيبر كان فيئاً؛ لأن بعض البساتين وبعض الأطراف من خيبر كانوا لم يُفتحوا ولم يؤخذوا عنوة ولم يُوجف عليهم بالخيل والركاب، فلما أُخذت قريظة نزلوا على حكم النبي ﷺ من غير أن يُؤخذوا بالقهر فكان فيئاً، وسمع بهم أهل فدك ففعلوا كذلك، فكانت فدك فيئاً للنبي ﷺ، هي وذلك البعض من قريظة. ومعلوم أن فدك وبعض قريظة كانا من الفيء الخالص لرسول الله ﷺ، وقد طلبته فاطمة (رضي الله عنها) أن يقطعها فدك فأبىٰ، وأقطعها أمير المؤمنين عثمان بن عفان (رضي الله عنه) لمروان بن الحكم ظناً منه (رضي الله عنه وأرضاه) أن ما كان للنبي ﷺ ينتقل الحق فيه لولي أمر المسلمين بعده، وأن ذلك انتقل إليه، وأنه غني عنه بأمواله فوصل به بعض قُرَبَائه، وهو ابن عمه مروان بن الحكم رضي الله عن عثمان وأرضاه وعن جميع أصحاب النبي ﷺ[١].

وحاصل هذا أن التحقيق الذي لا شك فيه ـ إن شاء الله ـ أن الأموال المغنومة التي انتزعها المسلمون من الكفار أنها نوعان: الأرض، وغير الأرض. أما الأرض فلا يتعين قسمها بينهم، والإمام مخير فيها، فإن رأىٰ مصلحة المسلمين في قَسْمِها قَسَمَها، وإن رأىٰ مصلحة المسلمين في إبقائها وقفاً عليهم أبقاها وقفاً ينتفع بها آخر المسلمين. قال بعض العلماء: والقرآن يشير لهذا؛ لأنه لو لم يكن يبقىٰ لآخر المسلمين شيئاً لما قال الله في

(١) انظر: الأضواء (٢/٤١٢).

المستحقين: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُو مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا﴾ [الحشر: الآية ١٠] لأنه قال أولاً: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ﴾ ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُو الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُو مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا﴾ [الحشر: الآيات ٨ ـ ١٠] وقال بعض العلماء: لا دليل للغنيمة في آية الحشر هذه؛ لأنها في الفيء، قد أفتى مالك بن أنس (رحمه الله) أن الذين يسبون أصحاب رسول الله ﷺ أنهم لا حق لهم في فيء المسلمين، ولما نُوقش في ذلك قال: «هؤلاء الذين سَبُّوا أصحاب رسول الله ﷺ لا حق لهم في فيء المسلمين؛ لأن الله لما ذكر الذين يعطون فيء المسلمين من الأصناف قال: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ﴾ أهؤلاء من الفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم؟» قالوا: لا. قال: «أهم من الذين قيل فيهم: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُو الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾» قالوا: لا. قال: «وأنا أشهد أنهم ليسوا من الصنف الثالث الذين قال الله فيهم: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُو مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا﴾ بل هؤلاء جاؤوا يسبونهم ويعيبونهم فليسوا منهم قطعاً، فتبين أنهم لا حق لهم»[١].

وعلى كل حال فجميع المال المغنوم يقسم بين الغانمين، والأرض فيها للعلماء ثلاثة مذاهب معروفة كل واحد منها لصاحبه عليه أدلة[٢]:

أحدها: أنها تكون غنيمة وتقسم، وهو مذهب الإمام الشافعي، واستدل بعموم قوله: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ﴾ [الأنفال: الآية ٤١] وكان مالك بن أنس (رحمه الله) يرى أن أرض الكفار عندما

---

(١) استنباط مالك (رحمه الله) ذكره القرطبي في التفسير (٣٢/١٨) ونصه: «من كان يُبغض أحداً من أصحاب محمد ﷺ، أو كان في قلبه عليهم غل فليس له حق في فيء المسلمين، ثم قرأ: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُو مِنْ بَعْدِهِمْ...﴾». وهو في ابن كثير (٣٣٩/٤).

أما المحاورة التي أوردها الشيخ (رحمه الله) فقد أورد نحوها السيوطي في الدر (١٩٨/٦) عن ابن عمر (وليس في موضوع الفيء). وأورد القرطبي (٣٢/١٨) نحوها عن علي بن الحسين كذلك (وليس في موضوع الفيء).

(٢) انظر: الأضواء (٣٦٧/٢).

يفتتحها المسلمون تصير بمجرد استيلاء المسلمين عليها وقفاً للمسلمين آخرهم يستوون فيها جميعاً لمصلحة الإسلام العامة، وللإعانة على تعبئة الجيوش، والرد عن بيضة الإسلام، والدفاع عن المؤمنين في المستقبل.

وقوم قالوا: يخير الإمام إن رأى قَسْمها مصلحة قَسمها. وهذا مذهب الإمام أحمد، ويُروى عن أبي حنيفة نحوه والله تعالىٰ أعلم. وهذا القول بالتخيير هو أقواها دليلًا؛ لأنه تنتظم به الأقوال، وتجتمع به النصوص، والجمع واجب إذا أمكن. أما الأخماس الأربعة من الأرض المقسومة إذا اقتضى نظر الإمام أن يقسمها أو من غير الأرض كالذهب والفضة والخيل والإبل ونحو ذلك، أما هذه الأخماس الأربعة فهي للغانمين تقسم بينهم.

واختلف العلماء: هل يجوز للإمام أن ينفل من هذه الأخماس الأربعة شيئاً؟[١] فكان مالك بن أنس رحمه الله - إمام دار الهجرة - يرىٰ أن الإمام لا يجوز له أن ينفل شيئاً من هذه الأخماس الأربعة، وإنما ينفل من الخمس الذي قال الله فيه أنه لله وللرسول ولذي القربىٰ إلى آخر مصارفه.

وذهبت جماعة من العلماء إلىٰ أن للإمام التنفيل منه. وكون الإمام له التنفيل منه هو الحق - إن شاء الله - الذي قامت عليه النصوص الذي لا تكاد تدفع.

وتنفيل الإمام من الأخماس الأربعة التي هي للمجاهدين يكون على أنواع، منها: أن ينفل السرايا ويقول للسرية: أخرجي إلى أرض الكفار فما غنمت فقد نفلتك منه كذا، وقد جاء حديث ثابت عن النبي ﷺ أنه نفل السرايا في البدء الربع، وفي العودة الثلث. هذا حديث ثابت رواه مكحول[٢] عن حبيب بن مسلمة[٣]، وهو صحابي،

---

(١) السابق (٢/٣٥٧).

(٢) الحديث من رواية مكحول عن زياد بن جارية عن حبيب بن مسلمة.

(٣) أخرجه أحمد (٤/١٥٩، ١٦٠)، والدارمي (مع شيء من المغايرة في اللفظ والمعنى) (٢/١٤٧)، وأبو عبيد في الأموال ص٢٨٩، والحميدي (٢/٣٨٤)، وأبو داود في الجهاد، باب: فيمن قال: الخمس قبل النفل. حديث رقم (٢٧٣٣) (٢/٤٢٤)، وابن ماجه في الجهاد، باب: النفل. حديث رقم (٢٨٥٢) (٢/٩٥١)، وابن حبان الإحسان (٧/١٦١)، والحاكم (٢/١٣٣)، (٣/٣٤٧، ٤٣٢)، وابن الجارود (٣/٣٣٤). وانظر: صحيح أبي داود (٢/٥٢٥)، صحيح ابن ماجه (٢/١٣٩).

لا تابعي صغير[1]، ورواه بعضهم عن عبادة بن الصامت - رضي الله عنه[2] - وهو ثابت، ومعنىٰ تنفيل الربع في البدءة وتنفيل الثلث في العودة: أن للإمام إذا كان المسلمون متوجهين إلى أرض الكفار أن يقول للسرية: اذهبوا إلى الكفار فما غنمتم منهم فقد نفلتكم ربعه. ولا ينفلهم أكثر من الربع، فيكون الربع خالصاً لهم، والباقي هم والمسلمون فيه سواء. وأما تنفيل الثلث في العودة: أن المسلمين إذا رجعوا من أرض الكفار - رجعوا من الغزو إلى بلادهم - فيجوز للإمام أن ينفل بعض السرايا في ذلك الوقت الثلث. والفرق بين البدءة والعودة: أن البدءة الكفار في غفلة، والمسلمون متوجهون لبلادهم فخبرهم أهون، وأما في الرجعة فالكفار في حذر ويقظة والمسلمون منصرفون عن بلادهم، فقضيتهم أصعب؛ ولذا نفل أكثر في الحالة الصعبة من الحالة التي هي أقل صعوبة[3]. هذا ثابت ولا ينبغي أن يُختلف فيه، وهو مذهب الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله[4].

وهذا الذي ذكرنا يدل على أن الجيوش إذا خرجت للقتال في بلاد الكفر، وذهبت سرية وغنمت شيئاً، أن الجيش كله شركاء لهم في ذلك الذي غنموه، ولا يختص به دونهم، وهذا لا خلاف فيه بين العلماء؛ لأن العلماء مجمعون على أن جميع الجيش معهم فيما غنموا إلا ما نفلهم الإمام من ربع في البدءة أو ثلث في العودة.

ومن أنواع التنفيل الجائزة للإمام الثابتة عن النبي ﷺ: أن يرسل الإمام سرية ثم - مثلاً - يعطيهم أنصباءهم من الغنيمة وينفلهم ما شاء، فقد ثبت

---

(١) انظر: الإصابة (٣٠٩/١) الأضواء (٣٨٥/٢).

(٢) أخرجه الدارمي (١٤٧/٢)، وأبو عبيد في الأموال ص٢٩٠، والترمذي في السير، باب ما جاء في النفل. حديث رقم: (١٥٦١) (١٣٠/٤). وقال: «وفي الباب عن ابن عباس، وحبيب بن مسلمة، ومعن بن يزيد، وابن عمر، وسلمة بن الأكوع. وحديث عبادة حديث حسن» ا.هـ وانظر: ضعيف الترمذي ص١٨٤.

(٣) انظر: الأضواء (٣٨٦/٢).

(٤) انظر: الأوسط لابن المنذر (١١١/١١)، مسائل ابن هانىء (١٠٥/٢)، المغني (٥٣/١٣).

في الصحيحين عن ابن عمر (رضي الله عنه) أنه أرسله النبي ﷺ مع سرية قبل نجد، فغنموا، وكانت سهمانهم اثني عشر بعيراً، اثني عشر بعيراً، ونُفِّلوا بعيراً بعيراً[١]، فنفلهم نصف السدس؛ لأن الواحد من الاثني عشر نصف سدسها. وهذا ثابت عن النبي ﷺ.

ومن أنواع التنفيل التي تجوز للإمام: أن ينفل بعض الجيش المقاتلين، ويعطيه شيئاً خاصاً لقوته وشدته على المشركين[٢]، وقد قدمنا حديث سعد بن أبي وقاص الدال على هذا في أول سورة الأنفال؛ لأن سعد بن أبي وقاص قُتل أخوه عمير بن أبي وقاص يوم بدر، قتله عمرو بن عبد ود العامري، ثم إن سعداً (رضي الله عنه) حمل [على][٣] المشركين، وقتل العاص بن هشام[٤]، وأخذ سيفه، وكان من أجود السيوف، فطلب النبي ﷺ أن ينفله إياه. وفي بعض روايات حديثه الثابتة أنه قال: ربما أعطاه النبي ﷺ لرجل لم يُبل بلائي. والنبي ﷺ منعه أولًا ثم أعطاه إياه آخراً، وقد ثبت في صحيح مسلم والبخاري أن أصحاب النبي ﷺ كانوا يأكلون جالسين في بعض مغازيهم، حتىٰ جاءهم أعرابي على بعير، فقيد بعيره وجلس يأكل معهم، ونظر إليهم حتىٰ اطلع على علاتهم وعوراتهم، وهو جاسوس للعدو من المشركين، ثم ذهب يشتد، فجلس على بعيره وأثاره، فسار بعيره سيراً حثيثاً، فكاد أن يفوت الصحابة، فجرىٰ عليه رجل بناقة فلم تدركه، فجرىٰ عليه سلمة بن الأكوع (رضي الله عنه) وكان من السابقين على أرجلهم، وقد ضرب له النبي ﷺ سهمين في غزوة (ذي قرد) كما هو معروف، فذهب سلمة يشتد في أثره حتىٰ جاوز الناقة، ثم كان عند ورك البعير، ثم تقدم فأخذ بخطامه وأناخه، واخترط سيفه وضرب الأعرابي على الرأس فقتله،

---

(١) البخاري في فرض الخمس، باب: ومن الدليل على أن الخمس لنوائب المسلمين. حديث رقم: (٣١٣٤) (٦/٢٣٧). وأخرجه في موضع آخر برقم: (٤٣٣٨).
ومسلم في الجهاد والسير، باب الأنفال. حديث رقم: (١٧٤٩) (٣/١٣٦٨).

(٢) انظر: الأضواء (٢/٣٨٦).

(٣) ما بين المعقوفين [ ] زيادة يقتضيها السياق.

(٤) مضى عند تفسير الآية الأولى من هذه السورة، وراجع التعليق عليه في الحاشية هناك.

فقال النبي ﷺ: «**من قتل الرجل؟**» قالوا: سلمة بن الأكوع. قال: «**له سلبه أجمع**»[١]. فنفله إياه لأنه أدركه وهو في غاية الخفّة والسرعة، أدركه على رجليه فنفله سلبه.

ومن أنواع التنفيل الجائزة[٢]: قول النبي ﷺ: «**من قتل قتيلاً له عليه بيّنة فله سلبه**»[٣]. وهذا قاله النبي ﷺ فثبت عنه في الصحيح يوم حنين. وذكر بعض العلماء أنه قاله يوم بدر أيضاً.

وكان مالك بن أنس (رحمه الله) يقول: ليس للإمام أن يقول هذا إلا بعد أن تنتهي المعركة، أما قبل انتهاء المعركة فلا يجوز للإمام أن يقول هذا؛ لأنه إن قال هذا قبل انتهاء المعركة أفسد نيات المجاهدين؛ لأن المجاهد يكون يقاتل الرجل ليأخذ سلبه فيكون يقاتل للدنيا لا لإعلاء كلمة الله، أما بعد أن تنتهي المعركة ويزول هذا المحذور فلا بأس أن يقول الإمام: من قتل قتيلًا فله سلبه. لأنه في ذلك الوقت لا محذور فيه من إفساد النية[٤]. وجماهير العلماء على أنّه لا مانع من أن يقول ذلك ابتداءً؛ لأن المسلمين وإن كان لهم رغبة في الغنيمة فكل من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله كما قاله ﷺ. وقد قال النبي ﷺ يوم حنين: «**من قتل قتيلاً فله سلبه**»[٥]. والذي قتل هذا القتيل يكون له سلبه.

واختلف العلماء: هل يكون له سلبه دون تنفيذ الإمام، أو لا يملك السلب إلا إذا نفذه له الإمام[٦]؟ قولان معروفان بين العلماء، يستدل قائل كل من القولين عليه بأدلة كثيرة، وقد كان أبو قتادة (رضي الله عنه) يوم حنين

(١) مسلم في الجهاد، باب استحقاق القاتل سلب القتيل. حديث رقم: (١٧٥٤) (٣/١٣٧٤).

(٢) انظر: الأضواء (٢/٣٨٧).

(٣) البخاري في فرض الخمس، باب «من لم يخمس الأسلاب...» حديث رقم: (٣١٤٢) (٦/٢٤٧). ومسلم في الجهاد والسير، باب استحقاق القاتل سلب القتيل. حديث رقم: (١٧٥١) (٣/١٣٧٠).

(٤) انظر: المدونة (٢/٣١)، الكافي لابن عبد البر ص٢١٥.

(٥) تقدم تخريجه قريباً.

(٦) انظر: القرطبي (٨/٥)، المغني (١٣/٧٠)، الأضواء (٢/٣٩٠).

رأى رجلًا من المشركين يريد أن يقتل رجلًا من المسلمين فجاءه من خلفه فضربه على حبل عاتقه بالسيف، قال: فرجع إلي فضمّني ضمّة شممت منها ريح الموت ثم أدركه الموت فأرسلني. ثم لما جلس النبي ﷺ بعد انتهاء المعركة وقال: «**من قتل قتيلاً فله سلبه**». قلت: من يشهد لي ـ بعد مرات ـ فقال رجل: صدق يا رسول الله سلبه عندي، أرضه منه. وقال له أبو بكر (رضي الله عنه): لا هاالله لا يعمد إلى أسد من أسود الله يقاتل عن الله ورسوله ويعطيك سلبه. فقال النبي ﷺ: «**صدق، أعطه سلبه**» قال أبو قتادة (رضي الله عنه): فاشتريت به مخرفاً ـ يعني حائطاً يُخْرف منه الثمار ـ وكان أول مال تأثلته في الإسلام[1]. هكذا قال أبو قتادة رضي الله عنه.

واعلموا أن بعض العلماء قال: إن النبي ﷺ إذا قال: «**من قتل قتيلاً فله سلبه**». هل يملك القاتل سلب القتيل بمجرّد قتله، أو لا بد أن ينفذه له الإمام؟ فقال بعض العلماء: يملكه؛ لأن ذلك هو مقتضى كلامه ﷺ.

وقال بعض العلماء: لا يملكه إلا بتنفيذ الإمام. واستدلوا لهذا بأدلة منها: ما ثبت أن أبا جهل ـ لعنه الله ـ يوم بدر ابتدره معاذ بن عمرو بن الجموح ومعاذ بن عفراء (رضي الله عنهما) فأطارا قدمه بنصف ساقه، ثم جاءا النبي ﷺ فقال كل واحد منهما: أنا قتلته. فقال: «**هل مسحتما سيفكما؟**» قالا: لا. فنظر في السيفين وقال: «**كلاكما قتله**»[2]. وقضى بسلبه لمعاذ بن عمرو بن الجموح. قالوا: لو لم يتوقف هذا على تنفيذ الإمام لكان معاذ بن عفراء شريكاً لمعاذ بن الجموح؛ لأن النبي ﷺ صرّح بأنهما قتلاه، في أدلة أُخرى غير هذا.

---

(١) البخاري في فرض الخمس، باب من لم يخمس الأسلاب. حديث رقم: (٣١٤٢) (٦/٢٤٧)، ومسلم في الجهاد، باب استحقاق القاتل سلب القتيل. حديث رقم: (١٧٥١) (٣/١٣٧٠).

(٢) البخاري في فرض الخُمس، باب «من لم يخمس الأسلاب...». حديث رقم: (١٣٤١) (٦/٢٤٦). وأخرجه في موضعين آخرين، انظر الحديثين (٣٩٦٤، ٣٩٨٨). ومسلم في الجهاد والسير، باب استحقاق القاتل سلب القتيل. حديث رقم: (١٧٥٢) (٣/١٣٧٠ ـ ١٣٧٢).

قال علماء الأصول: منشأ هذا الخلاف: خلاف العلماء في قول النبي ﷺ: «**من قتل قتيلاً فله سلبه**» هل يملكه دون تنفيذ الإمام أو لا بد من تنفيذ الإمام؟ منشأ الخلاف: هل قوله ﷺ: «**من قتل قتيلاً فله سلبه**» حكماً منه، أو فتوى[1]؟ فعلى أنه حكم يختص بمن قيل له ولا يعم، وعلى أنه فتوى يعم. وذكروا عن أبي طلحة (رضي الله عنه) أنه في يوم حنين قتل عشرين رجلاً. وفي بعض الروايات: واحداً وعشرين رجلاً، وأخذ أسلابهم كلهم[2]. وكان يقول في يوم حنين[3]:

أنـا أبـو طـلـحـة واسـمـي زيـد وكـل يـوم فـي سـلاحـي صـيـد

رضي الله عنه وأرضاه.

قال بعض العلماء: من قتل قتيلًا له سلبه مطلقاً.

وقال بعضهم: لا يكون له سلبه إلا بتنفيذ الإمام. وتوسط قوم فقالوا مذهباً ثالثاً، قالوا: إن كان السلب قليلًا استحقه دون تنفيذ الإمام، وإن كان كثيراً توقف على تنفيذ الإمام. واستدلوا لهذا بما جاء في رواية صحيحة في السنن وغيرها أن مددياً من حمير كان مع خالد بن الوليد يقاتل يوم مؤتة، وإذا رجل عظيم من الروم يقتل المسلمين، فجلس له المددي الحميري وراء صخرة حتى مضى عليه فعقر به فرسه وعلاه بالسيف فقتله وأخذ سلاحه. وكان سلاحه كله مذهّباً، وكان ثميناً جداً، فلما جاء خالد بن الوليد (رضي الله عنه) أرسل إليه وأخذه منه، وسمعها عوف بن مالك (رضي الله عنه) فقال لخالد: لأعرفنكها عند رسول الله ﷺ ثم لما جاء قصّ الخبر على رسول الله ﷺ، فقال: «**مَا لَكَ لا تعطيه سلبه؟ أعطه سلبه**». ثم لما قال ذلك قال له عوف بن مالك: يا خالد أما قلت لك إني مُعَرِّفكَها عند رسول الله؟ فسمعها ﷺ فأغضبته وقال: «**لا تتركون لي أصحابي؟ لا تعطه يا**

---

(١) انظر: الإحكام في تمييز الفتاوى عن الأحكام للقرافي ص١١٦ ـ ١١٩، الأضواء (٣٩٣/٢).

(٢) أحمد (١١٤/٣، ١٢٣، ١٩٠، ٢٧٩)، الدارمي (١٤٧/٢)، أبو داود، كتاب الجهاد، باب في السلب يُعطى القاتل. حديث رقم: (٢٧٠١) (٣٨٨/٧).

(٣) البيت في الاستيعاب لابن عبدالبر (١١٣/٤)، تاريخ دمشق (٣٩٧/١٩)، الإصابة (١١٣/٤).

خالد، لا تعطه يا خالد»[1]. قالوا: هذا يدل على أنه إن كان كثيراً لا يعطي؛ لأنه لما سأل خالداً قال: «**لِمَ لا تعطيه؟**» قال: استكثرته يا رسول الله؛ لأنه مالٌ كثيرٌ جداً؛ لأن سلاح الرجل فيه ذهب كثير وسلاحه كله مذهّب.

واختلف العلماء في حقيقة السلاح[2]، قال بعض العلماء: هو يقتصر على ما يأخذه لِلأْمَةِ الحرب، كالسيف والدرع والرمح ونحو ذلك. والثياب تدخل فيه إجماعاً.

أما إذا وُجد في هميانه أي: في مِنْطَقَتِه التي يُشدّ بها وسطه إذا وجدت فيها دنانير، أو دراهم، أو جواهر، فإنها ليست من سلبه إجماعاً.

واختلفوا في فرسه الذي يقاتل عليه هل هو من سلبه أو لا؟ فقال جماعة: هو من سلبه يستحقه القاتل. وقال قوم: لا. كما هو خلاف معروف بينهم.

واعلموا أن التحقيق أن الرجل الذي يقاتل على فرس أن له في الغنيمة ثلاثة أسهم: سهمان لفرسه وسهم للرجل، هذا هو التحقيق الذي لا شك فيه ـ إن شاء الله ـ وعليه جماهير العلماء، منهم الأئمة الثلاثة[3]، وهو ثابت في الصحيح ثبوتاً لا مطعن فيه. وخالف في هذا الجمهورَ الإمامُ أبو حنيفة (رحمه الله) وقال: إن له سهمين فقط: سهم للفرس، وسهم لصاحبه. والتحقيق أن له ثلاثة أسهم: سهمين للفرس، وسهم للراكب. وقد استدلّ الإمام أبو حنيفة (رحمه الله) بظاهر حديث جاء في ذلك، إلا أن غيره أصح منه وأصرح دلالة في محل النزاع.

واختلف العلماء في البراذين والهجن هل يقسم لها كما يقسم للخيل

---

(١) مسلم، كتاب الجهاد، باب استحقاق القاتل سلب القتيل. حديث رقم: (١٧٥٣) (١٣٧٣/٣).

(٢) انظر: القرطبي (٩/٨)، المغني (٧٢/١٣)، الأضواء (٣٩٧/٢).

(٣) انظر: القرطبي (١٤/٨ ـ ١٥)، المغني (٨٥/١٣)، الأضواء (٣٩٩/٢).

العِرَاب، أو لا يقسم لها[١]؟ فسئل عن هذا مالك بن أنس (رحمه الله) فقال: ما أرى أن الهجن والبراذين إلا هي من الخيل؛ لأن الله قال: ﴿وَٱلۡخَيۡلَ وَٱلۡبِغَالَ وَٱلۡحَمِيرَ لِتَرۡكَبُوهَا وَزِينَةٗ﴾ [النحل: الآية ٨] أترون أن الهجن من البغال؟ قالوا: لا. أترون أنها من الحمير؟ قالوا: لا. قال: هي من الخيل، فتتناولها النصوص الواردة في الخيل[٢].

وقال بعض العلماء في الهجين: والهجين: هو ما أحد أبويه من الخيل رديء من البراذين أبوه أو أمه، فإذا كانت أمّه من العِرَاب الحرائر وأبوه ليس كذلك فهو المعروف بالمُقْرِف[٣]، ومنه قول هند بنت النعمان بن بشير[٤]:

وما هندُ إلا مُهْرةٌ عربيةٌ ... سليلةُ أفراسٍ تجلَّلها بغْلُ
فإن ولَدتْ مُهْراً كريما فبالحَرَى ... وإن يكُ إقرافٌ فما أنْجَبَ الفحلُ

فالمقرف: هو الذي أمه من الخيل العِرَاب الجياد وأبوه ليس كذلك، ومن هذا المعنى قول جرير[٥]:

إِذَا آباؤُنا وأَبُوكَ عُدُّوا ... أَبَانَ المُقْرِفَات من العِرَابِ

فالحاصل أن الهجن والبراذين قال بعض العلماء: يقسم لها كما يقسم للخيل الجياد العِرَاب. وقال بعض العلماء: يقسم لها سهم واحد، نصف ما يقسم للخيل العراب الجياد. وقال بعض العلماء: إن كان لها غَنَاء يقرب من غَنَاء الخيل الجياد قُسِمَ لها مثل قَسْمِها وإلا فنصف قَسْمِها. وشذّ بعض

---

(١) انظر: الأوسط لابن المنذر (١١/١٦٠ ـ ١٦٣)، القرطبي (٨/١٦)، المغني (١٣/٨٦)، الأضواء (٢/٤٠١).

(٢) المدونة (٢/٣٢)، الكافي لابن عبد البر ص٢١٤.

(٣) انظر: المغني (١٣/٨٧)، الهُجْنَة تكون من قِبَل الأم، والإقراف من قِبَل الأب. كما في أدب الكاتب ص٤١، المصباح المنير (مادة: هجن) ص٢٤٣، فتح الباري (٦/٦٧).

(٤) البيتان في في المغني (١٣/٨٧)، أدب الكاتب لابن قتيبة ص٤١، الاقتضاب شرح أدب الكتاب للبطليوسي (١/١٦٥)، (٢/٤٣٩)، الأضواء (٢/٤٠٣). ولفظ البيت الثاني:
فَإِنْ نُتِجَتْ مُهراً كريماً فَبِالحَرَى ... وإنْ يكُ إقرافٌ فَمِنْ قِبَلِ الفحلِ

(٥) مضى عند تفسير الآية (٤٦) من سورة الأنعام.

العلماء فقال: لا يُقْسَم لها شيء؛ لأنه حيوان لا يقوم مقام الخيل فأشبه الحمير والبغال. وقد كان رجل من حمير من بني وادعة من بطون حِمْيَر أميراً على جيش فسبق الخيل الجياد وتأخر البراذين والهجن فقيل له: اقسم للبراذين والهجن فلم يعطها إلا نصف ما أعطى للخيل الجياد وقال: لا يمكنني أبداً أن نجعل ما لم يدرك كالذي يدرك. فسمعها عمر بن الخطاب فاستحسنها جداً، وقال: هبلت الوادعي أمه، لقد ذكَّرنيها[١]. وكان الشاعر الحميري يفتخر بمقالة الوادعي الحميري هذه فيقول[٢]:

ومنَّا الذي قد سنّ في الخيل سنّة   وكانت سواء قبل ذاك سهامها

أما إذا كانت عنده خيول كثيرة[٣] فبعض العلماء يقول: لا يأخذ إلا نصيب فرس واحد. وهذا به قال جماعة من العلماء؛ لأنه لا يركب إلا على واحد. وقال جماعة من العلماء: يعطى خمسة أسهم، نصيب فرسين فقط، أما الفرسان فلهما أربعة أسهم، والسهم الخامس له، ولا يزاد على ذلك[٤]. ولا خلاف بين العلماء أنه لا يعطى أكثر من نصيب فرسين ألبتّة، ولو كان عنده خيل كثيرة. ومن قال: يعطى نصيب فرسين قال: لأنه قد يحتاج إلى فرسين ولا يحتاج إلى الثالث غالباً؛ لأن الفرس إذا طال ركوبه قد يضعفه ذلك عن الكرِ والفر، فيكون عنده فرس آخر جنيب فيه قوة ونشاط يزاول به في الميدان؛ ولذا قال بعض العلماء: يعطى نصيب فرسين ولا يزاد عليهما، ولم يقل أحد: إنه يعطى أكثر من نصيب فرسين.

فإن كان مقاتلًا على بعير[٥] فقال بعض العلماء: ليس للإبل نصيب ألبتّة[٦]. وعليه جماهير العلماء. وذهب بعض العلماء إلى أن البعير إذا لم

---

(١) سنن سعيد بن منصور (٢/٢٨٠)، والشافعي في الأم (٧/٣٣٧)، والبيهقي (٦/٣٢٨)، وذكره الحافظ في الفتح (٦/٦٧).

(٢) البيت في فتح الباري (٦/٦٧)، الأضواء (٢/٤٠٢).

(٣) انظر: الأوسط لابن المنذر (١١/١٥٧ ـ ١٥٩)، الأضواء (٢/٤٠٠).

(٤) انظر: الأوسط لابن المنذر (١١/١٥٧ ـ ١٥٩، القرطبي (٨/١٥ ـ ١٦)، المغني (١٣/٨٩).

(٥) انظر: الأضواء (٢/٤٠٣).

(٦) وحكى عليه ابن المنذر الإجماع، كما في الأوسط (١١/١٦٢).

يجد غيره كان له نصيب نصف نصيب سهم الفرس، وهذا رواية عن الإمام أحمد[١]، ومن قال به قليل، واستدل قائل هذا القول بأن الله لما ذكر الموجب الذي استحقوا به الغنيمة ذكر منه الرِّكاب مع الخيل، والرِّكاب: هي الإبل، قال: ﴿فَمَآ أَوۡجَفۡتُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ خَيۡلٖ وَلَا رِكَابٖ﴾ [الحشر: الآية ٦] وله وجه من النظر، إلا أن جماهير العلماء أن الإبل لا يقسم لها، وقد كان عندهم يوم بدر سبعون بعيراً فلم يقسموا لها، ولم تخل غزواته من الإبل، ولم يقل أحد إنه ﷺ قسم لبعير شيئاً.

أما إذا كان يقاتل على الفيلة[٢] كما كانت الأعاجم تقاتل فلم يختلف اثنان من العلماء أن الفيل لا يقسم له شيء إذا قاتل عليه صاحبه. قالوا: ليس كالبعير؛ لأن البعير حيوان يُسَابَقُ عليه ويجوز المسابقة عليه بالسبق، وهو إعطاء العوض لمن غلب، كما في حديث: «**لا سبق إلا في خفٍ أو نصلٍ أو حافرٍ**»[٣]. أما الفيل فلم يقل أحد من العلماء: إنه يستحق نصيباً إذا قوتل عليه، أما كونه يسابق عليه فقد قاله بعض العلماء، وهو مبني، على الخلاف في قاعدة أصولية معروفة، وهي: هل إذا جاءت عن الله (جل وعلا) أو عن رسوله ﷺ نصوص عامة هل تدخل فيها الصور النادرة أو لا تدخل[٤]؟ قال بعض العلماء: تدخل الصور النادرة. وقال بعض العلماء: لا تدخل الصور النادرة. وهذه القاعدة الأصولية تحتها فروع اختلف فيها العلماء، من هذه الفروع: من خرج منه المني بغير لذة، كالذي ينزل في ماء حار فينزل منه المني، أو تلدغه عقرب في ذكره فينزل منه المني، أو تهزه دابة فينزل منه

---

(١) انظر: المغني (١٣/٨٩).

(٢) انظر: الأضواء (٢/٤٠٤).

(٣) أخرجه أحمد (٢/٢٥٦، ٣٥٨، ٣٨٥، ٤٢٥، ٤٧٤) وأبو داود في الجهاد، باب في السبق. حديث رقم: (٢٥٥٧) (٧/٢٤١)، والترمذي في الجهاد، باب ما جاء في الرهان والسبق. حديث رقم (١٧٠٠) (٤/٢٠٥)، والنسائي في الكبرى، كتاب الخيل، باب السبق. حديث رقم: (٤٤٢٦) (٣/٤١)، وابن ماجه في الجهاد، باب السبق والرهان، حديث رقم: (٢٨٧٨) (٢/٩٦٠).

(٤) انظر: البحر المحيط للزركشي (٣/٥٥)، نثر الورود (١/٢٤٥).

المني، فنزول المني من غير لذة كبرى صورة نادرة، فعلى أن الصور النادرة تدخل في عمومات النصوص يدخل في عموم قوله: «**إنما الماء من الماء**»[١] فيجب عليه الغُسل، وعلى أنها لا تدخل في النصوص فلا يجب عليه الغسل. قالوا: ومن فروع هذه القاعدة المسابقة بِسَبَقٍ على الفيل؛ لأن الفيل ذو خفٍ فَرِجْل الفيل كَرِجْل البعير، فهو من ذوات الخفاف. والفيل صورة نادرة قد لا تخطر في ذهن المتكلم، فعلى أن الصور النادرة تدخل في عمومات النصوص تجوز المسابقة على الفيل، وعلى هذا القول لا يبعد أن يكون فيه مثل القول الذي في الإبل، وعلى أن الصور النادرة لا تدخل في النصوص لا تجوز المسابقة على الفيل. هذا من حكم الغنائم.

وقد ذكرنا الآن أن الغنيمة إن كانت أرضاً فللإمام فيها ثلاثة أقوال[٢]، وإن كانت غير أرض فإنها تقسم على التحقيق بين المجاهدين، وأن التحقيق أن للإمام أن ينفّل منها في الصور التي ذكرنا[٣] كتنفيله الربع في البدأة، والثلث في العودة، وتنفيل بعض الرجال لشدة شكيمته وغَنَائه، وتنفيله من أَخَذَ السَّلَب كما قال: «**من قتل قتيلاً فله سلبه**»[٤]. واختلاف العلماء فيه هل هو فتوى فيعم، أو حكم فيخص؟. ولأجل هذا اختلفوا في قول النبي ﷺ لهند بنت عتبة بن ربيعة لما قالت له: أبو سفيان رجل يمسك ولا يعطيني ما يكفيني وولدي. فقال: «**خذي ما يكفيك وولدك بالمعروف**»[٥]. فعلى أنه فتوى فهو يعم جميع النساء[٦]، فتكون كل امرأة بخل عليها زوجها بالإنفاق اللازم جاز لها أخذه بغير إذنه. أو هو حكم فيكون خاصاً كقضية: «**من قتل قتيلاً فله سلبه**».

---

(١) مسلم في الحيض، باب إنما الماء من الماء. حديث رقم: (٣٤٣) (١/٢٦٩).

(٢) انظر: الأضواء (٢/٣٦٧).

(٣) انظر: الأضواء (٢/٣٨٥).

(٤) تقدم تخريجه قريباً.

(٥) البخاري في البيوع، باب «من أجرى أمر الأمصار على ما يتعارفون بينهم في البيوع...» حديث رقم: (٢٢١١) (٤/٤٠٥). وأخرجه في مواضع أخرى، انظر الأحاديث: (٢٤٦٠، ٣٨٢٥، ٥٣٥٩، ٥٣٦٤، ٥٣٧٠، ٦٦٤١، ٧١٦١، ٧١٨٠). ومسلم في الأقضية، باب قضية هند. حديث رقم: (١٧١٤) (٣/١٣٣٨).

(٦) انظر في هذه المسألة: الإحكام في تمييز الفتاوى عن الأحكام للقرافي ص١١٢ ـ ١١٤.

واعلم أن من أحكام الغنيمة: حرمة الغلول[١]، والغلول في الشرع[٢]: هو أن يسرق الإنسان من الغنيمة، فإذا سرق الإنسان من الغنيمة قبل أن تقسم، أو زنى ببعض المسبيات في الغنيمة قبل أن تقسم فجماهير العلماء ـ منهم الأئمة الثلاثة ـ أنه لا يجلد حد الزنى، وأنه لا تُقطع يده في السرقة[٣]؛ لأن له شبهة في الغنيمة؛ لأنه من المستحقين لها وهو مشارك فيها. ومذهب مالك بن أنس رحمه الله في هذه المسألة مشكل غاية الإشكال؛ لأن مالكاً (رحمه الله) يرى أنه إن سرق من الغنيمة قبل القسم، أو وطىء جارية من المغنم قبل القسم أنه يُحدُّ حدّ السرقة وحد الزنى[٤]، مع أنه يرى أنه لو مات في ذلك الوقت لورث عنه وارثه نصيبه من الغنيمة! كيف يكون فيه نصيب يُورث عنه ولا يكون شبهة تدرأ عنه الحد؟ ففي هذا المذهب إشكال، وإن قال به هذا الإمام العظيم الجليل المعروف.

واعلموا أن الوقت الذي يستحق فيه الغانم نصيبه من المغنم اختلف فيه العلماء[٥]: فقال بعض العلماء: إذا أخذوا في الدرب، والدروب هي: الطرق الموصلة إلى بلاد الكفار من العجم ونحوهم إذا أخذوا فيها فكل من مات منهم له نصيبه من الغنيمة، ولو مات قبل أن تُحاز الغنيمة. وهذا قائله قليل وليس بوجيه.

وقال بعض العلماء: لا يورث عنه نصيبه ويستحقه حتى يحوز المسلمون الغنيمة، ويخرجون بها من ديار الحرب إلى بلاد الإسلام، فعند ذلك الوقت يستقر مُلْكُهم لها، ويورث عنه نصيبه، ويُروى نحو هذا عن أبي حنيفة رحمه الله.

---

(١) انظر: القرطبي (٤/٢٥٨)، الأضواء (٢/٤٠٧).
(٢) انظر: القرطبي (٨/٢٥٦)، القاموس الفقهي ص٢٧٧، الأضواء (٢/٤٠٤).
(٣) انظر: القرطبي (٤/٢٦١)، المغني (١٣/١٩٥، ١٩٦)، الأضواء (٢/٤٠٧).
(٤) انظر: الكافي لابن عبدالبر ص٢١٢، الأضواء (٢/٤٠٧).
(٥) انظر: المغني (١٣/٩١)، الأضواء (٢/٤٠٨).

وأظهر الأقوال: أنه إن مات بعد أن حاز المسلمون الغنيمة وأخذوها من الكفار يورث نصيبه عنه، وإن مات قبل أن تُحاز لم يورث عنه شيء[١]؛ لأنه مات قبل أن يحصل شيء يكون ملكاً له حتى يورث عنه، هذا هو الأظهر. هذه أحكام من أحكام الغنيمة.

واعلموا أن العلماء اختلفوا في الغال هل يُحرق رحله أو لا[٢]؟ فقد جاءت عن النبي ﷺ أحاديث تدل على أن الغال ـ السارق من الغنيمة ـ يُحرق رحله ومتاعه، وهذا جاء عن النبي ﷺ، والخلفاء وغيرهم ربما حرقوا متاع الغَالّ وربما تركوا حرقه. وأظهر الأقوال في هذه المسألة أنها من التعزيرات المالية الموكولة إلى نظر الإمام إن رأى المصلحة في حرق متاعه حرقه وله ذلك، وإن رأى إبقاءه أبقاه، وإن كان فيه مصحف فإنه لا يحرقه، وقد غلّ رجل في بعض الغزوات فيها بعض المسلمين فحرقوا متاعه ووجدوا فيه مصحفاً فباعوا المصحف وتصدقوا بثمنه[٣] كذا قال بعضهم والله أعلم.

وقوله تعالى في هذه الآية: ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾ [الأنفال: الآية ٤١] قال بعض العلماء[٤]: الخمس ستة أنصباء: نصيب لله، ونصيب للرسول ﷺ، ونصيب لذي القرابة، ونصيب لليتامى، ونصيب للمساكين، ونصيب لابن السبيل. ومن قال: إنها ستة أنصباء، لم أعلم أحداً اشتهر عنه هذا القول إلا أبا العالية (رحمه الله) فإنه قال: الخمس يُجعل ستة أنصباء، قال: ونصيب الله هو أنه إذا جاء المال يأخذ الإمام ويملأ يده منه ويجعلها في رِتَاج[٥] الكعبة.

---

(١) انظر: المغني (٩١/١٣).

(٢) انظر: القرطبي (٢٥٩/٤ ـ ٢٦٠)، المغني (١٦٨/١٣ ـ ١٧٢) الأضواء (٤٠٤/٢).

(٣) أخرجه سعيد بن منصور (٢٦٩/٢)، والدارمي (١٤٩/٢)، وأبو داود في الجهاد، باب في توبة الغال. حديث رقم: (٢٦٩٦) (٣٨١/٧)، والترمذي في الحدود، باب ما جاء في الغال ما يصنع به. حديث رقم: (١٤٦١) (٦١/٤).

(٤) انظر: ابن جرير (٥٥٠/١٣)، القرطبي (١٠/٨)، الأضواء (٣٥٧/٢).

(٥) قال في المصباح المنير: «والرِّتاج: بالكسر الباب العظيم، والباب المغلق أيضاً. وجعل فلان ماله في رتاج الكعبة، أي: نذره هدياً. وليس المراد نفس الباب» ا.هـ (المصباح المنير: مادة: رتج) ص٨٣.

فعنده: نصيب الله يُصرف في مصالح الكعبة. وهذا القول لا يخفى ضعفه؛ لأنه لا دليل عليه. والتحقيق ـ إن شاء الله ـ الذي عليه جماهير العلماء: أن نصيب الله ونصيب الرسول ﷺ واحد، وأن اسم الله ذُكر للاستفتاح والتعظيم لشأنه (جل وعلا)[1]؛ لأن كل شيء له جل وعلا ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ﴾ [النمل: الآية ٩١] فنصيب الله هو نصيب الرسول ﷺ. والتحقيق: أن نصيب رسول الله ﷺ من الخمس كان يردُّه على مصالح المسلمين لا يأخذ منه شيئاً؛ لأنه كان يأخذ خلته الضرورية من فيء بني النضير، وربما أخذ منه بعضاً من فيء قريظة، وأن نصيبه إنما يجعله في مصالح المسلمين، كما جاء عنه ﷺ في حديث ثابت رواه بعض أصحاب السنن والإمام أحمد وغيرهم أنه (صلوات الله وسلامه عليه) قال: «**ما لي مما أفاء الله عليكم إلا الخُمس، والخُمس مردود عليكم**»[2]. فصرّح بهذا الحديث بأن الخمس مردود عليهم.

واختلف العلماء في نصيب النبي ﷺ بعد موته[3]: فجماهير العلماء على أن نصيبه ثابت بعد موته ولا يسقط بموته، وكذلك نصيب قرابته، وأن الإمام بعده يصرفه في مصالح المسلمين كما كان يصرفه رسول الله ﷺ فيها، وكذلك كان يفعل أبو بكر وعمر يصرفان نصيبه ﷺ في مصالح المسلمين العامة من الكراع والسلاح وغيره كما كان ﷺ يفعله. وخالف في

---

(١) انظر: ابن جرير (١٣/٥٤٨)، الأضواء (٢/٣٥٨).

(٢) روى هذا الحديث جماعة من الصحابة (رضي الله عنهم)، منهم:

١ ـ عبد الله بن عمرو. عند أبي داود في الجهاد، باب في فداء الأسير بالمال. حديث رقم: (٢٦٧٧) (٧/٣٥٩)، والنسائي في قسم الفيء، حديث رقم: (٤١٣٩) (٧/١٣١).

٢ ـ عمرو بن عبسة. عند أبي داود في الجهاد، باب في الإمام يستأثر بشيء من الفيء لنفسه. حديث رقم: (٢٧٣٨) (٧/٤٣٤).

٣ ـ عبادة بن الصامت. عند مالك في الموطأ. حديث رقم: (٩٨٥) ص٣٠٤، والنسائي في قسم الفيء حديث رقم: (٤١٣٨) (٧/١٣١).

(٣) انظر: ابن جرير (١٣/٥٥٦) القرطبي (٨/١١)، الأضواء (٢/٣٦٠).

هذا الإمام أبو حنيفة (رحمه الله) فقال: بعد موته ﷺ يسقط نصيبه ونصيب قرابته، فما يبقى إلا ثلاثة أنصباء، وهي نصيب اليتامى والمساكين وابن السبيل. وجماهير العلماء على خلاف هذا.

وقوله: ﴿وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [الأنفال: الآية ٤١] اختلف العلماء في المراد بـ(ذي القربى)(١) فقال بعضهم: بنو هاشم. وقال بعضهم: قريش. والتحقيق الذي لا ينبغي العدول عنه: أن المراد بـ(ذي القربى) بنو هاشم وبنو المطلب خاصة، وقد ثبت هذا في الصحيح عن النبي ﷺ فلا ينبغي العدول عنه. هذا هو المذهب الحق الذي لا شك فيه، وهو مذهب الإمام الشافعي وأحمد (رحمهما الله)، ويُروى عن أبي حنيفة. أما ما ذهب إليه مالك من أنهم خصوص بني هاشم. وما قاله بعض القرشيين من أنهم قريش كلهم فهو خلاف التحقيق. والدليل على هذا القول: هو ما ثبت في صحيح البخاري وغيره أن النبي ﷺ لما قسم أموال خيبر وأخرج خُمسها أعطى نصيب القرابة من خُمس خيبر لخصوص بني هاشم وبني المطلب، ولم يعط لأخوانهم الآخرين. أعني بني عبد شمس وبني نوفل، فجاء عثمان بن عفّان وهو من بني عبد شمس، وجبير بن مطعم وهو من بني نوفل، فقالوا: يا رسول الله ﷺ أعطيت إخواننا من بني المطلب ونحن وهم بالنسبة إليك سواء، فلِمَ تعطهم وتمنعنا؟ فأعطنا كما أعطيتهم. فقال ﷺ: «**إنّا وبنو المطلب شيء واحد**». وفي بعض رواياته: «**لم نفترق في جاهليةٍ ولا إسلام**»(٢). لأن هؤلاء الأربعة إخوة؛ لأن عبد مناف أولاده أربعة: وهم هاشم جدّ النبيﷺ، والمطلّب، وعبد شمس، ونوفل(٣). أما الثلاثة الأوّلون منهم أشقّاء، وأمهم عاتكة بنت مرة، إحدى عواتك النبي ﷺ؛ لأن بعض أصحاب المغازي والأخباريين

---

(١) انظر: ابن جرير (٥٥٣/١٣) القرطبي (١٢/٨)، الأضواء (٣٦١/٢).

(٢) البخاري في فرض الخمس، باب من الدليل على أن الخمس للإمام. حديث رقم: (٣١٤٠) (٢٤٤/٦). وأخرجه في موضعين آخرين، انظر الحديثين: (٣٥٠٢، ٤٢٢٩).

(٣) انظر: القرطبي (١٢/٨)، الأضواء (٣٦٢/٢).

ذكروا عنه ﷺ أنه قال في بعض مغازيه: «**أنا ابن العواتك من سليم**»[١].
وعواتك سليم هذه التي انتسب إليها النبي ﷺ ثلاث عواتك معروفة[٢]:
الكبرى منها عمّة الوسطى، والوسطىٰ عمّة الصغرى كما هو معروف.
وسُليم بن منصور من قبائل قيس عيلان بن مضر، وسليم أخو هوازن.
والعواتك هذه: صغراهن: عاتكة بنت الأوقص بن مرّة بن هلال، وعمتها: عاتكة بنت مرة، وعمّة هذه: عاتكة بنت هلال. أما الصغرى منهما ـ وهي عاتكة بنت الأوقص ـ فهي والدة وهب والد آمنة بنت وهب أم النبي ﷺ، فهي جدّته من قبيل والد أُمّه، وأما عمتها وهي: عاتكة بنت مرة: فهي أم هاشم جده ﷺ وأخويه الشقيقين: المطلب وعبد شمس، أما أخوهما نوفل فهو ليس بشقيقهما، وأمه تُسمى واقدة بنت أبي عدي، واسم أبي عدي: نوفل. سمّت عليه ولدها نوفل هذا.
والحاصل أن النبي ﷺ لما عاداه المشركون، وقاطعوا بني هاشم، واضطروهم إلى أن يرحلوا إلى الشِّعْب كان بنو المطّلب معهم في كل بلية، ولم يفارقوهم في شيء، وكان إخوانهم الآخرين بني عبد شمس وبني نوفل كانوا معادين لهم مع قريش، ولم ينصروهم عليهم، وكان أبو طالب يقول لهم في لاميته المشهورة[٣] ـ:

جَزَى اللّهُ عَنَّا عبد شمسٍ ونوفَلا ... عُقُوبَةَ شرٍ عاجلاً غير آجلِ
بميزان قسطٍ لا يخيسُ شعيرةً ... له شاهدٌ من نفسه غيرُ عائلِ
لقد سفهتْ أحلامُ قومٍ تبدَّلوا ... بني خَلَفٍ قيضاً بنا والغياطلِ
ونحن الصَّميمُ من ذُؤَابَةِ هاشم ... وآلِ قصي في الخطوبِ الأوائلِ

---

(١) أخرجه سعيد بن منصور في سننه (٢٨٤٠، ٢٨٤١)، والطبراني في الكبير (١٦٨/٧ ـ ١٦٩)، والبيهقي في الدلائل (١٣٥/٥، ١٣٦)، وابن عساكر (تهذيب تاريخ دمشق (٢٨٩/١)، والعلائي في جامع التحصيل ص٢٣٤، وذكره الهيثمي في المجمع (٢١٩/٨) وقال: «رجاله رجال الصحيح» ا.هـ، وابن كثير في تاريخه (٣٢٨/٤). وهو في الكنز (٣١٨٧٤، ٣٥٥٠٤) والسلسلة الصحيحة (١٥٦٩).

(٢) انظر: تهذيب تاريخ دمشق (٢٨٩/١) الأضواء (٣٦٢/٢).

(٣) القصيدة في البداية والنهاية (٥٣/٣ ـ ٥٧)، الأضواء (٣٦٣/٢).

فعرف النبي ﷺ لبني المطلب انسجامهم معهم في كل البلايا وصبرهم عليهم في الشدائد فجعلهم من القرابة، وأعطاهم من خُمس خيبر سهم ذي القرابة، ولم يعط إخوانهم الآخرين، أعني بني عبد شمس وبني نوفل شيئاً. وهذا هو التحقيق في ذي القرابة.

واختلف العلماء في ذي القرابة هل يُفضل ذكرهم على أُنثاهم[١]؟ فذهب الشافعي وأحمد أنهم يُعْطون للذكر مثل حظ الأنثيين، قالوا: نالوه بالنبي ﷺ، وهم عصبته، والمعروف أن المال المستحق للعصبة يكون فيه الذكر له حظ الأنثيين.

وقال بعض العلماء: ذكرهم وأنثاهم سواء. وهذا أقربها؛ لأن تفضيل الذكر على الأنثى يحتاج إلى دليل، ولم يرو أحد أنه فضّل ذكرهم على أُنثاهم. ولا يشترط فيهم على التحقيق الفقر[٢]، فيعطى بنو هاشم والمطلب غنيّهم وفقيرهم.

أما نصيب اليتامى والمساكين فلا يعطى إلا لفقرائهم، فلا يُعطي يتيمٌ غنيٌ ولا مسكين غني.

واليتيم من بني آدم: هو من مات أبوه[٣]. وغلط قوم فقالوا: اليتيم من الآدميين: من مات أبوه وأمه. قالوا: قال مجنون ليلى[٤]:

إلى الله أشكو فقد ليلى كما شكا إلـى الله فـقـد الـوالـديـن يـتـيـم

فسمّاه يتيماً بفقد الوالدين. والصواب: فقد الأب وحده يكفي في يتمه.

وابن السبيل: هو المنقطع عن بلاده. والسبيل: الطريق. وإنما قال له: ابن السبيل كأنه يقول: ولد الطريق. وتسميته ولد الطريق فيه للعلماء وجهان:

---

(١) انظر: القرطبي (١٢/٨).

(٢) انظر: السابق.

(٣) تقدم عند تفسير الآية (١٥٢) من سورة الأنعام.

(٤) البيت في ديوانه ص١٨٨.

أحدهما: أنه كثر سلوكه لها، والعرب إذا كثرت ملازمة الشيء للشيء قالوا ابنه. ومنه قول غيلان ذي الرمة[١]:

وردتُ اعتِسَافاً والثُّريا كأنَّها على قمةِ الرأسِ ابن ماءٍ مُحَلِّقِ

فسمى طير الماء الملازم له: ابن الماء، فلما كان المسافر ملازماً للطريق قيل له: ابن الطريق.

وقال بعض العلماء: كأن الفلاة تمخضت عنه كما تتمخّض النتوج عن ولدها فرمتنا به كما ترمي الحامل بما في بطنها. وهذا المعنى أوضحه مسلم بن الوليد الأنصاري صريع الغواني إيضاحاً كاملًا ـ وإن كان الشعر هنا لا يصلح شاهداً لتأخر زمنه ولكن يصلح مثالًا للإيضاح ـ فإنه قال في رجل يزعم أن بيداء ـ وهو الفلاة الواسعة ـ ولدته وتمخّضت عنه وصار ابنها كما تتمخّض النتوج عن ولدها قال[٢]:

تمخَّضتْ عنه تِمّاً بعد مَحْمله شهرينِ بَيْداءُ لم تُضرب ولم تَلدِ

ألقتْه كالنَّصْلِ معطوفاً على هِمَم يعمدن منتجعَاتٍ خيرَ مُعتمِدِ

وابن السبيل: هو المحتاج الآن، وهو منقطع عن بلده، ولو كان غنياً في بلده، فيعطى من الخمس ما يوصله إلى بلده حتى يرجع إلى محله. هذا معنى: ﴿وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [الأنفال: الآية ٤١].

١/٥ / ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾ إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ۚ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَٰدِ ۙ وَلَٰكِن لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ

(١) البيت في تاريخ دمشق (٢٥٢/٢٤).

(٢) البيت في ديوانه ص٧١، وفي شرحه للدهان ص٨٤.

﴿وَلَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذۡ يُرِيكُمُوهُمۡ إِذِ ٱلۡتَقَيۡتُمۡ فِيٓ أَعۡيُنِكُمۡ قَلِيلٗا وَيُقَلِّلُكُمۡ فِيٓ أَعۡيُنِهِمۡ لِيَقۡضِيَ ٱللَّهُ أَمۡرٗا كَانَ مَفۡعُولٗاۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ﴿٤٤﴾﴾ [الأنفال: الآيات ٤١ ـ ٤٤].

يقول الله جل وعلا: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا يَوۡمَ ٱلۡفُرۡقَانِ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾﴾ [الأنفال: الآية ٤١] تكلمنا بالأمس على جمل من الأحكام الداخلة تحت هذه الآية من أحكام المغانم، ومن جملة ما ذكرنا: أن العلماء اختلفوا في خُمس الغنيمة، فقال بعضهم: يُجعل ستة أقسام، قسم لله، وقسم للرسول ﷺ، وقسم لذي القربى، واليتامى، والمساكين، وابن السبيل. وكان أبو العالية (رحمه الله) يقول: إن قسم الله (جل وعلا) يُجعل للكعبة. وزعم أن النبي ﷺ كان يضرب بيده في الخمس فيأخذ منه ويجعله للكعبة، وأن هذا هو نصيب الله[(١)]. وأكثر العلماء على أن نصيب الله والرسول ﷺ واحد، وأن اسم الله إنما ذكر تعظيماً وإجلالاً واستفتاحاً للكلام بذكر اسمه؛ لأن كل شيء كائناً ما كان فهو له ـ جل وعلا ـ ونصيب الرسول ﷺ كان يصرفه في مصالح المسلمين كما دل عليه حديث: «**ما لي مما أفاء الله عليكم إلا الخُمس، والخُمس مردود عليكم**»[(٢)].

وقد قدّمنا أن أصح الأقوال: في (ذي القربى) أنهم بنو هاشم وبنو المطلب، وأن النبي ﷺ بيّن أنهم هم المرادون بآية الأنفال هذه؛ لأنه لما خَمَّس خيبر أَعطى خُمس الخمس لبني هاشم وبني المطلب باسم أنه سهم ذي القربى. وهذا ثابت عن النبي ﷺ في صحيح البخاري وغيره؛ لأن البخاري (رحمه الله) أخرج الحديث هذا في صحيحه في مواضع متعددة: جاء عثمان بن عفان، وجبير بن مطعم إلى النبي ﷺ لما أعطى بني هاشم وبني المطلّب خمس ذي القربى من غنائم خيبر، قال العبشميون والنوفليون: نحن

---

(١) مضى قريباً.

(٢) مضى قريباً.

من رسول الله ﷺ قرابتنا مثل قرابة بني المطلب، فجاء عثمان وهو من بني عبد شمس؛ لأن أمير المؤمنين عثمان بن عفان (رضي الله عنه) هو ابن عفّان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس، وعبد شمس أخو المطلب. وهاشم، وجبير بن مطعم هو جبير بن مطعم بن عدي بن نوفل، ونوفل هذا أخو هاشم والمطلب، فجاء جبير وعثمان يطلبون النبي ﷺ أن يسوي بني نوفل وبني عبد شمس ببني المطلب، فأبى النبي ﷺ وبيّن أن بني المطلب وبني هاشم هم المرادون بالقرابة، وأنهم هم المستحقون خُمس خُمس الغنيمة. وهذا ثابت في الصحيح عن النبي ﷺ[1] فلا ينبغي الخلاف فيه. وإن كانت جماعة من العلماء منهم مالك وأصحابه قالوا: أن ذي القربى أنهم الهاشميون. وجماعة قالوا: إنهم قريش كلهم. فأصح الأقوال وأثبتها دليلًا أن المراد بذي القربى: بنو هاشم وبنو المطلب ابني عبد مناف دون إخوتهم الآخرين من بني عبد شمس وبني نوفل، فهذا هو الصواب ـ إن شاء الله ـ؛ لأنه قد ثبت عن النبي ﷺ أنه فعله مبيّناً به معنى هذه الآية الكريمة.

وقد ذكرنا أن العلماء اختلفوا في ذي القربى، فجمهور العلماء على أن نصيبهم باق، وأنه لم يسقط بموته ﷺ خلافاً لأبي حنيفة. وقد قدّمنا أن أكثر العلماء على أنه يعطى منه غنيّهم وفقيرهم ولا يختص بفقرائهم، وأن بعض العلماء قال: يُفضّل ذكرهم على أنثاهم كالميراث. وبعضهم قال: يُسوّى فيه الذكر والأنثى.

وأن المراد بنصيب اليتامى: قال بعض العلماء: يجعل خُمُس الخُمس لسد خلّات اليتامى الفقراء الذين لم يترك لهم آباؤهم مالًا.

والمساكين: جمع مسكين، والمسكين إذا أُطلق وحده ـ لم يذكر معه الفقير ـ تناول الفقير. وعلماء التفسير يقولون: المسكين والفقير إذا اجتمعا افترقا، وإذا افترقا اجتمعا. يعني: إن ذُكرا معاً مجتمعين افترق حكمها فكان أحدهما أشد فقراً من الآخر، وإن افترقا ـ بأن ذكر المساكين دون الفقراء، أو الفقراء دون المساكين ـ اجتمعا. أي: شمل المسكينَ حكمُ الفقير،

---

(١) تقدم تخريجه قريباً.

والفقيرَ حكمُ المسكين[(١)]. ومعلوم اختلاف العلماء في الفقير والمسكين أيهما أحوج[(٢)]، فذهب بعض العلماء، وهو رأي مالك بن أنس وطائفة من العلماء إلى أن المسكين أشد حاجة. واستدلوا بأن الله قال: ﴿أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾﴾ [البلد: الآيات ١٤ ـ ١٦] فوصف المسكين بأنه (ذو متربة) ومعنى (ذو متربة): لاصق بالتراب ليس له شيء غير التراب، وأنه (مِفْعِيل) من السكنى؛ لأن يده سكنت عن التصرف، وجوارحه عن النشاط من الجوع والفاقة.

وقال مالك: إن العرب تطلق الفقير على من عنده مال لا يكفيه. واستدل بقول راعي نمير وهو عربي فصيح[(٣)]:

أما الفقيرُ الذي كانتْ حَلُوبتُه وَفْقَ العِيَالِ فلم يُترك له سَبَدُ

فسمّاه فقيراً وعنده حلوبة قدر عياله.

وقال جماعة آخرون من العلماء: إن الفقير أشد حاجة، واستدلوا بأن الفقير كأن الفاقة قصمت فقارته لشدتها. قالوا: وقد سمى الله قوماً مساكين وعندهم سفينة عاملة في البحر في قوله: ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ﴾ [الكهف: الآية ٧٩] فسماهم مساكين مع أن عندهم سفينة عاملة بالإيجار، هكذا قال بعض العلماء.

وابن السبيل معناه: ولد الطريق. يُعطى من خُمس الخُمس ما يبلغه أهله. وابن السبيل مصرف محتاج، ولو كان غنياً في محله؛ لأن ماله في محله الذي هو متغرّب عنه لا يدفع فقره في حالته الراهنة في حال كونه متقطعاً في سبيله.

وهذا معنى قوله: ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ﴾ [الأنفال: الآية ٤١] هذه الآية

---

(١)(٢) انظر: ابن جرير (١٤/٣٠٥)، الفروق اللغوية ص١٤٥، القرطبي (٨/١٦٨)، ابن كثير (٢/٣٦٤).

(٣) البيت للراعي النميري، وهو في ديوانه ص٩٠، القرطبي (٨/١٦٩). وقوله: «سبد»، أي: وبر، وقيل: شعر. وذلك كناية عن الإبل أو الغنم.

الكريمة من سورة الأنفال يعظّم الله فيها شأن الخُمس، كأنه جعل أداء الخمس من الإيمان. يعني: إن كنتم آمنتم بربكم (جل وعلا) وما أنزل على نبيّه فاعلموا وتيقّنوا أن ما غنمتم من شيء فأن لله خمسه، ونفّذوا ذلك؛ ولذا ذكر البخاري (رحمه الله) في كتاب الإيمان أن أداء الخُمس من الإيمان[1]؛ لأن الله قال لما ذكر أداء الخمس قال: ﴿إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ﴾ [الأنفال: الآية ٤١] وفي حديث وفد عبد القيس الثابت في الصحيح المشهور أن النبي ﷺ لما عدّ خصال الإيمان عدّ منها أداء الخُمس[2]. وذلك لأن الله قال بعد ذكره أداء الخُمس: ﴿إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ﴾.

واعلموا أن جماعة من العلماء منهم مالك وأصحابه[3] قالوا: إن هذه المصارف الخمسة[4] لا تعيّن كلها بل الأمر موكول إلى اجتهاد الإمام يضعه حيث يشاء، إلا أن الله أرشد إلى أن هذه الخمسة هي المصارف الذي لا ينبغي أن يتجاوزها به. وهذا رأي مالك ونصره غير واحد، والظاهر الذي هو الاحتياط: أن يجعله خمسة أنصباء[5]، كما قال الله (جل وعلا)؛ لأن الله شدّد في ذلك في قوله: ﴿إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ﴾ ﴿عَبْدِنَا﴾: هو محمد ﷺ. وصيغة الجمع في قوله: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا﴾ للتعظيم. وقوله: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا﴾ معطوف على اسم الجلالة، أي: إن كنتم آمنتم بالله وآمنتم بالذي أنزلنا على عبدنا محمد ﷺ من هذه الآيات القرآنية؛ لأن الله أنزلها عليكم، ونصركم عند نزولها، وأمركم فيها بأداء الخُمس إن كنتم مؤمنين، فإن كنتم مؤمنين بما أنزل الله على نبيه فاعلموا

---

(١) البخاري (مع الفتح) (١٢٩/١).

(٢) البخاري في الإيمان، باب أداء الخمس من الإيمان. حديث رقم: (٥٣).
وأخرجه في مواضع أخرى، انظر الأحاديث: (٨٧، ٥٢٣، ١٣٩٨، ٣٠٩٥، ٣٥١٠، ٤٣٦٨، ٤٢٦٩، ٦١٧٦، ٧٢٦٦، ٧٥٥٦).
ومسلم في الإيمان، باب الأمر بالإيمان بالله تعالى ورسوله ﷺ وشرائع الدين. حديث رقم: (١٧، ١٨) (٤٦/١).

(٣) انظر: القرطبي (١١/٨)، قوانين الأحكام الشرعية لابن جزي ص١٦٩ ـ ١٧٠.

(٤) أي: للخُمُس.

(٥) انظر: الأضواء (٣٦٥/٢).

أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسه؛ لأن ذلك من جملة ما أنزل الله في هذه الآيات النازلة يوم بدر.

وقال بعض العلماء: المراد بقوله: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ أي: إن كنتم آمنتم بالذي أنزلنا على عبدنا قالوا هو قوله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ﴾ [الأنفال: الآية ١] وقد أمر الرسول ﷺ أن يخرج خُمسها ويصرفه في هذه المصارف المذكورة ﴿إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم﴾ [الأنفال: الآية ٤١] بذلك المنزّل فاعلموا أنما غنمتم من شيء فخمسه لله. وهذا معنى قوله: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ لأن العبد من أشرف الصفات؛ لأن أَشرف الصفات: العبودية له (جل وعلا)؛ ولذا إذا أراد الله أن يرفع من شأن نبيّه ويعظّم الموقف الذي هو فيه عبّر عنه بلفظ العبد؛ لأنها أعظم صفة وأكرمها كما قال: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ [الإسراء: الآية ١] وقال هنا: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ إلى غير ذلك من الآيات.

وقوله ﴿عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ﴾ يوم الفرقان هو يوم بدر، لم يكد يُختلف في ذلك، وإنما قيل لبدر يوم الفرقان لأنه يوم فرق الله به بين الحق والباطل، أوضح حجة الإسلام أنه الحق، وأن الكفر باطل إيضاحاً يشاهده الجاهل والعالم والغبي؛ لأنه التقت فئتان: فئة كافرة تقاتل في سبيل الشيطان، وهي فئة قوية في عددها وعُددها، وفئة مؤمنة تقاتل في سبيل الله، هي ضعيفة في عددها وعُددها، فنصر الله [الضعيفة على القوية][1] وغلبتها وقتلت صناديدها وأشرافها وأَسَرَتْهم، فتبيّن بهذا بياناً واضحاً شافياً يراه الناس بحواسهم أن الإسلام دين الحق، وأن الله فرّق بين الحق والباطل بوقعة بدر، إذ ليس من المعقول أن تكون الفئة الضعيفة القليلة في عددها وعُددها هي الغالبة القاهرة إلا بتأييد من خالق السماوات والأرض (جل وعلا)، وهذا التأييد لا يكون منه إلا لأنها هي المحقّة؛ ولذا سمّى الله بدراً (فرقاناً) وسمّاه (بيّنة) وسمّاه (آية). سمّاه (فرقاناً) في قوله هنا: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ﴾ [الأنفال: الآية ٤١] وسماه (بيّنة) في قوله في هذه الآية ﴿لِّيَهْلِكَ

---

(١) في الأصل: «القوية على الضعيفة» وهو سبق لسان.

مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٖ وَيَحۡيَىٰ مَنۡ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٖۗ﴾ [الأنفال: الآية ٤٢] لأنه سيأتي تفسيره، أي: ليبقى على كفره من كفر على وضوح من أمره أن الكفر باطل، ﴿وَيَحۡيَىٰ﴾ بالإيمان ﴿مَنۡ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٖۗ﴾ وضوح ظاهر لا شك فيه أن الإسلام حق لنصر الفئة القليلة الضعيفة على الفئة الكافرة القوية. وسمّاه (آية) في سورة آل عمران في قوله: ﴿قَدۡ كَانَ لَكُمۡ ءَايَةٞ فِي فِئَتَيۡنِ ٱلۡتَقَتَاۖ فِئَةٞ تُقَٰتِلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخۡرَىٰ كَافِرَةٞ﴾ [آل عمران: الآية ١٣] آية: أي: علامة على أن دين الإسلام هو الحق الذي لا شك فيه.

وهذه الآية القرآنية تدل على أن من علامات دين الإسلام وأنه الدين الحق الذي لا يقبل الله غيره كما قال: ﴿وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ﴾ [آل عمران: الآية ٨٥] وقال: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ﴾ [آل عمران: الآية ١٩] وقال ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾ [المائدة: الآية ٣] تبيّن أن من خصائص هذا الدين ومن علاماته: أن الفئة القليلة المتمسكة به تغلب الفئة القوية الكافرة التي لم تتمسك به، وقد جاءت لهذا أمثلة عديدة في القرآن سنذكر لكم بعضها ليتضّح معنى الآية[1]: من ذلك ما قصّه الله (جل وعلا) علينا في سورة الأحزاب في غزوة الخندق لما جاء الكفار في عَددهم وعُددهم وحاصروا النبي ﷺ وأصحابه بالمدينة ـ هذه حرسها الله ـ وحاصروهم ذلك الحصار العسكري التاريخيّ العظيم الذي نوّه الله بشأنه، وبيّن شدّته وعظمه في سورة الأحزاب في قوله: ﴿إِذۡ جَآءُوكُم مِّن فَوۡقِكُمۡ وَمِنۡ أَسۡفَلَ مِنكُمۡ وَإِذۡ زَاغَتِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلۡقُلُوبُ ٱلۡحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ۝١٠ هُنَالِكَ ٱبۡتُلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَزُلۡزِلُواْ زِلۡزَالٗا شَدِيدٗا ۝١١﴾ [الأحزاب: الآيتان ١٠، ١١] هذا الحصار العظيم جاء وعدد الكفار ضخم، وعُددهم قوة، وأصحاب النبي ﷺ في ضعف وقلةٍ من المال والسلاح، وفي جوع، حتى إن في غزوة الخندق وسيد الخلق (صلوات الله وسلامه عليه) كما يذكره المؤرخون والأخباريون وغيرهم يشد حزامه على الحجارة من شدة الجوع، وهم في ذلك الوقت الناس جميعاً مقاطعوهم سياسياً واقتصادياً، ليس بينهم وبين أحد

(١) انظر: الأضواء (٣/٤٥٣).

من أهل الأرض علاقات اقتصادية، ولا علاقات سياسية، آخر قوم كانت بينهم وبينهم عهود: يهود بني قريظة، فلما نزل الأحزاب من فوقهم ومن أسفل منهم وحاصروهم هذا الحصار العسكري التاريخي العظيم المنوَّه عنه في القرآن، في ذلك الوقت غدر بنو قريظة ونبذوا العهود، وصاروا مع الكفار، فلم يبق لهم تحت أديم السماء صديق ولا معين إلا الله (جل وعلا) وحده، ولما أرسل النبي ﷺ سعد بن عبادة وسعد بن معاذ (رضي الله عنهما) إلى بني قريظة يعرف خبرهما هل هما على عهودهما أو نقضوا العهود وصاروا مع المشركين؟ قال لهم (صلوات الله وسلامه عليه): «**إن وجدتم القوم نقضوا العهود فكنُّوا لي ولا تصرّحوا بإشارة نفهمها ولا يفهمها غيري**»؛ لأن النبي ﷺ يخاف أن يداخل الناس شدة الجبن والجزع؛ لأنهم ما كان لهم من الأصدقاء إلا القرظيون من اليهود، فإذا غدروا وصاروا مع الكفار في هذا الوقت الضنك وهذا الموقف الحرج كان الأمر أعظم واشتد على غير أقوياء القلوب من المسلمين، فجاء سعد وسعد إلى بني قريظة فوجدوا سيّدهم كعب بن أسد ـ قاتله الله ـ فَتَنَه اللعين حيي بن أخطب سيد بني النضير، ونقضوا العهود، وغدروا، وصاروا مع المشركين على رسول الله ﷺ. فجاؤوا إلى النبي ﷺ وقالوا: هم عضل. ليفهمها رسول الله ﷺ ولا يفهمها غيره. وعضل: يعني هم وبنو القارة من الذين غدروا ببعث الرجيع. فأشاروا له بأنهم في الغدر كبني عضل وبني القارة، ففهمها رسول الله ﷺ[1]، ففي هذا الموقف الضنك الحرج كان الذي واجه المسلمون به هذا الموقف الضنك العظيم والحصار العسكري العظيم [هو الإيمان والتسليم كما أخبر الله ـ تعالى ـ عنهم بقوله: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾][2] ﴿وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: الآية ٢٢] وكان من نتائج هذا الإيمان العظيم والتسليم الكبير ما قصّه الله علينا في محكم كتابه في سورة الأحزاب في

---

(١) سيأتي تخريجه عند تفسير الآية (٥٧) من هذه السورة.

(٢) في هذا الموضع وقع مسح في التسجيل، وما بين المعقوفين [ ] زيادة يتم بها الكلام.

قوله: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾﴾ [الأحزاب: الآية ٢٥] يقول: إن كنتم أذلاء - لستم بأعزاء ولا أقوياء - فهو (جل وعلا) قويٌ عزيز لا يُغلب من استند إليه، فالفئة القليلة المستندة إليه يقويها بقوته ويعزّها بعزّته، فلن تُغلب، إلى أن قال: ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَـٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾﴾ [الأحزاب: الآية ٢٧] يعني: إن كانت قدرتكم ناقصة وأنتم عاجزون فهو (جل وعلا) على كل شيء قدير، فالفئة المستندة عليه يجعل لها القدرة والتمكين بقدرته، ومن أمثلة هذا أن النبي (صلوات الله وسلامه عليه) لما صدَّه المشركون مع أصحابه في غزوة الحديبية وهم محرمون كما سيأتي في قوله: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ﴾ [الفتح: الآية ٢٥] وأرسل عُثمان بن عفان (رضي الله عنه) بالهدايا لينحرها في الحرم، وتلقّاه بنو عمه؛ لأنه أراد أولاً أن يرسل عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقال له عمر: إن بني عدي لا يقدرون أن يحموني من قريش، ولكن أدلك على رجل أعزّ مني في قريش هو عثمان بن عفان رضي الله عنه: فأرسل عثمان رضي الله عنه بالهدايا وتلقّاه بنو عمه يقولون[1]:

أَقْبِلْ وأَدْبِرْ لا تَخَفْ أَحَدًا بَنُو سعيدٍ أَعِزَّةَ الحرمِ

فأُخبر النبي ﷺ بخبر كاذب أن الكفار قتلوه، فبايعه أصحابه تحت سمرة من شجر الحديبية بيعة الرضوان، وعندما بايعوه علم الله في ذلك الوقت من قلوبهم الإخلاص الكامل والإيمان كما ينبغي بالله (جل وعلا)، فكان من نتائج ذلك الإيمان الكامل والإخلاص الذي اطّلع الله عليه في قلوبهم أنه بيّن لهم أنه يجعلهم قادرين على من هم عاجزون عنه كما أوضح هذا في سورة الفتح في قوله: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ﴾ [الفتح: الآية ١٨] أي: علم الله ما في قلوبهم من قوة الإيمان والإخلاص لله، فنوّه عنه بالاسم المبهم الذي هو

(١) مضى عند تفسير الآية (١٥٩) من سورة الأنعام.

الموصول، فكان من نتائج هذا الإيمان والإخلاص كما ينبغي ما قصّ الله علينا في سورة الفتح حيث قال: ﴿وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا﴾ [الفتح: الآية ٢١] فصرّح بأن إمكانياتهم العددية والعُددية لا تُقدرُهم عليها، ثم قال: ﴿قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا﴾ أي: فأقدركم عليها ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ [الفتح: الآية ٢١] إن كانت قدرتكم ناقصة فقدرته (جل وعلا) كاملة، والطائفة الضعيفة القليلة المستندة إليه يقويّها بقوته، ويعزّها بعزّته، ويُقدرها بقدرته. وهذه أمثلة تدل المسلم على أن دين الإسلام حق، وأنه هو هو، وأن صلته بالله هي هي، وأن المتمسّك به لا يُغلب ولا يُقهر[1]، ولكن المسلمين تنكروا لدينهم فتركوه ولم يعملوا به، فتركوا الآلة القاهرة التي يُقهر بها العدو، فبقوا لقمة سائغة يضطهدهم الكفرة في أقطار الدنيا، ويبتزون ثروات بلادهم؛ لأنهم تركوا السلاح الأعظم لقهر العدو وهو دين الإسلام كما بينّا؛ ولذا قال هنا: ﴿يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ﴾ [الأنفال: الآية ٤١] يعني: جمع المسلمين وجمع المشركين يوم بدر.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنفال: الآية ٤١]. جرت العادة بذكره قدرته عند نصره الضعاف من عباده المتمسّكين بدينه كما قال هنا: ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ وقال في الأحزاب: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ [الأحزاب: الآية ٢٧]. وقال في الحديبية: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ [الفتح: الآية ٢١] كل هذه الآيات على وتيرةٍ واحدة، معناها: إن كنتم ضعافاً عاجزين فهو (جل وعلا) قادر قوي لا يعجز عن شيء، فإنه ينصر أولياءه ويقويّهم ويقدرهم على من هو أقوى منهم. وهذا معنى قوله: ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فالله (جل وعلا) قادر على كل شيء، فهو قادر على ما شاءه، وقادر على ما لم يشأه، فهو قادر على هداية أبي بكر، وقد شاء هذا المقدور، وقادر على هداية أبي جهل كما قال: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا﴾ [السجدة: الآية ١٣] ولكنه لم يشأ هذا المقدور، فتبيّن أنه قادر على ما شاء، وقادر على ما لم يشأ.

---

(١) مضى عند تفسير الآية (١٥٦) من سورة الأنعام.

وقوله: ﴿إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الأنفال: الآية ٤٢] قال بعض العلماء[1]: هو بدل من ﴿يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾ [الأنفال: الآية ٤١] لأن يوم الفرقان يوم التقاء الجمعان هو الظرف المُعبَّر عنه بكينونتهم في العدوة الدنيا وأعداؤهم في العدوة القصوى، وهذا ظاهر.

وقرأ هذا الحرف من السبعة: ابن كثير وأبو عمرو: **﴿إذ أنتم بالعِدوةِ الدنيا وهم بالعِدْوَةِ القصوى﴾** بكسر العين في الموضعين. وقرأه باقي السبعة: ﴿إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ﴾ بضم العين في الموضعين[2].

والعِدوة والعُدوة معناهما واحد. وأصل العِدوة والعُدوة: شاطىء الوادي وجانبه، فكل ما صاحب شاطىء الوادي وجانبه من الفضاء تسميه العرب: عُدوة وعِدوة، وهو عدوة الوادي[3].

وقوله ﴿بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: عدوة وادي بدر ﴿وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ﴾. و (الدنيا) تأنيث الأدنى، أي: العدوة الدنيا التي هي أدنى للآتي من المدينة ﴿وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ﴾ و (القصوى) تأنيث الأقصى، و (الدنيا) تأنيث الأدنى. أي: لأن العدوة التي فيها الكفار هي التي هي أشد قُصْواً وبعداً من الآتي من المدينة، والتي فيها النبي ﷺ وأصحابه هي الأقرب للآتي من المدينة.

﴿وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْۚ﴾ المراد بالركب: الجماعة الذين هم في عِيْر أبي سفيان بإجماع المفسّرين. والمؤرخون يذكرون أنهم أربعون رجلاً في تلك العِيْر، سمّاهم ركباً. وأكثر علماء العربية يزعمون أن الركب اسم جمع، وأنه ليس بجمع؛ ولذا لم يجعل علماء العربية من جموع التكسير صيغة (فعْل) فأهملوها بالكلية. والذي يظهر من استقراء القرآن العظيم واللغة العربية أن (فَعْل) بفتح فسكون من صيغ جموع التكسير للكثرة في (فَاعِل) إذا كان وصفاً، وإنما قلنا: إن هذا هو الأظهر لكثرة وروده باستقراء اللغة العربية ـ في العربية وفي القرآن ـ فالركبُ هنا على أظهر القولين ـ وإن لم تكد ترى أحداً يقول به من علماء الصرف ـ أن الركب جمع راكب،

---

(١) انظر: الدر المصون ص (٦٠٩/٥).

(٢) انظر: المبسوط لابن مهران ص٢٢١.

(٣) انظر: ابن جرير (٥٦٣/١٣).

والعرب تطلق الركب تريد به جمع راكب، فقولهم: إنه اسم جمع لا دليل عليه، والأظهر أنه جمع؛ ولذا فإن العرب يكثر في كلامها إطلاق اسم الركب مراداً به الركبان، جمع راكب، كما قال[1]:

بزينبَ أَلْمِم قبل أنْ يظعن الركبُ وقُلْ إن تَمَلَّيْنَا فما مَلَّكِ القَلبُ

ويُرجعون إليه ضمائر الجموع كما قال غيلان ذو الرمة[2]:

استحدثَ الركب عن أشياعهم خبرا أَمْ راجع القلب من أَطْرابِهِ طَرَبُ

ومن إتيان (فَعْل) جمعاً لـ (فَاعِلْ) قولهم: «صَاحِبٌ وصَحْب». ومنه: «آلِه وصَحْبِه» ومنه قول امرىء القيس[3]:

وقُوفاً بها صَحْبي عَليَّ مَطِيَّهم يقُولون: لا تهلك أسى وتَجَمَّلِ

فالصحب جمع صاحب، ومن هذا المعنى: جمع (شَارِب) على (شَرْب) بفتح فسكون، ومنه قول نابغة ذبيان[4]:

كأَنَّهُ خارجاً من جنبِ صَفْحَتِهِ سَفُّودُ شَرْبٍ نسوهُ عند مُفْتَأَدِ

فرد عليهم ضمير الجماعة في قوله: «سفُّودُ شَرْبٍ نَسُوهُ عند مُفْتَأدِ» ومنه السَّفْر جمع السَّافِرْ، وفي الحديث: «**أتموا فإنا قوم سفر**»[5]، ومنه قول

---

(١) البيت لنصيب بن رباح، وهو في تاريخ دمشق (٦٢/٦٠، ٦١، ٦٢).

(٢) البيت في ديوانه ص٥٩.

(٣) ديوانه ص١١١.

(٤) ديوانه ص١٢.

(٥) أخرجه أحمد (٤/٤٣٠، ٤٣١، ٤٣٢، ٤٤٠) وابن أبي شيبة (٢/٤٥٠، ٤٥٣)، وأبو داود في الصلاة، باب متى يتم المسافر. حديث رقم: (١٢١٧) (٤/٩٦)، والترمذي في الصلاة، باب ما جاء في التقصير في السفر. حديث رقم: (٥٤٥) (٢/٤٣٠)، والبيهقي (٣/١٣٥، ١٥٣)، والطيالسي ص١١٥، والطحاوي في شرح المعاني (١/٤١٧) من حديث عمران بن حصين (رضي الله عنه) مرفوعاً.

وقد جاء نحوه موقوفاً على عمر (رضي الله عنه) عند مالك في الموطأ، ص١٠٥، وعبد الرزاق (٢/٥٤٠)، والطحاوي في شرح المعاني (١/٤١٩). وراجع الكلام على هذا الحديث في نصب الراية (٢/١٨٧)، التلخيص (٢/٢٥٢)، إتحاف السادة المتقين (٤/٣٦٨).

الشنفرى[١]:

كـأنَّ وغـاهَـا حـجـرتـيـه وجَـالَـه أَضَـاميـم مـن سفْـرِ الـقـبـائـل نُـزَّلِ

ومنه: طائر وطير ﴿إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ﴾ [النحل: الآية ٧٩] فجعل (مسخَّرات) جمعاً نظراً إلى الطير. وهذا يكثر في كلام العرب، والأظهر أن (الفَعْل) هنا جمع (الفَاعِلَ) وصفاً. وعامة علماء العربية ممن تكلموا في جموع التكسير لم يجعلوا (فَعْلا) من صيغ الجموع، ويزعمون أن هذه الذي ذكرنا أن الأظهر جموع أنها أسماء جموع. هكذا يقولون. والمراد بالركب هنا: الجماعة الذين هم في عِيْر أبي سفيان.

وقوله: ﴿أَسْفَلَ مِنكُمْۚ﴾ ظرف والخبر واقع في هذا الظرف. وقراءة: ﴿أسفلُ منكم﴾[٢] شاذة وقراءة الجمهور: ﴿أَسْفَلَ مِنكُمْۚ﴾ هو في مكان، وهذا المكان أسفل، ومعنى كونه أسفل: أن وادي بدر ذاهب إلى جهة البحر، فكل ما قَرُب من البحر منه فهو أسفل، وما بَعُد منه فهو أعلى.

قال بعض العلماء: في هذه الآية الكريمة سؤال، وهو أن يُقال: ما الفائدة في تعيين أن النبي ﷺ وأصحابه في عُدوة وادي بدر الدنيا، وأن المشركين في عُدوة وادي بدر القصوى، وأن الركب أسفل من الجميع، ما الحكمة في هذا، وأي فائدة في معرفة مواضع القوم كلهم[٣]؟

أجاب بعض العلماء عن هذا بأن فيه سراً لطيفاً، قالوا: المعنى نَصركم الله وفرق بين الحق والباطل بأن نصركم عليهم وظروفكم الراهنة تساعدهم على أن يغلبوكم؛ لأن العُدوة الدنيا كانت أرضها خباراً[٤]، أرضاً

---

(١) البيت في ديوانه ص٦١.

(٢) انظر: البحر (٤/٥٠٠).

(٣) السابق.

(٤) قال في القاموس: «والخَبَاز كسحاب: ما لان من الأرض واسترخى» ا.هـ (مادة: الخبر) ص٤٨٩.

رخوة تسوخ فيها الأقدام، ولا يتيسر فيها المشي، ولا ماء فيها، فمن فيها عطاش. والعُدوة القصوى كانت بخلاف ذلك يسهل المشي عليها، فهم في هذا كانوا أولى بأن يسبقوكم على الماء ويمنعوكم منه فيقتلوكم، وأنه في ذلك الوقت عيرهم نجت، وتمّت نعمتهم، وأموالهم متكاثرة، وهم في الموضع الذي هو أحسن من موضعكم، ومع هذا كله فقد نصركم الله عليهم؛ لأن الله لما أرسل المطر المتقدّم في قوله: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ﴾ [الأنفال: الآية ١١] كانت العدوة القصوى طيناً ووحلاً، وكانت العدوة الدنيا رملها متلبد تمشي عليه الأقدام بخفّة، فكان هذا أنسب؛ ولذا قال: ﴿أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْۚ﴾ [الأنفال: الآية ٤٢] ثم قال في حكمته وقع هذا ونزل هذا الفرقان وأنتم على هذه الحالة تكادون أن تجتمعوا على غير ميعاد؛ لأنه لو تواعدتم وضرب بعضكم لبعض أجلاً وميعاداً لاختلفتم في الميعاد لو كنتم في هذا العدد من الضعف وكان بينكم وبينهم موعد سابق لجبنتم ولفشلتم عنهم، ولما تجرأتم على الإقدام عليهم، ولو كنتم مستعدّين وعندكم جمع قوي لفشلوا وجبنوا ولم يتجرؤا عليكم، فجمعكم الله بغير ميعاد لحكمته (جل وعلا)؛ لأن غزوة بدر شيء جعله الله (جل وعلا) بقدرته لم تَتَسَنَّ أسبابه، إلا أن الله (جل وعلا) سبّبها، ولذا قال: ﴿وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ﴾ أي: واعد بعضكم بعضاً في الموضع الذي تلتقون فيه والمكان الذي تلتقون فيه، ﴿لَٱخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَٰدِ﴾ أي: لخاف بعضكم من بعض، وجَبُن بعضكم عن بعض، ولما اتّفقتم ليحصل ما حصل، ولكن الله جمعكم على غير ميعاد بحكمته (جل وعلا)؛ ولذا قال: ﴿وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَٰدِ وَلَٰكِن لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ ولكن الله جمعكم على غير ميعاد فخرجتم أيها المسلمون إلى عِيْر أبي سفيان، وخرج الكفار إلى إنقاذ عِيْرهم، وشاء الله أن تجتمعوا ويوقع الله ما أوقع. وهذا معنى قوله: ﴿وَلَٰكِن لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا﴾ هو إعزاز دين الإسلام، وبيان برهانه ودليله، وفرق الحق من الباطل بإعزاز الدين، وإعلاء كلمة الله، وإذلال الكفر، وقتل رؤسائه وصناديده. كان هذا أمراً مفعولاً لا محالة، شاءه الله وقدّره وهو واقع لا

محالة إذا جاء وقته المحدّد له في مكانه المحدّد له في علمه جل وعلا. وهذا معنى قوله: ﴿لِيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾.

قوله: ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾﴾ [الأنفال: الآيتان ٤٢، ٤٣].

﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال: الآية ٤٢] قرأ هذا الحرف نافع، وابن كثير في رواية البزّي، وعاصم في رواية شعبة أبي بكر: ﴿ويحيىٰ من حَيِيَ عن بينةٍ﴾ بفك الإدغام في (حَيِيَ) وقرأه بقية السبعة: ﴿وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾ بإدغام الياء في الياء[1]. وهذه الكلمة إنما كتبت في المصاحف العثمانية بحاءٍ وياءٍ واحدة، ولكنه عند الضبط الذين يقرؤون (حيي) بياءين بفك الإدغام يكتبون ياءً حمراء يبيّنون بها أنها لم تكن في رسم المصحف العثماني. فهما قراءتان سبعيتان، ولغتان فصيحتان ﴿ويحيى من حيِيَ عن بينة﴾، ﴿وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾.

وقوله: ﴿لِيَهْلِكَ﴾ إنما أوقع الله ما أوقع في بدر من الفرق بين الحق والباطل المبيّن في قوله: ﴿يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾ هذه (لام كي) المضارع بعدها منصوب بـ (أن) مضمرة. والمعنى: فرق بين الحق والباطل بإيضاح أن دين الإسلام حق، وأن عبادة الأوثان باطل؛ لأجل أن يهلك من هلك؛ لأجل أن يهلك بكفره المتمادي على الكفر بعد وضوح بطلانه عن بينة، أي: عن دليل واضح وبرهان قاطع لا يُشك في الحق معه؛ لأن البراهين المحسوسة يدركها الغبي ولا تختص بالعالِم. ﴿وَيَحْيَىٰ﴾ بدين الإسلام ﴿مَنْ حَىَّ﴾ به ﴿عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾ أي: عن دليل واضح؛ لأن ذلك الفرقان جعله الله بوقعة بدر ليؤمن المؤمنون على برهان

---

(١) انظر: السبعة ص٣٠٦ الإتحاف (٨٠/٢).

وبصيرة وبيان قاطع، ويكفر الكافرون على وضوح أيضاً وبيان وبرهان قاطع.

والبيّنة[١]: كل دليل لا يترك في الحق لبساً تسميه العرب (بيّنة) ومنه قيل للشهود الشَّاهِدِين على الحق: (بيّنة)؛ لأنهم يبيّنون ويوضّحون من له الحق ومن عليه الحق. وهذا هو التحقيق في معنى قوله: ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾.

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ﴾ جل وعلا ﴿لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ يسمع كل ما يقوله خلقه، ويعلم كل ما يفعله خلقه.

وكونه (جل وعلا) سميعاً عليماً هذا هو البرهان الأكبر والزاجر الأعظم الذي لا تكاد تقلب ورقة واحدة من المصحف الكريم إلا وجدته فيه؛ لأن المصحف الكريم لا تكاد تنظر في موضع منه إلا وتجد فيه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: الآية ٢٣١] ﴿خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [آل عمران: الآية ١٥٣] ﴿عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [آل عمران: الآية ١٥٤] ﴿لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ﴾ [آل عمران: الآية ٥] لا تكاد تحصي هذا؛ لأن هذا أكبر واعظ وأعظم زاجر أنزله الله من السماء إلى الأرض، وأنه هو الذي يحصل به النجاح في محكّ الاختبار الإنساني بأسره.

وإيضاح هذا الكلام: أن الله (جل وعلا) بيّن في آيات من كتابه أن الحكمة التي خلق السماوات والأرض والخلائق من أجلها هي أن يبتلي خلقه في نقطة واحدة هي: إحسان العمل[٢]، وليست بكثرة العمل، قال في أول سورة هود: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ ثم بين الحكمة فقال: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: الآية ٧] ولم يقل: أكثر عملاً، وقال في أول سورة الكهف: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا﴾ ثم بيّن الحكمة فقال: ﴿لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾

(١) مضى عند تفسير الآية (٧٣) من سورة الأعراف.
(٢) مضى عند تفسير الآية (٥٩) من سورة الأنعام.

[الكهف: الآية ٧] ولم يقل: أكثر عملاً. وقال في أول سورة الملك: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾ ثم بيّن الحكمة فقال: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: الآية ٢] ولم يقل: أكثر عملاً. فدلّت هذه الآيات على أن محكّ الاختبار هو إحسان العمل؛ ولذا كل الناس يقول: «ليتني أدركت ما أنجح به في هذا الاختبار، وعرفت الطريق الذي يُتوصّل بها إلى أن أكون أحسن عملاً». وكان جبريل (عليه الصلاة والسلام) لاحظ شدة الحاجة إلى هذه النقطة الحسّاسة فأراد أن يبيّنها لأصحاب رسول الله ﷺ ليعلّمهم هذا العلم العظيم، فجاء في صورة أعرابي في حديثه الصحيح المشهور، وقال للنبي ﷺ في جملة ما سأله عنه: يا محمد ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ أخبرني عن الإحسان. يعني: وهو الذي خُلق الخلق للاختبار فيه، فبيّن له النبي ﷺ أن طريق الإحسان ووسيلته الوحيدة هي هذا الواعظ الأكبر والزاجر الأعظم الذي هو مراقبة خالق هذا الكون (جل وعلا). فقال له: «**الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**»[1]. ولأجل تأكد هذا العلم وإحضاره في ذهن كل مسلم كنت لا تقلب ورقة من المصحف الكريم إلا ووجدت فيها هذا الزاجر الأكبر والواعظ الأعظم: أن ربّك مطّلعٌ على كل ما تقول وكل ما تفعل. ولو علم أهل بلد أن أمير ذلك البلد يعلم كل ما يفعلونه بالليل من الخسائس لباتوا متأدّبين لا يفعلون إلا ما لا يجر لهم ضراً، وهذا خالق السماوات والأرض (جل وعلا) يعلم خطرات القلوب، ومع هذا لا يبالون بهذه الزواجر العظام والمواعظ الكبار.

وقد ضرب العلماء لهذا مثلاً[2] قالوا: ولو فرضنا ـ ولله المثل الأعلى ـ أن في هذا البراح من الأرض ملكاً عظيماً شديد البأس والبطش إذا انتُهكت حرماته، وحوله نساؤه وجواريه وبناته، وحوله جلوس، هل يخطر في ذهن أحد أن أحداً من أولئك الجلوس يهتم بريبة، أو غمزة عين، أو إشارة؟ لا وكلا، كلهم خاضع خاشع الجوارح، أمنيته السلامة.

---

(١) مضى تخريجه عند تفسير الآية (٥٨) من سورة البقرة.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٥٩) من سورة الأنعام.

والله (جل وعلا) ـ وله المثل الأعلى في السماوات والأرض ـ أعظم بطشاً وأشد نكالًا، وأعظم اطلاعاً، وحِمَاه في أرضه محارمه، فالمسلمون إذا ذكروا هذا الواعظ الأكبر والزاجر الأعظم حاسبوا، ولم يفعلوا ما يخجلهم أمام ربهم (جل وعلا)؛ ولذا كثر في القرآن هذا الواعظ الأكبر والزاجر الأعظم بعد كل أوامر وكل نواهي، ومنه قوله هنا: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: الآية ٤٢].

﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا﴾ [الأنفال: الآية ٤٣] قال بعض العلماء: (إذ) بدل من الظروف قبله. وقال بعضهم: منصوب بـ (اذكر) مقدراً[1].

ومعنى الآية الكريمة: أن النبي ﷺ رأى على التحقيق فيما يرى النائم ـ ومعلوم أن رؤيا الأنبياء وحي لا شك فيها ـ أراه الله في نومه أن المشركين قليل جداً. وبعض العلماء أنكر معناها الواضح المتبادر للذهن؛ لأنه لم يفهم الحقيقة. قالوا: كيف يُريهم قليلًا في منامه ورؤيا الأنبياء حق، والنبي ﷺ يعلم أنهم حوالي ألف، كيف يعلم أنهم قريبون من الألف ويرى في المنام خلاف ما هو يعلم مع أن رؤيا الأنبياء حق[2]؟ وغفل من قال هذا القول وإن قال به جماعة من أجلاء العلماء؛ لأن رؤيا النبي ﷺ حق، وتأويلها حق، كما قال يوسف: ﴿قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا﴾ [يوسف: الآية ١٠٠] لأن معنى رؤياه هو ما سيأتي في قوله: ﴿وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ﴾ [الأنفال: الآية ٤٣]. لأن الله قلّل كلاً من الطائفتين في عين الأخرى في اليقظة حتى إنهم لما تصوبوا من عقنقل بدر قال ابن مسعود (رضي الله عنه): قلت لصاحبي: أتراهم يبلغون السبعين؟ قال: أظنّهم يبلغون المئة[3]. من شدة تقليل الله لهم في عيون الصحابة، والله قلل الصحابة في عيون المشركين

(١) انظر: الدر المصون (٥/٦١٥).

(٢) انظر: البحر (٤/٥٠١).

(٣) أخرجه ابن جرير (١٣/٥٧٢). وعزاه في الدر (٣/١٨٩) لابن أبي شيبة، وابن جرير، وأبو الشيخ، وابن مردويه.

حتى قال أبو جهل: إنهم أَكَلَة جزور. يعني: الجزور قد يأكلها ناس قليلون. فقلّل الله هؤلاء في أعين هؤلاء، وهؤلاء في أعين هؤلاء، فبعد أن التحم القتال والتقى الصفّان أكثر الله المؤمنين في أعين الكافرين حتى صاروا يظنونهم ضعفيهم، كما تقدّم في قوله: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ﴾ إلى قوله ﴿يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ﴾ [آل عمران: الآية ١٣] لأن الكفار بعيونهم يرون أن المسلمين أكثر منهم بالضِّعْف؛ لأن الله فعل كل ذلك لحكمة قبل أن يتلاقى هؤلاء وهؤلاء، جعل هؤلاء قليلاً في أعين هؤلاء، وهؤلاء قليلاً في أعين هؤلاء، ثم لما التحم القتال والتقى الصفان أَكْثَر المسلمين في أعين الكافرين فظنوا أنهم أكثر منهم مرتين؛ ولذا قال هنا: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا﴾ [الأنفال: الآية ٤٣] لأن النبي ﷺ أراه الله الكفار في النوم قليلاً وأخبر بها أصحابه ففرحوا بذلك وقويت قلوبهم وتهيؤوا للقتال، والله (جل وعلا) صدّق تلك الرؤيا بأن قلّلهم في أعينهم يوم بدر، كما يأتي الآن، ثم قال: ﴿وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ﴾ لو أراك في النوم أنهم عدد ضخم كثير كالألف وأخبرتهم بذلك لخافوا وقالوا: لم نستعد لهؤلاء، وإنما خرجنا للعير!! كما تقدم في قوله: ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝ يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ﴾ [الأنفال: الآيتان ٥، ٦] وهذا معنى قوله: ﴿وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ﴾ الفشل ضد النجاح، وهو الجبن والخور. أي: لأصابكم الخور والجبن وتنازعتم في هذا الأمر، هذا معنى قوله: ﴿لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ بأن قال قوم: نذهب إليهم وإن كانوا كثيراً. وقال آخرون: ما ذهبنا إلا للعير، وما ذهبنا مستعدين لنفير كثير. وحصل فيكم الفشل والتنازع في الأمر ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ﴾ جل وعلا ﴿سَلَّمَ﴾ من هذا الفشل ومن هذا التنازع بأن أرى رسوله ﷺ في المنام أنهم قليلون لتتجرؤوا عليهم، وقللكم في أعينهم فعلاً يقظة رأي العين، وقللهم في أعينكم تصديقاً لرؤيا الرسول ﷺ هذا معنى قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ﴾.

﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ المراد بذات الصدور: ما يصاحب الصدور ويكمن فيها من الخواطر والهواجس، وقد علم أنه لو أراه إياهم

كثيراً لتنازعتم في ذلك الأمر ولفشلتم، فهو يعلم بما يهجس في الصدور، وما يخطر فيها، وما توسوس به النفوس، وهذا معنى قوله: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [الأنفال: الآية ٤٣].

ثم قال: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا﴾ [الأنفال: الآية ٤٤] فهذا رأي في العين تصديقاً لرؤياه ﷺ واذكر حين يريكموهم الله في منامك قليلاً. الصحيح أن (قليلاً) هنا و (كثيراً) أنهما حالان، وأنها (رأى) البصرية عُديت بالهمزة فتعدت إلى مفعول آخر، وأن (قليلاً) ليس مفعولاً ثالثاً، خلافاً لمن قال من بعض العلماء: إنها عُديت هنا إلى المفعول الثالث. والأصوب: أن (قليلاً) هنا حال، وأنها ليست بمفعول ثالث؛ لأن (رأى) هذه بصرية لا علمية على التحقيق[1]. وهذا معنى قوله: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا﴾ يعني ترونهم كأنهم شيء قليل لتتجرؤوا عليهم وتشجعوا وتقوى نفوسكم عليهم، وقد جاء عن ابن مسعود (رضي الله عنه) أنهم لما تصوبوا من كثيب بدر قال لرجل معه: أتظنهم يبلغون سبعين ـ وهم ألف ـ فقال الرجل: أرى أنهم يبلغون المئة[2]. هذا من شدة تقليلهم في أعينهم ليتجرؤوا عليهم، كذلك ﴿وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ﴾ لما رأوهم قالوا: هؤلاء أَكَلَةُ جزور ليسوا بشيء. وقال أبو جهل: لا تقتلوهم بل خذوهم واربطوهم لنذهب بهم حيث نشاء. من شدة استقلاله لهم، وظنه أنهم لا شيء!! وهذا معنى قوله: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ﴾ ليتجرأ هؤلاء على هؤلاء، وهؤلاء على هؤلاء؛ لأجل أن يقضي الله أمره، وينفذ إرادته ومشيئته بتهيئته أسباب ذلك. وهذا معنى قوله: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ﴾ بذلك ﴿أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ في علمه، وأزله، منفذاً في وقته لا محالة؛ لأن الله (جل وعلا) يقضي ويقدّر، فيقدر كل ما شاء ثم يقضيه منجزاً في أوقاته في أماكنه على هيئته وصوره التي سبق بها علمه

---

(١) انظر: الدر المصون (٥/٦١٥).

(٢) مضى قريباً.

(جل وعلا) ولذا قال: ﴿لِيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾.

﴿وَإِلَى ٱللَّهِ﴾ جل وعلا وحده ﴿تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ قرأ هذا الحرف ابن عامر، وابن كثير، وأبو عمرو[1]: ﴿وإلى الله تَرجِعُ الأمور﴾ ببناء الفعل للفاعل. وقرأه بقية السبعة: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ ببناء الفعل للمفعول. فـ (الأمور) على الأول فاعل (ترجع) وعلى القراءة الثانية: نائب فاعل (تُرجع)[2]. و (الأمور) جمع أمر، ويعم كل الشؤون. والمعنى: مدار الأمور ومصيرها إليه (جل وعلا) كما قال تعالى: ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾ [الشورى: الآية ٥٣] وقد صار إليه هذا الأمر وآل إليه فنفذ فيه مشيئته وقدرته، وهيأ الأسباب حتى هزم الكفرة وقتل صناديدهم ورؤساءهم وكسر شوكتهم على أيدي أوليائه المسلمين، ونصر نبيه ﷺ وأصحابه وأيّدهم بنصره، وهذا قضاؤه وقدره (جل وعلا)، والله يهيئ الأسباب، ولو شاء فعل بلا سبب، إلا أنه اقتضت حكمته أن يرتب المسبّبات على أسباب، ويسبب للأشياء (جل وعلا) سبحانه وتعالى.

٥/ب / ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝٤٥ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝٤٦ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ۝٤٧ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝٤٨﴾ [الأنفال: الآيات ٤٥ ـ ٤٨].

يقول الله جل وعلا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝٤٥﴾ [الأنفال: الآية ٤٥].

---

(١) قرأه بالبناء للفاعل: ابن عامر وحمزة والكسائي.
وبالبناء للمفعول: ابن كثير وأبو عمرو ونافع وعاصم.
انظر: السبعة ص١٨١، المبسوط لابن مهران ص١٤٥، إتحاف فضلاء البشر (٢/٨٠).

(٢) انظر: حجة القراءات ص١٣٠ ـ ١٣١.

هذه الآية الكريمة تضمنت تعليم الله لنبيه وأصحابه بعض الخطط العسكرية، قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ ناداهم باسم الإيمان ليكون ذلك مدعاة للقبول: ﴿إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً﴾ أي: طائفة. أي: جيشاً من جيوش الكفار يقاتلونكم إذا لقيتموهم في ميدان القتال والتحمتم أنتم وهم ﴿فَٱثْبُتُواْ﴾ يعني: لا تنهزموا، ولا تولوهم الأدبار، فاصمدوا أمامهم واثبتوا، ولا تتزعزعوا، ولا تنهزموا، ولا ترجعوا القهقرى. وهذا تعليم من خالق السماوات والأرض للمسلمين إذا التحم القتال أن يثبتوا ويصمدوا صمود الرجال، ولا ينهزموا ولا يرجعوا القهقرى.

ثم إنه علمهم التعليم الأكبر الذي هو سبب للنصر والظفر في جميع الميادين، قال: ﴿وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ (كثيراً): نعت لمصدر محذوف. أي: ذكراً كثيراً ﴿لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أي: لأجل أن تفلحوا[1]. وهذا هو التعليم السماوي للخطط الميدانية التي يحصل بها انهزام الكفر وانكسار شوكته، كأنه يقول لهم: في هذا الوقت الضنك الحرج الذي التحمتم فيه مع جيوش الكفار في هذا الوقت قوّوا صلتكم بمن خلقكم ـ جل وعلا ـ واذكروه ذكراً كثيراً. والمعنىٰ: أنكم عند هذه الشدائد، وعند التحام القتال والمفروض أن الرجال تنزل رؤسهم عن أعناقهم، في هذا الوقت الضنك الحرج وثِّقوا صلتكم بالله، واذكروا ربكم ذكراً كثيراً، فبذلك ينزل عليكم المدد من السماء، ويتسنىٰ لكم النصر، وتقهرون الكفار، وتنكسر شوكة الكفر. هذه عادة التعاليم السماوية، تجمع للناس بين ما تنتعش به أرواحهم، وبين ما تتقوىٰ به أجسامهم[2]، فالتعاليم السماوية تعطي الإنسان نصيب جزئيه، أعني: نصيب جسمه ونصيب روحه، وإذا أُهمل أحد النصيبين تحقق الفشل والخور والهزيمة؛ لأن هذا الإنسان هو حيوان مركب من عنصرين مختلفين اختلافاً أساسياً جوهرياً؛ أحدهما: يُسمىٰ الجسم، والثاني: يُسمىٰ الروح، فالإنسان جسم وروح، فأحد عنصريه اللذين هما أساساه: الروح، والثاني:

---

(١) انظر: الأضواء (٢/٤١٣).

(٢) مضى عند تفسير الآية (١١٥) من سورة الأنعام.

الجسم. والروح والجسم مختلفان اختلافاً أساسياً جوهرياً، وبحسب اختلافهما الأساسي تختلف متطلباتهما في هذه الحياة، فللجسم متطلبات لا بد له منها، وللروح متطلبات لا بد له منها، ولا تغني متطلبات هذا عن متطلبات هذا. والقرآن العظيم يعطي كُلّاً من العنصرين حقه كما ينبغي. يقول: أعطوا الأجسام حقها بالثبوت والصمود، وأعطوا الأرواح حقها بتغذيتها بصلتها بخالقها وتقويتها، وانتظار المدد من السماء.

ونظير هذه الآيات: إذا قرأتم آيتين من سورة النساء فهمتم هذا المعنىٰ كما ينبغي، وهما الآيتان اللتان أنزلهما الله في صلاة الخوف، فإنه يقول لنبيه: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ﴾ [النساء: الآية ١٠٢] هذا وقت التحام الكفاح المسلح، فالمفروض أن الرجال تنزل رؤسهم عن أعناقهم في هذا الوقت الضنك الحرج، فالقرآن الذي هو تنزيل رب العالمين يوضح الخطة العسكرية كما ينبغي[1]، علىٰ الوجه الذي يردون فيه العدو، وليتسنىٰ لهم في ذلك الوقت الاتصال بخالق السماوات والأرض وأداء أدب من الأداب الروحية الذي هو الصلاة في الجماعة في ذلك الوقت، فالصلاة في الجماعة وقت التحام ذلك الكفاح المسلح هي من ذكر الله المأمور به هنا في سورة الأنفال في قوله: ﴿وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ﴾ فالمؤمنون إن ساروا في ضوء هذه التعاليم السماوية، وكانوا في طاعة الله، وفي ذكر الله، وتقدموا صابرين في الميدان فإنهم لا يقوم أمامهم شيء، كما هو مشاهد في التاريخ لأن هؤلاء الرجال الذين عُلِّموا هذا التعليم في آية الأنفال هذه ﴿إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ﴾ وفي سورة النساء: ﴿فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ﴾ [النساء: الآية ١٠٢] ليصلّوا الجماعة في ذلك الوقت الحرج، ويقوّون صلتهم بالله، هؤلاء الذين أخذوا بهذه التعاليم هم الذين أخذوا كنوز قيصر وكسرىٰ، وحملوا نور الإسلام في مشارق الدنيا، ودان لهم جميع الأمم،

(١) مضى عند تفسير الآية (١٥٦) من سورة الأنعام.

ورفعوا رايات الإسلام في جميع أقطار الدنيا. أما هؤلاء الذين يبيتون يشربون الخمور، وتعزف عليهم القيان، وهم في المجالس الماجنة الخليعة، ثم بعد ذلك يصبحون في الميدان فهؤلاء ليسوا برجال ميدان، ولا يُرجىٰ منهم تحقق شيء، ولا رد مسلوب من بلاد، ولا من مجد، ولا من شيء!! فما دام الذين يتقدمون في خطوط النار الأمامية فجرة، شَرَبَة للخمور، أصحاب معازف وغواني وملاهي، فهؤلاء من يريد النصر ويُؤمّله من ورائهم فهو مغفل؛ لأن هؤلاء ليسوا برجال ميدان، فلا يمكن أن يردوا مسلوباً من مجد ولا من بلاد، ولا أن ينتصفوا من أحد كائناً ما كان؛ لأنهم تركوا التعاليم السماوية والخطط العسكرية التي هي كفيلة بقمع الكفار، وإيقافهم عند حدهم، وكسر شوكة الكفر، وإعلاء كلمة الله جل وعلا.

فالحاصل أن السلاح الأكبر في ميادين القتال هو ذكر الله ـ جل وعلا ـ وطاعته وامتثال أمره؛ لأنه هو الذي منه النصر والمدد. والله كذلك يأمر خلقه ﴿إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ﴾ أما الذين إذا لقوا فئة فلا يذكرون الله، وليس في قلوبهم خشية من الله، ولا عمل بدينه، فهؤلاء لا يُؤمّل من ورائهم فائدة إلا مغفل مثلهم لا يفهم شيئاً. وهذا معنىٰ قوله: ﴿إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ ذكراً كثيراً؛ لأن ذكركم لله كثيراً تتقوىٰ به أرواحكم، وتتصلون به بربكم، وينزل لكم بسببه المدد من خالق السماوات والأرض.

والصحابة (رضي الله عنهم) كذلك كانوا يفعلون، يذكرون الله ويخافونه في الميدان فيأتيهم النصر؛ ولذا قهروا الدنيا بأسرها، وأخذوا كنوز قيصر وكسرىٰ كما هو معلوم. وهذا معنىٰ قوله: ﴿إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾.

﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ قال بعض العلماء[1]: (لعل) في القرآن كلها مشمة معنىٰ التعليل، فهي تفيد معنىٰ التعليل، إلا التي في الشعراء: ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾﴾ [الشعراء: الآية ١٢٩] قالوا: فهي بمعنىٰ:

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٢) من سورة البقرة.

كأنكم. والتحقيق أن لفظة (لعل) تأتي في اللغة العربية مُراداً بها التعليل، وهو معنىً معروف في كلام العرب، ومنه قول الشاعر[١]:

فقُلتمُ لنا كُفُّوا الحُروبَ لعَلنَّا نكُفُّ ووثَّقْتمُ لنا كُلَّ مَوْثقِ

فلما كفَفْنا الحربَ كانتْ عُهودُكمْ كشِبْهِ سَرَابٍ بالفلا مُتألقِ

فقوله: «كفوا الحروب لعلنا نكف» أي: لأجل أن نكف عنكم.

وقوله: ﴿تُفْلِحُونَ﴾ هو مضارع (أَفْلح الرجل، يُفْلح، فهو مُفْلح). إذا نال الفلاح. والفلاح يُطلق في لغة العرب إطلاقين معروفين مشهورين[٢]:

أحدهما: تطلق العرب الفلاح بمعنىٰ الفوز بالمطلوب الأكبر، فكل من فاز بالمطلوب الذي كان يهتم به جداً، وهو من أكبر مطالبه، تقول العرب: أفلح هذا. أي: فاز بما كان يطلب، وهذا معنىٰ معروف في كلامها، ومنه قول لبيد بن ربيعة[٣]:

فَاعْقِلي إن كُنتِ لمَّا تَعْقِلي ولَقَد أَفْلحَ من كانَ عَقَل

أي: من رزقه الله العقل ففاز بالمطلوب الأكبر في الدنيا.

الإطلاق الثاني: هو إطلاق العرب الفلاح على البقاء السرمدي في النعيم، فالعرب تقول: أفلح هذا، إذا كان باقياً خالداً في نعيم سرمدي، وهذا المعنىٰ معروف مشهور في كلام العرب أيضاً، ومنه قول لبيد بن ربيعة أيضاً[٤]:

لو أنَّ حياً مُدرك الفلاحِ لنَالَهُ مُلاعِبُ الرماحِ

يعني بقوله: «مدرك الفلاح»، أي: مدرك البقاء بلا موت، ونظيره من كلام العرب: قول كعب بن زهير، أو الأضبط بن قريع، كما قيل بكل منهما[٥]:

---

(١) السابق.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٥٢) من سورة البقرة.

(٣) مضى عند تفسير الآية (٨) من سورة الأعراف.

(٤) مضى عند تفسير الآية (١١١) من سورة الأنعام.

(٥) مضى عند تفسير الآية (٤٥) من سورة البقرة.

لِـكُـلِّ هَـمٍّ مـن الـهُـمُـوم سَـعَـة والـمُـمْـسِـيُ والـصُّـبـحُ لا فـلاحَ مـعـه

أي: لا بقاء في الدنيا مع تكرر الليل والنهار.

إذا عرفتم معنيي الفلاح فمن أطاع الله (جل وعلا) وذكره كثيراً نال الفلاح بمعنييه، ففاز بمطلوبه الأكبر وهو الجنة ورضا الله، ونال البقاء السرمدي الأبدي في نعيم الجنات.

وهذه الآية الكريمة تدل على أن الذين إذا لقوا فئة من فئات الكفار في ميدان القتال ولم يثبتوا أو لم يذكروا الله كثيراً، أنهم لا يفلحون. وهو كذلك؛ لأن النصر من الله. كما قال تعالى: ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [الأنفال: الآية ١٠] قال في بدر: ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ مع أنه أنزل ملائكة السماء ناصرين، يعني: لا تظنوا أن الملائكة ينصرونكم، الناصر هو الله وحده (جل وعلا)؛ ولذا قال: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال: الآية ٤٥].

﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [الأنفال: الآية ٤٦] هذه التعاليم السماوية الكفيلة بالنصر والظفر وقمع القردة الكفرة وإيقافهم عند حدهم ﴿أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ﴾ فيما يأمركم به على لسان رسوله ﷺ، وأطيعوا رسوله ﷺ فيما يبلغكم عن ربكم ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ [النجم: الآيتان ٣، ٤].

والياء في قوله: ﴿أَطِيعُوا۟﴾ الياء التي بين الطاء والعين أصلها (واو) لأن المادة من (الطَّوع) فهو أجوف واوي العين، أصلها: «أَطْوِعُوا» من «الطَّوع» لا يائي من (الطَّيْع)[1].

ومعنى إطاعة الله: هي الانقياد لامتثال أوامره، واجتناب نواهيه، في النيات والأفعال وكل شيء، وهذا معنى: ﴿أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾.

(١) انظر: معجم مفردات الإبدال والإعلال ص٤٢١، ٤٢٢.

﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ﴾ أصله: لا تتنازعوا، لا ينازع بعضكم بعضاً وتختلفوا؛ لأن الناس غالباً تختلف نحلُهُم ووجهات نظرهم. يعني: إذا اختلفت وجهات نظركم لا تتنازعوا وكل منكم ينصر ما رآه فيخالف أخاه، بل كونوا متفقين دائماً؛ لأن الله (جل وعلا) شرع لكم طريقة تتفقون عليها وهي اقتفاء نبيكم ﷺ والسير في ضوء الكتاب الذي أنزله عليه والسنة التي تركها ﷺ. وما دام هو ﷺ موجوداً بين أظهرهم فمعلوم أن المصير إلى ما يقوله ﷺ، وهذا معنىٰ: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ﴾ فإنه نهاهم عن النزاع؛ لأن التنازع أكبر أسباب الفشل.

والتنازع غالباً يكون بسبب الأغراض الشخصية، وتقديم الأغراض الشخصية الدنيوية على المصالح العامة، فهذه البلية سوسة في الدنيا، وهي أضرّ أدواء هذا العالم، وهي تقديم المصالح الشخصية علىٰ المصالح العامة، وقد نزلت بسببها بليّة يتضمنها إشكال أزاله الله بفتوىٰ سماوية من عنده؛ لأن الله (جل وعلا) ربما سلط بعض الكفار على بعض المسلمين، وهي مشكلة واقعة الآن، يقول هؤلاء الشباب ـ الذين هم خفافيش أعماهم نور الإسلام، فصاروا يتطلبون النور في ظلام آراء الكفرة الفجرة ـ يقولون: كيف نكون على الحق وديننا دين حق ونحن مستضعفون مضطهدون في أقطار الدنيا، والكفار الذين تقولون: إنهم على باطل وليسوا على حق هم الذين معهم القوة والسيطرة، يبتزون ثرواتنا، ويضطهدوننا في أقطار الدنيا؟ وهذه المشكلة إنما يسببها التنازع والفشل، والأغراض الشخصية، وتقديمها على المصالح العامة. وهذا الإشكال بعينه قد استشكله أصحاب رسول الله ﷺ والنبي ﷺ موجود بين أظهرهم، والمَلَك يروح ويغدو بالوحي، فأفتىٰ الله فيه فتوىٰ سماوية هي قرآن يتلىٰ في سورة آل عمران، وذلك أن النبي ﷺ يوم أحد لما صفّ الصفوف، والتحم القتال بين المسلمين والمشركين، وكان المسلمون سبعمائة مقاتل، والمشركون ثلاثة آلاف مقاتل، أخذ عبدالله بن جبير ـ أخا خوّات بن جبير ـ (رضي الله عنهم) وأمّره على طائفة الرماة، وقال له: «**كونوا عند سفح هذا الجبل** ـ يعني جبل أحد ـ **ولا تأتونا أبداً، إن غَلَبْنَا القوم فلا تأتونا،**

وإن غلبناهم فلا تأتونا»[1]، وأمرهم بأن يثبتوا عند سفح الجبل لئلا يأتيهم القوم من الوراء من بينهم وبين الجبل، فلما التحم القتال في المرة الأولىٰ، وهلك حملة اللواء من بني عبد الدار، وانهزم المشركون هزيمة منكرة، ترك الرماة أمر رسول الله ﷺ لمصالحهم الشخصية، وهي الانتفاع بمال الغنيمة، فقال لهم رئيسهم عبدالله بن جبير (رضي الله عنه): أما أنا فلا أُخالف قول رسول الله ﷺ. وبقي معه نفر قليل. والآخرون راحوا يطلبون الأغراض الشخصية الدنيوية، وتركوا أمر الرسول. فنظر المشركون فإذا الجبل ليس دونه رجال، فجاؤوا من سفح الجبل وأتوهم من وراء ظهورهم، ودارت عليهم رحىٰ الحرب، وأوقع الله ما أوقع بالمسلمين، كما قصّه في سورة آل عمران في يوم أحد، قُتل من خيار الأنصار سبعون رجلاً، وقُتل عم رسول الله ﷺ أسدالله حمزة بن عبد المطلب، وقُطع أنفه وأُذناه، وأُخذ بعض كبده لهند بنت عتبة، وقُتل ابن عمته عبدالله بن جحش، وقُتل حامل رايته مصعب بن عمير العبدري (رضي الله عنه). وشماس بن عثمان المخزومي، وأوقع الله ما أوقع بسبب تلك الأغراض الشخصية وتقديمها علىٰ أمر الرسول ﷺ، وجُرح ﷺ وشُقت شفته السفلىٰ اليمنىٰ، وكُسرت رباعيته، وشُج حتىٰ غاص في جبهته بعض حِلَق المغفر الذي هو على رأسه، وانتزعه أبو عبيدة بن الجراح (رضي الله عنه) فسقطت معه ثنيتاه العلييان لقوته، فكان أثرم (رضي الله عنه)، أي: ساقط الثنيتين. لما وقع هذا استشكله أصحاب رسول الله ﷺ هذا الاستشكال، وقالوا: كيف يُدال منا المشركون، وتكون لهم دولة علينا، ويقتلوننا ويجرحوننا وفينا رسول الله ﷺ ومعنا الحق؟ فهذا هو وجه الإشكال. فأفتىٰ الله بإزالة هذا الإشكال فتوىٰ سماوية، قرآناً يُتلى في آل عمران، قال: ﴿أَوَ لَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ﴾ [آل عمران: الآية ١٦٥] يعني بقتل السبعين الذين قُتلوا منكم يوم أُحد ﴿قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا﴾ سابقاً يوم بدر بأن

---

(١) البخاري في الجهاد والسير، باب ما يكره من التنازع والاختلاف في الحرب. حديث رقم: (٣٠٣٩) (٦/١٦٢). وأطرافه في (٣٠٤٣، ٣٩٨٦، ٤٠٦٧، ٤٥٦١).

قتلتم سبعين وأسرتم سبعين على أصح التفسيرين وأكثرهما قائلا، ﴿قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا﴾ وهو محل الشاهد، هذا استشكال الصحابة ﴿قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا﴾ من أين جاءنا هذا، وكيف يُدالون منا، ونحن على حق، وهم على باطل، وفينا رسول الله ﷺ، وعلينا ينزل القرآن؟ كيف يُدالوان منا؟ هذا الاستشكال نص عليه الله في قوله: ﴿قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا﴾ فأجاب الله بفتواه الإلهية السماوية قال لرسوله: ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ من قِبَلِكم جاءت البلية، وأنتم الذين جنيتموها على أنفسكم، وقوله: ﴿هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ فيه إجمال أوضحه الله في آية سورة آل عمران هذه، أوضحه بقوله: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ [آل عمران: الآية ١٥٢] يعني: بالنصر على الأعداء ﴿إِذْ تَحُسُّونَهُم﴾ يعني تقتلونهم قتلا ذريعاً يطفأ معه الحس، ويزول الحس بعده. ﴿إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا﴾ من هذه البلايا جاءت البلية ووقع ما وقع؛ ولذا نهى الله عن هذا قال: ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا﴾ [الأنفال: الآية ٤٦] وأكبر أسباب النزاع: تقديم المصالح الشخصية والأغراض الدنيوية على المصالح العامة. وهذه أكبر البلايا التي يأتي من قِبَلِها الشر للمسلمين؛ لأنه قد يخالف بعض المسلمين فتكون العقوبة عامة للجميع. وهذا معنى قوله: ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا﴾ [الأنفال: الآية ٤٦].

الفشل: ضد النجاح. قال بعض العلماء: معناه تضعفوا ويستولي عليكم الخور[1] ﴿فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ الإنسان إذا كان في عمل يدبره ليُحصّل وراءه نتيجة فإن تم له عمله ووقع ما أراد قالت العرب: نجح في أمره. وإن كان عكس ذلك قالوا: فشل في أمره، لم ينجح. وقال بعض العلماء: ﴿فَتَفْشَلُوا﴾ يستولي عليكم الضعف والخور؛ لأن النزاع من أكبر أسباب الضعف والخور وعدم انتظام الكلمة، وهذا النزاع والاختلاف هو مشكلة عظمى في أقطار الأرض؛ لأن من يتسمّون باسم المسلمين ينازع

(١) انظر: ابن جرير (١٣/٥٧٥).

بعضهم بعضاً، ويعادي بعضهم بعضاً، وقد بين تعالىٰ في سورة الحشر أن اختلاف القلوب، والمنازعات الشديدة، وتشتت الآراء والأفكار، وعدم الاتحاد، أن سبب هذا الذي يجتلبه به إنما هو ذهاب العقل وعدم العقل؛ لأن العاقل لا يتسبب في المخالفة؛ لأنك إذا اختلفت أنت وأخوك كان تدبيره وكُلّ ما عنده من قوة يعمل ضدك، فإذا كنت عاقلًا ـ ولو عقلًا دنيوياً ـ كان تسببك في أن يكون معك؛ لأن كون قوته وما أعطاه الله في صالحك خير لك من أن يكون في غير ذلك؛ ولذا بيّن تعالىٰ أن سبب اختلاف القلوب هو ضعف العقول وعدمها، قال في قوم ـ وهم اليهود لعنهم الله ـ ﴿بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾ [الحشر: الآية ١٤] أي: مختلفة مفترقة، فرق متعادية مختلفة. ثم بين العلة التي أوجبت تشتت تلك القلوب قال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ وقد تقرر في علم الأصول أن العلل تعمّم معلولاتها وتخصصها كما هو معلوم في محله[1]. وهذا معنىٰ قوله: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال: الآية ٤٦] الفاء سببية. والمعنىٰ: أن التنازع سبب للفشل، والفشل: عدم النجاح والضعف والخور وعدم التمكن. والفاء سببية، والمضارع منصوب بعدها بـ (أن) المضمرة كما هو معلوم في محله. وقوله: ﴿وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ معطوف على المنصوب بـ (أن) المضمرة قبله.

وقوله: ﴿وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ للعلماء في المراد بالريح هنا أقوال متقاربة لا يكذب بعضها بعضاً[2]:

قال بعضهم: ﴿وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ معناه: تذهب قوتكم. وهذا كالتوكيد لقوله: ﴿فَتَفْشَلُوا۟﴾ لأن من فشلوا فقد ذهبت قوتهم، وحاصل الريح هذه في كلام العرب أنهم يريدون بها الدولة أعني: وتذهب دولتكم ويكون الأمر إلى غيركم؛ لأن العرب تقول: «هبت ريح فلان». أي: دالت دولته وجاء وقته الذي يتمكن به. وهذا معنىٰ معروف في كلام العرب وفي لغتها التي نزل

---

(١) انظر: نشر الورود (٢/٤٧٣).

(٢) انظر: ابن جرير (١٣/٥٧٥)، القرطبي (٨/٢٤)، البحر (٤/٥٠٣)، الأضواء (٢/٤١٤).

بها القرآن، وهو معنىٰ مشهور معروف. «هبت ريحك فاغتنم» أي: دالت دولتك وجاء الوقت الذي أنت تتمكن فيه. هذا معنىٰ معروف في كلام العرب، وعلىٰ هذا المعنىٰ ﴿وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ أي: تنعدم دولتكم وتضيع، ويصير الأمر إلى غيركم، وهذا المعنىٰ معروف في كلام العرب، ومنه قول الشاعر[١]:

يا صاحِبَيَّ ألا لا حيّ بالوادي ... إلا عبيداً قعوداً بين أذواد
أَتَنْظُرانِ قليلاً رَيْثَ غفلتِهِمْ ... أمْ تَعْدُوانِ فإنَّ الرِّيحَ للعادي

فقوله: «إن الريح للعادي» أن الدولة والظفر للذي يعدو فينهب فيأخذ، هذا معنىٰ قوله. وهذا معنىٰ معروف في كلام العرب، ومنه قول الآخر[٢]:

إذا هبَّت رياحُكَ فاغْتَنِمها ... فإنَّ لِكُلِّ عاصِفةٍ سُكُون

قال بعضهم: (إن) هنا اسمها ضمير الشأن، والمبتدأ وخبره خبرها، ومعنىٰ: (هبت رياحك) أي: دالت دولتك فاغتنم الفرصة (فإن لكل عاصفة سكون) أي: لكل دولة تولٍّ ودبور، هكذا قاله بعض العلماء. وهذا معنىٰ قوله: ﴿وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾.

﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ هذه وصايا سماوية، وتعاليم من رب العالمين عظيمة، من أخذ بها ظفر، ومن تركها فشل وذهبت ريحه لا شك.

وقوله: ﴿وَاصْبِرُوا﴾ الصبر في لغة العرب معناه: حبس النفس[٣]. تقول العرب: فلان صبر نفسه. أي: حبسها على المكروه، وشجعها على الشيء الصعب، هذا معنىٰ الصبر في لغة العرب، ومادته تتعدىٰ وتلزم،

---

(١) البيتان في الأغاني (٣٩١/٢٠)، فصل المقال في شرح كتاب الأمثال (٣٤٠/١)، والبيت الثاني في البحر (٥٠٣/٤)، الدر المصون (٦١٧/٥)، وقد ذكرهما الشيخ (رحمه الله) في الأضواء (٤١٥/٢).

(٢) البيت في القرطبي (٢٤/٨)، البحر (٥٠٣/٤)، الدر المصون (٦١٧/٥).

(٣) مضى عند تفسير الآية (٤٥) من سورة البقرة.

تقول العرب: صبر فلان فهو صابر أي: كان متصفاً بالصبر، وصبر نفسه أي: حبسها على المكروه. متعدياً للمفعول. ومن أمثلة تعديه للمفعول قوله تعالىٰ: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم﴾ الآية [الكهف: الآية ٢٨]. وقول عنترة، أو غيره[١]:

فصبرتِ عارفةً بذلك حُرَّةً ترسو إذا نفسُ الجبانِ تطلَّعُ

يعني: حبست نفساً عارفةً بذلك على القتال. هذا أصل معنىٰ الصبر.

والصبر في الشرع يتناول أموراً كثيرة منها[٢]: الصبر تحت ظلال السيوف؛ لأن الجنة تحت ظلال السيوف. ﴿وَٱصْبِرُوٓاْ﴾ أي: ويتناول ذلك الصبر صبركم تحت ظلال السيوف في الميدان، ويتناول الصبر أيضاً: الصبر عن معصية الله وإن اشتعلت نار الشهوات، والصبر على طاعة الله وإن كنت كالقابض على الجمر. يتناول الصبرُ الصبرَ علىٰ هذا كله، والصبر علىٰ المصائب عند الصدمة الأولىٰ. وهذا معنىٰ قوله: ﴿وَٱصْبِرُوٓاْ﴾.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ جل وعلا ﴿مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ ومعيته للصابرين معية نصر وتأييد وتوفيق؛ لأن الله (تبارك وتعالىٰ) ذكر في كتابه معية خاصة للمتقين والصابرين والمحسنين: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ [النحل: الآية ١٢٨] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: الآية ٤٠] فهذه المعية الخاصة هي بالنصر والتوفيق ونحو ذلك. والمعية العامة هي بالإحاطة الكاملة، ونفوذ العلم، وإحاطته ـ جل وعلا ـ بكل شيء معلومة، وهي المذكورة في قوله: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ﴾ [المجادلة: الآية ٧] ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: الآية ٤] لأن جميع الكائنات بسماواتها وأرضها في يد خالق السماوات والأرض أصغر من حبة خردل،

---

(١) السابق.

(٢) السابق.

فهو مع جميعها بالإحاطة الكاملة العظيمة وبالإحاطة العلمية ونفوذ التصرف كما لا يخفىٰ. وهذا معنىٰ قوله: ﴿وَٱصْبِرُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنفال: الآية ٤٦].

لما أمرهم جل وعلا بالأوامر النافعة الكفيلة بالنجاح والسلامة من الفشل وذهاب الريح نهاهم عن أضدادها المستوجبة للفشل وذهاب الريح والانهزام قال: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟﴾ [الأنفال: الآية ٤٧] النهي معطوف على الأمر، لأن قوله: ﴿فَٱثْبُتُوا۟﴾ [الأنفال: الآية ٤٥] أمر. وقوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟﴾ نهي. والأمر والنهي كلاهما إنشاء، يُعطف كل منهما علىٰ الآخر بلا نزاع. وإنما الخلاف بين العلماء في عطف الإنشاء علىٰ الخبر، أو الخبر على الإنشاء، فمنعه جماعة من العلماء. والتحقيق الذي دل عليه القرآن العظيم واستقراء اللغة العربية: هو جواز عطف الخبر علىٰ الإنشاء، والإنشاء على الخبر[١]، وإن ظن منعه جماعة من علماء البلاغة[٢] ومن النحويين. ومن عطف الإنشاء على الخبر في القرآن العظيم قوله تعالىٰ عن أبي إبراهيم: ﴿أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا﴾ [مريم: الآية ٤٦] فقوله: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ﴾ الآية، خبر، وقوله: ﴿وَٱهْجُرْنِى﴾ إنشاء؛ لأنه أمر، فهو إنشاء معطوف على خبر، وهذا المعنىٰ معروف في كلام العرب، ومنه قول امرىء القيس[٣]:

وإن شِفائي عَبْرةٌ إنْ سَفَحْتُها وهلْ عند رسْمِ دارسٍ من معول

لأن الشطر الأول خبر، والشطر الثاني إنشاء، وهو معطوف عليه. ونظيره قول الآخر[٤]:

تُنَاغي غزالاً عند بابِ ابن عامرٍ وكَحِّلْ مآقيك الحسان بإثمدِ

---

(١) انظر: ضياء السالك (٣/٢١٤، ٢٢٠)، التوضيح والتكميل (٢/١٨٩).

(٢) انظر: المقتصد (٢/٩٥٨).

(٣) ديوانه ص١١١.

(٤) البيت لحسان (رضي الله عنه)، وهو في ديوانه ص٨٣، وله روايات متعددة.

وهو عطف إنشاء على خبر، وهذا هو الصواب.

﴿وَلَا تَكُونُوا۟﴾ [الأنفال: الآية ٤٧] أيها المؤمنون كالكفرة الفجرة أصحاب الفخر والخيلاء والرياء، فإن الفخر والخيلاء والرياء أوصاف ليست بأوصاف المسلمين، وليست بأوصاف المقاتلين الناجحين الظافرين في الميدان ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم﴾ هم كفار مكة، وهم نفير الجيش الذي التقوا معه يوم بدر بإجماع المفسرين خرجوا من ديارهم في مكة المكرمة ـ حرسها الله ـ ﴿بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾ أي: لأجل البطر ومراءات الناس، وقال بعضهم: هو مصدر مُنكَّر بمعنى الحال. خرجوا في حال كونهم متصفين بالبطر والرياء. وكونه مفعولًا لأجله أظهر[1].

البطر في لغة العرب: هو التكبر عن قبول الحق مع غمط الحقوق. وتكبرهم هذا المشار إليه هنا هو الذي بينا في قصة أبي جهل[2]؛ لأن الكفار لما كانوا بالعدوة القصوىٰ من بدر، وأرسلوا عمير بن وهب الجمحي (رضي الله عنه) ـ وكان إذ ذاك كافراً ـ وقالوا له: أحزر لنا القوم. فجاء فحزرهم، فقال: القوم ثلاثمائة يزيدون قليلًا أو ينقصون قليلًا، ولكن دعوني أنظر هل لهم كمين؟ فجال في فرسه في وادي بدر حتىٰ أبعد، قال: ليس للقوم كمين، ولكني يا قوم رأيت البلايا تحمل المنايا، رأيت نواضح يثرب تحمل الموت الناقع، والله لا يُقتل رجل منهم حتى يَقْتُل رجلًا منكم، وإن مات منكم أعدادهم فلا خير في الحياة بعد ذلك، فرأيي أن تنصرفوا. فأيده حكيم بن حزام (رضي الله عنه)، وذهب إلىٰ عتبة بن ربيعة وقال له: يا أبا الوليد إن عِيْر قريش نجت من محمد ﷺ وليس لهم لديه مطلب إلا دية ابن الحضرمي ـ عمرو بن الحضرمي ـ الذي قُتل في سرية نخلة، وهو حليفك فتحمَّل ديته وخلّ الناس يرجعون فإنه لا خير لهم في لقاء محمد ﷺ. فاجتمع عتبة وحكيم وعمير بن وهب علىٰ هذا الرأي، ولكن قال له عتبة:

---

(١) انظر الدر المصون (٥/٦١٦).

(٢) مضى عند تفسير الآية (٥) من سورة الأنفال.

يا بن حزام إذهب إلىٰ ابن الحنظلية ـ يعني أبا جهل عمرو بن هشام ـ قبحه الله ـ فقل له هذا. فلما جاءه قال له: انتفخ سحر عتبة ـ يعني انتفخت رئته من الخوف ـ فغضب عندها عتبة وقال: سيعلم مصفرّ أسته غداً من الجبان!! ثم إن أبا جهل ـ لعنه الله ـ قال لابن الحضرمي: أنت ترى ثأرك فلا يردّنك هؤلاء عن ثأرك فتقدم واطلب ثأر أخيك، فتقدم عامر بن الحضرمي وقال: واعَمْرَاه، واعَمْرَاه. ينشد ثأره من أخيه عمرو الذي قتلته سرية عبدالله بن جحش (رضي الله عنه) في نخلة كما هو مشهور، فلما قالوا له: ارجع بنا. قال ـ وهو محل الشاهد ـ قال: والله لا نرجع حتى نرد ماء بدر ـ وكان بدر موسماً من مواسم العرب، وسوقاً يبيعون فيه في السنة ـ ونشرب الخمور، وننحر الجزور، وتعزف علينا القيان، وتسمع بنا العرب فلا يزالون يهابوننا!! فهذا هو فخره وخيلاؤه وبطره ورئاؤه الذي بينه بقوله: تسمع بنا العرب فلا يزالون يهابوننا ﴿وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾ [الأنفال: الآية ٤٧] هو الذي يفعل الفعل لأجل أن يراه الناس فيحمدونه عليه، ويعظمونه عليه لا لوجه الله. وهذا معنىٰ قوله: ﴿كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بَطَرًا﴾ أي: لأجل البطر. أو: بطرين متكبرين عن الحق، متصفين بالفخر والخيلاء.

وقال بعض العلماء: البطر التكبر عن الحق مع غمط الناس حقوقهم.

قال بعضهم: البطر سوء احتمال النعمة، فمن أنعم الله عليه نعمة وصار يعمل فيها عمل الإسراف فيما لا يرضي فهو من البطرين. وعلىٰ كل حال فهم بطرون لأنهم تكبروا عن قبول الحق، وغمطوا الناس حقوقهم، وجاؤوا في فخر وخيلاء. وفي قصة بدر أن النبي ﷺ لما رآهم متصوبين من كثيب بدر قال: «**اللهم هذه قريش أقبلت تحادّك وتكذب رسولك، هذه قريش أقبلت بفخرها وخيلائها** ـ وهو محل الشاهد ـ **تحادّك وتكذب رسولك، اللهم أحنهم الغداة**»[1] كما هو معروف في محله. وهذا معنىٰ قوله: ﴿كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾ هم أبو جهل وأصحابه من النفير الذين قُتل أشرافهم، وأسروا على شفير بدر كما هو معروف.

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٩) من هذه السورة.

وكان بعض العلماء يقول[١]: أفخر بيت قالته العرب بيت حسان ابن ثابت (رضي الله عنه) في بدر حيث يقول[٢]:

وفي بئرِ بدرٍ إذْ يصد وجُوهَهُم جبريلُ تحتَ لِوَائِنَا ومحمد ﷺ

وهذا معنى قوله: ﴿كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِم بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ هذه (صدَّ) المتعدية[٣]، والمفعول محذوف لدلالة المقام عليه، أي: يصدون الناس ﴿عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ والسبيل في لغة العرب[٤]: الطريق، وهي تُذكّر وتُؤنّث. وجاء في القرآن تذكير السبيل في قوله: ﴿وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ [الأعراف: الآية ١٤٦] ولم يقل: يتخذوها. ومن تأنيثها في القرآن قوله: ﴿قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ﴾ [يوسف: الآية ١٠٨] ولم يقل: هذا سبيلي، وقوله: ﴿تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾، ﴿تَبْغُونَهَا﴾ [آل عمران: الآية ٩٩] يعني السبيل كما هو معروف. وسبيل الله: دين الإسلام، وإنما قيل له: سبيل الله لأنه الطريق التي شرعها الله، وأصّل أصولها، وأمر بالسير عليها، ووعد من سار عليها الجنة، ومن تجنبها النار. فلذلك كانت سبيله؛ لأنه الذي شرعها، وأمر بسلوكها، ووعد من سلكها الخير، ومن لم يسلكها الشر؛ ولذا أُضيفت إليه فقيل لها: سبيل الله، ولذا قال: ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾، ﴿وَاللَّهُ﴾ جل وعلا بكل ما ﴿يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾؛ لأنه (جل وعلا) محيط بكل شيء. وفيه تهديد ووعيد لهم، فقد أحاط بهم وبأعمالهم، ومكّن منهم نبيه ﷺ فقتل رؤساءهم وأسرهم كما قدمنا إيضاحه. وهذا معنى قوله: ﴿وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [الأنفال: الآية ٤٧].

﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ

---

(١) انظر: البداية والنهاية (٢٧٩/٣).

(٢) لفظ الشطر الأول في المصدر السابق:

«وببئر بدر إذ يكف...»

(٣) مضى عند تفسير الآية (٤٥) من سورة الأعراف.

(٤) مضى عند تفسير الآيتان (٥٥، ١١٦) من سورة الأنعام.

وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٤٨﴾﴾ [الأنفال: الآية ٤٨].

﴿وَإِذْ زَيَّنَ﴾ حين زين ﴿لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾ [الأنفال: الآية ٤٨] وهؤلاء الذين زين لهم الشيطان أعمالهم هم الذين خرجوا من ديارهم بطراً ورئاء الناس ويصدون عن سبيل الله، هؤلاء زين لهم الشيطان أعمالهم. زينها لهم معناها: صيرها في أعينهم متصفة بالزين، والزين: ضد القبح، أي: زينها لهم، حسنها لهم حتىٰ صارت حسنة عندهم بتزيينه ووسوسته وإن كانت أقبح شيء.

والأعمال جمع عمل، وهو ما يصدر عن الإنسان. وقد عُلم باستقراء الشرع أن العمل الذي يزينه الشيطان ويُعاقب عليه ويُثاب عليه أنه أربعة أقسام، دل علىٰ هذا استقراء كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، واللغة العربية، أن ما يصدق عليه اسم العمل الذي يزينه الشيطان ويُثاب الإنسان عليه ويُعاقب عليه أربعة أنواع لا خامس لها[1]:

الأول منها: فعل الجوارح كالسرقة والزنا.

والثاني منها: القول؛ لأن القول فعل اللسان، وقد سمى الله في سورة الأنعام القول فعلًا حيث قال جل وعلا: ﴿زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ [الأنعام: الآية ١١٢] فسماه فعلاً.

الثالث: العزم المصمم؛ لأن عزم الإنسان وتصميمه على الفعل بحيث لا يمنعه منه إلا العجز عنه هذا الفعل الذي صمم عليه وعزم عليه فكأنه عمله بعزمه وتصميمه، فهو عمل يزينه الشيطان ويُؤخذ به فيثاب ويعاقب عليه، والدليل على أن هذا العزم المصمم أنه من جملة العمل الذي يدخل صاحبه النار مثلًا: ما أخرجه الشيخان في صحيحيهما - أعني البخاري ومسلماً رحمهما الله - من حديث أبي بكرة رضي الله

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٤) من سورة الأنعام.

عنه: «**إذا التقىٰ المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار**» قالوا: يا رسول الله قد عرفنا القاتل فما بال المقتول؟!» فهؤلاء الناس سألوا رسول الله ﷺ أن يُبرز لهم ويبين العمل الذي دخل بسببه المقتول النار؛ لأنه لم يَقتُل!! فأجابهم ﷺ في هذا الحديث الصحيح المتفق عليه: «**إنه كان حريصاً على قتل أخيه**»[1]. والجواب على طبق السؤال، فبيّن أن عمله الذي أدخله النار حرصه على قتل أخيه، وهو عزمه المصمم وإن لم يتمكن منه.

أما العزم الغير المصمم بأن يخطر في ذهنه أنه يفعل كذا ثم يراقب الله فيتركه، فتلك السيئة التي همّ بها تكتب له حسنة؛ لأنه تركها خوفاً من الله. وهو معنى قوله ﷺ: «**ومن هم بسيئة فلم يعملها كُتبت له حسنة**»[2] لأنه تركها خوفاً من ربه فكان ذلك حسنة؛ ولذلك كان جابر بن عبدالله (رضي الله عنه) وهو من بني سلمة، وبنو سلمة وبنو حارثة ـ من الأنصار ـ هم الذين أنزل الله فيهم يوم أحد: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا﴾ [آل عمران: الآية ١٢٢] قال: ﴿هَمَّت طَّآئِفَتَانِ﴾ هذا الهمّ ليس بعزم مصمم؛ لأن الله قال بعده: ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾ فكان جابر يقول: مع أن الله ذكر أنّا هممنا أن نفشل وهذه وصمة فينا، ولكن والله ما نحب أن الله لم ينزلها لأنه قال بعدها: ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾ فالتي بعدها تداويها وتزيد، هذا معنىٰ كلامه (رضي الله عنه)[3]. فالعزم المصمم من العمل الذي يزينه الشيطان ويدخل صاحبه بسببه النار.

الرابع: الترك، والتحقيق أن التروك أفعال يزينها الشيطان، يدخل صاحبها بها النار، ويُثاب بها فيدخل بسببها الجنة. هذا هو التحقيق إن شاء الله. وقد كان ابن السبكي ـ تاج الدين ـ في بعض كتبه في علم الأصول في بحث أهل الأصول في الترك هل هو فعل أو ليس بفعل؟ قال:

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٤) من سورة الأنعام.

(٢) السابق.

(٣) مضى عند تفسير الآية (١٠٨) من سورة الأنعام.

طالعت كتاب الله فوجدت من كتاب الله آية في سورة الفرقان يفهم منها أن الترك فعل[١].

ونحن نقول: إن هذه الآية التي أوردها ابن السبكي لا يظهر لنا وجه الدلالة منها كل الظهور، إلا أنا اطلّعنا على آيتين من سورة المائدة كلهما صريحة في أن الترك من الأفعال، وأنه من الأعمال التي يؤاخذ بها الإنسان. وإيضاح ذلك: أنك لو تركت الصلاة حتى خرج وقتها، أنت ما فعلت شيئاً إلا أنك تركت الصلاة، فهذا الترك فعل يُقتل صاحبه بسببه، ويدخل به النار، ويكفر به عند من قال ذلك. فلولا أن الترك فعل لما كان تارك الصلاة كافراً عند من يقول بذلك، ولما وجب قتله كفراً عند أحمد في مشهور مذهبه، وحداً عند مالك والشافعي في مشهوري مذهبهما، وإيضاح هذا أن ابن السبكي قال: قوله تعالىٰ: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾﴾ [الفرقان: الآية ٣٠] قد فهمت من هذه الآية في سورة الفرقان أن الترك فعل؛ لأن الأخذ: هو التناول، والمهجور: المتروك، أي: تناولوه متروكاً. فدل علىٰ أن الترك فعل يُؤتى بالتناول، وهذا لا يظهر لي كل الظهور.

أما الآيتان اللتان عثرنا عليهما في سورة المائدة، الدالتان علىٰ أن الترك فعل من الأفعال:

فإحداهما قوله تعالىٰ: ﴿لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ﴾ ثم قال: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ﴾ [المائدة: الآية ٦٣] وإنشاء الذم بقوله ﴿بِئْسَ﴾ هنا متوجه على ترك الربانيين والأحبار النهي، وقوله: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ﴾ أي: بئس ما يصنعه الربانيون والأحبار وهو تركهم. فسمّى تركهم الأمر بالمعروف صُنعاً، والصُّنع أخص من مطلق الفعل، وهذا هو التحقيق في معنى الآية، وهو نص صريح في أن الترك من الأفعال.

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٤) من سورة الأنعام.

والآية الأخرىٰ: قوله في المائدة أيضاً: ﴿كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ۝٧٩﴾ [المائدة: الآية ٧٩] وهو عدم تناهيهم عن المنكر، فسمّى تركهم التناهي عن المنكر (فعلاً) وذمه أيضاً بالفعل الجامد الذي هو لإنشاء الذم أعني: (بئس) لأن (نِعْمَ) لإنشاء المدح، و(بئس) لإنشاء الذم، كما هو معروف في محله[(١)].

وقد أجرىٰ العلماء علىٰ هذا الاختلاف فروعاً كثيرة في المذاهب[(٢)]، هل الترك فعل أو لا؟

قالوا: فبناء على أن الترك فعل: إذا كان الإنسان عنده خيوط من حرير مثلًا، وشُق بطن واحد من رفقته، وأمسك عنه خيوط الحرير تخاط بها بطنه حتىٰ هلك. فعلىٰ أن الترك فعل فقد أهلكه بتركه، فتلزمه ديته، وعلىٰ أن الترك [ليس][(٣)] بفعل لا غرامة عليه.

وكذلك من كان عنده ماء يفضل عن سقي زرعه، وجف زرع جاره إذا أمسك عنه الماء الفاضل عنه، فعلىٰ أن الترك فعل يضمنه؛ لأنه أفسده بفعله، وعلىٰ أنه ليس بفعل فلا.

ومن هذا: ناظرو الأوقاف، والأوصياء على اليتامىٰ، إذا تركوا إيجار دورهم وقت الإيجار حتى فاتت الفرصة، فعلىٰ أن الترك فعل يضمنون، وعلى أنه ليس بفعل لا يضمنون، وهي قاعدة كثيرة الفروع في مذاهب الأئمة (رحمهم الله) بسطها وبسط فروعها مقرّر في مذاهبهم. وأصح القولين: أن الترك فعل، وأنه عمل من الأعمال التي يزينها الشيطان، وكان ﷺ أيام بنائه لهذا المسجد الشريف - يسرَّ الله له العمارة بطاعة الله وعبادته - كان النبي ﷺ ممن يعمل فيه وبعض الصحابة جلوس، فقال بعضهم[(٤)]:

لئن قعدنا والنبيُّ يعملُ   لَذاكَ منّا العملُ المُضَلّل

(١) مضى عند تفسير الآية (٤٠) من سورة الأنفال.

(٢) راجع ما سبق عند تفسير الآية (٥٤) من سورة الأنعام.

(٣) ما بين المعقوفين [ ] زيادة يقتضيها الكلام.

(٤) مضى عند تفسير الآية (٥٤) من سورة الأنعام.

فسمىٰ قعودهم وتركه العمل سماه «عملًا مضللًا» وهذا معروف، ويدل عليه قوله ﷺ: **«المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده»**(١) فسمىٰ ترك الأذىٰ إسلاماً، ومعلوم أن الإسلام لا يكون بالعدم إلا بأفعال، وهذا يبين أن الأعمال التي يزينها الشيطان فيؤآخذ الإنسان بها أربعة: أعمال الجوارح (وهي الأفعال)، وأعمال اللسان (وهي الأقوال)، والعزم المُصَمِّم، والترك، كما لا يخفىٰ، وهذا معنىٰ قوله: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾.

﴿وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الأنفال: الآية ٤٨] الله هنا في هذه الآية من سورة الأنفال صرح بأن الشيطان (قال) ولم يقل: (وسوس) فصرح بالقول ولم يذكر الوسوسة؛ لأن الشيطان تمثل لهم في صورة سراقة بن مالك بن جعشم المدلجي البكري (رضي الله عنه)؛ لأن قريشاً لما جاءهم ضمضم بن عمرو الغفاري - أرسله لهم أبو سفيان - وتأهبوا للخروج وأجمعوا عليه، وبينهم وبين بني بكر بن كنانة عداوة، فخافوا أن يأتوهم من ورائهم فيأخذوا نساءهم وذراريهم، فجاءهم إبليس في صورة سراقة بن مالك، وكان سيد بني مدلج، وهو من سادات بني بكر بن كنانة، وقال لهم: إني جار لكم، أجيركم من كنانة فلا يصل إليكم منهم سوء، وزين لهم هذه الأعمال، وقال: أنتم على حق، هذا الرجل الذي سفه أحلامكم، وفرق كلمتكم، وعاب آلهتكم، وسفّه آباءكم، فاذهبوا إليه ولا تتركوه يأخذ عِيْرَكم، ونحو هذا من التزيين، ولا غالب لكم لشرفكم وقوتكم، وأنكم قطّان بيت الله الحرام، زين لهم هذا التزيين، وقال لهم: إنه جار لهم يجيرهم من بكر بن كنانة، وذهب معهم وهم يعتقدونه سراقة بن مالك(٢)، فلما فرّ عنهم صاروا يعيبون سراقة ولم يعلموا أنه الشيطان حتىٰ أسلموا وسمعوا القرآن يُتلىٰ أنه الشيطان تمثل لهم في صورة سراقة،/ وفيه يقول حسان: ١/٦

---

(١) مضى عند تفسير الآية (١٠٨) من سورة الأنعام.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٣٠) من هذه السورة.

سرنا وساروا[1] [إلى بدر لحينهم لو يعلمون يقين الأمر ما ساروا
دلاهم بغرور ثم أسلمهم إن الخبيث لمن والاه غرار
وقال: إني لكم جار فأوردهم شرَّ الموارد فيه] الخزي والعار

هذا معنىٰ قوله: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ﴾ [الأنفال: الآية ٤٨] فلما صف معهم للقتال ـ وكان حاضراً إذ ذاك ـ رأىٰ الملائكة تنزل، وكان إبليس اللعين لما رأىٰ الملائكة عرفها، ولما عرف الملائكة خاف خوفاً شديداً؛ لأن الشياطين أخوف ما تخافه الملائكة (صلوات الله وسلامه عليهم)، فعند ذلك ﴿نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ أي: رجع القهقرى. والعقب: مؤخر الرجل؛ لأن الراجع القهقرى يمشي على عقبيه، أي: منعكساً متقهقراً. ﴿وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكُمْ﴾ تبرأت منكم، كما هي عادة الشيطان، يورد الإنسان الهلاك حتىٰ إذا أوقعه فيه تبرأ منه؛ لأنه غرار خداع كما قال تعالىٰ: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكَ﴾ [الحشر: الآية ١٦] وقد يتبرأ منهم ـ لعنهم الله ـ كما سيأتي في خطبة الشيطان خطبته الفصيحة العظيمة الصادقة التي يخطبها في أوليائه يوم القيامة، التي نص الله عليها في سورة إبراهيم الخليل؛ لأنه إذا اجتمعت الخلائق ورأى الكفار ﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُواْ عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ [الكهف: الآية ٥٣] جاؤوا لإبليس اللعين وقالوا: أنت كنت سيدنا وكنا نطيعك، فإن كان عندك شيء اليوم فأت به. قال بعض العلماء: ينصب له منبر من نار[2] ـ والله أعلم ـ بمثل هذا. ونصب المنبر له من النار شبه إسرائيليات، والخطبة صحيحة ذكرها الله في سورة إبراهيم الخليل، وهو قوله لهم: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا

---

(١) في هذا الموضع انقطاع في التسجيل، والأبيات ذكرها الشيخ (رحمه الله) فيما مضى عند تفسير الآية (١١٢) من هذه السورة، فنقلتها هنا وجعلت ذلك بين معقوفين.

(٢) انظر: ابن جرير (١٦/٥٦٣).

تَلُومُونِي وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ﴾ [إبراهيم: الآية ٢٢] وهو صادق في كلامه هذا، وقد يصدق الكذوب، فعند ذلك يمقتون أنفسهم حيث اتبعوا هذا الخائن الغدار الغرار، وعندما يمقتون أنفسهم في ذلك الوقت قال بعض العلماء: ينادون: ﴿لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ﴾ [غافر: الآية ١٠] ولذا قال تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ﴾ [الأنفال: الآية ٤٨] تراءت: (تفاعلت) من (رأىٰ) البصرية. أي: كان كل من الفئتين يرىٰ الأخرى ببصره رأي العين كما تقدم في قوله: ﴿يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ﴾ [آل عمران: الآية ٣٣] ﴿تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ﴾ أي: فئة المسلمين وفئة الكفار، صار هؤلاء يرون هؤلاء عياناً بأعينهم، وهؤلاء كذلك. قال بعض العلماء: ونزل الملائكة لنصر المسلمين، ورأىٰ إبليس الملائكة، ويدل علىٰ هذا قوله: ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ﴾ يشير إلىٰ الملائكة؛ لأن الكفار لم يروها وهو قد رآها، وهذا معنىٰ قوله: ﴿وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ﴾ قال بعض العلماء: هو الملائكة. وعبّر عنه بـ (ما) لأنه أبهمه عليهم ولم يبين لهم أنه من العالِم ولا العاقل. وهذا معنىٰ قوله: ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ﴾.

﴿إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ﴾ أن ينزل بي عقابه ونكاله، فالله (جل وعلا) شديد العقاب. وقد قدمنا في هذه الدروس مراراً[1] أن الخوف في لغة العرب: هو الغم من أمر مستقبل. والحزن في لغة العرب: الغم بسبب أمر فائت - أعاذنا الله منهما - وربما وضعت العرب الخوف مكان [الحزن، والحزن][2] مكان الخوف. وقوله: ﴿أَخَافُ﴾ الألف بعد الخاء مبدلة من واو، وأصل مادته (فَعِل) بالكسر، أصل ماضيه: (خَوِفَ) بكسر الواو (يَخْوَفُ) بفتحها، فوقع فيه الإعلال المعروف المشهور في التصريف[3].

(١) مضى عند تفسير الآية (٤٨) من سورة الأنعام.

(٢) في الأصل: «الغم، والغم» وهو سبق لسان.

(٣) انظر: معجم مفردات الإبدال والإعلال ص٣٦٦.

﴿أَخَافُ ٱللَّهَ﴾ يعني: أترقب الغم من سبب ما يصلني منه في المستقبل. ﴿وَٱللَّهُ﴾ جل وعلا ﴿شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ إذا عاقب فعقابه شديد.

والعقاب: هو التنكيل بسبب الذنب. قال بعض العلماء: سمي عقاباً لأنه يأتي عقبه من أجله. وقد قدمنا أنه (جل وعلا) هو وحده شديد العقاب؛ لأنه لا شدة عقاب يملكها غير الله (جل وعلا)؛ لأن أكبر طاغية من جبابرة أهل الأرض لا يقدر على شيء من العذاب إلا قَدْرَ ما يستوجب الموت مرة واحدة، فإذا عذب المجرم بقدر ما يستوجب الموت مات. والله وحده يعذب المجرمين بالآلاف والملايين مما يستوجب الموت ومع ذلك لا يموتون ﴿وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾ [إبراهيم: الآية ١٧] ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ [النساء: الآية ٥٦] فهذا هو العذاب الشديد والنكال العظيم الذي يجب الحذر منه والخوف منه ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾﴾ [الفجر: الآيتان ٢٥، ٢٦].

﴿إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ۗ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۙ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٥٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ ۚ وَكُلٌّ كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الأنفال: الآيات ٤٩ ـ ٥٤].

يقول الله جل وعلا: ﴿إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ۗ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾﴾ [الأنفال: الآية ٤٩].

قوله: «إذ» ظرف بدل من «إذ» قبله، أو منصوب بـ (اذكر) مقدراً. اذكر إذ يقول المنافقون.

المنافقون: جمع التصحيح للمنافق، وهو المتصف بالنفاق، والنفاق:

هو إظهار الإيمان وإبطان الكفر. والمنافق هو المعروف في اصطلاح الفقهاء بالزنديق، فالمنافقون الذين يلقون المسلمين ويقولون: إنهم مؤمنون. وهم في باطن الأمر بخلاف ذلك.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ اختلف العلماء في المراد بالذين في قلوبهم مرض على أقوال متقاربة لا يكذب بعضها بعضاً[١].

قال بعض العلماء: ﴿الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ هم نفس المنافقين، وإنما كان العطف نظراً إلى مغايرة الصفات، كأنه يقول: الجامعون بين النفاق ومرض القلوب قالوا كذا وكذا، ومعلوم في اللغة العربية التي نزل بها القرآن أن عطف الشيء على نفسه مذكوراً بصفات مختلفة نظراً إلى أن تغاير الصفات كتغاير الذوات أسلوب عربي معروف في كلام العرب، وهو موجود بكثرة في القرآن[٢]، كقوله في أول سورة البقرة: ﴿ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ [البقرة: الآيات ٢ ـ ٤] والمعطوفون هم الأولون، إلا أن الصفات اختلفت فجاء العطف نظراً لتغاير الصفات. ونظيره في القرآن أيضاً قوله تعالى: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ۝ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝ وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَىٰ ۝﴾ [الأعلى: الآيات ١ ـ ٤] فالمتعاطفات شيء واحد عُطف بعضها على بعض نظراً لتغاير الصفات، وهذا الأسلوب معروف في كلام العرب، ومن شواهده العربية قول الشاعر[٣]:

إلى المَلِكِ القَرْمِ وابنِ الهُمَام ولَيْثِ الكتيبة في المُزْدَحَم

فهو إنسان واحد، وذُكرت العطوف نظراً لتغاير الصفات. ومما يؤيد هذا القول: أن الله وصف المنافقين بأن في قلوبهم مرضاً في قوله: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة: الآية ١٠] وهي في المنافقين بلا نزاع.

---

(١) انظر: ابن جرير (١٤/ ١٢) القرطبي (٨/ ٢٧)، ابن كثير (٢/ ٣١٨).

(٢) مضى عند تفسير الآية (٥٤) من سورة البقرة.

(٣) السابق.

ومرض القلوب جاء في القرآن على معنيين:

أحدهما: مرض القلوب بمعنىٰ ما يداخلها من الشرك والشك والنفاق، كقوله: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة: الآية ١٠].

المعنى الثاني: إطلاق مرض القلب على القلب الذي يهوىٰ الفجور والزنىٰ ونحو ذلك، ومنه بهذا المعنى قوله في سورة الأحزاب مخاطباً أزواج النبي ﷺ: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾ [الأحزاب: الآية ٣٢] أي: يطمع في نيل الريبة منكن الذي في قلبه مرض. ميل إلى الفجور وما لا ينبغي، والعرب تعرف هذا، الذي ينطوي قلبه على أمور خسيسة، تقول العرب: في قلبه مرض، ومن هذا المعنى قول الأعشى - ميمون بن قيس - وهو عربي فصيح يمدح رجلا[1]:

حافظ للفرج راضٍ بالتقىٰ ليس ممن قلبه فيه مرض

وقال بعض العلماء: ﴿ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ المشركون، إذ لا مرض في القلوب أكبر من انطوائها على الشرك بالله.

وذهبت جماعة من العلماء إلى أن ﴿ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ في هذه الآية من سورة الأنفال خُصّ بها أناس معروفون هم الذين بسط الله قصتهم في سورة النساء، وهم قوم تكلموا بكلمة الإسلام فقالوا: لا إله إلا الله محمد رسول الله في مكة، ثم إنهم أبوا أن يهاجروا، وفي قلوبهم إسلام وإيمان ضعيف في قلوبهم على حرف هكذا وهكذا. وإذا قيل لهم: لِمَ لا تهاجرون وأنتم مسلمون؟ قالوا: نحن مستضعفون في الأرض. وهم الذين أنزل الله فيهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾ الآية [النساء: الآية ٩٧]. قالوا: جاؤوا مع كفار قريش فلما رأوا قلة المسلمين - وكان الله قلل المسلمين في أعين الكفار، والكفار في أعين المسلمين كما أوضحناه قريباً في قوله: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ [الأنفال: الآية

(١) لم أقف عليه.

٤٥] لما رأوا قلتهم وقللهم الله في أعينهم جداً ـ قالوا: هؤلاء قوم مغرورون، غرهم دينهم!! وزعموا أنهم على دين يُؤَيِّد القليل المتمسك به على الكثير فاغتروا من هنا، وهؤلاء سيُغلبون ويقتلون قطعاً!! وهؤلاء المستضعفون الذين نزل فيهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [النساء: الآية ٩٧] نفر من قريش معروفون، آمنوا بالله إيماناً ضعيفاً ولم يهاجروا، وجاؤوا مع الكفار يوم بدر، قال بعض العلماء: وهم الذين قالوا مع المنافقين: ﴿غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ﴾ [الأنفال: الآية ٤٩] وهم معروفون، وهم: العاص بن منبه بن الحجاج السهمي، وعلي بن أمية بن خلف الجمحي، وأبو قيس بن الفاكه ابن المغيرة بن عبدالله بن عمرو بن مخزوم، وابن عمه أبو قيس بن الوليد ابن المغيرة، والحارث بن زمعة بن الأسود بن المطلب، هؤلاء هم النفر المعرفون الذين قالوا: إنا ﴿كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ﴾ [النساء: الآية ٩٧] وعلىٰ كل حال فلما التقىٰ المسلمون والمشركون يوم بدر كان الذين في قلوبهم مرض من المنافقين، أو المشركين، أو هؤلاء النفر القليلين الذين آمنوا إيماناً ضعيفاً في مكة وخرجوا مع الكفار يوم بدر وقتلوا كفاراً ـ والعياذ بالله ـ قالوا: ﴿غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ﴾ الإشارة في قوله: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ إلى النبي ﷺ وأصحابه و ﴿دِينُهُمْ﴾ فاعل ﴿غَرَّ﴾ يعني: غرهم دينهم حيث اغتروا به وظنوا أن المتمسك بهذا الدين ولو كان قليلًا ضعيفاً يغلب القوي العظيم فاغتروا، وسيكون هذا الغرور سبباً لهلاكهم!! والعرب تقول: «غرّه يغرّه غروراً» على غير قياس. فالفاعل: غارّ، والمفعول: مغرور، إذا خدعه. وهم نسبوا هنا الغرور إلى الدين زاعمين أنهم انخدعوا في دينهم حيث يظنون أن القليل المتمسك به يغلب القوي غير المتمسك به، وهذا المعنىٰ معروف في كلام العرب، تقول: غرّه يغره. إذا خدعه، ومنه سُمي الشيطان غروراً لكثرة غروره للآدميين بتزيينه ووساوسه، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ [فاطر: الآية ٥] ومن هذا المعنىٰ قول ابن أبي ربيعة أو غيره[1]:

---

(١) البيت في شذور الذهب ص١٧٤.

إنَّ امـرأً غَـرَّهُ مـنـكـنَّ واحـدةٌ بعدي وبعدكِ في الدنيا لمغرور

ثم إن الله أجاب ربنا (جل وعلا) عما قاله المنافقون والذين في قلوبهم مرض قال لهم الله: لا. كأن المعنى: لا، لم يغر هؤلاء دينهم، وهم على بصيرة من أمرهم وعلى حق، ولكنهم توكلوا على الله، ومن توكل على الله توكل على قوي الجناب عزيز منيع لا يُضام من توكل عليه؛ ولذا قال: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ التوكل معناه: الثقة الكاملة، وتفويض الأمور إليه (جل وعلا). ﴿يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ يثق بالله ثقة كاملة ويسلم إليه أموره، ويفوض له تفويضاً تاماً توكلًا عليه. ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾ جل وعلا ﴿عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ الضمير الرابط محذوف دل المقام عليه. ومن يتوكل على الله فإنه يعزه بعزته وينصره؛ لأن الله عزيز حكيم.

والعزيز: هو الغالب الذي يقهر غيره ويغلبه فالله (جل وعلا) عزيز غالب على أمره. والعزة في لغة العرب: الغلبة ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ﴾ [المنافقون: الآية ٨] أي: ولله الغلبة ولرسوله. ﴿وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ﴾ [ص: الآية ٢٣] يعني: غلبني في المخاصمة. والعرب تقول: «من عزّ بزّ»[1] يعنون: من غلب استلب؛ لأنه كان الغالب ينهب مال المغلوب، ويقولون: «من عزّ بزّ»، وقد قالت الخنساء بنت عمرو الشريد السلمية الشاعرة[2]:

كأن لم يكونوا حمىً يُختشى إذ الناس إذ ذاك من عزّ بزّا

تعني: من غلب استلب. والحكيم[3]: هو ذو الحكمة البالغة، الذي لا يضع الأمر إلا في موضعه، ولا يوقعه إلا في موقعه. فاقتضت عزته وقهره وسلطانه ألَّا يُضام وليه المتوكل عليه المستند إليه، وألا يُقهر. واقتضت حكمته البالغة ألَّا يجعل وليه كعدوه، وألا يسوي بينهما بل ينصر وليه على عدوه. والحكمة لا تتم إلا بالعلم؛ لأن تمام الحكمة بتمام العلم؛

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٩٦) من سورة الأنعام.

(٢) السابق.

(٣) مضى عند تفسير الآية (٨٣) من سورة الأنعام.

ولذا لا تتم الحكمة تماماً كلياً إلا لله وحده (جل وعلا)؛ لأنه هو العالم بخفايا الأمور وخباياها وما تؤول إليه، فالله وحده هو الذي لا يجري عليه: لو فعلت كذا لكان خيراً. أما غيره فإنه قد يفعل الأمر يظنه صواباً، وأنه في غاية الحكمة، ثم يتبين له بعد ذلك أن غيره أصوب منه، فيقول: لو فعلت كذا لكان كذا!! وليتني لم أفعل!! وفي الحديث النهي عن (لو) لأنها تفتح باب الشيطان. لو فعلت كذا لكان كذا[١].

لـيـت شِـعْـرِي وأيـنَ مـنـي (لـيـتُ) إن (لـيـتـاً) وإن (لـواً) عـنـاءُ[٢]

العناء: التعب وكثرة: ليتني فعلت، وليتني لم أفعل، ولو فعلت كذا لكان كذا. كل هذا يقع من عدم العلم بعواقب الأمور، والله (جل وعلا) وحده لا يجري عليه: لو فعلت كذا لكان أصوب. لعلمه بما تنكشف عنه الغيوب، وما تؤول إليه الأمور، فالحكمة الكاملة له، أما غيره (جل وعلا) فقد يفعل الأمر يظنه حكمة وصواباً ثم ينكشف الغيب عن خلاف ذلك كما قال[٣]:

أُلامُ عـلـىٰ (لـوٍ) ولـو كـنـتُ عـالـمـاً بـأذنـاب (لـوٍ) لـم تـفُـتـنـي أوائـلـه

وهذا سيد البشر محمد ﷺ علمه الله العلوم العظيمة كان يقول في آخر عمره في حجة الوداع: «**لو استقبلت من أمري ما استدبرت لما سقت الهدي ولجعلتها عمرة**»[٤] فكيف بغيره ﷺ؟! وهذا معنىٰ قوله: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾ ـ جل وعلا ـ ﴿عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: الآية ٤٩].

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَـٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ۝٥٠ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ۝٥١﴾ [الأنفال: الآيتان ٥٠، ٥١].

---

(١) مسلم في القدر، باب في الأمر بالقوة وترك العجز...، حديث رقم: (٢٦٦٤) (٢٠٥٢/٤).

(٢) مضى عند تفسير الآية (١٢٨) من سورة الأنعام.

(٣) مضى عند تفسير الآية (٨٣) من سورة الأنعام.

(٤) مضى تخريجه عند تفسير الآية (٥٩) من سورة الأنعام.

﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ﴾ يا نبي الله. (لو) حرف شرط تقلب المضارع ماضياً غالباً. ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ﴾ هنا بمعنىٰ: لو رأيت. لأن (لو) من حروف الشروط التي تختص بالمعنىٰ الماضي غالباً، وفي أغلب أحوالها إذا جاء بعدها مضارع تقلبه إلىٰ معنىٰ المُضِي، وقد لا تقلبه إلىٰ معنىٰ المُضِي فيأتي بعدها مضارع، وهو ليس بكثير، ولكنه موجود في كلام العرب، ومن إتيان المعنىٰ بعدها مضارعاً ولو كان ماضياً: ﴿وَلۡيَخۡشَ ٱلَّذِينَ لَوۡ تَرَكُواْ مِنۡ خَلۡفِهِمۡ ذُرِّيَّةٗ ضِعَٰفًا﴾ [النساء: الآية ٩] لأن تركهم للذرية مستقبل؛ لأنهم في ذلك الوقت أحياء. ومن إتيانه مستقبلاً غير مصروف إلىٰ الماضي قول المجنون[1]:

فلو تلتقي أصْدَاؤُنا بعد موتنا ... ومن دون رمسينا من الأرض منكبُ
لظَلَّ صَدَىٰ صوتي وإن كنتُ رمة ... لصوت صَدَىٰ ليلي يهش ويطْرَبُ

﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ﴾ يا محمد صلوات الله وسلامه عليه ﴿تَرَىٰٓ إِذۡ يَتَوَفَّى﴾ ترىٰ حين يتوفىٰ الملائكة.

قرأ هذا الحرف عامة القراء السبعة غير ابن عامر: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ بالياء. وقرأه ابن عامر وحده: **﴿ولو تَرَى إِذ تتوفى الذين كفروا الملائكةُ﴾**[2].

وتتوفاهم: أصل التوفي في لغة العرب التي نزل بها القرآن معناه[3]: أخذ الشيء وافياً، تقول العرب: «توفيت دَيْني»، أي: أخذته وافياً. وكان حقيقة عرفية في أخذ الروح من البدن. فصار التوفي حقيقة عرفية في أخذ الروح وافية كاملة من البدن بحيث لم يبق فيه روح ألبتة.

والملائكة: جمع ملك. والتحقيق عند جماعة من العلماء: أن اشتقاق الملك من الألوكة، والألوكة: الرسالة[4]؛ لأن لطالب العلم أن يقول: مفرد

---

(١) البيتان في ديوانه ص٢٤.

(٢) انظر: المبسوط لابن مهران ص٢٢١.

(٣) مضى عند تفسير الآية (١٤٦) من سورة الأنعام.

(٤) مضى عند تفسير الآية (٥٠) من سورة الأنعام.

الملائكة ملك، وجمعه: الملائكة - بالهمزة - فمن أين جاءت هذه الهمزة؟ وما الجالب لها؟

والجواب عن هذا: ما قاله بعض العلماء: أن أصل الملك: (مألك) (مَفْعَل) من الألُوكَة. والألُوكَةُ في لغة العرب: الرسالة. وألكني إليه: احمل إليه مألكتي، أي: رسالتي، ومنه قول أبي ذؤيب الهذلي[1]:

أَلِكْني إليها وخَيْر الرسول أَعْلَمُهم بنواحي الخَبر

فأصله: (مألك) لأنهم يحملون مآلك الله، أي: رسالات الله، منهم من يُرسل لتسخير المطر، ومنهم من يُرسل لقبض الأرواح، ومنهم من يُرسل لضبط الأعمال، ومنهم من يُرسل لحفظ بني آدم أن تتخطفهم الشياطين، كما قال تعالىٰ عنهم: ﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا ۝٥﴾ [النازعات: الآية ٥] فلما كانوا يحملون المآلك، أي: الرسائل من الله في الشئون الشتىٰ قيل فيه: (مألك). ثم وقع فيه قلب فجُعل الفاء مكان العين، والعين مكان الفاء، وهذا القلب معروف في الصرف، فقيل فيه: (ملك) ووزنه: (مألك) (مَفْعَل) فقُلب فصار (ملك) علىٰ وزن (مَعْفَل) ثم نُقلت حركة الهمزة للام فقيل فيه: (ملك). فكان عند جمع التكسير تظهر الهمزة التي هي في أصله في محلها الذي قُلبت فيه، قال بعض العلماء: هذا أصله[2]. و ﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ فاعل ﴿تَتَوَفَّى﴾ أي: تقبض أرواحهم من أجسادهم كاملة. والفعل المضارع في قوله: ﴿يَضْرِبُونَ﴾ جملته حالية. وأصل الفعل المضارع المُثبت إذا كانت جملته حالية لا تُربط بالواو بل بالضمير كما هنا ﴿يَضْرِبُونَ﴾ أي: الملائكة. يعني: يتوفونهم يأخذون أرواحهم في حال كونهم ضاربين وجوههم وأدبارهم. الوجوه: جمع الوجه. والأدبار: جمع الدبر، وقال جماعة من السلف[3]: المراد بالأدبار: الأستاه - أكرمكم الله جل وعلا - قالوا: ولكن الله (جل وعلا)

---

(١) السابق.

(٢) السابق.

(٣) انظر: ابن جرير (١٤/١٥).

حييّ كريم يكني، فكنىٰ عن الاست بالدبر؛ ولذا قال: ﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَـٰرَهُمْ﴾.

وقوله: ﴿ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ مقول قول محذوف، أي: ويقولون لهم: ذوقوا عذاب الحريق.

اختلف العلماء في وقت ذوقهم عذاب الحريق[1]، قال بعض العلماء: هو عند وفاتهم عندما يأخذون أرواحهم يضربونهم بسياط من نار فتشتعل ناراً فيقولون لهم: ﴿ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾.

وقال بعض العلماء: هي للملائكة الذين قاتلوا في بدر يضربون الكفار، ويأخذون أرواحهم، ويضربونهم بسياط النار فتشتعل في جروحهم فيقولون لهم: ﴿ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾.

وقالت جماعة من العلماء: هذا يوم القيامة، وممن قال به: الحسن البصري، أي: يضربون وجوههم وأدبارهم الآن عند الاحتضار، ويبشرونهم يوم القيامة بما هو أدهىٰ وأمر من ذلك، وهو عذاب الحريق. وهذا معنىٰ قوله: توفاهم ﴿ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَـٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ [الأنفال: الآية ٥٠].

والتحقيق أن هذا ليس خاصاً بالذين قُتلوا من الكفار يوم بدر، بل هو عام، وأن الملائكة تضرب الكفار عند احتضارهم علىٰ الوجوه والأدبار، كما جاء مصرحاً به في سورة القتال، وجاء مشاراً إليه في الأنعام؛ لأن الله قال في الأنعام: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّـٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ﴾ [الأنعام: الآية ٩٣] باسطوها إليهم بالضرب ـ والعياذ بالله ـ وقال (جل وعلا) في سورة القتال: ﴿ٱلشَّيْطَـٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾﴾ وفي القراءة الأخرىٰ[2]: ﴿إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ فَكَيْفَ

---

(١) انظر: القرطبي (٢٨/٨).

(٢) انظر: المبسوط ولابن مهران ص٤٠٩.

إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٢٨﴾﴾ [محمد: الآيات ٢٥ ـ ٢٨] فدلت آية القتال هذه علىٰ أنها عامة في كل من كره رضوان الله وأحب سخط الله، فكل من اتبع ما يسخط الله يأتيه هذا الوعيد الشديد، ومن أعظم الناس نصيباً فيه هؤلاء الذين يأتون الكفرة الفجرة الذين يكرهون القرآن وما أنزل الله، ويقولون لهم: ﴿سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ﴾ [محمد: الآية ٢٦] وأحرىٰ إن أطاعوهم في كل الأمر، هؤلاء أكثر الناس نصيباً في ضرب الملائكة عند الاحتضار علىٰ الوجوه والأدبار ـ والعياذ بالله ـ وهذا معنىٰ قوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ﴾ [الأنفال: الآية ٥٠] قال بعض العلماء: الضرب علىٰ الوجوه والأدبار أشد وقعاً. وقال بعض العلماء: علىٰ القول بأنها في أهل بدر أنهم يضربون وجه المشرك مقبلاً، فإذا فرّ مدبراً ضربوا دبره. وقد قدمنا أن التحقيق العموم، وأنها لا تختص بمن قُتل في بدر. وهذا معنىٰ قوله: ﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾. قال بعض العلماء: ذوق عذاب الحريق عند الاحتضار؛ لأن المقامع التي يضربونهم بها تلتهب عليهم ناراً.

وقال بعض العلماء: يبشرونهم بالحريق يوم القيامة. ولا مانع من وقوع الكل. هذا معنىٰ قوله: ﴿وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾. وجواب (لو) في هذه الآية محذوف، وتقديره: لو ترىٰ يا محمد حين يتوفىٰ الملائكة الكفرة في حال كونهم ضاربين وجوههم وأدبارهم مبشرين لهم بالحريق، لو ترىٰ ذلك الوقت لرأيت أمراً فظيعاً شنيعاً يجب الحذر منه، وجواب (لو) حَذْفُه إذا دل المقام عليه أسلوب عربي معروف يكثر في القرآن العظيم وفي لسان العرب[1]، ومنه في القرآن العظيم: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ﴿٥﴾﴾ [التكاثر: الآية ٥] أي: لو تعلمون علم

(١) راجع ما سبق عند تفسير الآية (١٠٩) من سورة الأنعام، وما سيأتي عند تفسير الآية (٥٩) من سورة التوبة.

اليقين لما ألهاكم التكاثر حتىٰ زرتم المقابر، ونظيره من كلام العرب في حذف جواب (لو) قول الشاعر[١]:

فأقسِمُ لو شَيءٌ أتانا رسولُه ... سِواكَ ولكن لم نجد لك مَدْفَعاً

أي: لو شيء سواك لرددناه.

وقال جل وعلا: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [الرعد: الآية ٣١] ولم يذكر جواب (لو) وقال بعض العلماء: جوابه: لو أن قرآناً سُيرت به الجبال لكان هذا القرآن علىٰ حد قوله[٢]:

ولو طار ذو حافر قبلها ... لطارت ولكنه لم يطر

وقال بعض العلماء: جواب (لو) المحذوف في آية الرعد ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ﴾ لو سيرنا الجبال بالقرآن وقطعنا به الأرض لكفرتم بالرحمٰن. ويدل علىٰ هذا التقدير الأخير قوله قبله: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ قُلْ هُوَ رَبِّى﴾ الآية [الرعد: الآية ٣٠]. وهذا معنىٰ قوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الأنفال: الآيتان ٥٠، ٥١].

قال بعض العلماء: هذا مما يقول لهم الملائكة عند توفيهم إياهم وضربهم وجوههم وأدبارهم، يقولون لهم: ذوقوا عذاب الحريق. ويقولون لهم: ذلك العذاب الفظيع الشديد بسبب ما قدمت أيديكم.

وقال بعض العلماء: هو كلام مُؤْتَنَف، أي: ذلك العذاب الكائن الواقع لكم بسبب ما قدمت أيديكم. جرت العادة في لسان العرب الذي نزل به القرآن أن يُضاف جميع الأعمال إلىٰ الأيدي وإن كان بعضها ليس بأيدي، فإن الشرك الذي يُعذبون عليه محله القلب واللسان واليد، والزنى محله

---

(١) البيت لامرىء القيس وهو في ديوانه ص١٠٠.

(٢) تقدم هذا الشاهد عند تفسير الآية (١٠٩) من سورة الأنعام.

الفرج، وأكل الربا محله البطن، ولكن كل هذا يُنسب إلى الأيدي على الأسلوب العربي المعروف؛ لأن أكثر ما يزاول الإنسان أعماله بيده فنسب إليه على التغليب ومراعاة الأغلب[١].

والمراد ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ ما كسبتم من المعاصي والكفر، سواء كان الذي اجترمته القلوب، أو الألسنة، أو الأيدي، أو غير ذلك. وهذا معنى قوله: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾﴾ [الأنفال: الآية ٥١].

قال بعض العلماء: المصدر المنسبك من (أن) وصلتها في قوله: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ في محل خفض معطوف على الموصول المجرور (بما) أي: ذلك بسبب الذي قدمته أيديكم، وبسبب أن الله لا يظلم، فبكفركم وبعدالة ربكم وكمال إنصافه جاءكم العذاب؛ لأن بهذين السببين يتوجه إليكم العذاب، كونكم اقترفتموه واكتسبتموه بأيديكم، وكون ربكم (جل وعلا) حَكَماً عدلاً منصفاً، فتعذيبه ومؤاخذته للعاصي، كما أنه يثيب المطيع، فظلمكم وعداوة ربكم كل ذلك اقتضى لكم ما وقع لكم من العذاب والعياذ بالله جل وعلا ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ﴾ جل وعلا ﴿لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ فيه في هذه الآية الكريمة والآيات المماثلة لها من القرآن إشكال عربي معروف يدور فيه سؤال مشهور على ألسنة العلماء وطلبة العلم، وهو أن يُقال: الله (جل وعلا) في هذه الآية الكريمة نفى المبالغة؛ لأنه قال: ﴿لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ﴾ و (ظلاّم) (فعّال) و (الفعّال) صيغة مبالغة، والمقرر في اللغة العربية التي بها نزل القرآن أن نفي المبالغة لا يقتضي نفي أصل الفعل من حيث هو[٢]، فلو قلت: زيد ليس بِقَتّال للرجال، نفيت عنه المبالغة في القتل، ولا ينافي أنه ربما قتل رجلاً أو رجلين، ولو قلت: زيد ـ مثلاً ـ ليس بضرّاب لنسائه. يدل على انتفاء كثرة الضرب عنه، ولا ينافي أنه ربما وقع منه ضرب قليل كما هو معروف، فنفي المبالغة هنا لا يقتضي نفي

---

(١) انظر: ابن عطية (٣٠٨/٣)، القاسمي (٣٠٨/٤).

(٢) انظر: الإتقان (٢٣٣/٣)، الكليات ٨٨٩.

أصل الفعل من حيث هو، والمقام مقام تنزيه، ونفي الأدنىٰ أبلغ من نفي الأعلىٰ، فلِمَ عُبّر هنا بصيغة المبالغة ولَم يقل: ليس بظالم. أو ليس بذي ظلم للعبيد؟!

أجاب العلماء علىٰ ذا بأجوبة[1]: قالوا جرت العادة في القرآن أن بعض الآيات قد يكون فيها شبه إجمال وتبينه آيات أُخر، وقد أوضحت آيات أخر أن الله لا يظلم شيئاً، كقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [النساء: الآية ٤٠] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَـٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [يونس: الآية ٤٤] فالآيات الواضحات بينت هذا وأوضحته غاية الإيضاح.

وقال بعض العلماء: المبالغة هنا لا يقصد بها أصل المبالغة؛ لأن التكثير نظراً إلىٰ كثرة العبيد؛ لأن الظلم لما تعلق بالعبيد وكان العبيد في كثرة هائلة كان الظلم كثيراً جداً لكثرة من هو منفي عنهم؛ ولذا كان نفيه نفيه من أصله؛ لأن الكثرة فيه والمبالغة بحسب العبيد اللذين يقع عليهم الظلم.

وقال بعض العلماء: ـ وهي نكتة حسنة ـ أن هذا العذاب الذي يعذبهم الله به هو عذاب فظيع هائل لا يُقادَر قدره ولا يُماثل مثله، فلو وقع منه ظلماً لكان مبالغاً في غاية الظلم مبالغة عظيمة، فنفى المبالغة بهذا الاعتبار، ومعناها نفي الفعل من أصله. وهذا الوجه حسن جداً، إلا أن فيه دقة. وهذا معنىٰ قوله: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [الأنفال: الآية ٥١].

وقوله (جل وعلا) في هذه الآيات الكريمة ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٥٢﴾﴾ [الأنفال: الآية ٥٢] الكاف في قوله: ﴿كَدَأْبِ﴾ في محل

---

(١) انظر: البحر المحيط (١٣١/٣)، الدر المصون (٥١٥/٣)، فتح الرحمٰن بكشف ما يلتبس في القرآن ١٠١، الإتقان (٢٣٣/٣)، الكليات ٨٨٩، القاسمي (٣٠٩/٤).

رفع خبر مبتدأ محذوف. أي: دأبهم دأب كفار مكة، أبي جهل وأصحابه. دأبهم: أي: عادتهم، ودينهم، وديدنهم كدأب آل فرعون؛ لأن فرعون وقومه كان دأبهم الكفر، وتكذيب الرسل، والتمرد علىٰ الله، والكفر بالآيات، وجحودها بعد الاستيقان؛ لأن فرعون ـ لعنه الله ـ متيقن كل اليقين أن نبي الله موسىٰ صادق، وقد أوضح الله يقينه بذلك في موضعين: أحدهما قوله فيه [في سورة النمل: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ الثاني: قوله تعالى إخباراً عن قول موسى لفرعون في سورة الإسراء: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ وهذا كان دأب المكذبين من الأقوام الذي بُعث فيهم الرسل كقوم نوح][1].

٦/ب / وقوم صالح وقوم شعيب وقوم لوط، كل هؤلاء كانوا في غاية التمرد والعتو وتكذيب الرسل بعد قيام المعجزات ووضوح الحق. بيّن الله (جل وعلا) أن كفار قريش دأبهم كدأب أولئك. والدأب في لغة العرب: العادة. فكل من يجري علىٰ سَنَن مطرد وعادة ووتيرة تقول العرب: هذا دأبه. أي: عادته وديدنه الذي يسير عليه دائماً. ومنه قول امرىء القيس في إحدىٰ روايتي بيته[2]:

كدأبكَ من أمِّ الحُويرث قَبلَها وَجارَتِها أُمِّ الرَّبابِ بمأسلِ

وقرأ هذا الحرف عامة القراء غير أبي عمرو في رواية السوسي: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ بتحقيق الهمزة، وقرأه أبو عمرو في رواية السوسي عنه خاصة: ﴿كَدَابِ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ بإبدال الهمزة ألفاً في الموضعين.

والمعنىٰ: دأب هؤلاء الكفرة دأبهم وديدنهم ودينهم مثل دأب آل فرعون في تكذيب الرسل؛ لأن فرعون كلما جاءته آية يقول: ﴿لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُم بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾﴾ [الأعراف: الآيتان ١٣٤، ١٣٥]

---

(١) في هذا الموضع انقطع التسجيل، وما بين المعقوفين [ ] زيادة يتم بها الكلام.

(٢) ديوانه ص١١١.

حتىٰ صارحوه في آخر الأمر وقالوا له: ﴿مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: الآية ١٣٢] يعني: دأب هؤلاء الكفرة من قريش ومن سار سيرهم كدأب الكفرة العتاة المتمردين من الأمم الماضية آل فرعون والذين من قبلهم، كقوم نوح، وقوم هود، وقوم صالح، وقوم لوط، وقوم شعيب، وقد قدمنا قصصهم مفصلة في سورة الأعراف وغيرها. وهذا معنىٰ قوله: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [الأنفال: الآية ٥٢].

ثم فسر دأب آل فرعون ومن قبلهم وبيّن عادتهم، قال: ﴿كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ كفروا بها: جحدوا بها. وآيات الله: ما تتلوه عليهم الرسل من آياته الشرعية الدينية، وما يعاينونه من المعجزات من آياته الكونية القدرية، وهذا معنىٰ قوله: ﴿كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ [الأنفال: الآية ٥٢] العرب تقول: «أخذه الله» إذا عاقبه عقاباً شديداً أليماً. وقد روىٰ البخاري ومسلم في صحيحيهما (رحمهما الله) من حديث أبي موسىٰ الأشعري (رضي الله عنه) أن النبي (صلوات الله وسلامه عليه) قال: «**إن الله ليملي للظالم حتىٰ إذا أخذه لم يفلته**» ثم تلا ﷺ قوله تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [هود: الآية ١٠٢][1] ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ أي: أهلكهم وعاقبهم العقاب الشديد بسبب ذنوبهم. والذنب: هو الجريمة التي يستحق صاحبها النكال. وهذا معنىٰ قوله: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ﴾ القوة: ضد الضعف، وقد بين (جل وعلا) أن القوة ضد الضعف في قوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً...﴾ الآية [الروم: الآية ٥٤]. وهذا معنىٰ قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ﴾ لأن الله (جل وعلا) قوي، هو أقوىٰ من كل شيء، حتىٰ لما قال عاد ما قالوا ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ قال لهم: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [فصلت: الآية ١٥].

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٤٢) من سورة الأنعام.

﴿شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ العقاب: النكال الشديد لأجل الذنب. قال بعض العلماء: سُمي عقاباً لأنه يأتي عقب الذنب من أجله. وقد بينا مراراً أن الله (جل وعلا) في كتابه ينوه بشدة عقابه ﴿شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ ﴿شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ﴾ [البقرة: الآية ١٦٥] ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة: الآية ١٧٤] ﴿عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: الآية ٢] ونحو ذلك من تشنيع عذابه وفظاعته، وإن الأمر كذلك؛ لأنه ليس يوجد عذاب هو في غايته شديد فظيع إلا عذاب الله (جل وعلا) ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾﴾ [الفجر: الآيتان ٢٥، ٢٦] لأن الناس إذا عذبوا المجرمين، والملوك الطغاة البغاة إذا أرادوا أن يعذبوا لا يستطيعون من العذاب إلا قدر ما يستوجب الموت مرة واحدة، فإذا شددوا العذاب علىٰ المعذب بقدر ما يميته مات وانتهىٰ الأمر، أما خالق السماوات والأرض (جل وعلا) فإنه يعذبه بالآلاف مما يستوجب الموت وهو لا يموت. ﴿وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾ [إبراهيم: الآية ١٧] وقال جل وعلا: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ [النساء: الآية ٥٦] ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾ [فاطر: الآية ٣٦] ﴿وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [الزخرف: الآية ٧٧] فهذا العذاب الذي لا تقطعه الموت ولا غيرها هو الذي يُخاف منه ويُحذر منه، وهو الشديد بمعنىٰ الكلمة، فعلىٰ كل عاقل أن يتحفظ منه ويتحرز منه في دار الدنيا مع إمكان الفرصة قبل أن يفوت الأوان ويندم حيث لا ينفع الندم، وهذا معنىٰ قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الأنفال: الآية ٥٢].

ثم قال جل وعلا: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الأنفال: الآية ٥٣] الفعل المضارع مجزوم بـ (أن) بعد (حتىٰ)، و (حتىٰ) حرف جر بمعنىٰ الغاية. والأصل: إلىٰ أن يغيروا. أي: إلىٰ تغييرهم ما بأنفسهم. فهو غاية ذلك المذكور مما أنزل الله بهذه الأمم من المثلات، وما أنزل بكفار مكة من العذاب يوم بدر والقتل والأسر متصلاً بعذاب الآخرة الذي لا ينقطع بسبب أن الله جل وعلا ﴿لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً﴾ (يكن) مضارع كان يكون، وحذف النون

في الفعل المضارع معروف بقياس مطرد نطقت به العرب كذلك، سواء كان بعده (أل) أو لم تكن بعده (أل) كما هو معروف ﴿لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ﴾ نعمة: مفعول به لاسم الفاعل. والنعمة: مصدر بمعنىٰ الإنعام، وهو ما ينعم الله ويتفضل به علىٰ خلقه. أنعم بها ﴿عَلَىٰ قَوْمٍ﴾ أي: جماعة من الناس كقريش وغيرهم من الأمم ﴿حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا﴾ والمعنىٰ: أن عدم تغييره للنعمة مُغَيًّا بغاية، تلك الغاية هي أن يغيروا ما بأنفسهم، فإذا غيروا ما بأنفسهم بأن ارتكبوا سوءاً يستوجب العذاب والغضب غيرنا النعم بسبب تغييرهم إياهم.

وهذه الآية الكريمة وأمثالها في القرآن يجب الاعتبار بها، وأن الإنسان لا يتسبب في تغيير نعمة الله عنه بتغييره ما في نفسه، بل يدوم علىٰ طاعة الله وتقواه؛ لأنه إذا تنكر لربه قد يغير نعمته عنه وينقله من النعمة إلىٰ النقمة، ومن السلامة إلىٰ العذاب.

وفي هذه الآية الكريمة إشكال معروف، وسؤال مشهور، وهو أن يُقال: إن هؤلاء الكفرة كل أحوالهم خبيثة وخسيسة، فما غيروا الكفر إلا إلىٰ كفر، فهم كانوا كفرة ولم يكونوا في حالة محمودة حتىٰ يكونوا غيروا ما بأنفسهم، فالذي كانوا فيه خبيث خسيس، والذي غيروا به خبيث خسيس، فبأي موجب كانت تتمادىٰ عليهم النعمة الأولىٰ، وبأي سبب كانوا يدخلون في قوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ وهذا الإشكال قوي، ووجهه واضح جداً، ولا يمكن أن يُخرج من الآية لأن الآية نازلة في الكفار، فرعون ومن سار علىٰ سيره، وكفار مكة الذين شُبِّه دأبهم بدأبه، والمقرر في علم الأصول: أن صورة السبب لا يمكن أن تُخرج من العام بمخصص، وهو التحقيق إن شاء الله[١]. فبان استحكام هذا الإشكال وقوته.

وأجاب بعض العلماء[٢] عن هذا بأنهم كانوا في نعمة من الله لأنهم لم

(١) انظر: نثر الورود (١/٣١٣)، المذكرة في أصول الفقه ص٢١٠ .
(٢) انظر: البحر المحيط (٤/٥٠٧).

يأتهم رسول، وكانوا معذورين بالفترة، فأرسل الله إليهم الرسل، وبين لهم المعجزات، وأقام عليهم الحجج، فصاروا يحادون الله، ويكذبون رسله، ويعلمون الحق ويجحدونه عناداً وطغياناً وتكبراً علىٰ ربهم، فانتقلوا من حال سيئة إلىٰ حال أسوأ منها بأضعاف، فلما انتقلوا إلىٰ حال أسوأ كانوا غيروا فغير الله ما بهم لما غيروا ما بأنفسهم بانتقالهم من سيء إلىٰ أسوأ. وهذا معنىٰ قوله: ﴿حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ يعني: ما بأنفسهم بأن ينتقلوا من خير إلىٰ شر. ودل هذا الجواب علىٰ أنه أيضاً بأن ينتقلوا من سيء إلىٰ أسوأ منه وأفظع كما ذكرنا. وهذا معنىٰ قوله: ﴿حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾.

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ عطف علىٰ ما قبله بأنه لم يك مغيراً، وبأنه سميع عليم لا يخفىٰ عليه شيء من أقوال المغيرين المستوجبين لتغيير النعمة، ولا من أفعالهم.

وقد قدمنا مراراً[(١)] أن مثل هذا هو الواعظ الأكبر والزاجر الأعظم، وأوضحناه مراراً كثيرة. وهذا معنىٰ قوله: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: الآية ٥٣].

﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الأنفال: الآية ٥٤] هذا كالتوكيد لما قبله، كرره ليبين بعض ما أجمله هناك، فبين في هذه الآية الأخيرة أن من كفرهم المذكور في قوله: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُواْ﴾ بين أن منه التكذيب بآيات الله، وبين أنه عاقبهم وأغرق منهم آل فرعون.

ومعنىٰ قوله: كدأبهم ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ فرعون: تطلق علىٰ كل من مَلَك مصر. والمراد بهذه: فرعون موسىٰ.

واختلف العلماء في لفظة (فرعون) هل هو عربي أو أعجمي[(٢)]؟ فقال

---

(١) انظر: ص.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٤٩) من سورة البقرة.

بعضهم: أعجمي. وقال بعضهم: هو عربي مشتق من (تفرعن) الرجل إذا كان ذا دهاء ومكر، فكل من كان ذا دهاء ومكر هو متفرعن، وعلىٰ أنه عربي فوزنه بالميزان الصرفي (فِعْلَوْلْ) فعلول بلامين لا (فعلون) بنون[1].

وفرعون هو الوليد بن الريان أو غيره علىٰ ما شرحنا، وهذا معنىٰ قوله: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [الأنفال: الآية ٥٤] ﴿ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ معناه: أهله وجماعته. والتحقيق في ألف (الآل) أنها مبدلة من واو؛ لأن العرب تصغره على (أُويل). وبعضهم يقول: هي مبدلة من هاء، أصله: (أهل)[2] ولا يقال: (الآل) إلا لمن له شأن وخطب، وإنما قيل لفرعون: (آل فرعون) مع أنه خسيس خبيث وضيع لعظمته ومكانته عند قومه أيام إرسال موسىٰ له؛ لأنه كان يقول: ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾﴾ [الزخرف: الآية ٥٢] ﴿أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ﴾ [الزخرف: الآية ٥١] ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: الآية ٢٤] ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص: الآية ٣٨] فهذه العظمة الزائفة والأبهة المختلقة كأنه قيل له بها (آل).

﴿ءَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ كقوم نوح، وقوم هود، وقوم صالح، وقوم لوط، وقوم شعيب، ﴿كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ كذب قوم نوح بآيات الله التي أرسل بها نبيه نوحاً، وقوم هود بآيات الله التي أرسل بها نبيه صالحاً إلىٰ آخره. وهذا معنىٰ قوله: ﴿كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾.

﴿فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾ وقد قدمنا تفصيل إهلاك هؤلاء الأمم، فبين في آيات كثيرة أنه أهلك قوم نوح بالطوفان ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ﴾ [الفرقان: الآية ٣٧] وبين أنه أهلك قوم هود بالريح العقيم ﴿مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾﴾ [الذاريات: الآية ٤٢] وأنه أهلك قوم صالح بصيحة صاح بهم الملك ﴿فَأَصْبَحُوا فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ [هود: الآية ٦٧] وأنه أهلك قوم شعيب تارة قال: بصيحة، وتارة قال:

---

(١) السابق.

(٢) السابق.

برجفة، وتارة بظُلَّة. والتحقيق أن قوم شعيب ـ أهل مدين ـ اجتمعت لهم الصيحة والرجفة والظلة؛ لأنه صاح بهم الملك من فوق فرجفت بهم الأرض من تحتهم، ثم إن الله أرسل عليهم ظُلَّة فأحرقتهم ـ علىٰ القول بأن أصحاب الظُّلة هم أصحاب الصيحة والرجفة، وهو أظهر الأقوال وأقربها ـ كما قدمنا إيضاحه في سورة الأعراف ـ وبينا أن قوم لوط أخذ الملك أرضهم فرفعها وقلبها عاليها سافلها؛ ولذا كانت قرىٰ قوم لوط تسمىٰ (المؤتفكات) والمؤتفكات: مفتعلات من الأَفْك[1]، والأَفْك في لغة العرب هو القلب. من أَفَكَ الشيء إذا قلبه فجعل أسفله أعلاه. ومنه قيل لأسوأ الكذب (إفكاً) لأنه قلب للحقائق عن مواضعها. فقال (جل وعلا) فيهم: ﴿فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾ [هود: الآية ٨٢] لأنها أَفَكَها الملك أي: قلبها. فالمؤتفكات: المنقلبات المجعول أسفلها عاليها، تارة عبر عنها بالمؤتفكة نظراً إلىٰ سدوم التي هي عاصمتها، وتارة عبر عن جميع القرىٰ، قال في موضع: ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ۝٥٣﴾ [النجم: الآية ٥٣] وقال في موضع: ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ [التوبة: الآية ٧٠] إلىٰ غير ذلك، وهذا معنىٰ قوله: ﴿فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ﴾ بين هنا ما فعل بآل فرعون؛ لأنه أغرقهم لما أسرىٰ موسىٰ ببني إسرائيل وضرب بعصاه البحر فانفلق البحر وصار فيه اثنىٰ عشر طريقاً يبساً، وسلكها موسىٰ وقومه، فجاء فرعون في قومه وأُبَّهَتِه فوجدوا الطرق يابسة، فدخلوا فيها حتىٰ تكامل خروج بني إسرائيل علىٰ الشاطىء، ودخول القبطيين في البحر، أمر الله البحر فاضطرب عليهم، كما جاء مبيناً في سور كثيرة من كتاب الله. وهذا معنىٰ قوله: ﴿وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ﴾.

﴿وَكُلٌّ كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ﴾ [الأنفال: الآية ٥٤] وكل من آل فرعون ومن قبلهم من الأمم كقوم نوح، وقوم هود، وقوم صالح، وقوم لوط، وقوم شعيب، والكفرة الذين كذبوا محمداً ﷺ كل هؤلاء الكفرة كانوا ظالمين، ظالمين بكفرهم.

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٨٠) من سورة الأعراف.

وقد قدمنا مراراً[١] أن أصل الظلم في لغة العرب التي نزل بها القرآن: هو وضع الشيء في غير محله، فكل من وضع شيئاً في غير محله فهو ظالم، هذا هو لسان العرب الذي نزل به القرآن، كل من وضع شيئاً في غير موضعه فقد ظلم؛ ولذا كانوا يقولون لمن يضرب لبنه قبل أن يروب: ظالم. ويقولون للسقاء المضروب قبل أن يروب: مظلوم. لأن الضرب وقع في غير موقعه؛ لأن ضربه قبل أن يروب يُذهب زبده ويضيعه، فكان في غير موضعه، وهو معنىً معروف في كلامها، ومنه قول الشاعر[٢]:

وقائلة ظلمتُ لكم سِقَائي وهل يخفىٰ علىٰ العَكَدِ الظَّليم

العكد: عصب مؤخر اللسان. والظليم: اللبن المظلوم المضروب قبل أن يروب. معناه: أن ذوق اللسان يفهم ما ضُرب منه قبل أن يروب، وما ضُرب بعد أن راب، ونظيره قول الآخر[٣]:

وصاحبِ صدقٍ لم تردني شَكَاتُه ظلمت و في ظَلْمي له عامداً أَجْرُ

ظلمته: أي: ضربته قبل أن يروب، وهذا المعنىٰ المعروف في كلام العرب، ومنه قيل للأرض التي ليست محلّاً للحفر إذا وقع بها حفر: مظلومة، ومنه قول نابغة ذبيان[٤]:

إلاّ الأوَارِيَّ لأياً ما أُبَيِّنُها والنؤي كالحوضِ بالمظلومةِ الجَلَدِ

لأن حفر النؤي الذي يحول بين خيمة البدوي وبين السيل وقع في أرض ليست محلّاً للحفر، ومنه قيل للتراب المنزوع من القبر: (الظليم)، أي: مظلوم؛ لأنه محفور في غير محل حفر عادة، ومنه قول الشاعر يصف رجلًا مقبوراً[٥]:

فأَصْبَحَ في غَبْرَاءَ بعد إِشَاحَةٍ من العَيشِ مردودٍ عليها ظَلِيْمُها

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٥١) من سورة البقرة.

(٢) السابق.

(٣) السابق.

(٤) السابق.

(٥) السابق.

هذا معنىٰ الظلم في لغة العرب. وجاء في القرآن معنىٰ الظلم: الظلم بمعنىٰ النقص في موضع واحد، هو قوله: ﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم﴾ ـ يعني ولم تنقص ـ ﴿مِّنْهُ شَيْـًٔا﴾ [الكهف: الآية ٣٣] وهو راجع في المعنىٰ إلىٰ ما ذكرناه.

إذا عرفتم أن الظلم في لغة العرب: هو وضع الشيء في غير محله فاعلموا أن أعظم أنواعه وأشنعها هو وضع العبادة في غير من خلق. من خلقه الخالق ورزقه ـ جل وعلا ـ فعبد غيره فقد وضع عبادته وطاعته في غير موضعها فهو ظالم الظلم بمعناه الأكبر ومعنىٰ الكلمة تماماً؛ ولأجل هذا المعنىٰ كثر في القرآن إطلاق الظالم علىٰ الكافر المشرك، كقوله: ﴿وَٱلْكَـٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ [البقرة: الآية ٢٥٤] وقوله: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾﴾ [يونس: الآية ١٠٦] ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: الآية ١٣] وقد ثبت في صحيح البخاري أن النبي ﷺ فسر قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: الآية ٨٢] قال: «بشرك»، ثم تلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: الآية ١٣][1] وكذلك يطلق الظلم علىٰ المعصية التي لا تبلغ الكفر؛ لأن العاصي أطاع الشيطان وعصىٰ الله، فقد وضع طاعته في غير موضعها، ووضع معصيته في غير موضعها فهو ظالم بهذا الاعتبار، فهذا معنىٰ قوله: ﴿وَكُلٌّ كَانُوا۟ ظَـٰلِمِينَ﴾ [الأنفال: الآية ٥٤] والتنوين في قوله: ﴿وَكُلٌّ﴾ تنوين عوض، عوض عن كلمة المضاف إليه، أي: وكلهم كانوا ظالمين. فعوض التنوين عن المحذوف كما هو معروف في محله.

﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِى ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَبَقُوٓا۟ ۚ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾ وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ

(١) مضى عند تفسير الآية (٥١) من سورة البقرة.

وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾﴾ [الأنفال: الآيات ٥٥ ـ ٦١].

يقول الله جل وعلا: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِى ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾ [الأنفال: الآيات ٥٥ ـ ٥٨].

نزلت هذه الآيات في بني قريظة من اليهود[1]، كانوا تعاهدوا مع النبي ﷺ أن لا يقاتلوه ولا يعينوا عليه عدواً، ثم إنهم نقضوا العهد وأعانوا كفار مكة بالسلاح، وذهب إليهم كعب بن الأشرف ـ قبحه الله ـ إلىٰ أهل مكة يشجعهم علىٰ قتال النبي ﷺ ويكذب عليهم ويقول لهم: أنتم أهدىٰ طريقاً من محمد ﷺ كما قدمنا الكلام عليه في تفسير قوله: ﴿وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا﴾ [النساء: الآية ٥١] نقض بنو قريظة العهد أولاً فأعانوا قريشاً بالسلاح علىٰ النبي ﷺ ـ والإعانة بالسلاح نقض للعهد الأول ـ فلما كلمهم ﷺ في نقض ذلك العهد قالوا: نسينا وأخطأنا فلا تأخذنا بها. وأكدوا معه العهد مرة أخرىٰ، ثم نقضوا العهد ومَالَؤُوا الأحزاب علىٰ النبي ﷺ يوم الخندق، وكانوا حرباً عليه مع المشركين؛ لأن حيي بن أخطب سيد بني النضير كان فتن سيد قريظة كعب بن أسد حتىٰ نقضوا العهد وصاروا مع الأحزاب حرباً علىٰ النبي ﷺ فأنزل الله فيهم: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [الأنفال: الآية ٥٥].

الدواب: جمع دابة، وقد جرت العادة في القرآن أن الآدميين لا يعبر عنهم بالدواب، لكنه هنا عبر عن هؤلاء الكفرة باسم الدواب، ليشير إلىٰ أنهم كالأنعام بل هم أضل، كما قال: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ [الفرقان: الآية ٤٤] والدواب: جمع دابة. وأصل الدابة وزنه (فَاعِلَة) (دَابِبَة) جاء فيه

---

(١) انظر: ابن جرير (٢١/١٤).

الإدغام. وجمع (الفَاعِلَة) مطلقاً علىٰ (فَوَاعِل) جمع تكسير مقيس بقياس مطرد كما هو معروف في محله[١]. أي: إن شر جميع ما يدب علىٰ وجه الأرض من الدواب هم الكفار؛ لأنهم شر كل ما يدب علىٰ وجه الأرض، فقوله هنا: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ﴾ هي صيغة تفضيل، أصله: إن أشر الدواب، أي: أكثرها وأعظمها نصيباً في الشر الذين كفروا. إلا أن (خيراً) و (شراً) لكثرة الاستعمال فيهما حذفت العرب منهما همزة أفعل التفضيل، وهما صيغتا تفضيل، فقوله: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ﴾ أي: أكثر الدواب التي تدب علىٰ وجه الأرض شراً وأعظمها نصيباً في الشر ـ وهو ضد الخير ـ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ كبني قريظة ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ لأن الكفر متغلغل في أعماقهم لا يقلعون عنه، وهم أشقياء قد سبق في علم الله أنهم لا يؤمنون. ثم زادهم بياناً وإيضاحاً بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ﴾ [الأنفال: الآية ٥٦] فـ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ بدل من ﴿ٱلَّذِينَ﴾ قبله. قال بعض العلماء: قوله: ﴿ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ﴾ إنما جيء بـ (من) لأنه مضمن معنىٰ: أخذت منهم العهود. قال بعض العلماء: (من) تبعيضية؛ لأنهم وإن كانوا كفرة كلهم فهم كلهم شر الدواب، إلا أن العهد إنما يعقد مع رؤسائهم الذين لهم العقد والحل، وبذلك الاعتبار دخلت (من) التبعيضية.

﴿ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ﴾ المقرر في فن التصريف: أن كل فعل جاء علىٰ وزن (فَاعَل) كقوله هنا ﴿عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ﴾ أو علىٰ وزن (تفاعَل) إنه يقتضي اشتراك المصدر بين فاعلين[٢]. فمعنىٰ ﴿عَٰهَدتَّ﴾ أخذت عليهم العهد وأخذوا عليك العهد؛ لأن (فَاعَل) تقتضي الطرفين.

والعهد: كل شيء مؤكد لا يجوز نقضه تسميه العرب عهداً. والميثاق: العهد المؤكد. ﴿ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ﴾ وهم يهود بني قريظة ألا يحاربوك وألا يعاونوا عليك محارباً آخر ﴿ثُمَّ﴾ بعد هذا العهد المؤكد ﴿يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ﴾ قال بعض العلماء: (ثم) هنا للاستبعاد؛ لأنه يُسْتَبْعَد من العاقل الذي عنده عقله أن يجعل علىٰ نفسه العهود والمواثيق المؤكدة ثم ينقض

(١) مضى عند تفسير الآية (١٥١) من سورة الأنعام.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٥١) من سورة البقرة.

ذلك؛ لأن هذا الفعل خسيس قبيح يستبعد من العقلاء. وقد تقرر في كلام العرب وفي القرآن أن لفظة (ثم) التي هي للانفصال والتراخي قد تأتي للاستبعاد، كقوله تعالىٰ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ [الأنعام: الآية ١] لأن من خلق السماوات والأرض وخلق الظلمات والنور يستبعد كل الاستبعاد أن يُجعل له عديل ونظير، ولذا قال: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: الآية ١] أي: يجعلون له عِدْلاً ونظيراً. تقول: عَدَلْت به إذا جعلت له عدلاً ونظيراً، ومنه قول جرير[1]:

أثعلبة الفوارس أو رياحاً ... عدلت بهم طُهيَّةَ والخِشَابا

فـ (ثمَّ) للاستبعاد، ومن شواهد إتيان (ثم) للاستبعاد قول الشاعر[2]:

ولا يكشفُ الغَمّاء إلا ابن حُرةٍ ... يرىٰ غَمَرَاتِ الموتِ ثمَّ يزورُها

لأن زيارة غمرات الموت بعد معاينتها من الأمور المستبعدة.

﴿ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ﴾ نقض العهد هو عدم الوفاء به ونكثه ﴿عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ﴾ كما نقضوا في المرة الأولىٰ حيث أعانوا كفار مكة بالسلاح، ونقضوا في المرة الثانية حيث صاروا مع الأحزاب علىٰ النبي وأصحابه ﷺ ورضي عنهم. وهذا معنىٰ قوله: ﴿ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ﴾ لا يتقون الله (جل وعلا) فيجترئون علىٰ نقض العهود وعلىٰ كل جريمة، ليس لهم تقوىٰ من الله تحملهم علىٰ امتثال أمره واجتناب نهيه ـ وهذه والعياذ بالله ـ أمور قبيحة حيث كانوا شر الدواب، وكانوا كافرين، ولا يؤمنون، وينقضون العهود، ولا يتقون الله، فهذا منتهىٰ الذم ـ والعياذ بالله ـ هذا معنىٰ قوله: ﴿وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ﴾ [الأنفال: الآية ٥٦].

وقوله: ﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِى ٱلْحَرْبِ﴾ [الأنفال: الآية ٥٧] ﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ﴾ هذه (إن) هي الشرطية زيدت بعدها (ما) المزيدة لتوكيد الشرط. والأصل: فإن تثقفهم فشرد بهم. والفاء في قوله: ﴿فَشَرِّدْ﴾

---

(١) مضى عند تفسير الآية (١٥١) من سورة الأنعام.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٧٤) من سورة البقرة.

لأن الجملة الطلبية جزاء الشرط، والمقرر في علم العربية أن جزاء الشرط إن كان لا يصلح أن يكون فعلاً للشرط وجب اقترانه بالفاء[١]، يعني: إن تثقفهم في الحرب فشرد بهم من خلفهم، والعرب تقول: ثقفه يثقفه في الحرب إذا كان له في الحرب ثقافة، أي: بصيرة وعلم قَدَرَ بها علىٰ أن يتمكن من قِرنه ويظفر به. يعني: إن كانت ثقافتك في الحرب وبصرك به خوّل لك أن تتمكّن منهم وتقدر عليهم ﴿فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ﴾ (من) مفعول (شرّد) ومعنىٰ: ﴿فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ﴾ افعل لهم فعلاً فظيعاً وعقاباً منكراً هائلاً عظيماً يكون ذلك العقاب عظة لمن خلفهم ومن وراءهم فيتفرقوا ويتبددوا عنك ويخافوا. وكان بعض الفرسان الشجعان لما سُئل: بأي طريق صار الفوارس يخافونك؟ قال: إذا ظفرت بفارس ضربته ضرباً فظيعاً منكراً ليخاف من وراؤه فلا يجترئوا علي!! فمعنىٰ: ﴿فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ﴾ أي: افعل بهم عقاباً منكراً فظيعاً يكون ذلك العقاب المنكر الفظيع سبباً لتشريد من وراءهم لتفريقهم وتبددهم عنك وخوفهم منك، وإن كان عند أحدهم عهد فإنهم يخافون من نقضه ويفون به لئلا تفعل بهم ما فعلت بهم، وهذا هو التحقيق في معنىٰ الآية، أي: شرّد من خلفهم، أي: فرّق من خلفهم وخَوِّفهم وبَدِّدهُم بسبب فعلك فيهم؛ لأنك إذا فعلت في هؤلاء الناقضين للعهد ذلك التنكيل العظيم خافك غيرهم فتفرقوا وتبددوا عنك، وخافوا منك، وحافظوا علىٰ العهود إن كانت لهم عهود لئلا توقع بهم مثل ما أوقعت بهؤلاء. وهذا معنىٰ قوله: ﴿فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ﴾.

والضمير في قوله: ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ راجع لـ﴿مَّنْ خَلْفَهُمْ﴾ ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ أي: من خلفهم، من وراءهم ﴿يَذَّكَّرُونَ﴾ يعتبرون ويتعظون بالفعل العظيم الذي فعلت بهؤلاء فلا يجترئوا عليك بعدها. وهذا معنىٰ قوله: ﴿فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأنفال: الآية ٥٧] ولما مكن الله النبي ﷺ من بني قريظة وحكم فيهم سعد الأوس سعد بن معاذ (رضي الله عنه)؛ لأن النبي كان ﷺ

---

(١) انظر: التوضيح والتكميل (٢/٣١٦).

لما ظفر بيهود قينقاع جاءه عبد الله بن أُبَيّ رئيس المنافقين من الخزرج، وكان بنو قينقاع حلفاء الخزرج، فقال للنبي ﷺ: شفعني في حلفائي. فشفعه فيهم، فأُجلوا إلىٰ نواحي الشام، وطُردوا من المدينة إلىٰ نواحي الشام، فلما نزلوا[1] علىٰ حكم النبي ﷺ وأمكن منهم جاءت الأوس ـ كما ذكره غير واحد من أهل السير والأخبار ـ فقالوا للنبي ﷺ/ شفَّعت إخواننا الخزرج في حلفائهم بني قينقاع، وهؤلاء بنو قريظة حلفاؤنا ـ لأن قريظة حلفاء الأوس ـ فَشَفِّعْنا فيهم كما شَفَّعْت إخواننا في حلفائهم، والنبي ﷺ وسلم يكره ألا يجيب دعاءهم، ويكره ألا يُشرِّد ببني قريظة ويفعل فيهم الأفاعيل، فتخلص من هذا وقال: «**أُحَكِّم فيهم رجلاً من خياركم هو سعد بن معاذ**». فقالوا: رضينا. فحكّم فيهم سعد بن معاذ (رضي الله عنه)، وكان سعد (رضي الله عنه) جُرِحَ في غزوة الخندق، جَرَحَهُ حبان بن العَرَقَة، أصابه في أكحله ـ وهو العِرْق الذي في العنق ـ وكان لما سال الدم من عِرْقه وخاف الموت كان دعا الله وقال: اللهم إن كنت أبقيت بين نبيك وبين كفار مكة حرباً فأبقني لها لأني لا أحب أن أقاتل قوماً مثل القوم الذي أخرجوا نبيك من بلده وفعلوا له وفعلوا، وإن كان في علمك أنه لم يبق بينه وبين قريش حرب فاجعل لي هذا الجرح شهادة، ولا تمتني حتىٰ تقر عيني في بني قريظة. فلما حكمه النبي ﷺ فيهم فجاء علىٰ حمار، لما جاء للتحكيم، فقال لهم النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «**قوموا لسيدكم**» قال سعد (رضي الله عنه): حكمت فيهم بأن يقتل رجالهم، وتُسبىٰ نساؤهم وذراريهم. فأخبره ﷺ أن هذا حكم الله فيهم من فوق سبع سمٰوات[2].

(١) يعني: قريظة.

(٢) خبر حكم سعد بن معاذ في بني قريظة مخرج في الصحيحين من حديث:
١ ـ عائشة (رضي الله عنها) عند البخاري في الصلاة، باب الخيمة في المسجد للمرضىٰ وغيرهم. حديث رقم: (٤٦٣) (١/٦٦٣). وأطرافه في (٣٩٠١، ٤١١٧، ٤١٢٢). ومسلم في الجهاد والسير، باب جواز قتال من نقض العهد...، حديث رقم: (١٧٦٩) (٣/١٣٨٨).
٢ ـ أبي سعيد الخدري (رضي الله عنه) عند البخاري في المغازي، باب مرجع النبي ﷺ من الأحزاب. حديث رقم: (٤١٢١) (٧/٤١١).

=

لأنهم الذين نزل فيهم؛ ﴿فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾. وكان بعض العلماء يقول: كل هذه الآيات نازلة في كفار مكة؛ لأن هذه السورة كلها في وقعة بدر والله تعالىٰ أعلم. وهذا معنىٰ قوله: ﴿فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأنفال: الآية ٥٧].

ثم قال تعالىٰ معلماً نبيه ﷺ؛ لأن الله (جل وعلا) علم نبيه ﷺ في هذه السورة الكريمة تعاليم عظيمة، وهي كلها تعاليم من أصول الجهاد، علمه الثبات والصمود أمام العدو، وعلمه فيها الاتصال بخالق السمٰوات والأرض عند التحام الصفوف، وعلمه كيف يخيف أعداءه بشدة الوقيعة فيمن قدر عليهم، وعلمه هنا كيف يصالحهم، وكيف ينبذ صلحهم، كل هذه تعاليم جهادية عسكرية من رب العالمين (جل وعلا) للنبي وأصحابه؛ لأن هذا المحكم المنزل ينير معالم الطريق في جميع ميادين الحياة كائنة ما كانت؛ ولذا قال: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً﴾ [الأنفال: الآية ٥٨] ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ﴾ كقوله: ﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ﴾ [الأنفال: الآية ٥٧] فهي (إن) الشرطية زيدت بعدها (ما) لتوكيد الشرط. وبعض علماء العربية يقول: إن (إن) الشرطية إذا زيدت بعدها (ما) المؤكدة وجب اقتران المضارع بنون التوكيد، وهو كذلك في القرآن، ما جاء في القرآن (إما) إلا والفعل المضارع بعدها مؤكد بنون التوكيد الثقيلة[1]، إلا أن التحقيق أنها هي اللغة الفصحىٰ ولا تتعين، فيجوز عدم توكيد الفعل بعد (إما) (. . .)[2] وكقول لبيد بن ربيعة[3]:

= ومسلم في الجهاد والسير، باب جواز قتال من نقض العهد. . .، حديث رقم: (١٧٦٨) (١٣٨٨/٣). إلا أن الحديث الذي في الصحيحين مختصر، وهو بسياقه الطويل مخرج في المسند (١٤١/٦ ـ ١٤٢)، وذكره ابن هشام في السيرة (١٠٣١/٣)، وابن كثير في تاريخه (١٠٣/٤).

(١) مضى عند تفسير الآية (٣٥) من سورة الأعراف.

(٢) في هذا الموضع وقع مسح في التسجيل. ويظهر أن الشيخ (رحمه الله) ذكر بعض الشواهد الشعرية. ويمكن الوقوف على الكلام علىٰ هذه المسألة بشواهدها في كتاب شرح الكافية (١٤٠٩/٣ ـ ١٤١٠)، وفي كلام الشيخ (رحمه الله) فيما سبق عند تفسير الآية (٣٥) من سورة الأعراف.

(٣) مضى عند تفسير الآية (٣٥) من سورة الأعراف.

فإما تريني اليوم أصبحت سالماً فلستُ بأحظى من كلاب وجعفر

وقول الحماسي[١]:

زعمت تُماضر أنني إما أمت يَسْدُد أُبينُوها الأصاغر خلتي

وهو كثير في كلام العرب. وزعم جماعة من علماء العربية أن حذف النون في هذه الشواهد لضرورة الشعر، وأن النون واجبة. وزعم جماعة آخرون أنها لغة فصيحة لا ضرورة شعرية.

ومعنىٰ قوله: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ نزلت هذه الآية الكريمة في بني قريظة، قال بعض العلماء: في هذه الآية إشكال معروف؛ لأن قوله: ﴿تَخَافَنَّ﴾ الخوف يطلق علىٰ الظن الذي لا يستلزم اليقين، والعهد شيء مؤكد متيقن، فكيف ينتقل عن حكم يقين العهد إلىٰ ظن نقض العهد، والقاعدة المقررة في الأصول: أن اليقين لا يرتفع بالشك[٢]؟

وأجاب العلماء عن هذا بجوابين[٣]:

أحدهما: هو ـ ما قدمنا مراراً ـ أن العرب ربما أطلقت الخوف وأرادت به العلم، كقوله: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: الآية **٢٢٩**]. علمتم من قرائن أحوالهما ألا يقيما حدود الله. ﴿**إلا أن يخافا ألا يقيما حدود الله**﴾ أي: يعلما ألا يقيما حدود الله. ولا شك أن العرب تطلق الخوف علىٰ العلم اليقين، ومن شواهده قول أبي محجن، مالك بن حبيب الثقفي[٤]:

إذا مِتُّ فادفنِّي إلىٰ جَنْبِ كَرْمَةٍ تُرَوِّي عِظامي في المماتِ عُرُوقُها
ولا تدفنني بالفَلاةِ فإنَّني أخافُ إذا ما مِتّ أن لا أذُوقُها

وهو يتيقن علماً يقيناً أنه إذا مات لا يذوقها، فقد أطلق (أخاف) وأراد

---

(١) السابق.

(٢) انظر: الأشباه والنظائر للسيوطي ص٥٣، القواعد الفقهية الخمس الكبرى من مجموع فتاوى ابن تيمية ص١٨٧، شرح القواعد الفقهية للزرقا ص٣٥.

(٣) انظر: القرطبي (٨/٣١).

(٤) مضى عند تفسير الآية (٤٨) من سورة الأنعام.

(أعلم) وهو عربي فصيح. وعلىٰ هذا القول فـ ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ﴾ أي: إما تعلمن من قوم خيانة. وقال أكثر العلماء: إن كان بينك وبين قوم عهود ومواثيق ـ كالعهود التي كانت بينه ﷺ وبين يهود بني قريظة ـ إن تخافن من هؤلاء القوم الذين كانت بينك وبينهم عهود تخافن منهم خيانة، أي: خيانة بنقض تلك العهود بأن يخونوك وينقضوا العهود. و (ياء) الخيانة مبدلة من واو؛ لأن أصل مادة الخيانة أجوف واوي العين، من: خان يخون. أصلها: (خِوَانَة) فأُبدلت الواو ياء[1]، كالحيازة من الحَوْز، والصيانة من الصون، والصيام من الصوم. إن تخف يعني من قوم بينك وبينهم عهود ومواثيق تخف منهم خيانة، أي: غدراً ونقضاً للعهود ﴿فَانۢبِذۡ إِلَيۡهِمۡ عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ يعني بأن يكون خوف الخيانة ظهرت له أمارات ومبادىء وقرائن يُستدل بها عليه، كما ظهر من بني قريظة أنهم لما عاضدوا المشركين وناصروهم ولم يصرحوا بنبذ العهد كانت مناصرة المشركين ومعاضدتهم قرائن واضحة وأمارات لائحة علىٰ أنهم ناقضون للعهد.

وعلىٰ كل حال فالذي دل عليه استقراء القرآن ودلت عليه الوقائع ـ وهو الصحيح إن شاء الله ـ أن الأمر له حالتان: تارة يكون الكفار الذين بيننا وبينهم عهد ومصالحة تصدر منهم أشياء تدل علىٰ نقض العهد، لدلالة قرائن علىٰ ذلك، أنهم صدرت منهم مبادىء نقض العهد، ففي هذه الحالة لا ينبغي للإمام أن يبقىٰ علىٰ عهدهم وقد ظهر له منهم أمارات الخيانة لئلا يصيبوا المسلمين بغائلة، ففي هذه الحالة يجب علىٰ الإمام أن يصارحهم ويقول لهم: رأينا منكم ما يدل علىٰ نقضكم العهد وهو كذا وكذا وكذا، فهذا عهدنا إليكم قد طرحناه إليكم، ونبذناه إليكم، وألقيناه إليكم، وأعلمناكم أنه ليس بيننا وبينكم عهد، خَوفَ أن تظنوا أنا نخدعكم ونكيدكم ونحاربكم غفلة منكم. وهذا معنىٰ قوله: ﴿فَانۢبِذۡ إِلَيۡهِمۡ عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ النبذ في لغة العرب: الطرح. ومفعول (انبذ) محذوف، أي: فاطرح إليهم عهدهم، وألقه إليهم في حال كونك أنت وهم ﴿عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ علىٰ استواء في العلم بأنك حرب لهم وهم حرب لك، ليس أحد منكما يدلس للآخر. وعلىٰ هذا

(١) انظر: معجم مفردات الإبدال والإعلال ص١٠٤.

فقوله: ﴿عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ أي: في العلم؛ بأنك لست على صلحك الأول لما رأيت من علامات غدرهم ونقضهم له.

قال بعض العلماء: فانبذ إليهم عهدهم حال كون ذلك النبذ على سواء. أي: على عدالة وطريقة محمودة؛ لأن العرب تسمي العدالة (سواء)، وتسمي الطريق العدل الواضح (سواء) و (سوياً) ومن هذا قول الراجز[1]:

واضرب وجوه الغُدَّر الأَعْدَاءِ حتىٰ يُجيبُوكَ إلىٰ السَّوَاءِ

أي: إلىٰ العدالة والإنصاف من غير ميل ولا جور. وهذا معنىٰ قوله: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً﴾ أي: إن خفت يا نبي الله خيانة من قوم كان بينك وبينهم عهد بأن ظهرت لك أمارات الغدر وعلاماته وأوائله منهم ﴿فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ﴾ فاطرح إليهم، وألق إليهم العهد في حال كونك وإياهم على ﴿سَوَآءٍ﴾ أي: مستوين في العلم بالحالة الواقعة وأنه لا عهد بينك وبينهم. وقد جاء عن معاوية (رضي الله عنه) أنه كان بينه وبين الروم مصالحة وعهود ثم إنه (رضي الله عنه) سار إليهم وهم لا يشعرون ليقرب منهم، فإذا انقضت مدة العهد كان قريباً منهم فحمل عليهم، فإذا رجل على فرس له - وفي بعض روايات الحديث في السنن وغيرها - على دابة له، ذلك الرجل يقول: الله أكبر، الله أكبر، وفاء ولا غدر، فلما جيء معاوية به وجده عمرو بن عبسة (رضي الله عنه) فقال: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن كانت بينكم وبينهم عهود فلا تشدوا العقدة ولا تحلوها حتىٰ تنقضي المدة أو تنبذوا إليهم على سواء**». قالوا: فرجع معاوية رضي الله عنه[2].

ومعنىٰ الآية الكريمة: إن تخف الخيانة من قوم بينك وبينهم عهد - والخيانة هنا: الغدر ونقض العهد - ﴿فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ﴾ أي: فاطرح إليهم

---

(١) البيت في ابن جرير (٢٧/١٤) القرطبي (٣٣/٨).

(٢) أخرجه الترمذي في السير، باب ما جاء في الغدر. حديث رقم: (١٥٨٠)، (١٤٣/٤). وأبو داود في الجهاد، باب في الإمام يكون بينه وبين العدو عهد فيسير نحوه. حديث رقم: (٢٧٤٢) (٤٣٩/٧). وانظر صحيح الترمذي حديث رقم: (١٢٨٥)، صحيح أبي داود، حديث رقم: (٢٣٩٧).

عهدهم ﴿عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ أنت وهم مستويان في العلم بنقض العهد، ولا تدلس لهم فيظنوا أنك على عهد حتى تمكر بهم وهم في غفلة، بل أعلمهم بنقض العهد ليستعدوا للحرب ولا تحاربهم في غفلة. وهذا من كمال إنصاف دين الإسلام؛ لأن التعاليم السماوية والكتب الإلهية هي في غاية العدالة والإنصاف، حتى مع الكفار نهى نبيه أن يحاربهم وهم في غفلة من ذلك، بل أمره أن يعلمهم وينبذ إليهم العهد علناً حتى يستوي الجميع في العلم بالحال الواقعة ليستعدوا للحرب والقتال؛ ولئلا يؤخذوا على غرة، فهذه مكارم الأخلاق والعدالة الكاملة. ولا شك أن هذا التشريع تشريع ممن هو عالم بأن أولياءه لهم النصر والظفر لا حاجة له في استعداد الكفار وعلمهم وقوتهم؛ لأنه يعلم أنهم مغلوبون مقهورون، وأن الدائرة عليهم، وهذا معنى قوله: ﴿فَانۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ﴾ [الأنفال: الآية ٥٨].

أما إذا تُيقن نقض العدو للعهد بأن قتلوا المسلمين، وفعلوا الأفاعيل، وصرحوا بنقض العهد علناً فهؤلاء لا حاجة لإعلامهم؛ لأن أمرهم واضح، وهم لا يشكون في نقضهم العهد؛ ولأجل ذلك لما عقد النبي ﷺ مع كفار قريش صلح الحديبية في ذي القعدة من عام ست من الهجرة عقده بينه وبينهم على يد سهيل بن عمرو العامري - رضي الله عنه وكان في ذلك الوقت كافراً - وانعقد هذا الصلح، ودخل خزاعة في عهد النبي ﷺ، وأعداؤهم من البكريين في عهد قريش، وكان صلح الحديبية وقع على المهادنة تسع سنين، فغدر قريش غدراً علناً، وأعانوا البكريين على خزاعة فقتّلوهم، لما كان هذا الغدر علناً ظاهراً لا إشكال فيه ولا لبس فيه لم ينبذ إليهم رسول الله على سواء، بل غزا قريشاً غزوة الفتح، وأهل الأخبار والسير يقولون: إنه قال: «**اللهم خذ الأخبار والعيون عن قريش حتى نبغتها في ديارها**»[1]، وما دروا إلا والمسلمون بمر الظهران كل رجل يوقد ناراً؛ لأن نقضهم للعهد هنا لا يتناوله ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً﴾ لأنهم خانوا بالفعل وقتلوا الخزاعيين قتلاً ذريعاً، كما قال صاحبهم الذي استنجد لهم

---

(١) السيرة لابن هشام ص١٢٣٨ من طريق ابن إسحاق، وكذا أورده ابن كثير في تاريخه (٢٨٣/٤).

رسول الله ﷺ وهو عمرو بن سالم الخزاعي (رضي الله عنه)؛ لأن قريشاً لما نقضوا العهد وقتلوا خزاعة مع البكريين أرسل الخزاعيون عمرو بن سالم (رضي الله عنه) فجاء إلىٰ النبي ﷺ في المدينة ـ هذه حرسها الله ـ قام عمرو بن سالم الخزاعي وذكر رجزه المشهور الذي يصرح فيه بأنهم قتلوهم، وأن نقضهم للعهد كالشمس لا شك فيه حيث قال للنبي ﷺ في رجزه المشهور:

يارَبِّ إني ناشدٌ مُحمَّداً ... حِلْفَ أبينا وأبيهِ الأتْلَدَا

ثم قال[1]:

إنَّ قُريشاً أَخْلفوكَ الموعِدَا ... وَنَقَضُوا ميثاقَكَ المُؤَكَّدَا

هم بَيَّتُونَا بالوتيرِ هُجَّدَاً ... وقَتَلُونَا رُكَّعاً وسُجَّداً

وزَعَمُوا أنْ لسْتَ تدعو أحداً ... وهُم أذلّ وأقلّ عَدَداً

فادع عباد الله يأْتُوا مَدَداً ... فيهم رسولُ الله قد تجرَّدا

في فيلقٍ كالبحر يجري مزبدا ... إن سيم خسفاً وجهه تربدا

فانصر هداك الله نصراً أيدا

إلىٰ آخر رجزه المعروف. وذكر أصحاب السير والأخبار أنه ﷺ قال: **«لا نصرني الله إن لم أنصرك»**[2]. ولم ينبذ إلىٰ قريش علىٰ سواء، بل تجهز إليهم في غزوة الفتح في رمضان من عام ثمان، وأنه (صلوات الله وسلامه

---

(١) نص هذه الأبيات في ابن هشام ص١٢٣٥، البداية والنهاية (٢٧٨/٤) هكذا:

يا رب إني ناشد محمداً ... حلف أبينا وأبيه الأتلدا

قد كنتم وُلْداً وكنا والدا ... ثُمت أسلمنا فلم ننزع يدا

فانصر هداك الله نصراً أعتدا ... وادعُ عباد الله يأتوا مددا

فيهم رسول الله قد تجردا ... إن سيم خسفاً وجهه تربّدا

في فيلق كالبحر يجري مزبدا ... إن قريشاً أخلفوك الموعدا

ونقضوا ميثاقك المُؤكَّدا ... وجعلوا لي في كَدَاء رصدا

وزعموا أن لستُ أدعو أحدا ... وهم أذلّ وأقلّ عددا

هم بَيَّتُونا بالوتير هُجَّدا ... وقتلونا رُكَّعاً وسُجَّدا

(٢) الذي نقله ابن هشام ص(١٢٣٦)، وابن كثير في تاريخه (٢٧٨/٤) قوله ﷺ: **«نُصرت يا عمرو بن سالم»**.

عليه) لم يعلموا به حتىٰ قَرُب من ديارهم، وكان ما وقع مما هو مشهور يوم الفتح. وهذا معنىٰ قوله: ﴿فَٱنۢبِذۡ إِلَيۡهِمۡ عَلَىٰ سَوَآءٍۚ﴾.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ جل وعلا ﴿لَا يُحِبُّ ٱلۡخَآئِنِينَ﴾ [الأنفال: الآية ٥٨] وكل شيء لا [يحبه][1] الله دل علىٰ أن صاحبه مرتكب جريمة وذنباً عظيماً. والخائنون: جمع خائن، وأصل الهمزة في ﴿ٱلۡخَآئِنِينَ﴾ مبدلة من واو؛ لأن (الفاعل) من الأجوف تبدل عينه همزة، سواء كانت واواً أو ياءً، والهمزة في محل الواو؛ لأن المادة واوية العين كما بينا[2]. فالله (جل وعلا) يبغض الخائنين، فلا ينبغي للإنسان أن يخون، وهذا من مكارم الأخلاق، وغاية عدالة الكتب السماوية وإنصافها.

وقوله جل وعلا: ﴿وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُوٓاْۚ إِنَّهُمۡ لَا يُعۡجِزُونَ ۝٥٩﴾ [الأنفال: الآية ٥٩] في هذا الحرف ثلاث قراءات سبعية[3]: قرأه نافع وابن كثير وأبو عمرو والكسائي: **﴿ولا تحسِبَنَّ الذين كفَرُوا﴾** بالتاء الفوقية وكسر السين من (تَحسِبَن). وقرأه عاصم في رواية شعبة وحده أعني أبا بكر: ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ﴾ بالتاء الفوقية للمخاطب وفتح سين (تَحسَبن)، وقرأه ابن عامر وحمزة وعاصم في رواية حفص: ﴿وَلَا يَحۡسَبَنَّ﴾ بياء الغيبة التحتية وفتح سين (يحسَبن).

أما علىٰ قراءة نافع وابن كثير وأبي عمرو والكسائي: **﴿ولا تحسِبن﴾** وقراءة شعبة: ﴿لَا تَحۡسَبَنَّ﴾ فالآية الكريمة لا إشكال فيها، وكلا القراءتين واضح لا إشكال فيه ولا كلام.

أما قراءة ابن كثير[4] وحمزة وحفص عن عاصم: ﴿وَلَا يَحۡسَبَنَّ﴾ بالياء، فهذه القراءة أصلها مشكلة، ومعناها مشكل[5]. وتجرأ أقوام جراءة لا

---

(١) في الأصل: «يبغضه» وهو سبق لسان.

(٢) انظر: معجم مفردات الإبدال والإعلال ص١٠٣.

(٣) انظر: السبعة ص٣٠٧.

(٤) سبق لسان، والصواب: ابن عامر.

(٥) انظر: حجة القراءات ص٣١٢، ابن جرير (١٤/٢٨)، القرطبي (٨/٣٣) الدر المصون (٥/٦٢٣).

تليق ـ وإن كان فيهم معرفة وعلم وجلالة كأبي حاتم وأبي عبيد، حتىٰ ابن جرير رحمه الله ـ وأنكروا هذه القراءة، وقالوا: إنها بعيدة من كلام العرب، وأنها لا وجه لها من الفصاحة، كما أنكر ابن جرير وغيره قراءة ابن عامر: ﴿أَنَّهُم لاَ يُعْجِزُونَ﴾ [الأنفال: الآية ٥٩] ـ بفتح همزة (أن) ـ.

والتحقيق أن قراءة ابن عامر: ﴿يَحْسَبَنَّ﴾ بالياء، و ﴿أَنَّهُمْ لاَ يُعْجِزُونَ﴾ بفتح الهمزة، وقراءة حمزة وحفص عن عاصم: ﴿يَحْسَبَنَّ﴾ وقراءة: ﴿إِنَّهُمْ﴾ كلها قراءات سبعيات فصيحة متواترة عن النبي ﷺ لا وجه للطعن فيها.

٧/ب / أما علىٰ قراءة من قرأ: ﴿ولا تحسِبن الذين كفروا﴾ فاعلموا أولاً أن (حَسِب) بكسر السين في مضارعها لغتان فصيحتان وقراءتان سبعيتان في جميع القرآن: (حَسِب يَحْسَب، وحَسِبتَ تَحْسَبُ). بفتح السين علىٰ القياس، و(حَسِبَ يَحْسِبُ) بكسر السين علىٰ السماع لا علىٰ القياس، وهما لغتان فصيحتان مستفيضتان وقراءتان سبعيتان.

فقراءة شعبة عن عاصم لا فرق بينها وبين قراءة نافع وابن كثير وأبي عمرو والكسائي، وإنما الفرق بين قراءة التاء وقراءة الياء. أما علىٰ القراءة بتاء الخطاب فمعنىٰ الآية واضح لا إشكال فيه، والحُسبان في لغة العرب: الظن. والمعنىٰ: لا تظن يا نبي الله الذين كفروا سبقوا. فـ (الذين) في محل المفعول الأول، وجملة (سبقوا) في محل المفعول الثاني، و (سبقوا) معناه: غلبوا وفاتوا، فكل شيء فاتك ولم تدركه وعجزتَ عنه تقول العرب: سبقك. ومنه قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ۝٦٠ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ﴾ [الواقعة: الآيتان ٦٠، ٦١] لسنا بمغلوبين ولا معجَّزين عن أن نبدل أمثالكم. أي: لا تظنن يا نبي الله الذين كفروا سبقوا، لا تظنن الكفار فائتين سابقين يعجز عنهم ربهم (جل وعلا)، لا وكلا ﴿إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾ ولا يسبقون، فهم تحت قهره وقدرته وسلطنته يفعل فيهم كيف يشاء، ولا يسبقونه ولا يفوتونه، كما قال تعالىٰ: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَاۚ﴾ [العنكبوت: الآية ٤] أي: يفوتوننا ويعجزوننا، لا ﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [العنكبوت: الآية ٤]، وكذلك قراءة شعبة عن عاصم: ﴿ولا تَحْسِبن الذين كفروا﴾ هي معناها وهذه القراءة واحد.

أما على القراءة الأخرى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَبَقُوٓا۟﴾ فتفسير الآية مشكل؛ لأنه لا يُدرى أين مفعولا (حَسِب)، ولا يُدرى الفاعل أين هو؟!

وللعلماء فيها أقوال متقاربة لا يكذب بعضها بعضاً:

قال بعض العلماء: هذه الآية الكريمة حُذفت منها (أن) المصدرية، وحذف (أن) المصدرية إذا دل المقام عليها أسلوب عربي معروف موجود في القرآن وفي كلام العرب. قالوا: من أمثلته في القرآن قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ﴾ [الروم: الآية ٢٤] الأصل.: ومن آياته أن يريكم البرق. ونظيره من كلام العرب قول طرفة بن العبد في معلقته[1]:

ألا أيّهذا الزَّاجري أحْضُرَ الوغى ....

ويُروى:

ألا أيّهذا الزَّاجري أحْضُرُ الوغى وأَنْ أشهدَ اللذاتِ هل أنْتَ مُخْلِدي

قالوا: الأصل: ولا يحسبن الذين كفروا أن سبقوا. قالوا: والمعنى: أنهم سبقوا. فيصير المفعولان في قوله: «أن سبقوا» لا يظنوا أنفسهم سابقين، أي: فائتين معجزين ربهم. قالوا: وغاية ما في هذا حذف (أن)، وهو موجود في القرآن وفي كلام العرب.

وقال بعض العلماء: ضمير الفاعل يعود إلى النبي ﷺ بدلالة أن ضمير الفاعل في الخطاب واقع عليه، أي: لا تحسبن أنت يا نبي الله، ولا يحسبن هو، أي: نبي الله، لا يحسبن الذين كفروا سبقوا. ومعلوم أنه لا يحسب ذلك ولكنه يُنهى ليشرِّع على لسانه لغيره كما قيل له: ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ [الإسراء: الآية ٢٢] ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً﴾ [الإسراء: الآية ٢٩] ونحو ذلك من الأشياء التي هو لا يفعلها، ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ

---

(١) شرح القصائد المشهورات (١/ ٨٠).

﴿كَفُورًا﴾ [الإنسان: الآية ٢٤] وعلىٰ هذا القول فتكون قراءة التاء قرينة دالة علىٰ الفاعل؛ لأن الفاعل في قراءة التاء ﴿لَا تَحْسَبَنَّ﴾ أنت يا نبي الله. فيكون المعنىٰ في قراءة الياء: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ﴾ هو أي: نبي الله، لا يظنن الذين كفروا سبقوا. أي: فاتوا وعجز عنهم ربهم سبحانه عن ذلك. وعلىٰ هذا القول فـ (الذين) في محل المفعول الأول، و (سبقوا) في محل المفعول الثاني.

وقال بعض العلماء: (الذين) في محل رفع علىٰ الفاعل، وأحد المفعولين محذوف. قالوا: المعنىٰ: لا يحسبن الذين كفروا أنفسهم سبقوا. أي: لا يظنون أنفسهم سابقين، قالوا: وربما حُذف المفعول كما حُذف في قوله: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ﴾ [آل عمران: الآية ١٧٥] أصله: يخوفكم أولياءه لكن (حَسِب) و (خَوَّف) ليسا من باب واحد؛ لأنه (حسب) تنصب المبتدأ والخبر، و (خوف) لا تنصب المبتدأ والخبر بل مفعولاها أصلهما ليسا بمبتدأ وخبر.

وقال بعض العلماء: لا يحسبن الكفار الذين كفروا سبقوا.

هذه الأقوال في هذه الآية الكريمة وفي نظيرتها في سورة النور علىٰ قراءة الياء. وهذا معنىٰ قوله: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَبَقُوٓا۟﴾.

﴿إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾ قرأ هذا الحرف عامة السبعة غير ابن عامر: ﴿إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾ وقرأه ابن عامر ﴿أَنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾ بفتح الهمزة[1].

وكان كبير المفسرين أبو جعفر ابن جرير الطبري (رحمه الله) يقول: إن قراءة ابن عامر هذه لا وجه لها[2]. والكمال لله، لأن قراءة ابن عامر ـ رحمه الله ـ وجهها ظاهر جداً؛ لأنها تطابق قراءة الجمهور في المعنىٰ، إلا أن قراءة ابن عامر أظهر في المعنىٰ وإن خفي ذلك علىٰ الإمام ابن جرير (رحمه الله)؛ لأن الكمال والعلم لله وحده.

---

(١) انظر: المبسوط لابن مهران ص٢٢٢.

(٢) تفسير ابن جرير (٢٨/١٤).

والحاصل أنه قد تقرر في الأصول في مسلك (الإيماء والتنبيه)[1] أن من الحروف الدالة علىٰ التعليل، (إنّ) المكسورة المشددة، تقول: اضربه إنه مسيء. أي: اضربه لعلة إساءته، أكرمه إنه محسن. أي: أكرمه لعلة إحسانه. فـ (إن) من حروف التعليل. وعلىٰ قراءة الجمهور فـ (إنّ) المكسورة دلت علىٰ التعليل. لا تظننهم سابقين فائتين معجزين ربهم، لا وكلا ﴿إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾ لا يعجزون ربهم ألبتة، فيكون النهي عن قوله: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَبَقُوٓا۟ۚ﴾ لأجل أنهم لا يعجزون أبداً، فلا يخطر في قلبك ذلك الحسبان الباطل.

أما علىٰ قراءة ابن عامر: ﴿أَنَّهُمْ لاَ يُعْجِزُونَ﴾ فـ (أن) قد تقرر في علم النحو أن المصدر المنسبك من (أنّ) وصلتها و (أنْ) وصلتها يجوز جره بحرف محذوف بقياس مطرد[2]. فالأصل: لا تحسبن الذين كفروا سبقوا؛ لأنهم لا يعجزون. غاية ما في الباب حذف حرف الجر قبل المصدر المنسبك من (أنّ) وصلتها، وهو واضح مطرد لا إشكال فيه، وقد عقد اطراده ابن مالك في خلاصته بقوله[3]:

.... وإنْ حُذِف فالنَّصْبُ للمُنْجَرِّ
نقلاً وفي (أنَّ) و (أنْ) يطَّرِدُ مع أَمْنِ لبسٍ كَعَجِبْتُ أنْ يَدُو

فقراءة ابن عامر دالة على التعليل الذي دلت عليه قراءة الجمهور بقياس عربي واضح مطرد لا إشكال فيه، وهذا معنىٰ قوله: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَبَقُوٓا۟ۚ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾﴾ (يعجزون) مضارع (أعجز)، أعجزه: إذا صيَّره عاجزاً عنه، فكل شيء غلبك ولم تقدر عليه تقول العرب: أعجزك

---

(١) جرىٰ الأصوليون علىٰ اعتبار (إنَّ) ضمن مسلك النص، وبعضهم يعتبرها من قبيل النص الصريح، ويرىٰ آخرون أنها من قبيل النص غير الصريح (الظاهر).
انظر: شرح الكوكب المنير (١١٩/٤)، نثر الورود (٤٨٠/٢)، مباحث العلة في القياس عند الأصوليين ص٣٥٥.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٦٧) من سورة البقرة.

(٣) السابق.

وسبقك وفاتك. بمعنى واحد ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُوٓاْ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾ ربهم. أو: لأنهم لا يعجزون ربهم، بل ربهم قادر عليهم كما قال تعالىٰ: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [التوبة: الآية ٢] وهذا معنىٰ قوله: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُوٓاْ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [الأنفال: الآية ٥٩].

﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾﴾ [الأنفال: الآيتان ٦٠، ٦١].

قوله: ﴿وَأَعِدُّواْ﴾ [الأنفال: الآية ٦٠] أمر من الإعداد، والإعداد في لغة العرب التي نزل بها القرآن: معناه اتخاذ الشيء، وادخاره إلىٰ وقت الحاجة إليه، فكل شيء اتخذته وجعلته عندك تنتظر به وقت الحاجة إليه فقد أعددته. والأمر في قوله: ﴿وَأَعِدُّواْ﴾ للوجوب؛ لأن المقرر في الأصول: أن صيغة (افعل) تدل علىٰ الوجوب مالم يصرف عن ذلك صارف[1] [من][2] كلام الله وكلام رسوله ﷺ. ونعني بصيغة (افعل): الصيغ الأربع الدالة علىٰ الأمر الذي هو اقتضاء طلب الفعل. والصيغ الدالة علىٰ الأمر أربعاً[3]: فعل الأمر، كقوله هنا: ﴿وَأَعِدُّواْ﴾ وكقوله: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [الإسراء: الآية ٧٨] والفعل المضارع المجزوم بلام الأمر، كقوله: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُواْ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُواْ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُواْ﴾ [الحج: الآية ٢٩] واسم فعل الأمر، نحو: ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ﴾ [النساء: الآية ١٠٥] والمصدر النائب عن فعله، نحو: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ﴾ [محمد: الآية ٤] أي: فاضربوا رقابهم.

ولعلماء الأصول اختلاف في صيغة (افعل) إذا جاءت في كلام الله أو كلام نبيه ﷺ وتجردت عن القرائن ماذا تفيده عند الإطلاق[4]، هل

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٤٤) من سورة الأنعام.
(٢) في هذا الموضع وقع مسح في التسجيل، وما بين المعقوفين [ ] زيادة يتم بها الكلام.
(٣) مضى عند تفسير الآية (٣) من سورة الأعراف.
(٤) مضى عند تفسير الآية (٤٤) من سورة الأنعام.

هو الإيجاب المتحتم، أو الندب، أو الطلب؟ إلىٰ غير ذلك من الأقوال.

والتحقيق الذي دلت عليه الأدلة: أن النصوص الشرعية واللغة العربية التي نزل بها القرآن كلها يدل علىٰ أن صيغة (افعل) تقتضي الوجوب ما لم تقترن بدليل يصرفها عن ذلك، والدليل علىٰ ذلك من القرآن: أن الله (جل وعلا) قال: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: الآية ٦٣] فلو كانت مخالفة الأمر غير معصية، وامتثال الأمر غير واجب لما شدد عليه هذا الوعيد العظيم في قوله: ﴿أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وقال تعالىٰ لإبليس: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ [الأعراف: الآية ١٢] والأمر بصيغة (افعل) وهو قوله: ﴿ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ﴾ [الأعراف: الآية ١١] فعنفه التعنيف الشديد الذي لا يفعل إلا لتارك الواجب علىٰ مخالفته لصيغة (افعل) التي هي: ﴿ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ﴾ وقد قال نبي الله موسىٰ لأخيه هارون: ﴿أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى﴾ [طه: الآية ٩٣] يعني قوله: ﴿ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ﴾ الآية [الأعراف: الآية ١٤٢]. والمعصية لا تسمىٰ إلا لارتكاب الحرام المستوجب للإثم، وقد وبخ الله (جل وعلا) قوماً توبيخاً شديداً لمخالفتهم لصيغة (افعل) في قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ﴾ [المرسلات: الآية ٤٨] (اركعوا) صيغة (افعل) وقد وبخ من لم يمتثلها وعنَّفه تعنيفاً شديداً في قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾﴾، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن تكون لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: الآية ٣٦] وفي القراءة الأخرىٰ: ﴿أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾[1] فجعل أمر الله وأمر الرسول موجباً للامتثال قاطعاً للاختيار. وقال في الملائكة: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ﴾ [التحريم: الآية ٦] فدل علىٰ أنهم لو لم يمتثلوا ما أمرهم لكانوا عاصين، حاشاهم من ذلك.

وأما اللغة العربية: فإنك لو قلت لعبدك: اسقني ماءً. أمرته وألزمته

(١) مضت عند تفسير الآية (٣) من سورة الأعراف.

بصيغة (افعل) ثم ترك ولم يمتثل فأدبته، فقال لك العبد: تأديبك لي ليس واقعاً في موقعه؛ لأن صيغة (افعل) في قولك: «اسقني» لم تلزمني ولم توجب علي!! فكل من يعرف معنىٰ اللسان العربي يقولون له: صيغة الأمر ألزمتك وأوجبت عليك، ولكنك عصيت وخالفت.

ومرادنا بهذا: أن هذا أمر خالق السمٰوات والأرض، أمر رب العالمين بإعداد القوة التي يمكن أن تحصل في الاستطاعة، هذا الأمر واجب، وتضييعه حرام لا شك فيه، وبذلك يُعلم أن تواكل من يسمون باسم المسلمين في أقطار الدنيا، وعدم سعيهم في إعداد القوة الكافية لقمع العدو أنه تمرد علىٰ نظام السماء، وعدم عمل بإرشادات خالق هذا الكون ـ جل وعلا ـ وامتثال أوامره، فالله (جل وعلا) في هذه السورة الكريمة وغيرها من سور القرآن رسم الطريق وبين للنبي ﷺ وأصحابه الطريق التي إذا فعلوها وساروا عليها كانت كفيلة بنصرهم، وذل أعدائهم، وقمع كلمة الكفر وإذلاله؛ لأنه هنا أمر بإعداد القوة التي يمكن أن تدخل تحت الاستطاعة كائنة ما كانت، تطورت القوة مهما تطورت، وانتقلت من حال إلىٰ أي حال، فالآية تساير التطور بدلالة مطابقتها مهما كان وما تحول الأمر؛ لأن لفظها الصريح موجب أمر إيجاب سماوي من الله إعداد كل ما يمكن أن يدخل في الاستطاعة من القوة لقمع الكفرة (قبحهم الله)، فهذا أمر واجب، فلو عمل الناس بهذا الأمر، وبذلوا ما عندهم من الإمكانيات والثروات في إعداد القوة الكاملة من جميع وجوهها، حتىٰ في تعليم الأمور التي تطورت إليها الحياة الراهنة؛ لأن كل حال له مقال، وكل حالة لها مواجهات بأمور تلائقها. ودين الإسلام مرن غاية المرانة، كل شيء يقابله بما يصلح له، وذلك في نور السماء الذي شرعه الله علىٰ لسان محمد ﷺ، فإن القوة التي يقوىٰ بها عسكر المسلمين، ويحمون حوزتهم، ويردون المسلوبات منهم إذا أعدوا القوة الكافية التي تدخل تحت الاستطاعة، ثم حول هذه القوة كانوا متكاتفين غير متنازعين غير متفرقين، كلمتهم واحدة، وذكروا الله كثيراً، وتعلقت أرواحهم بربهم، وطلبوا المدد من السماء، كانت أسباب النصر كلها متوفرة لديهم لقوتهم الكافية، ولعدم

فشلهم؛ ولأنهم إذا فشلوا وتفرقوا دخل العدو بينهم، ورمىٰ بعضهم ببعض كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ﴾ [الأنفال: الآية ٤٦] وقال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَفَرَّقُواْۚ﴾ [آل عمران: الآية ١٠٣] لا تتفرقوا، هذه أوامر الله، والقرآن يوضح الطريقة التي لو سلكها الناس لكانت كفيلة لهم بالنصر والظفر؛ لأن منها إعداد القوة الكافية، وكل من عنده مال فباستطاعته كل شيء؛ لأن المال سبب لكل شيء، وهو شريان الحياة، ويسخر الله به لمن أعطاه إياه كل الإمكانيات من تعليم حتى يتعلم ما تعلمه الكفرة ويصل إلىٰ ما وصلوا إليه، ويستعين به في جميع الميادين ليكتسب به القوة الكاملة.

ومعلوم أن هذه أوامر الله، وأنها متروكة، وأن دين الإسلام هو هو، وصلته بالله هي هي، وأن المتسمين باسم الإسلام هم الذين تنكروا للدين، وفارقوا الآلة الجبارة القاهرة التي كانوا يقهرون بها أعداء الله، وهي طاعة الله وامتثال أمره واجتناب نهيه، ولا شك أنه يجب علىٰ المسلمين امتثال أوامر الله، وأن يتفطنوا ويتحرزوا، ويفرقوا بين النافع والضار؛ لأن من طبيعة أدنىٰ العقلاء التفريق بين ما ينفع وما يضر، ولا شك أن ما يسميه الناس (الحضارة الغربية) دل الاستقراء الصحيح اليقين أن فيها ماءً زلالًا نافعاً وسماً قاتلًا فاتكاً، ونضرب لهذا مثلًا[1]: لأنك مثلًا أيها الإنسان إذا وجدت إناء فيه ماء زلال وإناء فيه سم قاتل وأنت خارج من العمران في فلاة بعيدة شاسعة، فحالك لا يخلو من أربعة أحوال: إما أن تشرب الماء والسم معاً، وإما أن تتركهما معاً، وإما أن تشرب السم وتترك الماء، وإما أن تشرب الماء وتترك السم. فافرض مثلًا أنك وجدت ماءً زلالًا وسمّاً فاتكاً قتّالًا في موضع واحد، وأنت في فلاة معطشة بعيد جداً من العمران، فلك مع هذا أربع حالات: إما أن تشربهما معاً، وإما أن تتركهما معاً، وإما أن تشرب السم وتترك الماء، وإما أن تشرب الماء وتترك السم، ولا خامسة البتة. وهذا تقسيم صحيح، فنرجع لهذا التقسيم الصحيح بالسبر الصحيح فنقول:

(١) مضى عند تفسير الآية (١١٥) من سورة الأنعام.

إذا شربتهما معاً لم ينفعك الماء؛ لأن السم الفتاك يقتلك ويقضي عليك، وإن تركتهما معاً هلكت، ولم تبلغ العمران، ولم تلتحق بالركب، وإن أخذت السم وتركت الماء فأنت مجنون أهوج أحمق حيث أخذت ما يضرك وتركت ما ينفعك!! وإن كنت عاقلًا يصدق عليك مطلق اسم العاقل أخذت الماء وتركت عنك السم. وهذا مثال لما جاءت به الحضارة الغربية، فإن ما أحدثته من القوة المادية وأنواع التنظيمات في جميع ميادين الحياة هو ماء زلال مُحتاج له جداً لا بد منه/ في تطور هذه الحياة الراهنة حسب ما تطورت إليه من الأوضاع، وفيها سم قاتل فتاك لا شك فيه، وهو ما جنته من الكفر، والانحطاط الخلقي، والتمرد على نظام السماء، ومعاداة خالق السمٰوات والأرض. فالموقف الطبيعي للمسلمين في الأوضاع الراهنة أن يتأملوا فإذا أخذوها كلها بنافعها وضارها أهلكهم ضارها ولم ينتفعوا بالنافع، وإذا تركوها كلها ـ تركوا النافع منها والضار ـ بقوا ولم يلحقوا، وبقوا مستضعفين، وإذا أخذوا ضارها دون نافعها فهم قوم مجانين، هم حمقى لا عقول لهم، وإن أخذوا النافع وتركوا الضار فهذا هو الأمر الطبيعي لكل عاقل.

١/٨

والمؤسف كل الأسف أنّ غالب من يتسمّى باسم الثقافة والحضارة والتمدّن لا يأخذ منهم إلّا القشور المهلكة، والسموم الفاتكة، من الانحطاط الخلقي، والتمرّد على نظام السماء، والتنكّر لخالق هذا الكون، في الوقت الذي لا يستفيد فيه من مائها الزلال ـ الذي هو قوّتها ـ شيئاً!! وهذه مسألة معكوسة جمع صاحبها بين الكفر والإفلاس.

ما أحسنَ الدين والدنيا إذا اجتمعا وأقبحَ الكفرَ والإفلاسَ بالرجلِ[1]

وإذا كان ربنا يقول في هذا المحكم المنزّل آخر الكتب السماوية عهداً برب العالمين: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: الآية ٦٠] مهما تطوّرت القوّة، ومهما بلغت كائنة ما كانت ﴿وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ﴾ كان وقت نزولها أقوى القوة وأعظم العدة الخيل وما جرى

(١) مضى عند تفسير الآية (١٥٥) من سورة الأنعام.

مجراها من الرمي، وقد ثبت في صحيح مسلم عن عقبة بن عامر الجهني (رضي الله عنه) أنه سمع رسول الله ﷺ وهو علىٰ المنبر يقول: «﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ **ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي**». كرّرها ثلاثاً[١]. لأن الرمي في ذلك الوقت وإعداد الخيل والسيوف هذا هو أقوىٰ القوّة وأعظمها في ذلك الوقت، والإعداد في ذلك كان يكون بمثل هذا، حتىٰ قال الشاعر[٢]:

وَأَعْـدَدْتُ لِـلـحَـربِ أوزارَهَـا ... رمـاحـاً طـوالاً وخـيـلاً ذكـوراً

وقال عمرو بن معد يكرب الزبيدي[٣]:

أَعْـدَدْتُ لِـلـحَـدَثَـانِ سَـا ... بِـغَـةً وَعَـدَّاءً عَـلَـنْـدَى

يعني: درعاً وفرساً ذكراً.

أما الآن فقد تطوّرت الحياة عن ذلك في ظروفها الراهنة، وصارت الخيل والدروع والرماح لا تغني شيئاً، فصار الأمر يتطلّب شيئاً زائداً علىٰ ذلك يساير الأحوال، ويساير التطوّر في حالاته الراهنة، فعلىٰ المسلمين أن يُعدّوا كل ما في الاستطاعة منه، ولكنهم ـ وإنا لله وإنا إليه راجعون ـ لا يُعدّون في أغلب أقطار المعمورة شيئاً، والكفار يتقوّون ويسلّطهم الله عليهم بذنوبهم. أمّا التعاليم السماويّة فهي لا تشجّع علىٰ الضعف والتواكل والتسليم للأعداء، لا، إنما تأمر بالقوّة وإعداد القوة المستطاعة، والكفاح القوي، وعدم التنازع، وعدم التفرّق، والاتّصال مع هذا كله بخالق السماوات والأرض، وامتثال أوامره، واجتناب نهيه ﴿إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ﴾ [الأنفال: الآية ٤٥] إلىٰ غير ذلك من الآيات. وهذا معنىٰ قوله: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾ ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا

---

(١) أخرجه مسلم في الإمارة، باب: فضل الرمي والحث عليه. حديث رقم: (١٩١٧) (١٥٢٢/٣).

(٢) البيت للأعشى، وهو في ديوانه ص٧١، تاريخ دمشق (١٤٠/٢٠).

(٣) البيت في الدر المصون (٢٠٧/١)، شواهد الكشاف ص٣٢.

﴿ٱسْتَطَعْتُم﴾ إعداده ﴿وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾ الرباط: تطلقه العرب على عين الخيل المربوطة، يقولون: هذا رباط. أي: خيل مربوطة في سبيل الله. قال بعضهم: هو جمع ربيط، فرس ربيط: مربوط في سبيل الله، قالوا: كفصيل وفصال، وربيط ورباط، فالرباط اسم لذات الخيل المربوطة في سبيل الله؛ لأن الخيل كانت من أقوى القوة وأعظم العدة التي تُقهر بها الأعداء في وقتها. وهذا معنى قوله: ﴿وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾ والخيل هو الحيوان المعروف. قال بعضهم: هو جمع (خايل)؛ لأن في مشيها خُيلاء كمشية المتكبّر المتبختر. وبعضهم يقول: هو جمع (خائل) واحده (خائل). وقد قدّمنا أن التحقيق عندنا أن (الفَاعِل) يُجمع على (فَعْل) إذا كان وصفاً. وقوله: ﴿تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ﴾ الإرهاب: التخويف، تخوّفون به عدو الله. والعدو يُطلق على المفرد وعلى الجمع، معناه: أعداء الله، كقوله: ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ﴾ [المنافقون: الآية ٤] ﴿فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ﴾ [النساء: الآية ٩٢] أي: أعداء. وهذا معنى قوله: ﴿تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ ككفّار مكّة وغيرهم من الكفّار.

﴿وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ﴾ معنى ﴿مِن دُونِهِمْ﴾ آخرين غيرهم لا تعلمونهم. كان بعض العلماء يقول: هم قريظة. وبعض العلماء يقول: هم فارس والروم. وبعض العلماء يقول: هم المنافقون[1].

واستدل من قال: إنهم المنافقون؛ لأن الله قال فيهم: ﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾ [التوبة: الآية ١٠١] وقال كثير من العلماء: هم مردة الجن، وزعم بعض العلماء أن الجن يخافون من الخيل، وأنهم يفرون من صهيلها!! وجاء في ذلك بعض الأحاديث.

والتحقيق أنه لم يثبت فيه شيء عن النبي ﷺ. وقال بعض العلماء: البحث عن هؤلاء الآخرين لا طائل تحته؛ لأنّ الله صرّح بأنا لا نعلمهم فكيف نتكلّم فيما قال ربّنا إنّنا لا نعلمه، والله يقول: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ

(١) انظر هذه الأقوال في ابن جرير (١٤/٣٥)، القرطبي (٨/٣٨)، ابن كثير (٢/٣٢٢).

بِهِۦ عِلْمٌۚ﴾ [الإسراء: الآية ٣٦][1] وهذا معنىٰ قوله: ﴿وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْۚ﴾.

ولما أمر الله بإعداد القوة المستطاعة كائنة ما كانت، وكان إعدادها يحتاج إلىٰ مادّة رغب المؤمنين في الإنفاق في سبيل الله، لينفقوا ويعينوا علىٰ إعداد القوة، قال: ﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ (ما) شرطية، و ﴿مِن شَىْءٍ﴾ بيان لـ (ما)، و ﴿تُنفِقُوا۟﴾ معناه: [تبذلونه][2] لوجه الله وابتغاء مرضاته ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: في طريقه التي ترضيه، ويدخل فيها دخولاً أولياً: ما يعين علىٰ الجهاد من إعداد القوة، ومن رباط الخيل.

﴿يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾ أي: يعطكم الله ثوابه يوم القيامة وافياً غير منقوص، الحسنة بعشرة أمثالها إلىٰ سبعمائة ضعف، إلىٰ ما شاء الله من الأضعاف.

﴿وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [الأنفال: الآية ٦٠] لا تنقصون شيئاً من حقوقكم.

﴿وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ وَإِن يُرِيدُوٓا۟ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًاۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًاۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾﴾ [الأنفال: الآيات ٦١ ـ ٦٩].

يقول الله جل وعلا: ﴿وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ

---

(١) انظر: القرطبي (٣٨/٨).

(٢) في هذا الموضع كلمة غير واضحة، وما بين المعقوفين [ ] زيادة يتم بها الكلام.

ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ [الأنفال: الآيات ٦١ ـ ٦٣].

قرأ هذا الحرف عامّة القرّاء السبعة غير عاصم في رواية شعبة أبي بكر: ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ﴾ بفتح السين. وقرأه شعبة عن عاصم: **﴿وإن جنحوا للسِّلم﴾**[1].

و (السَّلم) بفتح السين و (السِلم) بكسرها لغتان فصيحتان، وقراءتان سبعيتان صحيحتان، والمراد بالسَلم: الصلح. العرب تسمي الصلح: سَلماً، وسِلماً. وربما سمّتها: (سلاماً).

والجنوح في لغة العرب: الميل، تقول العرب: جنح فلان إلىٰ كذا، وجنح له. أي: مال إليه، وهو معنىً معروف في كلام العرب، ومنه قول غيلان ذي الرمة[2]:

إذا ماتَ فوقَ الرحلِ أحييتُ روحَهُ بذكراكِ والعيسُ المَراسيلُ جُنَّحُ

أي مائلات الأعناق في السير.

معناها: إن مال الكفار يا نبي الله إلىٰ السِلم وودّوها وطلبوها فاجنح لها. أي: وافقهم في ذلك، وملْ إلىٰ السلم وصالحهم وسالمهم كما طلبوا ذلك منك.

و (السلم) مؤنَّثة في اللغة الفصحىٰ، كالحَرب فهي مؤنثة أيضاً، ومنه قول العبّاس بن مرداس[3]:

السِّلْمُ تأخذُ منها ما رَضيتَ به والحربُ تكفيكَ من أَنْفَاسِهَا جُرَعُ

والمعنىٰ: ﴿وَإِن جَنَحُواْ﴾ أي: الكفار ﴿إِلَى ٱلسَّلْمِ﴾ إلى الصلح، أي:

---

(١) انظر: المبسوط لابن مهران ص٢٢٢.

(٢) البيت في القرطبي (٣٩/٨)، الدر المصون (٦٣٠/٥).

(٣) البيت في الدر المصون (٣٥٩/٢)، (٦٣١/٥).

مالوا إلىٰ المصالحة، وأحبوا أن تكون معهم في صلح ﴿فَٱجۡنَحۡ﴾ يا نبي الله إليها، أي: إلىٰ الصلح، فَمِلْ إلىٰ الصلح وسالمهم.

وكان بعض العلماء يزعم أن هذه الآية من سورة الأنفال بينها وبين آية القتال تعارض أو إشكال[١]، والحق أنه لا تعارض بينهما؛ لأن آية الأنفال هذه قيدت أمر النبي ﷺ بجنوحه إلىٰ السلم بأن يكون الكفار هم الذين جنحوا إليه أوّلًا وطلبوه ومالوا إليه. أما آية سورة القتال ـ سورة محمد ـ فهي لا تعارض هذا؛ لأن الله نهاهم فيها عن ابتداء طلب الصلح، وذلك لا ينافي إجابة الكفار إليه بعد أن طلبوه. ونعني بالآية المذكورة: قوله تعالىٰ: ﴿فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدۡعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلۡمِ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمۡ﴾ [محمد: الآية ٣٥] لأن آية القتال فيها النهي عن أن يكونوا هم البادئين بالدعاء إلىٰ الصلح؛ لأن الداعي إلىٰ الصلح يظهر من قرينة حاله أنه كأنه خائف، وأنه يحس بالغلبة فيريد الصلح. أما القوي الآمن الذي لا يظن أنه مغلوب فلا داعي له إلىٰ طلب الصلح. فلا معارضة بين الآيتين. وهذا معنىٰ قوله: ﴿وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلۡمِ﴾ أي: إن مال الكفار إلىٰ الصلح فاجنح لها.

أما قراءة: ﴿فاجْنُحْ لها﴾ فهي شاذّة وليست من القراءات السبعية[٢]. أي: فَمِلْ إليها ووافقهم علىٰ ذلك ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ يعني: إن صالحتهم فلا تخف مما يدبّرون لك من المكر والغدر والحيل في مدّة تلك المصالحة، لا تهتم بذلك ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ ثق إليه، وفوّض إليه جميع أمورك، فإنه (جل وعلا) يكفيك ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ﴾ [الطلاق: الآية ٣] وهذا معنى قوله: ﴿فَٱجۡنَحۡ لَهَا وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ ﴿إِنَّهُۥ﴾ أي: الله ﴿هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لما يقولونه من المنكر والغوائل التي يتربّصونك بها في مدة الصلح ﴿ٱلۡعَلِيمُ﴾ بكل ما يبطنون ويضمرون من المكر والخديعة والحيل أثناء المدة التي صالحتهم فيها، فهو (جل وعلا) لا يفوته شيء مما قالوا ولا مما عملوا،

---

(١) انظر: ابن جرير (٤١/١٤)، القرطبي (٣٩/٨).

(٢) انظر: المحتسب (٢٨٠/١).

فهو مطّلع عليهم وكافيكهم، لا تهتم بذلك، واجعل ثقتك بالله وتوكلك عليه، فإنه يكفيك.

واعلم أن جماعة من العلماء من الصحابة فمن بعدهم زعموا أن هذه الآية من سورة الأنفال منسوخة بآية السيف النازلة في براءة[1]؛ لأنها نازلة بعدها؛ لأن براءة نزلت في رجوع النبي ﷺ من غزوة تبوك، وذلك العام عام تسع بلا خلاف، لم يعش النبي ﷺ بعده إلّا سنة واحدة، وسورة الأنفال هذه نزلت في وقعة بدر، وكانت في العام الثاني من الهجرة كما أوضحناه. قالوا: فهي منسوخة بآية السيف، كقوله: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾ [التوبة: الآية ٥].

والتحقيق أن هذه الآية ليست منسوخة، وأن المصالحة والمهادنة لم تُنسخ، وأن الإمام يخيّر وينظر في مصالح المسلمين، فإن رأى المصلحة في الصلح حتى يتقوّى المسلمون فيجتمع شملهم ويقدروا على القتال صالح، وإن رأى المصلحة في عدم الصلح لم يصالح، فالكل واسع وجائز إن شاء الله. وهذا معنى قوله: ﴿وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦١﴾﴾ [الأنفال: الآية ٦١].

﴿وَإِن يُرِيدُوا أَن يَخْدَعُوكَ﴾ [الأنفال: الآية ٦٢] ﴿وَإِن يُرِيدُوا﴾[2] أي: الكفار الجانحون للسلم الطالبون للصلح ﴿أَن يَخْدَعُوكَ﴾ بذلك الصلح ويتمكنوا في مدة المصالحة من تدبير المكر والمكائد ليضروك بها؛ لأن بعض الكفار يصالح غدراً ومكيدة، لا محبة في المصالحة. وكان قريظة بعد أن أعانوا كفار مكة بالسلاح وصالحوه المرة الأخرى ليس في نيتهم الدوام على المصالحة، بل يتربّصون به الدوائر، ويريدون أن يعينوا عليه الكفار. إذا كان قصدهم بالصلح الذي طلبوه وجنحوا إليه المخادعة فلا يهمّنك ذلك، ولا تكترث بقصدهم الخداع فإنهم لا يضروك شيئاً؛ لأن الله يكفيك ذلك كله؛ ولذا قال: ﴿وَإِن يُرِيدُوا أَن يَخْدَعُوكَ﴾ الخديعة: الغرور، وهو

---

(١) راجع المصادر في الحاشية قبل السابقة.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٥٩) من هذه السورة.

إبطان الشر ومحاولة إيصال الشر بطريق خفية لا ظاهرة واضحة.

﴿فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ﴾ حَسْبك: معناه كافيك الله (جل وعلا). العرب تقول: حَسْبُه كذا. معناه: كافيه كذا. وهذا معنىً معروف في كلامها مشهور، ومنه قول جرير يهجو قوماً ممن كان يهجوهم[(١)]:

ولقد رأيتُ من المكارمِ حسبكم أن تلبسوا خَزَّ الثيابِ وتشبعوا
فإذا تُذوكِرَت المكارم مرةً في مجلسٍ أنتم به فتقنَّعُوا

فقوله: حسبكم يعني: يكفيكم من المكارم أن تأكلوا وتشربوا، وهذا غاية الذم كما هجا الحطيئةُ الزبرقان بن بدر لما قال له[(٢)]:

دع المكَارِمَ لا تَرْحَلْ لبُغْيَتِهَا واقْعُد فإنكَ أنتَ الطاعمُ الكَاسِي

وحبسه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (رضي الله عنه).

﴿فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ﴾ كافيك الله، يكفيك شرهم وشر خداعهم، فثق به وتوكل عليه ولا تكترث بإرادتهم بالصلح الخداع. وهذا معنى قوله: ﴿فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ﴾ ﴿هُوَ﴾ أي: الله ﴿ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ﴾ أيدك: معناه قوّاك. فالعرب تقول: أيّده يؤيّده تأييداً. إذا قوّاه. وتقول: رجل أيِّد. إذا كان قوياً. و (الأيد) و (الآد): القوة[(٣)]. ومنه قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْي۟دٍ﴾ [الذاريات: الآية ٤٧] أي: بنيناها بقوّة. وليست من (الأيدي) جمع (يد) فليست من آيات الصفات، بل معناها: القوة. هذا معنى: ﴿أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ﴾ أي: قوّاك وعزّزك بنصره. وأصل النصر في لغة العرب: إعانة المظلوم ﴿أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ وقوّاك أيضاً وأيّدك بالمؤمنين، ويدخل فيهم دخولاً أولاً: الأنصار ـ الأوس والخزرج ـ الذين آووه ونصروه وأيّده الله بهم. كان الأوس والخزرج وهما بطنا الأنصار أبناء قَيْلة، أولاد حارثة الغطريف كانوا

---

(١) البيت في تاريخ دمشق (١٨١/٢٩) ونسبه لحسان (رضي الله عنه) وليس في ديوانه، ونسبه في شواهد الكشاف ص٧٠ لجرير.

(٢) البيت في ديوانه ص١٠٨.

(٣) مضى عند تفسير الآية (٢٦) من هذه السورة.

مكثوا سنين كثيرة بينهم حروب دامية، وقتال هلك فيها أشرافهم، وقُتل فيها ساداتهم، وبينهم عداوات وإحن وأضغان مستحكمة قديمة متوارثة لا يكاد أن تزول من صدورهم أبداً، فلما أرسل الله إليهم نبيه محمَّداً ﷺ وآووه ونصروه، وأيده الله بنصره وبهم، أزال تلك الأضغان والعداوات الكامنة، وجعل مكانها المحبة الصادقة والمودة والإخاء الكامل؛ ولذا امتنّ الله عليهم بذلك هنا، وقد قدمنا نحوه في سورة آل عمران؛ لأنه قال: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٦٢ وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡۚ﴾ [الأنفال: الآيتان ٦٢، ٦٣] قال بعض العلماء: ﴿وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡۚ﴾ يعني: الأنصار. وقال بعض العلماء: هي أعمّ من الأنصار؛ لأن العرب الذين هم أول من دخل في دينه ﷺ كانوا أمّة بينها ضغائن وحروب ومقاتلات لا تكاد تجتمع على رجل واحد، فجمع الله شتاتها ولمَّ شعثها وألّف قلوبها على الإيمان. وأكثر المفسرين على أن المراد بهم الأنصار[1]، كانوا في العداوات الشديدة، ومكثوا سنين كثيرة في حروب دامية، واستحكمت بينهم العداوات والإحن والأضغان، فألّف الله بين قلوبهم بنبيه ﷺ كما قال هنا: ﴿وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡۚ﴾ التأليف في لغة العرب معناه: الجمع. أي: جمع بين قلوبهم فصارت على قلب رجل واحد، نيتها إعلاء كلمة الله، ونصر دينه، ونصر نبيّه، ومحبة كل للآخر بعد أن كانت قلوبهم غير مجتمعة ولا متألفة، بل هذا يريد قتل هذا، وهذا يريد قتل هذا، بقلوب شتّى لا تتألف؛ ولذا قال: ﴿لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِى ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا﴾ يعني: لو صرفت ما في الأرض جميعاً لتؤلّف بين قلوبهم ما أمكن ذلك أبداً. ومن أعظم الأسباب الدنيوية لكل شيء: المال، فإنه يؤلف القلوب ويزيل العداوة. يعني: لو أنفقت جميع ما في الأرض ما قدرت على أن توفّق بين قلوبهم ولا أن توحّدها، ولكن الله العظيم بقدرته وجلاله ألّف بين قلوبهم؛ لأنه تعالى وحده هو الذي يملك القلوب ويصرّفها كيف يشاء، إذ كل إنسان قلبه بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلّبه كيف يشاء، كما قدّمنا بسطه في تفسير قوله: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ﴾ الآية [الأنفال:

---

(١) انظر: ابن جرير (١٤/٤٥)، القرطبي (٨/٤٢).

الآية ٢٤]. الذي بيده القلوب يصرّفها كيف يشاء، ويقلبها كيف يشاء هو وحده الذي يقدر على تأليف قلوبهم، وجمع كلمتهم، ولمّ شعثهم، وإزالة ما كان بينهم كما تقدم في قوله: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾ [آل عمران: الآية ١٠٣] وهذا معنى قوله: ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: الآية ٦٣].

وقد قدمنا مراراً أن العزيز هو الغالب الذي لا يغلبه شيء، والعزة: الغلبة ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ﴾ [المنافقون: الآية ٨] أي: ولله الغلبة ﴿وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ﴾ [ص: الآية ٢٣] غلبني في الخصام. ومن كلام العرب: (مَنْ عزَّ بزّ)[1] يعنون: من غلب استلب، وقد نظمته الخنساء السلمية الشاعرة في قولها[2]:

كأنْ لَمْ يكُونُوا حمى يُخْتَشَى ... إذْ النـاسُ إذْ ذاكَ مـنْ عـزَّ بـزّا

أي: من غلب استلب. والحكيم: هو الذي يضع الأمور في مواضعها ويوقعها في مواقعها[3]. فاقتضت عزّته وغلبته أن يقهر أعداءك، وأن لا يضرّوك بخداعهم ونيّتهم المكر والخداع؛ لأن ربك غالبٌ قاهر لا يغلبه شيء، واقتضت حكمته أن يؤلّف بين قلوب أنصارك الذين نصروك، ويوحّد كلمتهم، ويجعلهم كرجل واحد، هذا اقتضته عزّته وحكمته، وإن كانت حكمته تقتضي العدل الكامل، وكمال التمام في كل ما يدبّره في شرعه وقدره وغير ذلك. وعزّته تقتضي أنه غالبٌ لكل شيء، ويدخل في ذلك قهره للكفار الجانحين للسلم الذين يريدون بذلك الخداع، ويدخل في حكمته جمعه بين قلوب أصحابك ليجتمعوا على نصرة دين الله وإعلاء كلمته. وهذا معنى قوله: ﴿إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: الآية ٦٣].

ثم قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [الأنفال:

(١) مضى عند تفسير الآية (٩٦) من سورة الأنعام.

(٢) السابق.

(٣) مضى عند تفسير الآية (٨٣) من سورة الأنعام.

الآية ٦٤] قرأ هذا الحرف عامّة القراء غير نافع: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ﴾. وقرأه نافع وحده من السبعة: ﴿يَأَيُّهَا النَّبِيءِ حَسْبُكَ اللهُ﴾ بالهمزة[١].

أما على قراءة نافع فهو من النبأ بلا خلاف. وقد قدّمنا مراراً[٢] أن النبأ في لغة العرب: الخبر الذي له خطب وشأن، فكل نبأٍ خبرا وليس كل خبر نبأ، لأن النبأ أخص من مطلق الخبر، إذ لا تكاد العرب تطلق النبأ إلا على الإخبار بما فيه أهمية وله خطب وشأن، فلو قلت: جاءنا اليوم نبأ الأمير، أو نبأ الجيوش. كان هذا من كلام العرب؛ لأنه خبرٌ له خطبٌ وشأن، ولو قلت: بلغني اليوم نبأً عن حمار الحجّام. لما كان هذا من كلام العرب؛ لأن خبر حمار الحجّام لا أهمية له ولا شأن ولا خطب له.

أما على قراءة الجمهور: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ فقال بعض العلماء: معناه كمعنى قراءة نافع، إلا أن الهمزة أُبدلت ياءً كما أُبدلت همزة (النسيء) في قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٞ فِي ٱلۡكُفۡرِۖ﴾ [التوبة: الآية ٣٧] أُبدلت ياءً في قراءة سبعية صحيحة[٣] ﴿إِنَّمَا النَّسِيُّ زِيَادَةٌ فِي الكُفرِ﴾ وبها قرأ ورش عن نافع وغيره، وعلى هذا القول فالقراءتان معناهما واحد.

وقال بعض العلماء: (النبي) على قراءة الجمهور ليس من النبأ الذي هو الخبر وإنما هو من (النُّبْوَة) بمعنى الارتفاع؛ لأن النبي يوحى إليه وحيٌ، وهو خبرٌ له شأنٌ وخطب؛ ولأن له مكانةً رفيعة، والشيء المرتفع تسمّيه العرب (نبيّاً) والنّبوة: الارتفاع، ومنه قيل لكثيب الرمل: (نبي) أي: لأنه مرتفع، وهو معنى معروف في كلام العرب، ومنه قول الشاعر[٤]:

إلى السيد الصعبِ لو أنه ... يقوم على ذروةِ الصاقبِ
لأَصْبَحَ رَتْماً دُقاقُ الحصى ... مكان النبي من الكاثِبِ

---

(١) مضى عند تفسير الآية (١١٢) من سورة الأنعام.
(٢) مضى عند تفسير الآية (٨٩) من سورة الأنعام.
(٣) مضى عند تفسير الآية (١١٢) من سورة الأنعام.
(٤) مضى عند تفسير الآية (١٥٨) من سورة الأعراف. ولفظ الشطر الأول من البيت الأول في ديوانه:
على الأروع السقب لو أنه ....

يعني بالنبي: كثيب رمل مرتفع. وهذا معنى قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ﴾ أي: كافيك الله من أمور الدنيا والآخرة، فإنه يكفيك أعداءك، ويعينك على من ناوءك منهم.

وقوله: ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ فيه وجهان من التفسير معروفان[1]: قال قومٌ من علماء التفسير: إن قوله: ﴿وَمَنِ﴾ في محل رفع، وأنه معطوف على لفظ الجلالة، أي: حسبك الله وحسبك من اتبعك من المؤمنين، يعينك الله ويؤيدك الله بالمؤمنين. وهذا مرويٌ عن الحسن البصري. والذين قالوا هذا القول قالوا: هذه الآية مكيّة جُعلت في سورة الأنفال وهي مدنية بأمرِ من النبي ﷺ، وزعموا أنها نزلت عندما أسلم عمر بن الخطّاب ـ رضي الله عنه ـ والنبي وأصحابه مختفون في دار الأرقم ابن أبي الأرقم في مكة، وأن عمر أظهر إسلامه حتى صلوا في المسجد، وما كانوا يقدرون، وأن الله أنزلها في مكة، وأن النبي ﷺ أمر بجعلها في هذه السورة المدنية أعني سورة الأنفال.

والتحقيق الذي دلّ عليه استقراء القرآن العظيم، وبه قال أكثر علماء التفسير المشهورين: أن قوله ﴿وَمَنِ﴾ عطفٌ على الضمير في قوله: ﴿حَسْبُكَ ٱللَّهُ﴾ معناه: كافيك الله وكافي معك من اتبعك من المؤمنين، فالله يكفيك المُؤن وشرور الأعداء وكل بليّة، كما أنه يكفي أتباعك من الصحابة فمن بعدهم (رضي الله عنهم). وهذا القول هو التحقيق، وقد دلّ استقراء القرآن عليه؛ لأن الحسْب ـ الذي هو الكفاية ـ من خصائص رب العالمين، ولم يسنده لأحدٍ من خلقه حيث قال: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ﴾ [التوبة: الآية ٥٩] فجعل الإيتاء لله والرسول، والحسب لله وحده. وقال تعالى: ﴿فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: الآية ٦٤] فجعل الحسب له وحده، والتأييد بنصر الله وبالمؤمنين. وقد أثنى الله (جل وعلا)

(١) انظر: ابن جرير (١٤/٤٩)، القرطبي (٨/٤٣)، الأضواء (٢/٤١٦)، ولابن القيم (رحمه الله) تحقيق جيد في معنى الآية ذكره في زاد المعاد (١/٣٥).

على قوم أفردوه بالحسب - وهو الكفاية - كما في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾ [آل عمران: الآية ١٧٣] الله وحده ولم يذكر معه غيره، فأثنى عليهم بإفراد الخالق بهذا الحسب الذي هو الكفاية. ونظيره قوله في خاتمة براءة: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾﴾ [التوبة: الآية ١٢٩] هذا هو التحقيق - إن شاء الله - أن المعنى: يكفيك الله ويكفي جميع أتباعك.

وفي هذين ترغيب عظيم في الإسلام؛ لأن من اتبع النبي ﷺ كفاه الله كما كفى نبيّه ﷺ.

وهذا التفسير هو الذي عليه جمهور علماء المفسرين، وهو الذي دل عليه استقراء القرآن كما بيّنا، إلا أنه يَرِدُ عليه سؤال عربي نحوي: وهو أن يقول طالب العلم: قررتم أن التحقيق أن (من) من قوله: ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ معطوفة على الكاف في قوله: ﴿حَسْبُكَ﴾[1] أي: حسبك الله وحسب من اتبعك من المؤمنين. والمقرّر عند جماعة من علماء العربية أن الضمير المخفوض لا يجوز العطف عليه إلا بإعادة الخافض، وهنا لم يُعد الخافض.

وأُجيب عن هذا السؤال من أربعة أوجه[2]:

أحدها: أن هذه القضية غير مسلّمة[3]، وأن جماعة من علماء العربية أصحاب علم وتحقيق قالوا: لا مانع من العطف على الضمير المخفوض من غير إعادة الخافض. وهو رأي ابن مالك - رحمه الله - لأنه لما ذكر المذهب الأول بقوله في خلاصته[4]:

وعَوْدُ خَافِضٍ لدى عَطْفِ عَلَى ضَميرِ خَفْضٍ لأزِماً قد جُعِلاَ

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٩) من هذه السورة.

(٢) انظر: البحر المحيط (٥١٥/٤)، الدر المصون (٦٣١/٥)، الأضواء (٤١٧/٢).

(٣) أطال ابن مالك (رحمه الله) في إبطالها. انظر شرح الكافية (١٢٤٦/٣ - ١٢٥٥)

(٤) الخلاصة ص٤٨.

قال بعده:

وليسَ عندي لازماً إذْ قد أَتى في النظم والنَّثْرِ الصحيحِ مُثْبَتَا

ومراده بالنثر الصحيح: قراءة حمزة ـ رحمه الله ـ ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ والأرحامِ﴾ [النساء: الآية ١] بخفض ميم الأرحام معطوفة على الضمير المجرور في قوله: (به) من غير إعادة الخافض، وهي قراءة سبعية صحيحة[1]، فمعلوم أن اللغة التي جاءت بها لا بد أن تكون لغة عربية صحيحة، وهو كذلك. وقد اشتهر في أشعار العرب العطف على الضمير المخفوض من غير إعادة الخافض، وأنشد له الشيخ سيبويه في كتابه[2]:

فاليومَ قرَّبْتَ تَهْجُونَا وتَشْتِمُنَا فَاذْهَبْ فما بِكَ والأيَّامِ منْ عَجَبِ

فعطف الأيام على الضمير المجرور بالباء من غير إعادة الخافض، وهو كثير في أشعار العرب، ومنه قول الآخر[3]:

نُعَلِّقُ في مثْلِ السَّوارِي سُيُوفَنَا وَمَا بَيْنَهَا والكَعْبِ مهوى النفانف

فقوله: «والكعب» معطوف على الضمير المجرور من غير إعادة الخافض. ونظيره قول الآخر[4]:

لقد رام آفاق السماء فلم يجد له مصعداً فيها ولا الأرض مقعداً

فعطف الأرض على الضمير المخفوض من غير إعادة الخافض، ونظيره قول الآخر[5]:

أمر مع الكتيبةِ لا أُبالي أَحَتْفي كان فيها أَمْ سِوَاهَا

---

(١) انظر: المبسوط لابن مهران ص١٧٥.

(٢) الكتاب (٢/٣٨٣)، وهو في شرح الكافية (٣/١٢٥٠).

(٣) البيت في شرح الكافية (٣/١٢٥١).

(٤) لم أقف عليه.

(٥) البيت في شرح الكافية (٣/١٢٥٢) وهو للعباس بن مرداس.

فعطف (سواها) بـ (أم) على الضمير المخفوض، وهو كثير في كلام العرب.

الوجه الثاني: أن قوله: ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ﴾ في محل نصب معطوف على المحل؛ لأن الكاف من قوله ﴿حَسْبُكَ﴾ وإن كان في محل خفض مضاف إليه ما قبله فأصله مفعول؛ لأن الحسب بمعنى الكفاية، والأصل: يكفيك. فالكاف في محل المفعول، والمعروف في علم العربية أن المخفوض بالإضافة الذي أصله النصب يجوز العطف عليه مخفوضاً، وتجوز مراعاة محله فينصب المعطوف عليه وهو معروف في محله.

الوجه الثالث: وهو أظهرها وأبينها وأقلها تكلفاً: أن قوله: ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ في محل نصب على أنه مفعول معه، بناء على القول بأن العطف ضعيف، وهو العطف على الضمير المخفوض من غير إعادة الخافض فيتعيّن حينئذٍ النصب على المفعول معه (حسبك الله مع من اتبعك من المؤمنين) وهذا واضح لا إشكال فيه، ونظيره من كلام العرب قول الشاعر[1]:

إذا كانَتِ الهيجاءُ وانْشَقَّتِ العَصَا فَحَسْبُكَ والضحاكَ سيفٌ مهنّدٌ

فنصب (والضحاك) مفعولًا معه. أي: حسبكَ مع الضحاكِ.

الوجه الرابع: أن قوله: ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ﴾ في محل رفع على أنه مبتدأ خبره محذوف دلّ ما قبله عليه. أي: ومن اتبعك من المؤمنين فحسبهم الله أيضاً. وهذا معنى قوله: ﴿حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: الآية ٦٤].

ثم قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ﴾ [الأنفال:

---

(١) البيت في القرطبي (٤٢/٨)، الدر المصون (٣٨٤/١)، ذيل الأمالي ص١٤٠، ونسبه لجرير، وليس في ديوانه.

الآية ٦٥] التحريض: هو الحض على الشيء والحث عليه بشدّة. حرّضهم على القتال، أي: حثهم وحرّصهم عليه بشدّة؛ لأنّ القتال فيه خير الدنيا والآخرة، ثم إنه كان في أول الأمر يجب على المسلمين لقلّتهم أن يصابر الرجل الواحد منهم عشرة من الكفار، كان الرجل الواحد من المسلمين يجب عليه أن يصبر أمام عشرة مقاتلين من الكفار، فلذا قال: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ﴾ [الأنفال: الآية ٦٥] فإذا قابلت العشرين بالمائتين كان كل رجل مقابل لعشرة كاملة ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ﴾ صابرون محتسبون لله في ميدان الحرب.

ثم قال: ﴿وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ قرأ هذا الحرف نافع وابن كثير وابن عامر: **﴿وإن تكن منكم مائة﴾** بالتاء الفوقية. وقرأه العراقيون أعني أبا عمرو البصري والكوفيين الثلاثة - عاصماً وحمزة والكسائي - قرؤوه كلهم: ﴿وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا﴾ بالياء التحتية كما قبله[1]؛ لأن المائة إذا قابلت ألفاً فكل واحد بعشرة.

وكأن قائلًا قال: لِمَ كان الواحد من المسلمين يغلب العشرة من الكفار، ويجب عليه أن يصبر لها، والله لم يوجب عليه ذلك إلا لعلمه بأنه قِرْنٌ لها وكفؤٌ لها عند الضرورة قبل أن يكثر المسلمون، فما موجب هذا حيث يكون الواحد من هؤلاء يقاوم العشرة من هؤلاء؟ فبيّن الله (جل وعلا) الحكمة في ذلك،/ وهذه الحكمة التي بيّن الله بهذه الآية من سورة الأنفال ٨/ب حكمة سماويّة عظيمة تحتها أسرار هائلة يجب على كل مسلم أن يتصفّحها ويتعقّلها ويتدبّر معانيها، وخصوصاً كل الخصوص تحتّمها على العسكريين من المسلمين، يجب عليهم كل الوجوب أن يتأملوا هذه الآية من سورة الأنفال، وأن يتصفّحوا معناها، فإن فيها سراً عظيماً لو تعقّله المسلمون لفهموا الحقائق، ولما ساروا في الظلام؛ لأن الله لما قال: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ

(١) انظر: المبسوط لابن مهران ص٢٢٢.

عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ بيّن علّة ذلك وأوضحها فقال: ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ ﴿ذَٰلِكَ﴾ وهو كون الواحد يغلب عشرة منهم ويصابرها بسبب أنهم قوم لا يفقهون. أي: لا فقه عندهم ولا فهم عن الله، والذي لا يفقه عن الله ولا يفهم ما عنده فهو كالبهيمة ليس له مبدأ يقاتل عليه، والذي يتقدم إلى الميدان في خطوط النار الأمامية ليس عنده مبدأ نبيلٌ يقاتل عليه فهو مائع، هزيمته قريبة سريعة، لا يقاوم أبداً. فإذا التقى من لا فقه عنده بمن عنده فقهٌ عن الله فالمسلم القائم في الميدان للعشرة يفقه عن الله ويفهم، ويقول: إن ربي اشترى مني هذه الحياة القصيرة في هذه الأيام المعدودة، وهي حياة مكدّرة بالأمراض والأسقام والمصائب والبلايا والأحزان، اشتراها مني بحياة سرمدية أبدية لا انقطاع فيها ولا كدر ولا ألم ولا حزن، وهذا المال القليل اشتراه مني بالحور العين والولدان وغرف الجنان ومجاورة رب غير غضبان، فهو ينتظر ما عند الله، فاهمٌ عن الله، يفقه عن الله، فهو متقدّمٌ في الميدان، لا يُهزم أبداً، ولو قُتل لكانت هي أمنيته، فهذا الذي يقاتل على هذا المبدأ النبيل، وهذا الغرض الصحيح، فاهماً عن الله، يفقه عن الله، هذا لا يقاومه الأهوج الجاهل الذي لا يفقه شيئاً، ولا يقاتل على مبدأ، فحياته أهمّ عنده مما يقاتل عليه، فالذين لا يفقهون عن الله من الجنود العسكريين لا يمكن أن يردّوا سليباً، ولا أن يُعلوا كلمة الله؛ لأنهم لا مبدأ لهم، وهم قومٌ لا فقه لهم، فلا يقاتلون على شيء ترخص بسببه نفوسهم عندهم ويرغبون فيما عند الله.

وهذا سرٌ لطيف عظيم، وتعليمٌ سماوي هائل، يفهم به المسلمون أن أول شيء من الأساسيات للاستعداد للميدان هو الفقه والفهم عن الله، فيجب كل الوجوب أن يُعلّم العسكريون عن الله حتى يفقهوا؛ لأنهم إذا كانوا فاهمين عن الله، عارفين بنبل المبدأ الذي يقاتلون عليه، كانوا شجعاناً وصابرين، لا يرجعون القهقرى ولا يُهزمون، كما سجّله التاريخ لأوائل هذه الأمة. وإن كانوا لا يفقهون عن الله شيئاً، جَهَلَةً كالأنعام لا مبدأ لهم يقاتلون عليه، فهم ليسوا بأساس ولا معوّل عليهم، يُهزمون مع كل ناعق

كما بيّنته هذه الآية العظيمة الكريمة من سورة الأنفال. وهذا معنى قوله: ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ [الأنفال: الآية ٦٥].

الفقه في لغة العرب: معناه الفهم ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ﴾ [هود: الآية ٩١] أي: ما نفهمه؛ لأنهم لا يفهمون عن الله شيئاً. وهذا معنى قوله: ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾.

فلما انتشر الإسلام وكثر المسلمون خفف الله (جل وعلا) عن المؤمنين وجوب مصابرة واحد لعشرة إلى مصابرة واحد لاثنين قال: ﴿الْآنَ﴾ (الآن) يعبّر بها عن الوقت الحاضر الذي أنت فيه، ﴿خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ﴾ [الأنفال: الآية ٦٦] تكليفه الأول وهو مصابرة الواحد للعشرة، وجاءكم بتخفيف بدله وهو مصابرة الواحد للاثنين.

﴿وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾ قرأه جماهير القرّاء منهم عامة السبعة غير عاصم وحمزة: **﴿وعلم أن فيكم ضُعفاً﴾** بضمّ الضاد. وقرأه عاصم وحمزة: ﴿وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾[1] والضَعف والضُعف لغتان فصيحتان، وقراءتان سبعيتان صحيحتان **﴿خَفَّفَ الله عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضُعْفاً﴾**.

﴿فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ﴾ هذا الحرف الأخير الذي هو قوله: ﴿فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ﴾ لم يقرأه بالياء من السبعة إلاّ الكوفيون الثلاثة ـ وهم عاصم وحمزة والكسائي ـ أما أبو عمرو البصري هنا فقد وافق غيره، فصار نافع وابن كثير وابن عامر وأبو عمرو يقرؤون: **﴿فإن تكن﴾** بالتاء، وعاصم وحمزة والكسائي يقرؤون: ﴿فَإِن يَكُن﴾ بالياء[2]. وهما لغتان فصيحتان، وقراءتان سبعيتان صحيحتان ﴿فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ﴾ الواحد لاثنين ﴿وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ﴾ الواحد لاثنين ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ جل وعلا ﴿وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ معيّة نصر وتوفيق وتأييد. وهذا معنى قوله: ﴿وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾.

﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ

---

(١) (٢) انظر: المبسوط لابن مهران ص٢٢٢.

ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾﴾ [الأنفال: الآيات ٦٧ ـ ٦٩].

﴿مَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾﴾ [الأنفال: الآية ٦٧].

لما انهزم المشركون يوم بدر كان سعد بن معاذ (رضي الله عنه) قائماً متوشّحاً سيفه على العريش الذي فيه رسول الله ﷺ، رآه النبي ﷺ ينظر كأنه ينظر إلى شيء يكرهه فقال: «**كأنك تنظر إلى شيء تكرهه!!**» قال: نعم، رأيتهم يأسرون الكفار ورغبتي أن يُقتلوا؛ لأن قتل الكفار أقوى للإسلام وأشدّ مناعة لشوكته، ويحصل به ضعف المشركين وانكسار شوكة الكفر، فقتلهم هنا أحبّ إليّ[(١)].

ولما اجتمع الأسارى عند رسول الله ﷺ استشار أصحابه، فجاءت روايات متعدّدة أن ممن أشار عليه أبو بكر وعمر وعبد الله بن رواحة، ومن أكثرها إشارة أبي بكر وعمر، وأن أبا بكر قال له: يا رسول الله: إنهم قومك وعشيرتك فلا تعجل عليهم وهم كفار، فاستبقهم وأمهلهم لعل الله أن يهديهم، وخذ من فدائهم ما يتقوّى به المسلمون على الجهاد في سبيل الله. وقال له عمر: هؤلاء قوم كذبوك وأخرجوك وهم رؤساء الكفر فاقتلهم، فأعط عقيل بن أبي طالب لأخيه علي ـ وعقيل من الأسارى ذلك اليوم ـ يقتله، وادفع العباس لحمزة ليقتله، وأعطني فلاناً ـ رجلٌ كان بينه وبين عمر نسب ـ ليعلم الله أن لا هوادة بيننا وبين الكفار، فإن قتل رؤساء الكفر هو الذي يكسر شوكة الكفر ويذلّه، ويعزّ دين الإسلام ويُعلي كلمة الله. فكأن النبي ﷺ كان أَمْيَل إلى ما قاله أبو بكر (رضي الله عنه). وذكروا في هذه الروايات أنه قال لأبي بكر: «**قلت كما قال عيسى:** ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ﴾» الآية [المائدة: الآية ١١٨]. وفي رواية أنه قال له: «**قلت كما قال إبراهيم:** ﴿فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾»

---

(١) مضى عند تفسير الآية (١٢) من سورة الأنفال.

[إبراهيم: الآية ٣٦] وفي بعض الروايات قال لعمر: «**قلت كما قال موسى**: ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾» [يونس: الآية ٨٨] وفي بعضها أنه قال له: «**قلت كما قال نوح**: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾» الآيات [نوح: الآية ٢٦]. وفي بعض الروايات أن معهم عبد الله بن رواحة (رضي الله عن الجميع)، وأنه قال له: أنت في وادٍ كثير الحطب فأضرم عليهم النار[1]. وعلى كل حال فلما أَخَذُوا الأُسارى أَخَذَهُم الذين أسروهم أولاً ولم يأمرهم رسول الله ﷺ بأسرهم، وكانوا يرغبون في الفداء ليتقووا بالمال، فلما استقروا تحت أيديهم كان ذلك الرأي ليس مستبعداً عنده ﷺ، ولم ينزل فيه وحي، فبعد أن أخذوا الأسارى جاءهم هذا اللوم من الله، وهذا الأمر العظيم، وقرب العذاب منهم لولا الكتاب السابق. ولما كان من الغد جاء عمر (رضي الله عنه) ووجد رسول الله ﷺ وأبا بكر يبكيان، فقال: ما يبكيكما، أخبراني بما يبكيكما؟ فإن وجدت بكاءً بكيت معكما، وإن لم أجد بكاءً تباكيت لبكائكما. فقال له رسول الله ﷺ: «**عُرض عليّ عذاب أصحابك كهذه الشجرة** ـ لشجرة قريبة منه[2] ﷺ ـ لأن الله قال لهم: ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾ [الأنفال: الآية ٦٨] ثم إن الله بعد ذلك أحل لهم ذلك المغنم وطَيَّبَه لهم في قوله: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ [الأنفال: الآية ٦٩] ويدخل فيه فداء الأُسارى.

ومعنى قوله: ﴿مَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ﴾ [الأنفال: الآية ٦٧] أن يأسر الرجال ويستعين بالمال بفدائهم حتى يثخن في الأرض. الإثخان: معناه الإيجاع في الأرض قتلاً، حتى يوجع في الأرض قتلاً، ويقتل الصناديد الكفرة والرؤساء العظام التي تضعف بهم شوكة الكفر وأهله. والإثخان: أصل الإثخان شدة الإيجاع في الأرض بالقتل[3]. وقالوا:

---

(١) تقدم تخريجه عند تفسير الآية (١٢) من هذه السورة.

(٢) مسلم في الجهاد والسير، باب الإمداد بالملائكة في غزوة بدر وإباحة الغنائم. حديث رقم: (١٧٦٣) (١٣٨٣/٣).

(٣) انظر: القرطبي (٤٨/٨)، الدر المصون (٦٣٧/٥).

أثخنوهم أي: أوجعوا فيهم قتلاً شديداً ذريعاً، وأثخنته الجراحة: اشتدت عليه حتى أثبتته. وهذا الذي لامهم عليه هنا وبيّن لهم أنه ما كان هو الصواب، ولا هو الأولى أوضحه وشرحه في سورة القتال في قوله: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ﴾ [محمد: الآية ٤] أي: أوجعتموهم قتلاً، قتلاً يضعف شوكة الكفر ويذلّ أهله، بعد ذلك ﴿فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ﴾ وهو الأسر ﴿فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾ ولذا قال هنا: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ يعني ما كان ينبغي لكم ولا يصح منكم أولاً أن تلتزموا أول وقعة نصركم الله فيها بالأسرى تريدون المال، لا ينبغي هذا منكم، وما كان هو الأولى لكم، كان الأولى لكم قتلهم وحصدهم حتى يذل الكفر ويستكين أهله، وتقوى شوكة الإسلام ويعز أهله. وهذا معنى قوله: ﴿حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: يوجع فيها قتلاً؛ لأن ذلك القتل الوجيع هو الذي يذل الكفر ويكسر شوكته، ويعز الإسلام ويرفع كلمة الله (جل وعلا). وهذا معنى قوله: ﴿حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

ثم لامهم لوماً شديداً عظيماً من الله قال: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا﴾ يعني: حطام الدنيا الزائل. فسماه عرضاً لأنه عارض الوجود يعروه الزوال عن قريب، كما قدمنا في قوله: ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ﴾ [الأعراف: الآية ١٦٩] والله (جل وعلا) لا يريد عرض الدنيا بل يريد الآخرة، يريد لكم الآخرة بأن تقتلوا الكفرة، وتكسروا شوكة الكفر، وتذلوا أهله وأهلها، وتعزوا كلمة الله وتعلوا دين الله في أرضه، وهذه هي الآخرة التي يريدها لكم، وهذه الإرادة إرادة شرعية دينية، ولو كانت إرادة قدرية كونية لنفذت على كل حال؛ لأن الله إذا أراد بإرادته الكونية القدرية شيئاً لا بد أن ينفذ كائناً ما كان ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس: الآية ٨٢] فهذه إرادته الشرعية الدينية لكم كان الأولى لكم شرعاً وديناً أن تقتلوهم فتعلوا كلمة الله، وتذلوا كلمة الكفر، وهذا معنى قوله: ﴿حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾. ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: حطامها الزائل؛ لأنه عارض ينقضي ويزول ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ﴾ أي: الدار الآخرة. ومن أعظم

أسباب الخلود في جناتها إعلاء كلمة الله، وإذلال كلمة الكفر، وأكبر أسباب ذلك قتل الرؤساء قادة الكفار وساداتهم. وهذا معنى قوله: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ﴾.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ قدمنا الكلام عليه قريباً.

وقوله: ﴿لَّوْلَا كِتَـٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ﴾ [الأنفال: الآية ٦٨] (لولا) في علم العربية هي حرف امتناع لوجود، والمعنى: امتنع أن يمسكم عذاب الله بسبب [الكتاب السابق في الأزل][1] ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

ولو أن فرعونَ لما طغَى وقال على الله إفكاً وزورا
أنابَ إلى الله مُستغفِراً لما وَجَد الله إلا غفورا[2][3]

/ قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٠﴾ وَإِن يُرِيدُوا۟ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَـٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَـٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يُهَاجِرُوا۟ مَا لَكُم مِّن وَلَـٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ ۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَـٰقٌ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَـٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُوا۟ وَجَـٰهَدُوا۟ مَعَكُمْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مِنكُمْ ۚ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٧٥﴾﴾ [الأنفال: الآيات ٧٠ ـ ٧٥]. ١/٩

يقول الله جل وعلا: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن

(١) في هذا الموضع كلام غير واضح، وما بين المعقوفين [ ] زيادة يتم بها الكلام.
(٢) لم أقف على البيتين.
(٣) هذا هو الدرس الأخير من دروس الشيخ رحمه الله في شهر رمضان عام (١٣٩١) وكان ذلك في اليوم الخامس والعشرين منه.

﴿يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٧٠﴾ [الأنفال: الآية ٧٠].

جرى على ألسنة العلماء من المفسرين والأصوليين أن هذه الآية الكريمة من أخريات سورة الأنفال نزلت في العباس بن عبد المطلب (رضي الله عنه)[١]. والتحقيق أنها نزلت في جميع أسارى بدر، ولو فرضنا أنها نزلت في العباس فالعبرة بعموم الألفاظ لا بخصوص الأسباب، وإنما قالوا: إنها نزلت في خصوص العباس مع أنها نازلة في جميع أسارى بدر؛ لأن العباس بن عبد المطلب (رضي الله عنه) هو أكثرهم نصيباً وأوفرهم حظاً فيها؛ لأنه أُخذ منه في الفداء ما لم يؤخذ من غيره، فصار كأنه أخص منهم بهذه الآية؛ ذلك لأن العباس بن عبد المطلب (رضي الله عنه) كان من أشراف قريش الذين ضمنوا لهم الإطعام في غزوة بدر، وكان يوم بدر هو اليوم الذي عليه هو أن يطعم - كما قاله أصحاب المغَازي والسير - فاشتغل الناس بالقتال عن الإطعام، وكان جعل معه عشرين أوقية من ذهب ليطعم بها الناس، فلما أسره المسلمون أخذوا العشرين معه. وذكر بعض أصحاب المغَازي أنه كان رجلًا موسراً فأمرهم النبي أن يُضعفوا الفداء عليه[٢]، فأخذوا منه ثمانين أوقية، وضاعت له عشرون أوقية، فكان المجموع: مائة أوقية. وأمره النبي ﷺ أن يفدي ابني أخويه وهما عقيل بن أبي طالب ونوفل بن الحارث بن عبد المطلب كانا أسيرين معه، أُسرا يوم بدر. وذكر بعضهم أنه ﷺ أمر العباس أيضاً أن يفدي حليفه وهو عتبة بن عمرو (رضي الله عنه)، أخو بني الحارث بن فهر، كان حليفاً للعبّاس بن عبد المطلب[٣]، وكان النبي ﷺ في يوم بدر كما ذكره أصحاب المغازي قال: «**إن بعض من يلقونكم في هذا الجيش خرجوا**

---

(١) مضى عند تفسير الآية (١٢) من سورة الأنفال.

(٢) انظر: دلائل النبوة (١٤١/٣)، الدر المنثور (٢٠٤/٣)، سُبُل الهدى والرشاد (٧١/٤)، وأورده القرطبي (٥٢/٨) وعزاه للنقَّاش.

(٣) مضى عند تفسير الآية (١٢) من سورة الأنفال.

مستكرهين فمن لقي منكم العباس فلا يقتله؛ لأنه أكرهه قومه على الخروج، ومن لقي أبا البختري فلا يقتله». وكان أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة (رضي الله عنه) وقعت منه زلّة يوم بدر، وكان يقول: منذ سقطت مني تلك الكلمة وأنا أخافها لا آمن منها أبداً حتى يكفّرها الله عنّي بالشهادة. فقُتل شهيداً أيام اليمامة (رضي الله عنه). وذلك أن النبي ﷺ لما قال: «**من لقي منكم العباس فلا يقتله فإنه خرج مُستكرهاً**». قال أبو حذيفة بن عتبة (رضي الله عنه): أنقتل آباءنا وإخواننا وعشائرنا ونترك العباس! والله إن لقيته لألجمنّه السيف. فسمع بها رسول الله ﷺ، فذكروا أنه قال لعمر بن الخطاب (رضي الله عنه): «**يا أبا حفص**» ـ قال عمر: ما كنّاني أبا حفص قبل ذلك اليوم ـ «**أيُضرب وجه عمّ رسول الله ﷺ**»؟ فقال: إنه نافق دعني أقتله[1].

وكان أبو حذيفة (رضي الله عنه) يتخوّف من كلمته هذه حتى رزقه الله الموت شهيداً أيام اليمامة. وكذلك نهى عن أبي البختري؛ لأنه كان يُحسن إلى بني هاشم أيام كونهم في الشِّعب لما قاطعهم قريش، وكان يعاملهم معاملة حسنة ولم يؤذهم، فجاءه المُجَذَّر بن زياد البلوي (رضي الله عنه) فقال: أما أنت فقد نهانا عنك رسول الله ﷺ. وكان له زميل، فقال له: وزميلي؟ فقال: أما زميلك فلم ينهنا عنه رسول الله ﷺ. وأراد المجذّر أن يقتل زميله، فتعرّض دونه وقال[2]:

لا يُسْلِمُ ابنُ حُرَّةٍ زَمِيلَهُ حتَّى يموتَ أو يَرَى سبيلَه
ولا يفارقْ جَزَعاً أكيلَه

وتراجز هو والمجذّر (رضي الله عنه) وكان ذلك يقول[3]:

أنا الذي أزعمُ أصلي من بِلِي أَضرِبُ بالحربة حتى تَنْثَني

---

(١) السابق.
(٢) السابق.
(٣) السابق.

فقتله المجذر لما جاء دون زميله. وكان العباس (رضي الله عنه) أسره رجل قصير ليس بالقوي من الأنصار هو كعب بن عمرو (رضي الله عنه) وهو المشهور بكنيته أبي اليسر، وهو أخو بني سلمة. ذكر بعض أصحاب المغازي[١] أن العباس كان يئنّ أنيناً في الأسر، فسمع رسول الله ﷺ أنينه فلم يستطع أن ينام حتى خففوا عليه الوثاق فسكت، فلما سكت نام ﷺ. وعلى كل حال فالعباس بن عبد المطلب (رضي الله عنه) لما أرسل قريشٌ في فداء أسراهم كان الأسير يُفدى بأربعين أوقية، قال أصحاب المغازي: أمرهم النبي ﷺ أن يُضعفوا الفداء على العبّاس فأخذوا منه ثمانين أوقيّة، وضاعت له عشرون أوقيّة أخذوها منه لما أسروه، وفدى ابني أخويه عقيل بن أبي طالب بن عبد المطلب، ونوفل بن الحارث بن عبد المطلب، وفدى حليفه عتبة بن عمرو أخا بني الحارث بن فهر، فصار دفع مالًا كثيراً لم يدفعه غيره، فمن هنا قالوا: نزلت فيه هذه الآية الكريمة مع أنها نازلةٌ في جميع أسرى بدر، والعبرة بعموم الألفاظ لا بخصوص الأسباب، فلفظ الآية عام. وهذه القاعدة قاعدة معروفة قويّة يستدل بها علماء الأصول على أن الآيات النازلة في أسباب خاصة أحكامها عامة، ولا تخصّص بأسبابها[٢]، ومن المشهور في أمثلتها: المثال لها بهذه الآية من أخريات سورة الأنفال، أنها نزلت في العباس بن عبد المطلب وحكمها عام. ومن الأدلّة الدالة على هذه القاعدة الأصولية المهمة المُعِيْنَة في التفسير ـ وهي أن العبرة بعموم الألفاظ لا بخصوص الأسباب ـ دلّ عليها الحديث الصحيح واللغة، أما ما دلّ على ذلك من الأحاديث فهو ما سيأتي في سورة هود ـ إن شاء الله ـ من أن سورة هود نزلت فيها آيات مدنية وهي سورة مكيّة كما قال غير واحد من العلماء أن قوله: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ١١٤﴾ [هود: الآية

---

(١) أخرجه البيهقي في الدلائل (١٤١/٣) من طريق ابن إسحاق، وعنهما أورده ابن كثير في تاريخه (٢٩٩/٣).

(٢) راجع ما سبق عند تفسير الآية (٥٧) من سورة الأنعام.

١١٤] نزلت في الأنصاري الذي جاءته المرأة تبتاع تمراً فأعجب بجمالها، وكان زوجها غائباً في الجهاد، فقال لها: إن في البيت تمراً أحسن من هذا. فلما دخلت البيت كان بينه وبينها بعض ما لا يليق من صغائر الذنوب، ثم إنه ندم وأخبر النبي ﷺ بذلك فأنزل الله فيه: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ تعني: فصلواتك الخمس تذهب عنك هذه السيئة التي اقترفت من هذه المرأة. فقال الرجل ـ كما في صحيح البخاري وغيره ـ ألي هذا وحدي يا رسول الله؟ وسؤال هذا الأنصاري هو سؤال عن هذه النازلة، كأنه يقول: آلعبرة بي لأنني سبب النزول، أو العبرة بعموم لفظ: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ فأجابه ﷺ: «**بل لأمتي كلهم**»[1]. فدلّ على أن العبرة بعموم الألفاظ لا بخصوص الأسباب، ومن النصوص الدالة على هذه القاعدة: هو ما ثبت عن النبي ﷺ في الصحيح أنه أيقظ فاطمة وعليّاً (رضي الله عنهما) ليصليا بالليل، فقال له علي (رضي الله عنه): إن أرواحنا بيد الله إن شاء بعثنا. فولّى ﷺ يضرب فخذه ويقول: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا﴾ [الكهف: الآية ٥٤][2]. مع أن قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا﴾ نزلت في الكفار الذين يجادلون في كتاب الله، فاعتبر النبي عمومها حتى جعله شاملاً لخصام علي له ومجادلته له؛ بأن أرواحهم بيد الله؛ لأن الله قال: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ [الكهف: الآية ٥٤] الكافر مع وضوح القرآن وأدلته وتصريف أساليبه ﴿أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا﴾ وخصاماً بالباطل.

ومما يدل على هذا من اللغة: إجماع أهل اللسان العربي أن الرجل لو كان له أربع زوجات فقامت إحداهن وسبّت هذا الرجل وأغضبته فقال: أنتن كلكن طوالق. فإنهن كلهنّ يطلقن بحسب المدلول العربي ولا يختص بالمرأة التي أغضبته فاستوجبت الطلاق كما لا يخفى. وهذه الآية الكريمة نزلت في

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٣١) من سورة الأعراف.

(٢) السابق.

العباس بن عبد المطلب، وحكمها عام لمن معه، وظاهرها يشمل جميع الأسرى؛ لأنه قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ﴾ [الأنفال: الآية ٧٠] قرأ هذا الحرف عامّة القراء غير نافع: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم﴾ بالإدغام.

وقرأه نافع وحده من السبعة: ﴿يا أيها النبيء﴾ بالهمزة من غير إدغام، ونافع قرأ لفظ النبيء والأنبئاء في جميع القرآن بالهمزة المحققة في رواية ورش في جميع القرآن، وفي رواية قالون عنه في جميع القرآن إلا في حرفين من سورة الأحزاب فقط، وهما قوله: ﴿إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنۡ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ﴾ [الأحزاب: الآية ٥٠] وقوله: ﴿لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ﴾ [الأحزاب: الآية ٥٣] فهذين الحرفين قرأهما عنه قالون كقراءة الجمهور، وقرأهما عنه ورش بالهمزة المحققة كغيرهما في سائر القرآن[١].

وقوله ﴿قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ﴾ قرأه عامّة السبعة غير أبي عمرو: ﴿قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ﴾ وقرأه أبو عمرو وحده من السبعة: ﴿يَاأَيُّهَا النَّبيُ قُل لِمَن في أَيدِيكُمُ مِنَ الأسارى إِن يَعْلَم الله في قُلُوبِكُمْ خيراً يؤتكم خيرا﴾[٢] ومعنى الآية الكريمة: أن الله (جلَ وعلا) أمر نبيّه أن يقول لمن في أيدي المسلمين من أسارى بدر يقول لهم هذا الكلام.

(الأسارى) جمع أسير، و (الأسرى) جمع أسير، إلّا أنّ (الأسير) يُجمع على (أسرى) قياساً مطّرداً، وقاعدة معروفة؛ لأن (الفَعِيْل) المتّصف بما يُرثى له به يطرد جمعه تكسيراً على (فَعْلَى)[٣] كمريض ومرضى، وقتيل وقتلى، وجريح وجرحى، وصريع وصرعى، وأسير وأسرى[٤].

---

(١) مضى عند تفسير الآية (١١٢) من سورة الأنعام.

(٢) انظر: المبسوط لابن مهران ص٢٢٣.

(٣) مضى عند تفسير الآية (٣٦) من سورة الأنعام.

(٤) راجع ما سبق عند تفسير الآية (٣٦) من سورة الأنعام.

أما على قراءة ﴿أُسَـٰرَىٰ﴾ فهو جمعٌ مسموع، وإتيان الجموع على (فُعالى) أو (فَعالى) مسموع ولا يطرد منه شيء قياساً، ككسالى، وأسارى، ويتامى، وحيارى، وما جرى مجرى ذلك[١].

وقوله: ﴿قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم﴾ المراد بـ ﴿قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم﴾ من كانوا تحت أيديكم من الأسارى، وكل شيء كان في قبضة الإنسان وتحت قدرته وتصرّفه تقول العرب: هو في يده؛ لأن اليد هي التي تزاول بها الأعمال وتُؤخذ بها الأشياء عادة[٢].

والأيدي جمع (يد)، واليد من الألفاظ التي حذفت العرب لامها ولم تعوّض منها شيئاً، وأعربتها على العين، فدال اليد في محل العين، وهي مُعربةٌ على عينها وهو الدال، نُزّل منزلة لامها، وحذفت لامها، وتنوسيت، وهي إحدى ألفاظ معروفة كذلك، كيدٍ، ودَمٍ، وغدٍ، ودِدٍ، وهنٍ، وما جرى مجرى ذلك[٣]. وأصل لامها المحذوفة ياء، أصلها (يدي) فاؤها ياء، وعينها دال، ولامها ياء. ولامها المحذوفة إنما تُرَدّ عند التصغير وجمع التكسير، ففي تصغيرها تقول: (يُدَيّه) وفي جمعها تقول: فاقطعوا أيديهما. وأصله: (أيْدُيهما) على وزن (أفعُل) لأن الأيدي أصل وزنه (أفعُل) (فَعَل) محذوف اللام مجموعٌ على (أفعُل) إلّا أن ضمّة العين تُجعل كسرة لمجانسة الياء، وربما نطقت العرب باليد مثبتة لامها إثبات المقصور على الألف كالفتى. سُمع هذا عنهم قليلًا، ومنه قول الراجز[٤]:

يا رُبَّ سَارٍ بَاتَ مَا تَوَسَّدَا ... إلا ذِرَاعَ العِيْسِ أو كفَّ اليدا

فردّ اللام كما هي في (الفتى) وهذا نادر.

---

(١) انظر: حجة القراءات ٣١٤، الدر المصون (٥/٦٣٧).

(٢) مضى عند تفسير الآية (٥١) من سورة الأنفال.

(٣) مضى عند تفسير الآية (١٩٥) من سورة الأعراف.

(٤) السابق.

وقوله: ﴿مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ﴾ الأسرى جمع أسير، والأسير (فَعِيل) بمعنى (مَفْعُول) وهو اسم المفعول من (أَسَره) العرب تقول: أسره يأسره أسراً. فالفاعل (آسر) والمفعول (مأسور) إذا شدّه بالوثاق. وأصل هذه المادة مأخوذة من الإيسار، والإيسار: القِدّ. والقِدّ: هو جلد البعير غير المدبوغ؛ لأن جلد البعير إذا لم يُدْبَغ تسمّيه العرب قِدّاً. وكانوا يشدّون الأسير بالجلد عند سلخه طريّاً، فإذا يَبس اشتدّت قوّته ولا يقدر أحدٌ على حلّه ولا قطعه ولا نزعه، ومن هنا قيل لكل مشدود شدّاً محكماً: إنه مأسور. وأصله من (الإيسار) وهو الشدّ بالإسار، أعني القِدّ وهو جلد البعير إذا كان غير مدبوغ. ومن هذا المعنى قوله تعالى: ﴿نَّحۡنُ خَلَقۡنَٰهُمۡ وَشَدَدۡنَآ أَسۡرَهُمۡۖ﴾ [الإنسان: الآية ٢٨] المراد بقوله ﴿وَشَدَدۡنَآ أَسۡرَهُمۡۖ﴾ أحكمنا شدّ العظام بعضها إلى بعض بإحكام وإتقان شديد كما يُشدّ الشيء شدّاً قوياً بالقِدّ فييبس عليه فيمسكه إمساكاً قوياً[1]. وهذا صار معنىً معروفاً في كلام العرب، مشهور في كلامهم، فكل شيء شددته شدّاً محكماً تقول العرب: أسرته. ومنه سُمّي الأسير، أي: لأنه يُشد بالإسار، وهو جلد البعير غير المدبوغ. وهذا معروف في كلامهم، ومنه: أسر مراكب النساء؛ لأن أعواده تُشدّ بالقدّ حتى يتحكّم بعضه مع بعض، ومنه قول حميد بن ثور الهلامي[2]:

وما دخَلَتْ في الخَذْب حتى تَنَقَّضَتْ تـآسيـر أعـلـى قِـدّه وتـحـطّـمـا

وهذا معنى معروف في كلام العرب. يعني: قل يا نبيّ الله لهؤلاء الذين أخذتموهم وكانوا في قبضتكم وتحت تصرّفكم: ﴿إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ﴾ العبّاس بن عبد المطّلب قال للنبي ﷺ: يا نبيّ الله: احسب لي العشرين أوقية التي أخذوها منّي، كانت من مالٍ معي. قال: «**لا، ذلك مالٌ أعطاناه الله منك فلا نحسبه**

(١) مضى عند تفسير الآية (١١) من سورة الأعراف.

(٢) البيت في ديوانه ص١٩.

لك أبداً». وضاعف عليه الفداء، وأمره بمفاداة ابني أخويه. فقال للنبي ﷺ: يا نبي الله لقد تركتني أتكفّف قريشاً إلى يوم القيامة فقيراً. فقال له النبي ﷺ: «**أين المال الذي دفنته أنت وأم الفضل لما أردت الخروج**»؟ فقال له: وما ذلك المال؟ قال له: «**الذهب الذي دفنته أنت وأم الفضل، وقلت لها: ما أدري ما يصيبني في وجهي هذا فإن حدث بي حدث في سفري هذا فهذا المال لك وَلِبَنِي: الفضل، وعبد الله، وعبيد الله، وقثم. ودفنتم المال**». فقال: أشهد أنك رسول الله، والله ما علم بهذا أحدٌ غيري وغير أم الفضل[1]. وهي لبابة الصغرى بنت الحارث، أم أولاد العبّاس بن عبد المطلب، وهي هلالية مشهورة. لما أخذوا منهم هذا المال وكان الأسارى يأتون النبي ﷺ ويقولون: نحن مسلمون آمنا بك وصدّقناك وشهدنا أنك رسول الله، ووالله لننصحنّ لك على قومنا، ولا تأخذ منّا شيئاً. فأنزل الله فيهم: ﴿إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا﴾ (خيراً) هنا جاء مرتين ﴿إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ﴾ الأولى منهما ليست صيغة تفضيل، والثانية منهما صيغة تفضيل، والدليل على أنها صيغة تفضيل اقترانها بـ(من) لأن صيغة التفضيل المجردة تُقترن بـ (من) دائماً لفظاً أو تقديراً. معناه: إن يعلم الله في قلوبكم إسلاماً وإيماناً صحيحاً وتصديقاً كما تزعمون يؤتكم خيراً، أي: شيئاً أخير وأفضل مما أخذ منكم من الفداء. يعني من حطام الدنيا وعرضها، ومن نعيم الجنة، ويغفر الله لكم أيضاً.

وقوله ﴿يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا﴾ يدل على أن محل نظر الله من عبده إنما هو القلوب كما جاء بذلك الحديث؛ لأن القلب هو الذي ينظر الله إليه فيعلم فيه الخير والشر؛ ولذا قال: ﴿إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا﴾ والله (جل وعلا) عالمٌ بما في الضمائر وما يخطر في القلوب ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾﴾ [ق: الآية ١٦] وقد بيّن القرآن العظيم في مواضع

---

(١) تقدم تخريجه عند تفسير الآية (١٢) من هذه السورة.

منه أنّ علم الله الإيمان والإخلاص في قلب الإنسان تكون له فوائد عظيمة، من تلك الفوائد: ما ذكره هنا في أُخريات الأنفال في قوله: ﴿إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ﴾ ومنها قوله في سورة الفتح: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ﴾ [الفتح: الآية ١٨] فكنّى عما في قلوبهم بالاسم المبهم الذي هو الاسم الموصول. يعني أنه إيمان كما ينبغي وإخلاص كما ينبغي، ترتّب على ذلك نتائج عظيمة كثيرة كقوله: ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ﴾ [الفتح: الآية ٢٠] وكقوله: ﴿وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا﴾ [الفتح: الآية ٢١] أي: فأقدركم عليها، وكقوله جل وعلا: ﴿وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: الآية ٢٢] هذا الإيمان والتسليم الذي علمه الله في قلوبهم رتّب عليه نتائج عظيمة مفيدة منها قوله: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ﴾ [الأحزاب: الآية ٢٥] إلى آخر الآيات.

وهذه الآيات ينبغي لنا أن نعتبر بها فنطهّر قلوبنا، ويكون ربنا يعلم منها الخير، ولا يعلم منها الشر؛ لأن ذلك يسبب لنا نتائج عظيمة كصلاح الدنيا والآخرة؛ لأن هؤلاء الأسارى قال لهم: ﴿إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا﴾ من المال ﴿مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ﴾ ويزيدكم على ذلك المغفرة. قال العباس بن عبد المطلب: كان يقرأ: ﴿يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ قال: إن العشرين أوقية الذي ضاعت لي يوم بدر أبدلني الله خيراً منها، أعطاني عشرين عبداً كلهم يتاجر بمالٍ كثير، وهم لي، وأموالهم لي[1]. ولما جاء مال البحرين ـ أرسله ابن الحضرمي من البحرين ـ ذلك المال الكثير الذي ما دخل المدينة مالٌ أكثر منه في زمن النبي ﷺ، ونثره في المسجد ووزّعه، جاء العبّاس وقال: يا نبيّ الله أعطني! فاديت نفسي وعقيلاً. فقال له: «**احثُ من هذا المال**». فحثا العباس في خميصة كانت عليه، ولم يزل يحثو

(١) تقدم تخريجه في الموضع السابق.

فيها من المال حتى أراد أن يقوم فما قدر على أن يقوم، فقال للنبي ﷺ: مُر أحداً منهم يرفع معي المال!! فتبسّم ﷺ حتى بدى ضاحكه أو نابه وقال: «**لا يعينك عليه أحد**». فقال له: ارفعه أنت عليّ. فقال: «**لا، اردد طائفة من المال حتى تستطيع حمله**». فحثا عنه حتى استطاع أن يحمله، وحمله على كاهله. قال بعضهم: لم يزل ﷺ ينظر إليه حتى اختفى، لشدّة حرصه على أخذ هذا المال. وقال العباس حينئذٍ: أما الأولى منهما فقد رأيناها: ﴿يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ﴾ والله لقد أعطانا خيراً مما أخذ منا، وإنا لنرجوا الثانية التي هي: ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾[1]. وهذا معنى قوله: ﴿إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ﴾ بعلمه المحيط بكل شيء﴿فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا﴾ أي إيماناً صحيحاً وتصديقاً وإخلاصاً لله ﴿يُؤْتِكُمْ﴾ أي: يعطكم خيراً، أي: مالاً في الدنيا، وثواباً في الآخرة خيراً ﴿خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ﴾ أي: أفضل وأعظم مما أُخذ منكم. والعرب استغنت بـ(خير) و (شر) عن (أخير وأشر)، فهما صيغتا تفضيل، والأخيرة منهما صيغة تفضيل، وقد قال ابن مالك في كافيته[2]:

وغالباً أغْنَاهُم خيرٌ وشر   عن قولهم أَخْيَرُ منه وأَشَرّ

فالأخيرة هنا تفضيل أي: يؤتكم أخير وأفضل، أي: أكثر خيراً وأعظم منه، وذلك كما وقع في مال البحرين أعطى العباس أكثر بأضعاف مما أُخذ منه يوم بدر من الفداء، وأعطاه عشرين عبداً. وقال العباس: وأعطاني الله زمزم أيضاً ما أحب أن لي بها جميع أموال أهل مكة. فعوضه الله مئات الأضعاف على ما أُخذ منه يوم بدر. وهذا معنى قوله: ﴿إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ﴾ أي: مما أخذه المسلمون منكم كالعشرين أوقية التي أُخذت من العباس، وما أُخذ في فدائهم من المال. وحذف الفاعل هنا للعلم به ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ أي: يغفر لكم ذنوبكم. حذف فاعل (أُخذ) ومفعول (يغفر) والمعنى: يعطيكم خيراً مما أخذه منكم

(١) تقدم تخريجه في الموضع السابق.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٥٤) من سورة البقرة.

المسلمون يوم بدر، ويغفر لكم ذنوبكم كلها، وشرككم المتقدم وكفركم بالله. وهذا معنى قوله: ﴿يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي: كثير المغفرة والرحمة لعباده المؤمنين، ولا سيما إذا علم في قلوبهم الإيمان والإخلاص له (جل وعلا). وهذا معنى قوله: ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

﴿وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: الآية ٧١] ضمير واو الفاعل في قوله: ﴿وَإِن يُرِيدُواْ﴾ راجع على الأسارى الذين في أيدي النبي ﷺ وأصحابه؛ لأنهم كانوا يقولون: آمنا بك وشهدنا أنك رسول الله، ووالله لننصحن لك على قومك، ولنكونن معك. ﴿وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ﴾ بهذا الكلام، إن كان هذا الكلام أرادوا به الخيانة والمكر والخديعة فلا تهتم بشأنهم ﴿فَقَدْ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ﴾ ظرف مقطوع من الإضافة مبني على الضم. أي: قد خانوا الله من قبل يوم بدر بالكفر، وعبادة الأصنام، وتكذيب رسوله ﷺ فأمكن الله منهم. هذا الفعل الذي هو (أمكن) يتعدى إلى مفعول، ومفعوله محذوف، والمعنى: فأمكنكم الله منهم. وَحَذْفُ الفضْلة إذا دل المقام عليه شائع مطرد في القرآن وفي كلام العرب، والعرب تقول: «أمكنني من كذا». إذا هيأه لي وجعله في قبضتي، وهو معنى معروف في كلامها، وهو متعد إلى المفعول كما هو معروف، فالمفعول هنا محذوف، وليس الفعل لازماً كما لا شك فيه، ومما يدل على ذلك من كلام العرب قول كُثَيِّر عزَّة وهو عربي قح، ذكروا أنه ناداه عبد العزيز بن مروان، وأحضر عزَّة وجعل دونها سجفاً؛ أعني: ستراً. وقال لكُثَيِّر: تمنَّ، فما تتمن فهو حاضر. فتمنى إبلاً سوداً برعائها، أو غير ذلك من الأموال. فقال للغلام: ارفع السجف يا غلام. فرفعه عن عزة فإذا هي، فقال: لو تمنيت هذه لأعطيتكها وزوجتك إياها. فندم كُثَيِّر وقال ـ وهو محل الشاهد[1] ـ:

(١) البيتان في ديوانه ص٢٦٧ مغني اللبيب (١٩/١) (بشرح الأمير)، والثاني في رصف المباني ص٦٦.

حلفتُ بربِ الرَّاقصَاتِ إلى مِنى يجوب الفيافي نصها وزميلها
لإن عَادَ لي عبد العزيز بمثلها وأمكنني منها إذا لا أُقيلها

ومحل الشاهد منه قوله: «وأمكنني منها» أي: جعلها في قبضتي وتحت تصرفي. وهذا معنى قوله: ﴿فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ﴾ أي: أمكنك الله أنت وأصحابك منهم يا نبي الله، فلا تهتم بخيانتهم.

وقوله: ﴿خِيَانَتَكَ﴾ الياء فيه منقلبة عن الواو؛ لأن مادة (الخيانة) أصلها من أجوف واوي العين، أصلها من (خَوَن) ولذا يقال في المبالغة منها: (خوّان). ولو كانت يائية لقيل: (خيان) ويقال في ماضيها: خان يخون. ولو كانت يائية لقيل: يخين. إلا أن القاعدة المقررة في التصريف أن الواو إذا تقدمتها كسرة وجاء بعدها ألف وجب إبدالها ياءً، كالخيانة من الخون، والحيازة من الحوز، والصيانة من الصون، والقيامة من قام يقوم[1]. قال بعض علماء العربية: على القول بجمع المصادر تُجمع الخيانة على (خيائن) اعتداداً بالياء المبدلة من الواو، والقياس أن تُجمع على (خوائن) إلا أنهم فرقوا بين جمع (خيانة) وبين جمع (خائنة) فجعلوا هذه بالياء وإن كان أصلها الواو.

﴿فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ﴾ خيانتهم لله هي كفرهم بالله، وعبادتهم للأصنام، وتكذيبهم لنبيه ﷺ ﴿فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ﴾ جل وعلا ﴿عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ ﴿عَلِيمٌ﴾ (الفعِيل) من صيغ المبالغة، وعلمه (جل وعلا) يستحق أن يُبالَغ فيه؛ لأن علمه محيط بكل شيء، وهو (جل وعلا) يعلم الموجودات والمعدومات والواجبات والجائزات والمستحيلات، حتى إنه من إحاطة علمه لَيَعْلَم المعدوم الذي سبق في علمه أنه لا يُوجد، فهو يعلم أَنْ لو وُجد كيف يكون، وإن سبق في علمه أنه لا يكون؛ لإحاطة علمه بكل شيء، فهو يعلم أن أبا لهب لم يؤمن، ويعلم لو آمن أيكون إيمانه تامّاً أو ناقصاً مثلاً، والآيات القرآنية الدالة على هذا المعنى

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٨) من سورة الأنفال.

كثيرة جداً، من ذلك: أن الكفار إذا عاينوا القيامة ورُفع عنهم الغطاء، وشاهدوا الحقائق تمنوا الرد إلى الدنيا مرة أخرى ﴿فَقَالُواْ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا﴾ [الأنعام: الآية ٢٧] وفي القراءة الأخرى[١]: ﴿وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا﴾ وهذا الرد إلى الدنيا الذي تمنوه الله عالم بعلمه الأزلي أنه لا يكون، ومع علمه بأنه لا يكون فهو عالم أن لو كان كيف يكون، كما صرح به في قوله: ﴿وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الأنعام: الآية ٢٨].

والمتخلفون عن غزوة تبوك لا يحضرونها أبداً؛ لأن الله خَلَّفَهم عنها لحكمة وإرادة إلٰهية كما قال: ﴿وَلَوْ أَرَادُواْ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [التوبة: الآية ٤٦] ومع كون خروجهم لا يكون هو عالم أن لو كان كيف يكون، كما صرح به في قوله: ﴿لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُواْ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ﴾ الآية [التوبة: الآية ٤٧]. ونظائر هذا كثيرة في القرآن، فعلم الله محيط بكل شيء. و (الفعيل) صيغة مبالغة.

وقوله: ﴿حَكِيمٌ﴾ فالعليم والحكيم من أسمائه (جل وعلا) وكلاهما تتضمن صفة من صفاته (جل وعلا)؛ لأنه حكيم عليم. قال بعض العلماء: الحكيم لأنه حكيم في أقواله وأفعاله وتشريعاته، فلا يقول إلا ما هو في غاية الإحكام، ولا يفعل إلا ما هو في غاية الإحكام ولا يأمر إلا بالخير، ولا ينهى إلا عن الشر، ولا يجازي بالشر إلا الشر، ولا بالخير إلا الخير. وكان بعض العلماء يقول: الحكمة هي العلم النافذ الذي يعصم الأقوال والأفعال أن يعتريها الخلل.

وهي في الاصطلاح: إيقاع الأمور في مواقعها ووضعها في

---

(١) مضى عند تفسير الآية (١٠١) من سورة الأنعام.

مواضعها[١]، ولا تتم الحكمة إلا بالعلم، فلا تتم الحكمة إلا بتمام العلم، وفي قدر ما يكون في العلم من النقص يكون في الحكمة؛ لأنك ترى الحاذق القُلَّب البصير يعمل الأمر يظن أنه في غاية الإحكام، وغاية الإتقان، وأنه وضعه في موضعه، وأوقعه في موقعه، ثم ينكشف الغيب بعد ذلك أن فيه هلاكه أو ضرراً عظيماً عليه فيندم ويقول: ليتني لم أفعل، ولو فعلت لكان كذا، كما قال[٢]:

ليتَ شِعْرِي وأيْنَ منِّي ليتُ إنَّ (لواً) وإنَّ (ليتاً) عناءُ

وفي الحديث: **إن (لو) تفتح الباب للشيطان**[٣]. قال الشاعر[٤]:

أُلامُ على (لوِ) ولو كنتُ عالماً بأذنابِ (لوِ) لم تَفُتْني أوائلُه

والله وحده (جل وعلا) لا يجري عليه لو فعلت كذا لكان أصوب؛ لأنه عالم بخفايا الأمور، وما تنكشف عنه الغيوب، وما تجري به الأقدار، فلا يجري عليه شيء من ذلك، فلا يفعل فعلًا إلا وهو في غاية الإحكام، ولا عملًا ولا تكليفاً ولا جزاءً إلا هو في غاية الحكمة، والوضع في الموضع، والإيقاع في الموقع؛ ولذا قال: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ وهذان الوصفان من أسمائه (جل وعلا) من أعظم ما يستدعي الإنسان إلى أن يطيع ربه ولا يعصيه، وأن يذكره ولا ينساه، فلأن كونه عليماً تعرف به أن علمه المحيط بكل شيء يقتضي أنه لا يدعوك إلا لما لك فيه الخير والعواقب الحسنة الجميلة؛ لأنه يعلم عواقب الأمور، وما تؤول إليه، وما تنكشف عنه الغيوب، وما تجري به الأقدار، فلا يأمرك إلا بما هو خير مؤكد بلا شك وبكل يقين، وكونه حكيماً يدل على أنه لا ينهاك إلا عن شر، ولا يأمرك إلا بخير، فإن كان مبالغاً في الحكمة والعلم كان ذلك مدعاة لأن يتبع في كل ما يأمر به وكل ما ينهى عنه؛ لأن علمه يعلم به أنه ما يدعو إليه خير،

---

(١) مضى عند تفسير الآية (١٢٨) من سورة الأنعام.

(٢) السابق.

(٣) مضى عند تفسير الآية (٤٩) من هذه السورة.

(٤) مضى عند تفسير الآية (٨٣) من سورة الأنعام.

وما ينهى عنه شر، وحكمته يفهم منها أنه لا يضع الأمر إلا في موضعه، ولا يوقعه إلا في موقعه؛ ولذا قال جل وعلا: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

وقد قدمنا في هذه الدروس مراراً[(١)] أنك لا تكاد تنظر ورقة واحدة [من المصحف الكريم إلا وجدت فيها إشارة إلى هذا الواعظ الأعظم، والزاجر الأكبر مما يبعث العبد على الإحسان والمراقبة في جميع أحواله وأعماله، وقد بين الله (جل وعلا) أن الغاية والحكمة التي][(٢)]/ خلق الله من أجلها الخلق هي أن يبتليهم، أي: يختبرهم أيهم أحسن عملًا، كما قال في أول سورة هود: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ ثم بين الحكمة فقال: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: الآية ٧] وقال تعالى في أول سورة الكهف: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا﴾ ثم بين الحكمة فقال: ﴿لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف: الآية ٧] وقال في أول سورة الملك: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾ ثم بين الحكمة فقال: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: الآية ٢] ولم يقل: أكثر عملاً، فإذا عرف العبد أنه خُلق لأجل أن يُختبر في إحسان العمل كان حريصاً على الحالة التي ينجح بها في هذا الاختبار؛ لأن اختبار رب العالمين يوم القيامة من لم ينجح فيه جُرَّ إلى النار، فعدم النجاح فيه مهلكة، وقد أراد جبريل (عليه السلام) أن ينبه أصحاب رسول الله ﷺ على عظم هذه المسألة وشدة تأكدها[(٣)] فقال للنبي ﷺ في حديثه المشهور: يا محمد ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ أخبرني عن الإحسان؟ أي: وهو الذي خلق الخلق من أجل الاختبار فيه، فبين له النبي ﷺ أن طريقه الوحيدة هي هذا الواعظ الأكبر والزاجر الأعظم، الذي هو طريق المراقبة والعلم فقال: «**الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**»[(٤)].

٩/ب

---

(١) راجع ما تقدم عند تفسير الآية (٥٩) من سورة الأنعام.
(٢) في هذا الموضع انقطع التسجيل، وما بين المعقوفين [ ] زيادة يتم بها الكلام.
(٣) مضى عند تفسير الآية (٥٩) من سورة الأنعام.
(٤) مضى عند تفسير الآية (٥٨) من سورة البقرة.

وقد قدمنا ضرب العلماء مراراً[١] مثلًا لهذا بأن الحاضرين أمام ملك لا يُنتهك حماه، شديد العقاب لمن انتهك حرماته، لا يقدر أحد منهم أن يفعل شيئا يكرهه وهو ناظر إليه!! ورب السموات والأرض مطلع على ما يسره خلقه، ومع هذا فإنهم لا حياء عندهم ولا ماء في وجوههم، لا يستحون ممن خلقهم (جل وعلا) وهو معهم أين ما كانوا، مراقب على خطرات قلوبهم وجميع أعمالهم. فعلى العاقل أن ينتبه لهذه الآيات، ويعلم أن ربه حكيم عليم، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور. ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾﴾ [ق: الآية ١٦] فيعلم أن ربه ناظر إليه مطلع عليه، فلا يفعل أمام ربه إلا ما يرضي ربه (جل وعلا)، أما أن يبارز ربه بالمعاصي بوجه لا حياء فيه ولا ماء فهذا مما لا ينبغي؛ ولذا يقول (جل وعلا) بعد كل أمر ونهي: ﴿عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ ﴿خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ ﴿بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ إلى غير ذلك من الآيات التي بمعناها.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يُهَاجِرُوا۟ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ ۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾﴾ [الأنفال: الآية ٧٢].

قرأ هذا الحرف عامة القراء غير حمزة وحده: ﴿مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم﴾ بفتح الواو، وقرأه من السبعة حمزة وحده: **﴿ما لكم من وِلايتِهِم من شيء﴾** بكسر الواو[٢]. والتحقيق أن الوَلاية والوِلاية معنيان صحيحان، ولغتان فصيحتان، وقراءتان سبعيتان، فما يذكر عن الأصمعي من أنه يقول: «إن قراءة حمزة خطأ». هو الذي أخطأ فيه[٣]، أما قراءة حمزة فهي قراءة صحيحة، ولغة معروفة فصيحة، فالوَلاية والوِلاية كالدَلالة والدِلالة، فهما لغتان عربيتان وقراءتان سبعيتان فصيحتان.

---

(١) راجع ما سبق عند تفسير الآية (٥٩) من سورة الأنعام.

(٢) انظر: المبسوط لابن مهران ص٢٢٤.

(٣) انظر: الدر المصون (٥/٦٤٠).

وكان المسلمون في أول الإسلام يتوارثون بالهجرة والمؤاخاة دون القرابات؛ لأن النبي ﷺ لما نزل المهاجرون بالأنصار والمهاجرون فقراء آخى بين المهاجرين والأنصار، فصاروا يتوارثون بتلك الأخوة دون القرابات، فإذا مات واحد منهم ورثه أخوه الذي آخى النبي ﷺ بينه وبينه دون قرابته، وكان الذين لم يهاجروا لا إرث لهم في إخوانهم الذين هاجروا؛ لأنها كانت بالهجرة والمؤاخاة، ونسخ الله ـ تعالى ـ ذلك بقوله: ﴿وَأُوْلُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ [الأنفال: الآية ٧٥] كما سيأتي إيضاحه.

ومعنى الآية الكريمة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ هذه أولاً في المهاجرين، الله (جل وعلا) كأنه قسم المؤمنين طوائف، طائفة هم المهاجرون ذكرهم بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟﴾ آمنوا بالله ورسوله وهاجروا أوطانهم وديارهم وأموالهم في سبيل الله (جل وعلا) وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم؛ لأنهم جعلوا أموالهم في مؤن الجهاد من شراء السلاح، والمراكب للقتال، ومؤن القتال، وجاهدوا بأنفسهم حيث عرَّضوها للموت وللخطر في الجهاد، كل هذا في سبيل الله ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟﴾ الهجرة كانت هجرة متعددة متنوعة أولها الهجرة إلى الحبشة ـ وقد هاجروا إلى الحبشة مرتين ـ ثم الهجرة إلى المدينة، وكانت الهجرة إلى المدينة واجبة، وكان الذي أسلم ولم يهاجر كالذي يسلم ويبقى في البوادي من الأعراب لا يرث من أخيه المسلم المهاجر شيئاً، وكان الذين أسلموا ولم يهاجروا لا نصيب لهم في الغنائم، ولا في الخُمُس، ولا في شيء مما عند المسلمين، وليس لهم على المسلمين من النصر إلا إن استنصروهم على عدو في الدين خاصة كما سيأتي إيضاحه.

الطائفة الثانية: هم الأنصار، أهل المدينة، الذين كانوا قبلهم.

الطائفة الثالثة: هم الذين هاجروا بعد ذلك، فهم مهاجرون وأنصار وطائفة جاؤوا بعد ذلك كما سيأتي تفاصيله وإيضاحه؛ ولذا قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي: بالله ورسوله وبكل ما يجب به الإيمان ﴿وَهَاجَرُوا۟﴾ هاجروا أوطانهم وأموالهم وديارهم. والمهاجرة: هجر الشيء أصله المباعدة منه.

وقد هاجروا أولاً إلى الحبشة، وثانياً إلى المدينة. ثم إن هذه الهجرة التي كان بها التوارث ولا يقبل من أحد إلا أن يفعلها نُسخت بفتح مكة، وقال فيه النبي ﷺ: «**لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونيّة**»[1].

والتحقيق أن الهجرة لا تنقطع أبداً، إلا أن الهجرة المخصوصة التي كانت إلى النبي ﷺ وأصحابه بالمدينة هي التي انقطعت بفتح مكة لانتشار الإسلام في جزيرة العرب، أما الهجرة التي لا تنقطع فهي أن كل إنسان تُعُرِّض له في دينه، وصار لا يقدر على إقامة شعائر دينه في محل فواجب عليه بإجماع العلماء أن ينتقل من هذا المحل، ويبذل في ذلك كل مجهود حتى يصل إلى محل يتمكن فيه من إقامة شعائر دينه، وهذه الهجرة التي لا تنقطع. والمهاجر الحقيقي هو من هجر ما نهى الله عنه ورسوله كما هو معلوم. وهذا معنى قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ﴾ [الأنفال: الآية ٧٢] مفعول (آووا) ومفعول (نصروا) كلاهما محذوف لدلالة المقام عليه. والمعنى: آووا الذين هاجروا إليهم وهم النبي ﷺ وأصحابه ونصروهم. وهؤلاء الذين آووا ونصروا هم الأنصار أبناء قَيْلَة، الذين كانوا من سكان المدينة، الذين هاجر إليهم النبي ﷺ وأصحابه.

وقوله: ﴿ءَاوَواْ﴾ العرب تقول: آواه يؤويه إيواءً إذا جعل له مأوى ينضم إليه. أي: جعل له مسكناً ومنزلاً يسكن إليه؛ لأنهم أسكنوهم في ديارهم، وشاطروهم أموالهم، وهيؤوا لهم كل أسباب الراحة، وذلك معنى إيوائهم لهم. ونصروهم، النصر في لغة العرب: إعانة المظلوم. أي: أعانوهم على أعدائهم حتى تمكن الإسلام وانتشر وفُتحت مكة، وفُتحت جميع جزيرة العرب، وانتشر بعد ذلك الإسلام في أقطار الدنيا. ﴿وَٱلَّذِينَ

---

(١) أخرجه مسلم في الإمارة، باب: المبايعة بعد فتح مكة على الإسلام. حديث رقم: (١٨٦٤) (١٤٨٨/٣) من حديث عائشة (رضي الله عنها) مرفوعاً. وقد أخرجه البخاري في مناقب الأنصار، باب: هجرة النبي ﷺ. حديث رقم: (٣٨٩٩) (٢٢٦/٧) موقوفاً على ابن عمر. وأطرافه (٤٣٠٩، ٤٣١٠، ٤٣١١).

﴿ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ﴾ والمعنى: إن المهاجرين والأنصار بعضهم أولياء بعض. فعبَّر عن المهاجرين بلفظ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وعبَّر عن الأنصار بـ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ﴾ لأنهم آووا النبي ﷺ وأصحابه ونصروهم على أعدائهم. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أصل قوله: ﴿ٱلَّذِينَ﴾ مبتدأ، وقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ مبتدأ، والمبتدأ وخبره خبر المبتدأ الأول، فلما دخلت (إن) صار المبتدأ الأول اسمها، والمبتدأ الأخير وخبره خبر (إن) كما هو معروف لا يخفى. هذا معنى ﴿أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾. معناه: أن المهاجرين أولياء الأنصار، والأنصار أولياء المهاجرين، فبعض المهاجرين أولياء المهاجرين والأنصار، وبعض الأنصار أولياء المهاجرين والأنصار، فهم أولياء بعضهم على بعض. وكانت هذه الولاية يتوارثون بها دون غيرهم، وهذه الولاية ولاية نصر ومعاونة ومساعدة وميراث تعم ذلك كله. وهذا معنى قوله: ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ الأولياء جمع ولي، والولي: كل من ينعقد بينك وبينه سبب يجعلك تواليه ويواليك تسميه العرب ولياً[1]؛ ولذا كان الله ولي المؤمنين ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ لأنهم يوالونه بالطاعة ويواليهم بالجزاء والمغفرة، والمؤمنون بعضهم أولياء بعض. وهذا معنى قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾.

والأولياء جمع الولي، وقد تقرر في فن التصريف أن (الفعيل) بمعنى اسم الفاعل يطرد جمعه على (فُعَلَاء) إلا إذا كان معتل اللام أو مُضعَّفاً فينقاس جمع تكسيره على (أَفْعِلَاء)[2] فمثاله في المعتل: ولي وأولياء، وتقي وأتقياء، وسخي وأسخياء، وشقي وأشقياء، ونبي وأنبياء. ومثاله في المُضعَّف: شديد وأشداء، وحبيب وأحباء. وما جرى مجرى ذلك.

﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ التنوين في قوله ﴿بَعْضٍ﴾ تنوين عوض، عوض من الإضافة. أي: بعضهم أولياء بعضهم. فحذف المضاف إليه وعوض منه التنوين، ومعلوم أن من أقسام التنوين ما يسمَّى «تنوين العوض» سواء كان

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٥١) من سورة الأنعام.

(٢) راجع ما سبق عند تفسير الآية (٣) من سورة الأعراف.

عوضاً عن حرف، أو عن كلمة، أو عن جملة كما هو معروف في محله. هذا معنى قوله: ﴿وَالَّذِينَ ءَاوَوا وَنَصَرُوا أُولَٰئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾.

ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا﴾ هؤلاء الذين آمنوا ولم يهاجروا على أقسام: منهم الذين يرجعون إلى قبائلهم في البادية من الأعراب، ومنهم من يكون في أهل مكة، وهؤلاء الذين في أهل مكة منهم من يؤمن ولم ينزل بين أظهر الكفار اختياراً كالذي وقع ممن ذكرنا في سورة الأنفال، وهم العاص بن نُبيه، والحارث بن زمعة بن الأسود، وعلي بن أمية، وأضرابهم الذين نزل فيهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾﴾. ثم إن الله استثنى منهم المستضعفين الذين لا حيلة لهم فعذرهم فقال: ﴿إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُولَٰئِكَ عَسَى اللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾﴾ [النساء: الآيات ٩٧ ـ ٩٩]. كان ابن عباس يقول: أنا من المستضعفين من الولدان، وأمي من المستضعفات من النساء[١]. قبل هجرتهم، أما الذين أسلموا ورجعوا إلى ديارهم في البادية كأبي ذر وأمثاله ممن أسلموا، ثم رجعوا ولم يهاجروا، بل بقوا في البادية فهؤلاء لا يرثون إخوانهم المهاجرين، بل يرثهم قبلهم إخوانهم من الأنصار والمهاجرين، وليس لهم في غنيمة المسلمين ولا في خُمس الغنائم شيء، إلا أنهم يحكم لهم بحكم الإيمان، وإذا استنصروا المسلمين استنصار دين خاصة فعليهم أن ينصروهم، إلا إذا استنصروهم على من بينهم وبينهم مهادنة وعهود كما يأتي تحريره قريباً إن شاء الله. وهذا معنى قوله: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّن وَلَايَتِهِم مِّن شَيْءٍ﴾.

قال بعض العلماء: الولاية المنفية هنا هي ولاية الميراث خاصة، وهو مروي عن ابن عباس[٢] وجماعة من الصحابة فمن بعدهم.

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير، باب قوله: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ...﴾ (٤٥٨٧، ٤٥٨٨)، (٨/٢٥٥).

(٢) ابن جرير (١٤/٧٨) من طريق علي بن أبي طلحة.

وقال بعض العلماء: هي جميع الأنواع: الموالاة من الميراث والمعاونة.

والتحقيق: أنها عامة إلا ما استثني منها وهو النصر الديني خاصة؛ لأن الله استثناه بقوله: ﴿وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ﴾ هذا الذي بقي من ولايتهم مع عدم هجرتهم. وهذا معنى قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا﴾ وقد بيَّن عذر المستضعفين وعدم عذر الذين كانوا على قدرة وبقوا بين أظهر الكفار المحاربين للنبي ﷺ حتى يهاجروا.

ثم قال: ﴿وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾. الاستنصار طلب النصر، وقد تقرر في علم العربية: أن من معاني السين والتاء: الطلب. استغفر: طلب المغفرة، واستطعم: طلب الطعام، واستسقى: طلب السقيا، واستنصر: طلب النصر، ﴿وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ﴾ أي: طلبوا نصركم في الدين.

قوله: ﴿فِى ٱلدِّينِ﴾ يدل على أنهم لو استنصروهم نصر قومية وعصبية أنهم ليس عليهم أن ينصروهم، وأن المناصرة إنما هي في الدين، فلا مناصرة في العصبيات، ولا في القوميات، ولا في الأراضي الفاسدة، وإنما المناصرة في الله، وفي دين الله (جل وعلا)؛ ولذا قال: ﴿فِى ٱلدِّينِ﴾ والمراد بالدين: دين الإسلام كما قال: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: الآية ١٩] ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: الآية ٨٥]. وقد بيَّن النبي ﷺ في حديث جبريل أن الدين شامل للإيمان والإحسان والإسلام حيث سأله عن الإيمان وفسره له، والإسلام وبيّنه له، والإحسان كذلك. ثم قال: «**هذا جبريل أتاكم يعلمكم دينكم**»[1]. فعلم من قوله: «**يعلمكم دينكم**» أن اسم الدين شامل لكل من الإحسان والإسلام والإيمان كما لا يخفى. وهذا معنى قوله: ﴿وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ﴾ أي: فواجب عليكم نصرهم. أي: إعانتهم الإعانة الدينية لا الإعانة

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٨) من سورة البقرة.

العصبية القومية فذلك لا يكون؛ لأن الإعانات والانتصارات إنما هي في سبيل الله، وعلى كتاب الله، لا في سبيل الشيطان، ولا على سبيل العصبيات وقضايا الجاهلية الأولى كما لا يخفى. وهذا معنى قوله: ﴿فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ﴾ الجار والمجرور في قوله: ﴿عَلَىٰ قَوْمٍ﴾ يتعلق بمحذوف، إلا إن استنصروكم على قوم فلا تنصروهم على قوم بينكم وبينهم ميثاق.

وقد قدمنا في هذه الدروس مراراً[1] أن لفظ القوم يختص في الوضع العربي بالذكور دون الإناث، كما قال تعالى: ﴿لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ﴾ [الحجرات: الآية ١١] فعطفه النساء على القوم في آية الحجرات هذه يدل على أن القوم لا يتناول النساء وضعاً، ومثل الآية الكريمة قول زهير وهو عربي جاهلي قح[2]:

وما أدْرِي وسَوفَ إخَالُ أدْرِي أَقَوْمٌ آلُ حِصْنٍ أَمْ نِسَاءُ

فعطف النساء على القوم فدل على عدم دخولهن فيهم، وقد دل القرآن العظيم على أن المرأة قد تدخل في اسم القوم بحكم التبع إذا اقترن المقام بما يدل على ذلك، كقوله في ملكة سبأ: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [النمل: الآية ٤٣] وما جرى مجرى ذلك. وهذا معنى قوله: ﴿إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ﴾.

المراد بالميثاق: المهادنة والمعاهدة، وأصل الميثاق في لغة العرب: العهد المؤكد[3]، فكل عهد كان مؤكداً تسميه العرب ميثاقاً. وعلى هذا فكل ميثاق عهد، وليس كل عهد ميثاقاً. وياء الميثاق مبدلة من واو، ووزنه بالميزان الصرفي (مِفْعَال) وفاؤه واو، وأصله: (موثاق)[4] كميعاد من الوعد، وميزان من الوزن، وميثاق من الوثوق؛ ولذا يُصَغَّر على (مُوَيْثيق) لأن

(١) مضى عند تفسير الآية (٨٠) من سورة الأنعام.

(٢) السابق.

(٣) مضى عند تفسير الآية (١٦٩) من سورة الأعراف.

(٤) انظر: معجم مفردات الإبدال والإعلال ص٢٧٣.

التصغير يرد العين إلى أصلها. ويُجمع جمع التكسير على (مواثيق) على القياس. وما سمع عن العرب من تكسيره على (مَيَاثِق) كقول عياض بن درة الطائي[١]:

حِمىً لا يُحَلّ الدهر إلا بإذننا ... ولا نسألُ الأقوامَ عقدَ المَيَاثِق

فهو سماع يحفظ ولا يقاس عليه؛ لأنه اعتد بالعارض هنا على غير القياس. وهذا معنى قوله: ﴿فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ﴾.

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ يعني: لا يخفى عليه شيء من أعمالكم، وهذا هو الواعظ الأكبر والزاجر الأعظم الذي كنا نتحدث عنه الآن ونخبر بكثرته في القرآن العظيم لشدة عظم موعظته وزجره لمن كان له قلب. وهذا معنى قوله: ﴿إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الأنفال: الآية ٧٢].

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ مَعَكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنكُمْ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٧٥﴾﴾ [الأنفال: الآيات ٧٣ - ٧٥].

يقول الله (جل وعلا): ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾﴾. هذه الآية الكريمة من الآيات العظام التي يعتبر بها؛ لأن ما ذكره الله (جل وعلا) فيها وما حذّر منه من الفتنة والفساد الكبير إن لم يوال المسلمون بعضهم بعضاً، ويقطعوا موالاة الكفار، ويتركوا الكفار بعضهم يوالي بعضاً، ما حذر به من أنهم إن لم يحافظوا على صدق الموالاة بينهم ومقاطعة أعدائهم تقع في الأرض الفتنة والفساد الكبير، فهو واقع منتشر الآن، يدل على عظم هذا القرآن العظيم

---

(١) البيت في الخصائص (١٥٧/٣)، اللسان (مادة: وثق) (٨٧٦/٣).

وأنه كلام رب العالمين، وأن تحذيره حق، وترغيبه حق، والله في هذه الآيات من أخريات سورة الأنفال بيّن أن المؤمنين بعضهم أولياء بعض، قال في المهاجرين والأنصار: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ﴾ وهم في ذلك الوقت سادات المسلمين جميعاً في أقطار الدنيا؛ لأنهم هم الأغلبية والكثرة التي فيها رسول الله ﷺ.

ثم أتبع ذلك بأن الكفار بعضهم أولياء بعض، ويُؤخذ من هذا ـ من قطع الولاية أولًا بين الكفار والمؤمنين ـ أنه لا يرث كافر مسلماً ولا مسلم كافراً؛ لأن الميراث لا بد له من ولاية بين الوارث والموروث، وقد قطع الله الولاية بينهما، وما دل عليه ظاهر هذه الآية الكريمة جاء مصرحاً به في الحديث الصحيح عنه (صلوات الله وسلامه عليه) حيث يقول: «**لا يرث الكافر المسلم ولا المسلم الكافر**»[(١)] وهذا لا نزاع فيه بين المسلمين، دل عليه عموم هذه الآيات الكريمة، وصرح به النبي ﷺ. ومن هذه الموالاة قال بعض العلماء[(٢)]: منها ولاية النكاح، فالمرأة المؤمنة لا يلي عقدها أبوها الكافر؛ لأن الله قطع الولاية بين المؤمنين والكافرين، والله يقول: ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النساء: الآية ١٤١] وقد قدمنا أن العبرة بعموم الألفاظ لا بخصوص الأسباب[(٣)].

وكذلك قال العلماء: لو كانت كافرة ذمية وأراد مسلم تزويجها ولها ولي ابن عم أو أب من المسلمين فإنه لا يتولى عقد نكاحها ولو للمسلم، لانقطاع الولاية بين الكفار والمسلمين، وإنما يزوجها أقرباؤها من أهل دينها أو أساقفتهم. وشذ في هذه المسألة أصبغ ـ أحد أصحاب مالك بن أنس رحمه الله ـ فقال: إن الكافرة إذا كان لها ولي مسلم يزوجها من مسلم،

---

(١) اخرجه البخاري في الفرائض، باب: لا يرث المسلم الكافر ولا الكافر المسلم. حديث (٦٧٦٤) (١٢/ ٥٠) ومسلم في الفرائض، في فاتحته، حديث رقم: (١٦١٤) (٣/ ١٢٣٣).

(٢) انظر: القرطبي (٨/ ٥٧)

(٣) راجع ما سبق عند تفسير الآية (٥٧) من سورة الأنعام.

قال: فعقد المسلم لها خير للمسلم من عقد الكافر[١]. وهذا القول ليس بصواب؛ لأنه لا ولاية بين مسلم وكافر ألبتة، والكفار بينهم ولاية الكفر، ولاية الشيطان والكفر، كما قال الله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾.

وهذه الآية تدل على أن الكفار بعضهم ولي بعض، وظاهرها أن الكافر يرث الكافر ولو اختلفت مللهما من الكفر، وبهذا الظاهر تمسك من قال يرث النصراني اليهودي واليهودي النصراني، كما يتوارث غيرهم من أهل الملل. والصواب أنه لا يتوارث أهل ملتين للحديث الوارد في ذلك عن النبي ﷺ «**لا يتوارث أهل ملتين**»[٢] وهو الأصوب، وهو أخص؛ لأنه يبين المراد بعموم هذه الآية الكريمة.

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ مبتدأ، و ﴿بَعْضُهُمْ﴾ مبتدأ آخر، و ﴿أَوْلِيَآءُ﴾ خبر الثاني، والثاني وخبره خبر الأول كما هو واضح. وقد قدمنا في هذه الدروس مراراً[٣] أن مادة الكاف والفاء والراء (كَفَرَ) أن معناها في لغة العرب التي نزل بها القرآن: الستر والتغطية، فكل شيء غطيته وسترته فقد

---

(١) انظر: القرطبي (٥٧/٨).

(٢) روى هذا الحديث غير واحد من الصحابة (رضي الله عنهم)، ومنهم:

١ ـ جابر بن عبد الله (رضي الله عنهما)، عند الترمذي في الفرائض، باب: لا يتوارث أهل ملتين. حديث رقم: (٢١٠٨) (٤٢٤/٤). وهو في صحيح الترمذي (١٧١٢)، الإرواء (١٢١/٦، ١٥٥).

٢ ـ عبد الله بن عمرو (رضي الله عنهما)، عند أحمد (١٧٨/٢، ١٩٥)، وأبي داود في الفرائض، باب: هل يرث المسلم الكافر. حديث رقم: (٢٨٩٤) (١٢٢/٨)، وابن ماجه في الفرائض، باب: ميراث أهل الإسلام من أهل الشرك. حديث رقم: (٢٧٢٩) (٩١٢/٢)، والدارقطني (٧٢/٤، ٧٥)، وابن الجارود (٢٣٢/٣). وانظر: صحيح أبي داود (٢٥٢٧) وصحيح ابن ماجه (٢٢٠٧)، الإرواء (١٢٠/٦).

٣ ـ أسامة بن زيد (رضي الله عنهما). عند الحاكم (٢٤٠/٢). وانظر: الإرواء (١٢٠/٦).

٤ ـ عن الشعبي مرسلاً. عند الدارمي (٢٦٧/٢).

وساق الدارمي في هذا المعنى جملة من الآثار عن بعض الصحابة (رضي الله تعالى عنهم).

(٣) مضى عند تفسير الآية (٤٥) من سورة الأعراف.

كفرته، وهذا معنى معروف في كلام العرب مشهور مبتذل في كلامهم جداً، ومنه سمت العرب الليل كافراً؛ لأنه يكفر الأجرام ويغطيها عن العيون بظلامه، ومنه قول لبيد بن ربيعة (رضي الله عنه) في معلقته[1]:

حتى إذا أَلقتْ يَداً في كَافرٍ وأجنَّ عوراتِ الثغورِ ظَلامُهَا

ومن هذا المعنى قول لبيد أيضاً في معلقته هذه[2]:

يعلُو طريقةَ متنُها متواترٌ في ليلةٍ كَفَرَ النجومَ غَمَامُهَا

يعني: ستر النجوم وغطاها غمامها. هذا أصل المادة، وتكفير السيئات من هذه المادة؛ لأن الله يغطيها ويسترها بحلمه حتى لا يظهر لها أثر يتضرر به صاحبها، وإنما قيل للكافر (كافر) لأنه يغطي أدلة التوحيد بجحوده مع وضوحها، ويغطي نعمة الله ويسترها كأنه ليس عليه إنعام من الله حيث يأكل رزقه ويتقلب في نعيمه ويعبد غيره.

وقوله (جل وعلا) في هذه الآية الكريمة: ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ﴾ هي (إن) الشرطية أُدغمت في (لا) النافية. والمقرر في علم العربية: أن (إن) الشرطية التي تجزم فعلين إن جاءت بعدها (لا) النافية لا تمنع عملها من الجزم، فهي (إن) الشرطية، وفعل الشرط هو قوله: ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ﴾ مجزوم بحذف النون، وجزاء الشرط هو قوله: ﴿تَكُن فِتْنَةٌ﴾ والتحقيق: أن (تكن) أنه هنا تام، وأن (فتنة) فاعله، وليس من الأفعال الناقصة الناسخة كما هو الصواب، والضمير في قوله: ﴿تَفْعَلُوهُ﴾ أما الضمير المرفوع الذي هو الواو فهو عائد إلى النبي ﷺ وأصحابه، وهو يتناول جميع المسلمين إلى يوم القيامة. وأما الضمير المنصوب فهو ضمير الواحد الغائب ـ أعني الهاء في قوله: ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ﴾ ـ فلعلماء التفسير في مرجع هذا الضمير أقوال معروفة[3] سنذكر طرفاً منها ونبيّن الصواب فيها ـ إن شاء الله ـ: قال بعض العلماء: ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ﴾ راجع إلى الميراث المفهوم من قوله: ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ لأنه يدخل فيها

---

(١)(٢) مضى عند تفسير الآية (٤٥) من سورة الأعراف.

(٣) انظر: الدر المصون (٥/٦٤١).

ولاية الميراث، إلا تتركوا الكافر يرث الكافر، والمسلم يرث المسلم دون الكافر تكن فتنة. وهذا مروي عن ابن عباس[١] وغيره، ومعه أقوال شبهه.

والتحقيق الذي لا شك فيه ـ إن شاء الله ـ أن الضمير ـ الهاء ـ في قوله: ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ﴾ عائد إلى ما ذكره الله (جل وعلا) من ولاية المسلمين بعضهم بعضاً ومقاطعتهم للكفار، وولاية الكفار بعضهم بعضاً، وقد جرت العادة في كلام العرب الذي نزل به القرآن، وفي القرآن العظيم، أنه يرجع الضمير أو ترجع الإشارة إلى أشياء متعددة ويرجع الضمير إليها بصيغة الإفراد[٢]، كأنه يعني بالضمير أي: ما ذكر من الأشياء المتعددة من اثنين فصاعداً، وهذا موجود في الضمائر، وفي كلام العرب، ولما أنشد رؤبة بن العجاج في رجزه[٣]:

فيها خُطوطٌ من سَوادٍ وَبَلَقْ كأنَّه في الجِلْدِ تَوْلِيْعُ البَهَقْ

قال له رجل: لِمَ قلت: «كأنه» إذا كنت تعني الخطوط فالصواب أن تقول: «كأنها» وإذا كنت تعني السواد والبلق فهلا قلت: «كأنهما» فأي وجه لقولك: «كأنه»؟ قال: كأنه أي: ما ذُكر. ومن أصرح الأدلة القرآنية في ذلك هو قوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَـٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ﴾ (به) أي: بجميع ما ذُكر من سمعكم وأبصاركم وقلوبكم كما لا نزاع فيه. وهذا معنى معروف في كلام العرب، وقد قدمنا بعض شواهده في سورة البقرة في الكلام على قوله: ﴿إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾[٤] أي: بين ذلك المذكور من الفارض والبكر. ومن نظيره في الإشارة قول ابن الزبعرى السهمي[٥]:

إن للخيرِ وللشرِ مَدَى وكِلا ذلك وجْهٌ وقَبَل

---

(١) أخرجه ابن جرير (١٤/٨٦) من طريق علي بن أبي طلحة.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٤٨) من سورة البقرة.

(٣) تقدم هذا الشاهد عند تفسير الآية (٥٤) من سورة البقرة.

(٤) راجع الموضع السابق، وكذا ما ذكره عند تفسيره للآية (٦٩) من سورة البقرة.

(٥) تقدم هذا الشاهد عند تفسير الآية (٥٤) من سورة البقرة.

أي: كلا ذلك المذكور.

والمعنى: إلا تفعلوا ذلك الذي ذكرنا من موالاة بعضكم لبعض موالاة صدق، ومقاطعتكم للكفار مقاطعة كاملة، وترك الكفار يوالي بعضهم بعضاً إلا تفعلوا هذا ﴿تَكُن﴾ أي: تقع ﴿فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ وهذا المشاهد الآن، فإن من يسمون بالمسلمين تولوا الكفار وقاطعوا المسلمين، وصار هذا الكافر وهذا المسلم يزعمان أنهما أَخَوَان، وأنهما تجمعهما العصبية الفلانية، أو القومية الفلانية، وأن هذه الدولة الكافرة صديقة، وأن هذين الشعبين شقيقان وما جرى مجرى ذلك.

فلم يفعلوا ما أمر الله بأن يفعلوه فكانت فتنة في الأرض وفساد كبير. ومن عِظَم هذه الفتنة اختلاط الحابل بالنابل؛ لأن المسلمين إذا صادقوا الكفار أعانوهم على أذية المسلمين وقتلهم وكل ما يريدونه بهم، وأطلعوهم على عوراتهم، إلى غير ذلك، فانتشر في الدنيا الفساد العريض العظيم، وانتشرت الفتنة، وهذا مشاهد يجب على المؤمنين أن يعتبروا بهذا فيقطعوا ولايتهم من جميع الكفار، ويصدقوا ولاية بعضهم لبعض لئلا تتمادى بهم هذه الفتنة والفساد الكبير.

وقد قدمنا في هذه الدروس مراراً[1] أن الفتنة جاءت في القرآن لمعاني معروفة، أشهر معاني الفتنة: أن أصل الفتنة هي وضع الذهب في النار ليُمتحن بسبكه في النار: أخالص هو أم زائف؟ تقول العرب: فتنت هذا الذهب. أي: جعلته في النار وأذبته فيها؛ لأنه إذا ذاب تبيّن أخالص هو أم زائف؟ ولذا صار يأتي في القرآن وفي كلام العرب إطلاق اسم الفتنة على مطلق الوضع في النار، ومنه قوله تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾﴾ [الذاريات: الآية ١٣] أي: يوضعون فيها ويحرقون. ومنه على أحد التفسيرين قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [البروج: الآية ١٠] يعني: أحرقوهم بنار الأخدود. هذا معنى من معاني الفتنة.

---

(١) راجع ما سبق عند تفسير الآية (٥٣) من سورة الأنعام.

ومعناها الثاني: أن الفتنة تطلق على الاختبار، وهذا أشهر معانيها، وهو في الحقيقة راجع إلى الأول؛ لأن وضع الذهب في النار ليختبر بالنار أخالص هو أم زائف؟ وإطلاق الفتنة على الاختبار إطلاق مشهور مستفيض في القرآن العظيم وفي كلام العرب، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ [الجن: الآيتان ١٦، ١٧] ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: الآية ٣٥] أي: اختباراً وامتحاناً. إلى غير ذلك من الآيات.

وإطلاق الفتنة الثالث: تطلق الفتنة على نتيجة الاختبار بشرط كونها سيئة خاصة؛ لأن المختبر إذا كانت نتيجة اختباره سيئة كان ضالًا؛ ولذا تطلق الفتنة على الكفر والضلال، يقولون: فَتَنَه عن دينه. أي: أضله. وهذا مفتون. أي: ضال في دينه. ومنه بهذا المعنى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ [الأنفال: الآية ٣٩] أي: لا يبقى في الدنيا شرك على أصح التفسيرين؛ لأن قوله ﴿حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ غاية غَيَّا فيها القتال لئلا يكون في الدنيا شرك. وهذا بيّنه النبي ﷺ بياناً صريحاً صحيحاً في قوله: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وإني رسول الله**»[1].

قال بعض العلماء: جاء للفتنة إطلاق رابع في سورة الأنعام، وهو أنها أُطلقت على الحجة. قال: ومنه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾﴾ وفي القراءة الأخرى[2]: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنعام: الآية ٢٣] فهذه الفتنة هي في الحقيقة المعنى الثاني من هذه المعاني التي ذكرنا، وهي نتيجة الاختبار إذا كانت سيئة؛ لأنه إذا اتصل الكافر بالمسلم، والمسلم بالكافر صار الكافر صديق المسلم، وصار المسلم صديق الكافر، فكل هذا ضلال مخالف لما جاء من الله، تتسبب عنه المحن والبلايا كما هو معروف.

وقوله: ﴿وَفَسَادٌ﴾ الفساد في لغة العرب هو ضد الإصلاح، فكل أمر ليس على وجهه الصحيح الذي هو إصلاح تسمية العرب فاسداً. ووصف

---

(١) السابق.

(٢) مضت عند تفسير الآية (١٥٥) من سورة الأعراف.

هذا الفساد بالكبير لأنه ضياع دين، وضعف إسلام، وقوة كفار، وإطلاعهم على عورات المسلمين بواسطة من يصادقهم ويواليهم من المسلمين، إلى غير ذلك من البلايا. وقد بيّن الله (جل وعلا) قبل هذا آيات تبيّن هذه الآية، فبيّن أن موالاة الكافر للمسلم لا يرخص منها في شيء إلا بقدر ما يدفع الضرورة عند الخوف، ويكون ذلك باللسان لتفادي الخوف فقط، كما تقدم في قوله: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً﴾ [آل عمران: الآية ٢٨] أي: تخافوا منهم خوفاً كما قاله بعض العلماء. وقد قدمنا أنه (جل وعلا) بيّن أن الذي يتولى الكفار اختياراً رغبة فيهم وفي دينهم أنه منهم، كما تقدم في قوله: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المائدة: الآية ٥١] فهذه الآيات الكريمة في القرآن العظيم وبالأخص هذه الآية من أخريات سورة الأنفال تبين للمسلم أنه تجب عليه مقاطعة الكافر والمباعدة، منه واعتقاد أنه حرب عليه، وقد جاءت أحاديث كثيرة تؤيد هذا المعنى، ففي بعض الأحاديث في رجل أخذ النبيُ ﷺ عند إيمانه قال: «**وأن لا ترى نار مشركٍ إلا وأنت حرب عليه**»[1] وفي الحديث الآخر: «**لا تتراءى نار مسلم وكافر**»[2] فالعداوة يلزم أن تكون بين المسلمين والكفار/ [كما قال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ﴾][3] ﴿وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ [الممتحنة: الآية ٤] هذا الذي ينبغي أن يسير عليه المسلمون ويتجنبوا هذه الفتن والفساد الكبير والبلايا التي طبّقت

١٠/أ

---

(١) أخرجه عبد الرزاق (١١/٣٣٠ ـ ٣٣١)، وابن جرير (١٤/٨٢ ـ ٨٣) عن الزهري مرسلاً.

(٢) لفظ الحديث: «**أنا بريء من كل مسلم يقيم بين أظهر المشركين**». قالوا: يا رسول الله لم؟! قال: «**لا تراءى ناراهما**». أخرجه أبو داود في الجهاد، باب النهي عن قتل من اعتصم بالسجود. حديث رقم: (٢٦٢٨) (٧/٣٠٣)، والترمذي في السير، باب ما جاء في كراهية المقام بين أظهر المشركين. حديث رقم: (١٦٠٤، ١٦٠٥) (٤/١٥٥)، والنسائي في القسامة، باب القود بغير حديدة، حديث رقم: (٤٧٨٠) (٨/٣٦). وانظر: الإرواء (٥/٢٩ ـ ٣٣)، السلسلة الصحيحة (٢/٢٣٠).

(٣) في هذا الموضع انقطاع في التسجيل، وما بين المعقوفين [ ] زيادة يتم بها الكلام.

الدنيا بسبب موالاة المسلم للكافر ومجافاة المسلم للمسلم؛ ولذا قال تعالى: ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ [الأنفال: الآية ٧٣] والله ما فعلوه اليوم، والله إن في الدنيا اليوم لفتنة وفساداً كبيراً منتشراً.

وقد تكون الفتنة والفساد الكبير بأسباب أُخر غير هذا، وقد تقرر في فن الأصول أن جزاء الشرط يجوز أن يكون أعم من شرطه، لا مانع من ذلك، فلا يلزم أنه لا تكون فتنة وفساد كبير إلا من هذا، فقد تكون فتنة وفساد كبير لأسباب أُخر، فإنك لو قلت مثلًا: إن بلت انتقض وضوؤك. لا يلزم من هذا أنه لا ينتقض وضوؤك إلا من البول، فقد تكون نواقض أُخر غير هذا؛ ولذا قد يوجد الفتنة والفساد الكبير لأسباب أُخر غير هذا المذكور؛ ولذا جاء في السنن وغيرهم من حديث أبي حاتم المزني (رضي الله عنه) وحديث أبي هريرة أن النبي (صلوات الله وسلامه عليه) قال: «**إذا أتاكم من ترضون دينه وخُلقه فأنكحوه، إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد عريض**» في بعض روايات الحديث: «**وفساد عريض**» وفي بعضها: «**وفساد كبير**». قالوا: يا رسول الله وإن كان فيه؟ قال ﷺ: «**إذا أتاكم من ترضون دينه وخلقه فأنكحوه، إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد عريض**» أو «**فساد كبير**»[1].

وهذا أيضاً يدل على أن الفتنة والفساد الكبير تتعدد أسبابها وهو كذلك، فإن للافتتان والفساد الكبير المنتشر في الدنيا أسباباً كثيرة، ومن أعظم تلك الأسباب وأبرزها: مقاطعة المسلم للمسلم وموالاته للكافر، فهذا

---

(١) حديث أبي حاتم المزني أخرجه الترمذي في النكاح، باب ما جاء إذا جاءكم من ترضون دينه فزوجوه. حديث رقم: (١٠٨٥) (٣/٣٨٦)، والبيهقي (٧/٨٢)، والدولابي في الكنى (١/٢٥). وانظر: السلسلة الصحيحة (١٠٢٢)، الإرواء (١٨٦٨).
وحديث أبي هريرة أخرجه الترمذي (الموضع السابق) حديث رقم: (١٠٨٤) (٣/٣٨٥)، وابن ماجه في النكاح، باب الأكفاء. حديث رقم: (١٩٦٧) (١/٦٣٢)، والدوري في (جزء فيه قراءات النبي ﷺ) ص١٠٣ ـ ١٠٤، والحاكم (٢/١٦٤، ١٦٥)، والخطيب (١١/٦١).
وانظر: الإرواء (٦/٢٦٦).
تنبيه: ورد في هذا المعنى أيضاً حديث عن ابن عمر (رضي الله عنهما). وهو في الكامل (٥/١٧٢٨) والدولابي في الكنى (٢/٢٧).

مما لا ينبغي، وهو من الأسباب العظيمة؛ لأن الله يقول لنبيه: ﴿جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التحريم: الآية ٩] فاللين للكفار والمحبة والمؤاخاة لهم ليست من شأن المسلمين، ولا من خلق النبي وأصحابه، فالله (جل وعلا) أثنىٰ علىٰ محمد ﷺ وعلىٰ أصحابه بأنهم لا يضعون اللين إلا في موضع اللين، ولا يضعون القسوة إلا في موضع القسوة، قال: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ﴾ ليسوا بأصدقاء لهم ولا محبين ولا أولياء ﴿رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: الآية ٢٩] هذه عادة المسلم أن يكون شديداً عظيماً علىٰ الكافر، رحيماً رفيقاً ذليلاً علىٰ المسلم، هذه عادة المسلمين وصفات المسلمين، وقد مدح الله بها قوماً في سورة المائدة حيث قال: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ - يعني لا يهتم بهم المسلمون لعدم صعوبتهم وذلهم وتواضعهم للمسلمين - ﴿أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: الآية ٥٤] أشداء، وقد صدق من قال[1]:

فما حَمَلَت من ناقةٍ فوقَ رَحْلِها أشد على أعدائِهِ من محمدِ

(صلوات الله وسلامه عليه)، فهو لا يوالي الكفار، بل هو ولي المسلمين ﴿ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [الأحزاب: الآية ٦] ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ الآية [المائدة: الآية ٥٥] إلى غير ذلك من الآيات، فيجب علينا الاقتداء بالنبي ﷺ فنوالي المؤمنين ونلين لهم، ونرفق بهم، ونعادي الكفار ونكون أشداء عليهم؛ لأن الشدة في محل اللين خرق وحمق، واللين في محل الشدة خور وضعف، والصحيح أن يكون كل شيء في محله، وهذا في موضعه، وهذا في موضعه، كما لا يخفىٰ، وهذا معنى قوله: ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ [الأنفال: الآية ٧٣].

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾﴾ [الأنفال: الآية ٧٤] [شرع][2] الله (جل وعلا) وبيَّن للمؤمنين أن يكونوا أولياء للمؤمنين، والكفار بيَّن أنهم

---

(١) مضى عند تفسير الآية (١٩٩) من سورة الأعراف.

(٢) في هذا الموضع انقطع التسجيل، وما بين المعقوفين [ ] زيادة يتم بها الكلام.

أولياء الكفار، وأثنىٰ على المهاجرين والأنصار؛ لأن بعضهم أولياء بعض، مدح المهاجرين والأنصار وزكاهم وهو المطلع على ضمائرهم وخبايا ما يضمرون، بيَّن أن إيمانهم أنه إيمان حق لا شك فيه لا نفاق ولا ضعف، فأثنىٰ عليهم ومدحهم مدحاً عظيماً من رب العالمين، قال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ ـ بالله ورسوله وكل ما يجب به الإيمان ـ ﴿وَهَاجَرُوا۟﴾ ـ أوطانهم وأموالهم وديارهم ـ ﴿بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ فسرناه بالأمس.

وهذه الصفات كله يُقصد بها المهاجرون الذين هاجروا إلى المدينة هذه، وهم النبي ﷺ وأصحابه الذين هاجروا معه رضي الله عنهم.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟﴾ يعني: آووهم، قد قدمنا أن العرب تقول: «آواه يؤويه إيواء» إذا ضمه إليه وجعل له مأوىٰ يأوي إليه، والمأوىٰ: المسكن والمنزل؛ لأن الأنصار هيؤوا للمسلمين أمكنة ينزلون فيها وهيؤوا لهم كل ما يستعينون به، وآخىٰ النبي ﷺ بينهم، كان يقول: «**فلان أخو فلان**». فيتوارثان بذلك الإخاء، وكان الأنصار يشاطرونهم أموالهم، وقد آخىٰ ﷺ بين عبدالرحمٰن بن عوف الزهري (رضي الله عنه) وسعد بن الربيع الأنصاري (رضي الله عنه)، ذكر بعض أهل المغازي والأخبار أن النبي لما آخىٰ بينهما جاء سعد إلىٰ عبدالرحمٰن وقال: أرخص ما عندي نعلاي، فهذه إحداهما، وأعظم ما عندي زوجتاي أنزل لك عن إحداهما، فإن تمت عدتها تزوجتَها!! ـ وقد كان عبدالرحمٰن بن عوف (رضي الله عنه) وأغلب المهاجرين تعففوا واتجروا ـ فقال له عبدالرحمٰن بن عوف: أقرضني درهماً. فأقرضه درهماً فاتّجر به، فراح وعنده درهمان، ردّ إليه درهمه واتجر بالثاني، فراح عنده درهمان، ولم يزل يتَّجر حتىٰ انتشر عليه المال وكان من أغنياء الصحابة[1] (رضي الله عنهم). فهم آووهم حيث هيؤوا لهم المساكن

---

(١) أخرجه البخاري في البيوع، باب ما جاء في قول الله عز وجل: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ...﴾ رقم: (٢٠٤٨)، (٢٨٨/٤). وطرفه في (٣٧٨٠). عن عبدالرحمٰن بن عوف (رضي الله عنه). وأخرجه أيضاً عن أنس (رضي الله عنه) (الموضع السابق) برقم (٢٠٤٩). وأطرافه في: (٢٢٩٣، ٣٧٨١، ٣٩٣٧، ٥٠٧٢، ٥١٤٨، ٥١٥٣، ٥١٥٥، ٥١٦٧، ٦٣٨٦).

والأموال، وشاطروهم أموالهم، وأحسنوا إليهم كل الإحسان، كما في قوله: ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: الآية ٩] هذا ثناء الله ومدحه للمهاجرين والأنصار، ثم قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الإشارة في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ شاملة للمهاجرين والأنصار معاً، فالمهاجرون هم المعبّر عنهم بـ ﴿ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ والأنصار هم المعبّر عنهم بقوله: ﴿ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟﴾ أي: آووا النبي وأصحابه ونصروهم علىٰ أعدائهم، هؤلاء جميعاً ﴿هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ حق إيمانهم حقاً؛ لأنهم صدقوا إيمانهم بهجرتهم وجهادهم في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم وبإيمانهم، وأولئك حققوه بإيوائهم ونصرتهم لله؛ لأن الأنصار قامت موقفاً عظيماً حيث تحمّلت عداوة جميع أهل الدنيا في نصرة النبي ﷺ وأصحابه؛ ولذا قال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُوْلَٰٓئِكَ﴾ - هؤلاء - ﴿هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ بمعنىٰ الكلمة الإيمان الذي هو لا قيل فيه ولا قال، بل هو الإيمان كما ينبغي.

وهذه من الآيات الدالة علىٰ تزكية الصحابة لا سيما المهاجرين والأنصار، ووصفهم بالعدالة وصحة الإيمان، فإذا روىٰ لنا مهاجري أو أنصاري حديثاً فلا نقول: هل هذا عدل أو غير عدل؟؟ لأنه لا مزكيّ أعظم تزكية من الله، ولا تزكية أعظم من قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝٤﴾ [الأنفال: الآية ٤] والله (جل وعلا) نوّه بشأن المهاجرين والأنصار الذين اتبعوهم، ونَوّه بشأن جميع الصحابة وزكاهم في غير ما آية، فمن الآيات التي أثنىٰ بها علىٰ المهاجرين والأنصار قوله: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [التوبة: الآية ١٠٠] وفي قراءة ابن كثير: ﴿جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾[1]. والمصحف الذي أرسله عثمان إلىٰ مكة فيه: ﴿مِن تَحْتِهَا

(١) انظر: المبسوط لابن مهران ص٢٢٨.

ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾ بذكر لفظة (من) وقراءة الجمهور والمصاحف التي أرسلت إلىٰ الشام وإلىٰ الكوفة والبصرة فيها: ﴿**تحتها الأنهار**﴾ بغير لفظة (من). فقوله: ﴿وَٱلسَّـٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾ - لم يشترط فيهم شيئاً بل قال: - ﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [التوبة: الآية ١٠٠] - وهذه أعظم تزكية، والذين اتبعوهم - اشترط فيهم شرطاً وهو الإحسان؛ لأن قوله: ﴿بِإِحْسَـٰنٍ﴾ اشترطه في خصوص الذين اتبعوهم، ومن هذه الآيات قوله تعالىٰ: ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَـٰتَلَ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَـٰتَلُوا۟﴾ [الحديد: الآية ١٠] ثم قال: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ كُلاً من جميع الصحابة ممن أنفق وقاتل قبل الفتح وبعده وعد الله الحسنىٰ.

ومن هذه الآية الكريمة قال ابن حزم: يجب علىٰ كل مسلم أن يعتقد أن الصحابة كلهم في الجنة؛ لأن الله صرح بذلك ولا يخلف الله الميعاد حيث قال: ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَـٰتَلَ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَـٰتَلُوا۟﴾ - ثم صرح في الجميع بوعده الصادق الذي لا يخلفه قال: - ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾[1]. وقال (جل وعلا) ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ ﴿٨﴾﴾ [الحشر: الآية ٨] فزكاهم بقوله: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ﴾ ثم ذكر الأنصار قال: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ الدار: هي المدينة ﴿تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ﴾ أي: وانتهجوا الإيمان، فهو مفعول فعل محذوف دل المقام عليه[2] ﴿مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟﴾ قال جماعة من أهل العلم: إن المهاجرين أفضل من الأنصار؛ ولذا كان الأنصار لا يكون في صدورهم شيء من فضل المهاجرين عليهم، هكذا قاله غير واحد[3]. ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: الآية ٩] ثم ذكر من يأتي بعدهم

---

(١) الإحكام ص٦٦٤.

(٢) انظر: القرطبي (١٨/٢٠).

(٣) انظر: ابن كثير (٤/٣٣٧).

فقال: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُو مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾ [الحشر: الآية ١٠] ومن هذه الآيات أخذ مالك بن أنس (رحمه الله) إمام دار الهجرة أن الذين يسبون بعض أصحاب النبي ﷺ لا نصيب لهم في فيء المسلمين أبداً، وقال لبعضهم: هل أنتم من الفقراء المهاجرين الذين أُخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً وينصرون الله ورسوله؟ قالوا: لا، لسنا من هؤلاء. قال: هل أنتم من الذين قال فيهم: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُو الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾؟ قالوا: لا، لسنا من هؤلاء. قال: وأنا أشهد أنكم لستم من الطائفة الثالثة التي قال الله فيها: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُو مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾ فأنتم تسبّون الصحابة وتلعنوهم، فلستم من جملة من جعل الله لهم شيئاً من المسلمين فلا شيء لكم ألبتة[1].

وهذه الآيات وأمثالها في القرآن تدل علىٰ أن الذين يسبون بعض أصحاب النبي ﷺ أنهم ضُلّال، منابذون لهدي الله، مخالفون لكتاب الله الذي هو آخر الكتب السماوية نزولًا من عند رب العالمين (جل وعلا) وهذا معنىٰ قوله: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ [الأنفال: الآية ٧٤].

قال بعض العلماء: (حقاً) مصدر[2]، أي: حق ذلك حقاً، أي: لما حققوه به من الإيمان والهجرة والجهاد بالنفس والمال في سبيل الله، إلىٰ غير ذلك من الصفات.

﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ المغفرة (مَفْعِلَة) من الغفران، وأصل مادة الغين والفاء والراء (غفر) أصلها معناها الستر والتغطية أيضاً كمادة (الكفر) لأن الله يستر بحلمه وفضله ذنوب التائبين إليه حتىٰ لا يظهر لها أثر يتضررون به[3].

﴿وَرِزْقٌ﴾ هو ما يرزقهم الله في الجنة.

---

(١) تقدم.

(٢) انظر: القرطبي (٨/٨).

(٣) مضى عند تفسير الآية (١٥٥) من سورة الأعراف.

وقوله: ﴿كَرِيمٌ﴾ كل شيء حسن مبالغ في الحسن والجمال تسميه العرب كريماً، وإنما وصف رزقهم بأنه كريم لأن ما في الجنة من الأرزاق كله كريم ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا﴾ [البقرة: الآية ٢٥] وأرزاق الجنة مبيّنة في القرآن العظيم من مآكلها ومشاربها وغير ذلك. وهذا معنىٰ قوله: ﴿لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال: الآية ٧٤].

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ مَعَكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنكُمْ ۚ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٧٥﴾﴾ [الأنفال: الآية ٧٥].

للعلماء أقوال في المراد بالظرف في قوله: ﴿مِنۢ بَعْدُ﴾ فقوله: ﴿مِنۢ بَعْدُ﴾ ظرف منقطع من الإضافة مبني علىٰ الضم، وتقدير مضافه هذا ـ المحذوف ـ فيه للعلماء أقوال متقاربة[1]:

قال بعض المحققين: أظهر الأقوال فيه أن المراد به: من بعد صلح الحديبية. وهذا القول له اتجاه لمن عرف تاريخ النبي ﷺ وأصحابه وتاريخ الهجرة وأهميتها؛ وذلك لأن النبي ﷺ كان عنده التشديد العظيم في الهجرة، فلا بد لمن آمن أن يهاجر وإلا لم تكن له ولاية عند المسلمين كما قدمناه في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يُهَاجِرُوا۟ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟﴾ [الأنفال: الآية ٧٢] لأن البلاد كلها كانت بلاد حرب، والإيمان في المدينة، والذي أسلم إما أن يبقىٰ في دار حرب وإما أن يروح إلىٰ النبي ﷺ والمسلمين، فلما كان صلح الحديبية ـ وقد كان صلح الحديبية وقع في ذي القعدة من عام ست من الهجرة بإجماع المؤرخين ـ خرج النبي ﷺ معتمراً، وساق معه بعض البُدن، وذلك في ذي القعدة من عام ست، فلما بلغ الحديبية سمع به المشركون فتعرضوا له، وقالوا: والله لا يقتل أبناءنا ببدر ويدخل علينا بلدنا ويطوف ببيتنا أبداً!! فوقع ما وقع مما هو مشهور. ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ [الفتح: الآية ٢٥] أي: وصدوا الهدي معكوفاً أن يبلغ

(١) انظر: القرطبي (٨/٨).

محله، وقد نزلت في قفوله من الحديبية سورة الفتح: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١﴾ [الفتح: الآية ١] نزلت في رجوعه من الحديبية كما قاله غير واحد، وقد وقع ما وقع، ولم يزالوا يراسلونه ليردوه عنهم، أرسلوا له عروة بن مسعود سيد ثقيف، ومكرز بن حفص، وسهيل بن عمرو وأضرابهم، حتىٰ انعقد بينه وبينهم الصلح علىٰ يد سهيل بن عمرو علىٰ المهادنة عشر سنين، وأغلظوا له في الصلح بأن من جاءه من قريش مسلماً رده إليهم، والذي جاء إلىٰ قريش مرتداً عن الإسلام لا يردونه، وهذا معروف.

وقد كان النبي ﷺ قَبِلَ لهم هذه الشروط، وكتب وثيقة الصلح بينه وبينهم، وعقدها معه سهيل بن عمرو العامري (رضي الله عنه) - من بني عامر بن فهر من قريش (رضي الله عنهم) - وكان عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) اغتاظ من تغليظ هذه الشروط، وقال: يا رسول الله ألسنا علىٰ الحق؟ ألسنا نحن الذين علىٰ الحق؟ كيف نرضىٰ لهم بهذه الدنية؟! وأبو بكر يقول له: استمسك بغرز رسول الله ﷺ فهو أعلم منك. وكان هذا الصلح أول الفتح العظيم الذي فتح الله به علىٰ المسلمين؛ لأن النبي ﷺ يعلم ما فيه من المصلحة؛ لأنه لما وقعت الهجرة والمهادنة، وأمن الناس بعضهم بعضاً صار الصحابة يرجعون إلىٰ قبائلهم ويبثون فيهم الإسلام، فانتشر في الناس دين الإسلام، حتىٰ إن الكفار مكثوا سنتين لم ينقضوا العهد، وقد نقضوا العهد الذي أبرمه النبي ﷺ معهم في الحديبية؛ لأن بني بكر كانت بينهم وبين خزاعة دماء وحروب، ودخلت خزاعة في حلف النبي ﷺ، وبنو بكر في عهد قريش، فَعَدَت بنو بكر علىٰ خزاعة، فأعانهم قريش عليهم بالسلاح، ونقضوا العهد بعد سنتين، وكان ذلك سبب غزوة النبي ﷺ لهم غزوة الفتح، ولم يمكثوا إلا سنتين؛ لأن صلح الحديبية وقع من ذي القعدة عام ست، وغزو النبي ﷺ لهم في فتح مكة وقع في رمضان عام ثمان، وهذا كله لا خلاف فيه بين العلماء والمؤرخين، فأقاموا سنتين، ونقضوا العهود، إلا أن هذا الصلح كان فتحاً عظيماً علىٰ المسلمين؛ لأن الصحابة انتشروا في قبائلهم، ووجدت الدعوة

إلىٰ الله طريقها، فاتصل المسلم بالكافر يدعوه إلىٰ الإسلام، فكثر الإسلام في أقطار الجزيرة العربية، ومما يوضح هذا أن أهل بيعة الرضوان التي وقعت في صلح الحديبية، الذين بايعوه تحت شجرة الحديبية ـ لأن النبي ﷺ ذكر بعض أصحاب المغازي والمؤرخين أنه أراد أن يرسل بالهدايا إلىٰ مكة ـ، وقال لعمر بن الخطاب (رضي الله عنه): «**اذهب بها إلىٰ مكة**». فقال له عمر: إن بني عدي بن كعب ـ يعني قبيلة عمر من قريش ـ لا يستطيعون أن يحموني من قريش، ولكني أدلك علىٰ رجل عزيز في مكة لا يقدر أحد أن يتجرأ عليه، وهو عثمان بن عفان (رضي الله عنه)، وهو عثمان بن عفان بن أبي العاصي بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف. فأرسل عثمان بالهدايا لينحرها بالحرم، فتلقىٰ له بنو عمه من بني سعيد بن العاص، وقالوا له[1]:

أَقْبِلْ وأَدْبِرْ ولا تَخَفْ أحداً بَنُو سَعِيدٍ أَعِزَّةَ الحَرَمِ

وجاء، وقالوا له: إن شئت طُف بالبيت. فقال: والله لا أطوف ببيت مصدود عنه النبي ﷺ وهو محرم[2]، وكان هذا مما يدل علىٰ شرف عثمان (رضي الله عنه) لأنه امتنع أن يطوف لأن رسول الله ﷺ ممنوع من الطواف وهو محرم. ثم إن قائلًا قال: إن قريشاً قتلوا عثمان بن عفان ـ وهو كاذب ـ فسمع بها المسلمون فقالوا: قُتل عثمان!! قالوا: لما قتلوا عثمان ما هنالك إلا القتال والموت!! فبايعوه بيعة الرضوان تحت سمرة الحديبية، وهي الشجرة التي قال الله فيها: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ [الفتح: الآية ١٨] ومحل الشاهد من هذه القصة، وأن صلح الحديبية كان أول فتح علىٰ المسلمين، وأول انتشار للإسلام، أن أهل بيعة الرضوان ـ كانوا ألفاً وأربعمائة تقريباً، كما ثبت ذلك صحيحاً عن بعض أصحاب النبي ﷺ، ولما غزا فتح مكة غزاه بآلاف متعددة، غزاه بعشرة آلاف

---

(١) مضى عند تفسير الآية (١٥٩) من سورة الأنعام.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٩٦) من سورة الأنعام.

مقاتل، فدل هذا علىٰ أن هذه العشرة الآلاف كانت من مزايا صلح الحديبية حيث وجدت الدعوة طريقها، واتصل المسلمون بالكفار فدعوهم إلىٰ الإسلام فانتشر الإسلام في المسلمين؛ ولذا كانت الهجرة بعد صلح الحديبية أقل عظماً وأخف وقعاً مما كانت قبل ذلك؛ لأنه في ذلك الوقت جازت مخالطة المسلم لقبيلته ليدعوهم إلىٰ الإسلام، فخف شأن الهجرة من ذلك الوقت؛ لأنها كاد الله أن يُغني عنها، فلما غزا النبي ﷺ مكة في رمضان من سنة ثمان، وفتح مكة، قال ﷺ: «**لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية**»[1]. وهذه الهجرة انقطعت بالفتح وخفت بالحديبية؛ ولذا قال فيه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنۢ بَعْدُ﴾ أي: بعد أن خف شأن الهجرة بصلح الحديبية، واتصل المسلمون بالكفار، وانتشر المسلمون في أقطار الجزيرة العربية، وهذا معنىٰ قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُوا۟﴾ [الأنفال: الآية ٧٥] ـ قبل فتح مكة وبعد صلح الحديبية، كما قاله بعض العلماء ـ.

﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنكُمْ﴾ معكم وينالهم الفضل العظيم، وإن كان شرف الأسبقية لا يناله من جاء بعدهم كما قال: ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟﴾ [الفتح: الآية ١٠].

﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنكُمْ﴾ أي: هم من جملتكم وإن كان بعضكم أفضل من بعض.

ثم قال تعالىٰ: ﴿وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ﴾ (أولوا الأرحام) معناه: أصحاب الأرحام، وهم ذوو القرابات. و (أولوا) اسم جمع لا واحد له من لفظه، هو يُعرب إعراب الجمع المذكر السالم، يُرفع بالواو وينصب ويخفض بالياء، وهو من الأسماء الملازمة للإضافة. والأرحام: جمع رحم، والرحم مؤنثة، وشذ قوم هنا وقالوا: إن المراد بها أرحام العصبات خاصة، وممن نصر هذا القول: أبو عبدالله القرطبي في تفسيره[2]. وهو ليس بصواب، وما

---

(١) تقدم تخريجه عند تفسير الآية (٧٢) من هذه السورة.

(٢) تفسير القرطبي (٨/٨).

استدلوا به في ذلك لا ينهض حجة؛ لأنهم قالوا: إن العرب كثيراً ما تُطلق الرحم علىٰ قرابة العصبات دون قرابات غيرهم، قالوا: تقول العرب: وصلتك رحم. يعنون به رحم العصبات لا غيرها. وقالت قتيلة بنت الحارث، أو بنت النضر بن الحارث في رجزها المشهور لما قتل النبي ﷺ النضر بن الحارث في رجوعه من بدر ـ كما أوضحنا قصته في أول هذه السورة الكريمة سورة الأنفال ـ قالت في شعرها، تقول[1]:

ظَلَّتْ سُيوفُ بني أبيهِ تَنُوشُه ... للهِ أرحامٌ هُناكَ تُشَقَّقُ

فصرحت بأن مرادها بالأرحام بنو الأب، يعني من بني عمه وعصبته. وهذا يجوز، ولكنه لا ينفي غيره من إطلاق ذوي الأرحام علىٰ جميع القرابات[2]. وهذه الآية ثبت في الصحيح وغيره ـ ولا يكاد يُختلف فيه بين العلماء ـ أنها نسخت للموارثة التي كانت تقع بالهجرة والمؤاخاة والحلف؛ لأنهم كانوا يتوارثون بالهجرة والمؤاخاة ولا يرث القريب من قريبه شيئاً إذا كان لم يهاجر، كما تقدم في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ﴾ [الأنفال: الآية ٧٢] وأن الله نسخ ذلك بالقرابات، وأن المراد: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ﴾ أي: أصحاب القرابات من قرابة الأب والأم، بعضهم أولىٰ ببعض في الميراث. أي: من المهاجرين الذين آخىٰ النبي ﷺ بينهم وبين الأنصار كما هو معروف، فنسخ الله ذلك الميراث أولاً بميراث القريب قريبه، والولي وليه.

﴿بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ أي: في الميراث.

﴿فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ قال بعض العلماء: المراد بكتاب الله أي: في حكم الله وأمره الذي كلف به خلقه وألزمهم إياه، والعرب كل شيء مكتوب مؤكد تسميه كتاب الله./ وقال بعض العلماء: كتاب الله: هو اللوح ١٠/ب

---

(١) مضى عند تفسير الآية (١٢) من سورة الأنفال.

(٢) انظر: الأضواء (٤١٨/٢).

المحفوظ لأن الله كتب ذلك في اللوح المحفوظ[١] كما قال تعالىٰ: ﴿وَأُوْلُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا...﴾ [الأحزاب: الآية ٦] فآية الأحزاب كأنها بيّنت آية الأنفال هذه، وقال بعض العلماء: المراد بكتاب الله: القرآن؛ لأن الله بيّن المواريث في كتاب الله في القرآن في سورة النساء بيّنها بآية الصيف وآية الشتاء، فآية الشتاء هي: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۚ﴾ [النساء: الآية ١١] إلىٰ آخر الآيات، وآية الصيف هي التي في آخر السورة: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ ۚ﴾ [النساء: الآية ١٧٦].

وقد قدمنا[٢] أن الكتاب بمعنىٰ المكتوب، وأن إتيان (الفِعَال) بمعنىٰ (المفْعُول) مسموع في كلام العرب موجود في أوزان معروفة، ككتاب بمعنىٰ مكتوب، ولباس بمعنىٰ ملبوس، وإلٰه بمعنىٰ مألوه، أي: معبود، وإمام بمعنىٰ مُؤتم به. وقد قدمنا[٣] أن مادة الكاف والتاء والباء في لغة العرب (كَتَبَ) أن معنىٰ هذه المادة في اللغة التي نزل بها القرآن معنىٰ (كتب): ضم وجمع، فالكَتْب في لغة العرب معناه: الضم والجمع، وكل شيء ضممته وجمعت بعضه إلىٰ بعض فقد كتبته، ومنه سميت الكتيبة من الجيش؛ لأنها قطعة عظيمة ضم بعضها إلىٰ بعض، وجُمع بعضها مع بعض، حتىٰ صارت جملة عظيمة من الجيش، ومنه قول نابغة ذبيان[٤]:

ولا عَيْبَ فيهم غيرَ أن سُيُوفَهم بهنَّ فُلُولٌ من قِراعِ الكَتَائِبِ

ومن هذا المعنىٰ سميت الكتابة كتابة؛ لأنك تضم نقش حرف إلىٰ حرف إلىٰ حرف حتىٰ يتألف من مجموع هذا نقوش تُقرأ بها ألفاظ؛ ولأجل هذا قيل للخياطة (كَتْب) فالخياط يسمىٰ كاتباً؛ لأنه يضم أطراف الأديم

---

(١) انظر: ابن جرير (١٤/٩٠).

(٢) مضى عند تفسير الآية (٣٨) من سورة الأنعام.

(٣) السابق.

(٤) السابق.

بعضها إلىٰ بعض، وأطراف الثوب بعضها إلىٰ بعض فيخيطها، فالخياطون كُتّاب، وفي لُغز الحريري[١]:

وكَاتِبِينَ وما خَطَّتْ أَنَامِلُهم حرفاً ولا قرؤوا ما خُطَّ في الكُتبِ

يعني: الخياطين، ومنه قيل للسير الذي تُشد به الرقعة في السقاء: كُتْبة، وقيل لنفس الرقعة كُتبة؛ لأنها تضم في السقاء يُرقع بها، ومنه قول غيلان بن عقبة ذي الرمة[٢]:

ما بالُ عينيك منها الماءُ يَنْسَكِبُ كأنَّهُ من كُلَى مَفْرِيَّةٍ سَرَبُ
وفْرَاءُ غَرْفِيَّة أَثأى خَوَارِزَهَا مُشَلْشَلٌ ضَيَّعَتْهُ بينها الكُتَبُ

يعني: ماء يسيل ضيعته الرقع والسيور المشدودة بها الرقع في السقاء يسيل منها، شبَّه دمعه به. ومن تسمية الخياطين (كتَّابين) قول ابن دارة يهجو فزارة[٣]:

لا تأْمَنَنَّ فَزَارياً خَلوتَ به علىٰ قَلُوصِكَ واكْتُبها بأَسْيَارِ

يعني: خِط فرجها بأسيار لئلا يزني بها. هذا أصل معنىٰ الكتابة.

وجمهور العلماء علىٰ أن معنىٰ: ﴿فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۚ﴾ أي: في حكم الله الذي هو حكمه الذي استقر عليه أمره، أن الميراث بالرحم والقرابات لا بالهجرة والمؤاخاة، فهذا نسخ هذا كما هو الذي عليه جمهور العلماء ﴿فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ﴾ [الأنفال: الآية ٧٥].

اختلف العلماء في المراد بـ ﴿وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ﴾ في هذه الآية[٤]،

---

(١) تقدم هذا الشاهد عند تفسير الآية (٣٨) من سورة الأنعام.

(٢) تقدم هذا الشاهد في الموضع السابق.

(٣) تقدم هذا الشاهد في الموضع السابق.

(٤) انظر: ابن جرير (١٤/٩٠)، القرطبي (٨/٨)، المغني (٩/٨٢)، ابن كثير (٢/٣٣٠)، الأضواء (٢/٤١٨).

فذهب جماعة من العلماء إلىٰ أن المراد بأولي الأرحام هم خصوص الذين أعطاهم الله مواريث من عصبات، أو أصحاب فروض، وأن هذه الآية بيّنتها آيات المواريث، وأن من لم يبيّن الله له نصيباً في كتابه لا شيء له ولا يدخل في هذا، وهذا قال به جماعة من العلماء، وممن ذهب إليه: مالك والشافعي (رحمهم الله)، قالوا: لا ميراث إلا لمن سمّىٰ الله له شيئاً، والمراد بـ (أولوا الأرحام) هذا مجمل بيّنته آيات المواريث، فلا ميراث لمن لم يجعل الله له سهماً. ومن أصرح أدلتهم في هذا حديث: **«إن الله أعطىٰ كل ذي حق حقه فلا وصية لوارث»**[1]

---

(١) روىٰ هذا الحديث جماعة من الصحابة (رضي الله عنهم)، ومنهم:

١ ـ أبو أمامة (رضي الله عنه)، عند أحمد (٥/٢٦٧) وأبي داود في الوصايا، باب: ما جاء في الوصية للوارث. حديث رقم: (٢٨٥٣) (٨/٧٢)، والترمذي في الوصايا، باب: ما جاء: «لا وصية لوارث». حديث رقم: (٢١٢٠) (٤/٤٣٣)، وابن ماجه في الوصايا، باب: لا وصية لوارث. حديث رقم: (٢٧١٣) (٢/٩٠٥). والبيهقي (٦/٢٦٤)، والطيالسي (١١٢٧).

وانظر: التلخيص (٣/٩٢) وحسّن الحافظ إسناده، ونصب الراية (٤/٤٠٣)، والإرواء، (٦/٨٨).

٢ ـ عمرو بن خارجة (رضي الله عنه)، عند أحمد (٤/١٨٦، ١٨٧، ٢٣٨ ـ ٢٣٩)، والدارمي (٢/٣٠٢) والترمذي في الوصايا، باب ما جاء: «لا وصية لوارث». حديث رقم: (٢١٢١) (٤/٤٣٤) وابن ماجه في الوصايا، باب: لا وصية لوارث. حديث رقم: (٢٧١٢) (٢/٩٠٥)، والبيهقي (٦/٢٦٤)، والطيالسي (١٢١٧)، والدارقطني (٤/١٥٢).

وانظر: التلخيص (٣/٩٢)، نصب الراية (٤/٤٠٣)، الإرواء (٦/٨٨).

٣ ـ أنس بن مالك (رضي الله عنه)، عند ابن ماجه في الوصايا، باب لا وصية لوارث، ،حديث رقم: (٢٧١٤) (٢/٩٠٦)، والبيهقي (٦/٢٦٤)، وابن عدي في الكامل (٤/١٥٧٥).

وانظر: التلخيص (٣/٩٢)، نصب الراية (٤/٤٠٤)، الإرواء (٦/٨٩).

٤ ـ ابن عباس (رضي الله عنهما) (بلفظ مقارب) عند البيهقي (٦/٢٦٣)، الدارقطني (٤/٩٧، ٩٨، ١٥٢)، وابن عدي في الكامل (١/٣٠٧)، (٤/١٥٧٠).

وانظر: التلخيص (٣/٩٢) (وحسن إسناده)، ونصب الراية (٤/٤٠٤)، الإرواء (٦/٨٩، ٩٦).

=

قالوا: هذا الحديث فيه كلام معروف، والتحقيق أنه لا يقل عن درجة الاحتجاج، بيّن النبي فيه أن الله أعطىٰ كل ذي حق حقه، قالوا: نص هذا الحديث علىٰ أنه ما بقي لصاحب حق حق أبداً إلا أعطاه الله إياه، فالذي لم يُسم له حق فليس له شيء، وهذا معروف، وممن ذهب إلىٰ هذا من الأئمة: مالك والشافعي.

وقالت جماعة آخرون: المراد بأولي الأرحام: من لا ميراث لهم بفرض ولا تعصيب، وأنهم يرثون من لا وارث له، واستدلوا بهذه الآية الكريمة وبأحاديث أُخر، منها ما هو ثابت في ميراث الخال، ومنها بعض جاء في ميراث العمة والخالة، والذين قالوا هذا قالوا: إن هؤلاء يصدق عليهم (أولوا الأرحام) بالوضع العربي، فلا يجوز إخراجهم منه، قالوا: ولأنهم من جملة المسلمين، وهم يزيدون بقرابة، ولو فرضنا أنه لبيت المال كان لخصوص المسلمين، فمن أدلىٰ بسببين وهما الإسلام

= ٥ - جابر بن عبد الله (رضي الله عنهما). عند الدارقطني (٩٧/٤)، وقال: «الصواب: مرسل» ا.هـ. وابن عدي في الكامل (٢٠٢/١). وانظر: التلخيص: (٩٢/٣)، نصب الراية (٤٠٤/٤)، الإرواء (٩٢/٦).

٦ - علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) (بلفظ مقارب) عند الدارقطني (٩٧/٤)، والبيهقي (٢٦٧/٦)، وابن عدي (٢٥١١/٧).

وانظر: التلخيص (وضعف إسناده) (٩٢/٣)، نصب الراية (٤٠٥/٤)، الإرواء (٩٤/٦).

٧ - عبدالله بن عمرو (رضي الله عنهما) عند الدارقطني (٩٨/٤)، وابن عدي (٨١٧/٢). وانظر: التلخيص (٩٢/٢)، نصب الراية (٤٠٤/٤)، الإرواء (٩١/٦، ٩٧).

٨ - معقل بن يسار (رضي الله عنه). عند ابن عدي (١٨٥٣/٥). وانظر: التلخيص (٩٨/٣).

٩ - زيد بن أرقم والبراء (رضي الله عنهما). عند ابن عدي (٢٣٤٩/٦). وانظر: نصب الراية (٤٠٥/٤).

١٠ - مجاهد (مرسلاً) عند البيهقي (٢٦٤/٦). وانظر: التلخيص (٩٢/٣).

١١ - جعفر بن محمد عن أبيه (مرسلاً) عند الدارقطني (١٥٢/٤).

والقرابة أولىٰ ممن يُدلي بسبب واحد وهو الإسلام. والذين قالوا هذا قالوا: إن المراد بأولي الأرحام من لا فرض لهم في كتاب الله وليسوا بعصبة، وهم أحد عشر حيّزاً معروفة عند العلماء، وممن قال بتوريث أولي الأرحام بهذا المعنىٰ: الإمام أبو حنيفة ـ رحمه الله ـ وأحمد بن حنبل ـ رحمهم الله ـ وجماعة كثيرة من الصحابة والتابعين وفقهاء الأمصار.

والذين قالوا بتوريث أولي الأرحام معروف أنهم اختلفوا في كيفية توريثهم اختلافاً متشعباً يرجع إلىٰ أمرين[1]:

أحدهما: قول من يقال لهم: أصحاب التنزيل.

والثاني: قول من يُسمون بأصحاب القرابات.

وأصحاب التنزيل: هم الذين مشىٰ علىٰ مذهبهم أحمد بن حنبل وأصحابه. وأصحاب القرابات: هم الذين مشىٰ عليهم أبو حنيفة وأصحابه، والذين قالوا بالتنزيل قالوا: إن كل واحد من أولي الأرحام يُنَزَّل منزلة من يدلي به، فيُعطىٰ ميراث من يُدلي به، فإذا كان واحداً أخذ جميع المال، وإذا كانوا جماعة وكانوا نازلين قُرّبُوا درجة درجة ثم نُظر جميع من يُدلون به وعُرف ميراث كل واحد منهم فأُعطي كل واحد منهم نصيب من يدلي به، وهذا معروف، وهو مشهور مذهب الإمام أحمد.

وأما أصحاب القرابات الذين ذهب إلىٰ مذهبهم أبو حنيفة (رحمه الله) فهم يعملون بالأقرب فالأقرب، قالوا: ما دام أبو الإنسان يوجد شيء من أولاده كأولاد بناته وأبناء بناتهم ونحو ذلك لا يُعطى شيء يُدلي بجده ويعطى بنو جد دِنْيَه قبل الجد الذي فوقه وهكذا،

---

(١) انظر: المغني (٩/٨٥)، الأضواء (٢/٤٢٤).

ولم يزل يُعطى من يدلي بمن هو أقرب ثم من هو أقرب حتىٰ ينتهي الأمر في ذلك. وتفاصيل مذاهبهم معروفة في فروعهم ـ رحم الله الجميع ـ.





تفسير سورة التوبة

١/أ / يقول الله (جل وعلا): ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١ فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٢ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٣ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ۝٤﴾ [التوبة: الآيات ١ ـ ٤].

نزلت هذه السورة الكريمة عام تسع، رجوع النبي ﷺ من غزوة تبوك، وكان بعض الصحابة يقول: آخر سورة نزلت بتمامها من القرآن براءة[(١)].

واعلم أن الصحابة (رضي الله عنهم) لم يكتبوا في المصاحف العثمانية سطر ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ قبل هذه السورة الكريمة، مع أنهم كتبوه في كل سورة من سور القرآن غير سورة التوبة هذه، والعلماء لهم أقوال معروفة في سبب [عدم][(٢)] كتب ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾[(٣)].

قال بعض العلماء: كانت سورة براءة طويلة قدر سورة البقرة،

---

(١) البخاري عن البراء (رضي الله عنه)، كتاب التفسير، باب ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ...﴾ حديث رقم: (٤٦٥٤) (٨/٣١٦).

(٢) ما بين المعقوفين [ ] زيادة يقتضيها السياق.

(٣) انظر: القرطبي (٨/٦١)، ابن كثير (٢/٣٣١)، الأضواء (٢/٤٢٦).

فنسخ الله أولها، فلما سقط أولها وكانت فيه البسملة سقطت البسملة مع المنسوخ الساقط منها.

وقال بعض العلماء: البسملة رحمة وأمان، وبراءة نزلت بالسيف والقتال ونقض العهود؛ فلذا لم تكتب فيها ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾.

وقال بعض العلماء: لما أرادوا كتب المصاحف العثمانية اختلفوا في براءة، فقال بعضهم: هي والأنفال سورة واحدة، وقال بعضهم: كلتاهما سورة مستقلة، فلما اختلفوا جعلوا بياضاً بين السورتين ليدل على قول من قال: إنهما سورتان، وتركوا سطر ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ ليدل على قول من قال: هما سورة واحدة، فرضي الفريقان، وقامت حجة كل منهما في المصحف الكريم.

وأظهر الأقوال هو ما رُوي عن عثمان بن عفان (رضي الله عنه) رواه بعض أصحاب السنن وغيرهم عن ابن عباس (رضي الله عنهما) أنه قال: سألت عثمان بن عفان (رضي الله عنه) لمَ عمدتم إلى الأنفال وهي من المثاني، وإلى براءة وهي من المئين فقرنتم بينهما ولم تكتبوا بينهما سطر ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ وجعلتموها في السبع الطوال؟!!

فأجابه عثمان (رضي الله عنه) بما معناه: أن النبي ﷺ كان ينزل عليه القرآن، تنزل عليه السور والآيات ذوات العدد فيأمر بعض من يكتب له ويقول: ضعوا هذا في السورة التي يُذكر فيها كذا، وضعوا كذا في محل كذا، وكانت [«الأنفال من أوائل ما أُنزل بالمدينة» وبراءة من آخر القرآن، فكانت قصتها شبيهةً بقصتها، فقُبض رسول الله ﷺ ولم يبيّن لنا أنها منها، وظننت أنها منها..][1] كأنهما سورة واحدة، فمن ثم واليت بينهما وجعلت

(١) في هذا الموضع انقطع التسجيل، وما بين المعقوفين [ ] زيادة يتم بها الكلام نقلتها من بعض روايات الحديث.

بينهما فصلًا، ولم أكتب بينهما ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾[1].

وهذه السورة الكريمة نزلت عام تسع [وكان النبي ﷺ قد بعث أبا بكر (رضي الله عنه) ليقيم للناس الحج][2] وأرسل في أثره علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) على ناقته العضباء، وأمره أن يكون هو المتولي للأذان ببراءة في موسم الحج، وأن يقول للناس: لا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان. فكان علي بن أبي طالب ذهب في أثر أبي بكر فأدركه، قال بعض العلماء: أدركه بالجحفة، فقال له: أأمير أم مأمور؟ فقال: بل مأمور. وأخبره أن النبي ﷺ أرسله بصدر هذه السورة الكريمة يُنادي به في الموسم[3] - في موسم الحج - عام تسع من الهجرة،

---

(١) أخرجه أحمد (٥٧/١، ٦٩)، وأبو عبيد في فضائل القرآن (١٠٠/٢)، وفي غريب الحديث (١٤٧/٣ - ١٤٨)، (١٠٤/٤) وأبو داود في الصلاة، باب من جهر بها. رقم: (٧٧١) (٤٩٥/٢)، والترمذي في التفسير، باب ومن سورة براءة. رقم: (٣٠٨٦) (٢٧٢/٥)، وابن حبان (الإحسان ١٢٦/١)، والحاكم (٢٢١/٢، ٣٣٠)، والبيهقي في الكبرى (٤٢/٢)، والدلائل (١٥٣/٧)، وابن أبي داود في المصاحف ص٣٩، وابن جرير (١٠٢/١)، والطحاوي في شرح المعاني (٢٠١/١ - ٢٠٢)، وفي مشكل الآثار (٣٨/١)، (١٥١/٢ - ١٥٦)، والنحاس في الناسخ والمنسوخ (٣٩٦/٢)، وأورده السيوطي في الدر (٢٠٧/٣) وعزاه لابن أبي شيبة والنسائي وابن المنذر وأبي الشيخ وابن مردويه. وضعفه أحمد شاكر في تعليقه على: المسند (٣٢٩/١)، ابن جرير (١٠٢/١).

(٢) في هذا الموضع انقطع التسجيل، وما بين المعقوفين [ ] زيادة يتم بها الكلام.

(٣) بعث النبي ﷺ علياً (رضي الله عنه) في حجة أبي بكر (رضي الله عنه). رواه جماعة من الصحابة منهم:

١ - أبو هريرة (رضي الله عنه)، عند البخاري في الصلاة، باب ما يستر من العورة. حديث رقم: (٣٦٩) (٤٧٧/١) وأطرافه (١٦٢٢، ٣١٧٧، ٤٣٦٣، ٤٦٥٥، ٤٦٥٦، ٤٦٥٧)، ومسلم (من غير ذكر علي رضي الله عنه) في الحج، باب: لا يحج البيت مشرك.. حديث رقم (١٣٤٧) (٩٨٢/٢).

٢ - أنس (رضي الله عنه)، عند الترمذي في التفسير، باب: ومن سورة براءة. حديث رقم (٣٠٩٠) (٢٧٥/٥).

٣ - ابن عباس (رضي الله عنه)، عند الترمذي في التفسير، باب: (ومن سورة براءة) حديث رقم (٣٠٩١) (٢٧٥/٥) وانظر: الإرواء (٣٠٣/٤).

=

فكان أبو بكر هو أمير الحج الذي يُقيم للناس حجهم، وكان علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) يؤذن في الناس بأول هذه السورة الكريمة، بعضهم يقول: بأربعين آية منها. وبعضهم ينقص، وبعضهم يزيد، والروايات متفقة على أنه أرسله بهذه السورة الكريمة، بشيء منها يؤذن بها في المواسم.

ومضمون ما كان يؤذن به علي (رضي الله عنه) راجع إلى أربع جمل: إحداها: أن لا يحج بعد العام مشركٌ، ولا يطوف بالبيت عريان، ولا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة، ومن كان له عهد فعهده إلى مدته.

وكان يؤذن في الناس بهذا. فعلم الكفار أنه لا عهود بينهم وبين النبي ﷺ، ومن العام القابل وهو عام عشر لم يحج البيت كافر، ولم يطف بعدها عريان، فحجّ النبي ﷺ.

ومعنىٰ قوله: ﴿بَرَآءَةٌ﴾ البراءة مصدر كالشناءة والدناءة. وإعرابه[1] قال بعض العلماء: هو مبتدأ خبره محذوف، أي: هذه براءة من الله ورسوله.

وقال بعض العلماء: لا مانع من كون قوله: ﴿بَرَآءَةٌ﴾ مبتدأ، وسوّغ الابتداء بالنكرة لأنها وُصفت بقوله: ﴿مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ﴾ كما قال[2]:

.... ورَجُـلٌ مِـنَ الـكِـرَامِ عِـنـدَنَـا

= ٤ ـ زيد بن أُثَيع أنه سأل علياً (رضي الله عنه)... عند أحمد (٧٩/١)، والدارمي (٣٩٤/١)، والحميدي (٤٨) والترمذي في التفسير. باب (ومن سورة براءة) حديث رقم: (٣٠٩٢) (٢٧٦/٥) وانظر الإرواء (٣٠١/٤).

وأخرجه أحمد (٣/١) عن زيد بن أُثَيع عن أبي بكر (رضي الله عنه).

٥ ـ جابر (رضي الله عنه)، عند النسائي في الحج، باب الخطبة يوم التروية. حديث رقم: (٢٩٩٣) (٢٤٧/٥).

(١) انظر: ابن جرير (٩٥/١٤)، الدر المصون (٥/٦).

(٢) هذا هو الشطر الثاني من أحد أبيات الخلاصة ص١٧، وشطره الأول:

«وهـل فـتـى فـيـكـم فـمـا خـل لـنـا» ....

وأن قوله: ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم﴾ خبر المبتدأ، والوجهان من الإعراب كلاهما صحيح، والمعنى: هذه براءة من الله. أو براءة من الله واصلة إلى الذين عاهدتم من المشركين. ولفظة (من) في قوله: ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ هي المعروفة بابتداء الغاية، أي: ابتداء هذه الغاية ومنشؤها كائن من الله. ومعنى براءة الله منهم: أنه (جلّ وعلا) برئت ذمته من عهودهم فلا يلتزم لهم عهداً ولا ذمة؛ لأنهم نقضوا العهود أو كادوا.

واعلم أن النبي ﷺ لما غزا غزوة تبوك كان المنافقون يرجفون أراجيف كثيرة، فسمع بها الكفار فأرادوا نقض العهود وتغيروا؛ لأن النبي ﷺ كانت بينه وبين بعض القبائل عهود ومواثيق، مصالحات ومهادنات، فلما سمع الكفار بأراجيف المنافقين نقض بعضهم، وبعضهم خيف منه النقض، فأنزل الله براءته من جميع الكفار إلا ما سيأتي استثناؤه إن شاء الله.

واعلم أن الكفار أقسام[١]: منهم من كان له عهد مؤجل بأجل، وهؤلاء قسمان: من عهده أقل من أربعة أشهر، ومن عهده أكثر من أربعة أشهر، ومنهم من لا عهد له أصلًا، ومن له عهد مطلق لم يقيد بزمن معين، فهذه فرق الكفار، وهذه الآية تضمنت نقض العهود في هذه كلها إلا في صورة واحدة على التحقيق.

أما من كان له عهد إلى مدة أقل من أربعة أشهر فالتحقيق عند جمهور العلماء أنه يرفع عهده إلى أربعة أشهر ثم بعد الأربعة أشهر هو حرب للّه ولرسوله، ومن كان له عهد مطلق فله أربعة أشهر يسيح فيها ويذهب في الأرض مقبلًا ومدبراً آمناً، ثم بعد انتهاء تلك الأربعة الأشهر هو حرب للّه ولرسوله.

ومن لم يكن عنده عهد أصلًا فقال بعض العلماء: له هذه الأربعة الأشهر. وهذا أظهر القولين، بناء على أن قوله: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ﴾ [التوبة: آية ٥] أنها أشهر الإمهال هذه الأربعة، لا الأشهر الحرم الأربعة.

---

(١) انظر: ابن جرير (١٤/٩٦)، القرطبي (٨/٦٤)، الأضواء (٢/٤٢٨).

وقال بعض العلماء: هي الأشهر الحرم الأربعة، وعلى ذلك لم يبق من عهده إلا خمسون يوماً، عشرون من ذي الحجة، والشهر الذي بعده الذي هو المحرم، فتنقضي عهودهم على خمسين يوماً على هذا القول.

فقوله: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ هذه البراءة كائنة من الله ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم﴾ يعني النبي وأصحابه. وإنما خاطبهم جميعاً وإن كان النبي ﷺ هو الذي يتولى عقد العهود لأنهم أتباعه وأعوانه، وهم معه في كل شيء من حَلّ وعقد، فكل حَلّ وعقد فعله النبي ﷺ فهم أصحابه وأعوانه وأتباعه، فهم معه فيه؛ ولذا قال: ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ الكفار الذين يعبدون الأصنام ويشركون بالله (جل وعلا).

والتحقيق: أن هذه ما نزلت إلا في غزوة تبوك، وما زعمه ابن إسحاق ومقاتل وغيرهما من أن صدر هذه السورة نزل قبل عام الفتح، بعد نقض قريش وبني بكر لمعاهدة صلح الحديبية؛ فهو خلاف الظاهر، مع أنه قال به ابن إسحاق ومقاتل وغيرهما[1]. قالوا: كان أول هذه السورة نزل قبل هذا؛ لأن النبي ﷺ لما عقد صلح الحديبية بينه وبين كفار قريش بواسطة سهيل بن عمرو العامري (رضي الله عنه) كان خزاعة دخلوا في حلف النبي ﷺ، ودخلت بنو بكر في حلف قريش، وكان ذلك الصلح دخلت فيه قبائل من بني كنانة منهم بنو الديل ابن بكر بن عبد مناة بن كنانة، وبنو جذيمة بن عامر بن عبد مناة بن كنانة، وبنو مدلج بن بكر بن كنانة، وبنو ضمرة بن بكر بن كنانة، فهي أربع قبائل من كنانة دخلوا في ذلك الصلح مع النبي ﷺ، وكان قبل ذلك بين كنانة وخزاعة دم، وكان الدم في خصوص بني الديل بن بكر بن عبد مناة بن كنانة من قبائل كنانة، فانتهزوا الفرصة وعدوا على خزاعة، وأعانهم قريش على خزاعة الإعانة المشهورة التي هي سبب غزوة الفتح؛ لأن بني الديل بن بكر بن عبد مناة بن كنانة لما عدوا على خزاعة ونقضوا عهد

(١) انظر: القرطبي (٨/٦٤ ـ ٦٥).

النبي ﷺ وصلحه الذي أبرمه معهم في الحديبية، وأعانتهم قريش على ذلك بالسلاح، بل بعض رجال قريش دخل معهم في قتالهم، كما قاله بعض العلماء، وأرسل خزاعة عمرو بن سالم (رضي الله عنه) إلى النبي ﷺ بالمدينة يستنصره، وجاءه هنا في المدينة ـ حرسها الله ـ وأنشده رجزه المشهور[١]:

يا رَبِّ إني ناشدٌ محمداً ... حِلْفَ أبينا وأبيهِ الأَتْلَدَا
كنتَ لنا أباً وكنَّا ولداً[٢] ... ثُمَّتَ أسلمنا ولم ننزعْ يدا
إن قريشاً أخلفوكَ الموعِدَا ... ونقضُوا ميثاقَكَ المؤكدا
وزعموا أن لست تنجي أحداً ... وهم أذلُّ وأقلُّ عددا
فادعُ عبادَ الله يأتوا مَددا ... فيهم رسولُ الله قد تَجَرَّدا
أبيض مثل الشمس يجري صُعداً ... في فَيْلَقٍ كالبحرِ يجري مُزْبدا
إن سِيمَ خسفاً وجْهُهُ تربَّداً ... هم بَيَّتُونا بالوَتِيْرِ هُجَّدا
وقتلونا ركَّعاً وسُجَّداً ... فانصر هداكَ الله نصراً أَيِّدَا

فقال ﷺ: «**لا نُصرت إن لم أنصركم**»[٣].

وكان ذلك سبب غزوة [الفتح][٤]. هكذا قالوا إن هذا هو الذي جاءت فيه هذه الآيات، وأن قريشاً وبنو الديل من بني بكر بن كنانة نقضوا وبقيت قبائل كنانة الآخرين، وهم: بنو جذيمة بن عامر بن عبد مناة، وبنو مدلج، وبنو ضمرة لم ينقضوا العهود كما سيأتي في قوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا﴾ [التوبة: آية ٧] هكذا قالوا أنها نزلت قبل غزوة الفتح.

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٨) من سورة الأنفال، ووقع فيها هنا تقديم وتأخير كما وقع في الموضع السابق. وقد أثبتنا نص الأبيات هناك في الهامش فليراجع. وانظر: القرطبي (٦٥/٨).

(٢) في ابن هشام (١٢٣٥): «قد كنتم وُلْداً وكنا والداً».

(٣) مضى عند تفسير الآية (٥٨) من سورة الأنفال.

(٤) في الأصل: «بدر» وهو سبق لسان.

والتحقيق أنها ما نزلت إلا بعد غزوة تبوك، وأرسل النبي بها أبا بكر (رضي الله عنه) ينادي في الناس بها، ثم أتبعه علي بن أبي طالب (رضي الله عنه).

ومعنى الآية الكريمة: هذه براءة من الله، أو براءة من الله إلى الذين عاهدتم من المشركين جميعاً. يعني: من كان له منهم عهد أقل من أربعة أشهر، ومن لا عهد له أصلًا، ومن كان له عهد مطلق، ومن له عهد مؤقت إلا أنه خيف منه أن ينقض؛ لأن المُعاهَد من المشركين إذا خيف منه النقض وظهرت منه علامات ذلك وبوادره وجب إعلامه بنبذ العهد إليه ونقض عهده، كما قدمناه في سورة الأنفال في قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾ [الأنفال: آية ٥٨] فعرفنا أن قوله: ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: آية ١] صادق بمن لهم عهد غير مؤقت، وعهد مؤقت بأقل من أربعة أشهر، وعهد مؤقت بأكثر منها إن خيفت منهم الخيانة، بقي قسم واحد هو الآتي استثناؤه مرتين وهو من كان له عهد مؤقت معين محدد بوقت معين أكثر من أربعة أشهر، وهو ثابت على عهده لم ينقض ولم يُخف منه نقض لثبوته على عهده، فهؤلاء باقون على عهدهم على التحقيق الذي لا شك فيه. وما قاله بعض العلماء من نقض عهودهم جميعاً؛ خلاف التحقيق؛ لأن الله يقول: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَـٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ﴾ [التوبة: آية ٤] ويقول: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ فَمَا ٱسْتَقَـٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ﴾ [التوبة: آية ٧] كما سيأتي إيضاحه؛ لأن المراد بالذين عاهدوه عند المسجد الحرام عند الحديبية وأُطلق عليها: «المسجد الحرام» قال بعض العلماء: لأن بعضها الذي وقعت فيه المعاهدة كان من الحرم، والمسجد يطلق غالباً على جميع الحرم، وسيأتي هناك - إن شاء الله - أن هؤلاء الذين عاهدوا دخل فيهم قبائل من كنانة مع قريش، وأن الذي غدر: بنو الديل من كنانة فقط وقريش، وبقية قبائل كنانة الأخرى

ثابتة على عهدها. وهذا معنى قوله: ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: آية ١].

ثم هنا التفات من الغيبة إلى الخطاب، أي فقولوا للذين عاهدتم من المشركين: سيحوا في الأرض أربعة أشهر (سيحوا في الأرض) معناه: اذهبوا في أرض الله مقبلين ومدبرين حيث ما أردتم، وأين أحببتم أن تتوجهوا، آمنين لا خوف عليكم، لا ينالكم منا سوء؛ لأنها أشهر أمان وإمهال لا ينالكم منا فيها سوء.

والحكمة في أن الله (جل وعلا) أجّلهم هذه الأشهر الأربعة ليروا رأيهم، ويتأملوا في شأنهم لعل الله أن يهديهم إلى صوابهم. وهذا معنى قوله: ﴿فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: اذهبوا في جوانب أرض الله مقبلين ومدبرين آمنين، لا خوف عليكم في مدة هذه الأشهر الأربعة.

ثم قال: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟﴾ أي: أيقنوا علماً يقيناً لا يتطرق إليه الشك ﴿أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ﴾ ﴿مُعْجِزِى﴾ أصله: معجزين بالنون، فحذفت النون للإضافة. والمعجزون جمع المعجز، وهو اسم فاعل (أعجزه) العرب تقول: «أعجزه يُعجزه» إذا صار غير قادر عليه. أنكم لا تفوتونه ولا تتعذرون عليه، بل أنتم في قبضته وتحت سلطانه وقهره، هو قادر عليكم واعلموا أيضاً ﴿أَنَّ ٱللَّهَ﴾ جل وعلا ﴿مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [التوبة: آية ٢] المخزي: اسم فاعل أخزى، ومعنى إخزائه للكافرين: أنه مذلهم ومهينهم، يذلهم في الدنيا بالقتل والأسر، ويهينهم بذلك وفي الآخرة بعذاب الله، كما سيأتي في قوله: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾﴾ الآية [التوبة: آية ١٤] وهذا معنى قوله: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [التوبة: آية ٢].

ثم قال تعالى: ﴿وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ﴾ ﴿وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ﴾ جملة معطوفة على جملة؛ لأن جملة: ﴿وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ﴾ [التوبة: آية ٣] معطوفة على قوله: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾﴾ [التوبة: آية ١] ويجوز في قوله: ﴿وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ من الإعراب الوجهان الجائزان في

(براءة)[١] يجوز أن يكون (أذان) خبر مبتدأ محذوف، أي: هذا أذان من الله. ويجوز أن يكون (أذان) مبتدأ سوغ الابتداء فيه بالنكرة كونها وُصفت بقوله: ﴿مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ﴾.

والأذان معناه: الإعلام، وهو اسم مصدر (أذَّن) (يؤذِّن) (أذاناً)، (وآذن) (يوذن) (أذاناً) والعرب ربما جعلت (الفَعَال) قائماً مقام «التفعيل»؛ لأن العرب تقول: آذنته أعلمته، وأذّنت أعلمت. ومعروف في علم التصريف أن (فعّل) بالتضعيف ينقاس مصدرها على (التفعيل)، ولكنه يُسمع كثيراً إتيان المصدر منها على (الفَعَال) كما قالوا: سلَّم عليه سلاماً، أي: تسليماً. وكلَّمه كلاماً، أي: تكليماً. وطلَّقها طلاقاً، وبيَّنه بياناً. إلى غير ذلك من الأوزان. وكذلك ربما جاء (الفَعَال) في موضع (الإفعال) كقول العرب: آمنته أُوْمِنُه إيماناً. إذا جعلته في أمان. فإنهم يقولون: آمنه أماناً، وآذنه أذاناً، أي: أعلمه إعلاماً. والأذان في لغة العرب: الإعلام. قال بعض العلماء: هو الإعلام المقترن بنداء؛ لأن اشتقاقه من الأُذن؛ لأن النداء يقع في الأذن فيحصل بذلك الفهم والإعلام، ومنه الأذان للصلاة؛ لأنه إعلام بها بنداء. وكون الأذان بمعنى الإعلام معنى معروف في كلام العرب، ومنه قول الحارث بن حلِّزة[٢]:

آذَنَتْنَا بِبَيْنِهَا أَسْمَاءُ رُبَّ ثَاوٍ يُمَلُّ مِنْهُ الثَّوَاءُ

يعني أعلمتنا ببينها.

﴿وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ هذا الأذان كائن مبدؤه من الله ورسوله ﴿إِلَى﴾ جميع ﴿ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ﴾ [التوبة: آية ٣] أصل الحج في لغة العرب جرى على ألسنة العلماء أنهم يقولون: الحج في اللغة القصد[٣]. والحج في لغة

---

(١) انظر: الدر المصون (٦/٦).

(٢) مضى عند تفسير الآية (١٢٨) من سورة الأنعام.

(٣) انظر: القاموس (مادة: الحج) ٢٣٤، المفردات (مادة: حج) ٢١٨، المصباح المنير (مادة: حج) ص٤٧.

العرب أخص من مطلق القصد؛ لأن الحج في اللغة لا يكاد تطلقه العرب إلا على قصد متكرر لأهمية في المقصود. فكل حج قصد، وليس كل قصد حجاً؛ لأن الحج هو القصد المتكرر لأجل الأهمية الكائنة في المقصود. وهذا المعنى معروف في كلام العرب، ومنه قول المخبَّل السعدي حيث قال[1]:

أَلَمْ تَعْلَمِي يا أُمَّ أسعد أنما ... تَخَطَّاني رَيْبُ المنون لأَكْبَرا
وأشهدُ من عوفٍ حُلُولاً كثيرةً ... يحجُون سِبَّ الزِّبْرِقَان المُزَعْفَرا

«سِبَّه» يعني به عمامته، أي: يقصدون عمامته ـ عبر بها عن شخصه ـ قصداً كثيراً متكرراً لأهمية ما يرونه عنده من النوال هذا أصل الحج.

ومعروف أن الحج في اصطلاح الشرع[2]: هو الأفعال والأقوال التي تقال في المنسك المعروف.

قال بعض العلماء: وإنما قال له الأكبر؛ لأن العرب ربما كانوا يقولون: حج أصغر، وحج أكبر، يعنون بالأصغر: العمرة لنقصان أعمالها عن أعمال الحج[3].

واختلف العلماء في يوم الحج الأكبر[4] فذهبت جماعة من العلماء إلى

---

(١) البيتان في المشوف المعلم (٢٣١/١)، ولفظ البيت الأول فيه:
ألم تعلمي يا أم عمرة أنني ... تخطاني ريب الزمان لأكبرا

(٢) انظر: القاموس الفقهي ص(٧٦ ـ ٧٧).

(٣) انظر: التمهيد (١٢٥/١)، ابن جرير (١٢٩/١٤)، وابن أبي حاتم (١٧٤٧/٦)، والبغوي (٢٦٨/٢)، وابن عطية (١٢٨/٨)، والمجموع (٢٢٣/٨)، وابن كثير (٣٣٢/٢)، والدر المنثور (٢١١/٣)، حصول الأجر في أحكام وفضل العمل في أيام العشر ص١٢٢.

(٤) انظر: سنن سعيد بن منصور (٢٣٦/٥ ـ ٢٤١)، التمهيد (١٢٥/١)، ابن جرير (١١٣/١٤)، القرطبي (٦٩/٨)، المجموع (٢٢٣/٨)، تفسير البغوي (٢٦٨/٢)، تفسير ابن عطية (١٢٧/٨)، تهذيب السنن لابن القيم (٤٠٦/٢)، زاد المعاد (٥٤/١)، تفسير ابن كثير (٣٣٢/٢ ـ ٣٣٥)، فتح الباري (٣٢١/٨)، الدر المنثور (٢١١/٣)، حصول الأجر في أحكام وفضل العمل في أيام العشر ص١١٦.

أن المراد به يوم عرفة. وعليه فمبدأ النداء بالأربعة الأشهر كائن ابتداء تأجيله من يوم عرفة. وقالت جماعة آخرون: هو يوم النحر. وخلاف العلماء في يوم الحج الأكبر هل هو يوم عرفة أو يوم النحر مشهور معروف، وكان بعض المحققين يختار أنه يوم النحر لأمور، منها: أنه جاءت بذلك روايات صحيحة، كرواية أبي هريرة في صحيح البخاري[1]. وقالوا: ولأن أكثر أفعال الحج إنما تكون يوم النحر؛ لأنه هو اليوم الذي يطاف فيه طواف الإفاضة، وينحر فيه، ويحلق فيه، ويقضى فيه التفث، وأن يوم عرفة لا يختص بشيء خاص من مناسك الحج؛ لأن الوقوف وإن كان ركناً من أركان الحج فنفس اليوم لا يختص به عن الليلة لإجماع العلماء على أن من وقف بعرفة ليلة النحر أن ذلك يجزئه، بعضهم يقول: يلزمه دم لفوات النهار، وبعضهم يقول: حجه كامل ـ كمالك وأصحابه ـ ولا دم عليه. وقولهم: «الحج عرفة»، قالوا: لا يرد على هذا؛ لأن عرفة شامل لليل والنهار، فالوقوف الذي هو الركن الأعظم في الحج يكون في الليل، ولا يشترط أن يكون في النهار، والكلام في خصوص اليوم.

وقال بعض العلماء: يوم الحج الأكبر هو جميع أيام الحج؛ لأن العرب تقول: يوم صفين، ويوم الجمل، ويوم بُعَاث، وهو زمن يتناول أياماً معدودة متعددة، وأنه يشمل الجميع. وهذا أيضاً لا بأس به.

وجمهور العلماء على أن ابتداء تأجيل هذه الأشهر الأربعة هي من يوم النحر، وأن انقضاءها في العاشر من ربيع الثاني؛ لأن هذه الأشهر الأربعة عشرون منها من ذي الحجة من يوم الحج الأكبر، ثم منها المحرم كاملًا، وصفر كاملًا، وربيع الأول كاملًا، وعشر من ربيع الثاني، فتتم هنالك الأشهر الأربعة، وعلى هذا جماهير العلماء.

وقد اشتهر قول هنا عن الزهري لا شك في غلطه، وإن كان قائله جليلًا؛ لأنهم ذكروا عن الزهري (رحمه الله) أن أول هذه الأشهر الأربع أنه من ابتداء

---

(١) ولفظه: «بعثني أبو بكر في تلك الحجة في مؤذنين، بعثهم يوم النحر يؤذنون بمنى...» البخاري في التفسير، باب ﴿فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا ...﴾ حديث رقم: (٤٦٥٥) (٨/٣١٧).

شوال، وأنها شوال، وذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، وتنتهي بانتهاء المحرم[١]. وهذا لا يتمشى مع أن ابتداء الأذان صرح الله بأنه يوم الحج الأكبر. فالتحقيق هو ما قاله الجمهور لا ما قاله الزهري (رحمه الله)، إن صح عنه فهو غلط منه. وهذا معنى قوله: ﴿وَأَذَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ﴾ عامة ﴿يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ﴾ هذا الإعلام هو إعلام بأن الله بريء من المشركين، ورسوله بريء منهم أيضاً، فالله بريء من المشركين بريء من ذمتهم وعهدهم، لا عهد لهم عليه يأمر به، ولم يلتزم لهم بشيء، وكذلك رسوله ﷺ.

ثم قال لهم: ﴿فَإِن تُبْتُمْ﴾ عن ذنوبكم وكفركم وشرككم ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ وصيغة التفضيل هنا ليست على بابها؛ لأن الكفر بالله لا خير فيه أصلًا، فلا معنى للتفضيل فيه ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ أي: ثبتم على كفركم وما أنتم عليه من الشرك.

﴿فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ﴾ فسرناه الآن.

﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ اعلم أن التحقيق أن (البشارة) في لغة العرب هي الإخبار بما يسر، والإخبار بما يسوء أيضاً. فمن أخبرته بما يسره فقد بشرته، ومن أخبرته بما يسوؤه فقد بشرته[٢]؛ ولذا قال: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: آية ٢١] والقرآن في غاية الفصاحة والإعجاز، وإطلاق البشارة على الإخبار بما يسر معنى معروف في كلام العرب، ومنه قول الشاعر[٣]:

أبشرتني يا سعدُ أنَّ أحبتي ... جَفُوني وقالوا الودُّ موعدُه الحشْرُ

وقول الثاني[٤]:

---

(١) أخرجه ابن جرير (١٤/١٠١)، وابن أبي حاتم (٦/١٧٤٧)، والنحاس في الناسخ والمنسوخ (٢/٤١٢)، وذكره السيوطي في الدر (٣/٢١١) وعزاه لعبدالرزاق وابن أبي حاتم.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٤٨) من سورة الأنعام.

(٣) السابق.

(٤) السابق.

يُبَشِّرني الغرابُ ببينِ أَهْلي فقلتُ له ثَكِلْتُكَ من بشيرِ

هذا هو التحقيق أنها أساليب عربية، وأن البشارة تغلب للإخبار بما يسر، وأنها تطلق على الإخبار بما يسوء، هذا هو الظاهر، ومعلوم أن علماء البلاغة يقولون: إن البشارة حقيقة في الإخبار بما يسر، وأما البشارة بما يسوء فهي مما يسمونه الاستعارة (العنادية) المعروفة عندهم، وهي منقسمة إلى تهكمية وتمليحية كما هو معروف مقرر في علم البيان عند أهله[١].

ونحن نقول دائماً: إن مثل هذا أساليب عربية نطقت بها العرب، وكلها أسلوب عربي فصيح في محله، وهذا معنى قوله: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ﴾ [آل عمران: آية ٢١] الظاهر أن تنكير العذاب هنا للتفخيم والتعظيم، ومن المعاني التي يستجلب لها التنكير: التفخيم والتعظيم، ويدل على هذا قوله: ﴿أَلِيمٌ﴾ والأليم: (فَعِيْل) بمعنى (مُفْعِل) أي: مؤلم. واعلم أن إتيان (الفعيل) بمعنى (المُفْعِل) واقع في القرآن وفي كلام العرب، فما ذكروا عن الأصمعي أن (الفعيل) لا يكون في اللغة بمعنى (المُفعل) فهو خلاف التحقيق[٢]. فمعنى أليم: مؤلم، أي: شديد الألم، وإتيان (الفعيل) بمعنى: (المُفْعِلْ) أسلوب عربي معروف يكثر في كتاب الله وفي لغة العرب، ومن إتيانه في القرآن قوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [سبأ: آية ٤٦] وقوله: ﴿نَذِيرٌ﴾ أي: منذر فهو (فعيل) بمعنى (مُفْعِل) ﴿أَلِيمٍ﴾. بمعنى مُؤلم. وقوله: ضرب وجيع. بمعنى: موجع، وهذا معنى معروف في كلام العرب، وله أمثلة في القرآن كقوله: ﴿بَدِيعُ السَّمَٰوَٰتِ﴾ [البقرة: آية ١١٧] أي: مبدعهما ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ﴾ أي: منذر، ومن نظائره من كلام العرب قول غيلان بن عقبة ذي الرمة[٣]:

ويرفع من صدر شَمَرْدَلاتٍ يصُكُّ وجوهها وهَجٌ أليم

(١) مضى عند تفسير الآية (٤٨) من سورة الأنعام.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٧٣) من سورة الأعراف.

(٣) السابق.

وقول عمرو بن معد يكرب الزبيدي (رضي الله عنه)[١]:

أَمِنْ ريحانةِ الداعي السَّميعِ يُؤرِّقُني وأَصْحابِيْ هُجُوعُ

فقوله: «السميع» يعني: المسمع. وقوله في قصيدته هذه[٢]:

وخيلٍ قد دلفتُ لها بخيلٍ تحيةُ بينهم ضربٌ وجيعُ

أي: ضرب موجع. وهذا معنى قوله: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة: آية ٣].

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: آية ٤].

قوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ﴾ استثناء من قوله: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١ فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ [التوبة: الآيتان ١، ٢] هذه البراءة والتأجيل بخصوص أربعة أشهر لجميع الكفار المعاهدين وغيرهم ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم﴾ [التوبة: آية ٤] ثم وفوا لكم بالعهود ولم ينقصوكم شيئاً، وكان بعض العلماء يقولون[٣]: هؤلاء أهل مكة، ومعلوم أن أهل مكة نقضوا. والتحقيق أنها في قبائل من كنانة بقوا على عهدهم ولم ينكثوا فأُمر النبي ﷺ بأن يفي لهم بعهدهم حتى تنتهي مدتهم، ومعلوم أن صلح الحديبية قد عاهد النبي فيه قبائل من كنانة، ذكرنا أن منهم بني الديل بن بكر بن عبد مناة بن كنانة، وبني ضمرة، وبني مدلج، وبني جذيمة بن عامر، وقد قدمنا في تفسير سورة النساء في الكلام على قوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ۖ وَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ۝٨٩ إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ﴾ [النساء: الآيتان ٨٩، ٩٠] إن هؤلاء القوم الذين بينكم وبينهم ميثاق الذين شرطوا أن من وصل إليهم

(١) مضى عند تفسير الآية (٧٣) من سورة الأعراف.

(٢) السابق.

(٣) انظر: ابن جرير (١٣٣/١٤).

فحكمه كحكمهم، منهم هلال بن عويمر الأسلمي، وسراقة بن مالك بن جعشم حيث عقد العهد لبني مدلج مع النبي ﷺ، وبنو جذيمة بن عامر بن عبد مناة بن كنانة، فهؤلاء القبائل كانت أربع قبائل من كنانة، وكان غيرهم عقد ذلك، كبني أسلم عقد لهم الصلح هلال بن عويمر الأسلمي، فهؤلاء لم ينقضوا.

وجرى على ألسنة علماء التفسير(١) أنه في هذه الآية الكريمة وهي قوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ﴾ [التوبة: آية ٤] وفي الآية الآتية: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ﴾ [التوبة: آية ٧] يقولون: هؤلاء الذين ثبتوا وأمر النبي أن يفي لهم بعهدهم حتى تنقضي مدتهم هم خصوص بني ضمرة من قبائل بكر بن عبد مناة بن كنانة، ومنهم عمرو بن أمية الضمري المشهور. والتحقيق أن قبائل كنانة لم يُعرف أنه نقض منهم العهد إلا بنو الديل هم وقريش، أما قبائلهم الأخرى كبني جذيمة بن عامر وبني مدلج وبني ضمرة فلا يعلم أنهم نقضوا عهد رسول الله ﷺ وإن جرى على ألسنة العلماء أنها في خصوص بني ضمرة دون غيرهم من قبائل كنانة، ومعنى الآية الكريمة: هذا الحكم الذي ذكرنا من نقض العهود وتأجيلهم أربعة أشهر فقط، كل هذا في جميع المعاهدين ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا﴾ ﴿لَمْ يَنقُصُوكُمْ﴾ من الشروط التي اشترطتم عليهم شيئاً، ولم يخيسوا بشيء من عهدكم، ولم ينقصوكم مالًا ولا نفساً ولا دماً، بل ثبتوا على عهدهم ولم ينقضوا، ولم يظاهروا عليكم أحداً، ولم يعينوا عليكم أحداً كقريش الذين أعانوا بني الديل بن بكر على خزاعة ﴿فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ﴾ ولا تعدوا عليهم حتى ينتهي عهدهم كاملًا إلى مدتهم التي اتفقتم أنتم وهم عليها أنها مدة الصلح والمهادنة بينكم حتى تنقضي.

---

(١) انظر: القرطبي (٧١/٨).

قال بعض العلماء: كان وقت نزول هذه البراءة بقي من عهد هؤلاء تسعة أشهر فأمر النبي ﷺ أن يفي لهم بها[١]. وهذا معنى قوله: ﴿فَأَتِمُّوٓاْ إِلَيۡهِمۡ عَهۡدَهُمۡ إِلَىٰ مُدَّتِهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: آية ٤] ومن المتقين الذين يوفون بعهدهم ولا ينقضونه، فدلت الآية على أن الوفاء بالعهود وعدم النكث والنقض أنه من تقوى الله (جل وعلا) وهو كذلك.

وقد قدمنا في هذه الدروس مراراً[٢] أن المتقين جمع تصحيح للمتقي، وأن أصل هذه المادة من (وقى)، ففاء هذه المادة واو، وعينها قاف، ولامها ياء. مادة التقوى فاؤها واو، وعينها قاف، ولامها ياء، فهي مما يسميه الصرفيون «اللفيف المفروق» هذا أصلها، إلا أنها دخلها تاء الافتعال كما تقول في قرب: اقترب، وفي كسب: اكتسب، وفي قطع: اقتطع، وفي «وقى» اوتقى.

والقاعدة المقررة في التصريف: أن كل فعل (مثال) ـ أعني معتل الفاء بالواو ـ إذا دخله تاء الافتعال وجب إبدال الواو تاء، وإدغام التاء في التاء، فقيل فيها: «اتقى». هكذا[٣].

وأصل الاتقاء في لغة العرب[٤]: هو أن تتخذ وقاية تكون بينك وبين ما تكرهه فتقيك منه. تقول العرب: اتقيت الرمضاء بنعلي، واتقيت السيوف بمجني، ومنه قول نابغة ذبيان[٥]:

سَقَطَ النَّصِيْفُ ولم تُرِدْ إسْقاطَهُ فَتَنَاولَتْهُ واتَّقَتْنا باليَدِ

أي: جعلت يدها وقاية بيننا وبين وجهها. وتفسير من قال: اتقتنا: استقبلتنا. تفسير بالمعنى الإجمالي لا بالحقيقة. وهذا أصله معنى التقوى.

---

(١) انظر: البحر المحيط (٨/٥).

(٢) مضى عند تفسير الآية (٤٨) من سورة البقرة.

(٣) السابق.

(٤) السابق.

(٥) السابق.

وهي في اصطلاح الشرع: أن يجعل العبد وقاية بينه وبين عذاب ربه، هذه الوقاية مركبة من شيئين هما: امتثال أمر الله، واجتناب نهي الله[1]، والوفاء بالعهود من ذلك؛ لأن الوفاء بالعهود امتثال لأمر الله، وترك النقض انتهاء عما نهى الله عنه. وهذا معنى قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: آية ٤].

قال تعالى: ﴿فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ⑤ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ⑥ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ⑦ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ⑧﴾ [التوبة: الآيات ٥ ـ ٨].

يقول الله (جل وعلا): ﴿فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ⑤﴾ [التوبة: آية ٥].

اختلف العلماء في المراد بهذه الأشهر الحرم[2]: فقال بعض العلماء: المراد بها الأشهر الحرم المعروفة الآتي ذكرها في قوله في هذه السورة الكريمة: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ [التوبة: آية ٣٦] وهذه الأشهر الأربعة الحرم ثلاثة منها سرد وواحد منها فرد، فثلاثتها المتتابعة هي: ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، وآخر: رجب الفرد. هذه هي الأشهر الحرم.

وقال بعض العلماء: هذه هي المراد هنا في قوله: ﴿فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ﴾ وعلى هذا القول فالباقي عن انسلاخ الأشهر الحرم من يوم النداء بهذه الآيات من أول براءة في موسم الحج عام تسع، الباقي منها خمسون يوماً

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٤٨) من سورة البقرة.

(٢) انظر: ابن جرير (١٤/١٣٤)، القرطبي (٨/٧٢)، الأضواء (٢/٤٣٠).

فقط، وهي العشرون الباقية من ذي الحجة وتمام المحرم، فبانقضاء الخمسين تنتهي على هذا القول./ وهذا القول قاله بعض العلماء، وهو مبني على أن تحريم الأشهر الحرم لم ينسخ، ومعلوم أن العلماء مختلفون في تحريم الأشهر الأربعة المذكورة هل هو باق إلى الآن أو نسخ[١]؟ فكانت جماعة كثيرة من العلماء يقولون: إنه منسوخ. واستدلوا على ذلك بأن النبي ﷺ حاصر ثقيفاً في غزوة الطائف في ذي القعدة من عام ثمان، وهذا ثابت أن النبي ﷺ بعض الزمن الذي حاصر فيه ثقيفاً في غزوة الطائف كان من ذي القعدة[٢]. قالوا: فلو لم ينسخ تحريم الأشهر الحرم لكف وانصرف عنهم بإهلال ذي القعدة.

١/ب

وكنا نرى هذا القول أصوب، مكثنا كثيراً من الزمن ونحن ننصر هذا القول ونقرر أنه الأصوب، ثم ظهر لنا بعد ذلك أن أصوب القولين وأولاهما بالصواب أن تحريم الأشهر الحرم باقٍ لم ينسخ. ومن أصرح الأدلة في ذلك: أنه دلت عليه الأحاديث الصحاح في حجة الوداع في آخر حياة النبي ﷺ؛ لأن قوله (صلوات الله وسلامه عليه) في حجة الوداع قبل موته بنحو ثمانين يوماً قوله: **«إن الله حرم عليكم دماءكم وأموالكم وأعراضكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا»**[٣] نص دال على أن تحريم الأشهر الحرم

---

(١) انظر الناسخ والمنسوخ لأبي عبيد ص٢٠٦، الناسخ والمنسوخ للنحاس (١/٥٣٥)، ابن جرير (٤/٣١٣)، القرطبي (٣/٤٣)، (٨/١٣٤)، ابن كثير (٢/٣٥٥).

(٢) البخاري في المغازي، باب غزوة الطائف في شوال. حديث رقم: (٤٣٢٥) (٨/٤٤). ومسلم في الجهاد والسير، باب غزوة الطائف. حديث رقم: (١٧٧٨) (٣/١٤٠٢) وليس في رواية الصحيحين ما يدل على أن بعض الحصار وقع في ذي القعدة. ولكن أشار إلى ذلك الحافظ في الفتح (٨/٤٤).

(٣) رواه عن النبي ﷺ جماعة من الصحابة (رضي الله عنهم)، منهم:

١ ـ ابن عباس، عند البخاري في الحج، باب الخطبة أيام منى. حديث رقم: (١٧٣٩) (٣/٥٧٣) وطرفه (٧٠٧٩).

٢ ـ أبو بكرة (رضي الله عنه)، عند البخاري في الحج، باب الخطبة أيام منى. حديث رقم: (١٧٤١) (٣/٥٧٣) وأطرافه (٦٧، ١٠٥، ٣١٩٧، ٤٤٠٦، ٥٥٥٠، ٧٠٧٨، ٧٤٤٧) ومسلم في القسامة والمحاربين والقصاص والديات، باب تغليظ تحريم الدماء والأعراض والأموال. حديث رقم: (١٦٧٩) (٣/١٣٠٥).

٣ ـ عبدالله بن عمرو، عند البخاري في الحدود، باب ظهر المؤمن حمى إلا في حد =

باقٍ لم ينسخ، وهذا هو الأظهر، والله أعلم.

القول الثاني في هذه الآية الكريمة: أن المراد بقوله: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ﴾ أنها أشهر الإمهال الأربعة التي قدمنا بالأمس أن التحقيق أن أولها من يوم النحر من ذي الحجة عام تسع، وأنها تنقضي بالعشر من ربيع الثاني من ذلك العام، وإنما قيل لها «حُرُم» لأن الله حرّم فيها قتال المشركين، وقال لهم فيها: سيحوا في الأرض أربعة أشهر، أي: آمنين مدبرين ومقبلين، قتالكم والتعرض لكم حرام. وهذا أظهر القولين هنا؛ لأن اللام في قوله: ﴿ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ﴾ [التوبة: آية ٥] الألف واللام فيها للعهد، والأشهر الحُرم المذكورة لم تكن معهودة هنا، والمعهود هنا هي الأربعة المذكورة في قوله: ﴿فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ [التوبة: آية ٢] وعلى هذا فانسلاخها هو ما قدمنا بعد انتهاء العشر الأول من ربيع الثاني كما لا يخفى. وقد بيّنا أن قول الزهري (رحمه الله) أن ابتداء أشهر الإمهال من شوال[١] [أنه إن صح عنه فهو غلط منه. والصحيح قول الجمهور، وهو أن ابتداء تأجيل هذه الأشهر الأربعة من يوم النحر، وتنقضي في اليوم العاشر من ربيع الثاني].

وانسلاخ الأشهر: معناه انقضاء مدتها، يقول العرب: «انسلخ الشهر، وانسلخ العام» إذا مضى زمانه، وسلخته: إذا كنت في آخر يوم من أيامه وقد مضى علي. وهذا معروف في كلام العرب[٢]، ومنه قول لبيد في معلقته[٣]:

حتّى إذا سَلَخا جُمَادى ستَّةً ... جُزْءاً فطَالَ صيامُه وصيامُها

= أو حق. حديث رقم: (٦٧٨٥) (٨٥/١٢) وأطرافه (١٧٤٢، ٤٤٠٣، ٦٠٤٣، ٦١٦٦، ٦٨٦٨، ٧٠٧٧) ومسلم في الإيمان، باب بيان معنى قول النبي ﷺ: **«لا ترجعوا بعدي كفاراً...»** حديث رقم: (٦٦) (٨٢/١).

٤ ـ سليمان بن عمرو بن الأحوص عن أبيه. عند الترمذي في التفسير، باب: ومن سورة التوبة. حديث رقم: (٣٠٨٧) (٢٧٣/٥). وأخرجه في موضع آخر، حديث رقم: (٢١٥٩). وقال: وفي الباب عن أبي بكرة وابن عباس وجابر وحُذيم بن عمرو السعدي.

(١) في هذا الموضع انقطع التسجيل، وما بين المعقوفين [ ] زيادة يتم بها الكلام.

(٢) انظر ابن جرير (١٣٣/١٤ ـ ١٣٤)، القرطبي (٧٢/٨)، الدر المصون (١١/٦).

(٣) شرح القصائد المشهورات (١٤٤/١).

والأَشْهُر: جمع شهر. و«الأفعُل» جمع قِلّة؛ لأنها أربعة.

والحُرم: جمع حرام، وهو الصفة المشبهة من حَرُمَ الشيء فهو حرام.

وإنما قيل للواحد منها «حرام» لأن الله حرّم فيه القتال[١]. وهذا معنى قوله: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ﴾ على القولين المذكورين ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ الذين يشركون بالله (جلّ وعلا)، اقتلوهم كلهم ﴿حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ (حيث): كلمة تدل على المكان، كما تدل (حين) على الزمان، وربما ضُمنت معنى الشرط، ويجوز فيها لغةً لا قراءة إبدال يائها واواً وتثليث ثائها[٢].

ومعنى ﴿حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾: في أي مكان من أمكنة الأرض وجدتموهم فاقتلوهم. وقال بعض العلماء: هذا ما لم يكونوا في الحرم[٣]. وقال: عموم هذه الآية يخصصه عموم قوله تعالى: ﴿وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ ۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: آية ١٩١]. وعلى هذا القول يكون القتال لا يجوز في الحرم إلا إذا بدؤوا بالقتال. بهذا قال جماعة من العلماء. وقال جماهير من أهل العلم: إنهم يقتلون في كل مكان، كما دلّ عليه عموم (حيث) هنا، وإن كانوا في الحرم. قالوا: أمّا آية: ﴿وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ﴾ [البقرة: آية ١٩١] فإنها كانت من مراحل تشريع القتال. وإيضاح هذا المعنى: أنه جرت العادة في كتاب الله أن الله (تبارك وتعالى) إذا أراد أن يُشرِّع أمراً عظيماً شاقاً تشريعه على النفوس إنما يُشرِّعه على سبيل التدريج لا مرة واحدة؛ لأنه حكيم عليم. وهذا أمثلته كثيرة: فمنها: أنه لمّا أراد تحريم الخمر وكانت ـ قبّحها الله ـ تصعب مفارقتها على من ألفها وتعهّدها حرّمها

---

(١) انظر: ابن جرير (١٣٦/١٤)، القرطبي (٧٢/٨).

(٢) مضى عند تفسير الآية (٥٨) من سورة البقرة.

(٣) انظر: القرطبي (٣٥١/٢، ٧٣/٨).

تدريجاً، ذمّها أولاً فقال: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾ [البقرة: آية ٢١٩] فبدأ بعيبها، وأن فيها الإثم الكبير، وقال: ﴿وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ لتبتدىء نفس المؤمن تشمئز منها، ثم بعد ذلك حرمها في أوقات الصلاة، يعني أنها حُرمت عليهم في بعض الأوقات دون بعض، فحرّم عليهم شربها في الوقت التي تقرب فيه أوقات الصلاة، وكانوا إذاً لا يشربونها إلا من بعد صلاة الصبح؛ لأن من شربها بعد صلاة الصبح يصحو قبل صلاة الظهر، وكذلك بعد صلاة العشاء؛ لأن مَن شربها بعد صلاة العشاء يصحو عادة قبل صلاة الصبح، أمّا غير هذا من الأوقات فحرُم عليهم شربها، كما قال تعالى: ﴿لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء: آية ٤٣]. ثم لما أَنِست نفوسهم بتحريمها في الجملة، وعيبها أولاً، حرّمها تحريماً باتاً في سورة المائدة بقوله: ﴿رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: آية ٩٠] وعلق الفلاح على اجتنابه، فكان هذا أسهل للتدريج الذي وقع في تحريمها.

وكذلك لمّا أراد تشريع الصوم - والصوم عبادة شاقّة على النفوس؛ لأن فيها منع البطون والفروج عن شهواتهما - شرّعها تدريجاً: كان أول ما بُدِىء: وجوب الصوم بثلاثة أيام من كل شهر مثلًا، ثمّ لما فُرِض رمضان فُرِض أولًا على سبيل الخيار بين الصوم وبين الإطعام كما تقدّم في قوله: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ [البقرة: آية ١٨٤] فلما أَنِسَتْ النفوس بالصوم في الجملة وتمرنتْ عليه أوجب الصوم إيجاباً تاماً بقوله: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ [البقرة: آية ١٨٥].

وكذلك القتال - وهو محل الشاهد - لمّا كان عظيماً شاقاً على النفوس؛ لما فيه من تعريض المُهج والأموال للتلف أذِن فيه أولًا من غير أمرٍ به في قوله: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ [الحج: آية ٣٩]. أَذِنَ فيه أولاً ثم بعد ذلك أوجبهُ في حال دون حال، فأوجب عليهم قتال من قاتلهم دون من لم يقاتلهم

ـ وهو محل الشاهد ـ في قوله: ﴿وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ﴾ [البقرة: آية ١٩١] ثم لمّا استأنست النفوس بالقتال وتمرنت عليه أوجبه إيجاباً باتاً عاماً بقوله هنا: ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ [التوبة: آية ٥].

فهذه الآية الكريمة قوله: ﴿ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ هو صيغة عموم، فالألف واللام فيه تدل على العموم؛ لأن (المشركين): جمع (المشرك)، وهو اسم فاعل، والألف واللام الداخلتان على اسم الفاعل، واسم المفعول، والصفة المشبهة ـ على أحد القولين ـ يقول علماء العربية: إنها موصولة، والموصولات من صيغ العموم كما تقرر في الأصول[1]. وعلى القول بأن هذا اللفظ قد تُتناسى وصفيته فتكون الصفة غير صريحة فيؤول إلى الأسماء ـ أسماء الأجناس الجامدة ـ فيكون عموماً، فهو لفظ عام على كلا التقديرين يصدق بكل مشرك، إلا أن النبي ﷺ بيّن تخصيص هذا العموم بنهيه عن بعض من يتصف بالشرك، من ذلك: النساء والصبيان من الكفار فإنهم من المشركين، وقد نهى ﷺ عن قتلهم، وكذلك الرهبان في الصوامع نهى عن قتلهم، وكذلك الشيوخ الفانية نهى عن قتلهم، إلا إذا كان الشيخ الفاني يُستعان برأيه فإنه يُقتل؛ لأن رأيه عظيم على المسلمين؛ ولأجل ذلك قتل الصحابة دُريد بن الصمة يوم حنين، وكان ذا شيبة أعمى للاستعانة برأيه؛ لأنه وضع لهم الرأي الحكيم السديد، وخالفه مالك بن عوف النصري كما سيأتي إيضاحه في غزوة حنين في هذه السورة الكريمة. وكذلك المُعاهدون.

وهذه الآية الكريمة قال بعض العلماء[2]: قد لا تتناول أهل الكتاب؛ لأن آيتهم مذكورة في هذه السورة؛ لأن الله يقول: ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ

(١) مضى عند تفسير الآية (١٣١) من سورة الأنعام.

(٢) انظر: القرطبي (٧٢/٨).

صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [التوبة: آية ٢٩] فالكتابي إذا أعطى الجزية يخرج من عموم هذه الآية.

واعلم أن بعض العلماء[١] قالوا: إن الكتابيّ لا يدخل في اسم المشركين. قالوا: لأن الله غاير بينهما في آيات كثيرة كقوله: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [البينة: آية ١] فعطف المشركين على أهل الكتاب، وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [البينة: آية ٦] وقال: ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟﴾ [آل عمران: آية ١٨٦]. وقال تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ﴾ الآية [المائدة: آية ٨٢] فدلَّت هذه الآية على المغايرة بين المشركين وأهل الكتاب، والتحقيق أنَّ الكتابيين نوعٌ من المشركين، وقد أوضح الله في هذه السورة الكريمة أنَّ أهل الكتاب من المشركين حيث قال فيهم: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾ [التوبة: آية ٣١] فصرَّح تعالى بأنهم مشركون إلا أنَّهم نوعٌ خاصٌّ من المشركين، ربما أُدخِل في عمومهم، وربما أُفرد منهم، كأنَّه غيرُ داخلٍ فيهم؛ للفوارق التي بين الكتابيين وعبَدَة الأصنام كما هو معروف، وهذا معنى قوله: ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ [التوبة: آية ٥].

قال بعض العلماء: يؤخذ من عموم هذه الآية أنَّ المسلم لو قدر على اغتيال الحربي لجاز له أن يغتاله.

وأخذ بعض العلماء من هذا قالوا: إذا لم يُقدر عليهم إلا بالقتل بالنار كالضرب بمنجنيق من بعيدٍ ونحو ذلك، أنَّ هذا يتناوله العموم[٢]. وبعض العلماء يقول: هذا مُثْلة، وقد نهىٰ ﷺ عن المُثلة[٣]. وهذا معنى قوله:

---

(١) السابق.

(٢) انظر: السابق (٧٢/٨).

(٣) أخرجه البخاري في الذبائح والصيد، باب ما يكره من المثلة والمصبورة والمُجثَّمة. حديث رقم: (٥٥١٦) (٦٤٣/٩) من حديث عبدالله بن يزيد (رضي الله عنه).
وأخرجه في المغازي (باب قصة عكل وعرينة) عن قتادة ـ بلاغاً ـ «بلغنا أن النبي ﷺ =

﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ أي: في أي مكانٍ من أمكنةِ الأرض وجدتموهم.

وقوله: ﴿وَخُذُوهُمْ﴾ يعني: بالأسر، فمعنى ﴿وَخُذُوهُمْ﴾: أؤسروهم.

وهذه الآية الكريمة من براءة - وهي من آخر ما نزل من القرآن - تدل على أنه يجوز قتل المشركين وأخذهم بالأسْر. وقال بعض العلماء: هذه الآية من سورة براءة نسخت قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾ [محمد: آية ٤] فليس هناك إلا القتل[1]. وقال بعض العلماء: بل آية القتال هي التي نسخت آية براءة، فلا يقتل الأسير، إما أن يُمَنَّ عليه وإما أن يُفدى[2].

والتحقيق: أنَّ كل هذه الآيات محكم، وأنها لا ينسخ بعضها بعضاً؛ لأن النبي ﷺ منذ قاتل الكفار، ربما قتل الأسير، وربما فدى الأسير، وربما مَنَّ على الأسير، كل هذا يفعله ﷺ، فمعلومٌ أنَّه قتل بعض الأُسارى يوم بدر، قتل النضر بن الحارث يوم بدر أسيراً[3]، وقتل عقبة بن أبي معيط يوم بدرٍ أسيراً[4]، وقد دلت القصة التي ذكرناها في غزاة بدر في سورة الأنفال على أنَّ قتله للنضر بن الحارث لم يكن عن وحي[5]، ولذا لما جاءه شعر أخته - أو ابنته - قُتيلة بنت الحارث - أو قُتيلة بنت النضر بن الحارث - لما أرسلت شعرها المشهور إلى النبي ﷺ الذي أبكاه حتى أخضل الدمع لحيته،

= بعد ذلك كان يحث على الصدقة وينهى عن المثلة». وقد وصله الحافظ (رحمه الله) في الفتح (٧/٤٥٩).

وفي الباب أحاديث كثيرة رواها جماعة من الصحابة منهم: يعلى بن مرة، والمغيرة بن شعبة، وعمران بن حصين، والحكم بن عمير، وعابد بن قرط، وعلي بن أبي طالب، وأبو أيوب الأنصاري، وابن عمر، وزيد بن خالد، وأسماء بنت أبي بكر، وعمر بن الخطاب، وغيرهم (رضي الله عنهم أجمعين).

(١)(٢) انظر: القرطبي (٨/٧٢).

(٣) راجع ما سبق عند تفسير الآية (١٢) من سورة الأنفال.

(٤) السابق.

(٥) السابق.

وقال فيه: «**لو بلغني شعرها قبل أن أقتله لعفوتُ عنه**»[١] فدلَّ على أنَّه لم يقتله بوحي من الله. وشعرها مشهورٌ قدمناه برمته في سورة الأنفال[٢]، تقول فيه:

يــا راكـبـاً إن الأثـيــل مَـظِـنَّـةٌ ... من صُبحِ خامِسةٍ وأنتَ مُوفَّقُ
أبـلـغْ بـهـا مَـيْـتـاً بـأن تـحـيـةً ... ما إن تزالُ بها النجائبُ تَخْفِقُ
مـنـي إلـيـك وعـبـرةً مـسـفـوحـةً ... جادتْ بواكِفِها وأُخرىٰ تخنُقُ
هـل يـسـمـعـنَّ نـضـرُ إن نـاديـتُـه ... أم كيف يسمعُ ميِّتٌ لا ينطقُ
أمـحـمـدٌ يـا خـيـرَ ضِـنْءِ كـريـمـة ... في قومها والفَحْلُ فَحْلٌ مُعْرِقُ
مـا كـان ضـركَ لـو مَـنَـنْـتَ وربَّـمـا ... منَّ الفتى وهو المغيظُ المُحْنَقُ
فـالـنـضـر أقـربُ مـن أَسَـرْتَ قـرابـةً ... وأحقُّهم إن كان عتقٌ يُعتقُ
ظلَّتْ سيوفُ بني أبيه تنوشُه ... للّه أرحامٌ هناك تُشقَّقُ
صبراً يُقادُ إلى المنيةِ مُتْعباً ... رسْفُ المقيَّدِ وهو عانٍ مُوثَقُ

فهذا يدل على أنَّ الأمر في ذلك إلى الإمام، إن رأى المصلحة للمسلمين القتل قَتَل، وإن رأى أنها الفداء فدى، وإن رأى أنها المنُّ مَنَّ، وهذا هو التحقيق ـ إن شاء الله ـ وأنَّ الآياتِ كلها محكمة لم ينسخ بعضها بعضاً، والنبي ﷺ قد فعل كل ذلك، أطلق أبا عزةَ في غزاة بدر لما قال له: إنَّه ذو بنات. ولما أمسكه بحمراء الأسد من صبيحة أُحد بعد أن اشترط عليه ألَّا يعين عليه المشركين وقال له: يا محمد، عفوك مرةً أخرى. فقال له: لا والله، لا تحك عارضيك بين نساء مكة وتقول: غررت محمداً مرتين!! فقتله (صلوات الله وسلامه عليه)[٣]. وهذا معنىٰ قوله: ﴿فَٱقْتُلُوا

---

(١) السابق.

(٢) السابق. وقد سقط بعد البيت الخامس بيت من القصيدة، وهو قولها:
أو كنتَ قابلَ فديةٍ فَلَيُنفقَن ... بأعزِّ ما يغلو به ما يُنفِقُ

(٣) أخرجه البيهقي في السنن (٦/٣٢٠)، (٩/٦٥)، وأورده الشافعي في الأم (٤/٢٣٨)، وابن سعد في الطبقات (٢/٣٠)، والطبري في تاريخه (٣/١٠)، وابن هشام في سياقه لغزوة أُحد.

﴿ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ﴾ [التوبة: آية ٥] بالأسر ﴿وَٱحْصُرُوهُمْ﴾ معناه: ضيقوا عليهم واحصروهم في معاقلهم حتى لا يستطيعوا أن يخرجوا وينتشروا في الأرض، فضلًا عن أن يصلوا إليكم، فالمراد بالحصر هنا: حصرهم في أماكنهم وفي معاقلهم، والتضييق عليهم ومنعهم من الانتشار في الأرض. هذا معنى قوله: ﴿وَٱحْصُرُوهُمْ﴾.

﴿وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍۢ﴾: المراد بالمرصد هنا: اسم مكان، وقد تقرر في فن التصريف: أن جميع المصادر الميمية، وأسماء الأمكنة، وأسماء الأزمنة إذا لم تكن يعني: من واوي الفاء كانت كلها على (مَفْعَل)، إلا اسمُ الزمان والمكان خاصة إذا كان من (فَعَلَ) بالفتح (يَفْعِلُ) بالكسر[1]. والمرصد هنا: القياس فيه: (المَفْعَل) وهو اسم مكان. معناه: مكان الرصد. والرصد: هو مراقبة الشيء ليُتمكن منه في حالة غِرته.

﴿وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍۢ﴾ أي: في كل مكانٍ ترصدونهم وترقبونهم فيه، حتى يمروا عليكم فتأخذوهم، فكل شيء هو في طريق شيء مختفياً عنه لتمكنه غرته فهو رصد له. وهذا معنى معروف في كلام العرب، ومنه قول عامر بن الطفيل[2]:

ولقد علمت وما إخالك ناسياً أنَّ المنية للفتىٰ بالمَرْصَدِ

ومن هذا قولُ الآخر، وهو عدي بن زيد حيث قال[3]:

أَعاذلَ إن الجهل من لذة الفتى وإنَّ المنايا للنفوس بمرصدِ

ومن هذا معنى قوله: ﴿يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا﴾ [الجن: آية ٩] ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾﴾ [الفجر: آية ١٤] فمعنى: ﴿وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍۢ﴾: اقعدوا لهم في جميع الطرق التي ترصدونهم فيها ليمروا عليكم في حال غرتهم فتتمكنوا منهم. والعرب تقول للإنسان الذي يختفي عند الماء لترد

(١) انظر: التوضيح والتكميل (٢/٨٣ ـ ٨٤).

(٢) البيت في القرطبي (٨/٧٣).

(٣) السابق.

عليه الوحش في الليل فيرميها: هذا راصد لها، ومكانه الذي هو فيه: مرصدٌ لها، وهذا معنى معروف.

وقوله: ﴿كُلَّ مَرْصَدٍ﴾: قال بعض العلماء: هو منصوبٌ على أنَّه ظرف، ولمَّا قاله الزجاج[1] غلَّطهُ فيه أبو عليٍّ الفارسي[2] وقال: إنَّ مثل هذا لا ينصب على الظرف؛ لأنَّ الطريق مكانٌ محصور كالمسجد والبيت، فلا يكون ظرفاً، وإنما هو منصوبٌ بنزع الخافض، ويدل على أنه منصوبٌ بنزع الخافض: هو ما قدمنا في سورة الأعراف في قوله: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ﴾ [الأعراف: آية ٨٦] فعدَّاهُ بالباء التي هي حَرفُ الجر، ومعلومٌ عند علماء العربية أنَّ النصب بنزع الخافض لا يكون على المشهور قياساً مطرداً، يُحفظ ما سُمع منه ولا يقاس عليه، خلافاً للأخفش الصغير، وهو علي بن سليمان؛ لأنه يقول: إنَّ النزع بالخافض مطردٌ في كل ما أُمِنَ فيه اللبس، وقد عقد مذهبه ابن مالكٍ في الكافية فقال[3]:

وابنُ سُليمانَ اطرادَه رَأى   إنْ لم يُخَفْ لَبْسٌ كـ (مَنْ زَيْداً نَأى)

وعلى هذا فمعنى ﴿وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾: اقعدوا لهم في كل طريق ترقبونهم وترصدونهم فيها حتى تأخذوهم في غرتهم، وعلى هذا فهو منصوبٌ بنزع الخافض. ونظيره من كلام العرب ـ في نصب الطريق، المرصد: هو الطريق، في نصبه وتقدير حرف الجر الذي هو منصوبٌ بنزعه ـ قول ساعدة بن جُؤَيَّة الهذلي في بيته المشهور الذي هو من شواهد سيبويه في كتابه[4]:

لَدْنٌ بِهَزِّ الكَفِّ يَعْسِلُ مَتْنُهُ   فيه كما عَسَلَ الطريقَ الثعلبُ

يعني: كما عسل ـ أي: جرى العَسَلَان ـ الثعلبُ في الطريق.

---

(١) معاني القرآن (٢/٤٣١).

(٢) انظر: الدر المصون (٦/١١).

(٣) شرح الكافية (٢/٦٣٣).

(٤) الكتاب (١/٣٦، ٢١٤).

وقال بعضُ العلماء: اختار بعض المتأخرين أنّه ظرف، وإن كان محصوراً[١]، وبذلك أعرب قوله: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الأعراف: آية ١٦] وهذا معنى: ﴿وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾: اقتلوهم أولًا، وأْسروهم، وحاصروهم في معاقلهم وأماكنهم، وخذوا عليهم الطرق، وارصدوا لهم فيها لتأخذوهم.

وهذه أوامرُ من الله بأنه يُبذل في التضييق على المشركين وقتلهم وأخذهم كل غاية المجهود. وهذا معنى قوله: ﴿وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾.

﴿فَإِن تَابُوا۟﴾ من كفرهم ورجعوا عن شركهم ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أقاموا صلاة المسلمين ﴿وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ وهي الحقوق الواجبة عليهم في الأموال، فالصلاة والزكاة معروفتان، وإقامة الصلاة: هي الإتيان بها على وجهها الأكمل من مراعاة أركانها، وشروطها، وسننها، وصلاتها في الجماعات، وأوقاتها، إلى غير ذلك. وإقامة الزكاة: هي إعطاء الواجب من الأنصباء التي بيّنها النبي ﷺ. إذا فعلوا هذا كله، بأن تابوا من شركهم، وأقاموا الصلاة، وآتوا الزكاة ﴿فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ﴾ السبيل[٢] في اللغة: الطريق. والتخلية: معناه الترك. فمعنى ﴿فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ﴾ اتركوا طريقهم لا تقعدوا عليها، والعرب تقول: خَلِّ سبيل فلان. أي: اترك له الطريق، ولا تقعد له في طريقه، ولا تتعرض له. فإذا خَلَّيت له طريقه يمر ويذهب بها كيف شاء، معناه: أنك لم تتعرض له، وهذا معروف في كلام العرب كثيرٌ مبتذل، يقولون: خَلِّ سبيله، أي: اتركه ولا تتعرض له؛ لأن سبيله: طريقه الذي يمشي بها، فإذا لم تقعد له فيها ولم تتعرض له فقد تركته يذهب ويقبل ويدبر من غير أن تتعرض له، وهو المعروف، ومن هذا المعنى قول ربيعة بن مكدم في رجزه المشهور في قصته مع دريد بن الصمة وأصحابه[٣]:

---

(١) انظر: البحر (٥/١٠)، الدر المصون (٦/١٢).

(٢) مضى عند تفسير الآية (١١٦) من سورة الأنعام.

(٣) هذا الرجز في الأمالي (٢/٢٧١).

خَلِّ سبيل الحرة المنيعة إنك لاقٍ دونها ربيعه
في كَفِّه خطية مطيعة أو لا فخذها طعنة سريعه
والطعن مني في الورى شريعة

معنى: «خَلِّ سبيلها» لا تتعرض لها واترك طريقها تذهب فيها وتتوجه كيف شاءت. ومن هذا المعنى قول كعب بن زهير(١):

فقُلتُ خَلُّوا سَبِيلي لا أبا لكُم فكُلُّ ما قَدَّر الرحمنُ مَفْعُولُ

وقوله: (خَلِّ سبيلها) من كنايات الطلاق المعروفة عند الفقهاء في المذاهب. هذا معروف في كلام العرب، فكلُّ من تركته، وتركت له طريقه يذهب معها ويمر مقبلًا ومدبراً حيث شاء، فقد خليت سبيله، أي: تركته ولم تتعرض له، ومن هذا قول جرير يهجو عمر بن لجيءٍ التيمي(٢):

خلِّ السبيل لمن يبني المنار به وابرز ببرزة حيث اضطرك القدر
قد خفت يا ابن التي ماتت منافقة من خبث بَرْزة أن لا ينزل المطرُ

وهذا معنى: ﴿فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ﴾.

وهذه الآيةُ وأمثالها في القرآن هي التي تمسّك بها الصدِّيق أبو بكر (رضي الله عنه) في قتالِ أهل الردة، لما منعوا الزكاة، فإنَّ الصحابة أولًا قالوا: كيف نقاتلهم وهم يشهدون أنَّ لا إله إلا الله وأنَّ محمداً رسول الله؟! ومن مثل هذه الآية استدلَّ أبو بكر (رضي الله عنه) لأنَّ الله قال: ﴿فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ﴾ بعد ثلاثة شروط، وهي: توبتهم من الشرك، وإقامتهم الصلاة، وإيتاؤهم الزكاة. وقد تقرر في علم الأصول، أنَّ الشرط المشروط بشروطٍ متعدِّدة لا يحصل المشروط إلا بجميعها. فلو قلت لعبدك: إن صام زيد،

---

(١) شرح قصيدة بانت سعاد للتبريزي ص(٣١).
(٢) البيتان في ديوانه ص(٢١١)، شواهد الكشاف ص(٤٧) وبين البيتين سبعة عشر بيتاً. ولفظ الشطر الأول من البيت الأول:
(خــل الــطــريــق...)

وصلى، وقام وقعد فأعطه ديناراً، فإنه لا يستحق الدينار إلا إذا فعل جميع الشروط كلها، ولذا تخلية سبيلهم مشروطةٌ بهذه الشروط كلها؛ لأنَّ ما عُلِّق على شرطين أو شروط لا يتحصل إلا بجميع تلك الشروط، كما هو مقرر في الأصول. وأخت هذه الآية آتية قريباً في قوله: ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾ [التوبة: آية ١١] مفهومه: أنَّهم إن لم يتوبوا، أو لم يقيموا الصلاة، أو لم يؤتوا الزكاة فلا تخلوا سبيلهم، وليسوا إخوانكم في الدين، أي: وهو كذلك.

وهذه الآية الكريمة قال بعض العلماء: يؤخذ منها أنَّ من قال: «تُبْتُ» فقط لا يجتزىء بذلك حتى يفعل أفعالًا تدل على صحة ما يقول؛ لأنَّ إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة براهين وأدلة على صدقه في توبته التي قال. وهذا معنى قوله: ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: آية ٥] كثير المغفرة والرحمة، ومن رحمته ومغفرته الكثيرة توبته ورحمته للذين تابوا من شركهم، وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة، فهو كثير المغفرة والرحمة، يرحم هؤلاء ويغفر لهم؛ لأنَّ من تاب تاب الله عليه ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: آية ٣٨].

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ۝٦﴾ [التوبة: آية ٦].

(إنْ) هي الشرطية. وقوله: ﴿أَحَدٌ﴾: يقول علماء العربية: إنَّه مرفوعٌ بفعل محذوف يفسره ما بعده. أي: وإن استجارك أحدٌ من المشركين؛ لأن ﴿إِنْ﴾ أداة شرط لا تتولى إلا الجمل الفعلية، فلا تتولى الجمل الاسمية؛ ولذا يقدَّر فعل بعدها. فـ﴿أَحَدٌ﴾ عند علماء العربية فاعلُ فعلٍ محذوف يفسرهُ ما بعده[1].

والأحد معناه: الواحد، وأصل همزته مبدلة من واو، أصل الأحد: (وَحَد) بواو؛ لأنَّ هذه المادَّة أصلها واوية الفاء، وكثيراً ما تقول العرب في

(١) انظر: القرطبي (٨/٧٧).

الوَحَدِ: الأحد، وربما نطقت بلفظ الْوَحَد على أصله[١]. ومن ذلك قول نابغة ذبيان[٢]:

كأن رحلي وقد زال النهار بنا بذي الجليل على مُسْتَأْنَسٍ وَحِدِ

وقوله: ﴿ٱسْتَجَارَكَ﴾ قد قَدَّمنا أنَّ السين والتاء للطلب فمن معاني (استفعل) أنَّ السين والتاء للطلب، كقولهم: «استغفر ربه» أي: طلبه المغفرة. و«استطعم» طلب الطعام، و«استسقى» طلب السقيا، و«استنجد» طلب النجدة. وهكذا. فقوله: ﴿ٱسْتَجَارَكَ﴾ طلب الإجارة منك. والإجارة: هي الأمان. أن تجيره وتؤمنه من أذى قومك حتى يسمع ما أُنزل إليك. وهذا معنى قوله: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ﴾ قال بعض العلماء: لما نادى علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) في الموسم بهذه الآية من سورة براءة، أتاه قوم فقالوا: إن انتهت هذه الأشهر الأربعة وانقضت أشهر الإمهال، وكان الواحد منا يريد أن يسمع من محمدٍ ما يقول لينظر هل يتبعه أو لا، يُقتل؟! فقال لهم علي: لا يُقتل؛ لأنَّ الله يقول: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ﴾[٣].

معنى هذه الآية الكريمة بإيضاح: أنَّ بعض المشركين إذا أراد أن يسمع ما يقوله رسول الله ﷺ ليفهم معنى ما ينزل عليه ويعرف الأوامر التي يأمر بها، والنواهي التي ينهى عنها، والأشياء التي يدعو إليها، ليستيقن في قرارة نفسه أهو حقٌّ فيتبعه أو يعلم أنَّه ليس بحق فيصد عنه، وطلب أن يجار، أن يُؤَمَّن، وألا يصل إليه أذى حتى يسمع القرآن، ويفهم ما أنزل على النبي؛ ليكون على بصيرةٍ من أمره في الأخذِ والترك، فإنه يجب أن يعطى ذلك الأمان حتى يسمع ويُتلى عليه القرآن، ويُفَهَّم بما فيه من الزواجر والمواعظ، ثم بعد ذلك إن أسلم

(١) انظر: معجم مفردات الإبدال والإعلال ص٢٧٥.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٧١) من سورة البقرة.

(٣) هذا الأثر ذكره القرطبي في التفسير عن سعيد بن جبير مرسلًا (٧٦/٨) وأبو السعود (٤٤/٤)، والألوسي (٥٣/١٠).

فبها ونعمت، وإن أصرَّ على كفره وجب أن يرد إلى مأمنه وهو محل داره التي يأمن فيها. هذا معنى قوله: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ﴾ طلبك أن تجيره وتؤمنه.

﴿حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ هو هذا القرآن العظيم. وهذه الآية الكريمة من سورة براءة نص صريح في أنَّ هذا الذي نقرؤه ونتلوه هو بعينه كلامُ الله، فالصوت صوت القارىء، والكلام كلام البارىء؛ لأنَّ الله صرَّح بأنَّ هذا المشرك المستجير يسمع كلام الله يتلوه عليه نبي الله ﷺ. فهذا المحفوظ في الصدور، المقروء في الألسنة، المكتوب في المصاحف، هو كلام الله (جَلَّ وعلا) بمعانيه وألفاظه. ولا شَكَّ أنَّ أصل الكلام صفة الله (جَلَّ وعلا).

ونحن لا نحب إكثار الخوض فيه؛ لأنَّ هذه الصفة هي منشأ البلايا والمحن[1]، ولكن نقول: إنَّ الكلام صفة الله التي لم يزل متصفاً بها، فلم يتجرد يوماً عن كونه متكلماً، فالكلام صفته المتصف بها أزلًا لم يتجرد، ومع كونه متكلماً فهو في كل وقت يتكلم بما شاء كيف شاء، على الوجه اللائق بكماله وجلاله، فكلامه صفته ليس بمخلوق.

وقد أشرنا ـ مراراً ـ إلى المحنة التي ابتلى اللّهُ بها المسلمين في أيام الدولة العباسية بالامتحان بالقول بخلق القرآن؛ لأنَّ محنةَ القول بخلق القرآن نشأت في أيام المأمون، ولم تزل في أيام المأمون حتى مات، واستفحلت في أيام المعتصم واستحكمت، وفي أيامه ضُرِب سيد المسلمين في زمانه أحمد بن حنبل (رضي الله عنه وأرضاه)، يُضرب حتى يُرفع من محل الضرب لا يعرف ليلًا من نهار، وإذا أفاق قالوا له: قل: القرآن مخلوق. فيقول: لا، القرآن كلام الله، منه بدأ وإليه يعود. وكذلك مضى زمن الواثق والمحنة قائمة على ساق وقدم، وقد أزالها الله على يد المتوكل غفر الله له وعفا عنه؛ لأنَّ محنة القول بخلق القرآن أزالها المتوكل على الله بعد أن مضت في زمن المأمون والمعتصم والواثق. وكان بعض المؤرخين يقولون: إنها في أخريات أيام الواثق أنها بردت وانكسرت شوكتها وضعف شرها.

---

(١) يريد (رحمه الله) ما نشأ بسبب الاختلاف في هذه الصفة، وإلا فهي صفة كما من كل وجه.

وقد قدمنا في هذه الدروس السابقة[1] أنَّ ذلك على يد ذلك الشيخ الشامي، صاحب القصة المشهورة، وأنه شيخ جيء به من الشام أيام الواثق بالله، جيء به مكبلًا بالحديد ليمتحن ويقتل في محنة القول بخلق القرآن، وجيء به، وجلس الواثق يوماً ـ والرواية رواها الخطيب البغدادي عن ابن الواثق محمد من طرق أسانيدها فيها ما يُنكر، ولكنها قصةٌ معناها صحيح، تلقاها العلماء بالقبول ـ وذلك أنّ الواثق لما أراد قتل ذلك الشيخ الشامي (رحمه الله) كان إذا أراد قتل أحد أحضر ولده محمداً ـ وهو الذي روى الخطيب هذه القصة من طريقه ـ فجيء بالرجل مقيداً بالحديد، فقال للواثق: السلام عليك يا أمير المؤمنين!! قال: لا سلَّمك الله. فقال الشيخ: بئس ما أدَّبك مؤدبك يا أمير المؤمنين!! الله يقول: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحۡسَنَ مِنۡهَآ أَوۡ رُدُّوهَآۗ﴾ [النساء: آية ٨٦] والله ما حَيَّيت بأحسن منها ولا رَددتها. فقال الواثق: ائذنوا لأبي عبدالله ـ يعني الخبيث أحمد بن أبي دؤاد، عامله الله بما هو أهله؛ لأنه سبب هذه البلايا والمحن ـ وأحضره، فقال له ابن أبي دؤاد: الرجل متكلم!! فقال الواثق لابن أبي دؤاد: ناظر هذا الرجل. فقال الشيخ الشامي: ابن أبي دؤاد أحقر من أن يناظرني ـ كما جاء في بعض روايات قصته ـ فقال له ابن أبي دؤاد: ما تقول في القرآن؟ فقال الشيخ: يا ابن أبي دؤاد: ما أنصفتني. يعني: أنَّ الذي يراد أن يقدم للقتل أحق بأن يكون هو السائل. فقال له: سلْ. فقال: ما تقول يا بن أبي دؤاد في القرآن؟ قال: أقول إنَّه مخلوق. قال: مقالتك هذه التي تدعو الناس إليها، وتأمرهم بها، ويفتن الخلفاء فيها يمتحنون فيها الناس بفتياك ورأيك، هل كان رسول الله ﷺ وخلفاؤه الراشدون ـ أبو بكرٍ وعمر وعثمان وعلي ـ هل كانوا عالمين بها أو لا؟ فقال ابن أبي دؤاد: ما كانوا عالمين بها. فقال الشيخ الشامي: ما شاء الله!! ما شاء الله!! جهلها رسول الله وخلفاؤه الراشدون وأبو بكر وعمر وعثمان وعلي وعلمها ابن أبي دؤاد!!، فقال ابن أبي دؤاد: أقلني، والمناظرةُ على بابها. فقال له: ذلك لك. ثم قال له: ما

---

(١) مضى عند تفسير الآية (١١٤) من سورة الأنعام.

تقول في القرآن؟ قال: مخلوق. قال: مقالتك هذه التي تدعو الناس إليها هل كان رسول الله وخلفاؤه الراشدون عالمين بها أو لا؟ قال: كانوا عالمين بها، ولكنهم لم يدعو الناس إليها. فقال له الشيخ الشامي: يا بن أبي دؤاد: ألم يسعك في أمة محمد ﷺ ما وسع رسول الله في أمته، ووسع خلفاءه الراشدين في رعاياهم؟! فألقمه حجراً وسكت، وقام الواثق وجلس في محل خلوته واضطجع، وجعل رجله على ركبته وقال: جهلها رسول الله ﷺ وخلفاؤه الراشدون وأبو بكر وعمر وعثمان وعلي وعلمها ابن أبي دؤاد؟ ما شاء الله!! ما شاء الله!! ثم قال: علمها رسول الله ﷺ وخلفاؤه الراشدون ولم يدعوا الناس إليها، ألم يسعك يا بن أبي دؤاد ما وسع رسول الله وخلفاءه الراشدين في أمةِ محمد ﷺ؟ ثم دعا بالحداد وقال له: اذهب وفكَّ قيد هذا الشيخ الشامي. وأعطاه أربعمائة دينار، وقال له: انصرف راشداً إلى أهلك. وذكر الخطيب في بعض روايات هذه القصة بأسانيد ليست قائمة أنَّه بعد ذلك لم يمتحن أحداً. بل روى ـ أيضاً ـ عنه أنَّ الواثق رجع عنها في أُخريات حياته.

وعلى كل حال فالقرآن كلام الله وصفته الأزلية، ليس بمخلوق، منه بدأ وإليه يعود، وهو صفته الأزلية لم يتجرد عن كونه متكلماً يوماً ما، وهو في كل يوم يتكلم بما شاء، كيف شاء، على الوجه اللائق بكماله وجلاله (جَلَّ وعلا) من غير مشابهةٍ للخلق، ومن غير تعطيل له من صفته (جلَّ وعلا). وهذا معنى قوله: ﴿فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾.

﴿ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ﴾[التوبة: آية ٦] أبلغه إياه: أوصله إليه. والمأمن هنا: اسم مكان ـ أيضاً ـ كالمرصد، فالمأمن والمرصد كلاهما اسم مكان، فالمرصد مكان الرصد، والمأمن: مكان الأمن، أي: أبلغه مكان أمنه، وهو داره الذي جاء منها، وأهله الذي جاء من قِبَلِهم. وهذا معنى قوله: ﴿أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ﴾ ثم قال: ﴿ذَٰلِكَ﴾ المذكور من الأمر بإجارة المشرك المستجير حتى يسمع كلام الله ويتفهمه واقع بسبب أنهم ﴿قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾ لا يعلمون الوحي، ولا يفهمون عن الله، فإذا طلبوا أن يعلموا ويتعلموا ويسمعوا ما جاء عن الله فلا تمنعوهم من ذلك، فأمِّنوهم حتى

يسمعوا ويتفهموا ويعرفوا الحق لعلَّ الله يهديهم، وهذا معنى قوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾.

قال تعالى: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا الَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۖ فَمَا اسْتَقَٰمُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨﴾ اشْتَرَوْا بِـَٔايَٰتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا الزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى الدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ الْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾﴾ [التوبة: الآيات ٧ ـ ١١].

﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا الَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۖ فَمَا اسْتَقَٰمُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾﴾ [التوبة: آية ٧].

لما أنزل الله أول هذه السورة ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى الَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾﴾ [التوبة: آية ١] فنبذ العهد إلى كل المعاهدين، وأعلمهم بأنهم حرب بعد مضي أربعة أشهر، ولم يستثنِ من ذلك إلا القوم الذين ثبتوا على عهدهم ولم ينقضوه، ولم يظاهروا أحداً على المؤمنين، بيَّن في هذه الآية الكريمة أنَّ ذلك الحكم المذكور في أول هذه السورة أنَّه حكم واقع في محله، وأنَّ نبذ العهود إلى المشركين أمرٌ في غاية الإحكام والصواب؛ لأنه قال: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ (كيف) هنا حرف يدل على الاستبعاد، يُستبعد جداً أن يكون للمشركين عهد يُحفظون به ويأمنون به على أنفسهم وأموالهم، مع خبث ما يبطنونه من العداوة للمسلمين.

٢/أ / والمعنى: أنَّ نبذ عهودهم إليهم حكم في غاية الصواب واقع في موقعه، موضوع في موضعه؛ لأنهم أهل خبثٍ وأهل عداوةٍ ومكرٍ للإسلام، يستحقون بنبذ عهودهم إليهم، وأن يكونوا حرباً، إلا الطائفة الذين ثبتوا. وهذا معنى قوله: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ﴾ يأمنون به على أنفسهم

وأموالهم ﴿عِندِ ٱللَّهِ﴾ يأمر نبيه بالوفاء به ﴿وَعِندَ رَسُولِهِۦ﴾ ﷺ يعملُ لهم بمقتضاه ﴿إِلَّا﴾ الطائفة الثابتة التي لم يوجد منها غدر ولا مكر فهؤلاء مستثنون كما تقدم.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ [عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾][1] [التوبة: آية ٧] لأن صلح الحديبية الذي عقده النبي ﷺ مع قريش بواسطة سهيل بن عمرو العامري (رضي الله عنه) دخل في حلف قريش ودخل في صلحهم معهم قبائل من كنانة بن مدركة، منهم: بنو الديل، وبنو ضمرة، وبنو مدلج أولاد بكر بن عبد مناة بن كنانة، وبنو جذيمة بن عامر، عامر هو ابن عبد مناة بن كنانة أخو بكر. فهم أربع قبائل من كنانة، هؤلاء القبائل الأربع من كنانة بن مدركة كانوا أهل عهد مع النبي ﷺ مع قريش، ثم نقض العهد منهم بنو الديل بن بكر بن عبد مناة بن كنانة بأن عَدَوا على خزاعة، ونقض معهم قريش حيث أعانوهم على الخزاعيين، وبقي بنو ضمرة وبنو جذيمة بن عامر وبنو مدلج على عهدهم لم ينقضوا، وهم الذين استثناهم الله[2].

وهذه المعاهدة وقع عهدها في الحديبية كما عليه جميع المؤرخين. والله (جلّ وعلا) ذكر أنها في المسجد الحرام، والتحقيق أن الحديبية بعضها في الحلّ وبعضها في الحرم. وهذه الآية تدل على أن معاهدة الحديبية وقعت في الطرف منها الذي هو من الحرم؛ لأنه جرت العادة أن الله ربَّما أطلق المسجد الحرام وأراد به جميع الحرم، فالمراد به هنا: إلا الذين عاهدتم في حرم الله عند الحديبية.

وأطلق على اسم الحرم «المسجد الحرام» لأنه من أهم أجزائه، وهو أسلوبٌ عربي معروف[3]، ومن إطلاق المسجد الحرام على جميع الحرم: ﴿وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ﴾ [البقرة: آية ١٩١] أي: لا

---

(١) في هذا الموضع انقطع التسجيل، وقد أكملت بقية الآية وجعلت ذلك بين معقوفين.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٩٦) من سورة الأنعام.

(٣) سيأتي عند تفسير الآية (٢٨) من هذه السورة.

تقاتلوهم في جميع الحرم؛ ولأجل هذه الإطلاقات سيأتيكم أن قوله: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ﴾ [التوبة: آية ٢٨] أنَّ المراد به لا يقربوا الحرم كلَّه بعد هذا العام. وهذا معنى قوله: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ﴾ في صلح الحديبية ﴿عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾.

﴿فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ﴾ (ما) مصدرية ظرفية، وهي منصوبة بـ«استقيموا»[١]، أي: استقيموا لهم وأوفوا لهم بالعهد إلى تمام مدتهم في جميع المدة التي استقاموا فيها لكم، ولا تبدؤوهم بنقض العهد. وهذا معنى قوله: ﴿فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ﴾ كما تقدم في قوله: ﴿فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ﴾ [التوبة: آية ٤] هذا معنى قوله: ﴿فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ﴾. والذين قالوا: إنها نزلت في قريش[٢]. يظهر أن قولهم خلاف التحقيق؛ لأن قريشاً نقضوا العهد وحاربهم النبي ﷺ في فتح مكة قبل نزول هذه الآيات من براءة؛ لأنها نزلت عام تسع، وأرسل النبي بها عليَّ بن أبي طالبٍ (رضي الله عنه) بعد أبي بكر ينادي بها في الموسم عام تسع. وفي ذلك الوقت أهل مكة قد نقضوا قبل هذا بزمان، وغزاهم النبي ﷺ وفتح مكة عنوة على التحقيق، وظفر بهم، وسمُّوا الطلقاء، وأعطى عهداً لمن أراد منهم أن يتربَّص كصفوان بن أميَّة ومن في معناه. وهذا معنىّ قوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ﴾.

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ ويدخل في المتقين دخولًا أولياً: الذين لا ينقضون العهود ويوفون بالعهود؛ لأن الوفاء بالعهد وعدم نقضه ونكثه من تقوى الله (جلَّ وعلا)، والمتصف بالتقوى يحبّه الله. وهذا معنى قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾.

﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم

---

(١) انظر: الدر المصون (٦/١٥).

(٢) انظر: ابن جرير (١٤/١٤٣).

بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨﴾﴾ [التوبة: آية ٨].

هذا تأكيدٌ بعد تأكيد؛ لأن حكم الله بنبذ العهود إلى الكفار أمرٌ في غاية الإحكام والصواب، واقعٌ في موقعه، موضوعٌ في موضعه، والفعل هنا محذوف دلَّ ما قبله عليه[١]. أي: كيف يكون لهم عهدٌ عند الله وعند رسوله وحالهم أنهم ﴿إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ﴾ أي: إن يغلبوكم ويقهروكم ويجدوا فرصة يهينونكم بها لا يراعون فيكم العهود ولا الذمم، ولا يراعون شيئاً، بل يقتلونكم، فمن كانوا بهذه المثابة من الغدر والمكر والخيانة وسوء الطوايا والنيات، نبذ عهودهم إليهم هو أمرٌ في غاية الحكمة والإصابة. وهذا معنى قوله: ﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا﴾ كيف يكون لهم - للمشركين - عهد والحال أنهم إن يظهروا، وقد عُلِمَ من اللغة العربية أن العرب ربّما تحذف الفعل بعد (كيف) إذا تقدم ما يدلّ عليه؛ لأن (كيف) هنا حُذف بعدها قوله: ﴿كَيْفَ﴾ يكون لهم عهدٌ عند الله وعند رسوله والحال أنهم وغِرَةُ صدورهم، حرب أضداد ﴿وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾ ونظير هذا من كلام العرب في حذف الفعل بعد كيف إذا دلّ المقام عليه قول الشاعر[٢]:

وَخَبَّرْتُمَانِي أَنَّمَا الموتُ بالقُرىٰ فكيفَ وهَاتَا هَضْبَةٌ وقَلِيْبُ

ويُروىٰ: «فكيف وهاتا هضبة وكثيب»، هذا قاله بدويّ أعرابي قال له قوم: إن القرى والمدن والحضر فيها الوباء، يموت الناس فيها غالباً. والصحة أجود في الصحاري؛ لأن أهلها أقلّ موتاً!! فخرج إلى الصحراء، فلما خرج إلى الصحراء فإذا قبر في الصحراء بجنب كثيب وهضبة فقال:

وَخَبَّرْتُمَانِي أَنَّما الموتُ بالقُرى فكيفَ وهَاتَا هَضْبَةٌ وقَلِيْبُ

أي: فكيف مات هذا وهو في البادية وليس في القرى؟ وهذا معنى قوله: ﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ﴾ ﴿يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ﴾ معناه: يغلبوكم

---

(١) انظر: ابن جرير (١٤/١٤٥)، القرطبي (٨/٧٨).

(٢) البيت لكعب بن سعد الغنوي. وهو في ابن جرير (١٤/١٤٥)، القرطبي (٨/٧٨).

وينتصروا عليكم، تقول العرب: ظهروا عليهم: إذا غلبوهم وانتصروا عليهم. ومنه قوله تعالى: ﴿فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾ [الصف: آية ١٤] أي غالبين منتصرين؛ لأن أصل (ظَهَره): علاه فطلع على ظهره، والغالب كأنه يعلو المغلوب حتى يقف على ظهره، ومنه قوله: ﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ﴾ أي: يعلوا ظهره[1] ﴿وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾ [الكهف: آية ٩٧]. كيف يكون لهم عهد وهم بهذه المثابة من خبث النيّات والطويّات، وشدة العداوة، وغِرَةِ صدورهم، والحال ﴿إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ﴾ أي: يغلبوكم ويقهروكم وينتصروا عليكم ﴿لَا يَرْقُبُوا﴾ أي: لا يراعوا فيكم.

﴿إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾ ولا يحفظوا لكم ﴿إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾ اعلموا أن المراد بـ (الإلّ) هنا فيه لعلماء التفسير أقوالٌ متقاربة[2]:

قال بعض العلماء: (الإلُّ) اسم الله بالعبرانية. واستأنسوا لهذا ببعض القراءات الشاذة: (لا يرقبوا فيكم إِيْلًا ولا ذمة)[3] والإيل من أسماء الله بالعبرية. فجبرائيل معناه: عبدالله، وإسرافيل: عبدالله، وإسرائيل: عبدالله. وهذا القول قال به جماعة من العلماء، أن (الإيل والإلّ) تطلق على الله، ومعروفٌ في قصة أبي بكرٍ الصديق (رضي الله عنه) أنه لما جاءه قوم من أصحاب مسيلمة الكذّاب وقال لهم: اقرؤوا علي مما يدّعي أنه ينزل عليه. فقرؤوا عليه شيئاً من ترّهات مسيلمة الكذّاب، فقال: أنتم تعلمون أن هذا لم يخرج من إلّ، أن هذا كلام لم يصدر من الله. وعلى هذا القول فالمراد: إن يظهروا عليكم ويغلبوكم لا يراقبوا فيكم الله، ولا يراعوا فيكم الله، ولا العهود. هذا قال به قوم.

وقالت جماعات من العلماء: (الإلّ) هنا المراد به القرابة، أي: لا يراعون فيكم قرابة، بل يقتلونكم وإن كنتم من قراباتهم. وبهذا قال جماعات

---

(١) انظر: القرطبي (٧٨/٨).

(٢) انظر: ابن جرير (١٤٦/١٤ ـ ١٤٩)، القرطبي (٧٩/٨)، الدر المصون (١٧/٦ ـ ٢٠).

(٣) انظر: المحتسب (٢٨٣/١).

من علماء التفسير، وإطلاق الإلُّ على القرابة معنى معروف في كلام العرب مشهور، ومنه قول تميم بن مقبل(١):

أَفْسَدَ النَّاسَ خُلُوفٌ خَلَفُوا قَطَّعُوا الإِلَّ وأَعْرَاقَ الرَّحِمْ

أي: قطعوا القرابات ولم يصلوها، ومنه بهذا المعنى قول حسان بن ثابت رضي الله عنه(٢):

لَعَمْرُكَ إنَّ إِلَّكَ في قُرَيْشٍ كَإِلِّ السَّقْبِ مِنْ رأْلِ النَّعَامِ

يعني: إنّ قرابتك في قريش كذب كقرابة السقب الذي هو الحوار ـ أعني ولد الناقة ـ من رألِ النعام، ولا قرابة بين أولاد الإبل وأولاد النعام، ومن هذا المعنى قول يزيد بن مفرغ الحميري في شعره الذي ينفي به نسب زياد بن أبيه عن قريش، ويعاتب معاوية في استلحاقه له؛ لما كان بينه وبين عبّاد بن زياد من العداوة، وما أهانه به عبّاد بن زياد كما هو معروف، قال يزيد بن مفرّغ الحميريُّ في ذلك أبياته المشهورة التي يقول فيها(٣):

ألاَ أَبْلِغْ معاويةَ بن حربٍ مغلغلةً من الرجلِ اليماني
أَتَغْضَبُ أن يُقال أبوك عفٌّ وترضىٰ أن يُقال أبوك زاني

إلى أن قال في ابن زياد:

فأشهدُ أن إِلَّك من قريشٍ كإِلِّ الجِلِّ من وَلَدِ الأَتَانِ

أي: إن قرابتك في قريش، وهذا معنى معروفٌ في كلام العرب، وعلى هذا القول ﴿لَا يَرْقُبُونَ﴾ أي: لا يراعون ولا يحفظون فيكم ﴿إِلًّا﴾ أي: قرابة ﴿وَلَا ذِمَّةً﴾ أي: لا قرابة ولا عهداً، وقال بعض العلماء: الإلّ

---

(١) البيت في ابن جرير (١٤/١٤٨).

(٢) ديوانه ص(٢٤٢) والسقب: ولد الناقة. والرأل: ولد النعام.

(٣) الأبيات في تاريخ دمشق (٦٥/١٨٠ ـ ١٨١) ولفظ البيت الثالث فيه:

فأشهد أن رحمك من زياد كرحم الفيل من ولد الأتان

هو الحلف، فالعرب تقول: بيني وبين فلان إلٌّ. إذا كان بينكما حلف. قالوا: واشتقاق (الإلّ) أنهم كانوا إذا تحالفوا وتماسحوا بالأيدي عند الحلف رفعوا أصواتهم، والعرب تقول: «ألّ، يؤل» إذا صرخ ورفع صوته، ومنه: «أليل المريض» أي: أنين المريض المرتفع، والعرب تقول: «دعت الجارية أَلَلَيْهَا» إذا ولولت؛ لأن الأليل صراخٌ وصوت. ومن قولهم: «دعت الجارية ألليها» إذا ولولت قول الكميت[1]:

وأنتَ ما أنت في غَبْراءَ مُظْلمةٍ ... إذا دَعَتْ أَلَلَيْها الكَاعِبُ الفُضُلُ

وقال قومٌ آخرون: إن (الإلّ) معناه العهد. وعلى هذا القول فهو شيءٌ معطوفٌ على نفسه باختلاف اللفظين، وقد قدّمنا في هذه الدروس مراراً[2] أن عطف الشيء على نفسه بلفظين مختلفين أنه أسلوبٌ عربيّ معروف؛ لأن المغايرة في اللفظ ربما نزلتها العرب كمغايرة المعنى. وهذا الأسلوب في اللغة العربية وفي القرآن، فمن أشهر أمثلته في القرآن قوله تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ۝٤﴾ [الأعلى: الآيات ١ ـ ٤] لأن (الذي) و(الذي) كلها واقعة على شيء واحد هو الله (جلّ وعلا)، إلا أنه لما اختلفت الألفاظ صار العطف بسبب اختلافها، وهو أسلوب معروف في العربية، ومن شواهده المشهورة قول الشاعر[3]:

إلى الملك القَرْمِ وابن الهُمام ... ولَيْثِ الكتيبة في المُزْدَحَم

وهو كثير في كلام العرب، ومما أنشده له صاحب اللسان قول الشاعر[4]:

إني لأعظم في صدر الكَمِيِّ على ... ما كان في زمن التجدير والقِصَرِ

---

(١) البيت في اللسان (مادة: ألل) (١/٨٦)، الدر المصون (٦/٢٠).

(٢) مضى عند تفسير الآية (٥٤) من سورة البقرة.

(٣) السابق.

(٤) البيت في اللسان (مادة: جدر) (١/٤١٧).

وقول عنترة في معلقته[١]:

حُيِّيتَ من طَلَلٍ تَقَادَمَ عَهْدُه أَقْوَىٰ وأَقْفَرَ بعد أُمّ الهيثم

لأن (الإقواء) و(الإقفار) معناهما واحد. و(التجدير) و(القصر) معناهما واحد.

واختار كبير المفسرين أبو جعفر بن جرير الطبري ـ رحمه الله ـ أن هذه المعاني كلها يجب حمل (الإلّ) عليها؛ لأنه شاملٌ للعهد والقرابة، والحلف[٢]، أي: لا يراعون فيكم عهداً، ولا قرابة، ولا حلفاً، ولا يراعون الله فيكم. وهذا الذي ذهب إليه هو من حمل المشترك على معانيه، وحمل المشترك على معنييه أو معانيه مما اختلف فيه علماء الأصول، والذي حرره المحققون من أصوليي أصحاب المذاهب الأربعة هو جواز حمل المشترك على معنييه أو على معانيه[٣]، فيجوز أن تقول مثلًا: عدا اللصوص البارحة على عين زيد. تعني: أنه عَوَّروا عينه الباصرة، وغَوَّروا عينه الجارية، وسرقوا عينه التي هي ذهبه وفضّته فتحمله على الجميع إذا قصدت ذلك وكان في كلامك ما يدل عليه، وهذا معنى قوله: ﴿لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾.

﴿يَرْقُبُوا۟﴾ معناه: يحفظوا ويراقبوا ويراعوا. والذمة: معناه العهد، وكل ما تجب المحافظة عليه ويؤاخذ بنكثه تسميه العرب (ذمة). وهو هنا: العهد، وهذا معنى قوله: ﴿لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾ ﴿يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ يعني: يبذلون لكم الكلام الطيب الحلو باللسان دون ما في القلوب؛ لأن ما في قلوبهم من البغض وإضمار العداوة والشحناء لا يساعد وما تجري به ألسنتهم، فالألسنة تقول شيئاً وما تنطوي عليه الصدور

---

(١) البيت في ديوانه ص١١٨.

(٢) تفسير ابن جرير (١٤/١٤٨).

(٣) انظر: شرح الكوكب المنير (٣/١٨٩ ـ ١٩٥)، البحر المحيط في أصول الفقه (٢/١٢٦ ـ ١٤٨، ٣/١٦٦ ـ ٤٧٢)، مجموع الفتاوى (١٣/٣٤٠ ـ ٣٤١)، زاد المعاد (٥/٦٠٦)، قواعد التفسير (٢/٨١٩).

شيءٍ آخر. وهذا معنى قوله: ﴿يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ﴾ أن توافق ما ينطقون به بأفواههم لما هي منطوية عليه من الكفر والبغض وشدة العداوة لكم. وهذا معنى قوله: ﴿وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ والقلوب هنا جمع قلب. وهذه الآيات وأمثالها تدلُّ على أن الذي يدرك ويقع فيه الإباء والانقياد وجميع أنواع الإدراك كلّه القلب[1]. وذلك أمرٌ لا شكَّ فيه؛ لأن الذي خلق العقل ومنّ بالعقل أعلم حيث وضع العقل، فالله (جلّ وعلا) في آيات كتابه يبيّن دائماً أنه جعله في القلب كقوله: ﴿قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: آية ١٧٩] وقوله: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: آية ٤٦] ولم يقل الله يوماً ما: «ولكن تعمى الأدمغة التي في الرؤوس». ولم يقل: «فإنها لا تعمى الأدمغة» أبداً؛ لأن العقل محلُّه القلب هذا جاء به الوحي الصحيح وكلام من خلق القلب وتفضّل بالقلب، فلم يأت في آية واحدة ولا في حديثٍ واحد أن مركز العقل في الدماغ أبداً، لم يقل الله: «لهم أدمغة يفقهون بها» أبداً، ولكن يقول: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ﴾، و﴿وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ﴾ ولم يقل: «وتأبى أدمغتهم» أبداً، والذي خلق القلب ومنَّ به ووضعه لا شكّ أنه أعلم بالمحل الذي وضع به من فلسفات الكفرة الفجرة الجهلة وأذنابهم، وهذا معنى قوله: ﴿وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ الفسق: الخروج عن طاعة الله، فكل خارجٍ عن طاعة الله فهو فاسق، ومنه قوله: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾ [الكهف: آية ٥٠] أي خرج عن طاعة ربه، والعرب تقول: «فسق عن الطريق» إذا خرج منها. ومنه قول الراجز[2]:

يَـهْـوَيْـنَ فـي نَـجْـدٍ وغَـوْراً غَـائِـراً فَـوَاسِـقـاً عَـن قَـصْـدِهَـا جَـوَائِـرَا

فواسقاً: أي: خارجات عن طريقهن.

والمراد بالفسق شرعاً: هو الخروج عن طاعة الله. والخروج عن

(١) مضى عند تفسير الآية (٧٥) من سورة البقرة.
(٢) مضى عند تفسير الآية (٥٩) من سورة البقرة.

طاعة الله قد يعظم، وقد يكون بعضه أعظم من بعض، فالخروج الأكبر هو الكفر بالله، والمعاصي والكبائر خروج دون خروج؛ ولذا سُمِّي الكافر فاسقاً؛ لأنه خارج عن طاعة الله الخروج الأعظم، كقوله جل وعلا: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [البقرة: آية ٢٦] وقد يطلق الفسق على خروج دون خروج، كالمرتكب لبعض الذنوب، كقوله: ﴿إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ﴾ [الحجرات: آية ٦].

وفي هذه الآية الكريمة سؤال معروف، وهو أن يُقال: لِمَ قال: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ وهم جميعهم فاسقون، أكثرهم وأقلهم، كلهم فاسقون، فما وجه التعبير بقوله: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ﴾؟.

أجاب جماعة من العلماء عن هذا السؤال بأن المراد بالفسق هنا فسق خاص، وهو فسق نقض العهود وعدم الوفاء بها[1]، أي: وأكثرهم ناكثون، ناقضون للعهود، فاسقون هذا النوع الخاص من الفسق، وإن كان الجميع مشتركين في أنواع الفسق والكفر. وهذا معنى قوله: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ﴾.

﴿ٱشْتَرَوْا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٩﴾ [التوبة: آية ٩].

﴿ٱشْتَرَوْا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ الاشتراء في لغة العرب التي نزل بها القرآن معناه: الاستبدال، فكل أحد استبدل شيئاً من شيء تقول العرب: اشتراه، فالاشتراء في لسانها يتناول كل استبدال كائناً ما كان، ومن هذا المعنى قول الراجز[2]:

بُدِّلْتُ بالجُمَّةِ رَأْساً أَزْعَرَا ... وبالثَّنَايَا الواضِحَاتِ الدُّرْدُرَا

كما اشترى المُسْلِمُ إذْ تَنَصَّرَا

أي: كما تبدل المسلم، إذا أخذ النصرانية بدل الدين.

---

(١) انظر: ابن جرير (١٤/١٥٠)، البغوي (٢/٢٧١)، القرطبي (٨/٨٠).

(٢) مضى عند تفسير الآية (٧٩) من سورة البقرة.

والثمن في لغة العرب: تطلقه على كل عوض كائناً ما كان، تسميه العرب ثمناً. أما إطلاق (الشراء) على الثمن والمثمن، وتسمية المبيع (مُثمناً)، والمدفوع فيه (ثمناً) فهو اصطلاح خاص للفقهاء في البيوع. ومن إطلاق (الشراء) على الاستبدال و(الثمن) على كل عوض في اللغة العربية قول علقمة بن عَبَدَة التميمي[١]:

والحَمْدُ لا يُشْتَرى إلا له ثَمَنٌ ... مما تَضِنُّ به النفوسُ معلومُ

ومن هذا المعنى قول ابن أبي ربيعة المخزومي[٢]:

إن كنت حَاوَلْتَ دُنيا أو أَقَمْتَ لها ... ماذا أَخَذْتَ بتركِ الحَجِّ من ثَمَنِ

أي: من عوض يخلفه لك. وهذا معنى ﴿اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ استبدلوا بآيات الله الشرعية ـ التي هي هذا القرآن العظيم ـ تركوها وتعوضوا منها ثمناً قليلًا. واختلف العلماء بالمراد بهذا الثمن القليل[٣]، فقال جماعة من العلماء: هي نزلت في قوم من الأعراب الذين كانوا عاهدوا النبي ﷺ فدعاهم أبو سفيان بن حرب، وأطعمهم أُكْلَة، ونقضوا العهود بسبب ذلك. وهذا قاله جماعة كثيرة من المفسرين في هذه الآية. وهو مستبعد جداً؛ لأن هذه الآية من براءة نزلت بعد إسلام أبي سفيان؛ لأن أبا سفيان أسلم عام الفتح عام ثمان، وهذه نزلت عام تسع.

وقال بعض العلماء: هي في اليهود؛ لأنهم هم الذين تبدلوا الرُّشَا من بيان الحق، وهو ضعيف أيضاً.

والتحقيق ـ إن شاء الله ـ أن المعنى: أن الكفار تبدلوا من آيات الله والعمل بما جاء عن الله ثمناً قليلًا من متاع الحياة الدنيا، وهو ـ مثلًا ـ عدم التقيد بالشرع، وبقاؤهم على ما كانوا عليه، واتباعهم أهواءهم، كما قال

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٧٩) من سورة البقرة.

(٢) السابق.

(٣) انظر: ابن جرير (١٤/١٥٠)، البغوي (٢/٢٧١)، القرطبي (٨/٨٠).

(جل وعلا): ﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ [البقرة: آية ٩٠] فتعوضوا من هذا اتباعهم هواهم، وبقاءهم على ما كانوا عليه؛ لأنه أحب إليهم. وهذا شيء تافه تعوضوا منه سعادة الدنيا والآخرة. وهذا معنى قوله: ﴿اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾.

﴿فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِ﴾ الظاهر أن (صد)[1] هنا هي المتعدية، والمفعول محذوف. أي: فصدوا الناس عن سبيله؛ لأن صدودهم في أنفسهم معلوم من قوله: ﴿اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ لأن من اشترى بآيات الله ثمناً قليلًا فهو صاد عن سبيل الله، فبيّن أنهم ضُلّال بقوله: ﴿اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا﴾ وبيّن أنهم مضلون بقوله: ﴿فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِ﴾ أي: صدوا غيرهم عن سبيل الله (جل وعلا).

والسبيل: معناه الطريق. وسبيل الله: دين الإسلام؛ لأنه طريق الله التي أمر بها ووعد الجزاء الحسن لمن اتبعها؛ ولذا سُميت: (سبيل الله) أي: طريقه التي يدعو إليها، والتي توصل إلى رضاه، وإلى نيل ما عنده من الكرامة.

وقد قدمنا أن (السبيل) تُذكّر وتؤنث[2]، فمن تذكيرها في القرآن: قوله تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ﴾ [الأعراف: آية ١٤٦] برجوع الضمير مذكراً على السبيل. ومن تأنيث السبيل: ﴿هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ﴾ [يوسف: آية ١٠٨] ولم يقل: «هذا سبيلي أدعو إلى الله».

وهذا معنى قوله: ﴿فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: آية ٩].

﴿سَاءَ﴾: فعل جامد لإنشاء الذم. هو بمعنى (بئس)؛ لأن (ساء) بمعنى (بئس) وتعمل عمل (بئس) (...)[3].

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٤٥) من سورة الأعراف.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٥٥، ١١٦) من سورة الأنعام.

(٣) في هذا الموضع كلمة غير واضحة.

و(ما) إذا جاءت بعد (بئس) أو (نِعم) قال بعض العلماء: يجوز أن تكون نكرة مميزة للفاعل الذي هو الضمير المحذوف، ويجوز أن تكون هي فاعل (بئس) و(ساء) و(نِعم)[١]. وهذا معنى قوله: ﴿إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ فعلى أنها مميّزة فالتقدير: (ساء هو) أي: بئس هو شيئاً كانوا يعملونه. وعلى أنها فاعل فالأمر واضح. وهذا معنى قوله: ﴿إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

﴿لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ﴾ [التوبة: آية ١٠] كائناً من كان ﴿إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾ أي: قرابة ولا عهداً. أو: لا يرقبون في مؤمن الله، لا يرقبون الله ولا يخافونه في المؤمنين فيتقون الله فيهم.

ثم قال: ﴿وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ﴾ المعتدي: (مُفْتَعِل) من العدوان، والعدوان: مجاوزة الحد. والمراد بالمعتدين: الذين يجاوزون ما أحل الله إلى ما حرَّم. وهذا معنى قوله: ﴿وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ﴾.

ثم قال: ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [التوبة: آية ١١] فسرناها بالأمس.

﴿فَإِخْوَٰنُكُمْ﴾ أي: فهم إخوانكم في الدين. مفهومه: أنهم إن لم يتوبوا من الشرك، أو لم يقيموا الصلاة، أو لم يؤتوا الزكاة لا يكونون إخواننا في الدين. وهذا معنى قوله: ﴿فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿وَنُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ﴾ آيات هذا القرآن العظيم، نفصلها معناه: نبينها ونوضحها، ولا نترك بها إجمالاً.

﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ إنما خص القوم الذين يعلمون لأنهم هم المنتفعون بها؛ لأن من لم يرزقهم الله علماً لا ينتفعون بها. وجرت العادة في القرآن أنه يخص بالشيء العام المنتفعين به دون غيرهم، كقوله: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن

---

(١) انظر: التوضيح والتكميل (١١٧/٢).

يَخۡشَىٰهَا ﴿٤٥﴾﴾ [النازعات: آية ٤٥] لأنه المنتفع بالإنذار، وإن كان منذراً للأسود والأحمر ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكۡرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِۖ﴾ [يس: آية ١١] لأنه المنتفع مع أنه منذر للأسود والأحمر ﴿فَذَكِّرۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: آية ٤٥] لأنه هو المنتفع، وإن كان يُذكِّر جميع الخلق بالقرآن[١]. إلى غير ذلك من الآيات الدالة على هذا المعنى. ونرجو الله (جلّ وعلا) أن نكون ممن يفهم عن الله تفصيله لآياته؛ لأن هذا القرآن العظيم فصل الله فيه كل شيء، وأوضح فيه كل شيء ﴿وَلَقَدۡ جِئۡنَٰهُم بِكِتَٰبٖ فَصَّلۡنَٰهُ عَلَىٰ عِلۡمٍ هُدٗى وَرَحۡمَةٗ﴾ الآية [الأعراف: آية ٥٢].

﴿وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم مِّنۢ بَعۡدِ عَهۡدِهِمۡ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمۡ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ إِنَّهُمۡ لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾ أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوۡمٗا نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ وَهَمُّواْ بِإِخۡرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ أَتَخۡشَوۡنَهُمۡۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَوۡهُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٣﴾ قَٰتِلُوهُمۡ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ وَيُخۡزِهِمۡ وَيَنصُرۡكُمۡ عَلَيۡهِمۡ وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذۡهِبۡ غَيۡظَ قُلُوبِهِمۡۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾ أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تُتۡرَكُواْ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَلَمۡ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَلِيجَةٗۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [التوبة: الآيات ١٢ ـ ١٦].

[هذه][٢] الآياتُ من سورة براءة يكاد المفسِّرون من الصحابة فمن بعدهم يُجمعون على أنها نازلة في نقض أهل مكة للعهد الذين عقدوه مع النبي ﷺ بالحديبية[٣]، وذلك يدل على أن بعض هذه الآيات من سورة براءة نزلت قبل التاريخ الذي كنا نقول؛ لأن هذا نازل قبل عام تسع على القول بأنها في أهل مكة، وعامة المفسرين يقولون: إنها فيهم، ولا نعلم أحداً ممن اشتهر عنهم أخذ العلم يقول في غيرهم إلا القول المروي عن

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٥١) من سورة الأنعام.

(٢) في هذا الموضع وُجد انقطاع يسير في التسجيل وما بين المعقوفين [ ] زيادة يتم بها الكلام.

(٣) انظر: ابن جرير (١٤/١٥٤)، القرطبي (٨/٨٤).

حذيفة بن اليمان (رضي الله عنه) أن هذه في قوم لم يقاتَلوا بعدُ وقت نزولها[(١)]. وعلى هذا القول فلا تُحفظ تفاصيل لهذا النكث والنقض، بل الظاهر والسياق يقتضي أنها في أهل مكة؛ لأن قوله: ﴿وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ﴾ [التوبة: آية ١٣] الذين هموا بإخراجه هم أهل مكة، وعلى هذا عامة المفسرين.

ومعنى الآية الكريمة: ﴿وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ﴾ [التوبة: آية ١٢] النكث في لغة العرب: هو تفكيك طاقات الشيء المفتول، فالحبل المفتول ـ مثلاً ـ إذا فككتَ طاقاته، وجعلت كل واحدة منها على حدة فقد نكثته، وقد نقضته، كما في قوله: ﴿كَٱلَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا﴾ [النحل: آية ٩٢] جمع نِكْث. وعلماء البلاغة يقولون: إن النكث والنقض حقيقة في الحسيات، كل مفتول فككت بين طاقاته فقد نقضته وقد نكثته، وأنها في المعنويات كالعهود مستعارة[(٢)]. ونحن دائماً نقول: إنها أساليب عربية نطقت بها العرب منذ تكلمت بلغتها، ونزل بها القرآن، يطلق النكث على تفكيك طاقات الحبل، ويطلقه أيضاً على الإخلال بالعهود ونقضها وإبطالها.

﴿وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُم﴾ الأيمان: جمع يمين. قال بعض العلماء: هي العهود[(٣)]. وقال بعض العلماء: هي الأيمان التي تؤكّد بها العهود؛ لأنهم إذا أُخِذَت عليهم العهود أكدوها بالأيمان.

وقوله: ﴿مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ﴾ أي: من بعد العهد الذي عقدوه مع النبي ﷺ.

﴿وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُواْ فِى دِينِكُمْ﴾ الطعن في

---

(١) أخرجه ابن جرير (١٤/١٥٦)، وابن أبي حاتم (٦/١٧٦١)، وأورد البغوي (٢/٢٧٢) عن مجاهد قوله: «هم أهل فارس والروم».

(٢) انظر: المفردات (مادة: نكث) (٨٢٢)، القرطبي (٨/٨١)، فتح القدير (٢/٣٤١)، التحرير والتنوير (٩/٧٣).

(٣) انظر: ابن جرير (١٤/١٥٦).

الدين معناه: استنقاصه وثلبه بالمعايب. يقولون: إن دين الإسلام ليس بشيء، وأنهم يعيبونه إذا نقضوا العهد وعابوا الدين وثلبوه.

﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ﴾ الأصل: فقاتلوهم، إلا أن هؤلاء الذين ينقضون العهود ويسبون الدين أجرى الله العادة أنهم الرؤساء المتبوعون؛ لأن الله أجرى عادته بأن الذين يناصبون الرسل بالعداوة هم القادة المتبوعون المترفون، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ﴾ [الزخرف: آية ٢٣] المتنعمون الكبار منها. وهذه سنة الله في خلقه؛ ولذلك لما سأل هرقل أبا سفيان في حديثه الصحيح المشهور: أأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاهم؟ فقال: بل ضعفاهم. قال: أولئك أتباع الأنبياء[1]. وهذه سنة الله في كونه؛ ولذا قال: ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ﴾.

قرأ هذا الحرف من السبعة نافع وابن كثير وابن عامر: ﴿أَيِمَّةَ ٱلْكُفْرِ﴾ بجعل الهمزة الأخيرة بين بين[2]، وقرأه عامة الباقين من السبعة: ﴿أَئِمَّةَ﴾ بتحقيق الهمزتين.

والأئمة جمع إمام، وأصله: أَأْمِمَة وزنه: (أَفْعِلَة) جمع (فِعَال) كمثال وأمثلة. توصَّلَ فيه إلى الإدغام بتسكين الميم الأولى، ونُقِلَت حركتها إلى الهمزة فقيل فيه: (أئمة)[3] والأئمة جمع الإمام، والإمام هو: المقتدىٰ به. وللكفر أئمة يقتدى بهم فيه ـ والعياذ بالله ـ كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ الآية [القصص: آية ٤١].

﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ﴾ أي: رؤساء الكفر وعظماءه الذين عابوا دينكم

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٩٣) من سورة الأنعام.

(٢) قال ابن مجاهد في كتاب السبعة ص٣١٢: «قرأ ابن كثير وأبو عمرو ونافع: (أَيْمَة) بهمز الألف وبعدها ياء ساكنة. غير أن نافعاً يُختلف عنه في ذلك... وقرأ عاصم وابن عامر وحمزة والكسائي: (أَئِمة) بهمزتين» ا.هـ. وانظر: المبسوط لابن مهران ص٢٢٥، النشر (٣٧٨/١ ـ ٣٧٩) وقد فصل في كيفية تسهيل الهمزة الثانية، ونقل مذاهب القراء في ذلك.

(٣) انظر: القرطبي (٨٤/٨)، حجة القراءات ص٣١٥، الدر المصون (٢٥/٦)، معجم مفردات الإبدال والإعلال ص٢٧.

ونقضوا عهودكم. والعادة أن الذي يتصدى لتكذيب الرسل وعنادهم وعداوتهم الرؤساء المتبوعون، شياطين الإنس. وما جرى على ألسنة كثير من العلماء هنا أنهم: أبو جهل وأمية بن خلف وسهيل بن عمرو إلى أشراف المذكورين في غزوة بدر، فهو خلاف الظاهر(١) للإجماع على تأخر هذه الآيات كثيراً إلى عام تسع، أو إلى أنها نزلت قبل الفتح عام ثمان، وهذا معنى قوله: ﴿إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ﴾.

قرأ هذا الحرف عامة السبعة غير ابن عامر: ﴿إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ﴾ بفتح الهمزة. وهو جمع يمين، وقرأه ابن عامر من السبعة: **﴿إنهم لا إيمان لهم لعلهم ينتهون﴾**(٢).

فعلى قراءة الجمهور(٣): ﴿لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ﴾ جمع يمين، التحقيق فيها: أن نفي أيمانهم على قراءة الجمهور إنما يراد به أنهم لا يوفون بها وهي عندهم كَلَا أيمان؛ لأنهم ينقضونها، وهذا أسلوب عربي معروف؛ تقول العرب لمن يكذب وينقض العهود: لا تغتر بيمين هذا فلا يمين له، يعني: لا يفي بها ولا يبرّها ولا يوفي بعهد، وهذا المعنى مشهور في كلام العرب، ومنه قول الحماسي(٤):

وإن حلَفَت لا يَنْقُضُ النَّيْنُ عَهْدَهَا ... فليسَ لِمَخْضُوبِ البَنَانِ يَمينُ

يعني ليس للنساء أيمان؛ لأنهن ينقضنها غالباً. هذا مراده.

وقد تمسك الإمام أبو حنيفة ـ رحمه الله ـ بظاهر هذه الآية فقال: لا

---

(١) انظر: ابن جرير (١٥٤/١٤)، ابن عطية (١٤١/٨)، القرطبي (٨٤/٨)، فتح القدير (٣٤١/٢).

(٢) انظر: السبعة ص(٣١٢)، المبسوط لابن مهران ص(٢٢٥).

(٣) في توجيه القراءتين انظر: ابن جرير (١٥٧/١٤)، القرطبي (٨٥/٨)، حجة القراءات ص(٣١٥)، الدر المصون (٢٥/٦).

(٤) البيت في القرطبي (٨١/٨)، الدر المصون (٢٦/٦) وفي القرطبي: «لا يَنْقُضُ النأيُ» وفي الدر المصون: «لا تَنْقُضُ الدهرَ».

تُقبل يمين من كافر، ويمين الكافر كلا شيء، فلا يمين له، لأن الله يقول: ﴿إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ﴾[(١)].

وعلى قراءة ابن عامر: **﴿إنهم لا إيمان لهم لعلهم ينتهون﴾** ففي معنى الآية الكريمة وجهان واضحان معروفان من التفسير:

أحدهما: أن المراد بالإيمان المنفي عنهم هو الإيمان الذي هو دين الإسلام، يعني: لا إسلام لهم ولا دين.

القول الثاني: ـ وهو أظهرهما ـ أنه مصدر: (آمَنَه يؤمِنُه إيماناً) إذا أمَّنه وجعله في مأمن. فالعرب تقول: «آمنت فلاناً أومنه» معناه: أمّنته وجعلت له الأمان، وهو معنىً مشهور في كلام العرب؛ منه قول الشاعر[(٢)]:

أَيَـانَ نُـؤْمِـنْـكَ تُـؤْمَـنْ غَـيْـرَنَـا وإذا ... لـم تُـدْرِكِ الأَمْـنَ مـنَّـا لـم تَـزَلْ حَـذِرَا

وهذا أظهر القولين؛ لأن نفي الإيمان عن أئمة الكفر معروف واضح. وهذا معنى قوله: ﴿إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ﴾.

قوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ﴾ متعلق بقوله: ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ﴾ فقاتلوهم لأجل أن يكون قتالكم لهم رادعاً وسبباً لانتهائهم.

وقد قدمنا في هذه الدروس مراراً[(٣)] أن من أشهر معاني (لعل) في القرآن معنيان:

أحدهما: أنها على معناها الظاهر من الترجي، والمعنى: قاتلوهم على رجائكم أن ذلك القتال يكون موجباً لانتهائهم عن الكفر والطعن في الدين، وهذا بحسب ما يظهر للناس الذين يجهلون العواقب، أما الله (جلّ وعلا) فهو عالم بما كان وما يكون، وعلى هذا المعنى فقوله: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا

---

(١) انظر: المبسوط للسرخسي (١٤٧/٨).

(٢) البيت في البحر المحيط (٤١٩/٤)، الدر المصون (٥٢٩/٥).

(٣) راجع ما سبق عند تفسير الآية (٥٢) من سورة البقرة.

﴿لَعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ﴾ [طه: آية ٤٤] أي: على رجائكما بقدر علمكما أن يكون ذلك سبباً لأن يتذكر أو يخشى.

الوجه الثاني: هو ما قاله بعض علماء التفسير من أن كل (لعل) في القرآن فهي بمعنى: التعليل، إلا التي في الشعراء ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾﴾ [الشعراء: آية ١٢٩] قالوا: هي بمعنى كأنكم تخلدون. وإتيان «لعل» بمعنى التعليل معنىً معروف في كلام العرب، ومنه قول الشاعر[1]:

فقُلتُم لنا كُفُّوا الحروبَ لعلَّنا ... نكفُّ ووثَّقْتُم لَنَا كلَّ موثِقِ

فقوله: «كفوا الحروب لعلنا نكف» أي: كفوا لأجل أن نكف عنكم.

وقوله: ﴿يَنتَهُونَ﴾ أي: يرتدعون ويكفون وينزجرون عما هم عليه من الكفر والطعن في الدين.

وقد أخذ العلماء من هذه الآية الكريمة من سورة براءة: أن الذي يطعن في دين الإسلام بلسانه ويستخف به أنه يُقتل[2]، أما إذا كان ذمياً عُقِدَت له ذمة المسلمين فطعن في الإسلام أو سبّ النبي ﷺ فالجمهور على أنه يُقتل[3]؛ لأن ذلك ينتقض به عهده ويبطل به عهده. وقال بعض العلماء: إنه لا يقتل ولكنه يُؤدَّب ويُعزَّر؛ لأنه أُعطي له الأمان وهو على كفره. والأول أظهر. وهذا معنى قوله: ﴿إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ﴾ أي: قاتلوهم لعلهم ينتهون عن كفرهم.

٢/ب / قال تعالى: ﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّوا۟ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾﴾ [التوبة: آية ١٣].

(ألا) هنا حرف تحضيض، والتحضيض معناه الطلب بِحَثّ وشدة.

---

(١) السابق.

(٢) انظر: القرطبي (٨/٨٢).

(٣) السابق (٨/٨٣).

والمعنى: إن الله هنا طلب منهم بِحَث وشدة أن يقاتلوا هؤلاء الكفَرَة أئمة الكفر، وبيّن لهم أن قتالهم إياهم الذي حضَّض عليهم فيه أن له أسباباً متعددة، كل واحد منها يستوجبه بانفراده، فكيف بها مجموعة؟

الأول منها: أنهم نكثوا أيمانهم.

الثاني: أنهم هموا بإخراج الرسول (صلوات الله وسلامه عليه).

الثالث: أنهم بدؤوكم بالقتال.

فهذه الأسباب حرية بأن يُقاتَل الذين اقترفوها وجاؤوا بها. وهذا معنى قوله: ﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا﴾.

قد قدمنا مراراً[١] أن (القوم) اسم جمع لا واحد له من لفظه، وأنه في الوضع العربي يختص بالذكور دون الإناث، بدليل قوله: ﴿لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ﴾ ثم قال: ﴿وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ﴾ [الحجرات: آية ١١] وأن المرأة ربما دخلت في اسم (القوم) بحكم التبع إذا اقترن بما يدل عليه، كقوله: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [النمل: آية ٤٣].

وقال بعض العلماء: سمي قوم الرجل قوماً لأنه لا قوام للإنسان إلا بجماعة ينضم إليها ويدخل في جملتها. وهذا معنى قوله: ﴿قَوْمًا نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ﴾ أي: نقضوا عهودهم، أو نقضوا العهود وأخلّوا بالأيمان التي حلفوها توكيداً للعهود.

﴿نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّوا۟ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ﴾ [التوبة: آية ١٣] الجماهير على أن هؤلاء الذين هموا بإخراج الرسول هم كفار مكة[٢] حين دبروا له المكيدة التي قدمناها موضحة في سورة الأنفال[٣] في قوله: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ [الأنفال: آية ٣٠] والله (جل وعلا) نص في بعض الآيات أنهم أخرجوه بالفعل؛ لأنهم في الحقيقة

(١) مضى عند تفسير الآية (٨٠) من سورة الأنعام.

(٢) انظر: القرطبي (٨/٨٦)، الأضواء (٢/٤٣٠).

(٣) مضى عند تفسير الآية (٣٠) من سورة الأنفال.

اضطروه وألجؤوه (صلوات الله وسلامه عليه) إلى الخروج؛ لأن عمه أبا طالب ما دام حياً كان يكفهم عنه، ويردعهم عنه، ولا يقدرون أن يبلغوا منه المبلغ الذي بلغوا بعد أن مات، وكان يقول له[1]:

والـلّـهِ لنْ يـصلـوا إلـيكَ بـجَـمْـعِـهـم حـتـى أُوسَّـد فـي الـتـراب دَفـيـنـا
اصـدع بـأمـركَ مـا عـلـيـك غـضـاضـةٌ ....

فلما توفي أبو طالب ضيّقوا عليه حتى خرج (صلوات الله وسلامه عليه) ودخل هو وصاحبه الصديق في الغار كما ستأتي قصة ذلك مفصلة في هذه السورة الكريمة ـ سورة براءة ـ حيث نصّ الله عليه فيها. وقد قال جل وعلا: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَتْكَ﴾ [محمد: آية ١٣] فصرّح بأنهم أخرجوه. وقال (جلّ وعلا): ﴿يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ﴾ [الممتحنة: آية ١] وقال: ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ [الحج: آية ٤٠] وقال تعالى: ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا﴾ الآية [الإسراء: آية ٧٦] إلى غير ذلك من الآيات.

والرسول هو سيدنا محمد (صلوات الله وسلامه عليه). وأصل الرسول (فَعُول) بمعنى (مُفْعَل) رسول بمعنى مُرسل. وأصل الرسول مصدر، وإتيان المصادر على وزن (الفعول) مسموع بقلة، كرسول بمعنى الرسالة، وقبول، وولوع، في أوزان قليلة[2]. والتحقيق أن أصل الرسول مصدر، ومن إطلاقه مصدراً قول الشاعر[3]:

لقد كَذَبَ الواشُونَ ما فُهْتُ عندهم بـقـولٍ ولا أرسَـلْـتُـهـم بـرسـولِ

يعني: ما أرسلتهم برسالة. ومن فوائد كون أصل الرسول مصدراً؛ لأن هذا الأصل يُحل به بعض الإشكالات في القرآن؛ لأن من المقرر في

---

(١) الأبيات في البداية والنهاية (٤٢/٣)، ولفظ البيت الثاني هناك:
فـامـض لأمـرك مـا عـلـيـك غـضـاضـة أَبْـشِـرْ وقَـرَّ بـذاكَ مـنـك عـيـونـا
(٢) مضى عند تفسير الآية (١٣٠) من سورة الأنعام.
(٣) السابق.

علم العربية أن المصدر إذا نُعت به أُلزم الإفراد والتذكير، وربما تنوسي كونه مصدراً فجُمع[١]، وقد جاء (الرسول) مجموعاً بلفظ المفرد، وقد جاء مثنى بلفظ المفرد؛ لأن الله قال في سورة طه: ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا﴾ [طه: آية ٤٧] فثنى، وقال في سورة الشعراء: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ بالإفراد. ووجه الإفراد في آية الشعراء: أن أصل الرسول مصدر، والمصادر إذا نُزِّلت منزلة الأوصاف أُفردت وذُكِّرَت، ويدل لهذا أنه سُمع في لغة العرب إطلاق الرسول مراداً به الجمع؛ لأن أصله مصدر، ومنه بذلك المعنى قول أبي ذؤيب الهذلي[٢]:

أَلِكْنِي إليها وخَيْرُ الرسولِ أَعْلَمُهُم بنَوَاحي الْخَبَر

يعني: وخير الرسل. وهذا معنى قوله: ﴿وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ﴾.

ثم قال: ﴿وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [التوبة: آية ١٣] حذف المتعلق لقوله: ﴿بَدَءُوكُمْ﴾ والظاهر أن المعنى: بدؤوكم بالقتال والعدوان عليكم أول مرة، واختلف العلماء في وجه ذلك على قولين[٣]:

أحدهما: أن ابتداءهم للقتال هو ما قدمناه مفصلاً في سورة الأنفال في غزوة بدر؛ لأن النبي ﷺ خرج فيها للعير خاصة ولم يخرج للقتال، فلما سَاحَل أبو سفيان بالعير، ونجت العير، واستنفر النفير، وجاءهم الخبر أن عيرهم قد سلمت، كان من حقهم في ذلك الوقت أن يرجعوا، كما أشار عليهم به عمير بن وهب وعتبة بن ربيعة وحكيم بن حزام، ولكن الخبيث أبا جهل قال: والله لا نرجع حتى نرد بدراً ـ وكانت من مواسم العرب ـ وتعزف علينا الغواني، ونشرب الخمر. وفي بعض الروايات أنه قال: لا نرجع حتى نستأصل محمداً وأصحابه[٤]. فلما

(١) مضى عند تفسير الآية (٤٦) من سورة الأنعام.
(٢) مضى عند تفسير الآية (٥٠) من سورة الأنعام.
(٣) انظر: القرطبي (٨/٨٦).
(٤) مضى عند تفسير الآية (٥) من سورة الأنفال.

نجت عيرهم وجاؤوا بعد ذلك إلى بدر معناه أنهم يريدون الشر، فكان هذا ابتداؤهم بالشر.

وقال بعض العلماء: ـ وهو أظهرهما ـ أن معنى: ﴿وَهُم بَدَءُوكُمْ﴾ أي: بدؤوكم بنقض العهود وقتل من كان داخلًا في حلفكم كما وقع من قريش في إعانتهم لبني الديل بن بكر على خزاعة فقتلوهم، كما قال راجزهم[1]:

هم بَيَّتُونا بالوَتِيْرِ هُجَّدَا ... وقتلونا رُكَّعاً وسُجَّدَا

فابتداء هذا القتل كأنهم بدؤوا بالقتل ونقض العهود، وخزاعة في ذلك الوقت لهم حكم أصحاب النبي ﷺ لدخولهم في عهده. وهذا معنى قوله: ﴿وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ كان في المرة الأولى ابتداء السوء حاصلًا منهم. وهذا معنى قوله: ﴿وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [التوبة: آية ١٣].

ثم إن الله لما أمر النبي ﷺ وأصحابه بقتال الكفار أنكر عليهم أن يخافوا الكفار، قال: ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ﴾ بهمزة الإنكار. يعني: لا تخشوا هؤلاء أبداً فإنهم كفَرَة فجَرَة، والله (جل وعلا) أحق أن تخشوه فتمتثلوا أمره، وتقاتلوا أئمة الكفر الذين همُّوا بإخراج الرسول، وبدؤوا بالشر أول مرة. وهذا معنى قوله: ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ﴾.

﴿فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ (إن) في قوله: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ تشكل دائماً على المتعلمين وبعض العلماء[2]، و(إن) هذه هي التي اختلف فيها البصريون والكوفيون، وهي كثيرة في القرآن، فالبصريون يقولون: إن (إن) هذه أنها صيغة شرط جيء بها مراداً بها التهييج وقوة الحمل على الامتثال، وهو أسلوب عربي معروف، أن العرب تنطق بأداة الشرط ولا تريد به حقيقة تعليق جزاء على شرط،

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٨) من سورة الأنفال.

(٢) مضى عند تفسير الآية (١١٨) من سورة الأنعام.

وإنما تريد به التهييج والدعوة الصارمة إلى الامتثال، كما تقول للرجل: «إن كنت ابن فلان فافعل لي كذا» وأنت تعلم أنه ابن فلان، إلا أنك تستنهضه وتستحثه، ومن هذا المعنى قول واحد من أولاد الخنساء لما أوصتهم بالجهاد في سبيل الله[١]:

لستُ لخنساءَ ولا للأَخْرَمِ ولا لعمرو ذي الثَّناءِ الأقدَمِ
إن لم أَرِدْ في الجَيْشِ جَيْشَ الأَعْجَمي ماضٍ على الهولِ خِضَمّ خِضْرِمِ

يعني: إن لم أرد في الجيش فلست ابناً لأبي ولا لأمي. لا يقصد التعليق وإنما يقصد تحريض نفسه على هذا. هذا معناها عند البصريين فيما يصح فيه هذا وفيما لا يصح فيه هذا كقوله: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الفتح: آية ٢٧] وهم داخلوه قطعاً. وقوله ﷺ في أحاديث الزيارة: «**وإنا إن شاء الله بكم لاحقون**»[٢] وهم لاحقون بهم قطعاً، قالوا: السر في هذا التعليق ليُعَلِّم الله خلقه أنهم لا يتكلمون عن مستقبل إلا بتعليقه على مشيئة من له المشيئة، ولو كان أمراً واقعاً لا محالة فكيف بغيره.

أما الكوفيون فإنهم يقولون: إن (إن) هذه بمعنى (إذ) وأنها تعليلية، ويقولون: «فالله أحق أن تخشوه إذ كنتم مؤمنين» أي: لأجل كونكم كنتم مؤمنين فذلك يستوجب منكم الخشية، وإطلاق (إن) بمعنى (إذ) ربما سمع في كلام العرب، وأنشد له بعض علماء العربية قول الفرزدق[٣]:

أَتَغْضَبُ إن أُذْنَا قُتَيبة حُزَّتَا جِهاراً ولم تَغْضَب لقتل ابنِ خازم

يعني: أتغضب لأجل «إذ حُزَّت أذنا قتيبة؛ لأجل أن حُزَّتا» وهذان الوجهان في قوله: ﴿فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: آية ١٣].

---

(١) هذان البيتان سبق ذكرهما عند تفسير الآية (١١٨) من سورة الأنعام.

(٢) السابق.

(٣) السابق.

قال تعالى: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ۝١٤ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝١٥﴾ [التوبة: الآيتان ١٤، ١٥].

[﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ]⁽¹⁾ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾.

لما أمر الله النبي ﷺ وأصحابه بمقاتلة أئمة الكفر وعدهم وعده الجميل ـ وهو لا يخلف الميعاد ـ ليستنشط هممهم بهذا الوعد على امتثال الأمر ﴿قَٰتِلُوهُمْ﴾ أي: قاتلوا الكفرَة وأئمة الكفر ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ «يعذب» فعل مضارع مجزوم بجزاء الطلب، وجماهير من علماء العربية يقولون: إن جزم المضارع في جزاء الطلب أن أصله مجزوم بشرط مقدر دل الأمر عليه، وتقديره: إن تقاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم. وهو جائز[2]، فالجزم يجوز، ولو لم يجزم لكان جائزاً؛ لأن الجزم في جزاء الطلب لم يتعين. ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ هذا التعذيب الذي يعذبهم الله بأيديهم هو القتل بالضرب الوجيع الذي يصل به صاحبه إلى النار.

﴿وَيُخْزِهِمْ﴾ أي: يذللهم ويهينهم بالأسر، فإن القتل تعذيب، والأسر خزي وإهانة وإذلال، وهذا معنى قوله: ﴿يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ﴾.

﴿وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ أي: ويعنكم عليهم حتى تقتلوا منهم وتأسروا.

﴿وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: آية ١٤] (يشف) معناه: يداوي داء قلوبهم؛ لأن المؤمن يكون وَغِر الصدر حانقه على الكافر، كأن قلبه مريض لما فيه من شدة الغضب، وكون صدره وَغِراً على الكفار لكفرهم بالله وقتلهم للمسلمين فإذا أمكنه الله منهم وقتلهم وأسرهم شفى ذلك صدره لأن الغيظ كأنه داء كامن في صدره، والتمكن من الأعداء والتسليط عليهم وقتلهم وأسرهم يشفي ذلك الداء الكامن في الصدر،

---

(١) أول الآية ذهب من التسجيل. وقد أثبتُّ أولها وجعلته بين معقوفين.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٦٩) من سورة البقرة.

فينشرح الصدر، ويزول ما كان فيه من كامن المرض الدفين والحقد على الكفار. وهذا معنى معروف في كلام العرب مشهور مبتذل جداً، ومنه قول مهلهل بن ربيعة(١):

ولكنَّا نَهَكْنَا القومَ ضَرْباً على الأثباج منهم والنحورِ
هتَكْتُ به بيوتَ بني عُبادٍ وبعضُ القتلِ أشفى للصدورِ

لأن طالب الثأر كأنه وَغِر الضمير حران فإذا قتل صاحبه بردت غلته وشُفي ما في صدره. وهذا كثير معروف في كلام العرب مشهور. وهذا معنى قوله: ﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: آية ١٤] قال جماهير من أهل التفسير: إن المراد بالقوم المؤمنين أنهم خزاعة(٢) حيث تمالأ عليهم البكريون وقريش وقتّلوهم في الحرم، واستنجدوا بالنبي ﷺ لما أرسلوا عمرو بن سالم في قوم منهم بديل بن ورقاء، وقال عمرو رجزه الذي ذكرنا قبل هذا. وعن النبي ﷺ أنه قال: «**لا نصرت إن لم أنصر بني كعب**»(٣) يعني من خزاعة، وقد كان ذلك سبباً لغزاة الفتح، وقد قتل جماعة من المشركين يوم الفتح، قال بعض المؤرخين: قتل منهم اثنا عشر رجلاً يوم فتح مكة، والأظهر كما قدمنا مراراً أن أهل مكة قُتلت منهم جماعات. وقد جاء في صحيح مسلم ما يدل على ذلك(٤)، ويدل على ذلك رجز حماس بن قيس المشهور الذي هو مشهور عند العلماء؛ لأن حماس بن قيس كان في مكة، وكان يقول لامرأته: لأُخدمنك نساء محمد ﷺ، ولأجعلهن لك خدماً. وكان يقول لها: إذا جئتك منهزماً فأغلقي الباب دوني. فكان في ذلك اليوم في الطائفة التي وقع فيها القتل والقتال فجاءها مذعوراً منهزماً، وكان يقول قبل يوم الفتح(٥):

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٤١) من سورة الأنفال.
(٢) انظر: ابن جرير (١٤/١٦٠)، القرطبي (٨/٨٧).
(٣) تقدم تخريجه عند تفسير الآية (٥٨) من سورة الأنفال.
(٤) تقدم تخريجه عند تفسير الآية (٤١) من سورة الأنفال.
(٥) تقدمت هذه الأبيات عند تفسير الآية (٤١) من سورة الأنفال، وقد أثبتنا نصها هناك من بعض المصادر.

إنْ يُقْبِلُوا اليوم فما لي علَّة ... هذا سلاحٌ كامِلٌ وألَّه

وذُو غِرارَيْنِ سَرِيعُ السَّلَّه

فلما جاء زوجته ووجهه كأنه زعفران من الخوف، وقال لها تفتح له الباب، فقالت له: أين الذي كنت تقول؟ فقال[1]:

إنكِ لو شهدتِ يومَ الخَنْدَمَة ... إذْ فَرَّ صَفْوانٌ وفَرَّ عِكْرِمَهْ

واسْتَقْبَلَتْنَا بالسيوفِ المُسْلِمَةِ ... لهم نهيتٌ خلفنا وهَمْهَمَهْ

يَقْطَعْنَ كلَّ سَاعِدٍ وجُمْجُمة ... ضرباً فلا تسمعُ إلا غَمْغَمَهْ

لم تَنْطِقي باللومِ أدنى كَلِمَهْ

وهذا صريح في أنهم قاتلوا وقتلوا. وفي صحيح مسلم: أنهم لم يتعرض لهم ذلك اليوم أحد إلا أناموه[2] كما هو معروف. وقد ذكرناه مفصلًا في سورة الأنفال[3]. فهذا القتل قتل قريش وإذلالهم وقهرهم، شفى صدور الخزاعيين حيث أخذوا بثأرهم وأذل الله عدوهم. وهذا معنى قوله: ﴿وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ۝١٤ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾ [التوبة: الآيتان ١٤، ١٥] لِمَا نالوا من شفاء غليل صدورهم من قهر أعدائهم كما قال الشاعر[4]:

تعلَّمْ شِفَاءَ النَّفسِ قَهْرَ عدوِّهَا ... فبالغْ بلطفِ في التحيُّلِ والمَكْرِ

وهذا معنى ﴿وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾.

﴿وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ﴾ قراءة الجمهور: ﴿وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ﴾ لأنها ليست معطوفاً على الجزاء، والأفعال المعطوفة على الجزاء جُزمت، والقراءة هنا هي الجزم.

أما اللغة فيجوز في الأفعال المعطوفة على الشرط والجزاء معاً بعد أن

---

(١) تقدمت هذه الأبيات عند تفسير الآية (١٥١) من سورة الأنعام، وقد أثبتنا نصها هناك من بعض المصادر.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٤١) من سورة الأنفال.

(٣) السابق.

(٤) البيت في أوضح المسالك (١/٢٩٥)، شذور الذهب ص٣٦٢.

تستكمل أداة الشرط شرطها وجزاءها، فالأفعال المعطوفة عليها معلوم أنها يجوز فيها ثلاث لغات: الجزم كما في قراءة هذه الآيات، والرفع، والنصب، وهو معنى معروف في كلامهم، وفي أوجه العربية الثلاثة يروى قول نابغة ذبيان[1]:

فإن يَهْلِكْ أبُو قابوسَ يَهلِكْ ربيعُ الناسِ والشهرُ الحرامُ
ونأخذَ بعده بِذِنابِ عيشٍ أجَبَّ الظَّهرِ ليسَ لهُ سَنامُ

فيه: «ونأخذْ»، «ونأخُذُ»، «ونأخُذَ» بالجزم، والنصب، والفتح. وهذا معنى قوله: ﴿وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ بعد ذلك يتوب الله على من يشاء أن يتوب عليه، قد يوفق بعض المشركين فيتوبون إلى الله ويتوب عليهم. وتوبة الله على عبده هي أن يقيل عثرته، ويقبل منه رجوعه حتى يكون الذي صدر منه كأنه لم يكن.

﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ أن يتوب عليه، فمفعول المشيئة محذوف.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ كثير العلم يبالغ في علم نفسه لإحاطة علمه بكل شيء ﴿حَكِيمٌ﴾ لأنه حكيم في شرعه وفي أقواله وأفعاله وتدبيره وجزائه، فهو حكيم في كل شيء، وله الحكمة البالغة (جلّ وعلا).

قال الله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾﴾ [التوبة: الآيات ١٦ ـ ١٩].

---

(١) ديوان النابغة ص١٥٧.

يقول الله (جلّ وعلا): ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [التوبة: آية ١٦].

(أم) هنا هي المنقطعة. ومعنى (أم) المنقطعة عند علماء العربية: أنها تأتي بمعنى استفهام الإنكار، وبمعنى (بل) الإضرابية، وتأتي بمعناهما معاً، وهو أجودها[1].

و(حسبتم) معناه ظننتم. والإنكار الذي في قوله: «أم» يتوجه إلى من ظن أنه يدخل الجنة من غير ابتلاء ولا امتحان. والمعنى: أحسبتم، أي: أظننتم أن الله يترككم من غير أن يختبركم بالمشاق التي يظهر بالاختبار بها المطيع من العاصي، والمحق من المبطل، والصادق من الكاذب؟ والمعنى: لا بد أن يبتليكم الله ويمتحنكم بأنواع الابتلاء، ومن أعظمها: الأمر بالجهاد في سبيل الله الذي فيه تعريض المهج والأموال للتلف والضياع؛ لأن ذلك يظهر به الزائف من الخالص، ويتبين به الصادق من الكاذب، وهذا معنى قوله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ﴾ يعني أظننتم؟ الحسبان معناه الظن ﴿أَن تُتْرَكُوا﴾ أن يترككم الله من غير اختبار ولا امتحان ولا ابتلاء؟ لا. لا يكون ذلك أبداً ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ﴾ هي (لم) النافية دخلت عليها (ما) المزيدة لتوكيد النفي، وهي تدل على توقع حصول الأمر ولم يحصل بالفعل. وقوله: ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ﴾ أي: يترككم الله ولم يختبركم اختباراً يُعلم به من هو الصادق منكم ومن هو الكاذب، ومن هو المخلص وغيره.

وهذه الآيات وأمثالها في القرآن التي ربما يفهم الجاهل منها أن الله يختبرهم ليطرأ له علم بذلك الاختبار، هذا لا يُراد؛ لأن عالم الغيب والشهادة، عالم بما كان، وما سيكون، وما يقع، وعالم بالمعدومات والموجودات، والجائزات والمستحيلات، حتى إنه من إحاطة علمه ليعلم المعدوم الذي سبق في علمه أنه لا يوجد وأنه لا يكون

---

(١) انظر: الكليات ص١٨٢، معجم الإعراب والإملاء ص٧٨.

يعلم أن لو كان كيف يكون، كما أوضحناه مراراً[١].

وجرت العادة في القرآن أن الله تبارك وتعالى إذا جاء عنه بعض الآيات التي فيها شبه خفاء لا بد أن يبيّنه ويوضحه في بعض المواضع، وقد أوضح هذا في آية من سورة آل عمران قدمناها مراراً، أوضح فيها أنه يختبر ويبتلي ليُظهر للناس حقيقة الناس، ويعلموا المخلص من الزائف، والصادق من الكاذب، وتلك الآية هي قوله تعالى: ﴿وَلِيَبْتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ﴾ [آل عمران: آية ١٥٤] بيّن أن ما أوقع بهم يوم أحد من تسليط المشركين عليهم وقتل سبعين منهم أنه فعل ذلك لأجل أن يبتليهم ويختبرهم ويمحص ما في قلوبهم، فظهر المنافقون من الصادقين، ومع هذا قال بعد قوله: ﴿وَلِيَبْتَلِيَ﴾ قال: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [آل عمران: آية ١٥٤] ومن هو عالم بما يخطر في الضمائر لا يستفيد بالاختبار علماً سبحانه (جلّ وعلا) عن ذلك. فالمراد بـ ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ﴾ هنا إظهار معلومه للناس، أو العلم الذي يترتب عليه الثواب والجزاء؛ لأن الله عالم بأفعالهم قبل أن يفعلوها، وعلمه بها أولًا لا يترتب عليه ثواب ولا عقاب، وعالم أيضاً بها وقت فعلها وذلك العلم الذي يترتب عليه الثواب والعقاب. وقال البغوي (رحمه الله) في تفسير هذه الآية الكريمة: ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ﴾ يعني: أحسبتم أن يترككم الله ولم يرَ الله عملكم حتى يتبيّن للناس المخلص من غيره[٢].

وعلى هذا التفسير الذي فسرها به فالمعنى يشبه قوله: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ﴾ [التوبة: آية ١٠٥] وعلى كل حال فيجب على كل مسلم أن يعتقد أن علم الله محيط بكل شيء، لا يخفى عليه شيء، يعلم ما كان، وما سيكون، وما سبق في علمه أنه لا يكون يعلم أن لو كان كيف يكون. وقد قدمنا في هذه الدروس مراراً[٣] الآيات الكثيرة الدالة على إحاطة

---

(١) راجع ما سبق عند تفسير الآية (٥٩) من سورة الأنعام.

(٢) تفسير البغوي (٢/٢٧٣).

(٣) راجع ما سبق عند تفسير الآية (٥٩) من سورة الأنعام.

علمه حتى بالمعدومات الذي سبق في علمه أنها لا توجد، وأنه عالم بأنها لو وُجدت أنها لا تكون، وأنها لو كانت يعلم كيف تكون، دلت على هذا آيات كثيرة من كتاب الله، كقوله في سورة الأنعام: ﴿فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنعام: آية ٢٧] إذا رأى الكفار الحقائق يوم القيامة ندموا على تكذيب الرسل وتمنوا أن يُردوا إلى الدنيا مرة أخرى ليؤمنوا ويصدقوا الرسل، وهذا الرد الذي تمنوه الله عالم بأنه لا يكون، ومع ذلك فقد صرح بأن هذا الرد الذي لا يكون هو عالم أن لو كان كيف يكون، كما صرح به في قوله: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الأنعام: آية ٢٨] والمتخلفون عن غزوة تبوك لا يحضرونها أبداً؛ لأن الله ثبطهم عنها لحكمة وإرادة كما صرح به في قوله: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ﴾ [التوبة: آية ٤٦] وخروجهم هذا الذي لا يكون صرح بعلمه أن لو كان كيف يكون حيث قال: ﴿لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ...﴾ الآية [التوبة: آية ٤٧].

ونظائر هذا كثيرة في كتاب الله (جلّ وعلا) وهذا معنى قوله: ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ﴾ [التوبة: آية ١٦] يعني: يعلمهم علماً يظهرهم به للناس حتى يتميزوا به، أما هو فهو عالم بكل ما يصنعون وما يؤولون إليه، كما قال تعالى: ﴿وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ﴾ [المؤمنون: آية ٦٣] يعلمها قبل أن يعملوها. وهذه الآية نصّ الله على ما دلت عليه هنا في آيات كثيرة كقوله: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢﴾ [العنكبوت: الآيتان ١، ٢] لا يكون ذلك ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٣﴾ ومن نظائرها قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝١٤٢﴾ [آل عمران: آية ١٤٢] وقوله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟﴾ الآية [البقرة: آية ٢١٤]. وقوله: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝١٦٦ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ

نَافَقُواْ﴾ [آل عمران: الآيتان ١٦٦، ١٦٧] أي: يميز بينهم بما يعمله من الاختبار ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ﴾ [آل عمران: آية ١٧٩] ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَاْ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾﴾ [محمد: آية ٣١] إلى غير ذلك من الآيات القرآنية المصرحة بأنه قد اقتضت حكمة الله أن لا يترك خلقه من غير ابتلاء وامتحان بل لا بد أن يمتحنهم ويبتليهم بالشدائد والعظائم ليظهر الذي هو على الحق من الذي هو على الباطل، ويتبين الصادق من الكاذب. وهذا معنى قوله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُواْ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةًۚ﴾ [التوبة: آية ١٦].

﴿وَلَمْ يَتَّخِذُواْ﴾ معطوف على فعل الصلة، والمعنى: ولما يعلم الله الذين جاهدوا ويعلم الذين لم يتخذوا من دون الله وليجة. والمعنى: لا بد أن يمتحنكم حتى يُعلم المجاهد في سبيل الله والمخلص الذي لم يتخذ وليجة من دون الله ولا رسوله؛ لأن بعض الناس ظهر نفاقهم وبعضهم ظهر اتخاذهم الوليجة من دون الله.

واعلم أن الوليجة في لغة العرب: كل شيء أدخلته في شيء فهو وليجة[1]. والمراد بها هنا: بطانة السوء؛ لأنهم يدخلون في المسلمين وليسوا منهم؛ لأن كثيراً من غير المخلصين يتخذون أعداء الله أولياء، ويفشون إليهم أسرار المسلمين، ويطلعونهم على حقائقهم، وهم أعداء للمسلمين، كما كان عبدالله بن أُبي وأصحابه يفعلون، هم مع الكفار واليهود، والمعنى: ﴿وَلَمْ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ ولم يتخذوا من دون رسول الله، ولم يتخذوا من دون المؤمنين وليجة، أي: أولياء وبطانات سوء يوالونهم دون المسلمين؛ لأن الأعداء خارجون عن المسلمين، فإدخالهم فيهم كأنه وليجة لهم وإدخال لمن ليس منهم فيهم.

---

(١) انظر: المقاييس في اللغة، كتاب الواو، باب الواو واللام وما يثلثهما. (مادة: ولج) ص١١٠٣.

فالوليجة هنا: بطانة السوء، وأولياء السوء، يتخذُهم بعض غير الصادقين في إيمانهم أولياء، كما تقدم في قوله: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: آية ٢٨] فاتخاذ هذه الأولياء هو الوليجة؛ لأن العدو الموالى من المسلمين المُدخل فيهم وليجة فيهم وليس منهم، والعرب تقول للرجل في القوم ليس منهم: هو وليجة. يعني داخل فيهم وليس منهم. ووليجة الأمر: دخيلته، وهؤلاء وليجة فلان، معناه: أصحاب سره وداخله، وتطلق على المفرد والجمع. وهذا معنى ﴿وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً﴾ [التوبة: آية ١٦] أي: دخيلة من الأعداء يتخذونهم أولياء، ويوالونهم، ويفشون إليهم أسرار المسلمين، كما كان يفعله المنافقون، وهذا المعنى معروف في كلام العرب، ومنه قول أبان بن تغلب:

فبئس الوليجة للهاربين والمعتدين وأهل الرِّيَب

وهذا معنى قوله: ﴿وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً﴾ أي: بطانة سوء وأولياء يدخلونهم ويولجونهم في المسلمين وليسوا من المسلمين، بل هم أعداء المسلمين، يفشون إليهم أسرار المسلمين، كما قال: ﴿لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾.

﴿وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ يعني: الخبير أخص من العالم، والخبرة أخص من العلم؛ لأن العلم يطلق على كل علم، والخبرة لا تطلق في اللغة إلا على علم خاص، وهو علم الشيء الذي من شأنه أن يخفى، فالعرب تقول في الشيء الذي شأنه أن يخفى: على الخبير سقط، وأنا خبير بهذا. فلو قلت مثلاً: أنا عالم بأن الواحد نصف الاثنين، وأن الكل أكبر من الجزء، كان هذا كلاماً عربياً، ولو قلت: أنا خبير بأن الواحد نصف الاثنين، وأن الكل أكبر من الجزء، لما كان هذا كما ينبغي؛ لأن العرب لا

(١) البيت في القرطبي (٨/٨٨).

تكاد تطلق الخبرة إلا على المعرفة بما من شأنه أن يخفى، كما قال الشاعر في العيافة[١]:

خبير بنُو لهْبٍ فلا تكُ مُلغيا مَقَالةَ لهْبِي إذا الطيرُ مَرَّتِ

ومعنى خبرته (جلّ وعلا): أنه يعلم الخفايا والخبايا كما يعلم الظاهر، فلا تخفى عليه خافية. وهذا الواعظ الأكبر والزاجر الأعظم الذي نوّهنا عنه مراراً كثيرة ولا نزال ننوه عنه. وهذا معنى قوله: ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.

قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾﴾ [التوبة: آية ١٧] ﴿مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ مساجد هنا ذكرت مرتين: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ والثانية في قوله: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾. أما الأولى منهما وهي قوله: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾، فقد قرأه عامة السبعة غير ابن كثير وأبي عمرو: ﴿أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ بصيغة جمع التكسير. وقرأه ابن كثير وأبو عمرو: **﴿ما كان للمشركين أن يعمروا مسجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر﴾**[٢].

أما مساجد الثانية وهي قوله: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ فقد أجمع جميع القراء على قراءتها بصيغة الجمع ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ ولم يقرأها أحد بالإفراد كما هو معروف.

وقوله: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ سبب نزولها أن كفار قريش صدوا النبي ﷺ عن البيت الحرام، وقالوا: هو بيتنا ونحن أولياؤه، وافتخروا بعمارة المسجد الحرام، كما يأتي. يفتخرون دائماً ببيت الله الحرام وأنهم عمّاره وأهله، كما سيأتي في قوله: ﴿فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [المؤمنون: الآيتان ٦٦، ٦٧] وفي

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٨) من سورة الأنعام.

(٢) انظر: المبسوط لابن مهران ص٢٢٦.

القراءة الأخرى: ﴿تَهْجُرُونَ﴾[1]. ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ﴾ أي: بالبيت، على أظهر التفسيرين؛ لأنهم يتكبرون به بأنهم قطّانه وعمّاره وأولياؤه، فردّ الله عليهم في هذه الآية الكريمة. وقد قدمنا طرفاً من ذلك في سورة الأنفال في قوله: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [الأنفال: آية ٣٤]. وقال هنا: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ ما يصح ولا ينبغي ولا يمكن هذا التناقض؛ لأن المساجد بيوت الله، أُسّست على طاعته والتقرب إليه بما يرضيه، والمشركون كفَرَة فجَرَة، أعمالهم في المساجد كلها كفر وتمرد على الله وعدوان، كيف يكون هذا يجتمع مع هذا؟! لأن المساجد إنما بُنيت لطاعة الله، وتُؤسس على ما يرضي الله (جلّ وعلا) وهؤلاء كفَرَة أعمالهم كلها كفر وصَد عن سبيل الله، فهذا من الشيء الذي لا يمكن أن يجتمع؛ لأن فيه اجتماع النقيضين. وهذا معنى قوله: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: آية ١٧] وفي قراءة ابن كثير وأبي عمرو: ﴿**يعمروا مسجد الله**﴾ هو المسجد الحرام، مسجد مكة حرسها الله.

وقوله: ﴿شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ﴾ هذا محل التناقض؛ لأن عمارة المسجد الحرام فعل المطيعين والمتقربين إلى الله، كيف يفعلون هذا في وقت الحال التي هم شاهدون فيها على أنفسهم بالكفر؟

وقوله: ﴿شَٰهِدِينَ﴾ حال من واو الفاعل في قوله: ﴿يَعْمُرُوا۟﴾ أي: يعمروها في حال كونهم شاهدين على أنفسهم بالكفر.

قال بعض العلماء[2]: شهادتهم على أنفسهم بالكفر إنما هي بأفعالهم؛ لأن من سجد ووضع جبهته للصنم فقد شهد على نفسه ونادى بأعظم الكفر وأفظعه. وعلى هذا فهي شهادة حال.

---

(١) السابق ص٣١٣.

(٢) في معنى شهادتهم على أنفسهم بالكفر. انظر ابن جرير (١٤/١٦٥)، القرطبي (٨/٨٩)، ابن كثير (٢/٣٤٠).

/ وقال بعض العلماء: هي شهادة مقال أيضاً، فهم شاهدون بالحال ٣/أ والمقال. قالوا: يُراد بذلك أنهم في تلبيتهم وطوافهم بالبيت في المسجد الحرام يقولون: لبيك لا شريك لك، إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك [وقال بعض العلماء: شهادتهم على أنفسهم بالكفر هو أن الكافر إذا قلت له: ما دينك؟ فيقول:][1] النصراني نصراني، والصابىء صابىء، والمشرك يقول: مشرك؛ لأنه يعبد مع الله غيره. والله (جلّ وعلا) ذكر مثل هذا من شهادتهم على أنفسهم في غير هذا الموضع كقوله: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٞ ۝٦ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٞ ۝٧﴾ [العاديات: الآيتان ٦، ٧] أي: الإنسان، وفيه الأقوال المذكورة هنا. وهذا معنى قوله: ﴿شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلۡكُفۡرِۚ﴾ لأن عمارة مساجد الله هي من القربة والطاعة للّه لا تمكن من أحد هو في حال وقت فعله إيّاها شاهد على نفسه بأنه كافر.

وعمارة المسجد الحرام تشمل أمرين:

أحدهما: العمارة الحسية، وهي مَرَمَّته وبناؤه وتزيين بنائه.

والثانية: عمارته المعنوية، وهي عبادة الله وطاعته فيه، واللائق بالكفار هنا هو الأول؛ لأنهم كانوا يسدنون البيت وقد بنوه، كما قال زهير[2]:

وأَقْسَمْتُ بالبيتِ الذي طافَ حولَهُ رجالٌ بَنَوهُ من قريشٍ وجُرْهُمِ

وبناء قريش له معروف، حضره النبي ﷺ في صغره كما هو معروف. وهذا معنى قوله: ﴿مَا كَانَ لِلۡمُشۡرِكِينَ أَن يَعۡمُرُواْ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلۡكُفۡرِۚ﴾ [التوبة: آية ١٧].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الكفرة الشاهدون على أنفسهم بالكفر ﴿حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ﴾ ومنها عمارتهم للبيت الحرام؛ لأن الكفر يحبط جميع الأعمال. ومعنى

---

(١) في هذا الموضع وُجد انقطاع في التسجيل. وما بين المعقوفين [ ] زيادة يتم بها الكلام.

انظر: ابن جرير (١٤/١٦٥)، ابن أبي حاتم (٦/١٧٦٥)، القرطبي (٨/٩٠).

(٢) مضى عند تفسير الآية (٧٢) من سورة الأعراف.

﴿حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ اضمحلت وكانت لا فائدة فيها؛ لأن أفعال الكفار تضمحل ولا تنفعهم يوم القيامة؛ لأن الله يقول: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ ويقول تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَـٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَـٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [هود: الآيتان ١٥، ١٦] أما أفعال الكافر من قُرَبِه فإنها تنفعه في الدنيا؛ لأن الكافر إذا أطاع الله في الدنيا مخلصاً في طاعته لوجه الله كأن يبر والديه، ويصل الرحم، ويقري الضيف، وينفس عن المكروب، ويعين [المظلوم][1]، فإذا فعل الكافر هذه القرب يقصد بها وجه الله فإن الله يعاوضه في الدنيا ويعطيه ثوابه في الدنيا من الصحة والرزق والمال، ولا شيء له يوم القيامة، كما دلت على هذا آيات من كتاب الله، كقوله: ﴿نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَـٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾، ﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ [الشورى: آية ٢٠]. وثبت معناه في صحيح مسلم من حديث أنس رضي الله عنه[2]. وهذا معنى قوله: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَـٰلِدُونَ﴾ [التوبة: آية ١٧] النار ـ والعياذ بالله ـ هي دار الخزي التي أعد الله لأعدائه يوم القيامة. والألف التي بين النون والراء منقلبة عن واو، فأصلها من مادة الأجوف واوي العين، أصلها (نَوَرٌ) ولذا يقولون في النظر من بعيد إلى النار: تنورتها. فلو كانت يائية العين لقالوا: تنيرتها. قالوا واشتقاقها من: نارت الظبية. إذا ارتفعت جافلة؛ لأن طبيعة النار الارتفاع[3].

﴿وَهُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾ خلود الكفار في النار خلود أبدي سرمدي لا انقطاع له، كما قال تعالى: ﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَـٰهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: آية ٩٧]، ﴿فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾﴾ [النبأ: آية ٣٠]، ﴿لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ [البقرة: آية ١٦٢].

---

(١) في الأصل: «الظالم» وهو سبق لسان.

(٢) تقدم تخريجه عند تفسير الآية (٤٢) من سورة الأعراف.

(٣) مضى عند تفسير الآية (١٢٨) من سورة الأنعام.

ومعروف في هذا إيراد يورده الكفرة الملاحدة وأذنابهم ومن تعلق بهم يقولون: إن الله (جلّ وعلا) في غاية الحكمة والعدالة، وهو العدل الحكيم (جلّ وعلا) والكافر إنما عصى في الدنيا أياماً معدودة، قالوا: فكيف يكون العمل في أيام معدودة محدودة والجزاء دائم لا ينقطع أبداً؟ وأين الحكمة والإنصاف في هذا؟ قبّح الله من يقول هذا!! وهذا يتمسك به الملاحدة وأذناب الكفرة[١].

والجواب عن هذا أن الكافر ـ قبّحه الله ـ خبثه الذي ينطوي عليه الذي هو سبب كل ما جاءه من البلايا هو دائم أبداً لا يزول ولا ينقطع، فكان جزاؤه دائماً لا يزول ولا ينقطع، والله (جلّ وعلا) يقول: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ﴾ [الأنفال: آية ٢١] (خيراً) نكرة في سياق الشرط وهي تعم، فلا يكون في قلوبهم خير أبداً في وقت ما كائناً ما كان. ومما يوضح ذلك: أنهم لمّا عاينوا النار، وشاهدوا الحقائق، وكشف الله غطاءهم عنهم، وعاينوا كل شيء، وتمنوا الرد إلى الدنيا مرة أخرى، صرّح الله بأن ما طُبعوا عليه وما جُبلوا عليه من الكفر لا يزول أبداً، وأنه لو ردهم إلى الدنيا لرجعوا إلى كفرهم؛ لأنهم منطوون عليه لا يفارقهم أبداً، كما قال: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ﴾ [الأنعام: آية ٢٨] فهذا يدل على أنهم لا ينفكون عن كفرهم، وأنهم دائمون عليه أبداً، فكان جزاؤه دائماً عليهم أبداً، جزاءً وفاقاً، ولله (جلّ وعلا) الحكمة في كل ما يفعله، وهو الحكم العدل اللطيف الخبير. وهذا معنى قوله: ﴿وَأُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾.

﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَـٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾﴾ [التوبة: آية ١٨].

[المقرر][٢] عند علماء العربية أن (إنما) أداة حصر وإثبات. يعني: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَـٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ العمارة المعنوية بالعبادات وذكر اسم الله فيها،

---

(١) راجع هذه الشبهة والجواب عنها، عند تفسير الآية (١٢٨) من سورة الأنعام.

(٢) في هذا الموضع انقطاع في التسجيل، وما بين المعقوفين [ ] زيادة يتم بها الكلام.

والعمارة الحسية، من بنائها وترميمها، هذا كله من شأن المؤمنين، لا من شأن الكفار، وهذا قوله: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾. (من) فاعل قوله ﴿يَعْمُرُ﴾ الذي آمن بالله هو الذي يعمر مساجد الله، لا الكافر الذي عمله ضد لما بنيت له المساجد، فهذا تناقض لا يمكن أن يكون عامراً للمساجد، وعمله ضد ما بُنيت له المساجد، وهذا معنى قوله: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾ أي: صدّق به (جلّ وعلا) وبكل ما يجب التصديق به.

﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ هو يوم القيامة. وجرت العادة أن الله يذكر الإيمان باليوم الآخر مع الإيمان به؛ لأن الكفر باليوم الآخر سبب لكل البلايا وأنواع الكفر والجحود؛ لأن مطامع العقلاء محصورة في أمرين: هما: جلب النفع، ودفع الضر، والذي لا يصدق بيوم القيامة لا يرغب في خير في ذلك اليوم، ولا يخاف من شر في ذلك اليوم، فلا ينزجر عن شيء، ولا يرعوي عن شيء؛ ولذا كان التكذيب بالبعث من أشنع أنواع الكفر بالله (جلّ وعلا) وقد صرّح الله بأن المكذبين بالبعث والشاكّين فيه من حطب جهنم في آيات كثيرة كقوله: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾ [الفرقان: آية ١١] وقوله في المنكرين للبعث: ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ استفهام إنكار منهم في الخلق الجديد بعد الموتة الأولى، قال الله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [الرعد: آية ٥]. وهذا معنى قوله: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ يعني: الصلوات المكتوبات الخمس. ﴿وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ﴾ الحقوق الواجبة في الأموال كما بيّناه مراراً.

﴿فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ﴾ جماهير العلماء يقولون: (عسى) من الله واجبة[1] لأن الله كريم لا يُطمع في شيء إلا هو فاعله لشدة كرمه (جلّ وعلا) وفضله.

---

(١) مضى عند تفسير الآية (١٢٩) من سورة الأنعام.

﴿أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾ أي: السالكين طريق النجاة والصواب الموصلة إلى الجنة، وقد جاء عن النبي ﷺ من حديث أبي سعيد الخدري (رضي الله عنه) أنه (صلوات الله وسلامه عليه) قال: «**إذا رأيتم الرجل يعتاد المسجد فاشهدوا له بالإيمان**»(١) لأن الله يقول: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾ [التوبة: آية ١٨] وقال أبو بكر بن العربي في الكلام على هذا الحديث في قوله: «**فاشهدوا له بالإيمان**» اشهدوا له شهادة ظاهرة؛ لأن فعله يدل عليها، وتعاهد المساجد يدل على إيمانه ظاهراً كما دل عليه قوله: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾ أما حقيقة الباطن فهي عند الله جلّ وعلا. وهذا معنى قوله: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ﴾.

وقوله: ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ لم يخف أحداً إلا الله. وفي هذه الآية الكريمة وأمثالها في القرآن سؤال معروف، وهو أن يقال: لا يوجد أحد إلا هو يخشى من غير الله، ويخاف من غير الله؛ لأن كل المخاوف والمحاذير جُبلت طبائع البشر على الخوف والخشية منها، والذي لم يخشَ شيئاً من المخاوف والمحاذر هذا أمر صعب.

والعلماء يجيبون عن هذا بجوابين(٢):

بعضهم يقول: الخشية التي هي شرك بالله التي يحذّر الله منها هي خشية الأصنام، والخوف من المعبودات من دون الله، وهذا النوع دلت عليه آيات كثيرة؛ لأن عبَدَة الأصنام يخوفون من يسب الأصنام بأن الأصنام ستفعل له وتفعل، كما قالوا لنبي الله هود: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا

---

(١) أخرجه أحمد (٦٨/٣، ٧٦)، والدارمي (٢٢٢/١)، والترمذي في التفسير، باب: ومن سورة التوبة. حديث رقم: (٣٠٩٣) (٢٧٧/٥)، وابن ماجه في المساجد والجماعات، باب لزوم المساجد وانتظار الصلاة. حديث رقم: (٨٠٢) (٢٦٣/١)، والبيهقي (٦٦/٣)، والحاكم (٢١٢/١، ٣٣٢/٢)، وابن حبان (الإحسان ١١٠/٣). وابن أبي حاتم في التفسير (١٧٦٦/٦)، وانظر: ضعيف ابن ماجه ص٦٢، المشكاة (٧٢٣)، ضعيف الجامع (١٨٤/١).

(٢) انظر: القرطبي (٩٠/٨).

بِسُوٓءٍۗ قَالَ إِنِّيٓ أُشۡهِدُ ٱللَّهَ وَٱشۡهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦۖ فَكِيدُونِي جَمِيعٗا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلۡتُ عَلَى ٱللَّهِ﴾ الآية [هود: الآيات ٥٤ ـ ٥٦] وكذلك لما خوّفوا منها نبي الله إبراهيم (عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام) وقالوا له: سوف تفعل بك أصنامنا وتفعل، قال لهم: ﴿وَكَيۡفَ أَخَافُ مَآ أَشۡرَكۡتُمۡ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمۡ أَشۡرَكۡتُم بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗاۚ فَأَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ أَحَقُّ بِٱلۡأَمۡنِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٨١﴾﴾ [الأنعام: آية ٨١] وخوّفوا بها نبي الله (صلوات الله وسلامه عليه)، كما نصّ الله عليه في سورة الزمر في قوله: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ﴾ ثم قال رداً عليهم: ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبۡدَهُۥۖ﴾ [الزمر: آية ٣٦] وفي القراءة الأخرى[1]: ﴿**بكاف عباده**﴾ وهذا كثير في القرآن، فهذه الخشية التي يخاف صاحبها من عاقبة الأصنام هذا كفر بالله وشرك به.

وقال بعض العلماء: هي الخشية الدنيوية من الناس إذا كانت تحمل الإنسان على أن يعصي الله، كالذي يخشى من الكفار ويجبن عن الجهاد في سبيل الله، كما تقدّم في قوله: ﴿أَتَخۡشَوۡنَهُمۡۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَوۡهُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [التوبة: آية ١٣] أما ما يعرض للإنسان من الخوف من الأشياء والمحاذير بجبلته فهذا أمر لا مؤاخذة به؛ لأن الله لا يكلف نفساً إلا وسعها كما هو معلوم، وهذا معنى قوله: ﴿وَلَمۡ يَخۡشَ إِلَّا ٱللَّهَۖ فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾ [التوبة: آية ١٨].

﴿أَجَعَلۡتُمۡ سِقَايَةَ ٱلۡحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ كَمَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَجَٰهَدَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ لَا يَسۡتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾﴾ [التوبة: آية ١٩].

قال بعض العلماء: نزلت هذه الآية الكريمة في العباس بن عبدالمطلب، ذلك أنه لما أُسر يوم بدر كان علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) يلومه ويشدد عليه في قتاله للنبي ﷺ، وكان الصحابة

---

(١) انظر: المبسوط لابن مهران ص٣٨٤.

يعيرونه وأصحابه بالشرك بالله، فقال لهم: تذكرون مساوئنا ولا تذكرون محاسننا!! فقال له علي: ألكم محاسن؟ قال: نعم، نحن نعمر بيت الله الحرام، ونسقي الحاج، ونفك العاني، ونفعل ونفعل[(١)].

وقال بعض العلماء: نزلت في عثمان بن طلحة، أو شيبة بن طلحة، وعلي بن أبي طالب، والعباس بن عبدالمطلب. قال العباس: أنا صاحب السقاية. وقال صاحب بني عبدالدار: أنا سادن البيت، عندي مفتاح الكعبة، لو أشاء لبت فيها. وقال علي بن أبي طالب: صليت إلى القبلة قبل أن يصلي الناس إليها، وذكر الجهاد ونحو ذلك، فأنزل الله: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ﴾[(٢)].

وأكثر المفسرين أن سبب نزولها هو افتخار الكفار بسقايتهم الحاج،

---

(١) أخرج نحوه ابن جرير (١٧٠/١٤)، وابن أبي حاتم (١٧٦٨/٦) وإسناده صحيح، والواحدي في أسباب النزول ص(٢٤٤)، وأورده السيوطي في الدر (٢١٨/٣) وعزاه لابن المنذر وابن أبي حاتم من حديث ابن عباس (رضي الله عنهما). كما أورده عنه مختصراً وعزاه لابن مردويه.

وقد جاء في هذا المعنى جملة من الآثار منها:

١ ـ الشعبي: أخرجه ابن جرير (١٧١/١٤)، وابن أبي حاتم (١٧٦٨/٦)، وأورده السيوطي في الدر (٢١٨/٣) وعزاه لابن مردويه وعبدالرزاق وابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

٢ ـ عبدالله بن عبيدة: أورده السيوطي في الدر (٢١٨/٣) وعزاه لابن أبي شيبة وابن مردويه وأبي الشيخ.

٣ ـ ابن سيرين: أخرجه الواحدي في أسباب النزول ص(٢٤٤)، وعزاه في الدر (٢١٨/٣) للفريابي.

٤ ـ الضحاك: أخرجه ابن جرير (١٧٢/١٤).

(٢) أخرجه ابن جرير (١٧١/١٤) والواحدي في أسباب النزول ص(٢٤٤) عن محمد بن كعب القرظي مرسلاً. وقد جاء بمعناه عدة آثار منها:

١ ـ عن الحسن البصري: أخرجه الواحدي في أسباب النزول ص(٢٤٤)، وعزاه في الدر (٢١٩/٣) لعبدالرزاق.

٢ ـ أنس بن مالك (رضي الله عنه): أورده السيوطي في الدر (٢١٩/٣) وعزاه لأبي نعيم في فضائل الصحابة، وابن عساكر.

٣ ـ السدي: أخرجه ابن جرير (١٧٢/١٤).

٤ ـ الشعبي: أخرجه ابن أبي حاتم (١٧٦٧/٦).

وعمارتهم المسجد الحرام، وجعلهم ذلك مثل إيمان المؤمنين، وأن لهم من الأجر مثل ما للمؤمنين، فأنكر الله عليهم.

وقد جاء في سبب نزول هذه الآية الكريمة حديث مشكل، لأنه خرّج جماعة عن النعمان بن بشير (رضي الله عنه)، ومن جملة من خرّج حديثه مسلم بن الحجاج (رحمه الله) في صحيحه، أن سبب نزولها أن النبي ﷺ كان يوم جمعة وعند منبر النبي ﷺ رجال، فقال واحد منهم: لا أبالي أن أفعل شيئاً بعد الإسلام إلا أن أسقي الحاج. وقال الثاني: لا أبالي أن أفعل شيئاً بعد الإسلام إلا أن أعمر المسجد الحرام. وقال الثالث: الجهاد في سبيل الله أفضل من هذا كله. فزجرهما عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) وقال: لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله ﷺ. وكان هذا يوم جمعة. فإذا صلى الجمعة استفتيت رسول الله فيم اختلفتم فيه. وأنه استفتى النبي ﷺ فأنزل الله: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ سبب نزول هذه الآية على هذا السياق أخرجه مسلم في صحيحه وجماعة[1]، وهو مشكل جداً؛ لأنا لو فرضنا أن نزولها في المؤمنين لا يناسب قوله في آخرها: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [التوبة: آية ١٩] فدل على أن الصحيح أنها في الكفار، وهذا الحديث أصله فيه إشكال معروف في سبب نزول هذه الآية الكريمة، وقد أورد أبو عبدالله القرطبي (رحمه الله) في تفسير هذه الآية إزالة هذا الإشكال[2]، وكلامه فيه أجود ما وقفت عليه في إزالة إشكاله، قال: إنهم لما اختلفوا وذكر واحد منهم عمارة المسجد، وذكر الثاني سقاية الحاج، وذكر الثالث الجهاد، وسأل عمر بن الخطاب النبي ﷺ، أن النبي إنما قرأ الآية ـ وكانت نازلة قبل ـ مستدلاً بها لحكم ما اختلفوا فيه، وهي قوله: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ﴾ فظن الراوي أن قراءة النبي لها أن ذلك وقت نزولها، وذلك ليس بوقت نزولها، فهي نازلة قبل ولكنه ذكرها استشهاداً واستدلالاً لما اختلفوا فيه. وهذا هو الأظهر والله تعالى أعلم.

---

(١) مسلم في الإمارة، باب: فضل الجهاد والخروج في سبيل الله. حديث رقم: (١٨٧٩) (١٤٩٩/٣).

(٢) تفسير القرطبي (٩٢/٨).

وقوله: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ﴾ الظاهر أن (جعل) هنا هي التي بمعنى اعتقد، وأنه أنكر عليهم اعتقادهم تساوي هذين الأمرين وهما بعيد من المساواة، بينهما بون عظيم، وبون شاسع.

وكان بعضهم يقول: لا يبعد أن تكون هي التي بمعنى (صيَّر) أي: صيرتم هذا كهذا وادعيتم أنه مثله.

وقد ذكرنا في هذه الدروس مراراً[1] أن لفظة (جعل) تأتي في اللغة العربية لأربعة معان، ثلاثة منها موجودة في كتاب الله، ورابعها موجود في اللغة العربية ولم يوجد في كتاب الله، من هذه المعاني الأربعة: كون (جعل) بمعنى (اعتقد) وجعل التي بمعنى اعتقد أصلها تنصب المبتدأ والخبر مفعولين، ومنها قوله: ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا﴾ [الزخرف: آية ١٩] وفي القراءة الأخرى[2]: **﴿الذين هم عند الرحمٰن إناثاً﴾** والمعنى جعلوا الملائكة إناثاً، أي: اعتقدوهم إناثاً؛ لأنهم لم يصيروهم إناثاً ولا يقدرون، فهي (جعل) بمعنى (اعتقد).

والثانية (جعل) بمعنى (صيَّر) ومنه قوله: ﴿جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ﴾ [الأنبياء: آية ١٥] أي: صيرناهم. وهذه أيضاً تنصب المبتدأ والخبر مفعولين.

والثالثة (جعل) بمعنى (خلق) وهي تتعدى إلى مفعول واحد، ومن هذا قوله في أول سورة الأنعام: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ [الأنعام: آية ١] أي: خلق الظلمات والنور، بدليل عطفه على قوله: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾.

هذه ثلاثة معاني كلها في القرآن: (جعل) بمعنى (اعتقد)، (جعل) بمعنى (صيَّر)، (جعل) بمعنى (خلق).

الرابع منها: (جعل) بمعنى (شرع) جعل يفعل كذا إذا شرع فيه. وهذه

---

(١) مضى عند تفسير الآية (١٠٠، ١١٢) من سورة الأنعام والآية (١٨٩) من سورة الأعراف.

(٢) مضت عند تفسير الآية (١١٢) من سورة الأنعام.

ليست موجودة في كتاب الله، وهي موجودة في كلام العرب بكثرة، ومنه قول الشاعر[١]:

وقد جعلتُ إذا ما قمتُ يُثْقِلُني ... ثوبي فأنهضُ نَهْضَ الشَّاربِ السَّكِرِ

وهذا معنى قوله: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ﴾ [التوبة: آية ١٩].

والسقاية هي إحدى الوظائف؛ لأن قصي بن كلاب ـ وهو مُجَمِّع ـ لما جمَّع قريشاً وأخذ سدانة الكعبة من خزاعة، وجمّع قريشاً وكان يُسمى مُجَمِّعاً؛ لأنه جمع قبائل قريش بمكة، وهو الذي يقول فيه ابن حذافة[٢]:

أبوكُم قُصَيٌّ كان يُدعَى مُجَمِّعَاً ... به جَمَعَ اللّهُ القَبَائلَ من فِهْرِ

جعل الوظائف وهي السقاية والرفادة والندوة واللواء وحجابة البيت هذه الوظائف كلها جعلها لعبدالدار بن قصي؛ لأن أولاد قصي أربعة: عبد بن قصي، وكان عبدالدار بن قصي، وعبدالعزى بن قصي، وعبد مناف بن قصي. وكان عبدالدار بن قصي أقل أولاده شرفاً وأكثرهم خمولًا، فأعطاه جميع الوظائف. وجعل إلى عبدالدار السقاية، والرفادة، والحجابة، ودار الندوة، واللواء.

اللواء هو حمل اللواء في الميدان عند التحام الحرب.

ودار الندوة: هي الدار التي كانوا لا يعقدون ولا يحلون إلا بها، اشتراها بعد ذلك حكيم بن حزام وباعها وتصدق بثمنها[٣]. ولما قالوا له: يا أبا خالد: بعت مأثرة قريش!! قال لهم: الشرف بالدين لا بالديار.

والسقاية: كان قصي يجمع أموالًا على قريش يجعل منها الرفادة والسقاية.

---

(١) مضى عند تفسير الآية (١١٢) من سورة الأنعام.

(٢) تقدم هذا البيت في سبيل الهدى والرشاد (١/٢٧٥).

(٣) أخرجه الطبراني من طريقين (٣/١٨٦ ـ ١٨٧) وقال في المجمع (٩/٣٨٤): «رواه الطبراني بإسنادين أحدهما حسن» ا.هـ.

الرفادة: مال يكون عندهم يكون رفداً لمن تعطل، إذا مات بعير حاج اشتروا له بعيراً، وإذا افتقر أحد أو انقطعت به النفقة زودوه منه حتى يصل إلى أهله. كل هذا يفعله قصي ويأخذ هذا المال على قريش.

والسقاية: كانوا يأخذون النبيذ والشراب الطيب ويجعلونه في الموسم في الأماكن التي تغشاها الناس، فيأتي الناس فيشربون مجاناً. وعن ابن عباس (رضي الله عنهما) أن أعرابياً جاء واستسقاهم من سقايتهم فسقوه نبيذاً، فقال الأعرابي: سبحان الله إن الناس يسقون في سقايتهم اللبن والعسل وأنتم تسقون النبيذ!! يعيبهم بأن سقايتهم نبيذ. فأخبره ابن عباس أن النبي ﷺ مرّ بهم وسقوه من نبيذها، وأمرهم أن يسقوا الناس منه. قال: لا نزيد على ما أمرنا به رسول الله ﷺ[1]. ومعلوم أن هذا النبيذ الذي أمر النبي بسقيه على تقدير صحة هذا أنه نبيذ لا يسكر كثيره؛ لأن النبيذ الذي يسكر كثيره لا ينبغي أن يقدم على شربه؛ لأنه ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «**ما أسكر كثيره فقليله حرام**»[2] كما هو معروف. فهذه هي سقاية الحاج.

والرفادة والحجابة التي هي سدانة البيت كانت كلها لعبدالدار، ولما شبّ أولاد عبد مناف وأرادوا نزع هذه الأشياء من بني عبدالدار، ووقعت المخالفة بين قريش، وتحالفوا للقتال الحلف الذي يقال فيه «حلف المطيبين» و«حِلْفُ لَعَقَةِ الدم» كما هو معروف، ثم اصطلحوا على أن تبقى السقاية والرفادة أن ترد لبني عبد مناف، ويبقى للعبدريين اللواء والندوة وحجابة البيت، أي: سدانة الكعبة حرسها الله. فهذه السقاية كانوا يفتخرون بها ويقولون: نحن نسقي الحاج ونعمر بيت الله!! ويجعلون هذا أفضل ممن يؤمن بالله، فأنكر الله عليهم فقال: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ﴾ [التوبة: آية ١٩] الحجاج يقدمون عليكم فتسقونهم ﴿وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ كترميمه وبنائه.

﴿كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾ لا بد أن يقدر مضاف في أحد الأمرين[3]. قال

---

(١) أخرجه ابن سعد (١٣١/٢)، وأورده السيوطي في الدر (٢١٩/٣) وعزاه لابن سعد.

(٢) مضى عند تفسير الآية (١١٥) من سورة الأنعام.

(٣) انظر: القرطبي (٩١/٨)، الدر المصون (٣١/٦).

بعض العلماء: يقدر في الأول، والمعنى: أجعلتم أصحاب سقاية الحاج، أو أهل سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن، أي: كالذين آمنوا بالله؟

وقال بعض العلماء: يقدر المضاف في الثاني ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ﴾ كعمل من آمن بالله. والأمران جائزان، وأظهرهما: تقديره في الأول، والمعنى: أجعلتم أهل سقاية الحاج وأصحاب عمارة المسجد كالذين آمنوا بالله، لا يكونوا مثلهم أبداً. ويُستأنس لهذا بالقراءة الشاذة المروية عن ابن الزبير وأبي بن كعب وأبي وجزة وغيرهم في قوله: «أجعلتم سُقاة الحاج وعَمَرة المسجد الحرام»[1] السُقاة: جمع الساقي، كقاضي وقضاة. والعَمَرَة: جمع عامر، ككاتب وكَتَبَة، وظالم وظلمة. فهي قراءة شاذة إلا أنها يُستأنس بها للمعنى.

والحاج: اسم جنس لكل من يحج بيت الله الحرام، وسقايتهم: كما كانوا يسقون النبيذ والشراب الحلو في المواسم أيام الحج.

﴿وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ كما بناه قريش في صغر النبي ﷺ. جعلتم واعتقدتم هذا ﴿كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ﴾ لا يكون مثله.

ثم قال: ﴿لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ﴾ لا يستوي هؤلاء وهؤلاء؛ لأن عمل هؤلاء باطل للكفر؛ لأن الله قال: ﴿وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [هود: آية ١٦] وقال (جلّ وعلا): ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفرقان: آية ٢٣] وقال: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [التوبة: آية ١٩] أي: ومنهم الكفرة الذين يفتخرون بسقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام، فهم قوم ظالمون لا يهديهم الله (جلّ وعلا).

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ

---

(١) ذكرها ابن جني في المحتسب (١/٢٨٥)، والقرطبي (٨/٩١)، وأبو حيان في البحر (٥/٢٠) ولم أجد من عزاها لأبي بن كعب.

وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [التوبة: الآيات ٢٠ ـ ٢٤].

يقول الله (جلّ وعلا): ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ [التوبة: الآيات ٢٠ ـ ٢٢].

لما قال أهل مكة مفتخرين بأنهم يسقون الحاج، ويعمرون المسجد الحرام، ويفكون العاني ـ أي: الأسير ـ وافتخروا بمثل هذه الخصال، وأنكر الله عليهم تسويتهم بين ذلك وبين الجهاد والإيمان في قوله الذي ذكرنا أمس ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾ الآية [التوبة: آية ١٩] صرح هنا بأن الإيمان بالله والهجرة والجهاد في سبيل الله أعظم درجة وأفضل مما يفتخر به أهل مكة. والظاهر أن صيغة التفضيل هنا لمطلق الوصف؛ لأن كفار أهل مكة لا درجة لهم في سقاية الحاج ولا عمارة المسجد؛ لأن الله يقول: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: آية ١٧] ومعنى الآية الكريمة: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بالله وبكل ما يجب به الإيمان ﴿وَهَاجَرُوا۟﴾ أوطانهم وديارهم وأموالهم ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ ولإعلاء كلمة الله هؤلاء ﴿أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ﴾ (درجة): تمييز محول عن الفاعل، أي: أرفع رتبة ومكانة ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ﴾ المذكورون ﴿هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ الظافرون بالحظ الأكبر؛ لأن العرب تقول: «فاز فلان». إذا ظفر بما كان يتمنى، وظفر بأكبر مطلوب، يقولون: «فاز»: نال الفوز، ومنه: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: آية ١٨٥]. والإتيان بضمير الفصل بين المسند والمسند إليه في قوله: ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ يدل على اختصاصهم بالفوز

دون الذين قالوا: نحن نسقي الحاج ونعمر المسجد الحرام. وهذا معنى قوله: ﴿أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾.

﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ﴾ [التوبة: آية ٢١] قرأ هذا الحرف عامة السبعة غير حمزة ﴿يُبَشِّرُهُمْ﴾ مضارع بشَّره يُبشِّره. وقرأه حمزة من السبعة[١]: ﴿يَبْشُرُهُمْ ربهم برحمة منه﴾ الآية، فعلى قراءة حمزة: ﴿يَبْشُرُهُم﴾ مضارع (بَشَرَه) ثلاثياً مجرداً (يَبْشُرُهُ) بالضم. وعلى قراءة الجمهور: ﴿يُبَشِّرُهُمْ﴾ مضارع (بَشَّره) بالتضعيف (يُبَشِّره، تبشيراً).

وقد قدمنا في هذه الدروس مراراً[٢] أن البشارة في لغة العرب هي الإخبار بما يسر، فكل من أخبرك بما يسرك فقد بشَّرَك، وبَشَرَك على اللغة الأخرى، وأنه يطلق أيضاً على البشارة بما يسوء، فالعرب أيضاً تسمي الإخبار بما يسوء (بشارة) إذا اقترن بما يدل على ذلك، وهو كثير في القرآن، كقوله: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة: آية ٣٤] وقد ذكرنا أنه أسلوب عربي معروف. تقول العرب: «بَشَّره بكذا». إذا أخبره بما يسوؤه، ومنه قول الشاعر[٣]:

يُبَشِّرُني الغُرَابُ بِبَيْنِ أهلي ... فقلتُ له ثَكِلْتُكَ من بَشِيرْ

وبَيْنُ أهله مما يسوؤه الإخبار به. وقول الآخر[٤]:

أَبَشَّرْتَني يا سَعْدُ أن أَحِبَّتي جَفَوني ... وقالوا الودُّ موعده الحشْرُ

فجفاء الأحبة إخبار بما يسوء. ومعلوم أن الذين تكلموا في البلاغة والذين كانوا يقسمون الكلام إلى حقيقة ومجاز يقولون: إن البشارة حقيقة في الإخبار بما يسر، وهي في الإخبار بما يسوء استعارة عندهم، ويجعلونها من الاستعارة المسماة في اصطلاح البيانيين بالاستعارة العنادية، ويقسمونها

---

(١) انظر: الإتحاف (٢/٨٩).

(٢) مضى عند تفسير الآية (٤٨) من سورة الأنعام.

(٣) تقدم هذا الشاهد عند تفسير الآية (٤٨) من سورة الأنعام.

(٤) السابق.

إلى تهكمية وتمليحية كما هو معروف في محله[١]. ونحن نقرر دائماً أنها أساليب عربية، كلها حقيقة في محله، وقد وضعنا في ذلك رسالة تُسمى (منع جواز المجاز في المنزّل للتعبد والإعجاز) وهذا معنى قوله: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ﴾ [التوبة: آية ٢١] الرحمة: مصدر رَحِمَه، والرحمة من صفات الله (جلّ وعلا)، ونحن معاشر المسلمين نصف الله بما وصف به نفسه، وبما وصفه به رسوله ﷺ، ونثبت له ما أثبت لنفسه، منزهين خالق السماوات والأرض عن مشابهة الخلق، فلا نميل إلى التعطيل، ولا إلى التمثيل، بل نقر بصفات الله ونؤمن بها على سبيل المخالفة لصفات الخلق، كما علّمنا الله في قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: آية ١١] ومراراً نوضح مذهب السلف في آيات الصفات عند كل المناسبات.

ومعنى قوله: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ﴾ [التوبة: آية ٢١] قرأ هذا الحرف عامة السبعة غير شعبة ـ أبي بكر ـ عن عاصم: ﴿وَرِضْوَانٍ﴾ بكسر الراء. وقرأه شعبة عن عاصم ﴿ورُضوان﴾ بضم الراء[٢] وهما لغتان فصيحتان، وقراءتان صحيحتان؛ لأن العرب تقول في مصدر رضي تقول: رضي يرضى رضاءً ورضواناً. وتزيد فيه الألف والنون، والألف والنون تزادان في بعض المصادر كثيراً كالكفران والرجحان والغفران والرضوان. والكسر والضم لغتان فيه، ورضوان الله: رضاه (جلّ وعلا)، والرضا أيضاً صفة من صفات الله (جلّ وعلا) أثبت لنفسه الاتصاف بها إذا امتُثلت أوامره واجتُنبت نواهيه، كما قال تعالى: ﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ﴾ [البينة: آية ٨] ونحن دائماً نوصي أنفسنا وإخواننا وعامة المسلمين أن يعتقدوا في مذهب السلف المعتقد الواضح الذي هو في ضوء القرآن العظيم، الذي لا إشكال فيه ولا قيل ولا قال، وصاحبه يلقى الله سالماً من البلايا التي وقع فيها الناس الذين أكثروا الخوض في ذلك بقيل وقال.

---

(١) السابق.

(٢) انظر: الإتحاف (٨٩/٢).

وإيضاح مذهب السلف في آيات الصفات كما بيّنه القرآن وأوضحه هذا المحكم المنزل أنه يتأسس على ثلاثة أصول من جاء بها كاملة لقي الله سالماً، ومن أخلّ بواحد منها أوقع نفسه في بلية فلا يدري هل يتخرج منها أو لا[١]؟.

أول هذه الأسس: هو الأساس الأعظم للتوحيد، والحجر الأساسي لمعرفة الله على طريق صحيح، هذا الأساس الأعظم هو: أن يعتقد الإنسان أن خالق السماوات والأرض منزه عن مشابهة جميع خلقه في جميع صفاتهم وأفعالهم وذواتهم، فالخلق صنعة، والخالق (جلّ وعلا) صانع ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [النمل: آية ٨٨] والصنعة لا تشبه صانعها، فمن رزقه الله فهم هذا الأساس عن الله وعلم أن الخلائق صنعة، وأن خالقهم هو صانعهم ومدبرهم ومنشئهم علم أنه لا مناسبة بين صفاته وصفاتهم، وأنه منزّه كل التنزيه، مقدس كل التقديس عن مشابهة خلقه، لا في ذواتهم، ولا في صفاتهم، ولا في أفعالهم. هذا الأساس الأعظم، فمن رزقه الله هذا الأساس، وفهمه عن الله، وطهر قلبه من أدران التشبيه، وأقذار التمثيل، كان يهون عليه بعد ذلك أن يصدق الله فيما وصف به نفسه، ويؤمن بصفات الله على الوجه اللائق بكماله وجلاله[٢].

وهذا الذي أقوله لكم ليس من تلقاء نفسي بل هو من تعليم خالق السماوات والأرض في المحكم المنزل الذي هو أعظم كتاب أنزله الله على أشرف رسول، لأن الله يقول فيه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: آية ١١] فوضع الأساس الأول الذي هو أساس التنزيه ومخالفة الخلق في ذواتهم وصفاتهم وأفعالهم بقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ﴾ [الشورى: آية ١١] ثم وضع بعده الأساس الثاني وهو الإيمان بصفات الله على أساس ذلك التنزيه، لا إيماناً دنساً وسخاً ذاهباً إلى صفات الخلق، لا.. لا، بل هو إيمان منزّه مبني على أساس التنزيه. وقوله: ﴿وَهُوَ

---

(١) راجع ما تقدم عند تفسير الآية (٥٢) من سورة الأنعام.

(٢) وهذا هو الأساس، والأصل الثاني من الأصول الثلاثة المُشار إليها.

﴿ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ بعد قوله: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ﴾ فيه سر أعظم، ومغزىً أكبر، وتعليم عظيم من رب العالمين، كأنه يقول لك: تَعَقَّل يا عبدي وتفهّم، ولا تنفي عني سمعي وبصري بدعوى أن المخلوقات تسمع وتبصر، وأن إثبات ذلك فيه تشبيه، لا.. لا..، راع في إثبات السمع والبصر أول الآية، وابنه على نفي المماثلة والمخالفة، واربط أول الآية بآخرها، فأولها تنزيه، وآخرها إيمان بالصفات على أساس ذلك التنزيه، فلا تقطع أول الآية من آخرها، ولا آخرها من أولها، بل اربط بينهما، ولا تقل: المخلوقات تسمع وتبصر، وإثبات السمع والبصر لله تشبيه. لا، أثبت السمع والبصر، ولكن إثباتاً مبنياً على ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ﴾ لا إثباتاً وسخاً نجساً قذراً ذاهباً إلى صفات الخلق، لا.. لا، فأول الآية تنزيه بلا تعطيل، وآخرها إيمان بالصفات وإثبات لها بلا تمثيل.

الأصل [الثالث][(١)] من هذه الأصول الثلاثة: هي أن يعلم الإنسان قدره، ويقف عند حده؛ لأن خالق السماوات والأرض أعظم وأجلّ وأكبر من أن تحيط به العقول المخلوقة المسكينة، والله يقول: ﴿يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلۡمٗا ١١٠﴾ [طه: آية ١١٠] فنفى الإحاطة للعلم البشري عن خالق السماوات والأرض نفياً باتاً.

فمن لقي الله وهو متمسك بهذه الأسس الثلاثة في ضوء كتاب الله لقيه في سلامة وفي غير ندامة. ونحن الآن في طريقنا في إسراع وحث إلى الوقوف بين يدي الله (جلّ وعلا)؛ لأن هذه اللحظات والدقائق والثواني يظن الجاهل أنها هادئة، وأنها واقفة، وهي تقطع بنا آلاف الأميال إلى المحشر، فعن قريب ونحن قائمون بين يدي الله في صعيد واحد، ينفذنا البصر ويسمعنا الداعي، ويسألنا الله، والله يقول: ﴿فَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرۡسِلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٦﴾ [الأعراف: آية ٦] ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسۡـَٔلَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٩٢ عَمَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٩٣﴾ [الحجر: الآيتان ٩٢، ٩٣] فيوشك أن يقول لنا: ماذا كان موقفكم من صفاتي التي كنت أثني بها على نفسي في كتابي، ويثني بها عليّ رسولي ﷺ؟

(١) في الأصل: «الثاني»، وهو سبق لسان.

[ولا يقول لك الله: لِمَ نزهتَني عن مشابهة خلقي؟ لا والله، لا يقول لك ذلك][(١)] / أبداً بل تنزيه رب السماوات عن مشابهة خلقه في ذواتهم وصفاتهم وأفعالهم طريق سلامة محققة لا شك فيه، ولا يقول لك الله: لِمَ صدقتني فيما مدحت به نفسي، وأثنيت به على نفسي، وأنزلته في كتابي معلماً خلقي أن يمدحوني به؟! لا يقول لك: هذا أبداً، ولا يقول لك: لِمَ تقف عند حدك، وتقر بما لا تعلم؟ لأن الله يقول: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ بل هي كلها طرق سلامة محققة.

٣/ب

واعلموا أيها الإخوان أن أول البلايا ومنشأ الرزايا كله من أنجاس القلوب بسبب التشبيه، كل البلايا منشؤها الوحيد بسبب أنجاس القلوب من أقذار التشبيه. هذا أصل البلاء والمحن والفتن الذي طبقت وجللت هذه المعمورة؛ لأن السلفي ـ مثلًا ـ العامل بضوء القرآن، إذا سمع الله يثني على نفسه بصفة من الصفات التي أثبتها لنفسه، سواء كانت صفة ذات أو صفة فعل، كقوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الفرقان: آية ٥٩] امتلأ قلبه إجلالاً وتعظيماً وإكباراً، وعلم أن هذا الاستواء الذي أثنى الله به على نفسه في سبع آيات من كتابه أنه بالغ من غايات الكمال والجلال والتنزيه والتقديس والمباعدة عن صفات المخلوقين ما يقطع جميع علائق أوهام المشابهة بينه وبين صفات المخلوقين. أما إذا كان قلب الإنسان فيه بعض أقذار التشبيه فأول ما يسبق إلى ذهنه أن هذا الاستواء ظاهره استواء المخلوقات ـ سبحان الله وتعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً ـ فيخطر في ذهنه أنه انتصاب كانتصاب هذا، فيتقذر القلب من أقذار التنجيس والتشبيه، فعند ذلك تأتي البلايا، وبعد ذلك إذا قال: ظاهر هذا هو مشابهة صفات المخلوقين جاءت البلايا من هنا، ثم إنه دعاه شؤم هذا التشبيه إلى أن ينفي هذه الصفة عن الله، ومن ينفي عن الله وصفاً أثبته لنفسه فهو «أجرأُ من خاصي الأسد»[(٢)]. ثم إذا نفى هذه الصفة عنه ذهب يتلمس إلى وصف في زعمه

---

(١) في هذا الموضع وقع مسح في التسجيل، وما بين المعقوفين [ ] زيادة يتم بها المعنى.

(٢) انظر: الأمثال لأبي عبيد ص٣٧٥.

ملائم، ثم يبدل الاستواء بالاستيلاء فيقول: استوى معناه استولى!! ويضرب لهذا مثلاً بقول الراجز في بشر بن مروان[١]:

قَد استَوَى بِشْرٌ على العراقِ ... مِن غيرِ سَيْفٍ ودَمٍ مهراقِ

فهذا غلط شديد كبير أيها الإخوان!! ونحن نرجو الله أن الذين وقعوا فيه من العلماء أن يعفو الله عنهم ويغفر لهم لحسن نياتهم، فهم كما قال الشافعي رحمه الله[٢]:

رَامَ نَفعاً فَضَرَّ من غير قَصْدِ ... ومن البرِّ ما يكونُ عُقُوقاً

ونرجو الله ألا يكونوا كالذين قال الله فيهم: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [البقرة: آية ٥٩]. وهذا الذي ذهبوا إليه أعظم وأشر وأضر من الذي فروا منه؛ لأنا نقول: أيها الإنسان الذي ضربت مثلاً لاستيلاء الله على عرشه الذي فسرت به الاستواء من تلقاء نفسك باستيلاء بشر بن مروان على العراق وضربت له المثل ببيت الرجز المذكور:

قد اسْتَوى بِشْرٌ على العراقِ ... مِن غيرِ سيفٍ ودمٍ مهْرَاقِ

أما تستحي من الله؟ أما تخاف الله؟ وبأي مبرر سوغت لنفسك أن تشبّه استيلاء الله على عرشه الذي زعمت باستيلاء بشر بن مروان على العراق؟ وهل يوجد في الدنيا تشبيه أنتن وأخس وأقبح من هذا؟! شبهت العرش بالعراق، ورب السماوات والأرض ببشر بن مروان، وهذا يفتح باباً إلى بحور من أنواع التشبيه لا ساحل لها أبداً؛ لأنه فيه تشبيه استيلاء الله على عرشه المزعوم بكل مخلوق قهر مخلوقاً فغلبه فاستولى عليه!! فمن هنا يضطر هذا القائل أن يقول: الاستيلاء الذي فسرت به الاستواء استيلاء منزّه عن استيلاء المخلوقين. ونحن نقول: كيف تنزهه وأنت تضرب له المثل

---

(١) مضى عند تفسير الآية (١٥٨) من سورة الأنعام.

(٢) مضى عند تفسير الآية (١٤٨) من سورة الأنعام.

باستيلاء بشر بن مروان؟ ثم نقول: إذا لزمنا أن ننزّه أحد الكلمتين: إما الاستواء الذي نصّ الله عليه في كتابه وأنزله في سبع آيات من القرآن كتاباً يتلى أو الاستيلاء الذي جئت به، أيهما أحق بالتنزيه؟ والجواب: ولا شك أن كلام رب العالمين الذي أنزله وحياً يُتلى من فوق سبع سماوات أحق بالتنزيه من غيره. فمقصودنا أن نبيّن لإخواننا أن المدار على حفظ القلب والمحافظة عليه من أقذار التشبيه، وأن يعلم الإنسان أن كل وصف وصف الله به نفسه فهو بالغ من غاية الجلال والكمال والإعظام والإكبار والتقديس ما يقطع جميع علائق أوهام المشابهة بينه وبين صفات المخلوقين، فيحمل على أطهر المعاني وأعظمها وأقدسها وأليقها بالله (جلّ وعلا) وأبعدها عن مشابهة صفات المخلوقين.

ولو قال قائل: نحن لا نعقل استواءً تدركه عقولنا إلا مثل استواء المخلوقين. فنقول له: وهل عقلت كيفية الذات المقدسة المتصفة بهذا الاستواء؟ فلا بد أن يقول: لا. فنقول: معرفة كيفية الصفات متوقفة على معرفة كيفية الذات، والله يقول: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه: آية ١١٠] والأشياء تختلف بإضافاتها، فالصفة المضافة والمسندة إلى الله تخالف المضافة والمسندة إلى غيره كمخالفة ذات الله لذوات خلقه، فصفات الخلق حق، وصفات الله حق، إلا أن صفات الله لائقة بذات الله، منافية لصفات المخلوقين كمنافاة [ذات الخالق لذوات][١] الخلق، والإضافات تتغير بها المخلوقات فكيف بما بين الخالق والمخلوق؟ فمثلاً ـ ولله المثل الأعلى ـ كلمة (رأس) أعني: كلمة (الراء والهمزة والسين) (رأس) هذه الكلمة إذا أضفتها إلى الإنسان وقلت: رأس الإنسان. وأضفتها إلى الوادي فقلت: رأس الوادي. وأضفتها إلى المال فقلت: رأس المال. وأضفتها إلى الجبل فقلت: رأس الجبل، أليست هذه الإضافات مختلفة في حقائقها، متباينة كل التباين؟ مع أنها مخلوقات حقيرة ضعيفة تباينت وتخالفت لاختلاف إضافاتها، فما بالك بالاختلاف الواقع بين الخالق والمخلوق؟ لا مشابهة هناك ولا مناسبة بين خالق ومخلوق. فعلينا أن نمشي

---

(١) في الأصل: «صفة الخالق لصفات». وهو سبق لسان.

على هذا النمط، وإذا سمعنا الله يثني على نفسه بصفة أن نعتقد أنها صفة بالغة من غايات التنزيه والكمال والإجلال ما يقطع علائق أوهام المشابهة بينها وبين صفات المخلوقين، ونؤمن بها على خصوص هذا الأساس من التنزيه، ولا نؤمن بها إيماناً وسخاً قذراً ذاهباً إلى المشابهة بصفات الخلق، لا.. لا، ثم نقطع الطمع عن إدراك الكيفيات والإحاطة العلمية؛ لأن الله نفاها نفياً باتاً في قوله: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه: آية ١١٠] فإننا إذاً نكون منزّهين ربنا، مصدقين لربنا، واقفين عند حدنا، وتنزيه الله طريق مأمونة، وتصديق الله ورسوله طريق مأمونة، والوقوف عند الحد طريق مأمونة. وسنبسط على هذا الكلام ـ إن شاء الله ـ في بعض المناسبات الآتية. وهذا معنى قوله: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّـٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾﴾ [التوبة: آية ٢١].

الجنات: جمع تصحيح للجنة، والجنة في لغة العرب[1]: البستان، فإن العرب تسمي كل بستان جنة، وسيأتي قوله: ﴿كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَـٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾ [القلم: آية ١٧] والبستان صاحب القصة المعروفة. وإطلاق الجنة على البستان إطلاق معروف مشهور، ومنه قول زهير بن أبي سلمى[2]:

كـأنَّ عَـيْـنَـيَّ فـي غَـرْبـي مُـقَـتَّـلَـةٍ ... من النَّواضِحِ تَسْقي جَنَّةً سُحُقاَ

هذا أصل الجنة في لغة العرب، وهي في اصطلاح الشرع: دار الكرامة التي أعد الله لأوليائه يوم القيامة، فهي شجرة مثمرة، ونخلة مضطردة، وغرفة عالية، وزوجة حسناء، نرجو الله أن يرزقنا الجنة وما قرب إليها من قول وعمل نحن وإخواننا المسلمين. وهذا معنى قوله: ﴿لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾.

النعيم: خفض العيش ولينه، وهو ضد البؤس كما هو معروف.

وقوله: ﴿مُّقِيمٌ﴾ أي دائم أبداً لا يزول، وهذا كمال النعمة؛ لأن كمال النعمة الإقامة فيها وعدم الانتقال عنها؛ لأن أعظم ما يكدر النعم والمسارّ هو أن يفكر الإنسان في أنه يفارقها. فترى الإنسان في لذاته وفي

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٩٩) من سورة الأنعام.

(٢) السابق.

نعمه وترفه، إذا فكر في أنه غداً يموت عنها، وتنكح نساؤه، وتقسم أمواله، ويذهب عنه كل شيء فزع من ذلك، وأظلمت الدنيا في عينيه، ولم يتلذذ بما هو فيه، وقد صدق أبو الطيب حيث يقول(١):

أَشَدُّ الغم عندي في سُرورٍ   تيقَّنَ عنهُ صاحبُهُ انتقالاَ

وهذا معروف عندهم، فكمال اللذة والنعمة إنما هو بالإقامة أبداً، والله (جلّ وعلا) نص في آيات من كتابه على أن نعيم الجنة لا ينقطع ولا يزول، كما قال تعالى في سورة هود: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَـٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۖ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾﴾ [هود: آية ١٠٨] فقوله: ﴿غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ أي: غير مقطوع أبداً، وكذلك قوله: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: آية ٩٦] أي: باق لا نفاد له أبداً، والآيات الدالة على هذا متعددة في كتاب الله، وهذا معنى قوله: ﴿وَجَنَّـٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾.

﴿خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ﴾ [التوبة: الآية ٢٢] على الدوام لا يزولون، كما قال جلّ وعلا: ﴿لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ [الكهف: آية ١٠٨] لا يتحولون عنها إلى غيرها.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ (جل وعلا) ﴿عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ الأجر في لغة العرب: جزاء العمل. ومعنى ﴿أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ أي: جزاء عملهم وهو الجنة، ووصفه بالعظم لِمَا في الجنة من عظيم الشأن؛ لأن الله يقول فيها: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [السجدة: آية ١٧] ولأجل هذا وصف هذا الجزاء بالعظم. وقد جاء مفصلاً في القرآن جميع ملاذه، كالمناكح في النساء التي هن في غاية الجمال، والملابس التي هي في غاية الجمال، والمشارب، والأواني، والحلي، والولدان، والغلمان إلى غير ذلك من نعيم الجنة المفصل في آيات هذا القرآن العظيم، وهذا معنى قوله: ﴿خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ [التوبة: آية ٢٢].

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَـٰنِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [التوبة: آية ٢٣].

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٤٢) من سورة الأعراف.

سبب نزول هذه الآية الكريمة أنه كان رجال من المسلمين يؤمنون بالله ويريدون الهجرة، فإذا أراد الواحد منهم أن يهاجر إلى رسول الله ليشارك المسلمين فيما هم فيه من الجهاد في سبيل الله والدعوة إلى الله جاءته امرأته وأولاده وأبوه وأخوه يناشدونه بالله ألا يذهب عنهم، ويقولون له: إلى من تكلنا؟ ويثبطونه، فبعضهم يمكث من أجل هذا. فنهاهم الله عن هذا، وسيأتي في سورة التغابن آية التغابن النازلة في عوف بن مالك الأشجعي، وهي قوله: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ﴾ [التغابن: آية ١٤] لأنها نزلت في عوف بن مالك، كان كلما أراد الهجرة جاءت امرأته وأولاده وناشدوه بالله، وقالوا: إلى من تكلنا؟ فيتثبط، فلما هاجر بعد ذلك وجد المسلمين سبقوه بكل خير، فندم وأراد أن يضرب امرأته وأولاده بسبب تثبيطهم إياه. فأمر الله المسلمين أن يتحفظوا من الأولاد والأزواج لئلا يثبطوهم عن الجهاد في سبيل الله، وأنهم إن وقع منهم شيء أن لا يؤاخذوهم، بل يعفوا عنهم ويصفحوا[1]، كما قال في آية التغابن: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ﴾ [التغابن: آية ١٤] ثم قال: ﴿وَإِن تَعْفُوا۟ وَتَصْفَحُوا۟ وَتَغْفِرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي: اصفحوا عنهم واغفروا لهم ولا تؤاخذوهم. وهذا معنى قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ﴾ [التوبة: آية ٢٣] قالوا: لم يذكر الأولاد هنا وذكرها في غير هذا الموضع، لا تتخذوهم أولياء توالونهم إذا كانوا يريدون أن يقطعوكم عن الهجرة.

﴿إِنِ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ﴾ قرأ الهمزة الثانية من قوله: ﴿أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ﴾ نافع وابن كثير وأبو عمرو مسهلة بين بين، والباقون بتحقيقها كما هو معلوم[2].

ومعنى ﴿ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْكُفْرَ﴾ معناه: اختاروه وآثروه على الإيمان، إن

---

(١) الترمذي في التفسير، باب: ومن سورة التغابن. حديث رقم: (٣٣١٧) (٤/٤١٩)، والحاكم (٢/٤٩٠)، وابن جرير (٢٨/١٢٥) وانظر: صحيح الترمذي (٣/١٢١).

(٢) انظر: الإتحاف (٢/٨٩).

آثروا الكفر واختاروه على الإيمان لا تتخذوهم أولياء، بل قاطعوهم وهاجروا ولا تركنوا إليهم. ويتعدد في القرآن إطلاق (استحب) بمعنى: (اختار) و(آثر) ومنه قوله: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ﴾ [فصلت: آية ١٧] أي: فاختاروه وآثروه عليه. ومنه قوله: ﴿الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ﴾ [إبراهيم: آية ٣] أي: يؤثرونها ويقدمونها عليها. وهذا معنى قوله: ﴿إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ﴾ [التوبة: آية ٢٣] فيكون معهم فيما هم فيه ويترك الهجرة ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.

وقد قدمنا في هذه الدروس مراراً[١] أن أصل مادة (الظلم) مادة الظاء واللام والميم، (ظَلَم) أنها في لغة العرب التي نزل بها القرآن أصلها في الوضع العربي: هو وضع الشيء في غير محله. فمن وضع شيئاً في غير محله تقول العرب: إنه ظلم؛ لأنه وضع الشيء في غير محله. ومنه قالوا للذي يضرب لبنه قبل أن يروب: «ظالم»؛ لأنه وضع الضرب في غير محله؛ لأنه يفسد زبده، ومنه قول الشاعر[٢]:

وقائلة ظلمتُ لكم سِقَائي وهل يخفى على العَكَدِ الظَّلِيمُ

وقول الآخر[٣]:

وصاحب صدق لم تَرِدْني شَكَاتُه ظلمتُ وفي ظَلْمِي لهُ عامداً أجرُ

أصل الظلم هو وضع الشيء في غير محله، وجاء في القرآن في موضع واحد بمعنى النقص، وهو: ﴿كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا﴾ [الكهف: آية ٣٣] أي: ولم تنقص منه شيئاً. وأصل الظلم وضع الشيء في غير محله، وأعظم أنواع وضع الشيء في غير محله: الكفر بالله؛ لأنه وضع للعبادة في غير من خَلَق، فالذي يأكل رزق الله، ويتقلب في نعيمه، ويعبد غيره قد وضع عبادته في غير موضعها، فهو ظالم، وهذا

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٥١) من سورة البقرة.

(٢) السابق.

(٣) السابق.

أكبر أنواع الظلم؛ ولأجل هذا يكثر في القرآن العظيم إطلاق الظلم على الكفر، كما قال تعالى: ﴿وَٱلْكَـٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ [البقرة: آية ٢٥٤] وقال تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾﴾، ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: آية ١٣] وقد ثبت في صحيح البخاري[1] أن النبي ﷺ فسّر قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: آية ٨٢] قال: بشرك. ثم تلا آية لقمان: ﴿يَـٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ هذا أصل الظلم. وقد يكون ظلم دون ظلم؛ لأن من أطاع الشيطان وعصى ربه بغير ما يكفر به قد وضع الطاعة في غير موضعها، ووضع المعصية في غير موضعها حيث عصى ربه وأطاع عدوه. ومن كفر بالله وضع العبادة في غير موضعها؛ ولذلك هنالك ظلم هو كفر، وهنالك ظلم دون ظلم هو خروج عن طاعة الله لا يبلغ بصاحبه الكفر، وهذا معنى قوله: ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ لأنهم وضعوا الأمر في غير موضعه فاتخذوا من يضرهم أولياء، وتركوا ما ينفعهم من الهجرة والجهاد في سبيل الله. وهذا معنى قوله: ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾.

﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَـٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَـٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [التوبة: آية ٢٤].

سبب نزولها هو ما أشرنا له آنفاً؛ لأن بعض الناس كان إذا أسلم عاقته هذه العوائق عن الهجرة والجهاد في سبيل الله (جلّ وعلا) بأن تعطله عن ذلك الأبناء والآباء والإخوان والعشائر والزوجات والأموال المكتسبة والتجارات التي يُخاف أن تضيع بالكساد ويضيع ربحها، إن كان هذا كله أحب إليكم من الله ومن رسوله ومن الجهاد في سبيله ﴿فَتَرَبَّصُواْ﴾ هو أمر تهديد كما يأتي.

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٥١) من سورة البقرة.

وقوله: ﴿ءَابَآؤُكُمۡ﴾ اسم كان. و﴿أَحَبَّ﴾ خبرها.

ومعنى الآية الكريمة: قل يا نبي الله لهؤلاء المتخلفين عن الهجرة في سبيل الله بسبب هذه العوائق الآتية، قل لهم: إن كانت هذه الأمور التي عاقتكم أحب إليكم من الله ومن رسوله ومن جهاد في سبيله فانتظروا أمراً يأتيكم من الله. وهذا معنى قوله: ﴿قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ﴾.

الآباء جمع الأب، والعرب تقول: «أبٌ» إذا نكرتها تعربها على العين وتحذف لامها ولا تعوض منه شيئاً، وهي من الأسماء التي تعرب على العين عند التنكير والتعريف. أما إذا أُضيفت فإن لامها ترجع لها[1]، وأصل لام (الأب) واو، أصله (أبوٌ) فلام الكلمة واو، فإنها إذا أُضيفت ـ مثلًا ـ أُعربت بالواو والألف والياء، فرجعت لها لامها كما هو معروف. وإذا نُكِّرت أو عُرِّفت أسقطت لامها وأُعربت على العين[2].

والإخوان جمع أخ. وأصل (أخ) أيضاً لامه المحذوفة واو؛ ولهذا رجعت في جمع التكسير في قوله: ﴿وَإِخۡوَٰنُكُمۡ﴾ فالأخ أصله (أخوٌ) بالواو، فلامه المحذوفة واو[3]، وهو كالأب في جميع ما كنا نذكر. هذا معنى قوله: ﴿قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ﴾. الأبناء جمع الابن وهو معروف.

﴿وَأَزۡوَٰجُكُمۡ﴾ الأزواج جمع زوج، وزوج الرجل امرأته، ومفرده (زوج) بلا هاء، وهذه هي اللغة الفصيحة. العرب تقول: هذه زوجه، أي: امرأته، وزعم بعض علماء العربية أن قولهم (زوجته) بالتاء أنها من لحن الفقهاء، وأنها لا أساس لها في العربية. والتحقيق أن اللغة الفصحى في امرأة الرجل أنها (زوجه) بلا تاء، وأن التاء لغة فيها مسموعة وليست لحناً كما يقوله بعضهم[4]. ومن إطلاق الزوجة بالتاء على امرأة الرجل قول

---

(١) انظر: شرح قطر الندى ص٤٦.

(٢) انظر: معجم مفردات الإبدال والإعلال ص٧.

(٣) انظر: المصدر السابق ص١٧.

(٤) راجع ما سبق عند تفسير الآية (١٨٩) من سورة الأعراف.

الفرزدق، همام بن غالب، وهو عربي قح[١]:

وإنَّ الذي يَسْعَى ليُفْسِدَ زَوجَتي كساعٍ إلى أُسْدِ الشرىٰ يستبيلها

ومنه قول الحماسي[٢]:

فشكا بناتي شجوهن وزوجتي والظاعنون إليَّ ثم تَصَدَّعُوا

وفي صحيح مسلم من حديث أنس أن النبي ﷺ قال في صفية: إنها زوجتي[٣]. فالتحقيق أن الزوجة بالتاء لغة لا لحن، وأن اللغة الفصحى في امرأة الرجل أن يقال فيها: (زَوْجُه) بلا هاء. وهذا معنى ﴿وَأَزْوَاجُكُمْ﴾ أي: نساؤكم.

﴿وَعَشِيرَتُكُمْ﴾ قرأ هذا الحرف عامة السبعة - غير أبي بكر عن عاصم - (أعني بأبي بكر: شعبة) قرؤوه كلهم ﴿وَعَشِيرَتُكُمْ﴾ بالإفراد. وقرأه شعبة عن عاصم: ﴿وعشيراتكم﴾[٤] بجمع التصحيح، جمع عشيرة، وعشيرة الرجل ثبت في صحيح البخاري وغيره ما يدل على أنها تشمل إلى الجد العاشر؛ لأنه ثبت في الصحيح[٥] أن النبي ﷺ لما نزل عليه قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ [الشعراء: آية ٢١٤] أنه امتثلها فنادى بني فِهْر، وفِهْر هو جده العاشر ﷺ، فدلّ هذا الحديث الصحيح على أن العشائر تشمل إلى الجد العاشر من الرجل، وهذا معنى ﴿وَعَشِيرَتُكُمْ﴾.

﴿وَأَمْوَالٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا﴾ الاقتراف في لغة العرب معناه الاكتساب، أموال

---

(١) السابق.

(٢) السابق.

(٣) السابق.

(٤) انظر: المبسوط لابن مهران ص(٢٢٦).

(٥) البخاري في التفسير، باب: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ حديث رقم: (٤٧٧٠) (٥٠١/٨) وأخرجه في موضع آخر، انظر حديث رقم: (٤٩٧١) ومسلم في الإيمان، باب في قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ حديث رقم: (٢٠٨) (١٩٣/١) من حديث ابن عباس (رضي الله عنهما). وقد جاء نحوه عن أبي هريرة وعائشة وغيرهما رضي الله عنهم أجمعين.

اكتسبتموها تخافون إن سافرتم عنها أن تضيع ﴿وَتِجَـٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا﴾ تخافون إذا هاجرتم عنها أن تكسد ولا تجد رواجاً وربحاً، وكان بعض العلماء يقول: إن التجارة التي يخاف كسادها من عنده بنات - مثلًا - إذا خرج كسدن ولم يجدن أزواجاً يتزوجونهن[١]. والأول هو ظاهر القرآن، وهو ظاهر اللغة، وإن كان الثاني قال به جماعة.

﴿وَمَسَـٰكِنُ﴾ جمع المسكن وهي الديار والقصور ﴿تَرْضَوْنَهَآ﴾ يعني ترضونها سكناً وتحبون الإقامة والسكنى فيها، إن كان هذا كله أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله ﴿فَتَرَبَّصُوا۟﴾ قد ثبت في الصحيح[٢] عن النبي ﷺ أنه لا يؤمن أحد حتى يكون رسول الله ﷺ أحب إليه من أهله وولده بل ومن نفسه التي بين جنبيه، فلا يؤمن أحد حتى يكون ﷺ أحب إليه من نفسه التي بين جنبيه ومن كل شيء كائناً ما كان. وكذلك محبة الله (جلّ وعلا)، فالمسلم يحب الله (جلّ وعلا) ويحب رسوله ﷺ. واعلموا أيها الإخوان أن العلامة الواضحة لمحبة الله ورسوله هي امتثال أمر الله واجتناب نهي الله فيما بلغه عنه رسوله محمد ﷺ. هذا هو علامة المحبة. واعلموا أن كل من يدّعي محبة رسول الله ﷺ وهو يخالفه أنه كذاب، كذاب، لا يحب الله ولا رسوله، ومن يخالف الله فالحب منتقص بقدر المخالفة، والمحب جداً لا يخالف محبوبه، فعلامة حب الله وحب رسوله الواضحة والشهادة به القاطعة هي اتباع ما جاء عن الله على لسان رسوله محمد ﷺ، ومصداق هذا في كتاب الله: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: آية ٣١] فمحبة الله ومحبة رسول الله علامتها

---

(١) انظر: القرطبي (٩٥/٨).

(٢) البخاري في الإيمان، باب: حب رسول الله ﷺ من الإيمان. حديث رقم: (١٥) (٥٨/١)، ومسلم في الإيمان، باب: وجوب محبة الرسول ﷺ. حديث رقم: (٤٤) (٦٧/١)، من حديث أنس (رضي الله عنه). وأخرجه البخاري في الموضع السابق (١٤) من حديث أبي هريرة (رضي الله عنه). وقد ذكره الشيخ بمعناه، ولفظه: **«لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين»** وفي بعض الألفاظ: **«من أهله وماله والناس أجمعين»**.

القاطعة اتباع رسول الله، فكل من يدّعي أنه يحب الله ويحب رسول الله ويرتكب الأمور المخالفة لما جاء به رسول الله عن الله فهو كذاب، كذاب، كذاب في دعواه المحبة. وهذا أمر معروف عند الناس؛ لأنه من الجبلة المعروفة عند العامة أن المحبة تقتضي الاتباع:

لو كان حبك صادقاً لأطعته إن المحب لمن يحب مطيع[1]

وقد صدق من قال[2]:

قالت وقد سألتْ عن حال عاشِقِهَا بالله صِفْهُ ولا تَنْقُصْ ولا تَزِدِ
فقلتُ لو كان رهن الموت من ظمأ وقلتِ قفْ عن ورود الماءِ لم يردِ

هذا في محبة مخلوق على وجه غير لائق فكيف بمحبة الله ورسوله؟ فالمحب لله هو مطيع الله، والمحب لرسول الله ﷺ هو متبع رسول الله ﷺ.

وقوله: ﴿فَتَرَبَّصُوا﴾ التربص في لغة العرب: الانتظار، ومنه: ﴿يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾ [البقرة: آية ٢٢٨].

تَرَبَّصْ بها رَيْبَ المَنُونِ لعلَّها تُطَلَّق يوماً أو يموتَ حَلِيلُها[3]

قال بعض العلماء: ﴿فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ﴾ الظاهر أنه واحد الأمور، ولا شك أن في هذه الآية تهديداً وتخويفاً لمن دام على إيثاره هذه الأشياء على الله وعلى رسوله ﷺ ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ وَٱللَّهُ﴾ جلّ وعلا ﴿لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾.

---

(١) البيت في تاريخ دمشق (٣٧٩/١٣) ونسبه للحسن بن محمد بن الحنفية.

(٢) البيتان في ديوان يزيد ص٨٣، وهي أيضاً في (قرى الضيف) ص١١٨، بالإسناد إلى أبي المطاع ذي القرنين بن ناصر الدولة أبي محمد من شعره. وذكرهما الأبشيهي في المستطرف (٣٨٥/٢)، وابن الجوزي في المدهش ص٣١٤، بدائع الفوائد (٢١٦/٣) ولفظهما هناك:

قالت لطيف خيال زارها ومضى بالله صفه ولا تنقص ولا تزد
فقال: خلفته لو مات من ظمأ وقلتِ: قف عن ورود الماء لم يرد
قالت: صدقت الوفا في الحب شيمته يا برد ذاك الذي قالت على كبدي

(٣) البيت في القرطبي (١٠٨/٣)، واللسان (مادة: ربص) (١١٠٦/١)، والدر المنثور (١٢٠/٦) وعزاه لابن الأنباري في الوقف والابتداء، وهو أيضاً في فتح القدير (٢٣٢/١) (٩٩/٥).

مثل هذه الآيات فيه سؤال معروف للعلماء، كقوله: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِى ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَـٰسِقِينَ﴾ ﴿لَا يَهۡدِى ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ فالله (جلّ وعلا) نفى هدايته للفاسقين، ونفى هدايته للظالمين، مع أنّا نشاهد بعض الفاسقين الظالمين يهديه الله، وكم من كافر شديد في الكفر، ظالم فاسق يهديه الله. هذا وجه الإشكال.

وأجاب العلماء عن هذا بجوابين:

أحدهما: أن قوله: ﴿لَا يَهۡدِى ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾، ﴿لَا يَهۡدِى ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَـٰسِقِينَ﴾ من العام المخصوص، وأن المراد بها الذين سبق في علم الله أنهم لا يهتدون من الفسَقة والظلمة الذين قال الله فيهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوۡ جَآءَتۡهُمۡ كُلُّ ءَايَةٍ﴾ الآية [يونس: الآيتان ٩٦، ٩٧].

وقال بعض العلماء: لا يهديهم ما زالوا متصفين بالظلم والفسق، فإذا نزعوا عن ذلك برحمة الله وهدايته زال عنهم اسم الفسق والظلم، فلا مانع إذاً من هداهم. هكذا قاله بعض العلماء والله تعالى أعلم. وهذا معنى قوله: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِى ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَـٰسِقِينَ﴾ [التوبة: آية ٢٤].

﴿لَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوۡمَ حُنَيۡنٍ إِذۡ أَعۡجَبَتۡكُمۡ كَثۡرَتُكُمۡ فَلَمۡ تُغۡنِ عَنكُمۡ شَيۡـًٔا وَضَاقَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ ثُمَّ وَلَّيۡتُم مُّدۡبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمۡ تَرَوۡهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡكَـٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾ [التوبة: الآيات ٢٥ ـ ٢٧].

﴿لَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ﴾ اللام جواب قَسَم محذوف، والله لقد نصركم الله. أي: أعانكم على أعدائكم ﴿فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ﴾ أي: في مشاهد ومواضع كثيرة، كما نصركم يوم بدر، ويوم الأحزاب، ويوم فتح مكة، إلى غير ذلك ﴿وَيَوۡمَ حُنَيۡنٍ إِذۡ أَعۡجَبَتۡكُمۡ كَثۡرَتُكُمۡ﴾ [التوبة: آية ٢٥] بيّن الله في هذه الآية الكريمة أن النصر من عند الله وحده، لا

بكثرة العدد ولا بكثرة العُدد، ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: آية ٢٤٩] لأن أكثر غزاة قبل تبوك غزاها النبي ﷺ غزوة حنين، كانوا اثني عشر ألفاً، عشرة آلاف مقاتل فتح بهم مكة، وألفان من مسلمة الفتح من قريش ومن معهم وهم الطلقاء. وكان بعض العلماء يقول: إنه دخل مكة وفتحها باثني عشر ألفاً. فيكون المجموع: أربعة عشر ألفاً. ذكروا أن الصحابة قالوا: لن نُغلب اليوم من قلة. بعضهم يقول: إن هذه قالها أبو بكر (رضي الله عنه)، وقيل: قالها رجل آخر. فلما أعجبتهم الكثرة وأنهم كانوا اثني عشر ألفاً، أو أربعة عشر ألفاً، وقيل: ستة عشر ألفاً. وأكثر الروايات أنهم كانوا اثني عشر ألفاً، عشرة آلاف فتح بهم مكة، وألفان من أهل مكة أسلموا وغزوا معه. ﴿فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ﴾ هذه الكثرة ﴿شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ وهذا نص الله فيه على ما وقع بالمسلمين أول وقعة حنين، يبيّن لهم أن النصر من عنده (جلّ وعلا) وحده لا من كثرة العدد والعُدد.

ونحن دائماً في هذه الدروس إذا جاءت غزوة من مغازي رسول الله ﷺ في الآيات القرآنية نفصلها ونذكر تفاصيلها لتمام الفائدة كما أوضحنا فيما مضى غزوة أحد في سورة آل عمران، وغزوة [بدر][1] في سورة [الأنفال][2]، وسيأتي في سور القرآن العظيم أكثر مغازيه ﷺ.

وهذه الغزوة التي أشار لها الله هنا وبيّن أن الصحابة أعجبتهم كثرتهم فيها، وأن كثرتهم لم تغنِ عنهم شيئاً، وأنهم ضاقت عليهم الأرض بما رحبت ثم ولوا مدبرين، هي غزوة حنين، وسنشير الآن إلى هذه الغزوة ونذكر تفاصيلها.

أما حنين فهو وادٍ من أودية تهامة بين مكة والطائف غير بعيد من ذي المجاز، وأما الذين غزاهم فهم هوازن، وهوازن قبيلة من قبائل قيس

(١) في الأصل: «الأنفال». وهو سبق لسان.

(٢) في الأصل: «بدر». وهو سبق لسان.

عيلان بن مضر؛ لأن هوازن هو ابن منصور بن خصفة بن عكرمة[١] بن قيس عيلان بن مضر.

قال بعض أصحاب المغازي والسير[٢]: لما سمع هوازن بخروج النبي ﷺ من [المدينة][٣] ظنوا أنه يقصدهم في غزاة الفتح فتجمعوا، جمعهم رئيسهم في ذلك الوقت، ورئيسهم في ذلك الوقت مالك بن عوف النصري من بني نصر بن بكر بن هوازن. ثم لما بلغهم أن النبي ﷺ فتح مكة جمعهم مالك بن عوف وعزموا على مقاتلة النبي ﷺ، فسمع النبي ﷺ بأخبارهم فأرسل إليهم عبدالله بن أبي حدرد الأسلمي (رضي الله عنه) عيناً يعرف له أخبارهم، فدخل في القوم مختفياً وسمع أخبارهم، وعرف أنهم عازمون على حرب النبي ﷺ. وكان النبي ﷺ قد فتح مكة في رمضان من سنة ثمان.

قال بعض أصحاب المغازي[٤]: فتحها لعشرين خلت من رمضان وعشر بقيت، وأنه أقام العشر الأواخر من رمضان بمكة بعد أن فتح مكة وخمس ليال من شوال، ثم غزا بعد خمس عشرة ليلة من فتحه مكة غزا هوازن باثني عشر ألفاً من أصحابه، عشرة آلاف الذين فتح بهم مكة، والألفان الذين أسلموا وخرجوا غازين معه من الطلقاء أهل مكة، ثم إن النبي ﷺ سمع بأن هوازن تجمعوا له في وادي حنين فقصدهم (صلوات الله وسلامه عليه) وقد صلى (صلوات الله وسلامه عليه) الصبح، وفي مخرجه هذا من مكة إلى حنين. مرّ بذات أنواط، وهي سدرة خضراء كبيرة كان المشركون يأتونها يوماً من السنة يذبحون عندها، ويعكفون عندها، ويعلقون عليها سلاحهم تسمى «ذات أنواط» وكان كثير ممن معه حديث عهد بالإسلام، فقالوا له: يا نبي الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط. فقال (صلوات الله وسلامه عليه): الله أكبر قلتم والذي نفسي بيده ما قال قوم موسى لموسى: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾

---

(١) في ابن هشام (١٧٦/١) ابن عكرمة بن خصفة.

(٢) السابق ص١٢٨٣.

(٣) في الأصل: «مكة». وهو سبق لسان.

(٤) السابق ص١٢٨٢.

[الأعراف: آية ١٣٨][1] وكان العباس بن مرداس السلمي قال: لما خرج رسول الله ﷺ من مكة قاصداً هوازن قال قصيدة يصف فيها جيش رسول الله ﷺ وما يعزم عليه من غزو هوازن منها أنه يقول[2]:

أَبْلِغْ هَوَازِنَ أَعْلاَهَا وأَسْفَلَهَا ... عني رِسَالَةَ نُصْحٍ فيهِ تِبْيَانُ
إني أظُنُّ رسولَ اللّهِ صَابِحَكُم ... جَيْشاً لهُ في فَضَاء الأرضِ أرْكَانُ
فيهم سُلَيم أخوكم غيرَ تارككُم ... والمسلمونَ عبادُ الله غَسَّانُ
وفي عضادته اليمنى بنو أسد ... والأجربان بنو عبسٍ وذُبيانُ
تكادُ ترجُفُ منه الأرضُ رهبَتَهُ ... وفي مقدِّمِهِ أوس وعثمانُ

يعني بـ (أوس وعثمان) قبيلتي مزينة من قبائل أُدّ بن طابخة بن إلياس، ومزينة أمهم. فتوجه إليهم رسول الله ﷺ، فلما كان قريباً منهم كان مالك بن عوف جمع جميع من طاوعه من هوازن، وكانت خرجت معه بنو نصر كلها (بنو نصر بن بكر بن هوازن)، وبنو جُشم كلها، (جُشم بن بكر بن هوازن) وبنو سعد كلهم، (سعد بن بكر بن هوازن)، ولم يخرج معه كثير من بني عامر بن صعصعة من قبائل هوازن، تخلّف عنه بنو ربيعة، وبنو كلاب، وجاء معه أوزاع قليلة من بني هلال بن عامر بن صعصعة، وجماعة من بني عمرو بن عامر بن صعصعة، وبني عوف بن عامر بن صعصعة، وجاء معه ثقيف كلها، وكانت ثقيف كلها ترجع إلى قبيلتين، وثقيف أهل الطائف، وثقيف هو ابن بكر بن منبه بن هوازن، هم من قبائل هوازن، وإن كان كثير من الناس يظن أنهم مع هوازن، فهم من هوازن؛ لأن ثقيف بن منبه بن بكر بن هوازن جاءت معه ثقيف كلها لم يبق منهم أحد، وكان رئيس الجميع مالك بن عوف النصري، وكان في ثقيف أهل الطائف رئيسان، رئيس

---

(١) أخرجه أحمد (٢١٨/٥)، وعبدالرزاق (٢٠٧٦٣)، وابن أبي عاصم في السنة (٧٦)، والترمذي في الفتن، باب ما جاء «لتركبن سنن من كان قبلكم» حديث رقم: (٢١٨٠) (٤٧٥/٤)، والحميدي (٨٤٨)، والطيالسي (١٣٤٦)، والطبراني في الكبير (٣٢٩٠، ٣٢٩٤)، وابن حبان (الإحسان ٢٤٨/٨)، وابن نصر في السنة ص١٦، ١٧، وابن جرير (٨١/١٣، ٨٢).

(٢) القصيدة في سيرة ابن هشام ص١٢٨٧.

الأحلاف، ورئيس بني مالك؛ أما رئيس الأحلاف ذلك اليوم فهو قارب بن الأسود بن مسعود بن المُعتِّب، ورئيس بني مالك هو ذو الخمار، وهو سبيع بن الحارث، وأخوه أحمر بن الحارث. وجاء دريد بن الصمة من بني جشم بن بكر، وكان سيداً عظيماً من سادات هوازن، مُجَرَّباً في الحروب، وكان في ذلك الوقت شيخاً فانياً يرتعش، لا فائدة فيه إلا التيمن برأيه، جاء راكباً في شِجَار[1] له، وكان جماع الناس إلى مالك بن عوف النصري، فقال دريد: هذا المحل الذي أنتم فيه أي وادٍ أنتم فيه؟ قالوا: نحن الآن بوادي أوطاس. قال: نِعم مجالُ الخيل، لا حزنٌ ضَرِس ولا سهل دهس. ثم إنه قال: ما لي أسمع بكاء الصغير، ونهاق الحمير، ورغاء البعير، ويعار الشاء؟ قالوا له: جمع مالك بن عوف مع هوازن مواشيهم وأموالهم ونساءهم وذراريهم!! فقال: أين مالك؟ فدُعي له مالك بن عوف، فقال: يا مالك!! لقد أصبحت رئيس قومك، وإن هذا يوم له ما بعده، فما لي أسمع رغاء البعير، وبكاء الصغير، ونهاق الحمير، ويعار الشاء؟ قال: سُقت مع الناس أموالهم ونساءهم وأولادهم. قال: ولِمَ؟ قال: أريد أن يكون عند ظهر كل رجل أهله وماله ليقاتل عنهم ولا يفر. فقال دريد يهزأ بمالك (أَنْقَض به) - أي أَخْرَجَ من فمه صوتاً استهزاءً به - وقال: راعي ضأن والله، هل يرد المنهزم شيء؟! هذا ليس برأي؛ لأنها إن كانت عليك فُضحت في أهلك ومالك، فكان الأولى أن تردهم إلى متمنَّع بلادهم وعُليا قومهم، فإن كانت لك فإنه لا ينفعك إلا رجل بسيفه ورمحه، وإن كانت عليك ألفاك ذلك وقد أحرزت أهلك ومالك. فقال مالك: والله لا أفعل غير هذا. ثم قال: يا معشر هوازن والله لتطيعنني أو لأتكئن على هذا السيف حتى يخرج من ظهري!! فقالوا: أطعناك. فقال دريد: هذا يوم لم أشهده ولم يفتني. ثم قال: هل حضر أحد من بني كعب أو كلاب؟ قالوا: ما حضرها أحد من بني كعب ولا كلاب. يعني كعباً وكلاباً أولاد عامر بن صعصعة. قال: غاب الجد والحد[2] لو كان

---

(١) الشجار: يشبه الهودج لكنه غير مُغطّى من الأعلى.

(٢) الحد: يعني الحدة والشجاعة.

يوم رفعة وعلاء لم يغب عنه كعب وكلاب. قال: من حضرها من عامر؟ قالوا: بنو عوف بن عامر، وبنو عمرو بن عامر. قال: ذانك الجذعان من عامر لا ينفعان ولا يضران. ثم قال دريد[1]:

١/٤

يا ليتني فيها جَذَعْ / أَخُبُّ فيها وأَضَعْ
أَقُودُ وطْفاءَ الزَّمَعْ[2] كأنها شَاةٌ صَدَعْ[3]

ثم إن مالك بن عوف أمرهم فكمنوا للنبي ﷺ وأصحابه في مضايق وادي حنين وأحنائه، كانوا في مضايق الوادي بجنبتي الوادي كامنين له.

وقال لهم ملكهم ـ مالك بن عوف النصري ـ: إذا أقبل عليكم القوم فشدوا عليهم شدة رجل واحد. فصلّى النبي ﷺ الصبح وسار بأصحابه في الغَلَس ـ يعني: بقية ظلام الليل مختلطة بضياء الصبح ـ فانحدروا في وادي حنين يمشون، فلم يشعروا بشيء إلّا وقد دخلوا في مكمن القوم، فشدوا عليهم شدة رجل واحد، وصارت الرماح والسهام كأنها رِجْل جراد منتشر عليهم، فوقع ما وقع، وزلّ المسلمون، ووقع ما قال الله: ﴿فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ فثبت رسول الله ﷺ وهو على بغلته البيضاء، وبعضهم يقول: الشهباء؛ لأن لونها بياض فيه شُهبة. والعباس بن عبدالمطلب (رضي الله عنه) آخذ بزمامها. وبعضهم يقول: آخذ بركابها الأيمن، أو حَكَمَتِها، وآخذ بركابها الثاني أبو سفيان بن الحارث بن عبدالمطلب، وكان مع النبي جماعة من آل بيته، منهم علي بن أبي طالب (رضي الله عنه)، والعباس بن عبدالمطلب، وأبو سفيان بن الحارث، والفضل بن العباس بن عبدالمطلب (رضي الله عنهم)، وربيعة بن الحارث بن عبدالمطلب، وأسامة بن زيد،

---

(١) ذكرهما ابن هشام في السيرة ص١٢٨٥، مرويات غزوة حنين (٢٣٤/١).

(٢) الوطفاء: طويلة الشعر.
الزمع: الشعر الذي فوق مربط قيد الدابة. فهو يذكر صفة فرس.

(٣) الشاة هنا: الوعل.
والصدع: الفتى القوي الشاب من الأوعال ونحوها.

وأيمن بن أم أيمن مولاة رسول الله ﷺ. وثبت رسول الله ﷺ ذلك الثبات العظيم، وكان يركض البغلة في نحر العدو يسرع إليهم ويقول:

أنـــا الـــنـــبـــي لا كـــذب أنـــا ابـــن عـــبـــدالـــمـــطـــلـــب

وهذا من الشجاعة منقطع النظير[1]؛ لأنه علىٰ بغلة لا تحسن الكرّ ولا الفر، لا تصلح لكرٍّ ولا لفر، وقد انكشف عنه أصحابه (صلوات الله وسلامه عليه)، وليس معه إلّا قوم قليل، ومع هذا يركض في وجه العدو وينوه باسمه ليعرفه من لم يكن يعرفه!! وقال للعباس بن عبدالمطلب ـ وكان رجلًا ضخماً قوياً جهير الصوت جداً ـ ناد: يا أصحاب السَّمُرة. فنادى العباس بأعلى صوته: يا أصحاب السَّمُرة. والسَّمُرة هي شجرة الحديبية التي وقعت تحتها بيعة الرضوان، وقد بايعوه فيها علىٰ أن لا يفروا عنه. وفي بعض المرات يقول: يا أصحاب السمرة، يا أصحاب سورة البقرة. يدعوهم. فسمعوا نداءه فقالوا: يا لبيك. وتراجع إليه المسلمون من كل فج، وقد أعجزهم أن يردوا الأباعر التي يركبونها؛ لأنها آلمها وقع السهام، فلم يقدروا علىٰ ردها ولا عطفها.

قال العباس بن عبد المطلب (رضي الله عنه): فوالله لمّا ناديتهم فسمعوا صوتي فكأنما عطفوا عليه عطفة البقر علىٰ أولادها. وكان (صلوات الله وسلامه عليه) أخذ قبضة من تراب فرمىٰ بها في أوجه القوم وقال: شاهت الوجوه. وذكر ابن عبدالبر وغير واحد أنه روىٰ من طرق كثيرة عن أولاد أولئك الجيش الذين أسلموا بعد ذلك أنهم قالوا: لقينا أصحاب محمد ﷺ فما لبثنا أن هزمناهم واتبعناهم حتىٰ أتينا علىٰ صاحب البغلة الشهباء فزجرنا زجراً قوياً، وأخذ قبضة من تراب وحصى فرمى بها في أوجهنا فلم تبق عين ولا فم إلا امتلأت من ذلك الحصى. ورجعوا منهزمين، فمن ذلك الوقت الذي رمىٰ تلك القبضة في أوجههم وكان حدهم كليلًا وأمرهم مدبراً. ثم إنه (صلوات الله وسلامه عليه) وكان العباس بن عبدالمطلب (رضي الله عنه) في ذلك اليوم شديد الشجاعة يُنَوِّه بالنفر الذين

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٤٥) من سورة الأنعام.

بقوا معه، والذي يقوله العباس في شعره أنهم عشرة فقط حيث يقول[(١)]:

ألا هل أتىٰ عرسي مُكري ومقدمي ... بـوادي حـنـيـن والأسـنّـة تـشـرع

إلىٰ أن قال:

نصَرْنا رسولَ الله في الحربِ تسعة ... وقد فرّ من قد فرّ عنه فأقشعوا

وعَاشِرُنا لاقى الحِمَامَ بنفسِه ... لما مسَّه في اللّهِ لا يَتَوَجَّعُ

يعني بعاشرهم الذي لاقىٰ الحِمَام أي: الموت: أيمن بن أم أيمن (رضي الله عنه)، أمه أم أيمن مولاة رسول الله ﷺ، فرجع المسلمون لما سمعوا نداء العباس، فاجتمع عليه من أوائلهم مئة رجل، فأمرهم النبي ﷺ أن يصدقوا الحملة علىٰ القوم، فاجتلد الناس اجتلاداً شديداً، فنظر إليهم رسول الله ﷺ فإذا هم يجتلدون ويتقاتلون قتالًا شديداً، فقال (صلوات الله وسلامه عليه): «**الآن حمي الوطيس**»[(٢)]. وكانت من الكلمات التي لم يُسبق قبلها، قال بعض من روىٰ قصة حنين هذه: فوالله ما تراجع المسلمون إلا والأسرىٰ بجنب رسول الله ﷺ[(٣)]. وكان ممن ثبت ذلك اليوم ثباتاً عظيماً أم سليم امرأة أبي طلحة، وهي حامل في ذلك الوقت بعبدالله بن أبي طلحة، كانت تشدّ وسطها ببرد وفي يدها خنجر، وهي ممسكة بعير أبي طلحة، ولما سألوها عن الخنجر قالت: إذا قرب مني بعض المشركين بعجت به بطنه[(٤)]. فهي عظيمة في الشجاعة والثبات، فرجع أصحاب رسول الله ﷺ وركبوا أكتاف العدو يقتلونهم ويأسرونهم، ثم إنهم فروا وانهزموا، طائفة منهم فيها سيدهم مالك بن عوف انهزموا ورجعوا إلىٰ حصن الطائف

---

(١) البيت الأول أورده ابن عساكر في تاريخ دمشق (٢٩٩/٢٦) ويليه بيتان غير المذكورين هنا. والبيتان الأخيران ذكرهما ابن عبدالبر في الاستيعاب (٩٦/٣) (مع بعض الاختلافات)، والقرطبي (٩٨/٨)، والحافظ في الفتح (٣٠/٨) دون الأول. وهما في مرويات غزوة حنين (١٨٣/١).

(٢) أخرجه مسلم في الجهاد والسير، باب في غزوة حنين. حديث رقم: (١٧٧٥) (١٣٩٨/٣ ـ ١٣٩٩) بلفظ: «**هذا حين حمي الوطيس**».

(٣) السيرة لابن هشام ص(١٢٩٢).

(٤) مسلم في الجهاد، باب غزوة النساء مع الرجال. حديث رقم: (١٨٠٩) (١٤٤٢/٣).

فتحصَّنوا به، وطائفة عسكروا في أوطاس. وأوطاس محل هو وحنين يجمعهم واد واحد، إلا أنهم عسكروا في محل بعيد منه، فأرسل النبي ﷺ في أثرهم سرية أمّر عليها أبا عامر الأشعري (رضي الله عنه)، ومعه في تلك السرية ابن عمه أبو موسىٰ الأشعري، فأدرك أبو عامر فَلَّهم، وأخذ ما عندهم من السبايا أيضاً، واستُشهد أبو عامر، أصابه سهم في ركبته فمات، واسْتَحَرَّ القتل ذلك اليوم في ثقيف خاصة، ثم في بني مالك فقُتل منهم سبعون رجلاً، أو أكثر، وقتل قوم من أصحاب رسول الله ﷺ، وكثير من هوازن، فهزمهم الله تبارك وتعالى، وفي ذلك اليوم قال رسول الله ﷺ: «**من قتل قتيلاً فله سلبه**»[١].

وكان أبو قتادة (رضي الله عنه) كما ثبت عنه رأىٰ رجلًا عليه رجل من المشركين يريد أن يقتله، فجاء فضرب المشركَ من ورائه علىٰ حبل عاتقه فقطع درعه وقطع حبل عاتقه، قال: فرجع إليّ فضمني ضمّة شممت منها ريح الموت، ثم أدركه الموت فأرسلني. ثم إنه بعد ذلك سأل عن درع ذلك الرجل ليأخذها؛ لأنه قاتِلُه، والنبي ﷺ قال: «**من قتل قتيلاً له عليه بينة فله سلبه**» فنادىٰ أبو قتادة: من يشهد لي؟ فلم يجد أحداً يشهد له، فأخبر رسول الله ﷺ، فقال رجل من القوم: هو عندي يا رسول الله، فأرضِه منه. قال له أبو بكر: لاها الله لا يعمد إلىٰ أسد من أسود الله يقاتل عن الله ورسوله فيعطيك سلبه!! قال له ﷺ: «**صدق أبو بكر**»[٢].

فهذه القصة أولًا انهزم فيها المسلمون، وقد ثبت في الصحيح[٣] عن البراء بن عازب (رضي الله عنه) أنه سأله رجل: أفررتم عن رسول الله ﷺ يوم حنين؟ قال: لكن رسول الله ﷺ لم يفر (صلوات الله وسلامه عليه)، وكان يقول: «**أقبلوا إليَّ عباد الله، أنا رسول الله، أنا محمد بن عبدالله.**

أنا النبي لا كذب أنا ابن عبدالمطلب»

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٤١) من سورة الأنفال.

(٢) السابق.

(٣) البخاري في المغازي، باب قول الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ...﴾ حديث رقم: (٤٣١٥ ـ ٤٣١٧) (٨/٢٧ ـ ٢٨).

ثم إن النبي ﷺ جمع جميع سبي هوازن، وكان فيه آلاف عديدة من السبايا من النساء والذراري، ومن الأموال ما لا يحصيه إلا الله، من الإبل والشاء وجميع الأموال، وكان قد نَفَّل بعض أصحابه، فأعطىٰ علي بن أبي طالب جارية تسمىٰ ريطة بنت هلال، وأعطىٰ عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) جارية تسمىٰ زينب بنت حيان، في أشياء كثيرة[(١)]. ثم إن النبي ﷺ رجع بنفسه يتبع فلَّهم إلىٰ الطائف، فحاصر أهل الطائف؛ لأن أهل الطائف - ثقيفاً - لما مات منهم ما مات في غزوة حنين ورجعوا تحصنوا بحصن الطائف، وصاروا يُخرجون السهام من كوىٰ الحائط يُرامون بها أصحاب رسول الله ﷺ، فمكث رسول الله ﷺ زمناً يحاصرهم، ومات في حصارهم جماعة من أصحاب رسول الله ﷺ، وهم متحصنون لم يؤذن له في فتحهم، فسأل عنهم معاوية بن نوفل الديلي: ماذا ترى؟ قال: أرىٰ أنَّ هؤلاء القوم كالثعلب في جحره، إن أطلت المقام علىٰ جحره أخذته، وإن ذهبت عنه لا يضرك بشيء[(٢)]، فسألوا رسول الله ﷺ أن يدعو عليهم فأبىٰ أن يدعو عليهم، وقال: «**اللهم اهد ثقيفاً وائت بهم**»[(٣)] ثم بعد ذلك أسلموا، وجاؤوا وافدين إلىٰ رسول الله ﷺ، وكان النبي ﷺ أمر بالسبايا والمغانم فذهب بها رجل أَمَّره عليها إلىٰ الجعرانة وكانت هناك حتىٰ رجع رسول الله ﷺ من حصاره إلىٰ الطائف، فلما رجع جاءه وفد هوازن مسلمين، وقام خطيبهم زهير بن صرد أبو صرد أمام النبي ﷺ وقال له: يا نبي الله إنَّا أصل وعشيرة، وإنه قد وقع بنا ما ترى، وإنا تبنا إلى الله ورجعنا مسلمين. ولو وقع ما وقع بنا وجئنا الحارث بن أبي شمر الغساني أو النعمان بن المنذر لرجونا عائدته بالخير وعطفه علينا، وأنت خير مكفول، وكذا وكذا، فرُد علينا أموالنا

---

(١) ذكره ابن هشام في السيرة ص١٣٤٢.

(٢) ذكره ابن كثير في تاريخه (٣٥٠/٤) وعزاه للواقدي.

(٣) أخرجه أحمد (٣٤٣/٣)، والترمذي في المناقب، باب مناقب ثقيف وبني حنيفة. حديث رقم: (٣٩٤٢) (٧٢٩/٤)، والواقدي في المغازي (٩٣٦/٣ - ٩٣٧)، وابن سعد في الطبقات (١١٤/٢) والطبري في التاريخ (١٣٣/٣) وذكره ابن القيم في الهدي (٤٩٧/٣)، وابن كثير في التاريخ (٣٥٠/٤)، والحافظ في الفتح (٤٥/٨).
وانظر: ضعيف الترمذي ص٥٢٧، مرويات غزوة حنين (٣٣٦/١ - ٣٣٧).

ونساءنا. قال لهم ﷺ: «**اختاروا أيهما أحب إليكم: أسبيكم أم أموالكم؟**» فقالوا: خيرتنا بين أحسابنا وأموالنا فنختار نساءنا وأولادنا. فقال لهم النبي ﷺ: «**أما ما كان لي ولبني عبدالمطلب فهو لكم**» فقال المهاجرون: ما كان لنا منها فهو لرسول الله. وقال الأنصار: ما كان لنا فهو لرسول الله. وقال الأقرع بن حابس التميمي: أما أنا وبنو تميم فلا، وقال عيينة بن حصن الفزاري: أما أنا وبنو فزارة فلا، وقال عباس بن مرداس السلمي: أما أنا وبنو سليم فلا. فقالت بنو سليم: ما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ، فقال لهم العباس: وهّنتموني حيث لم تجيزوا ما قلت عليكم. ثم إن النبي ﷺ ردّ لوفد هوازن جميع سباياهم، جميع نساءهم وأولادهم[١].

واختلفت عبارات المؤرخين وأصحاب المغازي هل كان ردهم لهم قبل أن تقسم الغنائم، أو بعد قسمها[٢]؟ وظاهر كلام ابن إسحاق ومن وافقه أنه كان قبل قسم الغنائم، وموسىٰ بن عقبة وغيره من أئمة المغازي يقولون: إنه كان بعد أن قسمت غنائمهم. قال ابن عمر (رضي الله عنه): كانت الجارية التي أعطاني عمر بن الخطاب أرسلتها إلى أخوالي من بني جُمح يصلحونها ويزينونها لي حتىٰ أطوف بالبيت وأرجع فأدخل بها، فلما رجعت أنوي الدخول بها إذا أصلحها لي أخوالي فإذا الناس يشتدون، قلت: ما بالكم؟ قالوا: رد إلينا رسول الله ﷺ نساءنا وأولادنا، فقال: اذهبوا إلى صاحبتكم في بني جُمح فخذوها[٣]. ثم إن زهير بن صُرد خطيب هوازن الذي خطب لهم رسول الله ﷺ استعطفه بخطبة نثرية، وبشعر أيضاً، فمن شعره الذي يستعطفه به[٤]:

---

(١) أخرجه الطبري في تاريخه (٣/١٣٥) من طريق ابن إسحاق، وذكره ابن هشام في السيرة ص١٣٤٠، وابن كثير في تاريخه (٤/٣٥٢) وأصل قدومهم على النبي ﷺ وتخييره لهم بين الأموال والذراري في البخاري، كتاب المغازي، باب قول الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ...﴾ حديث رقم: (٤٣١٨) (٨/٣٢).

(٢) انظر: البداية والنهاية (٤/٣٥٤).

(٣) أخرجه أحمد (٢/٦٩)، وابن جرير في تاريخه (٣/١٣٥)، وذكره ابن هشام في السيرة (١٣٤٢)، وابن كثير في تاريخه (٤/٣٥٤).

(٤) أخرجه البيهقي في الدلائل (٥/١٩٤)، والطبراني في الكبير (٥/٢٧٠، ٢٧١)، والأوسط =

امنُن علينا رسولَ الله في كَرَم فإنكَ المرءُ نرجوهُ وننتظرُ
امنُن على بيضَةٍ قد عاقَها قَدَرٌ ممزقٌ شملُها في دهرِها غِيرُ
امنُن على نسوةٍ قد كنتَ تَرْضَعُها إذْ فُوكَ تملؤُه من مَحْضِها الدررُ
امنن على نسوةٍ قد كنتَ تَرْضَعُها وإذ يزينك ما تأتي وما تذرُ

وقد كان قال له في خطبته: إنما وراء هذه الحضرة من نساء هوازن خالاتك وحواضنك[1]. ثم إن النبي ﷺ ردّ عليهم جميع نسائهم وأولادهم، وكان عيينة بن حصن قد أخذ عجوزاً وقال: هذه العجوز لها حسب ونسب في قومها، فيكون فداؤها شيئاً كثيراً غالياً. فالنبي ﷺ خيّر: من أراد أن يعطي شيئاً من سبايا هوازن ليُرد إلى أهله مجاناً فعل، ومن أراد العوض عنه قال له رسول الله ﷺ: «**سنعوضك عنه من أول ما فتح الله علينا، ومن أول ما أفاء الله علينا ست فرائض**».

والظاهر أن مراده بالفرائض رؤوس من الإبل؛ لأن حِقَّة الزكاة تسمىٰ (فريضة) ثم إن عيينة بن حصن قيل له: خذ عن هذه ستاً. فقال: لا. فامتنع وقال: لا آخذ عنها شيئاً. يطمع في فداء كثير!! فقال له زهير بن صرد: والله ما فوها ببارد، ولا ثديها بناهد، ولا بطنها بِوَالِد، ولا زوجها بواجِد. فلما قال له هذا الكلام قَبِلَ معاوضتها بما عوض به بقايا السبي[2]، ثم إن أهل الغزاة الذين حضروها من الأعراب وغيرهم خافوا أن يرد النبي ﷺ على

= (٤٥/٥)، والصغير (٢٣٦/١)، والخطيب في تاريخه (١٠٦/٧)، والطبري في تاريخه (١٣٤/٣)، وابن عبدالبر في الاستيعاب (٥٧٦/١)، وذكرها الذهبي في الميزان، وابن كثير في تاريخه (٣٥٣/٤). وقد سقط هنا بعد البيت الثاني بيتين، وفي بعض الروايات ثلاثة أبيات. وأما البيتين الثالث والرابع هنا فهما بيت واحد ورد في بعض الروايات باللفظ الأول وفي بعضها باللفظ الثاني. وانظر: مرويات غزوة حنين (٤٥٦/٢ ـ ٤٦٠). وقد حسنه الحافظ في اللسان (٩٩/٤ ـ ١٠٤)، والفتح (٣٤/٨)، وانظر: الإصابة (٥٥٣/١).

(١) أخرجه الطبري في تاريخه (١٣٤/٣)، وذكره ابن هشام ص١٣٤٠، وابن كثير في تاريخه (٣٥٢/٤) وانظر المصادر في الهامش السابق.

(٢) أخرجه الطبري في تاريخه (١٣٥/٣)، وذكره ابن هشام (١٣٤٢) وابن كثير في تاريخه (٣٥٥/٤).

هوازن الأموال أيضاً، فضيقوا عليه فقالوا: يا نبي الله اقسم علينا فيئنا، حتى ألجؤوه إلى سمرة فخطفت رداءه فقال: **«ردوا عليَّ ردائي، فوالله لو كان لكم من الفيء مثل شجر تهامة لقسمته كله عليكم، ولا تجدوني جباناً ولا كذاباً ولا بخيلاً»**[1]. (صلوات الله وسلامه عليه)، فأعطى ذلك اليوم المؤلفة قلوبهم، أعطى الأقرع بن حابس مائة من الإبل، وعيينة بن حصن مائة من الإبل، وأعطى أبا سفيان مائة من الإبل، وابنه معاوية مائة من الإبل، وصفوان بن أمية مائة من الإبل؛ لأن النبي ﷺ لما عزم على غزاة حنين استعار من صفوان بن أمية الجمحي أدراعاً كانت له وسلاحاً، فقال له: أغصباً يا محمد؟ قال: **«بل عارية مضمونة»**[2] وكانت تلك الأدراع قد فُقد منها شيء في القتال، فلما أراد النبي ﷺ أن يعوضه قال له: إن في قلبي اليوم ما لم يك في قلبي بالأمس، إني صرت أرغب في الإيمان. ولم يأخذ عوض أدراعه، قال بعض العلماء: لما أراد الخروج استسلف من ربيعة المخزومي آلافاً كثيرة يستعين بها، وأعطى المؤلفة قلوبهم.

ولما وقع بالمسلمين ما وقع أولًا وولّوا مدبرين كان بعض قريش إيمانهم في ذلك الوقت لم يكن قوياً حتى ذكروا مثله عن أبي سفيان بن حرب (رضي الله عنه) قالوا: كان في ذلك الوقت إيمانه مدخولًا، فقال: هزيمتهم لا يردها البحر[3]. وكان مع صفوان بن أمية أخوه لأمه - وصفوان بن أمية في ذلك الوقت على شركه، ومعه أخوه لأمه - بعضهم يقول: اسمه كلدة بن الحنبل. فلما وقع بالمسلمين ما وقع أولًا وولّوا

---

(١) البخاري في الجهاد، باب: الشجاعة في الحرب والجبن. حديث رقم: (٢٨٢١) (٣٥/٦) وأخرجه في موضع آخر، انظر حديث رقم: (٣١٤٨).

(٢) أخرجه أحمد (٤٠١/٣)، (٣٦٥/٦)، وأبو داود في البيوع، باب في تضمين العارية. حديث رقم: (٣٥٤٥ - ٣٥٤٧) (٤٧٦/٩ - ٤٧٨)، والحاكم (٤٧/٢)، والبيهقي (٨٩/٦) من حديث أمية بن صفوان عن أبيه. وبعضهم يرويه عن أُناس من آل عبدالله بن صفوان، وبعضهم: عن ناس من آل صفوان، وللحديث شاهد من حديث جابر (رضي الله عنه) عند الحاكم (٤٨/٣ - ٤٩). وانظر: الإرواء (٣٤٤/٥).

(٣) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (١٢٨/٥)، والطبري في تاريخه (١٢٨/٣)، وذكره ابن هشام ص١٢٩٠، وابن كثير في تاريخه (٣٢٧/٤) وانظر: مرويات غزوة حنين (١٦٣/١).

مدبرين قال: الآن بطل سحر محمد. فقال له صفوان بن أمية وهو مشرك: اسكت فضّ الله فاك، والله لأن يربني رجل من قريش أحب إليَّ من أن يربني رجل من هوازن[١].

وكان شيبة بن عثمان بن أبي طلحة قُتل أبوه عثمان بن أبي طلحة يوم أحد في حَمَلَة اللواء من بني عبدالدار، وعمه طلحة بن أبي طلحة وغيره من أعمامه، وكان حنقاً على النبي ﷺ، فخرج في غزاة حنين وهو على كفره يريد أن يصادف غرة من رسول الله ﷺ ليقتله ويأخذ بثأره، فلما انكشف المسلمون ووقع ما وقع قال شيبة: جئت من طرف بغْلته الأيمن فإذا عمه ممسك بركاب بغلته، قلت: هذا عمه ولن يخذله، فجئت من الطرف الثاني فإذا أبو سفيان بن الحارث بن عبدالمطلب ممسك ركابه من الجنب الآخر، فقلت: وهذا ابن عمه لن يخذله، فجئت من ورائه فلما قربت منه وأردت أن أساوره بالسيف وقلت: الآن آخذ ثأري فأقتل محمداً ﷺ، في بعض الروايات أنه قال: جاءني عنق من نار كأنه برق خاطف فصرت أرجع القهقرى خوفاً منه، فالتفت إليَّ رسول الله ﷺ فقال: «**ادن يا شيب!!**» فمسح صدره ودعا له الله. قال: والله ما رفع يده عنّي حتى صار أحب إليّ من كل شيء. وفي بعض روايات هذه القصة عن شيبة بن عثمان بن أبي طلحة (رضي الله عنه)، قال: لما أردت أن أضربه وأقتله جُعل في فؤادي شيء لا أدري ما هو منعني منه، فتيقنت أنه ممنوع منّي، ثم دعا لي فصار أحب الناس إليّ[٢]. فصار شيبة بعد أن كان يريد قتل النبي ﷺ يقاتل معه في إخلاص ونصح.

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٤٥) من سورة الأنعام.

(٢) أخرجه الطبري في تاريخه (١٢٨/٣)، والطبراني في الكبير (٢٩٩/٧)، والبيهقي في الدلائل (١٢٨/٥، ١٤٥)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (مختصر ابن منظور ٩/١١ ـ ١٠) وساق ابن هشام بعضه ص١٢٩٠، كما ساق ابن كثير في تاريخه (٣٣٣/٤) رواية البيهقي وابن إسحاق. وكذا في التفسير (٣٤٥/٢)، وابن القيم في زاد المعاد (٤٧٠/٣)، وذكره الهيثمي في المجمع (١٨٤/٦)، والحافظ في الإصابة (١٦١/٢)، والسيوطي في الخصائص (٩٤/٢ ـ ٩٥) وعزاه لأبي القاسم البغوي وأبي نعيم وابن عساكر، وانظر: مرويات غزوة حنين (١٦٧/١ ـ ١٦٩). ولا يصح في سبب إسلامه شيء من الروايات.

ثم إن النبي ﷺ لما قسم غنائم حنين أعطىٰ المؤلفة قلوبهم، فأعطىٰ مائة من الإبل، مائة من الإبل، وأعطىٰ ما ملأ بين جبلين غنماً لرجل، وكان أعطىٰ عيينة بن حصن مائة من الإبل، والأقرع بن حابس مائة من الإبل، ولم يعطِ العباس بن مرداس السلمي. فغار العباس بن مرداس السلمي وعاتب رسول الله ﷺ في شعره المشهور وقال له[1]:

أتجعلُ نَهْبي ونَهْبَ العُبَيْد ... بَيْن عُيَيْنَةَ والأقرع

والعُبيد: فرسه. قال:

أتجعلُ نهبي ونهبَ العُبيد ... بين عُيينة والأقرعِ
فما كان حصنٌ ولا حابسٌ ... يفوقانِ مرداسَ في المجمعِ
وما كنتُ دون امرىءٍ منهما ... ومن تضعِ اليومَ لا يُرفعِ
كانت نِهَاباً تلافيتُها ... بِكرِّي على المُهْرِ في الأجْرعِ
وإيقاظي الحيَّ أن يرقُدوا ... إذا هجَعَ الناسُ لم أهجعِ
وقد كنتُ في الحربِ ذا تُدْرَإٍ ... فلم أُعطَ شيئاً ولم أُمنعِ
إلا أَفَائِلَ أُعطِيتُها ... عَدِيدَ قوائِمِها الأرْبَعِ

فقال ﷺ: **«اقطعوا عني لسانه فكملوا له مائة من الإبل»**[2].

ولما أعطىٰ قريشاً ورؤساء قبائل العرب ولم يعطِ الأنصار شيئاً وجد الأنصار في أنفسهم موجدة، وقالوا: يعطي قريشاً الغنائم وسيوفنا تقطر من دمائهم!! فسمع رسول الله ﷺ بمقالتهم، فأرسل سعد بن عبادة (رضي الله عنه) يجمع له الأنصار، فجمع له جميع الأنصار، فأخبره أن القوم

---

(١) تقدمت هذه الأبيات عند تفسير الآية (٤١) من سورة الأنفال. وقد وقع فيها شيء من التقديم والتأخير.

(٢) هذا الحديث أصله في صحيح مسلم من غير قوله: (اقطعوا عني لسانه) مسلم في الزكاة، باب: إعطاء المؤلفة قلوبهم على الإسلام وتصبر من قوى إيمانه. حديث رقم: (١٠٦٠) (٧٣٧/٢) وهو بالسياق الذي ذكره الشيخ (رحمه الله) في سيرة ابن هشام ص(١٣٤٦). وقد ذكره ابن كثير في تاريخه (٣٥٩/٤) من طريق موسى بن عقبة وعروة بن الزبير وابن إسحاق.

اجتمعوا، فجاءهم، قال: «**ما شيء سمعته عنكم يا معشر الأنصار؟**» قالوا: وما هو؟ قال: «**سمعت أنكم تقولون: يعطي قريشاً ولا يعطينا وسيوفنا تقطر من دمائهم، أو كلام نحو هذا**» فقالوا: قد قال هذا بعض سفهائنا، وأما أهل الحلم منا فلم يقولوه. فقال لهم: «**يا معشر الأنصار، ألم أجدكم ضُلاَّلاً فهداكم الله بي؟ وعالة فأغناكم الله بي؟ وأعداء فألّف الله بين قلوبكم بي؟**» قالوا له: للّه المنة ولرسوله ﷺ. قال: «**أوَلا تجيبونني يا معشر الأنصار؟**» قالوا: ماذا نقول؟ قال: «**لو شئتم لقلتم: ألم تأتِنَا مُكَذَّباً فصدقناك؟ وطريداً فآويناك؟ ومخذولاً فنصرناك؟**» ثم قال: «**يا معشر الأنصار ألا يرضيكم أن يذهب الناس بالشاء والبعير وتذهبون برسول الله ﷺ إلى بيوتكم؟ لو سلكت الناس وادياً والأنصار وادياً أو شعباً لسلكت وادي الأنصار وشعب الأنصار**» فبكىٰ القوم حتىٰ أخضل الدمع لحاهم، وقالوا: رضينا يا رسول الله ﷺ[١].

وكانت قيلت في حنين أشعار، ونحن لا نريد الإكثار من إيراد الأشعار فيها، لكن نذكر طرفاً منها، ومن أشهر ما قيل في غزوة حنين: شعر العباس بن مرداس السلمي (رضي الله عنه)، يفخر بقومه بني سليم، ويذكر الفتح وحنين في قصائده، ومن ذلك قوله في رائيته المشهورة[٢]:

ما بَالُ عَيْنِكَ فيها عَائِرٌ سَهِرٌ ... مثلُ الحَمَاطَةِ أغْضَى فوقَها الشُّفُرُ
عينٌ تأوَّبها من شجْوِهَا أرَقٌ ... فالماءُ يغمرُها طوراً وينْحَدِرُ
كأنهُ نظمُ دُرٍّ عند ناظِمةٍ ... تَقَطَّعَ السلكُ منه فهو مُنتثرُ
يا بُعدَ منزلِ مَنْ ترجُو مودَّتَه ... وقد أتى دُونَه الصَّمَّانُ فالحَفَرُ
دعْ ما تقدم من عهدِ الشبابِ فقد ... ولّى الشبابُ وزار الشيبُ والزَّعَرُ
واذكُر بلاء سُليم في مواطِنِهَا ... وفي سُليم لأهلِ الفخرِ مُفْتَخَرُ
قومٌ هُمُ نصروا الرحمٰنَ واتبعوا ... دينَ الرسولِ وأمرُ الناس مُشْتَجرُ

---

(١) البخاري في المغازي، باب: غزوة الطائف. حديث رقم: (٤٣٣٠) (٤٧/٨)، وأخرجه في موضع آخر، انظر حديث رقم: (٧٢٤٥)، ومسلم في الزكاة، باب: إعطاء المؤلفة قلوبهم على الإسلام وتصبر من قوي إيمانه. حديث رقم: (١٠٦١) (٧٣٨/٢).

(٢) الأبيات في ابن هشام ص١٣١٧ ـ ١٣١٨، والبداية والنهاية (٣٤٢/٤ ـ ٣٤٣).

لا يغرسون فسيلَ النخلِ وسْطَهُمُ   ولا تَخاوَرُ في مشْتَاهُمُ البقَرُ
إلا سَوابِحَ كالعِقْبَانِ مُقْرَبَةً   في دَارَةٍ حَوْلَهَا الأخطارُ والعَكَرُ
تُدعَى خُفَافٌ وعَوفٌ في جوانبها   وحَيٌّ ذكوانَ لا مِيلٌ ولا ضُجُرُ
الضاربُونَ جنودَ الكفرِ ضاحيةً   ببطنِ مكةَ والأرواحُ تُبْتَدَرُ
حتى رفَعْنَا وقتلاهُم كأنهُمُ   نخلٌ بِظَاهِرَةِ البطحاءِ مُنقعرُ
ونحنُ يومَ حنينٍ كان مشهدُنَا   للدين عزاً وعند الله مُدَّخَرُ
إذ نركبُ الموتَ مُخْضَراً بطَائِنُهُ   والخيلُ يَنْجَابُ عنها ساطعٌ كَدِرُ
تحت اللوامع والضحاك يَقْدُمُنَا   كما مَشَى الليثُ في غاباتِهِ الخَدِرُ
في مأزِقٍ من مَجَرِّ الحربِ كَلْكَلُها   تكادُ تأفُل منه الشمسُ والقمرُ
وقد صبرنا بأوطاسٍ أسِنَّتَنَا   للّه ننصُرُ من شِئْنا ونَنْتَصِرُ
فما ترى مَعْشَراً قلُّوا ولا كثرُوا   إلا وأصبحَ منا فيهُمُ أثَرُ

وهو في شعره دائماً ينوّه بالضحاك بن سفيان (رضي الله عنه)، قالوا: لأن النبي ﷺ جعله بمائة رجل، وكان عليه لواء سُليم، وكانت سُليم ألف مقاتل، كما بيّنه العباس بن مرداس في شعره حيث يقول في عينيته المشهورة[1]:

عفَا مِجْدَلٌ من أهْلِهِ فَمُتَالِعُ   فَمَطْلَى أريك قد خَلاَ فالمَصَانِعُ
ديارٌ لنا يا جُمْلُ إذ جُلّ عَيْشُنَا   رَخِيٌّ وصَرْفُ الدَّارِ للحيِّ جامعُ
حُبَيِّبَةٌ أَلْوَتْ بها غُرْبَةُ النَّوى   لِبَيْنٍ فهل ماضٍ من العيشِ راجعُ
فإن تبتغي الكفارَ غير ملومةٍ   فإني وزيرٌ للنبي وتابعُ
دعانا إليهم خيرُ وفدٍ علمتُهُم   خزيمةُ والمرَّارُ منهم وواسِعُ
فجئنا بألفٍ من سُليم عليهم   لَبُوسٌ لهم من نَسْجِ داودَ رائعُ
فَجُسْنَا مع المهدي مكةَ عَنْوَةً   بأسيافنا والنقعُ كابٍ وساطِعُ

(١) هذه القصيدة ذكرها ابن هشام ص١٣١٣ ـ ١٣١٤، ابن كثير في تاريخه (٣٤١/٤) وقد أسقط الشيخ منها هنا ـ بعد البيت السادس ـ بيتاً نظراً لما في معناه من الإيهام. والله أعلم.

علانية والخيلُ يغشى مُتونَها حميمٌ وآنٍ من دَمِ الجوفِ ناقعُ
ويومَ حنينٍ حينَ سارتْ هوازنٌ إلينا وضاقتْ بالنفوسِ الأضالِعُ
صَبَرْنَا مع الضحاكِ لا يستفِزُّنَا قِرَاعُ الأعادي منهم والوقائعُ
أمام رسول الله يخفقُ فوقَنَا لواءٌ كَخُذْرُوفِ السحابةِ لامعُ

ولم نُرد الإكثار من إيراد من تكلم فيها والذين قالوا شعراً في حنين غير كثير.

ولما قسم ﷺ غنائم حنين، وأعطىٰ هذا العطاء العظيم، وأرضىٰ الأنصار بما أرضاهم به كان (صلوات الله وسلامه عليه) خلّف على مكة عتَّاب بن أَسِيْد بن أبي العيص بن أمية (رضي الله عنه)[1]، وكان إذ ذاك ابن عشرين سنة.

هذا طرف أشرنا له من هذه الوقعة التي نوَّه الله (جلّ وعلا) بها في كتابه، ولم نرد الإطالة فيها كثيراً، وسنرجع ـ إن شاء الله ـ في اليوم الآتي إلى معنى الآية ونفسرها؛ لأنا الآن ما ذكرنا إلا بسط سبب نزولها الذي نزلت فيه. وكان بعض العلماء يقول: هذه أول آية نزلت من سورة براءة. فهذه الآية نزلت قبل أولها.

يقول الله جلّ وعلا: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾﴾.

اللام توطئة قسم محذوف، أي: والله ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ﴾ أيْ: أعانكم على أعدائكم ﴿فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ﴾ المواطن: جمع موطن، وموطن الحرب معناه مشهده وموقفه، وهو معنىً معروف في كلام العرب، ومنه قول الشاعر[2]:

وكم موطن لولاي طِحْتَ كما أرى بأجرامه من قُلَّة النِّيْقِ مُنهوي

---

(١) أورده ابن هشام ص١٢٨٦، وابن كثير في تاريخه (٣٢٥/٤).

(٢) البيت ليزيد بن أم الحكم، وهو في الكتاب (٣٧٤/٢)، البحر المحيط (٢٣/٥)، الدر المصون (٣٧/٦). وقوله: «طحت» أي: هلكت. والأجرام: جمع جِرْم وهو الجسد. والقُلَّة: ما استدار من رأس الجبل. والنِّيْقِ: أعلى الجبل.

أي: كم مشهد حرب. لقد أعانكم الله على أعدائكم في مواقف ومشاهد عديدة، كما نصركم يوم بدر، ويوم الخندق، ويوم قريظة، ويوم النضير، ويوم الحديبية، ويوم فتح مكة، إلى غير ذلك من المواقف التي تخرجون منها وأنتم ظاهرون منصورون.

﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ﴾ قيل التقدير: في أيام مواطن، ويوم حنين أيضاً، أي: ولقد نصركم يوم حنين ﴿إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾ يوم حنين حين التقوا بهوازن، وكانوا كمنوا لهم في مضايق وادي حنين ومخارمه وأحنائه، ثم شدوا عليهم شدة رجل واحد، وكانوا في هذه الوقعة قبل ملاقاة العدو كأن الصحابة أُعجبوا بكثرتهم لأنهم اجتمع منهم ذلك اليوم شيء لم يجتمع مثله قط فيما مضى، وقالوا: لن نُغلب اليوم من قلة. فبيّن لهم الله أن النصر من عنده وحده، لا بالعدد ولا بالعُدد ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [آل عمران: آية ١٢٦] ﴿إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾ أعجبتم بكثرة عددكم وقلتم: لن نُغلب اليوم من قلة ﴿فَلَمْ تُغْنِ﴾ هي، أي: الكثرة التي أعجبتكم لم تغن ﴿عَنكُمْ شَيْئًا﴾ لم تُفِدْكُم ولم تُجْدِكُم قبل أن يُنزل الله عليكم سكينته وينصركم. وهذا امتحان من الله وابتلاء وبيان لخلقه أن النصر بيده وحده لا بكثرة العدد ولا بكثرة العُدد؛ ولذا لمّا أمدّهم بالملائكة بيّن لهم مع ذلك أن النصر به وحده، قال: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: آية ١٢٦] ﴿إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا﴾ [التوبة: آية ٢٥] فلم تنفعكم ولم تُجدِ عنكم شيئاً. والعرب تقول: هذا لا يغني شيئاً، وما أغنى عنّي هذا شيئاً. يعنون: ما نفعني وما أجداني.

وقد قدمنا في هذه الدروس مراراً[1] أن أصله من الغَنَاء بالفتح والمد، فالغَنَاءُ في لغة العرب: ـ كسحاب ـ معناه: النفع. ومعنى (لا يغني عنه) أي: لا يحصل له به غَنَاء. أي: نفع. وقد قدمنا لغات

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٤٨)، والآية (٩٢) من سورة الأعراف.

هذه المادة مراراً في هذه الدروس، وبيّنا أن الغَنَاءَ بالفتح والمد ـ غَنَاءٌ كسحاب ـ أن معناه: النفع. ومنه قول بعض شعراء بني أسد بن خزيمة(١):

وقلَّ غناء عنك مال جمعته إذا صار ميراثاً وواراك لاحد

«قل غناء عنك» أي: قلَّ نفعاً لك. تمييز مُحَوَّلٌ عن الفاعل.

وأن (الغَنَىٰ) بالمد والقصر أنه الإقامة في الموضع، فالعرب تقول: غَنِيَ بالمكان يغنىٰ به غَنَىً ـ على القياس ـ أي: أقام به. ومنه في هذا المعنىٰ قوله تعالى: ﴿كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ﴾ [يونس: آية ٢٤].

والغِنَاءُ ـ بكسر الغين والمد إلى الهمزة، غِنَاء ككتاب ـ معناه: الألحان المطربة ـ قبّحها الله ـ.

والغِنىٰ بالكسر والقصر هو ضد الفقر، والغُنىٰ بالضم والقصر جمع غنية وهو المال الذي يقتنيه الإنسان فيغتني به في حياته.

والغُناء بضم فمد لا أعرفه في لغة العرب. وهذا معنىٰ قوله: ﴿فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا﴾.

﴿وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ الباء بمعنى (مع)، و(ما) مصدرية. والمعنىٰ: ضاقت عليكم الأرض مع سعتها ورُحْبِها، والرُّحْب بالضم: هو الاتساع، والرَّحْبُ: وصف، تقول: مكان رَحْب، يعني: وسيع، وصدر رَحْب أي: وسيع. والرُّحْبُ: معناه السعة، والرَّحْبُ بالفتح المصدر فـ (الباء) بمعنى (مع) و(ما) مصدرية. والمعنى: ضاقت عليكم الأرض في حال كون ذلك مع سعتها ورُحبها متلبسة بسعتها ورُحبها. والجار والمجرور في موضع الحال، كقولك: زرته بثيابي. أي مع ثيابي. أي: في حال كوني متلبساً بها. والخائف يضيق عليه فضاء الأرض الواسع؛ لأن من اشتد خوفه ضاقت الأرض في عينه وإن كانت

(١) البيت في ديوان الحماسة (٥١/٢)، المزهر (٣٠٦/٢).

طويلة عريضة واسعة، كما قال الشاعر[١]:

كـأنَّ بـلادَ الله وهـي عـريـضـةٌ على الخَائفِ المطلوبِ كِفَّةُ حابِلِ

وهذا معنىٰ ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾.

﴿ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ مولين الأدبار منهزمين؛ لأنهم أول المرة في ذلك اليوم انهزموا. وعن سلمة بن الأكوع (رضي الله عنه) أنه انهزم فيمن انهزم، وكان لابساً بردين متزراً بأحدهما متردياً بالآخر، فلما اشتد منهزماً هارباً انحل الإزار الذي يتزر به وعجل عن أن يشده فصار جامعاً له بيديه، ومرّ على النبي ﷺ في هذه الحالة والنبي (صلوات الله وسلامه عليه) في غاية الثبات والطمأنينة، فالتفت إليه وقال: «**رأى ابن الأكوع فزعاً**»[٢] وهو هارب، فرجعوا مدبرين. هذا معنى قوله: ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ [التوبة: آية ٢٥] ﴿مُّدْبِرِينَ﴾ معناه: مولين عدوكم بأدباركم، فارين منه.

﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ﴾ السكينة: فعيلةٌ من السكون، ومعناها: الطمأنينة والأمنة المستوجبان لأكمل الثبات ﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ﴾ [التوبة: آية ٢٦] أي: أمنته من الخوف، وطمأنينته في القلوب المستوجبة لأكمل الثبات على رسوله محمد ﷺ حيث كان على بغلته الشهباء (دُلْدُل) يركضها إلى نحور العدو ويقول: «**أقبلوا إلي عباد الله، أنا رسول الله، أنا محمد بن عبدالله**

«أنـا الـنـبـي لا كـذب أنـا ابـن عـبـدالـمـطـلـب»[٣]

﴿وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: وأنزل سكينته أيضاً على المؤمنين. قال بعض العلماء: المراد بالمؤمنين الذين أنزل الله سكينته عليهم: من ثبتوا معه ﷺ. وقال بعض العلماء: يدخل فيهم الذين رجعوا بعد الفرار والهزيمة وقاتلوا

---

(١) البيت في القرطبي (٨/١٠٠).

(٢) أخرجه مسلم في الجهاد، باب في غزوة حنين. حديث رقم: (١٧٧٧) (٣/١٤٠٢).

(٣) مضى عند تفسير الآية (٤٥) من سورة الأنعام.

معه عدوه. والتحقيق: أن الله أنزل سكينته على الجميع، الذين بقوا معه ولم يفرّوا والذين رجعوا إليه.

واختلف العلماء فيمن بقي معه ولم ينهزم[١]، وكان بعض العلماء يقول: عشرة رجال أو أحد عشر رجلًا، وقد ذكرناهم بالأمس، ومن جملتهم: شيبة بن عثمان بن أبي طلحة كان يريد الغدر بالنبي ﷺ فآمن في ذلك الوقت، وكان من الثابتين المقاتلين مع رسول الله ﷺ. وكثير من أصحاب المغازي يقولون: ثبت معه نحو من مائة رجل أو ثمانين. وبعض العلماء يوفق بين القولين يقول: أما العشرة أو الأحد عشر فلم يتحركوا، وأما المائة أو الثمانون فهم الذين رجعوا بسرعة وحملوا على عدو النبي ﷺ، ذكروا أن علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) قتل ذلك اليوم أربعين رجلًا بيده، وذكروا عن أبي طلحة أنه لما قال النبي ﷺ: **«مَنْ قتل قتيلاً له عليه بينة فله سلبه»**[٢] أنه قتل عشرين رجلاً فأخذ أسلابهم، وكان علي (رضي الله عنه) ذلك اليوم هو الذي أسقط الجمل الذي عليه راية هوازن؛ لأن رايتهم كانت عند رجل على رمح طويل راكب على جمل أحمر، يتقدم أمام الناس، فإذا أدرك الناس طعنهم بالرمح، وإذا فاتوه رفع لواءه على الرمح ليراه مَنْ بَعْدَه!! فابتدره علي (رضي الله عنه) ورجل من الأنصار فضرب عليّ الجمل على عرقوبيه فسقط على عجزه، فابتدر الأنصاري الرجل فأطنّ رجله بنصف ساقه وانجعف عن رحله[٣].

ثم إن الله قال: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ هذه الجنود هي الملائكة لم يرها المؤمنون ولكن الكفار رأوها، فذكر ابن عبدالبر أنه روى من طرق كثيرة عن أولاد أولئك الذين

---

(١) انظر: ابن هشام ص(١٢٨٩)، البداية والنهاية (٣٢٦/٤، ٣٣٠)، فتح الباري (٢٩/٨)، مرويات غزوة حنين (١٦٩/١ ـ ١٨٤).

(٢) مضى قريباً عند تفسير الآية (٢٥) من هذه السورة.

(٣) أخرجه الواقدي (٩٠٢/٣)، والبيهقي في الدلائل (١٢٧/٥)، والطبري في التاريخ (١٢٨/٣)، وذكره ابن هشام ص١٢٨٩، وابن كثير في تاريخه (٣٢٦/٤) وانظر: مرويات غزوة حنين (١٦٤/١).

كانوا من الكفار شهدوا حنيناً عن آبائهم أنهم قالوا: لقينا أصحاب محمد ﷺ فما وقفوا لنا حلب شاة، فهزمناهم واتبعناهم، حتى إذا انتهينا إلى صاحب البغلة البيضاء أو البغلة الشهباء رأينا رجالًا بيضاً على خيل بُلق وقالوا لنا: «ارجعوا، شاهت الوجوه»[(١)]، وقد كان النبي قال أيضاً هذه الكلمة «شاهت الوجوه، انهزموا». وجاء من روايات أُخر أن مالك بن عوف النصري سيد هوازن أرسل عيوناً يتجسسون له أخبار النبي ﷺ، فجاؤوه وقد انخلعت أوصالهم. أي: كأن ما بين عظامهم متفكك. فقالوا: رأينا رجالًا بيضاً على خيل بلق فما تمالكنا أن وقع بنا ما ترى[(٢)].

والله (جلّ وعلا) في هذا القرآن العظيم ذكر التأييد بجنود الملائكة في أربع سور من كتابه، في ثلاثة منها يقول: ﴿لَّمْ تَرَوْهَا﴾ وفي الرابعة لم يقل: ﴿لَّمْ تَرَوْهَا﴾.

٤/ب / أما الثلاث التي قال فيها: ﴿لَّمْ تَرَوْهَا﴾ فمنها: الملائكة الذين نزلوا في غزوة الخندق ـ غزوة الأحزاب ـ الآتي ذكرهم في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَآ﴾ [الأحزاب: آية ٩].

الثانية: الملائكة المنزلون في غزوة حنين هذه، المذكورون في قوله: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ [التوبة: آية ٢٦].

الثالثة: الملائكة الذين نزلوا بنبينا ﷺ يوم دخل في الغار هو وصاحبه، وسيأتي بسط قصتهم ـ إن شاء الله ـ في هذه السورة الكريمة سورة براءة، وذلك في قوله: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾ [التوبة: آية

---

(١) أخرجه الطبري في التفسير (١٨٦/١٤، ١٨٨)، وذكره ابن عبدالبر في الدرر في اختصار المغازي والسير ص١٦٨، وانظر: مرويات غزوة حنين (٢٠٨/١ ـ ٢٠٩).

(٢) أخرجه الواقدي في المغازي (٨٩٢/٣)، وابن سعد في الطبقات (١٠٨/٢)، والطبري في التاريخ (١٢٧/٣)، وذكره ابن هشام في السيرة، وابن القيم في الهدي (٤٦٧/٣)، وابن كثير في تاريخه (٣٢٣/٤)، وابن الأثير في الكامل (١٧٨/٢).

٤٠] ففي هذه المواضع الثلاثة كلها يقيد بـ (لم تروها) (لم تروها) لأنه ينزل ملائكة لا يراهم بنو آدم؛ لأنهم ليسوا من شكلهم ولا من جنسهم حتى يروهم. وفي الموضع الرابع لم يقيد بقوله: (لم تروهم) وهو الملائكة النازلون يوم بدر، المذكورون في الأنفال وآل عمران، حيث قال الله في الأنفال: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ﴾ الآية [الأنفال: آية ١٢]. وذكرهم أيضاً في سورة آل عمران في قوله: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ...﴾ إلى قوله: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ ﴿١٢٤﴾﴾ [آل عمران: الآيتان ١٢٣، ١٢٤] وقد قدمنا في سورة الأنفال(١) أن أظهر الأقوال أن الملائكة قاتلت يوم بدر، وأنها لم تقاتل في غيرها بل تأتي لتجبين الكفار وتقوية قلوب المؤمنين ونصرتهم، هذا هو الظاهر، وقد ذكر (جلّ وعلا) فرقاً شاسعاً بين من يفر في غزوة بدر ومن فرّ في غيرها؛ لأنه شدّد غاية التشديد فيمن يفر في غزوة بدر كما تقدم في قوله: ﴿وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ﴾ [الأنفال: آية ١٦] بهذا التشديد العظيم، ولم يقل مثل هذا فيمن انهزم من الصحابة يوم أُحد، ولا فيمن انهزم منهم يوم حنين؛ لأن بعض الصحابة انهزموا يوم أُحد، وبعضهم لم يرجعوا إلى النبي ﷺ، فأنزل الله فيهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا﴾ ثم قال: ﴿وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [آل عمران: آية ١٥٥] ثم قال هنا: ﴿ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ﴾ [التوبة: آية ٢٧] فأشار إلى أنه تاب عليهم من هزيمتهم. وهذا معنى قوله: ﴿وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وهم هوازن، عذبهم بأيدي المؤمنين حيث قتلوهم قتلًا وجيعاً وأسروهم وأخذوا أولادهم ونساءهم وأموالهم مصداقاً لقوله: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾﴾ [التوبة:

(١) مضى عند تفسير الآية (٩) من سورة الأنفال.

آية ١٤] ﴿وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ الذين كانوا يقاتلون النبي وأصحابه كهوازن ﴿وَذَٰلِكَ﴾ العذاب ﴿جَزَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [التوبة: آية ٢٦] ثم الله تعالى قال: ﴿ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ﴾ [التوبة: آية ٢٧] قال بعض العلماء: ﴿يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ﴾ يدخل فيه المنهزمون الذين انهزموا عن رسول الله ﷺ، مَنْ رجع منهم وكَرَّ ومَنْ لم يرجع. قالوا: ويدخل فيه الكافرون الذين قال الله: ﴿وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [التوبة: آية ٢٦] لأن كثيراً منهم تابوا فتاب الله عليهم. وقد كان رئيس هوازن مالك بن عوف (رضي الله عنه)، أسلم وكان من أصحاب رسول الله ﷺ؛ لأنه لما انهزمت هوازن راح مع فَلِّ الطائف - والفَلُّ هو بقية المنهزمين - وتحصّن بحصن الطائف، فأرسل إليه النبي ﷺ سراً: أنه إن قدم إليه رد إليه أهله وولده وأعطاه. فخاف إن أعلم ثقيفاً بذلك أن يمنعوه، فأمر أن يُرحل جمله في محلٍّ عيّنه لهم، ثم جاءه مختفياً، وسار إلى رسول الله ﷺ، وجاء إلى النبي ﷺ مسلماً فأكرمه رسول الله ﷺ، وردّ إليه أهله وولده، وأعطاه مائة من الإبل كما أعطى المؤلفين. وقد كان مالك بن عوف سيد هوازن مدح النبي ﷺ ببعض أشعاره، ومن ذلك قوله لما رد له رسول الله ﷺ ما رد له وأعطاه مائة من الإبل[1]:

ما إنْ رأيتُ ولا سمعتُ بمثله ... في الناسِ كلهم بمثلِ محمدِ

هذا يمدحه به رئيس الذين كانوا أعداءه بالأمس يقاتلونه، رجع في هذا الزمن القريب إلى مدحه والثناء عليه هذا الثناء الجميل:

مَا إنْ رأيت ولا سمعتُ بمثله ... في الناسِ كلهم بمثلِ محمدِ
أَوْفَى وأَعْطَى للجَزِيلِ إذا اجْتُدِي ... ومتى تَشَأْ يُخْبركَ عَمَّا في غَدِ[2]
وإذا الكتيبةُ عرَّدَتْ أنيابُها ... بالسَّمْهَرِيِّ وضَرْبِ كُلِّ مُهنَّدِ
فكأنَّه ليثٌ على أشبالِهِ ... وسْطَ الهَبَاءَةِ خادرٌ في مرصَدِ

---

(١) هذا الخبر مع الأبيات أخرجه البيهقي في الدلائل (١٩٨/٥)، وأورده ابن هشام ص١٣٤٣، وابن كثير في تاريخه (٣٦١/٤). وانظر: مرويات غزوة حنين (٤٦٩/٢).

(٢) معلوم أنه لا يعلم ما في غد إلّا الله تعالى.

وهذا معنى قوله: ﴿وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ [التوبة: آية ٢٦] فقسم النبي ﷺ غنائم هوازن بعد أن رد إليهم أولادهم ونساءهم، قسم غنائمهم بالجعرانة في ذي القعدة عام ثمان ـ ثم إنه أحرم بعد أن قسمها بعمرة[١] ـ من الهجرة.

وكانت في السبايا التي جيء بها رسول الله ﷺ: الشيماء بنت الحارث بن عبدالعزىٰ، أمها حليمة السعدية، أخت رسول الله ﷺ من الرضاعة، كانت تقول لهم: مهلًا عليّ لا تزعجوني فإني أخت صاحبكم من الرضاعة، فلما جاءت أخبرت النبي ﷺ فسألها عن العلامة فقالت له: عضة عضضتنيها في كتفي وأنا متوركتك. فعرف ﷺ العلامة فبسط لها رداءه وأجلسها عليه وأكرمها غاية الإكرام، وخيرها أن تبقىٰ معه محببة مكرمة أو أن يردها إلى أهلها ويمتعها. فاختارت الرد إلى أهلها فمتعها. كانوا يقولون: من جملة ما أعطاها جارية وغلاماً، زَوَّجَت الغلام من الجارية، قالوا: وكان عقبهما فيهم لا يكاد ينقطع[٢]. وهذا من كرمه ووفائه (صلوات الله وسلامه عليه)، فإن الإنسان إذا استعرض شيئاً من سيرته (صلوات الله وسلامه عليه) رأىٰ العظمة الهائلة من الشجاعة الكاملة، والحلم الكامل، والكرم الكامل، والوفاء الكامل (صلوات الله وسلامه عليه). وهذا معنى قوله: ﴿ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ﴾ [التوبة: آية ٢٧] على من يشاء أن يتوب عليه، وهذه يفهم منها أنه تعالى تاب على الذين انهزموا وإن لم يصرح بها. أما الذين انهزموا يوم أحد

(١) عمرته ﷺ بعد قسم غنائم حنين خرَّج حديثها البخاري في صحيحه، كتاب العمرة، باب: كم اعتمر النبي ﷺ؟ حديث رقم: (١٧٧٨) (٣/٦٠٠)، وأخرجه في مواضع أخرى، انظر الأحاديث رقم: (١٧٧٩، ١٧٨٠، ٣٠٦٦، ٤١٤٨)، ومسلم في الحج، باب بيان عدد عمر النبي ﷺ وزمانهن. حديث رقم: (١٢٥٣) (٢/٩١٦) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الواقدي (٣/٩١٣)، والبيهقي في دلائل النبوة (٥/١٩٩، ٢٠٠)، والطبري في تاريخه (٣/١٣١)، وابن عبدالبر في الاستيعاب (٤/٣٤٤)، وأورده ابن حزم في جوامع السيرة ص٢٤٥، وابن هشام ص١٣٠٦، وابن كثير في تاريخه (٤/٣٦٣) وابن الأثير في أُسد الغابة (٥/٢٥٧)، (٧/١٦٧)، والكامل (٢/١٨٠)، والحافظ في الإصابة (٣/٤٥٦)، (٤/٣٤٤)، وانظر: مرويات غزوة حنين (١/٢٦٥).

فقد صرح بأنه تاب عليهم في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ﴾ [آل عمران: آية ١٥٥].

وقوله هنا: ﴿ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ التوبة تطلق من الله على عبده، ومن العبد إلى ربه، فإذا أُطلقت التوبة من العبد إلى ربه عُدّيت بـ (إلى) ولم تُعدَّ بـ (على) تقول: تبت إلى الله. ولا تقول: تبت على الله. وإذا توجهت من الرب إلى عبده عُديت بـ (على) تقول: تاب الله عليه. ولم تقل: تاب إليه. أما التوبة الواقعة من المخلوقين فإن الوصف منها يطلق على (تائب) وعلى (توّاب) بصيغة المبالغة. أما توبة الله على عبده فلم يأتِ الوصف منها إلا على (توّاب).

وقد قدمنا مراراً[(١)] أن توبة العبد إلى ربه المستوجبة لتوبة الله على عبده أنها واجبة فوراً من كل ذنب، وأن من أخَّرَها كان ذلك ذنباً تجب منه التوبة.

وقد قدمنا في هذه الدروس مراراً[(٢)] أن في التوبة إلى الله (جلّ وعلا) إشكالين معروفين عند العلماء:

أحدهما: إطباق العلماء على أن توبة العبد إلى ربه هي مركبة من ثلاثة أركان، وهي: إقلاعه عن الذنب إن كان متلبساً به، وندمه على ما صدر منه، ونيته أن لا يعود. فهذه هي الأركان التي تتألف منها توبة العبد النصوح إلى ربه، الذي إذا فعلها جاءته توبة الله؛ لأن الله يتوب على من تاب عليه، كما قال (جلّ وعلا): ﴿تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ [التحريم: آية ٨] وهم يقولون: «عسى من الله واجبة»[(٣)]. هذا فيه إشكالان معروفان:

أحدهما: أن التوبة واجبة بإجماع العلماء فوراً من كل ذنب يُجترم. فعلينا جميعاً إذا صدر من الواحد منّا ذنب أن يرجع إلى الله ويتوب إليه فوراً ولا يؤخر التوبة من ذلك، فإن أخرها كان تأخيرها ذنباً يحتاج إلى توبة

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٤) من سورة الأنعام.

(٢) السابق.

(٣) مضى عند تفسير الآية (١٢٩) من سورة الأنعام.

أخرىٰ. والندم من أركانها بالإجماع، وركن الواجب واجب إجماعاً، فالندم على الذنب واجب؛ لأنه من أركان التوبة، وركن الواجب واجب، والإشكال هنا في الندم؛ لأن المعروف أن الندم من الانفعالات النفسية والتأثرات، لا من الأفعال الاختيارية كما هو مشاهد، والعلماء مجمعون على أنه لا تكليف إلا بفعل اختياري، وأن الانفعالات والتأثرات النفسانية لا يملكها أحد، فكيف يكلف بالندم ويُوجب عليه وهو انفعال وتأثر نفساني ليس تحت طاقته، وأنت تشاهد الإنسان يجاهد نفسه ليطرد عنها الندم، كالبائع المغبون يتجلد ويتقوىٰ ويريد أن لا يندم وهو يندم غصب أنفه؛ لأنه انفعال وتأثر، كما أن بعض الناس يريد أن يندمَ ولا يندمْ إذا كان الذنب الذي وقع فيه ـ والعياذ بالله ـ مما كان يشتهيه جداً، كالذي يظفر بقبلة من امرأة يعشقها، إذا أخطر ذلك على قلبه يصعب عليه أن يندم عليه؛ لأنها أُمنيته التي كان يرجوها فإذا كان الندم قد يريده الإنسان ولا يجده، وقد يدفعه عنه ولا يندفع، وهو انفعال وتأثر نفساني فكيف يكون ركناً من أركان التوبة، ويكون واجباً، ومعلوم إجماع العلماء على أن الله لا يكلف إلا بفعل؟

هذا الإشكال أجاب عنه العلماء بأن المراد بإيجاب الندم هو إيجاب الأخذ في أسبابه؛ لأن الإنسان إذا أخذ بأسباب الندم أخذاً صحيحاً ولم يحاب نفسه لا بد أن يندم، ومن كانت أسبابه الموصلة إليه متيسرة في طوع المكلف فكأنه متيسر في طاقة المكلف؛ لأن الإنسان إذا أخذ نفسه أخذاً حقيقياً وعرَّفها في داخل قرارة نفسه أنه لا يوجد في الدنيا إنسان يبلغ من البله والتغفيل ما يستلذ به طعاماً أو شراباً حلواً وفيه سم قاتل؛ لأن عامة العقلاء لا يحبون الطعام الحلو ولا الشراب الحلو ولو كان في غاية اللذاذة والحلاوة إذا كان في داخله سم فتاك قاتل، هذا يعافه جميع الناس ويكرهونه، ولا شك أن حلاوات المعاصي ولذاذاتها عند الجَهَلة، وإنما هي منطوية عليه من السم القاتل الفتاك، وهو سخط خالق السماوات والأرض وغضبه، أن العاقل إذا تأمل في هذا تأملًا حقيقياً ولم يحاب نفسه وأخذها بالتحقيق لا بد أن يندم؛ لأن الإنسان لو نال ما نال من حلاوة الذنب فهو يعلم أن تلك الحلاوة منطوية على أشد السموم وأفتكها وهو سخط خالق

السماوات والأرض وغضبه؛ لأنه قد يستوجب هلاكه في الدنيا وعذابه السرمدي في الآخرة، وهذا معروف؛ لأنه لا يأخذ الإنسان في أسباب الندم أخذاً صحيحاً حقيقياً ويعرف عواقب الذنب وسرعة انقضاء حلاوته.

فلا تقربِ الأمرَ الحرامَ فإنَّما حلاوته تفنى ويبقى مريرُها[1]

تفنى اللذاذةُ ممن نال صَفْوَتَها من المعاصي ويبقى الإثْمُ والعَارُ
تبقى عواقبُ سُوءٍ من مغبَّتها لا خير في لذةٍ من بعدها النارُ[2]

فمن عرف حقارة لذة المعصية وشدة السموم الفتاكة المنطوية عليها، وأعمل عقله تعميلًا صحيحاً لا بد أن يندم، فلما كانت الأسباب الموصلة إلى الندم متيسرة لا يعجز عنها إلا من حابى نفسه ولم يستعمل أسباب الندم صار الندم كأنه في طوق الإنسان.

الإشكال الثاني: هو ما ذكره العلماء في الإقلاع؛ لأن الإقلاع عن الذنب والكف عن شر الذنب، وعدم التمادي فيه، هذا ركن من أركان التوبة، فلا توبة مع عدم الإقلاع؛ لأن المتلبس بالذنب الذي لم يقلع عنه لا توبة له بإجماع العلماء، والإشكال في هذا أن بعض الناس يتوب مع تعذر الإقلاع عليه، كالذي كان ينشر بدعة من البدع حتى طارت في أقطار الدنيا، وصار يُعمل بها في مشارق الأرض ومغاربها، ومعلوم أن من سنّ سنّة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة، لا ينقص ذلك من أوزارهم شيئاً. ثم إنه ندم على بدعته وأراد الإقلاع والرجوع عنها، لكن شره منتشر مستطير في أقطار الدنيا؛ لأن البدعة التي بثّ وهي إلى الآن في أقطار الدنيا يتناقلها الناس بعضهم عن بعض، ويضلون بها بعضهم عن بعض، فهل نقول: هذا مقلع؛ لأنه فعل غاية ما يستطيع، أو نقول: ليس بمقلع؛ لأن فساده لم يزل فهو منتشر في أقطار الدنيا الآن؟

---

(١) البيت في تاريخ دمشق (٣٣٤/١٤) ونسبه للحسين بن مطير.

(٢) البيتان في الآداب الشرعية (٢٢٧/٢)، شعر الدعوة الإسلامية في عهد النبوة والخلفاء الراشدين ص٥١٦، وقد نسبها بعضهم لعثمان بن عفان (رضي الله عنه).

ومن هذا القبيل: من غصب أرضاً، كأن غصب أرضاً مثلًا عشرين ميلًا في عشرين ميلًا وهو جالس في وسطها، ثم إنه ندم على الغصب وأراد أن يخرج من الأرض المغصوبة نادماً، الزمن الذي يمكثه قبل أن يخرج منها لو أدركه الموت وهو فيها هل نقول: هل هذا تائب؛ لأنه فعل غاية ما يستطيع؟ أو نقول: لم يقلع؛ لأنه إلى الآن لم يتخل عن الشيء الذي غصبه، بل هو في حوزته إلى الآن، وهو يشغله بجسمه؟ ومن هذا المعنىٰ: من رمىٰ إنساناً من بعيد بسهم ثم لما فارق السهم ندم والسهم في الهواء فتاب إلى الله (جلّ وعلا) والسهم في الهواء، ثم بعد أن تاب أصاب السهم في الرمية فقتله، هل نقول: هو تائب؛ لأنه فعل في ذلك الوقت ما يستطيع، أو نقول: ليس بتائب؛ لأن فساده منتشر، وأثر جريمته باق لم ينقطع؟ هذه مسائل اختلف فيها علماء الأصول حول الإقلاع عن الذنب في التوبة[١]. والمحققون من علماء الأصول أن الإنسان إذا فعل غاية ما في وسعه وندم على ما صدر منه أن الله يغفر له بذلك ويتوب عليه؛ لأن الله يقول: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: آية ٢٨٦] وهذا معنى قوله: ﴿ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ﴾ مفعول المشيئة محذوف، أي: ويتوب الله على من يشاء أن يتوب عليه ﴿وَاللَّهُ﴾ (جلّ وعلا) ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ كثير المغفرة والرحمة لعباده؛ لأن الله غفور رحيم، فقد جاء في غزوة حنين هذه أن النبي ﷺ رأىٰ امرأة من السبي تصيح تطلب ولدها وهي في غاية التشويش إليه حتى وجدته فجعلت تقبّله وتضمه إليها من شدة شفقتها عليه، فقال النبي ﷺ لأصحابه: أترون هذه طارحة ولدها هذا في النار؟ قالوا: لا. قال: ولِمَ؟ قالوا: لشفقتها عليه. قال: الله أرحم بكم من هذه بولدها[٢]. فالله (جلّ وعلا) أرحم من كل شيء.

فلو أن فرعونَ لما طَغَى وقالَ على الله إفْكاً وزُوراً

---

(١) راجع ما سبق عند تفسير الآية (٥٤) من سورة الأنعام.

(٢) البخاري في الأدب، باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته. حديث رقم: (٥٩٩٩) (٤٢٦/١٠)، ومسلم في التوبة، باب في سعة رحمة الله تعالى، وأنها سبقت غضبه، حديث رقم: (٢٧٥٤) (٢١٠٩/٤).

أنــابَ إلـى الـلـه مُـسْـتَـغْـفِـرَا لَـمَـا وجَـدَ الله إلا غــفــورا(١)

الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة فجاؤوا بأشنع كفر كيف يستعطفهم الله ويقول لهم: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ٧٤﴾ [المائدة: آية ٧٤] هذا الاستعطاف والكلام اللين العظيم في الاستعطاف والوعد بالمغفرة للذين قالوا: إن الله ثالث ثلاثة يدل على عظمة رحمة الله وسعة مغفرته (جلّ وعلا) ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: آية ٣٨] كائناً ما كان من شدة رحمة الله ومغفرته.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَاۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ٢٨ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ٢٩﴾ [التوبة: الآيتان ٢٨، ٢٩].

يقول الله جلّ وعلا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَاۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ٢٨﴾ [التوبة: آية ٢٨] هذه مما كان ينادي به علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) في مواسم عام تسع، ولم يحج بعدها مشرك، ولم يطف بالبيت عريان، خاطب الله عباده في هذه الآية الكريمة باسم الإيمان ليكون ذلك أدعى وأبعث على الامتثال، آمراً لهم أن يبعدوا الكفار عن مسجده ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ صرح في هذه الآية الكريمة بأن المشركين نجس، والنجس أصله مصدر نجس الشيء ينجس نجساً فهو نجس بفتح فكسر، أصله مصدر. وهذا من النعت بالمصدر، والمصدر إذا نُعت به أفرد وذُكِّر، تقول: مشرك نَجَس، ومشركة نَجَس، ومشركان نَجَس، ومشركات نَجَس، ومشركون نَجَس.

(١) مضى عند تفسير الآية (٦٧) من سورة الأنفال.

تطلقه بالإفراد على الواحد والاثنين والجمع من الذكور والإناث.

قال بعض العلماء: هي نجاسة كالنجاسة الحسية؛ ولذا قال بعض العلماء: ذات المشرك نجس كالكلب والخنزير. وعن الحسن البصري رحمه الله: مَنْ صافح مشركاً فليتوضأ[1].

وجماهير العلماء ـ وهو الصواب إن شاء الله ـ على أن النجاسة في هذه الآية الكريمة معنوية، فهو نجس معنى، والمعنى أعظم من الحس؛ لأن شركه بالله أنتن شيء وأقذره وأنجسه، وكان بعض العلماء يقول: نجاسته أيضاً لأنه لم يتطهر من جنابة، ولم يتوضأ ولم يجتنب شيئاً من القاذورات والأنجاس، فهو ملازم للنجاسة. وأكثر العلماء على أن الكافر الذي لم يتلبس بدنه بنجاسة أن نجاسته معنوية لا حسية، وأنه لأجل هذه النجاسة المعنوية أمر الله أن يُبعد عن المسجد الحرام ولا يقرب منه.

قال عطاء (رحمه الله) وغير واحد من العلماء: ﴿فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ﴾ [التوبة: آية ٢٨] المراد بالمسجد الحرام: الحرم كله[2]، أي: لا يقرب المشركون حرم الله كله، بل يجب إبعادهم عن الحرم وعدم قربانهم إياه. وهذا القول هو الحق والصواب ـ إن شاء الله ـ لأنه دلّ استقراء القرآن العظيم على أن الله يطلق المسجد الحرام على جميع الحرم، وهذه الآية من جملة الآيات التي أُطلق فيها المسجد الحرام وأراد الحرم كله، كقوله: ﴿سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ [الإسراء: آية ١] والصحيح أن الإسراء وقع به من بيت أم هانىء بنت أبي طالب في مكة في الحرم لا في نفس المسجد، وقد قدمنا في الآيات الماضية قوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ [التوبة: آية ٧] والمعاهدة في طرف الحرم من الحديبية، فهذه الآيات دلت على أن منع الكفار والمشركين من القربان عام لجميع الحرم لا لخصوص المسجد وحده، خلافاً لمن قام مع اللفظ.

---

(١) أخرجه ابن جرير (١٩٢/١٤).

(٢) السابق.

والفاء في قوله: ﴿فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ﴾ دل مسلك الإيماء والتنبيه من مسالك العلة في الأصول على أنها أداة تعليل، وكذلك قُرر في الأصول أن الفاء من حروف التعليل[1]، كقولهم: سهى فسجد. أي: لعلة سهوه. وسرق فقطعت يده. أي: لعلة سرقته. وأساء فأُدِّب. أي: لعلة إساءته. ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ﴾ [التوبة: آية ٢٨] لعلة نجاستهم التي يجب أن تبعد من المسجد ويُتَوَقَّى إياها. والحاصل أن الصحيح ـ إن شاء الله ـ أنه لا يجوز أن يدخل جميع حرم مكة مشرك[2]. والصواب ـ إن شاء الله ـ أنها لا يدخلها الكتابيون من يهود ولا نصارى[3]، خلافاً لما ذهب إليه جماعة من العلماء، وهو مروي عن أبي حنيفة (رحمه الله) أنه لا مانع من دخول اليهودي والنصراني الذمي ـ مثلاً ـ الحرم، بل المسجد. قالوا: لأن الله إنما منع منه خصوص المشركين. قالوا: وأهل الكتاب ليسوا من المشركين[4]. واستدلوا بآيات من كتاب الله ظاهرها المغايرة بين أهل الكتاب والمشركين، كقوله: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [البينة: آية ١] وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [البينة: آية ٦] وقوله: ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟﴾ [آل عمران: آية ١٨٦] وقوله: ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [البقرة: آية ١٠٥] وقوله: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟﴾ [المائدة: آية ٨٢] إلى غير ذلك من الآيات التي عطف الله فيها أهل الكتاب على المشركين، قالوا: والعطف يقتضي المغايرة، فدل أنهم ليسوا من المشركين، والتحقيق الذي لا شك فيه ـ إن شاء الله ـ أن أهل الكتاب من المشركين، وقد نصّ الله على أنهم من المشركين في هذه الآية الكريمة من سورة براءة؛ لأنه لما ذكر أهل الكتاب وقال: ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٤) من سورة البقرة.

(٢) في هذه المسألة انظر: ابن جرير (١٤/١٩١)، القرطبي (٨/١٠٤)، إعلام الساجد للزركشي ص١٧٣.

(٣) انظر: المغني (١٣/٢٤٥).

(٤) مضى عند تفسير الآية (٥) من هذه السورة.

وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ [التوبة: آية ٢٩] ثم صرّح بأن أهل الكتابين من المشركين في قوله: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾ [التوبة: الآيتان ٣٠، ٣١] فصرح بأنهم مشركون بعد أن صرح بمنع المشركين من المسجد الحرام أتبعه بأن الكتابيين من نفس المشركين، وهذا برهان واضح.

وقال: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا...﴾ [التوبة: آية ٣١] ومعلوم أن الذي اتخذ الأحبار والرهبان أرباباً من المشركين شرك ربوبية كما لا يخفىٰ. وسيأتي في هذه الآيات الكريمة من سورة براءة بيان أن كل من اتبع تشريع أحد ونظامه واتبع تشريع الشيطان المخالف لتشريع الله كل متبع لتشريع الشيطان الذي يشرعه على ألسنة أوليائه تاركاً تشريع الله الذي شرعه على ألسنة رسله كافرٌ مشرك بالله[1]، كما سنوضحه في هذه الآيات الآتية. ومن أصرح الأدلة عليه أنه لما وقعت تلك المناظرة المشهورة بين حزب الرحمٰن وحزب الشيطان في حكم من أحكام الحلال والحرام، وحزب الشيطان يقولون: إن ذلك الحكم حلال، ويستدلون بوحي شيطاني، وحزب الرحمٰن يقولون: إن ذلك الحكم حرام. ويستدلون بوحي قرآني، لما اختصموا وأدلىٰ كل بحجته تولىٰ الله الفصل بينهم فأفتىٰ بينهم فتوىٰ سماوية تتلىٰ قرآناً في سورة الأنعام في قوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ يعني الميتة؛ لأن الكفار أوحىٰ إليهم الشيطان: أن سلوا محمداً عن الشاة تصبح ميتة، من هو الذي قتلها؟ فقال لهم: الله قتلها. فقالوا: إذن ما ذكيتموه وذبحتموه بأيديكم حلال، وما ذبحه الله بيده الكريمة حرام، فأنتم أحسن من الله. فهؤلاء استدلوا بوحي إبليسي!! ما ذبحتموه حلال، وما ذبحه الله حرام، فأنتم إذن أحسن من الله!!

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٧) من سورة الأنعام.

والمسلمون استدلوا بوحي قرآني، وهو ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ﴾. فلما أدلىٰ كل بحجته فصل الله بينهم فأفتىٰ في قوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ منه الميتة، أي: وإن زعموا أنها ذبيحة الله. ثم قال: ﴿وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾ [الأنعام: آية ١٢١] أي: الأكل منها فسق. ثم قال: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ﴾ يعني قولهم: ما ذبحتموه حلال، وما ذبحه الله حرام، فأنتم إذن أحسن من الله. ثم قال، وهو محل الفتيا السماوية من رب العالمين: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: آية ١٢١] فصرح بأن من أطاع تشريع الشيطان في حِل الميتة أنه مشرك برب العالمين، ولا شك أن اليهود والنصارىٰ أطاعوا الشيطان فيما هو أعظم من إباحة الميتة كما لا يخفىٰ، والشيطان عالم بأن الذين يتبعون نظامه وقانونه أنهم مشركون به، عالم هذا في قرارة نفسه، ولكنه في الدنيا يدلس لهم ويجحد، فإذا كان يوم القيامة الذي تظهر فيه الدفائن، وتبرز فيه الحقائق أوضح لهم تبرؤه من شركهم به كما سيأتي في سورة إبراهيم الخليل في الخطبة العظيمة التي ذكرها الله عن الشيطان، وهي قوله: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي ۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم ۖ مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ ۖ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ﴾ [إبراهيم: آية ٢٢] فصرح بأنهم كانوا مشركين به من قبل، ولا شك أن اليهود والنصارىٰ داخلون في هذا دخولاً أولياً، وكذلك قوله: ﴿إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [النحل: آية ١٠٠] واليهود والنصارى داخلون فيهم بلا شك، وهذا الشرك الشيطاني باتباع نظامه وشرعه هو الذي وبَّخ الله مرتكبه في سورة (يس)، وبيّن مصيره النهائي في قوله: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ ۖ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ اعْبُدُونِي﴾ [يس: الآيتان ٦٠، ٦١] إلى أن قال موبخاً لهم ناعياً عقولهم: ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [يس: آية ٦٢] ثم بيّن مصيرهم النهائي الأخير في قوله: ﴿هَٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ اصْلَوْهَا الْيَوْمَ﴾ [يس: الآيتان ٦٣، ٦٤] وهذا الشرك الشيطاني بالاتباع هو الذي نهى إبراهيم عنه أباه في قوله: ﴿يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ﴾ [مريم: آية ٤٤] وقال تعالىٰ: ﴿بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ﴾ [سبأ: الآية

٤١] وسيأتي لهذا المبحث زيادة إيضاح بالآيات القرآنية قريباً في الآيات الآتية - إن شاء الله - في الكلام على قوله: ﴿اتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: آية ٣١] فهذه النصوص ولا سيما آية براءة هذه التي صرحت أن خصوص أهل الكتاب من المشركين تدل على منعهم من دخول الحرم، وما نُقل عن بعض العلماء ورُوي عن الإمام أبي حنيفة من أنهم لا مانع من دخولهم الحرم، فيه نظر، والأصوب والأظهر أنهم يمنعون منه؛ لأنهم نجس؛ ولأن الله صرّح بأنهم مشركون. والتحقيق - إن شاء الله - أن المراد بالمسجد الحرام فيها الحرم كله، فلا يجوز أن يدخل حرم مكة مشرك بالله ولا كافر، كتابياً أو غيره، وما روي عن جابر (رضي الله عنه) من أنه خصص هذه الآية الكريمة وقال: لا يدخل فيها العبد والأمة، إذا كان للمسلم عبد ذمي أو أمة ذمية مملوكان فلا مانع من دخولهما المسجد[1]. وروي فيه حديث مرفوع، والتحقيق عند المحدثين أن الموقوف على جابر هو الأثبت الصحيح والمرفوع ليس بصحيح[2]. وقولٌ قاله جابر لا يمكن أن يُخصص به النص الصريح، ولا سيما النص المبني حكمه على العلة؛ لأنه صرح بأنهم نجس، وأشار بالفاء إلى أن تلك النجاسة هي سبب منعهم من قربان المسجد.

وعلى كل حال فالمشركون كعَبَدة الأوثان أجمع جميع العلماء على منعهم من دخول المسجد، واختلفوا في الكتابي وفي غير المسجد من سائر الحرم، وقد بينا أن الصواب - إن شاء الله - منعهم من ذلك كله.

ولو جاءت من المشركين رسالة إلى سلطان المسلمين - وهو بمكة - لا يُدخل الرسول، بل يخرج إليه خارج الحرم حتى يسمع منه ما يقول، ويعطيه الرد خارج الحرم، أو يرسل إليه من ينوب عنه في ذلك[3].

قال بعض العلماء[4] - وبه قال جماعة من المالكية - إن الواحد منهم

---

(١) أخرجه ابن جرير (١٤/١٩٦) من طريق عبدالرزاق.

(٢) أخرجه أحمد (٣/٣٣٩، ٣٩٢) وقال عنه ابن كثير: «تفرد به الإمام أحمد مرفوعاً، والموقوف أصح إسناداً» ا.هـ. تفسير ابن كثير (٢/٣٤٦).

(٣) انظر: القرطبي (٨/١٠٤).

(٤) السابق، وانظر: إعلام الساجد للزركشي ص١٧٥.

إن دخل مختفياً ومات ودفن في الحرم واطُّلع عليه أنه ينبش قبره، وتخرج عظامه من الحرم، ولا يترك في حرم الله؛ لأنه نجس قذر ـ قبّحه الله ـ فالتحقيق أنه لا يجوز أن يدخل حرم الله كافر، وأن الله نهى عن قربانهم إياها، لا يقربوه فضلًا عن أن يدخلوه.

واختلف العلماء في غير المسجد الحرام من المساجد هل يدخل الكفار المساجد غير المسجد الحرام[1]؟ اختلف العلماء في ذلك، فذهب مالك (رحمه الله) وأكثر أصحابه في طائفة من العلماء إلى أنه لا يجوز أن يدخل كافر مسجداً من مساجد الله كائناً من كان في أي قطر من أقطار الأرض في حرم أو حل./ واستدل مالك لهذا الحكم بأدلة، قالوا: من تلك الأدلة أن الله (جلّ وعلا) صرّح بالعلة فقال: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ وقد تقرر في علم الأصول أن العلة تارة تعمم معلولها وتارة تخصصه[2]، وقد جاءت مواضع من كتاب الله وسنّة رسوله لا خِلاف فيها بيّن العلماء أن العلة تعمم معلولها، قالوا: ومن أمثلة ما تعمم فيه العلة معلولها قوله (صلوات الله وسلامه عليه) في حديث أبي بكرة الثابت في الصحيح: «**لا يقضين حكم بين اثنين وهو غضبان**»[3] نص[4] النبي ﷺ في هذا الحديث الصحيح على منع علة الحاكم الغضبان من الحكم؛ لأن الغضب يشوش فكره، فيمنعه من تقصي فهم أقوال الخصوم، وفهم ما يحكم عليهم به. قالوا: إذا كان الحاكم في غاية الجوع والعطش المفرطين، أو في غاية الحزن والسرور المفرطين، أو في غاية الحقن والحقب المفرطين ـ والحقن: مدافعة البول. والحقب: مدافعة الغائط ـ إذا كان في أمر من هذه الأمور يشوش الفكر تشويشاً عظيماً مثل تشويش [الغضب][5] أو أشد لا يجوز له أن يحكم، فتعليله بالغضب المستلزم لتشويش الفكر علة عممت هذا الحكم

(١) انظر: القرطبي (٨/١٠٤)، إعلام الساجد ص٣١٨.
(٢) مضى عند تفسير الآية (٤٦) من سورة الأنفال.
(٣) مضى تخريجه عند تفسير الآية (٥٠) من سورة الأنعام.
(٤) في الأصل: «هذه الآية الكريمة نص فيها النبي...». وهو سبق لسان.
(٥) في الأصل: «الفكر». وهو سبق لسان.

وعدته إلى كل شيء يشوش فكر الإنسان. قالوا: فكذلك قوله: ﴿نَجَسٌ﴾ قذر، ومعلوم أن المساجد بيوت الله، وأن الله قال: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ [النور: آية ٣٦] وأن شيئاً صرّح الله بأنه نَجَس، ومعلوم قذارة النَّجَس، لا ينبغي أن يُدخل في بيوت الله التي أُسست لعبادة الله وعلى الطهارة وعلى تجنب الأقذار. هذا من أدلة مالك، واستدل الإمام مالك أيضاً بما قدمنا من آية سورة البقرة، وهي قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ﴾ [البقرة: آية ١١٤] قال: معناه لا يدخلونها أبداً إلا خائفين من المسلمين أن يطلعوا عليهم فينكلوا بهم. فسر الآية هذا التفسير، واستدل بعمومها.

وذهب آخرون من العلماء، منهم الأئمة الثلاثة، إلى أن دخول الكافر لمسجد غير المسجد الحرام قالوا: لا مانع منه ولا يُمنع، وبعضهم يقيد بقوله: إن دعت إلى ذلك حاجة، وبعضهم يُطلق. واستدلوا على ذلك بأدلة، منها: أن النبي ﷺ ربط ثمامة بن أُثال سيد بني حنيفة ـ لما أُخذ أسيراً ـ ربطه وهو كافر في سارية من سواري مسجده هذا[١]. قالوا: وأنزل وفد نجران في المسجد وهم كفار[٢]، ومعلوم أن في هذا البحث مناقشة، وأن من قال: يمنع دخول الكفار المساجد، أجابوا عن كل بجواب، فقالوا في حديث ثمامة: إنه وقع قبل تحريم دخول المساجد. وجاؤوا بأدلة احتجوا بها، وحاصل ما للعلماء فيها هو ما ذكرنا.

وكان بعض العلماء يقول[٣]: إذا أسلم الكافر لزمه أن يتطهر؛ لأنه

---

(١) البخاري في المساجد، باب الاغتسال إذا أسلم، وربط الأسير أيضاً في المسجد. حديث رقم: (٤٦٢) (١/٥٥٥) وأطرافه (٤٦٩، ٢٤٢٢، ٢٤٢٣، ٤٣٧٢).

(٢) خبر قدوم وفد نجران على النبي ﷺ أورده ابن سعد في الطبقات (١/٢/٨٤)، وابن هشام في السيرة ص٦١٠، وابن كثير في التفسير (١/٣٦٨)، وابن القيم في الزاد (٣/٦٢٩). وليس في الخبر أنه أنزلهم المسجد، وإنما دخلوا عليه في المسجد، وأنهم صلوا فيه إلى المشرق.

(٣) انظر: المغني (١/٢٧٤ ـ ٢٧٦)، القرطبي (٨/١٠٣).

نَجَس، وقال بعضهم: يجب على الكافر الطهارة إذا أسلم، قالوا: لأنه لا بد أن تكون كانت عليه جنابة. وهذا قال به جماعة من العلماء، ويدل له: أمره ﷺ ثمامة بن أُثال الحنفي لما أسلم أن يغتسل[١]. قالوا: ذهب إلى حائط أبي طلحة واغتسل فيه. وقالوا أيضاً: أمر قيس بن عاصم لما أسلم أن يغتسل بماء وسدر[٢]. وكان ابن وهب من أصحاب مالك يقول: لا يجب عليه إذا أسلم غُسل؛ لأن الإسلام يَجُبُّ كل شيء قبله، ويَجُبُّ الجنابات، ويَجُبُّ كل شر وسوء كان قبله. هذا معنى قوله: ﴿فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ﴾.

﴿بَعْدَ عَامِهِمْ هَـٰذَا﴾، وعامهم هذا هو عام تسع على التحقيق، وخالف قوم منهم قتادة[٣] وأبو بكر بن العربي[٤]، قالوا: هو عام عشر. وقال أبو بكر بن العربي المالكي: عجباً لعاقل يقول: إن هذا العام عام تسع!! ونحن نقول: العجب كل العجب من كلام ابن العربي هذا!! والعام بلا شك أنه عام تسع، والإشارة بقوله: ﴿هَـٰذَا﴾ إلى العام الذي هم فيه في ذلك الوقت الراهن، وهو عام تسع بلا نزاع، والذي غلط في هذا من العلماء وقال: هو عام عشر. التبس عليه ما بين المضاف والمضاف إليه؛

---

(١) أخرجه أحمد (٣٠٤/٢، ٤٨٣)، وعبدالرزاق (٩/٦)، وابن خزيمة (١٢٥/١)، وابن حبان (٢٦٩/٢)، والبيهقي (١٧١/١)، وابن الجارود (٢٤/١) وأصله في الصحيحين كما في الحديث المتقدم قريباً وفيه: أنه ربطه بسارية من سواري المسجد. وليس فيه أنه أمره بالاغتسال. وانظر: الإرواء (١٦٤/١).

(٢) أخرجه أحمد (٦١/٥)، وعبدالرزاق (٩/٦)، وأبو داود في الطهارة، باب الرجل يسلم فيؤمر بالغسل. حديث رقم: (٣٥١) (١٩/٢)، والترمذي في الصلاة، باب ما ذكر في الاغتسال عندما يسلم الرجل. حديث رقم: (٦٠٥) (٥٠٢/٢)، والنسائي في الطهارة، باب غُسل الكافر إذا أسلم. حديث رقم: (١٨٨) (١٠٩/١)، وابن الجارود (٢٥/١)، وابن خزيمة (١٢٦/١)، وابن حبان (٢٧٠/٢)، والبيهقي (١٧١/١) وانظر: الإرواء (١٦٣/١).

(٣) الرواية التي نقلها ابن جرير (١٩٢/١٤) عن قتادة (رحمه الله) مصرحة بأنه عام تسع. ولعل الشيخ (رحمه الله) عزا ذلك لقتادة متابعة للقرطبي (١٠٦/٨)، وابن العربي في أحكام القرآن (٩١٥/٢).

(٤) أحكام القرآن (٩١٥/٢).

لأن المضاف هو لفظة (بعد)، والباء والعين والدال ﴿بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾ البعدية المضافة إلى عامهم هذا، فعامهم هذا هو عام تسع يقيناً لا شك فيه، وما بعد عام تسع أوله عام عشر؛ لأن الشيء إذا انتهى عام تسع فالزمن الذي بعد انتهائه يسمى أنه بعده. فالبعدية واقعة بعام عشر، أما العام المذكور في قوله: ﴿عَامِهِمْ هَٰذَا﴾ المضاف إليه البعدية، فهو عام تسع بلا نزاع كما لا يخفى.

ثم قال: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ وهذه الآية تدل على أن الكفار يُمنعون من الإتيان إلى الحرم لأن أهل مكة كانوا في الموسم تحج إليهم قبائل العرب من أقطار الدنيا فيأتون بالأموال والطعام يبيعونها، فلما مُنعوا من أن يحجوا، وأُمر المشركون بتجنب الحرم، قالوا: من أين نعيش؟ كنا نعيش مما يأتي به هؤلاء في مواسمهم فإنا سنفتقر، ولن يبقى لنا شيء نعيش به إن مُنع هؤلاء من القدوم علينا؛ لأنا كنا نعيش بما يوردونه من الأطعمة والأموال ونحو ذلك. فقال لهم الله: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً﴾ ﴿خِفْتُمْ﴾ من الخوف. أصل ﴿خِفْتُمْ﴾ من خاف يخاف.

هذه المادة فاؤها خاء، وعينها واو، ولامها فاء، وقد يُشكل على طالب العلم من أين جاءت هذه الكسرة التي كُسر بها الخاء في قوله: ﴿خِفْتُمْ﴾ مع أن المادة من الأجوف الواوي العين. فسبب كسر الخاء من قوله: ﴿خِفْتُمْ﴾ أن ماضي (خاف) أصله (خَوِف) بكسر الواو، قُلبت الواو ألفاً فقيل فيه: (خاف) والواو المبدلة من الألف أصلها مكسورة، فإذا بُني الفعل إلى ضمير الرفع كالتاء هنا سقطت العين بالاعتلال وجُعلت كسرة الواو الساقطة بالاعتلال نقلت إلى الفاء ليدل على أن العين كانت مكسورة كما هو مقرر معلوم في فن التصريف[١].

وقد ذكرنا[٢] أن الخوف في لغة العرب هو الغم من أمر مستقبل. وأن

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٤٨) من سورة الأنفال.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٤٨) من سورة الأنعام.

الحزن هو الغم من أمر فائت. وربما أطلقت العرب أحدهما في موضع الآخر كما هو معروف.

وقوله: ﴿عَيۡلَةٗ﴾ العيلة في لغة العرب: معناها الفقر. تقول العرب: عال الرجل يعيل عيلة. إذا افتقر فقراً. فـ (العيلة) من أجوف يائي العين عال يعيل عيلة إذا افتقر. وعال يعول بالواو إذا جار وعدل عن الحق. وذكر بعضهم أنه مسموع عن العرب أيضاً: عال يعول ـ بالواو ـ إذا افتقر[1]. وهو غريب!!

أما (عيلة) فمعناه فقراً. وعال يعيل بمعنى افتقر، وهو معنى معروف في كلام العرب، ومنه قول أُحيحة بن الجُلاح الأنصاري[2]:

وما يدري الفقيرُ متى غِنَاهُ ... وما يدري الغنيُّ متى يَعِيْلُ

أي: لا يدري الغني متى يفتقر، ومنه بهذا المعنى قول جرير[3]:

واللّهُ نزل في الكتابِ فريضةً ... لابن السبيلِ وللفقيرِ العائلِ

وصفه بنفسه توكيداً لاختلاف اللفظين. فالمعنى: إن خفتم فقراً فسوف يغنيكم الله من فضله، ولا شك أن الله أغناهم من فضله. قال بعض العلماء: أغناهم من فضله بما فتح من باب الجزية. قالوا: والدليل عليه أن الآية التي بعدها آية الجزية، فأخذ المسلمون الجزية من الكفار واستغنى بها المسلمون. وقال بعض العلماء: أغناهم بإنزال المطر، وأخصبت الأرض، فأخصبت بلاد اليمن، وأخصبت تبالة وجُرش، وجلبوا لهم من الطعام والودك، وأسلم قبائل العرب في اليمن وفي نجد وفي غيره، فكانوا يحجون كل سنة ويأتونهم بمثل ما كانوا يأتونهم به من الطعام والأموال فأغناهم الله بذلك[4]. وهذا معنى قوله: ﴿وَإِنۡ خِفۡتُمۡ عَيۡلَةٗ فَسَوۡفَ يُغۡنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦٓ﴾.

(١) انظر: ابن جرير (١٤/١٩٣).

(٢) البيت في ابن جرير (١٤/١٩٢).

(٣) البيت في ديوانه ص.٣١٣

(٤) هذه المعاني ذكرها القرطبي (٨/١٠٦).

قال بعض العلماء[١]: يؤخذ من هذه الآية الكريمة حكم، وهو أن تعلق القلب بأسباب الرزق والمعيشة لا ينافي التوكل ولا يقدح في توكل الإنسان؛ لأن هؤلاء القوم لما تخيل لهم أن الطريق التي كانوا يعيشون منها أنها انقطعت بمنع المشركين من الحج، وخافوا الفقر من هذا الطريق ما عنف الله عليهم ولا عابهم بل قررهم على ذلك، فقال لهم: إن خفتم الفقر من هذا الطريق، ومن أن السبب الذي كنتم تعيشون به أنه انقطع فسوف يغنيكم الله بأسباب أخر. وهذا معنىً معروف، أن الأسباب لا تنافي التوكل، فالمسلم الذي يعلم ما جاء عن الله يتسبب ويتعاطى جميع الأسباب لحياته، ويتسبب في أسباب الرزق والمعيشة على الوجوه الشرعية غير المزرية، ومع ذلك فهو متوكل على الله، والذي يترك جميع الأسباب ويقول: توكلت على الله!! هذا مخالف للشرع، مخالف لما جاء عن الله، والذي يعتمد في كل شيء على الأسباب ولا ينظر إلى ربه هذا أيضاً ضال مضل، والذي يستعمل الأسباب كما شرعها له ربه، ويكون اعتماده في الحقيقة على ربه فهذا هو المؤمن. ألا ترون أن نبي الله يعقوب، وقد قال الله فيه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ﴾ [يوسف: آية ٦٨] علَّم أولاده السبب في التحرز عن العين فقال لهم: ﴿يَٰبَنِىَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ﴾ فهذا تسبب في التحرز عن العين؛ لأنها تضر، ثم صرح مع ذلك بتوكله الكامل على الله حيث قال: ﴿وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [يوسف: الآية ٦٧] فالأخذ بالأسباب لا ينافي التوكل كما هو معروف، وقد قال الله لمريم: ﴿وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ﴾ [مريم: آية ٢٥] ولا شك أنه لو أراد أن يتساقط عليها رطبها من غير سبب لتساقط من غير سبب، ولكنه أجرى العادة بأن جعل للأرزاق والمعايش والأشياء أسباباً، ربط بين الأسباب ومسبباتها بما شاء بقدرته وحكمته:

---

(١) السابق (٨/١٠٧).

ألَـمْ تَـرَ أن الله قـال لـمـريـم وهُزِّي إليكِ الجذْعَ يسَّاقَطُ الرُّطَب
ولو شَاءَ أن تَجْنيهِ من غيرِ هزِّهِ جنتْه ولكن كلُّ شيءٍ له سبب[1]

فالأخذ في الأسباب مع مراعاة الشرع، وتعلق القلب بالله، وتوكله على الله، هذه طريقة الأنبياء، والله (جلّ وعلا) يقول: ﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ فِي مَخۡمَصَةٍ غَيۡرَ مُتَجَانِفٖ لِّإِثۡمٖ﴾ [المائدة: آية ٣] يعني: أن من اضطر إلى أكْلِ الميتة أكَلَ الميتة وتسبّب في إمساك رمقه بأكل الميتة، ولم يقل له فانتظر وتوكل على الله حتى ينزل لك رزق من السماء!! لم يقل هذا تعليماً للناس بالأخذ بالأسباب، وتعلق قلوبهم بربهم، وتوكلهم عليه.

وهذا معنى قوله: ﴿فَسَوۡفَ يُغۡنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦٓ إِن شَآءَۚ﴾ إن شاء أن يغنيكم. فعلق الغِنى بمشيئته، فلا يكون شيء إلا بمشيئته (جلّ وعلا)؛ لأن الأرزاق مقسومة بمشيئته (جلّ وعلا)، فهو الذي تولى قسمها بنفسه ولم يكله إلى أحد، كما سيأتي في سورة الزخرف في الكلام على قوله: ﴿نَحۡنُ قَسَمۡنَا بَيۡنَهُم مَّعِيشَتَهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَرَفَعۡنَا بَعۡضَهُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ﴾ [الزخرف: آية ٣٢] ﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلرِّزۡقِۚ﴾ [النحل: آية ٧١]. هذا معنى قوله: ﴿فَسَوۡفَ يُغۡنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦٓ إِن شَآءَۚ﴾ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ (جلّ وعلا) ﴿عَلِيمٌ﴾ محيط علمه بكل شيء ﴿حَكِيمٌ﴾ في كل ما يفعل، وكل ما يقول، وكل ما يشرع، فأفعاله كلها في غاية الحكمة، وأقواله وتشريعه وجزاؤه كله في غاية الحكمة، هذا معنى قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: آية ٢٨].

قـال تـعـالـى: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾ وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ عُزَيۡرٌ ٱبۡنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ ٱللَّهِۖ ذَٰلِكَ قَوۡلُهُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبۡلُۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ

(١) تقدم ذكرهما في الحاشية عند تفسير الآية (٧٣) من سورة الأعراف، والبيتان في المستطرف (٢/١٢٨، ٥٤٨)، ثمار القلوب في المضاف والمنسوب (١/٥٩٠).

وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾ [التوبة: الآيات ٢٩ ـ ٣١].

يقول الله (جلّ وعلا): ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [التوبة: آية ٢٩].

كان الصحابة (رضي الله عنهم) ينتظرون نزول هذه الآية الكريمة بسبب آية نزلت على النبي ﷺ هي من المُنسأ الذي قدمناه في قوله: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا﴾ [البقرة: آية ١٠٦] على قراءة: ﴿نَنْسَأها﴾[1] يعني: نؤخرها؛ لأن الله يؤخر بعض الآيات إلى أمد معلوم، ثم يأتي ببدلها، تارةً يأتي ببدلها ناسخاً، وتارةً تكون مُنسأة لا منسوخة؛ لأنها كانت معلوماً أنها مغياة بغاية. وإيضاح هذا: أن الله أنزل آيات في أهل الكتاب تدل على عدم قتالهم، كقوله في سورة البقرة: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ [البقرة: آية ١٠٩]. ﴿فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟﴾ أي: عن أهل الكتاب ﴿حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ أي: حتى يأتيكم الأمر الأخير من الله. وكانت هذه الآية من سورة براءة فيها الأمر الذي كانوا ينتظرونه في آية البقرة، فأنزل الله: ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ [التوبة: آية ٢٩]. لأن أهل الكتاب من يهود ونصارى وإن قالوا لا إله إلا الله وأقروا بالقيامة فهم كمن أنكر وجود الله وأنكر وجود القيامة؛ لأنهم لما اتخذوا الأرباب معه وأشركوا به في الأرباب وقالوا: إن عُزيراً ابنه، وإن المسيح ابنه!! هذا قول من لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر؛ لأن الكافر إذا كفر بالله من وجه لا ينفعه الإيمان به من وجه آخر، فمن قال: لا إله إلا الله، وادعى لله ولداً، أو شريكاً، أو رباً معه، فهذا لا يؤمن بالله ﴿وَلَا

---

(١) انظر: المبسوط لابن مهران ص١٣٤.

﴿بِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾، وهو يوم القيامة، ﴿وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ بل يحلون ما حرّم الله ويحرمون ما أحلّ الله، ﴿وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ﴾، الذي هو دين الإسلام.

وفي قوله: ﴿دِينَ ٱلْحَقِّ﴾ وجهان من التفسير[1]:

أحدهما: أن (الحق) هو ضد الباطل، وأن دين الحق من إضافة الموصوف إلى صفته. أي: الدين الذي هو الحق الذي هو دين الإسلام. ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: آية ٨٥]. ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: آية ١٩].

الوجه الثاني: أن الحق هو الله، فالحق من أسماء الله. ﴿وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ﴾ أي: دين الله الذي شرعه على لسان نبيه محمد ﷺ.

وقوله: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ بيان للذين أُمروا بقتالهم الموصوفون بأنهم لا يؤمنون بالله إلى آخر ما ذكر.

﴿مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ من يهود ونصارى.

وعندما نزلت تجهز ﷺ لقتال النصارى في غزوة تبوك كما ستأتي تفاصيله في هذه السورة الكريمة.

﴿حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ﴾: (حتى) حرف غاية، والمغيَّا هنا ﴿قَٰتِلُوا۟﴾ أي: قاتلوهم وأمد ذلك القتال إلى غاية هي أن ﴿يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ﴾ إذا لم يؤمنوا بالله، فإن آمنوا بالله فذلك، وإلا فلا بد أن يعطوا الجزية.

الجزية: (فِعْلة) وقد تقرر في علم العربية أن (الفِعلة) بكسر الفاء تأتي لبيان الهيئات، من هيئات المصدر. وأصلها من جزى يجزي؛ لأن

---

(١) انظر البحر المحيط (٥/٢٩).

الكفار - أهل الكتاب -: ينعم عليهم المسلمون بحقن دمائهم وعدم قتلهم. والمدافعة عنهم، ومنع كل من أراد أن يظلمهم، فهذا الإحسان يجازونه نوعاً من الجزاء عُبِّر عنه بالجزية من (جزى يجزي) إذا كافأ ما أُسدي إليه، تقول العرب: أحسن إلي فجزيته، أي: كافأته بما أسدى، ومنه قول الشاعر[١]:

يجزيك أو يثني عليك وإن من ... أثنى عليك بما فعلت كمن جزى

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿عَن يَدٍ﴾ فيه أوجه من التفسير معروفة عند العلماء لا يكذب بعضها بعضاً[٢]: قال بعض العلماء: ﴿يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ﴾: أي: عن قهر وتحت ذل وكل ما أعطاه الإنسان مقهوراً ذليلاً تقول العرب: أعطاه عن يد. وقال بعض العلماء: يعطيه عن يد معناه يسلمه بيده ولا يرسل به غيره، فالدافع واقف والآخذ جالس. وقال بعض العلماء: ﴿عَن يَدٍ﴾ أي: نقداً متسلماً باليد لا نسيئة. وقال بعض العلماء: ﴿عَن يَدٍ﴾ أي: عن اعترافهم بنعمة المسلمين عليهم حيث قبلوا منهم العوض ولم يقتلوهم. والحال في هذا ﴿وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ الصاغرون: المتصفون بالصغار. والصغار في لغة العرب معناه: الذل والحقارة والهوان. ومعنى: ﴿وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ أي: حقيرون ذليلون. وسنبين هنا - إن شاء الله - بعض أحكام الجزية:

اعلموا أولًا أن النبي ﷺ نزل عليه القرآن بجواز أخذ الجزية من أهل الكتاب، ولكنه (صلوات الله وسلامه عليه) بيّن أنهم وإن أُخذت منهم الجزية فلا يجوز بحال من الأحوال ولا بوجه من الوجوه أن يُتركوا يسكنون في جزيرة العرب، فإقامة الكفار وسكناهم في جزيرة العرب ممنوع لا يجوز بحال، فيجب على المسلمين أن يخرجوهم من جزيرة العرب جميعها ولا يتركوا فيها كافراً. وهذا من آخر ما أوصى به

---

(١) البيت في القرطبي (٨/١١٤)، البحر المحيط (٥/٣٠).

(٢) انظر: القرطبي (٨/١١٥)، البحر المحيط (٥/٣٠).

محمد ﷺ، وقد ثبت في الصحيحين من حديث ابن عباس (رضي الله عنهما) قال: اشتد برسول الله ﷺ وجعه يوم الخميس، وأوصى عند موته بثلاث، قال: «**أخرجوا المشركين من جزيرة العرب، وأجيزوا الوفد بنحو ما كنت أجيزهم**» قال الراوي: ونسيت الثالثة[1]. فهذا حديث صحيح أوصى به النبي عند موته. وقد أخرج مسلم وغيره أنه (صلوات الله وسلامه عليه) قال: «**لأُخرجن اليهود والنصارى من جزيرة العرب حتى لا أدع فيها إلا مسلماً**»[2]. وروى الإمام أحمد وغيره عن عائشة (رضي الله عنها) أنها قالت: آخر ما عهد رسول الله ﷺ أن قال: «**لا يترك بجزيرة العرب دينان**»[3]. وروى أحمد وغيره عن أبي عبيدة بن الجراح (رضي الله عنه) قال: آخر ما قاله رسول الله ﷺ: «**أخرجوا يهود أهل الحجاز وأهل نجران من جزيرة العرب**»[4].

فهذه الأحاديث وأمثالها تدل على أنه لا يجوز أن يسكن كافر بجزيرة العرب كائناً ما كان، وأن على المسلمين إخراج الكفار من جزيرة العرب، ولكنهم لا يمنعون من الإتيان إليها لتجارة أو نحوه من غير إقامة بها، وكان عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) إذا أراد بعض اليهود دخول الحجاز لتجارة أذن له وأجّل لهم ثلاثة أيام يبيعون فيها ويشترون ثم يذهبون[5].

---

(١) البخاري في الجزية والموادعة، باب إخراج اليهود من جزيرة العرب. حديث رقم: (٣١٦٨) (٦/٢٧٠)، ومسلم في الوصية، باب ترك الوصية لمن ليس له شيء يوصي فيه. حديث رقم: (١٦٣٧) (٣/١٢٥٧).

(٢) مسلم في الجهاد والسير، باب إخراج اليهود والنصارى من جزيرة العرب. حديث رقم: (١٧٦٧) (٣/١٣٨٨) من حديث عمر بن الخطاب (رضي الله عنه).

(٣) أخرجه أحمد (٦/٢٧٥) وقال الهيثمي في المجمع (٥/٣٢٥): «رواه أحمد والطبراني في الأوسط ورجال أحمد رجال الصحيح غير ابن إسحاق وقد صرح بالسماع» ا.هـ.

(٤) أخرجه أحمد (١/١٩٥، ١٩٦)، وأبو يعلى (١/٨٧٢)، والحميدي (٨٥)، والدارمي (٢/١٥١ ـ ١٥٢)، والطيالسي (٢٢٩)، والبيهقي (٩/٢٠٨). وانظر: السلسلة الصحيحة (١١٣٢).

(٥) أخرجه البيهقي (٩/٢٠٩).

واعلموا أن الجزية إذا أسلم الكافر اختلف العلماء هل تسقط عنه الجزية[١]؟ وأظهر القولين: أنه تسقط عنه الجزية لما جاء عن النبي ﷺ أنه قال: «**لا جزية على مسلم**»[٢] ولأنه لا تؤخذ منه وهو صاغر؛ لأن المسلم لا يُحقر ولا يُهان.

وقال الشافعي في طائفة من العلماء: إذا أسلم لم تسقط عنه الجزية؛ لأنها بقيت دَيناً فيه، فهي كسائر الديون، إلا أنه عند أدائها يؤديها غير صاغر ولا مهان؛ لأجل إسلامه، ولكنها تقررت في ذمته.

واختلف العلماء: في القدر الذي يؤخذ من أهل الجزية[٣]، وممن تؤخذ الجزية[٤]؟ فقال جماعة من العلماء: تؤخذ الجزية من كل كتابي عجمياً كان أو عربياً، والجزية بالأديان لا بالأنساب. وهذا القول هو الصحيح والأظهر.

وقال بعض العلماء: تؤخذ من مشركي العجم ولا تؤخذ من مشركي العرب. وهو قول أبي حنيفة رحمه الله[٥].

والحق أن الجزية تؤخذ من كل كتابي عربياً كان أو غيره، وقد أمر النبي ﷺ معاذاً لما أرسله إلى اليمن أن يأخذ من كل حالم من كفار أهل اليمن ـ أهل الكتاب ـ الذين لم يسلموا أن يأخذ من كل حالم ديناراً

---

(١) انظر: بدائع الصنائع (١١٢/٧)، المغني (٢٢١/١٣ ـ ٢٢٢)، القرطبي (١١٣/٨ ـ ١١٤).

(٢) أخرجه أحمد (٢٢٣/١، ٢٨٥)، وأبو عبيد في الأموال ص٤٩، وأبو داود في الخراج والفيء، باب الذمي الذي يسلم في بعض السنة. حديث رقم: (٣٠٣٧) (٣٠٥/٨)، والترمذي في الزكاة، باب ما جاء: ليس على المسلم جزية. حديث رقم: (٦٣٣) (١٨/٣)، والبيهقي (١٩٩/٩)، والدارقطني (١٥٦/٤، ١٥٧)، وابن عدي (١٨٤٥/٥)، (٢٠٧٢/٦)، وأبو نعيم في الحلية (٢٣٢/٩). وانظر: الإرواء (٩٩/٥).

(٣) انظر: بدائع الصنائع (١١/٧ ـ ١١٢)، المغني (٢١١/١٣ـ ٢١٢)، القرطبي (١١١/٨)، أحكام أهل الذمة (٢٦/١).

(٤) انظر: الأم (٢٤٠/٤، ٢٨١)، القرطبي (١١٠/٨)، المغني (٢٠٢/١٣) فما بعدها، أحكام أهل الذمة (١/١) فما بعدها.

(٥) انظر: المدونة (٤٦/٢ ـ ٤٧)، بدائع الصنائع (١١٠/٧ ـ ١١١)، المغني (٢٠٦/١٣ ـ ٢٠٧، ٢٠٨).

منهم[١]. وبعث خالد بن الوليد إلى أُكيدر فأخذ من أُكيدر الجزية[٢]. وأُكيدر دومة معلوم أنه عربي، أصله من كندة، كما قاله غير واحد.

وأخذ الجزية من أهل نجران[٣]. وأكثر أهل نجران نصارى عرب. وهذا هو التحقيق، فالحق الذي لا شك فيه أن الكتابي الذي كان على دين أهل الكتاب قبل أن يُبعث محمد ﷺ تؤخذ منهم الجزية بنص هذه الآية؛ ولأنها لم تُفَصِّل.

وأما المجوس فقد ثبت عن النبي ﷺ أنهم تؤخذ منهم الجزية، فقد روى البخاري في صحيحه عن عبدالرحمٰن بن عوف (رضي الله عنه) أن النبي ﷺ أخذ الجزية من مجوس هجر[٤]. وقد أخذ الجزية من أهل البحرين[٥] وأكثرهم في ذلك الوقت كانوا مجوساً.

---

(١) أخرجه أحمد (٥/٢٣٠، ٢٣٣، ٢٤٠، ٢٤٧)، وعبدالرزاق (٤/٢١)، وابن أبي شيبة (٣/١٢٦ ـ ١٢٧)، والترمذي في الزكاة، باب ما جاء في زكاة البقر. حديث رقم: (٦٢٣) (٣/١١) وقال: «هذا حديث حسن. وروى بعضهم هذا الحديث عن سفيان عن الأعمش عن أبي وائل عن مسروق أن النبي... وهذا أصح» ا.هـ. وأبو داود في الزكاة، باب في زكاة السائمة. حديث رقم: (١٥٦١ ـ ١٥٦٢) (٤/٤٥٧) وفي الإمارة، باب في أخذ الجزية. حديث رقم: (٣٠٢٢، ٣٠٢٣) (٨/٢٨٧)، وابن ماجه في الزكاة، باب صدقة البقر. حديث رقم: (١٨٠٣) (١/٥٧٦)، والنسائي في الزكاة، باب زكاة البقر. حديث رقم: (٢٤٥٠ ـ ٢٤٥٢) (٥/٢٥ ـ ٢٦)، والحاكم (١/٣٩٨)، والبيهقي (٤/٩٨)، (٩/١٩٣)، وابن خزيمة (٤/١٩)، وابن حبان (الإحسان ٧/١٩٥). وقال ابن عبدالبر في التمهيد (٢/٢٧٥): «إسناده متصل صحيح ثابت» ا.هـ.
وانظر: التلخيص (٢/١٥٢)، الإرواء (٧٩٥)، صحيح أبي داود (٢/٥٨٩)، صحيح ابن ماجه (١/٣٠٢).

(٢) أخرجه أبو داود في الخراج والإمارة والفيء، باب في أخذ الجزية. حديث رقم: (٣٠٢١) (٨/٢٨٦)، والبيهقي (٩/١٨٦، ١٨٧). وانظر: صحيح أبي داود (٢/٥٨٩).

(٣) أخرجه أبو داود في الإمارة، باب في أخذ الجزية. حديث رقم: (٣٠٢٥) (٨/٢٩١)، والبيهقي (٩/١٨٧).

(٤) أخرجه البخاري في الجزية والموادعة، باب الجزية والموادعة مع أهل الذمة والحرب. حديث رقم: (٣١٥٧) (٦/٢٥٧).

(٥) أخرجه البخاري في الجزية والموادعة، باب الجزية والموادعة مع أهل الذمة والحرب. حديث رقم: (٣١٥٨) (٦/٢٥٧)، وطرفه (٤٠١٥، ٦٤٢٥)، ومسلم في الزهد =

فالحق الذي لا شك فيه أنها تؤخذ من المجوس لما جاء عن النبي ﷺ أنه قال: «**سُنوا بهم سنة أهل الكتاب**»[١] وثبت عن عبدالرحمٰن بن عوف أنه قال: أشهد فقد أخذ رسول الله الجزية من مجوس هجر. وكان عمر بن الخطاب توقف في أخذ الجزية من المجوس حتى شهد عنده عبدالرحمٰن بن عوف (رضي الله عنه)[٢]. والشافعي (رحمه الله) يقول: لا تؤخذ إلا من الكتابي عربياً كان أو عجمياً، أو من المجوسي بالسنة. أما المشركون من عبَدَة الأوثانِ وما جرى مجراهم[٣] قال الشافعي: لا تؤخذ منهم الجزية. وقال به جماعة من العلماء. قالوا ووجهه: أن الله في المشركين ما نص إلا على القتل ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ﴾ [التوبة: آية ٥] وفي أهل الكتاب قال: ﴿حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ﴾ [التوبة: آية ٢٩] وفي المجوس ثبت أخذ الجزية منهم بالسنة. فالمشركون لهم السيف، وأهل الكتاب لهم الجزية بالقرآن، والمجوس لهم الجزية بالسنّة، وبهذا قال جماعة من العلماء منهم الشافعي.

وقال مالك بن أنس (رحمه الله) في جماعة من العلماء: إنها تؤخذ من كل كافر وثنياً كان يعبد الأصنام أو مجوسياً، أو كتابياً، فتؤخذ من جميع الكفار. هذا قول مالك في طائفة من العلماء.

= والرقائق. حديث رقم: (٢٩٦١) (٢٢٧٣/٤) من حديث عمرو بن عوف الأنصاري (رضي الله عنه).
وقد أخرجه الترمذي في السير، باب ما جاء في أخذ الجزية من المجوس، حديث رقم: (١٥٨٨) (١٤٧/٤) من حديث السائب بن يزيد. وعقبه بقوله: «وسألت محمداً عن هذا فقال: هو مالك عن الزهري عن النبي ﷺ» ا.هـ.
وقد أخرجه مالك ص١٨٧ عن الزهري بلاغاً.

(١) أخرجه مالك في الموطأ ص١٨٨، والبيهقي (١٨٩/٩) من حديث عبدالرحمٰن بن عوف (رضي الله عنه). وقال ابن عبدالبر في التمهيد (١١٤/٢): «هذا حديث منقطع» ا.هـ.
وله شاهد من حديث السائب بن يزيد (رضي الله عنه). قال في المجمع (١٣/٦): «رواه الطبراني وفيه من لم أعرفه» ا.هـ. وانظر: الإرواء (٨٨/٥).

(٢) مضى تخريجه قريباً.

(٣) انظر: المدونة (٤٦/٢)، الأم (١٧٢/٤ ـ ١٧٤)، المغني (٢٠٣/١٣ ـ ٢٠٤، ٢٠٨).

وأقل ما جاء في قدر الجزية على الرجل من أهل الكتاب دينار[١]. قال جمهور العلماء: لا تنقص الجزية عن دينار. وبعضهم يقول: لا حد لها، فما صالح عليه الإمام هو الذي يؤخذ.

وكان عمر بن الخطاب أخذ الجزية من أهل الشام[٢]، وأخذها من أهل السواد[٣]. وكان النبي ﷺ أمر معاذاً أن يأخذ الجزية من أهل اليمن من كل حالم ديناراً[٤].

والتحقيق أنها لا تؤخذ من الصبيان والنساء، بل من الرجال المقاتلين، كما دلّ عليه حديث معاذ: «**خذ من كل حالم ديناراً**»[٥]. يعني: لا صبياً، ولا امرأة؛ ولأن الصبيان والنساء ليسوا من المقاتلين ولا يجوز قتلهم. والله يقول في المقاتلين: ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ﴾. فدل أن الذي يعطي الجزية هم المقاتلون لا غيرهم. كان عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) أخذ الجزية من أهل الشام على الواحد أربعة دنانير[٦].

وعن ابن أبي نجيح أنه سأل مجاهداً (رحمه الله): ما بال أهل اليمن أُخذ منهم في الجزية دينار، وأهل الشام أربعة دنانير؟ قال: ذلك باعتبار الفقر واليسار، وهؤلاء فقراء أُخذ منهم دينار، وهؤلاء موسرون أُخذ منهم أربعة دنانير[٧]. وكان عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) أخذ الجزية من أهل السواد، فأخذ من الفقير والمراد به الفقير الذي له حرفة وتَسَبُّب اثني عشر

---

(١) كما جاء في حديث معاذ (رضي الله عنه) لما أرسله النبي ﷺ إلى اليمن، وأمره أن يأخذ من كل حالم ديناراً. وقد مضى تخريجه قريباً.

(٢)(٣) سيأتي تخريجهما قريباً.

(٤) مضى تخريجه قريباً.

(٥) مضى تخريجه قريباً.

(٦) أخرجه البيهقي (١٩٥/٩).

(٧) البخاري في الجزية والموادعة، باب الجزية والموادعة مع أهل الذمة والحرب (٢٥٧/٦).

درهماً، ومن المتوسط أربعة وعشرين درهماً، ومن الغني ثمانية وأربعين درهماً»[1].

وبعض العلماء يقول هذا، وبعضهم يقول: أربعة دنانير، وبعضهم يقول: دينار. وقد أمر النبي بدينار، وأخذ عمر من أهل الشام أربعة دنانير، ومن أهل السواد اثني عشر [درهماً][2] للفقير، وأربعة وعشرين للمتوسط، وثمانية وأربعين للغني.

والتحقيق ـ إن شاء الله ـ أن كل هذا واسع بحسب ما يراه الإمام، إلا أنه لا ينبغي أن ينقص الجزية عن دينار. وهذا معنى قوله: ﴿حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [التوبة: آية ٢٩] لأن الله تبارك وتعالى ما أذن في تركهم إلا بهذا.

واختلف العلماء في العوض الذي أُعطيت عنه الجزية[3]: قال بعض العلماء: عوضها حقن دمائهم. وعلى هذا القول إذا أسلم سقطت عنه الجزية؛ لأن دمه حقنه الإسلام. وقال بعضهم: عوضها حقن دمائهم، والمدافعة عنهم، ومنع من أراد أن يظلمهم. وعلى هذا تبقى الجزية فيه ولو أسلم. هكذا قاله بعض العلماء.

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾ [التوبة: الآيتان ٣٠، ٣١].

﴿ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [التوبة: آية ٣٠] قرأ هذا الحرف عامة القراء

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٢٤١/١٢)، والبيهقي (١٩٦/٩).

(٢) في الأصل: «ديناراً». وهو سبق لسان.

(٣) انظر: المغني (٢٠٢/١٣)، القرطبي (١١٣/٨)، أحكام أهل الذمة (٢٥/١).

السبعة غير عاصم والكسائي: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ بلا تنوين على الراء. وقرأه عاصم والكسائي: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ بتنوين الراء[1]. وقرأ عامة السبعة غير عاصم: ﴿يضاهُون قول الذين كفروا﴾ بضم الهاء ليس بعدها همزة. وقرأ من السبعة عاصم وحده: ﴿يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ بكسر الهاء وهمزة بعده[2].

وفي الآية التي قبل هذا أمر الله (جلّ وعلا) بعقوبة أهل الكتاب بقوله: ﴿قَٰتِلُوا۟﴾ ثم بيّن موجب تلك العقوبة بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ ثم أكّد موجب عقوبته بقوله هنا: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ يعني: هؤلاء الذين أمرتكم بقتالهم مرتكبون من الجرائم ما يستوجب قتالهم ﴿حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ [التوبة: آية ٢٩] فأوجب على أهل الكتاب عقوبات شديدة، منها: قتالهم حتى يدفعوا الجزية ﴿عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ أخساء أذلاء. وكذلك لحقارتهم على الله/ بيّنا أن النبي ﷺ أوصى بإخراجهم من جزيرة العرب [وتطهيرها منهم][3]. ومن آخر ما أوصى به النبي ﷺ تطهير جزيرة العرب من اليهود والنصارى وسائر المشركين[4]. ولا شك أن هذا أمر مهم، لو لم يكن مهماً لما أوصى به النبي عند موته (صلوات الله وسلامه عليه)، ولكنه (صلوات الله وسلامه عليه) علّمنا في هذا الدين العظيم أن له عزائم ورخصاً، فهذا الدين العظيم أنزله الله منقسماً إلى عزائم ورخص، فعزائمه: تستعمل عند الأوقات المناسبة لها، ورخصه: تستعمل عند الأوقات المناسبة لها؛ لأن الدين السماوي لا بد أن يكون مشتملاً على مواجهة التطورات والأحداث حيث ما كانت وأياً ما كانت، ففي كل حال له فيها مواجهة.

٥/ب

ونريد هنا أن نبيّن بعض الأشياء التي يجوز أخذها من الكفار والتي

---

(١) انظر: المبسوط لابن مهران ص٢٢٦.

(٢) السابق ص٢٢٦.

(٣) في الأصل: «وتطهيرهم منها». وهو سبق لسان.

(٤) مضى تخريجه قريباً.

لا يجوز أخذها؛ ليكون المسلم على بصيرة من ذلك، ويعلم ما ينبغي وما لا ينبغي، ويفرّق بين ما يضر وما لا يضر. لا شك أنه إن كانت القوة كاملة للمسلمين من غير حاجة للكفار في شيء أنهم يقومون بأنفسهم ويقيمون عزائم الله في المشركين من قتل حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون، وتطهير جزيرة العرب منهم إلى غير ذلك مما قدمنا أنه لا بد منه في كل الأحوال وفي كل الظروف، أي: إذا كان محل العزائم والمسلمون في قوتهم كما ينبغي، أما إذا كان المسلمون في ضعف عن ذلك، أو في حاجة ماسة ضرورية إلى الكفار فلكل حال مقال، وقد علّمنا النبي ﷺ المخرج في جميع هذه الأشياء، فهو (صلوات الله وسلامه عليه) لما أمكنه أن يجلي بني قينقاع من غير حاجة المسلمين ولا ضرورة عليهم أجلاهم من المدينة إلى الشام، ولما أمكنه بعد ذلك أن يجلي بني النضير أجلاهم من المدينة إلى أطراف الشام كما سيأتي في قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟...﴾ إلى آخر الآيات [الحشر: آية ٢]. ولما كانت حاجة المسلمين ماسة إلى عدم إجلاء خيبر لم يجلهم بل عاملهم ليتولوا القيام على نخل خيبر وأرضها، وأعطاهم شطر ثمار نخل خيبر وما يخرج من أرضها، وهو ﷺ عازم على إخراجهم عندما أمكنت الفرصة، وصار وقت العزيمة، وانتهى وقت الرخصة؛ ولذا ثبت في بعض الروايات الصحيحة أنهم لما قالوا له: أقرنا على الأرض نقوم على نخلها وزرعها بشطرها. قال لهم ﷺ: **«نقيمكم على ذلك ما شئنا، وإن شئنا أن نخرجكم أخرجناكم»**[1] لأنه عازم على إخراجهم (صلوات الله وسلامه عليه)، عندما تسنح الفرصة المواتية لذلك، فالعزيمة لها وقتها، وإذا كان الوقت للعزيمة لا يجوز أن تهمل بحال من الأحوال، فإذا كان الظرف مناسباً للرخص أُعملت الرخص؛ لأن دين الإسلام دين مرن صالح لمواجهة جميع التيارات والأحداث

---

(١) البخاري في الحرث والمزارعة، باب: إذا قال رب الأرض: أُقرك ما أقرك الله. حديث رقم: (٢٣٣٨) (٥/٢١)، ومسلم في المساقاة، باب: المساقاة والمعاملة بجزء من الثمر والزرع. حديث رقم: (١٥٥١) (٣/١١٨٧).

والتطورات، وقد قدمنا في سورة [آل عمران][(١)] طرفاً جيداً من هذا في الكلام على قوله: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ﴾ [آل عمران: آية ٢٨] أي: إلا أن تخافوا منهم خوفاً فلذلك حال وحكم آخر.

واعلموا - أيها الإخوان - أن المؤسف كل المؤسف هو أن الذي يجوز لنا أن نأخذه من الكفار والذي يمتنع علينا أن نأخذه منهم معكوس في أقطار المعمورة الآن!! يأخذون منهم ما لا يحل أخذه، ويتركون ما لا ينبغي تركه، فيعكسون القضية عكساً تاماً!! وإيضاح هذا المعنى أنه يجوز للمسلمين أن ينتفعوا بأعمال الكفار التي هي أمور دنيوية بحتة ويحذروا كل الحذر من أن يقلدوهم في شيء من أوامر الدين. وسنذكر لكم أمثلة من هذا يتضح بها المقام[(٢)]: هذا سيد الخلق محمد بن عبدالله - صلوات الله وسلامه عليه - لما تواطأت عليه قوى الشر واضطروه أن يخرج من مسقط رأسه - كما قدمنا في سورة الأنفال في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ﴾ [الأنفال: آية ٣٠] ودخل هو وصاحبه في غار كما سيأتي تفصيله في هذه السورة الكريمة إن شاء الله - وجد في ذلك الوقت كافراً من بني دؤل بن كنانة يسمى عبدالله بن الأُريقط، وكان في ذلك الوقت كافراً من عبَدَة الأوثان، إلا أن عنده خبرة دنيوية بالطرق من مكة إلى المدينة؛ لأنه (صلوات الله وسلامه عليه) في ذلك الوقت محتاج إلى خبير بالطرق؛ لأن الطرق المعهودة السابلة أمسكها الكفار وجعلوا جعائل لكل من أتى بمحمد ﷺ أن يعطوه الأموال الكثيرة، فصار لا يمكن أن يسير في الطرق المعهودة والسبل السابلة، بل لا بد أن يذهب من بُنَيَّات طرق ليست هي المعهودة، وهذه تحتاج إلى خبرة خاصة، ووجد هذه الخبرة عند كافر من بني دؤل بن كنانة يسمى عبدالله بن الأريقط، فأودعه رواحله وأعطاه الموعد، وكان ذلك الكافر أميناً معه، فجاءه في الموعد

---

(١) في الأصل: «النساء». وهو سبق لسان.

(٢) راجع ما سبق عند تفسير الآية (١١٥) من سورة الأنعام.

وذهب به وجاء به من طرق غير معهودة حتى أوصله المدينة بسلام[١].
فالنبي ﷺ عند الحاجة انتفع بخبرة هذا الكافر ولم يقل: هذه خبرةٌ نجسةٌ قذرة لأنها من كافر، بل انتفع بها على حد قولهم «اجتنِ الثمار وألقِ الخشبة في النار». وكذلك لما سمع بالكفار في غزوة الأحزاب قال له سلمان الفارسي ـ كما هو مذكور في الأخبار والسير ـ: كنا إذا خفنا خندقنا[٢].
فأشار إليه بالخندق، وهو خطة حربية عسكرية، فقام النبي ﷺ وانتفع بهذه الخطة الحربية العسكرية وإن كانت ابتدعتها أذهان فارس الذين هم كفَرَة يعبدون النار، ولم يقل: هذه خطة نجسةٌ قذرة؛ لأن أصلها من الكفار!! بل انتفع بما ينفعه في دنياه وهو محافظ على دينه. وقد ثبت في صحيح مسلم أن النبي ﷺ همّ أن يمنع الرجال من أن يطؤوا نساءهم في حالة إرضاعهن؛ لأن العرب كانوا يظنون أن الرجل إذا أتى أبوه أمه وهي ترضعه أن ذلك يضعف عظمه ويترك فيه ضعفاً طبيعياً!! كانوا إذا ضرب الرجل ونبا سيفه عن الضريبة قالوا: هذا من آثار الغيلة، وهي وطء المرضع!! وكان شاعرهم يقول[٣]:

فوارسُ لم يُغَالُوا في رضاعٍ فتَنْبُوا في أكُفِّهم السيوفُ

فأُخبر النبي ﷺ عن فارسَ والروم أنهم يفعلون ذلك ولا يضر أولادهم[٤]، فأخذ هذه الخطة الطبية من فارس والروم ولم يمنعه خبث من جاء بها عن أن يأخذها. فهذا تعليم الصادق المصدوق (صلوات الله وسلامه عليه).

ومما هو واضح أن ما جاء به الكفَرَة الفَجَرة الخنازير الذين يسمون أنفسهم (أهل الحضارة) أنهم جاؤوا بماءٍ زُلال، وجاؤوا بسم فتَّاك قتَّال؛ لأن ما في الحضارة الغربية من المنافع الدنيوية لا يحتاج أن يُنَوَّه عنه، فهم خدموا الإنسان ـ من حيث إنه جسم ـ خدمة هائلة ما كانت تخطر على

---

(١) السابق.
(٢) السابق.
(٣) السابق.
(٤) السابق.

البال. ولا يحتاج أن يُنوَّه عنها، ولكنهم بالنسبة إلى الروح وإلى عنصر الإنسان من حيث كونه روحاً مفلسون كل الإفلاس. فعلى المسلمين أن يميزوا بين ما يضرُّ وما لا يضر، فيأخذوا منهم الأمور الدنيوية فينتفعوا بخبرتهم في الأمور كما انتفع ﷺ في الأمور الدنيوية من الكفار، أما أنهم يأخذون عنهم كفرهم وتمردهم على الله وإفلاسهم الروحي النهائي فهذا مما لا يجوز ولا كان ينبغي لعاقل أن يفعله.

ونحن دائماً نبيّن الموقف السليم في الأوضاع الراهنة للإسلام والمسلمين، ونعرضه على الدليل العظيم المعروف عند علماء الأصول بـ (السبر والتقسيم)، وعند علماء المنطق. بـ (الشَّرْطي المُنْفَصِل)، وعند علماء الجدل بـ (الترديد والتقسيم)[١]، فنقول: إن موقف المسلمين مما أحدثته الحضارة الغربية التي صارت سبب ضلال ودمار مع ما أدخل في الثقافات من البلايا والويلات، نقول: وهو بالتقسيم الصحيح منحصر في أربعة أقسام حصراً استقرائياً[٢]، وقد تقرر في علم البحث والمناظرة، وعلم الأصول أن للحصر طريقين: إما عقل، وإما استقراء، فهو محصور في أربعة طرق بطريق الاستقراء: **أولها**: أن نقول: يجب علينا أن نأخذ جميع ما أنتجته الحضارة الغربية من مائها الزلال وسمها الفتَّاك القتَّال، فهذا قسم واحد، أو نقول: نتركهما معاً، أو نأخذ نافعها ونترك ضارها، أو نأخذ ضارها ونترك نافعها، فهي أربعة أقسام بالحصر الاستقرائي، فإذا رجعنا لهذه الأقسام الأربعة بالسبر الصحيح نجد ثلاثة منها باطلة، وواحداً صحيحاً، وهذه فائدة السبر والتقسيم، التقسيم: يحصر الأوصاف، والسبر: يميز بين خبيثها وطيبها وصالحها وطالحها. فلو قلنا: نأخذ جميع ما أنتجته الحضارة الغربية، فإن من أراد أن يأخذ الماء الزلال ممزوجاً بالسم الفتاك القتال لا ينتفع بالماء، ومن أراد تقدماً من الأمور الدنيوية التي عندهم مع ما فيها من الانحلال، وضياع الأخلاق، والتمرد على نظام السماء، والإلحاد والكفر

---

(١) مضى عند تفسير الآية (١٤٤) من سورة الأنعام.

(٢) مضى عند تفسير الآية (١١٥) من سورة الأنعام.

بخالق السماوات والأرض، فهذا لا ينفع معه شيء، إذا الدين لم يكن فلا كانت الدنيا. فهذا قسم باطل يقيناً، ولو قلنا: نتركهما جميعاً، فهذا القسم باطل أيضاً؛ لأن ترك الأخذ بالقوة تواكل وعجز وتمرد على نظام السماء؛ لأن الله يقول: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: آية ٦٠]. فترك القوة والاستعداد للعدو مخالف للشرع الكريم، ومخالف للفطر السليمة، فالحياة بتطوراتها الراهنة لا يجوز للمسلمين أن يتركوا استعمال القوة وجميع أنواع الوسائل لتكون عندهم قوة يدافعون بها عن أنفسهم ودينهم، فهذا القسم باطل أيضاً.

القسم الثالث: وهو أن يؤخذ سمها فقط، ويترك زلالها، فمن وجد ماء زلالًا وسماً فاتكاً قتالًا، واختار السم على الماء فهذا مجنون أهوج!!

أما أن نأخذ نافعها ونترك ضارها، فهذا هو اللائق بكل عاقل أن يأخذ ما ينفعه ويترك ما يضره.

والمؤسف كل المؤسف أن الذين تأثروا بهذه الحضارة من الناس الذين أصلهم مسلمون لم يأخذوا من هذه الحضارة إلا سمها الفتّاك القتّال، ولم ينتفعوا بمائها الزلال، فتراهم يقلدونهم في الإلحاد والكفر بالله والمسخرة من الدين، والاستهزاء بآيات الله، في الوقت الذي لم يأخذوا عنهم شيئاً مما أنتجوه من الأمور النافعة في الدنيا.

ما أحسَنَ الدينَ والدنيا إذا اجتمعا وأقبحَ الكُفرَ والإفْلاَسَ بالرجلِ[1]

فهم يجمعون بين الكفر والإفلاس ـ والعياذ بالله ـ وهذا الشيء الذي طبق المعمورة وانتشر في أقطار الدنيا فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وعلى كل حال فدين الإسلام هو هو، وصلته بالله هي هي، دين عريق عظيم أُسُسُه قويمة عظيمة، لو لم يكن مبنياً على أسس عظيمة وكتابه محفوظ لطمسوا أثره في قرون!! ولكنه دين عريق ثابت الجذور لا يتغير ولا يتزعزع، وإنما تنكّر له المنتسبون إليه فصاروا خفافيش تقودهم الكفار إلى ما

---

(١) تقدم هذا البيت عند تفسير الآية (١٥٥) من سورة الأنعام.

يشاؤون، فيقلدونهم في كل كفر وكل إلحاد، وكل انحطاط خلقي، وكل تمرد على نظام السماء، وكفر بخالق السماوات والأرض، في الوقت الذي لا ينتفعون بالأمور [الدنيوية][1]. وإنما حكينا هذا أسفاً من واقع نرجو الله أن يزيل هذا عن المسلمين.

ولما كان جزاء الكفار وعقوبتهم عظيمة بيّن بعض أسباب ذلك فقال: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: آية ٣٠] قال بعض العلماء[2]: قالته جماعة من اليهود، منهم: سَلاَّم بن مشكم، وشأس بن قيس، ونعمان بن أوفى، ومالك بن الصيف من اليهود ـ قبّحهم الله ـ زعموا أن عُزيراً ابن الله.

وقال بعضهم: قاله القدماء من اليهود فاتبعهم الآخرون.

وقال بعضهم: إن الذي قاله قبل اليهود في زمن محمد ﷺ، وأن سبب ذلك أنهم قتّلوا الأنبياء فرفع الله التوراة ومسخه من قلوبهم، أو أن بختنصر قتل علماءهم، وضاعت عليهم التوراة، وكان بعضهم دفنها في محل، وكان عُزير قد قدمنا قضيته أن الله أماته مائة عام ثم بعثه، وجاء وقد ضاعت التوراة عليهم، بقوا لم يحفظوا منها شيئاً، فعلّمه الله إياها فقرأها عليهم لم يخرم منها حرفاً، فقالوا: ما علّمه الله إياها إلا لأنه ابنه!! ومما يدل على أن هذه المقالة صدرت من اليهود أن هذا القرآن يتلى من قديم الزمان من نزول هذه الآية ولم يُعلم أن يهودياً في زمانها كذب بذلك وقال: ما قلنا هذا!! مع مسارعتهم إلى التكذيب.

﴿وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ﴾ [التوبة: آية ٣٠] يعني عيسى بن مريم قالوا إنه ابن الله. ـ قبّحهم الله ـ فأشركوا.

وقوله: ﴿يُضَاهُون قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [التوبة: آية ٣٠] على قراءة الجمهور، وهو مضارع: (ضاهاه يضاهيه) إذا حاكاه وشابهه. وعلى قراءة

---

(١) في الأصل: «الدينية». وهو سبق لسان.

(٢) انظر: ابن جرير (١٤/٢٠٢).

عاصم: ﴿يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ فهو بمعناه؛ لأن (ضاهأ) يقال فيها: (ضَاهَا) بلا همز، ويقال فيها: (ضَاهَأ) بالهمز، وهما لغتان صحيحتان وقراءتان سبعيتان صحيحتان[١].

ومعنى المضاهاة والمضاهأة معناها: المحاكاة والمشابهة. يعني: يحاكون ويشابهون قول الذين كفروا[٢] من كفار مكة الذين قالوا: الملائكة بنات الله. وقال بعض العلماء: قالها المتأخرون من اليهود يحاكون المتقدمين منهم. وقال بعض العلماء: قال النصارى: ﴿ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ يحاكون اليهود في قولهم: ﴿عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ وهذا كله لا يكذب بعضه بعضاً، وهذا معنى قوله: ﴿يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ﴾ وفي الكلام حذف مضاف دلّ المقام عليه، أي: يحاكي قولهم قول الذين كفروا من قبل.

﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ﴾ قال بعض العلماء[٣] معناه: لعنهم الله.

وقال بعض العلماء: (قاتله الله) كلمة تعجب تقولها العرب إذا تعجبت من شيء يقولون: قاتل الله فلاناً ما أفعله لكذا. أو ما أشد استحقاقه لأن يُقتل، أو نحو ذلك.

قوله: ﴿أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ ﴿يُؤْفَكُونَ﴾ (يُفعلون) من الإفك، والإفك: أسوأ الكذب؛ لأن أصل مادة (أَفَكَه) إذا قلبه. كل شيء قلبته فقد (أَفَكْته) ومنه قيل لقرى قوم لوط: (المؤتفكات) لأن جبريل أَفَكَها، أي: قلبها فجعل عاليها سافلها. وإنما سُمي أسوأ الكذب (إفكاً) لأنه صرف للكلام عن معناه الصحيح إلى معاني أخر كاذبة[٤]. وهذا معنى قوله: ﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [التوبة: آية ٣٠].

قال تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا

---

(١) انظر: المبسوط لابن مهران ص٢٢٦.
(٢) انظر: ابن جرير (١٤/٢٠٥)، القرطبي (٨/١١٨).
(٣) انظر: ابن جرير (١٤/٢٠٧)، القرطبي (٨/١١٩).
(٤) مضى عند تفسير الآية (٨٠) من سورة الأعراف.

هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [التوبة: الآيات ٣١ ـ ٣٣].

يقول الله (جلّ وعلا): ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾ [التوبة: آية ٣١].

ذكر الله (جلّ وعلا) في هذه الآيات الكريمات من سورة براءة جرائم اليهود والنصارى فعد منها أنهم نسبوا له الأولاد، وأتبع ذلك بقوله: ﴿قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [التوبة: آية ٣٠] كيف يُصرفون عن الحق مع وضوحه، ويَدَّعُون للواحد الأحد الذي لم يلد ولم يولد، يَدَّعُون له الأولاد فيقولون: عُزير ابن الله، والمسيح ابن الله؟ سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

ثم ذكر من معائبهم وإجرامهم بلايا أُخر فقال: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ﴾ [التوبة: آية ٣١] أي: واتخذوا المسيح بن مريم رباً من دون الله أيضاً. وهذه الآية جاء عن النبي ﷺ أنه فسرها لعدي بن حاتم (رضي الله عنه) لما سأله عنها، فقد أخرج الترمذي وغيره عن عدي بن حاتم (رضي الله عنه) أنه أتى النبي ﷺ وفي عنقهِ صليب من ذهب، فقال له ﷺ: **«اطرح هذا الوثن من عنقك»** وسمعه يقرأ: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ ـ وكان عديٌّ في الجاهلية نصرانياً ـ فقال عدي: ما كنا نعبدهم من دون الله. فقال له النبي ﷺ: **«ألم يُحلوا لكم ما حرّم الله، ويحرموا عليكم ما أحلّ الله فتتبعوهم؟»** قال: بلى. قال: **«ذلك عبادتهم»**[1]. وهو معنى اتخاذهم أرباباً. وهذا التفسير النبوي المقتضي أن كل من يتبع مُشَرِّعاً فيما أحل وحرم مخالفاً لتشريع الله أنه عابد له، متخذه رباً، مشركٌ به، كافر بالله هو تفسير صحيح

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٧) من سورة الأنعام.

لا شك في صحته، والآيات القرآنية الشاهدة لصحته لا تكاد تحصيها في المصحف الكريم، وسنبين - إن شاء الله - طرفاً من ذلك:

اعلموا أيها الإخوان أن الإشراك بالله في حكمه والإشراك به في عبادته كلاهما بمعنى واحد، لا فرق بينهما ألبتة، فالذي يتبع نظاماً غير نظام الله، وتشريعاً غير ما شرّعه الله، وقانوناً مخالفاً لشرع الله من وضع البشر، معرضاً عن نور السماء الذي أنزله الله على لسان رسوله، من كان يفعل هذا هو ومن يعبد الصنم ويسجد للوثن لا فرق بينهما ألبتة بوجه من الوجوه، فهما واحد، فكلاهما مشرك بالله، هذا أشرك به في عبادته، وهذا أشرك به في حكمه، والإشراك به في عبادته، والإشراك به في حكمه كلاهما سواء، وقد قال الله (جلّ وعلا) في الإشراك به في عبادته: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا﴾ [الكهف: آية ١١٠].

وقال في الإشراك به في حكمه أيضاً: ﴿لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا﴾ [الكهف: آية ٢٦]. وفي قراءة ابن عامر من السبعة: **﴿ولا تشرك في حكمه أحدا﴾**[1] بصيغة النهي المطابقة لقوله: ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا﴾ [الكهف: آية ١١٠] فكلاهما إشراك بالله؛ ولذا بيّن النبي لعدي بن حاتم أنهم لمّا اتبعوا نظامهم في التحليل والتحريم وشرعهم المخالف لشرع الله كانوا عبدة لهم، متخذيهم أرباباً، والآيات القرآنية في المصحف الكريم المُصَرِّحة بهذا المعنى لا تكاد تحصيها، ومن أصرحها: المناظرة التي أشرنا لها في الأيام الماضية، ووعدنا بإيضاح مبحثها هنا، وهي المناظرة التي وقعت بين حزب الرحمٰن وحزب الشيطان في حكم تحليل لحم الميتة وتحريمه، فحزب الشيطان يقولون: إن الميتة حلال، ويستدلون بوحي من وحي الشيطان، وهو أن الشيطان أوحى إلى أصحابه وتلامذته في مكة أن اسألوا محمداً عن الشاة تصبح ميتة من هو الذي قتلها؟ فلما قال: الله قتلها. احتجوا على النبي وأصحابه في تحريمهم الميتة بفلسفة من وحي الشيطان وقالوا: ما

---

(١) مضى عند تفسير الآية (١٠٦) من سورة الأنعام.

ذبحتموه وذكيتموه بأيديكم حلال، وما ذبحه الله بيده الكريمة بسكين من ذهب تقولون حرام!! فأنتم أحسن من الله إذاً!! فهذا فلسفة الشيطان ووحي إبليس استدل بها كفار مكة على اتباع نظام الشيطان وتشريعه وقانونه بدعوى أن ما ذبحه الله أحلّ مما ذبحه الناس، وأن تذكية الله أطهر من تذكية الخلق، واستدل أصحاب النبي والنبي ﷺ على تحريم الميتة بوحي الرحمٰن في قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ﴾ [المائدة: آية ٣] ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ﴾ [البقرة: آية ١٧٣] فأدلى هؤلاء بنص من نصوص السماء، وأدلى هؤلاء بفلسفة من وحي الشيطان، ووقع بينهم جدال وخصام، فتولى رب السماوات والأرض الفتيا في ذلك بنفسه فأنزلها قرآناً يتلى في سورة الأنعام معلماً بها خلقه، أن كل من يتبع نظاماً وتشريعاً وقانوناً مخالفاً لما شرعه الله على لسان رسول الله ﷺ فهو مشرك بالله كافر متخذ ذلك المتبوع رباً، فأنزل الله ذلك في قوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ منه الميتة. أي: وإن قالوا: إنها ذكاة الله، وأنها أطهر. ثم قال: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ﴾ أي: إن الأكل من الميتة لفسق. أي: لخروج عن طاعة الرحمٰن إلى طاعة الشيطان ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ﴾ من الكفرة ككفار مكة ﴿لِيُجَٰدِلُوكُمْ﴾ لأجل أن يجادلوكم بوحي الشيطان، ما ذبحتموه حلال، وما ذبحه الله حرام، فأنتم أحسن من الله. ثم قال ـ وهو محل الشاهد ـ: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ﴾ أي: اتبعتموهم في ذلك النظام الذي وضعه الشيطان لأتباعه وأقام دليلًا من وحيه عليه ﴿إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ بالله، متخذون من اتبعتم تشريعه رباً غير الله. وهذا الشرك في قوله: ﴿إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ هو الشرك الأكبر المخرج عن ملة الإسلام بإجماع المسلمين، وهو الذي أشار الله إليه في قوله: ﴿إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [النحل: آية ١٠٠] وهو الذي صرّح به الشيطان في خطبته يوم القيامة المذكورة في قوله: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ﴾ [إبراهيم: آية ٢٢] وهو المراد على أصح التفسيرين في قوله: ﴿بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ﴾ [سبأ: آية ٤١] يعبدون الشياطين باتباعهم أنظمتهم وتشريعاتهم على ألسنة

الكفار، وهو الذي نهى عنه إبراهيم أباه: ﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ﴾ [مريم: آية ٤٤] أي: باتباع ما يقرر لك من نظام الكفر والمعاصي مخالفاً لشرع الله الذي أنزله على رسله، وهذه العبادة بعينها هي التي وبّخ الله مرتكبها وبيّن مصيره الأخير في سورة يّس في قوله: ﴿أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٦٠﴾ [يّس: آية ٦٠] ما عبدوه بسجود ولا ركوع وإنما عبدوه باتباع نظامٍ وتشريعٍ وقانون شرع لهم أموراً غير ما شرعه الله فاتبعوه وتركوا ما شرعَ الله فعبدوه بذلك واتخذوه رباً كما بيّنه النبي ﷺ لعدي بن حاتم (رضي الله عنه)، فهذا أمر لا شك فيه، وهو المراد بقوله: ﴿وَإِن يَدۡعُونَ إِلَّا شَيۡطَٰنٗا مَّرِيدٗا﴾ [النساء: آية ١١٧] يعني: ما يعبدون إلا شيطاناً مريداً، أي: عبادة اتباع نظام وتشريع. واعلم أن قوماً زعموا أنهم يريدون أن يتحاكموا إلى شرع الشيطان والذي وضعه، وادّعوا مع ذلك أنهم مؤمنون فَعَجَّب الله نبيه من دعواهم الكاذبة الفاجرة التي لا يمكن أن تصدق في سورة النساء في قوله (جلّ وعلا): ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزۡعُمُونَ أَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ﴾ [النساء: آية ٦٠]. وكل من تحاكم إلى غير ما أنزل الله فهو متحاكم إلى الطاغوت، وهؤلاء قوم أرادوا التحاكم إلى الطاغوت وزعموا أنهم مؤمنون بالله فعجّب الله نبيه من كذب هؤلاء وعدم حيائهم في قوله: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزۡعُمُونَ﴾ يُعَجّبه منهم ﴿يَزۡعُمُونَ أَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدۡ أُمِرُوٓاْ أَن يَكۡفُرُواْ بِهِۦۖ وَيُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ الذي شرع لهم تلك النظم والأوضاع التي يسيرون عليها ﴿وَيُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمۡ ضَلَٰلَۢا بَعِيدٗا﴾ وأقسم الله (جلّ وعلا) إقساماً سماوياً من رب العالمين على أنه لا إيمان لمن لم يُحَكِّم رسول الله فيما جاء به عن الله خالصاً من قلبه في باطنه وسره في قوله: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا ٦٥﴾ [النساء: آية ٦٥] وبيّن الله (جلّ وعلا) في آيات كثيرة من كتابه أن الحكم له وحده لا شريك له في حكمه، وكلما ذكر اختصاصه بالحكم أوضح العلامات التي يعرف بها بين من يستحق أن يحكم

ويأمر وينهى ويشرع ويحلل ويحرم، وبين من ليس له شيء من ذلك، قال تعالى: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [يوسف: آية ٤٠] ﴿لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ﴾ [القصص: آية ٧٠] وسنبين لكم أمثلة من ذلك، من ذلك قوله في سورة الشورى: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى: آية ١٠] ثم إن الله كأنه قال: هذا الذي يكون المرجع إليه، والقول قوله، والكلمة كلمته، حتى يُرد إليه كل شيء، اختُلف فيه ما صفاته التي يتميز بها عن غيره؟ قال: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ ثم بيّن صفات من يستحق الحكم والتشريع والتحليل والتحريم والأمر والنهي فقال: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾ فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾ لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾﴾ [الشورى: الآيات ١٠ ـ ١٢] هذه صفات من له أن يحكم ويحلل ويحرم ويأمر وينهى، أفترون أيها الإخوان أن واحداً من هؤلاء القردة الخنازير الكلاب أبناء الكلاب الذين يضعون القوانين الوضعية فيهم واحد يستحق هذه الصفات التي هي صفات من له أن يحكم ويحلل ويحرم ويأمر وينهى؟!! ومن الآيات الدالة على هذا النوع قوله تعالى في سورة القصص: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾﴾. ثم بيّن صفات من له أن يحكم فقال: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [القصص: الآيات ٧٠ ـ ٧٣] هل في الكفَرَة القردة الخنازير الكلاب أبناء الكلاب الذين يضعون النظم ويزعمون أنهم يرتبون بها علاقات الإنسان ويضبطون بها شؤونه هل في هؤلاء من يستحق أن يوصف بهذه الصفات التي هي صفات من له أن يحكم ويأمر وينهى ويحلل ويحرم؟! ومن ذلك قوله تعالى في

أخريات القصص: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَآ إِلَٰهَ[1] [إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾] [القصص: آية ٨٨].

١/٦أ / والآيات القرآنية في مثل هذا كثيرة جداً. والحاصل أن التشريع لا يكون إلا للأعلى الذي لا يمكن أن يكون فوقه آمرٌ ولا ناهٍ ولا متصرف، فهو للسلطة العليا، أما المخلوق الجاهل الكافر المسكين فليس له أن يُحلل ويحرِّم، والعجب كل العجب من قوم كان عندهم كتاب الله ورثوا الإسلام عن آبائهم، وعندهم هذا القرآن العظيم، والنور المبين، وسنّة خير الخلق ﷺ، يبيّن الله ورسوله كل شيء، ومع ذلك يعرضون عن هذا زاعمين أنه لا يحسن القيام بشؤون الدنيا بعد تطوراتها الراهنة، يطلبون الصواب في زبالات أذهان كفرة خنازير، لا يعلمون شيئاً!! هذا من طمس البصائر - والعياذ بالله - لا يصدق به إلا من رآه، ولكن الخفافيش يعميها نور القرآن العظيم، فالقرآن العظيم نورٌ عظيم، والخفاش لا يكاد أن يرى النور:

خَفَافِيْشُ أعمَاهَا النَّهَارُ بضَوئِهِ فَوَافَقَهَا قِطْعٌ من الليلِ مُظْلِمُ[2]

هذا القرآن العظيم ينصرفون عنه، وترى الواحد الذي هو مسؤول عنهم يعلن في غير حياء من الله ولا حياء من الناس بوجه لا ماء فيه، بكل وقاحة أنه يحكم في نفسه وفي الناس الذين هم رعيته الذين هو مسؤول عنهم يحكم في أديانهم، وفي أنفسهم، وفي عقولهم، وفي أنسابهم، وفي أموالهم، وفي أعراضهم، قانوناً أرضياً وضعه خنازير كفرة جهلة أنتن من الكلاب والخنازير، وأجهل خلق الله، معرضاً عن نور السماء الذي وضعه الله (جلّ وعلا) على لسان خلقه، فهذا من طمس البصائر لا يصدِّق به إلا من رآه - والعياذ بالله - اللهم لا تطمس بصائرنا ولا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا.

واعلموا - أيها الإخوان - أن كل من يتعالم أمام الخالق (جلّ وعلا) بلا

---

(١) في هذا الموضع انقطع التسجيل، وقد أكملت الآية وجعلت ذلك بين معقوفين.

(٢) مضى عند تفسير الآية (١٢٨) من سورة الأنعام.

حياء في وجهه أنه يعرض عمّا أنزل الله على محمد ﷺ مدعياً أنه لا يقدر أن يقوم بتنظيم علاقات الدنيا يطلب النور والهدى في زبالات أذهان خنازير كفرة فجرة جهلة في غاية الجهل أنه هو وفرعون وهامان وقارون في الكفر سواء؛ لأنه لا يعرض عن الله، وعن تشريع الله، ويفضِّل عليه تشريع الشيطان، ونظام إبليس الذي شرعه على ألسنة أوليائه إلا من لا نصيب له في الإيمان بوجه من الوجوه، كما رأيتم الآيات الكثيرة الدالة على ذلك، وتعجيب الله نبيه من ادعاء مثله الإيمان. فعلى المسلمين جميعاً أن يعلموا ويعتقدوا ـ ونحن نقول: لا شك يجب على كل مسلم كائناً من كان أن يعلم ـ أنه لا حلال إلا ما أحلّه الله، ولا حرام إلا ما حرّمه الله، ولا دين إلا ما شرّعه الله، فمن سِوَى الله لا تحليل له ولا تحريم؛ لأنه عبد مسكين ضعيف مربوب، عليه أن يعمل بما يأمر به ربه، فيتبع ما يشرعه ربه. وهذا معنى قوله: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ الأحبار: جمع حَبْر بفتح الحاء وكسرها. والتحقيق أنهما لغتان. والأحبار: العلماء. والرهبان: المتعبدون المنقطعون في الصوامع، وهو جمع راهب، وشذّ قوم فقالوا: إن الواحد منهم يقال له (رهبان) واستدلوا بقول الراجز[1]:

لو كلَّمتْ رُهْبَانَ ديرٍ في الجَبَلْ ... لأقبل الرهْبَانُ يَهْوي ونَزَلْ

أنه واحد. والتحقيق: أنه جمع راهب.

﴿أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ الأرباب: جمع رب؛ لأنهم عبدوهم، والعبادة من صفات الرب (جلّ وعلا) وحده لا يُعبد سواه.

﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ﴾ بما أمروا به من الدين ﴿إِلَّا﴾ لأجل أن يعبدوا الله وحده ﴿إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ أي: معبوداً واحداً ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ لا معبود بحق إلا هو وحده (جلّ وعلا) ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾ أي: تنزيهاً له أتم تنزيه عما يشركون به شرك ربوبية وشرك طاعة وشرك عبادة.

---

(١) البيت لعروة بن حزام، وهو في ديوانه ص٣١، فتح القدير (٢/٦٨) ولفظ الشطر الثاني:

«لزحف الرهبان يمشي وزحل»

وهذه الآية من سورة براءة بيّن الله فيها أن النصارى واليهود مشركون كما أشرنا إليه سابقاً. وهذا معنى قوله: ﴿سُبْحَـٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: آية ٣١].

﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ [التوبة: آية ٣٢] قال بعض العلماء: نور الله هو هذا القرآن العظيم، وقد سمى الله هذا القرآن نوراً في آيات كثيرة كقوله: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَـٰبٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة: آية ١٥] ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَـٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا﴾ [النساء: آية ١٧٤] ﴿وَلَـٰكِن جَعَلْنَـٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ﴾ [الشورى: آية ٥٢] ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ﴾ [الأعراف: آية ١٥٧] ﴿وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا﴾ [التغابن: آية ٨] هو نور أضاء الله به كل شيء، وكل من لا يعلم أنه نور وأنه حق فإن ذلك إنما جاءه من قبل عماه؛ لأنه خفاش أعمى، والأعمى لا يرى الشمس، وقد بيّن الله هذا في سورة الرعد في قوله: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ﴾ [الرعد: آية ١٩] فصرّح بأن الذي يمنعه من أن يعلم أنه الحق إنما هو عماه.

إذا لم يكنْ للمرءِ عينٌ بصيرة ... فلا غَرْوَ أن يَرْتَابَ والصبحُ مُسْفِرُ[1]

وقوله: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ﴾ يعني يذهبوا أدلة هذا القرآن العظيم ويبطلوها ويمنعوا إقامة أدلته وإظهاره للحق والدين.

﴿بِأَفْوَٰهِهِم﴾ في قوله: ﴿بِأَفْوَٰهِهِم﴾ وجهان[2]:

أحدهما: أن المراد أن إطفاءه بأفواههم هو تكذيبهم به وقولهم: إنه شعر أو سحر أو كهانة أو أساطير الأولين أو مكذوب على الله. فهذا إرادتهم تكذيبه وإبطاله بأفواههم بالقول الكاذب.

وقال بعضهم: شبه فعلهم بمن رأى نوراً مستضيئاً ملأ أقطار الدنيا وأراد أن ينفخه ليطفئه بنفخة؛ لأن النفخ يطفىء النور الضعيف، ولا يقدر

---

(١) مضى عند تفسير الآية (١٢٨) من سورة الأنعام.

(٢) انظر: ابن جرير (١٤/٢١٣ ـ ٢١٤)، ابن كثير (٢/٣٤٩)، البحر المحيط (٥/٣٣).

على النور العظيم القوي. كأنه شبّه إرادتهم لإطفائه بمن يريد أن ينفخ في نور عظيم ملأ الأرض ليطفئه بالنفخ، وهذا لا يمكن أبداً ﴿وَيَأْبَى اللَّهُ﴾ (جلّ وعلا) ﴿إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ﴾ للعلماء بحث لغوي في قوله: ﴿وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا﴾[1] قالوا: لأن الاستثناء يكون من نفي قبله، وهنا ليس فيه نفي، والإثبات لا يُستثنى منه، فلا تقول: ضربت إلا زيداً، وأكرمت إلا عَمْراً.

وأجاب بعض العلماء عن هذا بأن الإباء فيه معنى الامتناع، والامتناع مضمن معنى الجحد، هم يريدون كذا ولم يرد الله إلا أن يتم نوره. فهو في معنى النفي.

وقال بعض العلماء: هو متعلق بمحذوف: ويأبىٰ الله كل شيء إلا إتمام نوره، فهذا وحده لا بد أن يقع.

ثم قال: ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ فلو كره الكافرون إتمامه فهو متممه مهما كان.

﴿هُوَ﴾ أي: الله ﴿الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ﴾ [التوبة: آية ٣٣] هو محمد ﷺ.

﴿بِالْهُدَىٰ﴾ قال بعض العلماء: الهدى أيضاً هو هذا القرآن؛ لأن الله يقول: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ﴾ [البقرة: آية ١٨٥] قالوا: ﴿بِالْهُدَىٰ﴾ أي: بالقرآن الفارق بين الحق والباطل ﴿وَدِينِ الْحَقِّ﴾ هو دين الإسلام؛ الذي لا يقبل الله غيره ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: آية ١٩] ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: آية ٨٥] وقال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: آية ٣].

﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ الضمير في قوله: ﴿لِيُظْهِرَهُ﴾ فيه وجهان للعلماء[2]: قال بعضهم وهو مروي عن ابن عبّاس[3]: الضمير عائد إلى

---

(١) انظر: الدر المصون (٦/ ٤٠).

(٢) انظر: ابن جرير (١٤/ ٢١٥)، القرطبي (٨/ ١٢١)، ابن كثير (٢/ ٣٤٩).

(٣) أخرجه ابن جرير (١٤/ ٢١٥) من طريق علي بن أبي طلحة.

النبي ﷺ. أي: أرسله بهذا الهدى ﴿لِيُظْهِرَهُۥ﴾ ليطلعه على جميع الأديان فيبين لأهلها حقيقها من باطلها، كما قدمناه في قوله: ﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: آية ٤٨] ﴿يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [المائدة: آية ١٥] ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [آل عمران: آية ٩٣] وغير ذلك من الآيات أن النبي ﷺ علم من كتاب الله ما جاء في جميع الكتب المتقدمة.

القول الثاني: ـ وعليه الأكثر ـ أن الضمير للدين ﴿لِيُظْهِرَهُۥ﴾ أي: ليظهر دين الإسلام، أي: يعليه على جميع الأديان كلها. وهذا الإعلاء يدخل فيه إظهاره بالحجة والبرهان، فبراهينه قاطعة، وحججه ساطعة لا شك فيه، وكتابه محفوظ، فلا شيء يوازيه ولا يشابهه.

قال بعض العلماء: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ﴾ أي: ينصره ويُغلِّبه على جميع الأديان، وقد وفَّى الله بهذا فيما مضى، وسيفي به ـ أيضاً ـ في المستقبل؛ لأن الدين فيما مضى ظهر على جميع الأديان، وأذلّ الدول الكبار العظيمة المعروفة، كالدولة الكسروية، والدولة القيصرية، لم يبق منهم إلا من هو يعطي الجزية عن يد وهو صاغر، أو مسلم، وانتشر في أقطار الدنيا من شرقها وغربها، وظهر على كل الأديان، وأذلّ أهلها، وسيأتي ذلك في آخر هذا الزمان أيضاً كما جاء في أحاديث صحيحة كثيرة أنه لا يبقى في آخر الزمان أحدٌ إلا كان مسلماً[1]، ولم يكن في المعمورة غير دين الإسلام. وهذا معنى قوله: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: آية ٣٣] إظهاره على الدين كله.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۗ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ۖ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى

(١) ساق ابن كثير في تفسيره (٣٤٩/٢) كثيراً من هذه الأحاديث المشار إليها.

كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُۚ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْۚ وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةًۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [التوبة: الآيات ٣٤ ـ ٣٦].

قال الله (جلّ وعلا): ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۗ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْۖ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [التوبة: الآيتان ٣٤، ٣٥] لمّا ذكر الله (جلّ وعلا) أن اليهود والنصارى اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً بيّن أن الرهبان والأحبار لا ينبغي اتخاذهم أرباباً؛ لأن أكثرهم فجَرَة غير مستقيمين فقال: ﴿إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ أي: فكيف تتخذون هؤلاء أرباباً مع أن الإنسان لو اتخذ أشرف الأنبياء رباً أو أعظم الملائكة رباً لكان من كبار المشركين، أحرى من يتخذ الفجَرة أرباباً ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّۦنَ أَرْبَابًاۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [آل عمران: الآية ٨٠] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ...﴾ العلماء ﴿وَٱلرُّهْبَانِ﴾: المتعبدين في صوامعهم.

﴿لَيَأْكُلُونَ﴾ هذه أصلها لام الابتداء التي تزحلقها (إنّ) المكسورة عن المبتدأ إلى الخبر ﴿لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ قال بعض العلماء: يأخذون الرُّشَا. وقال بعض العلماء: يأخذون من أتباعهم أموالًا باسم الدين ثم يأكلونها، قال بعضهم: يأخذون أموالًا باسم الكنيسة والبيعة ونحو ذلك مما يخيلون لأتباعهم أن أخذه من الدين ومرادهم الغرض الدنيوي[1].

وقوله: ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۗ﴾ لأن من استشار الرهبان والأحبار من أتباعهم هل يأخذ دين الإسلام يمنعونهم من ذلك، ويصدّونهم عن سبيل الله التي هي دين الإسلام.

(١) انظر: القرطبي (٨/١٢٢).

ثم قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ...﴾ العرب تقول: «كنزت الشيء» إذا جمعته وجعلت بعضه إلى بعض. وكثيراً ما يطلق على المال المجموع بعضه إلى بعض المدفون في الأرض، والكنز في اللغة يطلق على كل مجموع مضموم بعضه إلى بعض، ومنه: ناقة مكتنزة اللحم؛ لأن لحمها بعضه منضم إلى بعض. سواء كان في باطن الأرض أو على ظاهرها[١].

قال بعض العلماء: هذه في أهل الكتاب. قاله معاوية، واختلف معه أبو ذرٍ (رحمه الله). كان أبو ذرٍ في الشام فشكاه معاوية إلى عثمان فأشخصه عثمان إلى المدينة، وكان أبو ذرٍ (رضي الله عنه) عنده مذهب معروف مخالف لجميع أقوال الصحابة يضيق في اقتناء المال، وكان (رضي الله عنه) يقول: إن الإنسان إذا ادخر شيئاً زائداً عن خَلَّتِه الضرورية فهو كنز يكوى به وجهه وظهره وجنبه، وكان يذكر هذا للناس، ومن أجل هذا أمره عثمان (رضي الله عنه) أيام خلافته أن يخرج إلى الربذة وتوفي بها (رضي الله عنه وأرضاه)[٢]، وأبو ذر معذور؛ لأنه جاء النبي في أول الإسلام، وكان المسلمون في أول الإسلام فقراء ليس عندهم شيء، وكان التشديد في إمساك الذهب والفضة في ذلك الوقت عظيماً، فسمع من النبي شيئاً ورجع إلى أهله بالبادية، ثم أنزل الله فريضة الزكاة، وكثر المال واتسع الأمر، وزال التشديد، ولم يعلم (رضي الله عنه) بشيء من ذلك، فصار على التشديد الأول؛ لأنه سمعه من رسول الله ولم يسمع ما طرأ بعد ذلك. هذا قاله بعض الصحابة وهو الظاهر أنه الحق[٣].

قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ

---

(١) انظر: القرطبي (١٢٣/٨)، الدر المصون (٤٢/٦).

(٢) أخرجه البخاري في الزكاة، باب: ما أُدي زكاته فليس بكنز. حديث رقم: (١٤٠٦) (٢٧١/٣) وأخرجه في موضع آخر، حديث رقم: (٤٦٦٠).

(٣) انظر: الأضواء (٤٣٤/٢).

﴿اللَّهِ﴾ رد الضمير هنا على الفضة ولم يقل: «ولا ينفقونهما» وللعلماء في توجيهه في اللغة العربية أقوال[١]، والتحقيق أن من أساليب اللغة العربية التي نزل بها القرآن رجوع الضمير على أحد المتعاطفين بـ (الواو) أو (الفاء) أو (أو)، وهو في (أو) أظهر اكتفاء ببعضهما؛ لأن الآخر مفهوم منه، وهو كثير في القرآن وفي كلام العرب[٢]، فمن أمثلته في القرآن: ﴿يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا..﴾ ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَوٰةِ وَإِنَّهَا﴾ [البقرة: آية ٤٥] ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ﴾ [الأنفال: الآية ٢٠] ومن أمثلته بـ (أو): ﴿وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ﴾ [النساء: آية ١١٢] ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوٓا إِلَيْهَا﴾ [الجمعة: آية ١١] ومن رجوع الضمير إلى المتعاطفين بـ (أو) قوله: ﴿إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا﴾ [النساء: آية ١٣٥] ومثال إفراده في المتعاطفين بـ (الفاء): قول امرىء القيس[٣]:

فتوضح فالمقراة لم يعفُ رسمُها ....

فرده على أحدهما. وهو في العطف بـ (الواو) كالآية كثير جداً في كلام العرب، منه قول نابغة ذبيان[٤]:

وقد أراني ونُعْماً لاهيينِ بها والدهْرُ والعيشُ لم يهمم بإمْرَارِ

ولم يقل: «ولم يهمما». ومنه قول حسان رضي الله عنه[٥]:

إن شَرْخ الشبابِ والشَّعْر الأ سْوَد ما لم يُعَاص كان جُنُونَا

وهو كثير في كلام العرب.

---

(١) انظر: الدر المصون (٦/٤٢).

(٢) مضى عند تفسير الآية (٤٨) من سورة البقرة.

(٣) مضى عند تفسير الآية (٤٦) من سورة الأنعام.

(٤) مضى عند تفسير الآية (٤٥) من سورة البقرة.

(٥) السابق.

وقوله: ﴿يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ﴾ التحقيق ـ إن شاء الله ـ الذي هو الصواب: أن كنز الفضة والذهب الذي يكوى به صاحبه هو ما منع فيه حق الله من الزكاة[1]، أما ما أُديت زكاته، وأُخرج حق الله الواجب فيه، فالباقي بعد هذا لا يُسمى كنزاً، وإن كان تحت الأرض، ولا يُكوى به صاحبه، هذا هو المذهب الحق ـ إن شاء الله ـ وأدلته واضحة، وبراهينه ساطعة لا شك فيها؛ لأن الله أوجب في مال الإنسان من ذهبه أو فضته أو ماشيته أو ثماره وزروعه وكل ذلك أوجب فيه حقاً معيناً في أقدار معينة بيّنها رسول الله ﷺ، بيّن أنها هي الحق في مال الإنسان، وأن أخذها يطهر الإنسان ويطهر له ماله، فإذا أدى ما أوجبه الله عليه وأمره به فقد طهر هو وطهر ماله، ولم يبق فيه شيءٌ عليه تبعه؛ لأن الله لو كان يكوي به جنبه ووجهه وظهره فلا فائدة في دفع الزكاة إذا كان المال يلزم أن ينفقه كله، فلا وجه للزكاة ولا محل للمواريث؛ لأن الفرائض والمواريث التي نزل بها كتاب الله إنما هي في أموال تبقى بعد صاحبها، فالتحقيق الذي لا شك فيه ـ إن شاء الله ـ أن الكنز الذي يكوى به صاحبه هو ما منع فيه حق الله ولم يؤدِّ زكاته، أما ما أدى زكاته وأعطى حق الله فيه فليس بكنز ولا يكوى به، فإن شاء أكثر من التطوع، وإن شاء أمسك لنفسه، والقدر الواجب أوجب الله أخذه معيناً بتحديد من رسوله ﷺ، ومما يوضح هذا قوله [لرسوله][2] ﷺ: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: آية ١٠٣] وهي الزكاة، فعرفنا أن أخذها يطهرهم ويزكيهم. وفي حديث ضمام بن ثعلبة لمّا أمره النبي بدعائم الإسلام، وذكر له فرض الزكاة، قال: هل عليَّ غيرها؟ قال: «**لا إلا أن تتطوع**»[3]. فهذا هو الحق ـ إن شاء الله ـ أنّ ما أُديت زكاته فليس بكنز ولو تحت الأرض، وما لم تؤد زكاته فهو كنز يكوىٰ به صاحبه وإن كان ظاهراً على وجه الأرض.

---

(١) انظر: الأضواء (٢/٤٣١ ـ ٤٣٤).

(٢) ما بين المعقوفين [ ] زيادة يقتضيها السياق.

(٣) مضى عند تفسير الآية (١٢) من سورة الأعراف.

قال: ابن خويز منداد من المالكية: هذه الآية من سورة براءة تضمنت زكاة العين[(١)]. يعني بالعين: النقدين، الذهب والفضة.

ونحن عادة في هذه الدروس إذا مررنا بآية من كتاب الله هي أصل باب من أبواب الفقه نتعرض إلى مسائله الكبار، ونبين عيونها ومسائلها التي لها أهمية، وهذه الآية الكريمة على التحقيق فيها كأنها تشير إلى الزكاة، وأن من لم يؤدها أنه يُكوى بذلك المال الذي لم يؤدِ زكاته كما سيأتي في حديث مسلم.

اعلموا أن المسلمين أجمعوا على وجوب زكاة الفضة والذهب، وأن النبي ﷺ - لا خلاف بين العلماء من كافة المسلمين أنه - بيّن قدر نصاب الفضة وقدر الواجب فيها، فبيّن أن نصاب الفضة مئتا درهم شرعي، وأنها خمسة أواق، والأوقية: أربعون درهماً، وأن قدر الواجب منها: ربع العشر[(٢)]، هذا أمر لا شك فيه، أن مائتي درهم ففيها زكاة يخرج منها ربع عشرها، وليس في أقل من مائتي درهم شرعي زكاة. والدرهم الشرعي: قال علماء المالكية بالتحديد: ينبغي أن يكون بوزن أهل مكة الأول المتعارف؛ لما ثبت عن ابن عمر عند النسائي وأبي داود أن النبي ﷺ قال: **«المكيال مكيال أهل المدينة، والوزن وزن أهل مكة»**[(٣)] فالخمسة الأوسق تعرف بصاع

---

(١) نقله القرطبي (١٢٤/٨)، والشيخ (رحمه الله) في الأضواء (٤٣٤/٢).

(٢) انظر المدونة (٢٤٢/١ - ٢٤٤)، بدائع الصنائع (١٦/٢ - ١٨)، المغني (٢٠٩/٤ - ٢١٣)، الأضواء (٤٣٤/٢ - ٤٣٥).

(٣) أخرجه أبو داود في كتاب البيوع، باب قول النبي ﷺ: **«المكيال مكيال أهل المدينة»** رقم (٣٣٢٤) (١٨٨/٩)، والنسائي في كتاب الزكاة، باب كم الصاع، رقم (٢٥٢٠) (٥٤/٥)، في كتاب البيوع، باب الرجحان في الوزن. رقم (٤٥٩٤) (٢٨٤/٧)، والطبراني في الكبير (١٣٤٤٩)، والبيهقي (٣١/٦)، كلهم من طريق أبي نعيم الفضل بن دكين، عن سفيان عن حنظلة عن طاووس عن ابن عمر.
وأخرجه أبو عبيد في الأموال (١٦٠٧)، ومن طريقه البغوي (٢٠٦٣) عن أبي المنذر إسماعيل بن عمر عن سفيان به. وأخرجه الطحاوي في مشكل الآثار (٩٩/٢) من طريق الفريابي عن سفيان به.
وأخرجه ابن حبان (٣٢٨٣) من طريق أبي أحمد الزبيري عن سفيان فخالف من تقدم في متن الحديث وإسناده. انظر الإرواء (١٣٤٢) (١٩١/٥).

النبي ﷺ في المدينة، ومائتا درهم ـ نصاب الفضة ـ تعرف بالوزن الذي كان معروفاً عند أهل مكة.

وقد حرر علماء المالكية الأمرين[١] وقالوا: إن الدرهم المكي الشرعي وزنه خمسون وخُمسا حبة من مطلق الشعير. هكذا الذي يقولون، وزاد بعضهم: سُبع الحبة. والتحقيق عندهم هو هذا، فإذا كان عند الإنسان مائتا درهم شرعية فإنه يجب عليه زكاتها وإخراج ربع عشرها كما هو معلوم، وهذا لا نزاع فيه بين العلماء. وكل درهم ستة دوانق، وكل عشرة دراهم سبعة مثاقيل، وأربعون درهماً هي الأوقية. وهذا معروف لا نزاع فيه.

وأكثر العلماء على أن الفضة لا وقص فيها[٢]، فإذا كانت عنده مائتا درهم أخرج ربع عشرها، وكل ما زاد فبحسابه. وقال بعض العلماء: إذا زاد عن مائتي درهم لم يكن عليه شيء حتى يبلغ الأربعين درهماً.

أما الذهب فقد ذكر بعض العلماء أنه لم يثبت فيه تحديد من النبي ﷺ لا في نصابه ولا في المُخرج منه[٣]، وهذا مروي عن الشافعي، وقاله ابن عبدالبر، وبالغ ابن حزم في نصره، أن النبي لم يثبت عنه شيء في تحديد نصاب الذهب ولا في قدر المخرج منه. والتحقيق أن النبي ﷺ ثبت عنه قدر نصاب الذهب وقدر المخرج منه، وأن نصاب الذهب عشرون ديناراً ليس فيما دونها صدقة، وأن في الذهب مثل ما في الفضة ربع العشر.

اعلموا أولًا أن الكتاب والسنة وإجماع المسلمين كل واحد منها قد دلّ على أن الزكاة تجب في الذهب، وقد دلّ عليه القرآن في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ...﴾ الآية [التوبة: آية ٣٤]. ودلت عليه السنة الصحيحة الثابتة عن النبي ﷺ، من ذلك ما ثبت في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة (رضي الله عنه) أن النبي ﷺ قال: «**ما من صاحب ذهب ولا فضة لا يخرج منهما حقها إلا إذا كان يوم القيامة صُفحت له صفائح من**

---

(١) مضى عند تفسير الآية (١٤١) من سورة الأنعام.

(٢) انظر: الأضواء (٤٣٦/٢).

(٣) انظر: الأم للشافعي (٤٠/٤)، الاستذكار لابن عبدالبر (٣٤/٩)، المحلى (٦٦/٦)، الأضواء (٤٣٨/٢).

نار فأُحمي عليها فيكوى بها جنبه وظهره ووجهه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، كلما بردت أُعيدت فأُحمي عليها حتى يقضي الله بين العباد فيرى سبيله إمّا إلى الجنة وإما إلى النار»[١] فهذا نص صحيح ثابت في صحيح مسلم أن الذهب تجب فيه الزكاة، وأن من لم يؤد زكاته يكوى به يوم القيامة، ويُصفح له صفائح من نار. إذا عرفتم أن أصل زكاة الذهب واجبة بالكتاب والسنة والإجماع، فبيان تحديد النصاب وقدر المخرج منه كأنه بيان لإجمال من كتاب الله، وقد جاء عن النبي ﷺ ما يبين هذا الإجمال ويوضحه، ويُعَيِّن قدر نصاب الذهب، وقدر الواجب إخراجه فيه، وهو ما رواه أبو داود في سننه من طريق أبي إسحاق عن عاصم بن ضمرة السلولي والحارث الأعور الهمذاني عن علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) أن النبي ﷺ قال ما معناه: **«إن في عشرين ديناراً من الذهب نصف دينار»**[٢]. وهذا بعينه تحديد النصاب بعشرين ديناراً، وتحديد الواجب فيه بربع العشر، هذا الحديث رواه أبو داود وسكت عنه. ومعروف أن كثيراً من العلماء ناقشوا في هذا الحديث وضعّفوه بالحارث الأعور، وقالوا: وعاصم بن ضمرة السلولي ضعيف أيضاً، فضعفوا هذا الحديث. ونحن نقول[٣]: إن هذا الحديث عند المناقشة الصادقة ليس بضعيف، وأن الحارث الأعور وإن كان ضعيفاً عند قوم ـ وإن وثقه ابن المديني وغيره[٤] ـ فقد ضعفه أكثر

---

(١) تقدم تخريجه عند تفسير الآية (٣٧) من سورة الأنفال.

(٢) أخرجه عبدالرزاق (٨٩/٤)، وأبو داود في الزكاة، باب في زكاة السائمة. حديث رقم: (١٥٥٧، ١٥٥٨) (٤٤٤/٤، ٤٤٧) مع تردد بعض رواته ـ عند أبي داود ـ في رفعه.
وأخرجه ابن أبي شيبة (١١٩/٣)، وأبو عبيد في الأموال ص٣٦٩ موقوفاً على علي (رضي الله عنه).
وانظر: الاستذكار (٢١/٩، ٣٤)، التلخيص (١٧٣/٢)، الإرواء (٢٩١/٣).

(٣) انظر: الأضواء (٤٣٨/٢ ـ ٤٤٢).

(٤) العبارة غير منضبطة من حيث المعنى كما ترى. ولعل الشيخ أراد أن يقول: «وإن كذبه ابن المديني وغيره..» فسبق لسانه إلى ذلك. لأن ابن المديني كذَّب الحارث الأعور كما نقل ذلك الذهبي في الميزان (٤٣٥/١) ويدل على ذلك ما ذكره الشيخ (رحمه الله) في الأضواء (٤٣٩/٢). والحارث الأعور كذبه كذلك: الشعبي وأبو إسحاق السبيعي، =

العلماء. أما عاصم بن ضمرة فالتحقيق أنه صدوق أثنى عليه غير واحد، وهو لا بأس به، فروايته محتج بها وهي معتضدة بأشياء عديدة تقوم بها الرواية الضعيفة أحرى التي هي غير ضعيفة؛ لأن روايته معتضدة برواية الحارث الأعور، وهو يُقبل في المتابعات والشواهد، ومعتضدة بإجماع المسلمين على مقتضاه؛ لأن هذا الحديث أجمع على مقتضاه عامة المسلمين ولم يخالف منهم أحد إلا شيء يروى عن داود الظاهري وبعض أتباعه، أما فقهاء الأمصار والصحابة والأئمة الأربعة وأصحابهم وكافة العلماء المعروفين لم يخالف أحد منهم في أن نصاب الذهب عشرون ديناراً، وأن الواجب فيه ربع العُشر كالفضة، ورُوي عن الحسن البصري أن نصابه أربعون[1]، وعن

= وأبو خثيمة وذكر إبراهيم النخعي أنه اتُّهِم، وقال أبو بكر بن عياش: «لم يكن الحارث بأرضاهم، كان غيره أرضى منه. قال: وكانوا يقولون: إنه صاحب كتب كذاب» ا.هـ. وقال جرير: «كان الحارث الأعور زيفاً» ا.هـ. وعن مغيرة: «لم يكن الحارث يصدق عن علي في الحديث» ا.هـ. وقال ابن حبان: «كان الحارث غالياً في التشيع واهياً في الحديث» ا.هـ. وضعفه الدارقطني، وقال ابن عدي: «عامة ما يرويه غير محفوظ» ا.هـ. وترك الاحتجاج به أبو زرعة وأبو حاتم وابن مهدي، وابن معين ضعفه، ومرة قال: «ليس به بأس» ا.هـ. وقال مرة: «ما زال المحدثون يقبلون حديثه» ا.هـ. وقال مرة: «ثقة». وتعقبه عثمان الدارمي بقوله: «ليس يتابع يحيى على هذا» ا.هـ. وكذا النسائي قال مرة: «ليس بالقوي» وقال مرة: «ليس به بأس» وقال ابن سيرين: «أدركت الكوفة وهم يقدمون خمسة: من بدأ بالحارث الأعور ثَنَّى بعبيدة، ومن بدأ بعبيدة ثَنَّى بالحارث» ا.هـ. وقال: «كان أصحاب ابن مسعود خمسة يُؤخذ عنهم، أدركت منهم أربعة وفاتني الحارث فلم أره وكان يُفضل عليهم» ا.هـ. وعن سفيان: «كنا نعرف فضل حديث عاصم بن ضمرة على حديث الحارث» ا.هـ. وقال فيه الذهبي: «من كبار علماء التابعين على ضعف فيه» ا.هـ. وقال: «والجمهور على توهين أمره مع روايتهم لحديثه في الأبواب» ا.هـ. وقد نقل الشيخ (رحمه الله) في الأضواء (٥٦/٢) قول بعض من رماه بالكذب ولم ينقل عن أحد توثيقه. فقول الشيخ (رحمه الله) هنا: «فقد ضعفه أكثر العلماء» ا.هـ. في محله، وإنما توسعت في هذا التعليق لأن عبارة الشيخ هذه أيضاً لربما توهم القارىء أنها من سبق اللسان وليست كذلك.

(١) أخرج عبدالرزاق في المصنف (٨٩/٤)، وابن أبي شيبة (١١٨/٣)، وابن عبدالبر في الاستذكار (٢٥/٩) عن الحسن: «ما زاد على المائتين فلا يؤخذ منه شيء حتى يبلغ أربعين» وجاء عنه رواية ثانية نقلها النووي في المجموع (١٧/٦) أنه لا زكاة فيما هو دون أربعين مثقالاً لا تساوي مائتي درهم.

طاووس أنه يقاس بالفضة، فما بلغ من الذهب قيمة مائتي درهم كانت فيه الزكاة، وما دون ذلك فلا. وهذا لا يكاد يلتفت إليه[١] لكثرة من خالفه من أجلاّء العلماء من الصحابة فمن بعدهم. فحديث عاصم بن ضمرة حجة، وهو معتضد برواية الحارث الأعور، وبإجماع المسلمين، وهذا إنما هو بيان لأمر ثبت بالكتاب والسنة والإجماع أنه واجب، ومعلوم أن البيان إرشاد ودلالة، وهو يصح في كل شيء يجلو الجهالة والإجمال.

وهذا هو التحقيق ـ إن شاء الله ـ أن نصاب الذهب عشرون مثقالًا، وأن الواجب فيها ربع العشر، وأنه لا وقص فيه فما زاد فبحسابه.

فإن كان عنده بعض النصاب من الذهب وبعضه من الفضة فهل يضم الفضة للذهب[٢]؟ ليس في ذلك نص عن رسول الله ﷺ، وأنظار العلماء اختلفت فيه، فذهب بعض العلماء إلى أنه لا يضم الذهب إلى الفضة ولا الفضة إلى الذهب في الزكاة، وتوقف في هذا الإمام أحمد بن حنبل في رواية الأثرم، وقطع في رواية حنبل أنه لا يضم أحدهما إلى الآخر[٣]. فمن كانت عنده عشرة مثاقيل ومائة درهم لا زكاة عليه على هذا، وبهذا قال الإمام الشافعي وأكثر أصحابه في طائفة كثيرة من العلماء. وقال مالك بن أنس وأصحابه: يضم الذهب إلى الفضة فيكون النصاب منهما معاً. وهو مروي عن أبي حنيفة (رحمة الله) على الجميع. وعلى هذا فلو كان عنده مائة درهم وعشرة دنانير وجبت عليه الزكاة، فأخرج من الدنانير ربع عشرها، ومن الدراهم ربع عشرها وهكذا.

---

(١) أخرج عبدالرزاق (٤/٩٢)، وابن عبدالبر في الاستذكار (٩/٢٤) عن طاووس قال: «إذا زادت الدراهم على مائتي درهم فلا شيء فيها حتى تبلغ أربعمائة درهم». قال في المغني (٤/٢١٢ ـ ٢١٣): «وقال عامة الفقهاء: نصاب الذهب عشرون مثقالاً من غير اعتبار حقيقتها، إلا ما حُكي عن عطاء وطاووس والزهري... أنهم قالوا: هو معتبر بالفضة، فما كان قيمته مائتي درهم ففيه الزكاة وإلا فلا؛ لأنه لم يثبت عن النبي ﷺ تقدير في نصابه» ا.هـ.

(٢) انظر: الاستذكار (٩/٤٠)، المبسوط (٢/١٩٢)، المجموع (٦/١٨)، المغني (٤/٢١٠)، الأضواء (٢/٤٤٤).

(٣) انظر: المغني (٤/٢١٠).

واعلموا أن من توابع هذه المسألة أشياء اختلف فيها العلماء سنذكر طرفاً منها، من ذلك: إذا كان الذهب والفضة حلياً مصوغاً مباحاً تتزين به النساء، هل تجب فيه الزكاة أو لا[١]؟ اختلف فيه العلماء وفقهاء الأمصار والصحابة فمن بعدهم، فذهب كثير من العلماء إلى أنه لا زكاة في الحلي المباح، منهم مالك والشافعي وأحمد وأصحابهما وخلق لا يحصى من الصحابة فمن بعدهم. وذهب آخرون إلى أن الحلي المباح تجب فيه الزكاة، وبه قال أبو حنيفة وأصحابه وخلق من الصحابة فمن بعدهم. واحتج كل بحجج، أما الذين قالوا: لا تجب فيه الزكاة فإنما احتجوا بحديث جاء في ذلك وآثار عن الصحابة، واحتجوا بوضع اللغة، أما الحديث الذي جاء في ذلك هو حديث رواه البيهقي في كتاب معرفة السنن والآثار، رواه من طريق عافية بن أيوب عن الليث بن سعد عن أبي الزبير عن جابر بن عبدالله (رضي الله عنهما) أن النبي ﷺ قال: «**لا زكاة في حلي**»[٢].

هذا الحديث قال الآخرون: لا يجوز الاحتجاج به؛ لأن عافية بن أيوب مجهول وغالى البيهقي (رحمه الله) فقال: إن العمل بحديث عافية هذا من جنس العمل بأحاديث الكذابين.

ونحن نقول: إن هذه مغالاة منه (رحمه الله)؛ لأن عافية بن أيوب لم يقل فيه أحد إنه كذّاب، وغاية ما في الباب أن البيهقي ظنّ أنه مجهول، وقد وثقه غير البيهقي، فقد نقل ابن أبي حاتم في كتاب الجرح والتعديل عن أبي زرعة أنه وثق عافية بن أيوب هذا وقال: لا بأس به[٣]. وقال ابن

---

(١) انظر: الاستذكار (٩/٦٦)، المبسوط (٢/١٩٢)، المجموع (٦/٣٢)، المغني (٤/٢٢٠)، الأضواء (٢/٤٤٥).

(٢) البيهقي في المعرفة (٣/٢٩٨) وقال: «لا أصل له مرفوعاً، إنما يُروى عن جابر من قوله غير مرفوع» ا.هـ. وقد رواه الشافعي في الأم (٢/٤١)، وعبدالرزاق (٤/٨٢)، وأبو عبيد في الأموال ص٣٩٩، والدارقطني (٢/١٠٧)، والبيهقي في السنن (٤/١٣٨) موقوفاً على جابر (رضي الله عنه). وانظر: تنقيح التحقيق (٢/١٤٢٠)، نصب الراية (٢/٣٧٤)، الإرواء (٣/٢٩٤)، الأضواء (٢/٤٤٦).

(٣) الجرح والتعديل (٧/٤٤).

الجوزي في جرحه وتعديله: لا أعلم فيه قادحاً ولا جرحاً[١]. فدعوى أنه من الكذابين ليس بصحيح.

واحتجوا بآثار من الصحابة كثيرة؛ لأنه جاءت آثار عن الصحابة أنهم لا يخرجون زكاة الحلي، وهو ثابت عن عائشة[٢] وابن عمر[٣] وجماعة من الصحابة (رضي الله عنهم) واحتجوا بالقياس، ومعلوم أن القياس يستعمل مع النص إذا كان لتعضيد النص لا ليخالفه؛ لأن النصوص لا مانع من اعتضاد بعضها بعضاً، وقد تقرر في الأصول[٤] أن النص الذي يوافق[٥] [القياس مقدم في حال الترجيح].

النوع الثاني من القياس: وهو المعروف عندهم بـ (قياس العكس)، وقياس العكس قال جماعة من الأصوليين: يُحتج به، وأبى الاحتجاج به جماعة آخرون[٦]. وقياس العكس قد نبّه عليه النبي ﷺ في الحديث الثابت في صحيح مسلم؛ لأنه ﷺ لما قال: «**وفي بضع أحدكم أجر**» قالوا: يا رسول الله، أيأتي أحدنا شهوته وله فيها أجر؟ قال: «**أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه وزر؟**»[٧] فهذا قياس عكس، وهو إعطاء

---

(١) قال ابن الجوزي في كتاب التحقيق (كما في تنقيح التحقيق) (١٤٢١): «ما عرفنا أحداً طعن فيه» ا.هـ.

(٢) أخرجه البيهقي في المعرفة (٣/٢٩٣)، وفي السنن الكبرى (٤/١٣٨).

(٣) أخرجه البيهقي في المعرفة (٣/٢٩٣)، وفي السنن الكبرى (٤/١٣٨).

(٤) انظر: شرح الكوكب المنير (٤/٦٩٥)، الأضواء (٢/٤٥٠).

(٥) في هذا الموضع انقطع التسجيل، وما بين المعقوفين [ ] زيادة يتم بها الكلام.
قال في الأضواء (٢/٤٤٨): «وأما القياس فمن وجهين: الأول: أن الحلي لما كان لمجرد الاستعمال لا للتجارة والتنمية أُلحق بغيره من الأحجار النفيسة كاللؤلؤ والمرجان، بجامع أن كلاً مُعَدّ للاستعمال لا للتنمية. وقد أشار إلى هذا الإلحاق مالك ـ رحمه الله ـ في [الموطأ] بقوله: فأما التبر والحلي المكسور الذي يريد أهله إصلاحه ولبسه فإنما هو بمنزلة المتاع الذي يكون عند أهله، فليس على أهله فيه زكاة. قال مالك: ليس في اللؤلؤ ولا في المسك والعنبر زكاة».

(٦) انظر: شرح الكوكب المنير (٤/٢١٩)، وانظر الكلام على هذا القياس مع الأمثلة والتطبيقات المذكورة في الأضواء (٢/٤٤٩ ـ ٤٥٠).

(٧) مسلم في الزكاة، باب بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع معروف. حديث رقم: (١٠٠٦) (٢/٦٩٧) من حديث أبي ذر (رضي الله عنه).

حكم عكس حكم لتعاكسهما في العلة[١].

قالوا: وكذلك هنا في الحلي المباح، فإن العروض لا تجب الزكاة في عينها، فإذا كانت للتجارة وجبت الزكاة في عينها، عكس الذهب والفضة، فإن الزكاة في عينها، فإذا انقطع عنها اسم النماء والتجارة صارت لا زكاة فيها، من قياس العكس.

ومن أمثلة قياس العكس عند المالكية مما اختلفوا مع غيرهم في القيء هل ينقض الوضوء أو لا؟ قالوا: لا ينقض الوضوء كثير القيء، قياساً على قليل القيء، عكس البول، فإنه لما انتقض الوضوء بقليله انتقض بكثيره. ومن أمثلة قياس العكس عند الحنفية قولهم: لا قصاص في القتل بكبير المُثقّل، كعمود الحديد والصخرة، قياساً على صغير المُثقّل، كالقضيب الذي لا قصاص في الضرب به، عكس المُحدّد، فإنه لما وجب القصاص في قليله وجب في كثيره. هذا هو غالب حجة أهل هذا القول الذين قالوا: لا زكاة في الحلي.

أما الذين قالوا: تجب في الحلي المباح زكاة فاحتجوا أيضاً بأحاديث جاءت عن النبي ﷺ، وبآثار عن السلف، وبوضع اللغة، وبالقياس أيضاً[٢].

أما وضع اللغة من حجة الأولين فقولهم: إنه ﷺ قال: «**وفي الرقة**[٣] **ربع العشر**»[٤] وقال: «**ليس فيما دون خمس أواق من الورق صدقة**»[٥].

---

(١) انظر: الأضواء (٢/٤٤٩).

(٢) انظر: الأضواء (٢/٤٥١).

(٣) قال في الأضواء (٢/٤٥٠): «قال أبو عبيد: الرقة عند العرب: الورق المنقوشة ذات السكة السائرة بين الناس، ولا تطلقها العرب على المصوغ، وكذلك قيل في الأوقية. قال مقيده ـ عفا الله عنه ـ: ما قاله أبو عبيد هو المعروف في كلام العرب، قال الجوهري في صحاحه: الورق: الدراهم المضروبة، وكذلك الرقة، والهاء عوض عن الواو. وفي القاموس: الورق ـ مثلثة، وككتف ـ: الدراهم المضروبة، وجمعه أوراق ووراق كالرقة» ا.هـ.

(٤) أخرجه البخاري في الزكاة، باب: زكاة الغنم. حديث رقم: (١٤٥٤) (٣/٣١٧ـ٣١٨).

(٥) أخرجه البخاري في الزكاة، باب: ليس فيما دون خمس ذوو صدقة. حديث رقم: (١٤٥٩) (٣/٣٢٢). وأخرجه في موضع آخر، انظر رقم: (١٤٨٤). ومسلم في الزكاة، =

قالوا: والورق لا تطلق إلا على الدراهم المنقوشة، ولا تطلق على الحلي. هذا من حجة الأولين بالوضع اللغوي.

وأما الذين قالوا: تجب الزكاة فيه فاحتجوا أيضاً بأحاديث جاءت عن النبي ﷺ، وآثار عن السلف، وبالقياس، وبوضع اللغة أيضاً.

ومن الأحاديث الدالة على ذلك: ما رواه أبو داود والنسائي من طريق عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده ـ وجده: هو عبدالله بن عمرو بن العاص (رضي الله عنهما) ـ أن النبي ﷺ دخلت عليه امرأة ومعها ابنتها، وفي يد ابنتها مسكتان غليظتان من ذهب ـ يعني سوارين من ذهب ـ فقال لها: **«أتؤدين زكاة هذا؟»** فقالت: لا. فقال: **«أيسرّك أن يسوّرك الله بهما يوم القيامة سوارين من نار؟!»** فخلعتهما فقالت: هما لله ولرسوله[1].

= حديث رقم: (٩٧٩) (٦٧٣/٢) من حديث أبي سعيد الخدري (رضي الله عنه). وأخرجه مسلم أيضاً من حديث جابر (رضي الله عنه) في الزكاة، حديث رقم: (٩٨٠) (٦٧٥/٢).

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (١٥٣/٣)، وعبدالرزاق (٨٥/٤ ـ ٨٦)، وأحمد (١٧٨/٢)، وأبو عبيد في الأموال ص٣٩٧، وابن زنجويه في الأموال (٩٧٣/٣)، وأبو داود في الزكاة، باب: الكنز ما هو؟ وزكاة الحلي. حديث رقم: (١٥٤٨) (٤٢٥/٤)، والترمذي في الزكاة، باب: ما جاء في زكاة الحلي. حديث رقم: (٦٣٧) (٢٠/٣ ـ ٢١) وعقبه بقوله: «وهذا حديث قد رواه المثنى بن الصباح عن عمرو بن شعيب نحو هذا، والمثنى بن الصباح وابن لهيعة يضعفان في الحديث. ولا يصح في هذا الباب عن النبي ﷺ شيء» ا.هـ. وقال ص٢٠: «وقد رُوي عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن النبي ﷺ أنه رأى في الحلي زكاة. وفي هذا الحديث مقال» ا.هـ. والنسائي في الصغرى، في الزكاة، باب: زكاة الحلي. حديث رقم: (٢٤٧٩، ٢٤٨٠) (٣٨/٥) وفي الكبرى، في الزكاة، باب: زكاة الحلي. حديث رقم: (٢٢٥٨، ٢٢٥٩) (١٩/٢). والبيهقي في الكبرى (١٤٠/٤)، وابن حزم في المحلى (٧٨/٦) وأشار لضعفه. (بعضهم يرويه مرسلاً وبعضهم موصولاً) وقد ذكر له ابن الجوزي في التحقيق أربع طرق، وقد أعلها ابن عبدالهادي في التنقيح (١٤٢٥/٢) جميعاً. وقال الحافظ في الدراية (٢٥٨/١): «صححه ابن القطان، وقال المنذري: لا علة له. قلت: أبدى له النسائي علة غير قادحة» ا.هـ. إلى أن قال: «وروى أحمد وابن أبي شيبة والترمذي من طريق المثنى بن الصباح وابن لهيعة وهما ضعيفان. . .» ا.هـ. وانظر: نصب الراية (٣٧٠/٢ ـ ٣٧١)، وقال في الإرواء (٢٩٦/٣): «وإسناده إلى عمرو عند أبي داود والنسائي وأبي عبيد جيد» ا.هـ. وانظر: آداب الزفاف ص٢٥٦، صحيح أبي داود (٢٩١/١)، صحيح النسائي (٥٢٣/٢).

هذا الحديث أخرجه أبو داود والنسائي من طريق عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده. والتحقيق أن رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده ـ مع ما فيها من الكلام ـ أنها يصح الاحتجاج بها، وأنها ليست بضعيفة. وقال الترمذي في هذا الحديث: لم يرد من طريق صحيحة[1] وذكره من طرق كلها ضعيفة، ولم يطلع على رواية حسين المعلم له.

والتحقيق أنه جاء من رواية أقل درجاتها الحسن، فلا شك في الاحتجاج بهذا الحديث من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص، وهذا روي أيضاً عن غيرها. وقد أخرج أبو داود في سننه أيضاً عن أم سلمة زوج النبي ﷺ أنها كانت تلبس أوضاحاً من ذهب، فسألت رسول الله فقالت: أكنز هو يا رسول الله؟ قال: «**ما بلغ أن تُؤدى زكاته فأُديت زكاته ليس بكنز**»[2] فهذا يدل على أن الأوضاح التي تتزين بها من حليها أن فيها الزكاة. ويعتضد هذا بحديث عائشة (رضي الله عنها) أن النبي ﷺ دخل عليها وفي يدها فتخات من فضة ـ والفتخات: نوع من الخواتم لا فصوص له، وقد يكون في أصابع اليد، وقد يُجعل في أصابع الرجل ـ فقال: «**ما هذه؟**» قالت: فقلت: شيء صنعته لأتزين لك به! فقال: «**أتؤدين زكاتها؟**» قالت: لا، قال: «**هو حسبك من النار**»[3].

---

(١) سنن الترمذي (٣/٢٠، ٢١).

(٢) أخرجه أبو داود في الزكاة، باب: الكنز ما هو؟ وزكاة الحلي. حديث رقم: (١٥٤٩) (٤٢٦/٤) والدارقطني (١٠٥/٢)، والبيهقي في الكبرى (١٤٠/٤) وعقبه بقوله: «وهذا يتفرد به ثابت بن عجلان» ا.هـ. وفي الصغرى (٣٢٥/١ ـ ٣٢٦)، والحاكم (٣٩٠/١) وقال: «صحيح على شرط البخاري» ا.هـ. ووافقه الذهبي. وأخرجه الطوسي في مستخرجه على الترمذي (٢٢٨/٣) وقال: «هذا حديث حسن» ا.هـ. وذكره ابن حزم في المحلى (٧٩/٦) وعقبه بقوله: «عتاب مجهول» ا.هـ. وانظر: تنقيح التحقيق (١٤٢٣/٢، ١٤٢٦)، نصب الراية (٣٧١/٢). وقد حسن الألباني أحد طرقه في التعليق على المشكاة (٥٦٨/١)، وصحيح أبي داود (٢٩١/١).

(٣) أخرجه أبو داود في الزكاة، باب: الكنز ما هو؟ وزكاة الحلي. حديث رقم: (١٥٥٠، ١٥٥١)، والدارقطني (١٠٥/٢) وقال: «محمد بن عطاء مجهول» ا.هـ. والبيهقي في الكبرى (١٣٩/٤ ـ ١٤٠)، وفي الصغرى (٣٢٦/١) وعقبه بقوله: «وهذا إسناد حسن» ا.هـ. والحاكم (٣٨٩/١) وقال: «صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه» ا.هـ. وابن =

واستدلوا أيضاً بحديث أسماء بنت يزيد بن السكن قالت: دخلت على رسول الله ﷺ أنا وخالتي، وعلينا أساور من ذهب، فقال: **«أتؤديان زكاة هذا؟»** فقلنا: لا. فقال: **«أديا زكاته، أيسرّكما أن تسوَّرا بهما سوارين من نار يوم القيامة؟»**[(١)]. فهذه أربعة من أصحاب رسول الله يروون عنه وجوب الزكاة في الحلي: ابن عمرو بن العاص، وأم سلمة، وعائشة، وأسماء بنت يزيد، وعضدوا هذا أيضاً بالقياس. وورد فيه آثار عن الصحابة أيضاً، كان عبدالله بن عمرو بن العاص يأمر خازنه أن يُخرج زكاة حلي بناته[(٢)].

واستدلوا بالقياس، قالوا: تجب الزكاة في الذهب والفضة في المصوغ منهما كما جازت في المسكوك والمسبوك، بجامع أن الكل أصله من ذهب وفضة، أصله من عين وجبت فيها الزكاة.

واحتجوا بوضع اللغة، قالوا: إن أصل الحلي المصوغ أصله يقال له ذهب وفضة، والصنعة لا تُذهب حكم الأصل، ولا تنقل اسمه من كل الوجوه.

هذا حاصل ما احتج به هؤلاء، وما احتج به هؤلاء، ومعلوم أن العقول إذا ازدحمت في مثل هذا وتشابهت الأدلة أن النبي ﷺ ألقى على

= زنجويه في الأموال (٣/٩٧٣ ـ ٩٧٤) وذكره ابن حزم في المحلى (٦/٧٩) وقال: «يحيى بن أيوب ضعيف» ا.هـ.

وقال الحافظ في التلخيص (٢/١٧٨): «وإسناده على شرط الصحيح» ا.هـ. وصححه الألباني في الإرواء (٣/٢٩٧)، صحيح أبي داود (١/٢٩١).

وانظر الكلام على الحديث في تنقيح التحقيق (٢/١٤٢٣، ١٤٢٧)، نصب الراية (٢/٣٧١).

(١) أخرجه أحمد (٦/٤٦١)، والبيهقي (٤/١٤١). وقد أعله ابن عبدالهادي في التنقيح (٢/١٤٢٣، ١٤٢٦) بشهر بن حوشب، وعبدالله بن عثمان بن خثيم، وعلي بن عاصم. وقال الحافظ في الدراية (١/٢٥٩): «وفي إسناده مقال» ا.هـ. وانظر: نصب الراية (٢/٣٧٢).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (٣/١٥٤)، وعبدالرزاق (٤/٨٤)، وأبو عبيد في الأموال ص٣٩٨، ٤٤٥، والدارقطني (٢/١٠٧)، والبيهقي في الكبرى (٤/١٣٩)، وابن زنجويه في الأموال (٣/٩٧٥). وانظر: نصب الراية (٢/٣٧٤).

مثل هذا أنواراً نبوية وأضواء عظيمة من ضوء النبوة تبين المخرج الصحيح منه، وهو قوله ﷺ: **«دع ما يريبك إلى ما لا يريبك»**[١]، **«فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه»**[٢] فلا ينبغي للإنسان إلا أن يزكي حلي امرأته وبناته للخروج من عهدة التكليف؛ لأن من زكاه لقي الله سالماً منه بلا نزاع، ومن [لم يزكه][٣] كان في قيل وقال، جماعة يقولون: لا عليك، وجماعة يقولون: إن زكاة الحلي واجب.

ومما يدخل تحت هذه المسألة: زكاة العروض المعدة للبيع والشراء[٤]. أجمع عامة علماء المسلمين على أن عروض التجارة تجب فيها

---

(١) أخرجه عبدالرزاق (٣/١١٧ ـ ١١٨)، والطيالسي ص١٦٣، والدارمي (٢/١٦١)، وأحمد (١/٢٠٠)، والترمذي في أبواب صفة القيامة، باب (٦٠). حديث رقم: (٢٥١٨) (٤/٦٦٨)، والنسائي في الأشربة، باب: الحث على ترك الشبهات. حديث رقم: (٥٧١١) (٨/٣٢٧)، والحاكم (٢/١٣) (٤/٩٩)، وقال: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه» ا.هـ. وابن حبان (الإحسان ٢/٥٢)، والطبراني (٣/٧٥ ـ ٧٦)، وأبو نعيم في الحلية (٨/٢٦٤)، وأبو يعلى (١٢/١٣٢). من حديث الحسن بن علي (رضي الله عنهما). وصححه الألباني في الإرواء (٧/١٥٥)، غاية المرام ص١٣٠ ـ ١٣١، المشكاة (٢/٨٤٥)، صحيح الترمذي (٢/٣٠٩)، ظلال الجنة ص١٧٩.

وللحديث شاهد من حديث واثلة بن الأسقع (رضي الله عنه) عند أبي يعلى (١٣/٤٧٦)، والطبراني (٢٢/٧٨) وقال في المجمع (١٠/٢٩٤): «وفيه عبيد بن القاسم وهو متروك» ا.هـ. ومن حديث أنس (رضي الله عنه) (موقوفاً) عند أحمد (٣/١١٢، ١٥٣).

ومن حديث ابن عمر عند الطبراني في الصغير (١/١٠٢) وعقبه بقوله: «تفرد به عبدالله بن أبي رومان» ا.هـ. قال الألباني في الإرواء (٧/١٥٦) وهو ضعيف، «وبقية رجاله ثقات» ا.هـ. وذكره الخطيب في التاريخ (٢/٢٢٠)، (٦/٣٨٦)، وأبو نعيم في الحلية (٦/٣٥٢). وقال الألباني في ضعيف الجامع (٢٩٧٤): موضوع.

(٢) أخرجه البخاري في الإيمان، باب: فضل من استبرأ لدينه. حديث رقم: (٥٢) (١/١٢٦). وأخرجه في موضع آخر برقم: (٢٠٥١)، ومسلم في المساقاة، باب: أخذ الحلال وترك الشبهات. حديث رقم: (١٥٩٩) (٣/١٢١٩).

(٣) في الأصل: «زكاه». وهو سبق لسان.

(٤) انظر: المبسوط (٢/١٩٠)، المحلى (٦/١١٤)، المجموع (٦/٤٧)، المغني (٤/٢٤٩ ـ ٢٦٢)، الموسوعة الفقهية (٢٣/٢٦٨)، الأضواء (٢/٤٥٧).

الزكاة، وأنها تُزكىٰ مثل زكاة العين، تُقَوَّم عند الحول، ما يُشترى منها بالذهب يُقوَّم بالذهب، وما يُشترى بالفضة يُقوَّم بالفضة. قال هذا بعض العلماء، ثم يخرج ربع عشرها، وهذا لا نعلم خلافاً فيه إلا شيء يُروى عن داود الظاهري وبعض أتباعه[١]. وأما عامة الصحابة، وفقهاء الأمصار، ومنهم الأئمة الأربعة، وأتباعهم، على وجوب الزكاة في عروض التجارة، واستدلوا لذلك بأدلة منها أحاديث جاءت بذلك عن النبي ﷺ منها: ما أخرجه الحاكم بإسنادين وقال: «كلاهما صحيح على شرط الشيخين» وأخرجه الدارقطني والبيهقي أن النبي ﷺ قال: **«في الإبل صدقتها، وفي الغنم صدقتها، وفي البقر صدقتها، وفي البزِّ صدقتها»**[٢] والبز: يشمل جميع ما يُلبس وهذه من عروض التجارة. وهذا الحديث فيه مناقشات طويلة عريضة معروفة يطول ذكرها. وجميع هذه المسائل قد بيّنا مناقشات العلماء فيها في الذهب والفضة، والتجارات، والمعادن، والديون في كتابنا أضواء البيان في الكلام على هذه الآية الكريمة من سورة براءة[٣].

والحاصل: أنه جاء عن أبي ذر وعن سمرة بن جندب الفزاري (رضي الله عنه) كلاهما جاء عنه حديث يدل على زكاة عروض التجارة، أما

---

(١) انظر: المحلى (١١٤/٦).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة (٢١٣/٣)، وأحمد (١٧٩/٥)، والترمذي في العلل الكبرى (٣٠٧/١) وعقبه بقوله: «سألت محمداً عن هذا الحديث فقال: ابن جريج لم يسمع من عمران بن أبي أنس. يقول: حُدِّثت عن عمران بن أبي أنيس» ا.هـ. وابن زنجويه في الأموال (٧٨٣/٢)، والبزار (٣٤٠/٩)، والبيهقي (١٤٧/٤)، والحاكم (٣٨٨/١) وقال: «على شرط الشيخين ولم يخرجاه» ا.هـ. وتعقبه ابن عبدالهادي في التنقيح (١٤٣٨/٢) بقوله: «وفيه نظر» ا.هـ. وأخرجه الدارقطني (١٠١/٢ ـ ١٠٢). (بألفاظ متقاربة).
والحديث ضعفه ابن القطان في بيان الوهم والإيهام (٣٨٨/٢)، (٥٥/٥ ـ ٥٦)، وذكر له الحافظ في التلخيص (١٧٩/٢) أربعة طرق ـ وهي عند الدارقطني ـ فضعف ـ الحافظ ـ ثلاثة منها وقال عن الرابع: «وهذا إسناد لا بأس به» ا.هـ.
وقال عن الحديث في الدراية (٢٦٠/١): «وإسناده حسن» ا.هـ.
وانظر في الكلام عليه في: تنقيح التحقيق (١٤٣٦/٢ ـ ١٤٣٧)، إتحاف المهرة (١٨١/١٤) نصب الراية (٣٧٦/٢)، أضواء البيان (٤٥٨/٢).

(٣) الأضواء (٤٣٤/٢) فما بعدها.

حديث أبي ذر فقد ذكرناه. وأما حديث سمرة بن جندب الذي رواه عنه أبو داود أن النبي ﷺ كان يأمرنا أن نخرج الزكاة مما نعد للبيع[١]. وفي مناقشات طويلة عريضة، فمن مضعِّف ومصحح، وجماعة صححوا حديث الحاكم، وصححه الحاكم، وانتصر كثير لتصحيحه، ولا شك أنه معتضد بإجماع المسلمين في عهد الصحابة فمن بعدهم على أن عروض التجارة تجب فيها الزكاة. وقد ثبت عن عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) أنه أخذ زكاة الجلود من حِمَاس، فعن أبي عمرو بن حِمَاس أن أباه مرَّ بعمر بن الخطاب يحمل جلوداً فقال: هل أديت زكاة هذا؟ ـ في جلود يتَّجر بها ـ فقال: لا، قال: هذا مال، فحسبوه فوجدوا الزكاة قد وجبت فيه، فأخذ منه زكاة الجلود[٢]. فهذا ثابت عن عمر بن الخطاب ولم يخالفه أحد من الصحابة فالتحقيق الذي لا شك فيهَ وجوب الزكاة في عروض التجارة.

---

(١) أخرجه أبو داود في الزكاة، باب: العروض إذا كانت للتجارة هل فيها من زكاة؟ حديث رقم: (١٥٤٧) (٤/٤٢٤)، والدارقطني (٢/١٢٧)، والبيهقي في الكبرى (٤/١٤٦ ـ ١٤٧)، والصغرى (١/٣٢٧)، والطبراني في الكبير (٧/٢٥٣، ٢٥٧)، وذكره ابن حزم في المحلى (٥/٢٣٤) وقال: «أما حديث سمرة فساقط؛ لأن جميع رواته ما بين سليمان بن موسى وسمرة (رضي الله عنه) مجهولون لا يُعرف من هم» ا.هـ. وقال الهيثمي في المجمع (٣/٦٩): «في إسناده ضعف» ا.هـ. وقال الذهبي في الميزان (١/٤٠٨) عن سلسلة هذا الإسناد: «وبكل حال هذا إسناد مظلم لا ينهض بحكم» ا.هـ.

وقال ابن عبدالهادي في التنقيح (٢/١٤٣٥): «انفرد أبو داود بإخراج هذا الحديث وإسناده حسن غريب» ا.هـ. والحديث سكت عنه أبو داود والمنذري، وحسنه ابن عبدالبر، وضعفه الحافظ في التلخيص (٢/١٧٩)، والدراية (١/٢٦٠) والألباني في التعليق على المشكاة (١/٥٦٨)، ضعيف أبي داود ص١٥٤.

وانظر: بيان الوهم والإيهام (٥/١٣٩)، إتحاف المهرة (٦/٣٠)، تنقيح التحقيق (٢/١٤٣٥) التعليق المغني على الدارقطني (٢/١٢٧ ـ ١٢٨)، أضواء البيان (٢/٤٥٩ ـ ٤٦٠).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة (٣/١٨٣)، والشافعي (شفاء العي بتخريج وتحقيق مسند الشافعي (١/٤١٤)، وفي الأم (٢/٤٦)، وأبو عبيد في الأموال ص٣٨٤، وعبدالرزاق (٤/٩٦)، والبيهقي (١/٣٢٧)، وابن زنجويه في الأموال (٣/٩٤١ ـ ٩٤٢)، وذكره ابن حزم في المحلى (٥/٢٣٤ ـ ٢٣٥) وقال: «وأما حديث عمر فلا يصح؛ لأنه عن أبي عمرو بن حماس عن أبيه، وهما مجهولان» ا.هـ. وانظر: تلخيص الحبير (٢/١٨٠).

أما زكاة الديون، وهل تمنع الديون الزكاة من المال أو لا[1]؟ فليس في ذلك شيء عن النبي ﷺ؛ لأنه لم يرد عن رسول الله شيء في زكاة الدين، ولا هل هو مسقط للزكاة أو لا؟ والعلماء مختلفون فيه، فاختلفوا في زكاة الدين، فكان مالك بن أنس ـ رحمه الله ـ يرى على التاجر المدير[2] أن يزكي دينه، يزكي الحالّ منه على الموسرين بالعدد، والمؤجل يزكيه بالقيمة؛ لأنه يزكي الدين مع عروض التجارة. وإذا كان الدين على حال مليء موسر مقر وعليه بينة فمالك يقول: إن مثل هذا كمثل الشيء الذي في صندوقه؛ لأن القدرة على التحصيل حصول، فيزكيه بالعدد، وهذا مذهب الشافعي. وقال آخرون: لا يزكيه إلا إذا قبضه. في تشاعيب وأقوال معروفة.

وهل يُسقط الدينُ الزكاة أو لا[3]؟ لا نص فيه عن رسول الله ﷺ، والعلماء مختلفون فيه، وأقوالهم مع كثرتها متشابهة ترجع إلى ثلاثة مذاهب: قوم قالوا: إن الدين لا يسقط شيئاً من الزكاة، وقوم قالوا: يسقطها كلها. وقوم فرقوا بين الأموال الظاهرة والباطنة، قالوا: يُسقط الدين الزكاة في الأموال الباطنة. والأموال الباطنة: هي الذهب، والفضة، وعروض التجارة، فهذه يسقطها الدين. والأموال الظاهرة: هي المواشي، والثمار، والحبوب، والمعادن، قالوا: زكاة هذه لا يسقطها الدين؛ لأنها ظاهرة، والزكاة واجبة في عينها في أقوال معروفة.

ومن المسائل التي اختلفوا فيها: زكاة المعادن[4]، وقدر الواجب فيها،

---

(١) انظر: المبسوط (٢/١٩٤)، المحلى (٦/١٠٣)، المجموع (٦/٢٠)، المغني (٤/٢٦٩)، الموسوعة الفقهية (٢٣/٢٣٨).

(٢) قال في الأضواء (٢/٤٥٧): «فالمدير: هو الذي يبيع ويشتري دائماً، والمحتكر: هو الذي يشتري السلع ويتربص بها حتى يرتفع سعرها، وإن لم يرتفع سعرها لم يبعها ولو مكثت سنين» ا.هـ.

(٣) انظر: المبسوط (٢/١٩٧)، المحلى (٦/٩٩، ١٠١)، المغني (٤/٢٦٣)، الموسوعة الفقهية (٢٣/٢٤٥)، أضواء البيان (٢/٤٦٢).

(٤) انظر: المحلى (٦/١٠٨)، المجموع (٦/٧٥)، القرطبي (٣/٣٢٣ ـ ٣٢٤)، المغني (٤/٢٣٨)، الموسوعة الفقهية (٣٨/١٩٧)، أضواء البيان (٢/٤٦٦).

فذهب مالك والشافعي أنه: لا يجب في زكاة المعادن إلا في معدن الذهب والفضة خاصة؛ لأن الذهب والفضة من الذين فيهما الزكاة، وجمهور العلماء منهم مالك والشافعي وأحمد على أن زكاة المعدن ربع العشر، وفي مذهب مالك والشافعي: أن المعدن إذا كان معدن ذهب أو فضة كل ما يخرج منه من ذهب وفضة أُديت منه زكاته حالًا ولم يُنتظر به الحول، وهي ربع العشر، ولا زكاة عندهما في معدن إلا إذا كان ذهباً أو فضة. وكان الإمام أحمد بن حنبل (رحمه الله) يقول: تجب الزكاة في جميع المعادن، سواء كانت من الذهب والفضة، أو من الحديد، والنحاس، والرصاص، أو الزجاج، والزرنيخ، وسائر المعادن، حتى المعادن السائلة كالقار، والنفط، فإنها تجب فيها الزكاة عنده، فزكاتها عنده ربع العشر.

أما الإمام أبو حنيفة (رحمه الله) فإن الواجب عنده من المعادن الخُمس؛ لأنه يرى الخُمس من الركاز، وقد جاء في ذلك حديث أنه ﷺ سئل عن الركاز؟ وأنه قال: «**الذهب والفضة المخلوقان في الأرض يوم خلق الله السماوات والأرض**»[1]، وهذا الحديث لا يصح.

---

(١) أصل الحديث (وهو قوله ﷺ: «**في الركاز الخُمس**») متفق عليه، والزيادة المذكورة عند البيهقي في الكبرى (٤/١٥٢) وعقبه بقوله: «تفرد به عبدالله بن سعيد المقبري وهو ضعيف جداً جرحه أحمد بن حنبل ويحيى بن معين وجماعة من أئمة الحديث. وقال الشافعي: في رواية أبي عبدالرحمٰن الشافعي البغدادي عنه: قد روى أبو سلمة وسعيد وابن سيرين ومحمد بن زياد وغيرهم عن أبي هريرة حديثه عن النبي ﷺ: «**في الركاز الخُمس**» ولم يذكر أحد منهم شيئاً من الذي ذكر المقبري في حديثه، والذي روى ذلك شيخ ضعيف إنما رواه عبدالله بن سعيد المقبري، وعبدالله قد اتقى الناس حديثه فلا يُجعل خبر رجل قد اتقى الناس حديثه حجة» ا.هـ. وأخرجه أبو يعلى (٦٦٠٩) بنحوه. وذكره الهيثمي في المجمع (٣/٧٨) وقال: «فيه عبدالله بن سعيد بن أبي سعيد وهو ضعيف» ا.هـ. وذكره ابن عدي في الكامل (٢/٨٣٣) وقال: «هذا الحديث أخطأ إبراهيم بن راشد على الدولابي... والبلاء في هذا الحديث من إبراهيم بن راشد لا من الدولابي ولا من ابن حبان» ا.هـ. وذكره ابن الجوزي في العلل المتناهية (٢/٩) بلفظ أبي يعلى وقال: «قال الدارقطني: هذا وهم؛ لأن هذا ليس من حديث الأعمش ولا من حديث أبي صالح، إنما يرويه رجل مجهول عن آخر عن أبي هريرة» ا.هـ. وانظر: تلخيص الحبير (٢/١٨٢)، نصب الراية (٢/٣٨٠).

ولا تجب الزكاة في المعادن عند أبي حنيفة إلا فيما ينطبع منها كالذهب، والفضة، والحديد، والنحاس، والرصاص، وما جرى مجرى ذلك. ومن ذلك قول له وجه من النظر قالت به جماعات من العلماء: أن المعدن إذا كان في استخراجه كلفة ونفقات أن زكاته ربع العشر، وإذا كان يخرج بلا كلفة ولا مشقة أن زكاته الخمس.

وأجمع المسلمون على أن الركاز فيه الخمس[1]، واشترط الشافعي أن يكون الركاز من ذهب أو فضة، وعامة العلماء على خلافه، والركاز عند غير أبي حنيفة: دفن جاهلي، وعند أبي حنيفة يشمل جميع المعادن. هذه أقوال العلماء ذكرناها مختصرة، وقد أوضحناها في كتابنا الذي أشرنا إليه.

(. . .)[2] بهمزة محققة، وقرأه ورش وحده عن نافع: **﴿إنما النسيُّ زيادة في الكفر﴾** [التوبة: آية ٣٧] بياء مشددة، وما زعمه بعضهم - وقال به ابن جرير - من أن قراءة ورش هذه عن نافع غلط[3]. خلاف التحقيق، بل هي قراءة سبعية صحيحة لا كلام فيها، قرأ بها ورش عن نافع **﴿إنما النَّسِيّ زيادة في الكفر﴾** أبدلت الهمزة ياء، ثم أُدغمت الياء في الياء كما يقرأ بعض القراء: **﴿النبيء﴾** بالهمزة وبعضهم يقرأ **﴿النبيّ﴾**[4] بتشديد الياء[5].

وقرأ قوله: **﴿يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾** قرأه نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن

---

(١) انظر: المجموع (٧٥/٦)، القرطبي (٣٢٢/٣ - ٣٢٤)، المغني (٢٣١/٤ - ٢٣٨)، الموسوعة الفقهية (٩٨/٢٣)، أضواء البيان (٤٦٩/٢).

(٢) ذهب جزء من التسجيل في هذا الموضع، ويمكن أن نستدرك بعض النقص فننقل القراءات الواردة في **﴿النسيء﴾** عن كتاب «السبعة» لابن مجاهد ص٣١٤، حيث يقول: «اتفقوا على همز **﴿النَّسِيء﴾** ومده وكسر سينه، إلا ما حدثني به محمد بن أحمد بن واصل، عن محمد بن سعدان، عن عبيد بن عقيل، عن شبل، عن ابن كثير أنه قرأ: **﴿إنما النَّسْءُ زيادة﴾** في وزن (النَّشْعُ). وحدثني ابن أبي خيثمة، وإدريس، عن خلف، عن عبيد، عن شبل، عن ابن كثير أنه قرأ: **﴿إنما النَّسِيُّ﴾** مشددة الياء غير مهموزة. وقد رُوي عن ابن كثير: **﴿النَّسْيُ﴾** بفتح النون وسكون السين وضم الياء مخففة. والذي قرأت به على قنبل: **﴿النَّسِيءُ﴾** بالمد والهمز مثل أبي عمرو. والذي عليه الناس بمكة: **﴿النَّسِيءُ﴾** ممدودة» ا.هـ.

(٣) تفسير ابن جرير (٢٤٤/١٤).

(٤) تقدمت عند تفسير الآية (١١٢) من سورة الأنعام.

(٥) انظر: البحر المحيط (٣٩/٥)، الدر المصون (٤٦/٦).

عامر وشعبة عن عاصم: ﴿يَضِلُّ به الذين كفروا﴾ بفتح الياء وكسر الضاد، مضارع (ضَلَّ يَضِلُّ) مجرداً لازماً، وقرأه حمزة والكسائي وحفص عن عاصم: ﴿يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ بضم الياء وفتح الضاد مبنياً للمفعول[١].

أما قراءة ﴿يَضَلُّ به الذين كفروا﴾ و﴿يُضِلُّ به الذين كفروا﴾ فليستا سبعيتين[٢].

وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو: ﴿زُين لهم سُوءُ وَعمالهم﴾ بإبدال الهمزة الثانية واواً. وقرأه غيرهم من السبعة: ﴿سُوٓءُ أَعْمَٰلِهِمْ﴾ بتحقيق الهمزة الثانية[٣]. هذه هي القراءات السبعية في الآية.

وسبب نزول هذه الآية الكريمة هو ما أشرنا إليه بالأمس أن الكفار كانوا يتلاعبون في الأشهر الحرم[٤]، وبعضهم يقول: في أشهر الحج، فيحرمون منها ما لم يحرمه الله، ويحلون ما لم يحلله الله[٥]. فبيّن (جلّ وعلا) في هذه الآية أن ذلك كفر على كفر، أنه كفر ازدادوا به كفراً على كفرهم الأول.

والعلماء مختلفون في أول من سنّ هذه السنة السيئة الخبيثة، وهي سنة النسيء. فكان بعض العلماء يقول: أول من أحدثه الملعون عمرو بن لحي بن قمعة بن إلياس بن مضر، وهو الخبيث الذي هو أول من جاء بالأصنام إلى جزيرة العرب، وهو أول من بحّر البحائر فيها، وسيَّب السوائب، وغيّر معالم دين إبراهيم التي كانت في جزيرة العرب عليه لعائن الله[٦].

وأكثر المؤرخين يقولون: إن أول من سنّ هذه السنّة القبيحة قوم من بطن من بني كنانة يسمى بني فقيم، وهم من أولاد مالك بن كنانة، يزعم العرب أنهم كانوا متمسكين بدين إبراهيم، وكانوا يشرعون لهم ما شاؤوا،

---

(١) انظر: السبعة ص٣١٤.

(٢) انظر: المحتسب (٢٨٨/١ ـ ٢٨٩).

(٣) انظر: الإتحاف (٩١/٢).

(٤) كما أخرج ذلك ابن جرير (٢٤٥/١٤) من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٥) أخرج ذلك ابن جرير (٢٤٨/١٤) عن مجاهد.

(٦) انظر: القرطبي (١٣٨/٨).

ويتبعونهم فيما شاؤوا، يقال: إن أول من فعل ذلك منهم رجل يسمى نعيم بن ثعلبة[١].

والذي قاله غير واحد من المؤرخين وأوضحه ابن إسحاق في سيرته أن أول من فعل هذا منهم رجل يُسمى القَلَمَّس. والدليل على ذلك موجود في أشعارهم. واسم القَلَمَّس هذا حذيفة بن عبيد بن فقيم، وبنو فقيم بطن من بني مالك بن كنانة. كان هذا الرجل الذي هو حذيفة المعروف بالقلمّس يقول لهم: سأؤخر عنكم تحريم المحرّم وأنسؤه إلى صفر، فاذهبوا فقاتلوا في المحرّم فإني حولت حرمته إلى صفر. فهم يتبعونه، ثم لما مات القَلَمَّس قام بهذا الأمر بعده ابنه العباد بن القَلَمَّس، فكان يحل لهم هذا التحليل وهذا التحريم، ثم لما مات العباد قام به بعده ابنه قَلَعُ بن عباد، ثم لما مات قام به بعده ابنه أمية بن قَلَع بن عباد، ثم لمّا مات قام به بعده ابنه عوف بن أمية، ثم لمّا مات قام به بعده ابنه جنادة بن عوف المعروف بأبي ثمامة، كنيته ككنية مسيلمة الكذاب، وهو الذي قام عليه الإسلام وهو بهذه السُّنة السيئة الخبيثة. كانوا إذا انتهت أيام حجهم وانقضت أيام منى ذهبوا إلى هذا الرجل الذي هو أبو ثمامة جنادة بن عوف بن أمية الكناني فيقول: أنا الذي لا يُعاب ولا يُجاب، ولا مرد لما أقول، أخَّرت عنكم تحريم المحرم إلى صفر[٢]. فيتبعونه، فجاء الإسلام بتغيير هذا ورد كل شيء إلى محله.

وقد ذكرنا بالأمس أن العلماء اختلفوا في الأشهر الحرم هل حرمتها باقية إلى الآن؟ ويكون من نسأ النسيء الآن ازداد كفراً وفعل كفراً. أو هي منسوخة ولا تحريم في الأشهر الحرم، وأن قتال العدو يجوز في جميع الأشهر[٣]؟ وذكرنا بالأمس أن المشهور عند العلماء الذي عليه الأكثر أنه قد نُسخ تحريم الأشهر الحرم، واستدلوا على ذلك بظواهر

---

(١) السابق.

(٢) أخرجه ابن جرير من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس (٢٤٥/١٤). وذكره ابن هشام في السيرة ص٥٦.

(٣) مضى عند تفسير الآية (٥) من سورة التوبة.

آيات ليست صريحة في ذلك، ومن أصرح ما استدلوا به هو ما ذكرنا من أنه ثبت في الصحيحين أن النبي ﷺ حاصر ثقيفاً في غزوة الطائف بعضاً من ذي القعدة[١]. وهذا ثابت في الصحيحين ثبوتاً لا مطعن فيه. قالوا: لم تنسخ لما حاصر النبي ﷺ ثقيفاً في ذي القعدة وهو شهر حرام. وقد ذكرنا بالأمس أن الذي كان يظهر لنا وننصره أن تحريم الأشهر الحرم قد نُسخ، وأن الذي تحققناه بعد ذلك وصرنا نجزم به أنها باقية التحريم إلى الآن، ولم يُنسخ تحريمها، كما كان يقسم عليه عطاء بن أبي رباح (رحمه الله)، كان يحلف أن حرمتها باقية[٢]. ومن أصرح الأدلة في ذلك هو الحديث الذي أشرنا إليه أمس؛ لأن النبي ﷺ خطب به يوم النحر في حجة الوداع عام عشر، ولم يعش بعد ذلك إلا نحو ثمانين يوماً، وقد صرّح فيه بأن ذلك الشهر حرام، وذلك اليوم حرام، وذلك البلد حرام[٣]، ولم يأت بعد ذلك شيء ينسخ هذا التحريم الثابت عنه (صلوات الله وسلامه عليه).

وهذه الآية الكريمة قبل أن نشرع في تفسيرها نشير إلى أن فيها حكماً يجب على كل مسلم أن يعتبر به وينظره؛ لأن هؤلاء القوم كفار، كانوا يسجدون للأصنام، فلما أحلّ لهم رجل شيئاً حرّمه الله، وحرّم عليهم شيئاً أحلّه الله، وهم يعلمون أن الله حرّم تلك الأشهر الحُرم، ولا يشكون في ذلك، وأن هذا الرجل الكناني أحلّ لهم ما حرّمه الله، وحرّم عليهم ما أحلّه الله، فاتبعوا تحريم هذا الإنسان، فصرّح الله بأن هذا كفر جديد ازدادوه إلى كفرهم الأول. فهذه الآية الكريمة من سورة براءة من أصرح النصوص القرآنية في أن كل من اتبع نظاماً غيرَ نظام الله، وتشريعاً غير تشريع الله، وقانوناً غير قانون الله، أنه كافر بالله، إن كان يزعم الإيمان فقد كفر، وإن كان كافراً فقد ازداد كفراً جديداً إلى كفره الأول. والآيات الدالة على هذا

---

(١) السابق.

(٢) أخرجه أبو عبيد في الناسخ والمنسوخ ص(٢٠٧)، والنحاس في الناسخ والمنسوخ (٥٣٥/١)، وابن جرير (٣١٤/٤).

(٣) مضى عند تفسير الآية (٥) من هذه السورة.

المعنى لا تكاد تحصيها في هذا المصحف الكريم، الذي هو أعظم كتاب أنزله الله من السماء إلى الأرض، وهو آخر كتاب أنزله الله على أكرم نبي، وآخر نبي جمع فيه له علوم الأولين والآخرين. وسنذكر لكم طرفاً من ذلك كما ذكرناه قبل هذا مراراً[(١)] نبين به أن الحلال هو ما أحلّه الله، والحرام هو ما حرّمه الله، والدين هو ما شرعه الله، وأن كل من اتبع نظاماً وتشريعاً وقانوناً ـ ولو سماه ما سماه ـ غير ما أنزله الله في وحيه على نبيه ﷺ أنه كافر بذلك، فإن كان كافراً قبله ازداد كفراً جديداً إلى كفره الأول، وإن كان يزعم الإيمان فقد جاء بما يكفر به. ومن أصرح الأدلة في هذا: المناظرة العظيمة المشهورة التي وقعت بين الكفار والمسلمين في حكم من أحكام الحلال والحرام، فالمسلمون يقولون: إن هذا الأمر حرام. ويستدلون بنص من نصوص الوحي. وحزب الشيطان وتلامذته وأتباعه يقولون: إن هذا الحكم حلال. ويستدلون على ذلك بفلسفة من وحي الشيطان. ويأتي كل منهم بدليله، فلما تحاجوا وتخاصموا وحصل الجدال بينهم في ذلك أفتى الله تعالى بنفسه فتوى سماوية تُتلى علينا قرآناً في سورة الأنعام، وإيضاح هذا: أن الشيطان ـ لعنه الله ـ جاء كفار قريش وقال لهم: سلوا محمداً ﷺ عن الشاة تصبح ميتة، من هو الذي قتلها؟ فأجابهم: الله قتلها. فقالوا: إذن ما ذبحتموه بأيديكم حلال، وما ذبحه الله بيده الكريمة بسكين من ذهب تقولون: هو حرام، فأنتم إذن أحسن من الله!! فأنزل الله في ذلك بإجماع العلماء في سورة الأنعام هذه الفتوى السماوية بعد أن بيّن الله خصام المتخاصمين فيها فقال: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ الميتة. وإن زعم حزب الشيطان أنها ذبيحة الله، وأن ما قتله الله أحلّ مما قتله الناس. ثم قال: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ﴾ الضمير في قوله: ﴿إِنَّهُۥ﴾ راجع إلى المصدر الكامن في جوف الفعل الصناعي في قوله: ﴿تَأْكُلُوا۟﴾ أي: وإنه أي: الأكل من الميتة ﴿لَفِسْقٌ﴾ أي: خروج عن طاعة الله، وإن زعم حزب الشيطان أنها ذبيحة الله، وأن ما قتله الله أحلّ وأطهر مما قتله الناس. ثم قال: ﴿وَإِنَّ

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٧) من سورة الأنعام.

﴿ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ لِيُجَٰدِلُوكُمۡۖ﴾ ﴿لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ﴾ وحي الشيطان ﴿لِيُجَٰدِلُوكُمۡۖ﴾ بالوحي الشيطاني، وهو قولهم: ما ذبحتموه حلال، وما قتله الله حرام، فأنتم إذاً أحسن من الله!! ثم أفتى الله الفتوى السماوية التي تتردد في آذان الخلق مساءً وصباحاً بقوله: ﴿وَإِنۡ أَطَعۡتُمُوهُمۡ إِنَّكُمۡ لَمُشۡرِكُونَ﴾ [الأنعام: آية ١٢١] وإن أطعتم أتباع الشيطان في تحليل ما حرّمه الله ﴿إِنَّكُمۡ لَمُشۡرِكُونَ﴾ بالله شركاً أكبر، كما قال في هؤلاء ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٞ فِي ٱلۡكُفۡرِۖ﴾ [التوبة: آية ٣٧] وهذا الشرك شرك أكبر مخرج عن الملة؛ لأنه شرك طاعة، وشرك الطاعة شرك في الحكم، والشرك في الحكم كالشرك في العبادة لا فرق بينهما البتة؛ لأن الله هو الملك الجبار العظيم الأعظم لا يرضىٰ أن يكون معه شريك في عبادته ولا أن يكون معه شريك في حكمه سبحانه (جلّ وعلا) أن يكون له شريك في عبادته أو شريك في حكمه، وقد بيّن هذين الأمرين في سورة واحدة من كتابه وهي سورة الكهف، فقال في الإشراك به في عبادته: ﴿فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا﴾ [الكهف: آية ١١٠] وقال في الإشراك به في حكمه: ﴿لَهُۥ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ أَبۡصِرۡ بِهِۦ وَأَسۡمِعۡۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيّٖ وَلَا يُشۡرِكُ فِي حُكۡمِهِۦٓ أَحَدٗا﴾ [الكهف: آية ٢٦] فمن اتخذ تشريعاً غير تشريع الله، واتبع نظاماً غير نظام الله، وقانوناً غير ما شرعه الله ـ سواءً سماه نظاماً أو دستوراً، أو سماه ما سماه ـ هو كافر بالله؛ لأنه يقدم ما شرعه الشيطان على ألسنة أوليائه مما جُمع من زبالات أذهان الكفرة على نور السماء الذي أنزله الله (جلّ وعلا) على رسله ليُستضاء به في أرضه، وتنشر به عدالته وطمأنينته ورخاؤه في الأرض.

وهذا مما لا نزاع فيه، وهذا الشرك الذي هو شرك اتباع، اتباع قانونٍ ونظام وتشريع هو الذي يوبخ الله مرتكبه يوم القيامة على رؤوس الأشهاد في سورة يس في قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ...﴾ [يس: آية ٦٠] ما عبدوا الشيطان بأن سجدوا للشيطان، ولا ركعوا للشيطان، ولا صاموا له، ولا صلوا، وإنما عبادتهم للشيطان هي اتباع ما سنّ لهم من النظم والقوانين من الكفر بالله ومعاصي الله. ثم قال: ﴿وَأَنِ

ٱعْبُدُونِيۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ۝٦١ وَلَقَدۡ أَضَلَّ مِنكُمۡ جِبِلّٗا كَثِيرًاۖ﴾ [يس: الآيتان ٦١، ٦٢] أي: خلائق كثيرة لا تحصىٰ.

ثم وبخ عقولهم فقال: ﴿أَفَلَمۡ تَكُونُواْ تَعۡقِلُونَ﴾ [يس: آية ٦٢] ثم ذكر المصير النهائي للذي كان يتبع نظام إبليس، وقانون الشيطان في دار الدنيا ذكر مصيره النهائي في قوله: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ۝٦٣ ٱصۡلَوۡهَا ٱلۡيَوۡمَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ۝٦٤﴾ الآيات [يس: الآيتان ٦٣، ٦٤]. وهذا هو معنىٰ قول إبراهيم: ﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ﴾ [مريم: آية ٤٤] أي: لا تتبع ما شرع لك الشيطان وسنه من الكفر بالله، ومعاصي الله، وهو معنىٰ قوله: ﴿إِن يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثٗا وَإِن يَدۡعُونَ إِلَّا شَيۡطَٰنٗا﴾ [النساء: آية ١١٧] أي: ما يدعون إلا الشيطان، وهو دعاء عبادة باتباع نظامه وتشريعه. وهو أصحّ الوجهين في قوله (جلّ وعلا) في الملائكة: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ﴾ [سبأ: آية ٤٠] لأن الملائكة قالوا: ﴿بَلۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٱلۡجِنَّۖ﴾ [سبأ: آية ٤١] أي: يتبعون الشياطين ويعبدونهم باقتفاء ما يسنون لهم من القوانين والنظم، وهذا أمرٌ لا نزاع فيه، فكل من يتبع نظام أحد وتشريع أحد وقانونه فهو متخذه رباً؛ ولذا جاء في الحديث المشهور عن عدي بن حاتم (رضي الله عنه) أنه لما جاء النبي ﷺ وكان في عنق عدي صليب فقال له النبي: «**يا عديّ ألق هذا الوثن من عنقك**» وصادفه يقرأ سورة براءة هذه، سمعه يقول: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: آية ٣١] وكان عدي نصرانياً في الجاهلية فقال: ما كنا نتخذهم أرباباً. فأجابه النبي بما معناه: ألم يحلوا لكم ما حرّم الله ويحرّموا عليكم ما أحلّ الله فتتبعوهم؟ قال: بلىٰ. قال: تلك عبادتهم، وبذلك اتخذتموهم أرباباً[(١)].

فهذه الآيات الكريمة تدل على أن كل من يتبع نظاماً غير نظام الله وإن سماه قانوناً أو دستوراً أو سماه ما سماه فهو كافرٌ بالله، ولو كان كافراً قبل ذلك وارتكب شيئاً يعلم أن الله حرّمه فحلّل ما يعلم أن الله حرّمه، أو حرّم

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٧) من سورة الأنعام.

ما يعلم أن الله حلّله، فإنه ولو كان كافراً قبل هذا يزداد بذلك كفراً جديداً إلى كفره الأول، كما قال هنا: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٞ فِي ٱلۡكُفۡرِۖ﴾ [التوبة: آية ٣٧] وهذا معروف لا نزاع فيه بين العلماء، فالحلال هو ما أحلّه الله، والحرام هو ما حرّمه الله، والدين هو ما شرعه الله، ولا تشريع إلا للّه؛ لأن التشريع والأمر والنهي لا يكون إلا للسلطة التي ليس فوقها شيء، والله (جلّ وعلا) هو خالق هذا الخلق، وخالق النعم التي أنعم بها عليه، فهو الملك فلا يرضىٰ أن يأمر فيه غيره وينهىٰ، بل الأمر له وحده، والنهي له وحده، والتشريع له وحده، فكل مشرع دونه ضال، وكل متبع تشريعاً غير تشريعه فهو كافر به - جلّ وعلا - وقد بيّن الله (جلّ وعلا) في آيات كثيرة هذا المعنىٰ، فكان قوم في زمن النبي ﷺ أرادوا أن يتحاكموا إلى غير شرع الله، وادَّعوا أنهم مؤمنون فعجَّب الله نبيه من كذب دعواهم، وأن دعواهم الإيمان لا تصحّ بوجه من الوجه مع إرادتهم التحاكم إلى غير الله، وذلك في قوله: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزۡعُمُونَ أَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدۡ أُمِرُوٓاْ أَن يَكۡفُرُواْ بِهِۦۖ وَيُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمۡ ضَلَٰلَۢا بَعِيدٗا ٦٠﴾ [النساء: آية ٦٠] فعجبه من دعواهم الإيمان وهم يريدون التحاكم إلى غير ما شرعه الله، وهذا لا يخفىٰ، وأقسم الله (جَل وعلا) في آية من كتابه أنه لا يؤمن أحدٌ حتى يكون متبعاً في قرارة نفسه لما جاء به سيّد الرسل محمد (صلوات الله وسلامه عليه) وذلك بقوله: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا ٦٥﴾ [النساء: آية ٦٥] هذا قسم من الله أقسم به ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ﴾ فما ظنكم بالذين يحكمون فيما شجر بينهم قانون نابليون وما جرىٰ بعده من زبالات أذهان الكفرَة؟ ألا ترون أن الله أقسم في هذه الآية من سورة النساء أنهم لا يؤمنون؟ ومن أصدق من الله قيلًا ومن أصدق من الله حديثاً؟ فعلىٰ كل مسلم أن يعلم أن الحاكم هو الله، وأن الحكم للّه وحده، وأنه لا يُحلّ إلا الله، ولا يُحرم إلا الله، فلا حلال إلا ما أحلّه الله، ولا حرام إلا ما حرّمه الله على لسان رسوله ﷺ، ولا دين إلا

ما شرعه الله. فما عمّت به البلوىٰ من انصراف جلّ من في المعمورة عن نور السماء الذي أنزله الله على سيّد خلقه وأعظم رسله، موضحاً له في أعظم كتاب أنزله من سمائه إلى أرضه، منصرفين عن هذا مع وضوح أدلته وقيام براهينه وصيانته لمقومات الناس؛ لأن القرآن العظيم والسنّة النبوية المبينة له جاء فيهما غاية الحفاظ على جميع مقومات الإنسان في دار الدنيا والآخرة، ولا سيّما الجواهر الستة التي يدور عليها نظام العالم في الدنيا ونظام العدالة والجور فيه، وهذه الأمور الستة لا يوجد شيء أشد محافظة عليها مما جاء به سيد الخلق محمد (صلوات الله وسلامه عليه)، ونعني بهذه الستة التي أشرنا إليها: المحافظة على الدين السماوي الذي هو الصلة بين السماء والأرض وبين الله وخلقه، ثم المحافظة على الأنفس من القتل والإزهاق، ثم المحافظة على الأنساب من الضياع والاختلاط وتقذير الفرش، ثم المحافظة على العقول من الضياع؛ لأن العقول إذا ضاعت صار المجتمع حيوانات يضرب بعضه بعضاً، ثم المحافظة على الأموال، ثم المحافظة على الأعراض. فدين الإسلام جاء بأعظم حياطة وصيانة للدين، وحياطة وصيانة للنفس، وحياطة وصيانة للعقل، وحياطة وصيانة للنسب، وحياطة وصيانة للمال، وحياطة وصيانة للعرض، وستأتي هذه الأشياء في هذه الدروس كُلٌّ في محله، وقد قدمنا ما جاء منها.

فهذا دين الإسلام الذي بيّن الله فيه كل شيء، وحافظ فيه على جميع المقومات، وأعطىٰ فيه الأجسام حقوقها، والأرواح حقوقها، وأرشد الإنسان إلى عملٍ مزدوج يقوم به الإنسان معاوناً جسمُه روحَه، وروحُه جسمَه؛ لأن من أخلّ بناحية الجسم أهمل، ومن أخلّ بناحية الروح فهو أضيع وأضيع. فعلينا جميعاً أن نعلم أنه لا بدّ من اتباع شرع الله ودين الله، وأن من طلب تشريعاً وتحليلاً وتحريماً في غير ما شرعه الله فهو ليس على دين الإسلام، أحرىٰ أن يكون من المؤمنين الذين يقولون: إن الله ينصرهم وأنه معهم وهم أعداؤه، وقد بيّن الله في القرآن أن الذي له التحريم والتحليل، والأمر والنهي لا يكون إلا له صفات ...ست كصفات خلقه، بل صفاته مميزة عظيمة لائقة به دالة على أنه هو الذي يأمر وينهىٰ ويحلل ويحرّم، كقوله تعالى:

﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ وكأنه قال: أتريدون أن تعرفوا صفات من يكون له الحكم في الأشياء ولا يُصْدَر في حكم إلا عنه ما هي؟ ثم بينها في قوله: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [الشورى: آية ١٠] ثم بيّن صفات من له الحكم ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾ فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾ لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ [الشورى: الآيات ١٠ ـ ١٢] هذه صفات من له الحكم، أما الكفَرَة الفجَرَة الخنازير أبناء الكلاب فليس لهم أن يحكموا في بلاد الله، ولا في عباد الله، ويحرموا ما شاؤوا ويحللوا ما شاؤوا، فمتبعهم هو أعمىٰ الناس بصيرة وأضلهم سبيلاً.

خفافيشُ أعماها النهارُ بضَوئِه   فَوافَقَها قِطَعٌ من الليلِ مظلم(١)

والله (جلّ وعلا) يقول: ﴿وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ﴾ [غافر: آية ١٢] الذي له الحكم هو العلي الكبير الذي عُلُوُّه وعظمته فوق كل شيء، وهو أعظم من كل شيء، وأكبر من كل شيء. ويقول (جلّ وعلا): ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: آية ٨٨] فلا يكون الحكم إلا لمن لا يهلك، ولمن كل شيء هالك إلا وجهه، هذه صفات من له الحكم، ويقول (جل وعلا): ﴿لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: الآية ٧٠] ثم بيّن صفات من له الحكم فقال: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾﴾ إلى آخر الآيات [القصص: آية ٧١]. فالحكم لا يكون إلا للعظيم الأعظم الذي هو الخالق لكل شيء، الرازق لكل شيء، الفاعل ما يشاء في كل شيء، هذا الذي يُتبع تشريعه ويُحل ما أحل، ويحرّم ما حرّم، أما القوانين والنظم الملتقطة من زبالات أذهان الكفَرَة الفجَرَة فلا يتبعها ويعتقدها ويحكمها في

---

(١) مضى عند تفسير الآية (١٢٨) من سورة الأنعام.

أموال المجتمع وعقوله وأنسابه وأديانه وأعراضه إلا من أعمى الله بصائرهم، ومن أعمى الله بصيرته فلا حيلة له ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: آية ٤٠] ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ...﴾ [الرعد: آية ١٩] لا ليس كمثله.

ومعنى الآية الكريمة: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ﴾ [التوبة: آية ٣٧] اختلف العلماء في تحقيق كلمة (النسيء) هنا[1] فقال بعضهم: هو من (نسأ) الثلاثية وهو (فَعِيْلٌ) بمعنى مفعول، فالعرب تقول: نسأه ينسؤه نَسْئاً، إذا أخره. والعرب تأتي بـ (الفعيل) مكان (المفعول) كما يقولون: قتيل مكان مقتول، وجريح مكان مجروح، ونسيء مكان منسوء، أي: مؤخر. فعلى هذا القول فالنسيء (فعيل) بمعنى (مفعول) وكقتيل بمعنى مقتول، وجريح بمعنى مجروح. وعلى هذا فهو من (نَسَأَ) الثلاثية.

والقول الثاني: أن النسيء اسم مصدر (أنسأ) الرباعية على وزن (أَفْعَل) لأن العرب تقول: أنسأ الأمر يُنْسِئه إنساءً ونسيئة. فالإنساء مصدر قياسي، والنسيء مصدر (أَنسَأَ) مصدراً سماعياً، كما جاء النذير مصدراً لأنذر، والنكير مصدراً لأنكر، والنسيء مصدراً لأنسأ، بمعنى: أخّر.

فعلى أن النسيء اسم مصدر بمعنى الإنساء فلا إشكال؛ لأن الإنساء فعل الفاعل، وعلى هذا فلا إشكال في قوله: ﴿زِيَادَةٌ﴾ أي: لأن تأخير الشهر الحرام وإنساءه من نقله من المحرم وتأخيره منه إلى صفر. هذا التأخير والإنساء زيادة في الكفر؛ لأنه أحلّ ما حرّم الله وهو المحرّم، وحرّم ما أحلّه الله وهو صفر.

أما على القول بأن (النسيء) (فعيل) بمعنى (مفعول) وأنه من (نسأ) الثلاثية، وأن النسيء بمعنى الزمان المنسوء، فيكون في قوله: ﴿زِيَادَةٌ﴾ إشكال؛ لأن نفس الشهر المنسوء المؤخر ليس هو عين الزيادة؛ ولذا لا بدّ في هذا المعنى من تقدير مضاف، أي: إنما نَسْءُ النسيء زيادة في الكفر. أو

---

(١) انظر: ابن جرير (١٤/٢٤٣)، القرطبي (٨/١٣٦)، الدر المصون (٦/٤٦).

إنما النسيء ذو زيادة، أي صاحب زيادة في الكفر حاصلة فيه. فاتضح من هذا أنه على أن النسيء اسم مصدر من (أَنْسَأَ) فلا تقدير في قوله: ﴿زِيَادَةٌ﴾. وعلى أنه (فعيل) بمعنىٰ (مفعول) من (نسأ) الثلاثية فلا بدّ من تقدير مضاف إما قبل الزيادة أو قبل النسيء، فتقول: نَسْءُ المنسوء زيادة، أي: تأخير الشهر زيادة في الكفر. أو تقول: المنسوء ذو زيادة، أي: صاحب زيادة في الكفر لوقوعها بسببه. وهذا معنى قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ﴾ لأنهم كانوا كفاراً، فلما أحلّوا محرماً وهم يعلمون أن الله حرّمه، وحرموا صفراً وهم يعلمون أن الله ما حرّمه، صاروا بهذا التشريع مرتكبين كفراً جديداً كما بيّنا، ازدادوا بهذا الكفر كفراً جديداً إلى كفرهم الأول.

﴿يَضِلّ به الذين كفروا﴾ و﴿يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ معناه: يضلهم الشيطان كما يأتي في قوله: ﴿زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَـٰلِهِمْ﴾.

﴿يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا﴾ قد أشرنا بالأمس أن هذه الآية الكريمة من سورة براءة والحديث الذي جاء في مضمونها أن الزمان قد استدار كهيئته.. الحديث[1]. غلط فيه خلق من كبار المفسرين، ومن تكلموا على الحديث، وأن الصورة الحقيقية التي قالت بها جماعة من السلف[2] ـ والقرآن يشهد لصحة قولهم ـ أنها التي كان يعملها الكنانيون القَلَمَّس ومن بعده، وكان شاعرهم يفتخر بذلك ويقول شاعرهم وهو عمير بن قيس المعروف بـ (جذل الطِّعان)[3]:

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب بدء الخلق باب: ما جاء في سبع أرضين..، رقم (٣١٩٧) (٦/٢٩٣). وانظر الأحاديث: (٦٧، ١٠٥، ١٧٤١، ٤٤٠٦، ٤٦٦٢، ٥٥٥٠، ٧٠٧٨، ٧٤٤٧). وأخرجه مسلم في كتاب القسامة والمحاربين والقصاص والديات، باب: تغليظ تحريم الدماء والأعراض والأموال، رقم (١٦٧٩) (٣/١٣٠٥). وهو جزء من حديث خطبة حجة الوداع.

(٢) انظر: ابن جرير (١٤/٢٤٥)، القرطبي (٨/١٣٧)، ابن كثير (٢/٣٥٤).

(٣) الأبيات ذكرها ابن هشام ص٥٦، والبيت الثالث عند الشيخ جعله ابن هشام ثانياً، ولفظه عنده:

فأي الناس فاتونا بوتر ... وأي الناس لم نعلك لجاما

وقد مضى البيت الثاني منها عند تفسير الآية (٣) من سورة الأعراف.

لقد علمتْ مَعَدٌّ أن قومي كرامُ الناسِ أنَّ لهم كِرَامَا
ألسْنَا الناسئين على مَعَدٍّ شُهُورَ الحلِّ نجعلُها حراما
وأيُّ الناسِ لم يدرك بوتْرٍ وأي الناسِ لم يعلك لجَامَا

أنهم كانوا يأتون جنادة بن عوف إذا صدروا من منى، فيقوم ويقول: أنا الذي لا أُجاب ولا أُعاب، ولا مردّ لما أقول هذا العام قد أخرت عنكم حرمة المحرم إلى صفر فقاتلوا في المحرم، ثم حرّموا مكانه صفراً ويأتي في العام القابل ويقول مثل مقالته: أنا الذي لا أُجاب ولا أُعاب، ولا مردّ لما أقول، قد حرّمت هذا العام محرماً وأبحت صفراً. كما هي العادة، فيحلّ لهم المحرّم عاماً ويحرّم مكانه صفراً، ويحرّم المحرّم عاماً ويترك الأشهر على حالها[1]. وهذا موافق لقوله: ﴿يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا﴾ وموافق لقوله: ﴿لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ [التوبة: آية ٣٧] أما الصور الأخرىٰ فلا تتفق مع الآية.

أما الذين زعموا أنه يقول لهم في بعض السنين: حللت لكم المحرم وصفر معاً فهما صفران، لا محرم في هذه السنة، وإنما فيها صفران. فيحل لهم المحرم ويترك صفراً على حلاله الأصلي، وفي السنة القابلة يقول: هما محرمان، المحرم الذي كان حراماً، وصفر بدل المحرم الذي حرّمناه في السنة القابلة. فهذا وإن قال به جماعة كبيرة من العلماء[2] فهو لا يصح؛ لأنهم على هذا القول في إحدىٰ السنتين ما حرّموا إلا ثلاثة أشهر، والأشهر الحرم أربعة، وفي السنة الثانية حرّموا خمسة أشهر، فلم يواطئوا ما حرّم الله لا في السنة الأولىٰ ولا في السنة الثانية. وكذلك قول من قال: إنهم كانوا يسمون صفراً محرماً، ويسمون ما بعد صفر صفراً، وكل شهر يسمونه باسم ما بعده، ويحجون في كل شهر عامين، وأن حجة أبي بكر عام تسع، وافقت ذا القعدة، وأن أبا بكر حجّ بالناس عام ذي القعدة، وإن النبي ﷺ حجّ بالناس حجّة موافقة ذا الحجة، وأن هذا معنى استدارة الزمان كهيئته

---

(١) تقدم عند تفسير الآية (٣) من سورة الأعراف.

(٢) انظر: ابن جرير (١٤/٢٤٩)، القرطبي (٨/١٣٩)، ابن كثير (٢/٣٥٦).

يوم خلق السماوات والأرض[1]. فهذا لا شك في أنه فاسدٌ باطل؛ لأن الله صرّح في كتابه بقوله في حجة أبي بكر بالناس عام تسع: ﴿وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ﴾ [التوبة: آية ٣] وقد أذن ببراءة علي (رضي الله عنه) ومن معه يوم الحج الأكبر، ومعلوم أن الله لا ينزل في كتابه يوم الحج الأكبر يريد أنه من ذي القعدة! فهذا من الباطل الذي لا شك فيه، فهذا كله لا يصحّ، فالتحقيق أن هذه الصورة التي نزل بها القرآن التي كان يفعل لهم الكنانيون أنهم سنة يحرمون صفراً ويحلون المحرّم مكانه، وفي سنة يُبقون الأمر على حاله فيحلون المحرّم سنة ويحرّمونه سنة ويواطئوا بذلك ـ يوافقوا ـ عدة ما حرّم الله، وهي أربعة أشهر من السنة. وهذا معنى قوله: ﴿يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا﴾.

العام: السنة، والألف التي في مكان عينه منقلبة عن واو، فيُكَسَّر على (أعوام) فعينه واو.

﴿لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ [التوبة: آية ٣٧] المواطأة: الموافقة، أي ليوافقوا عدة ما حرّم الله؛ لأن الله حرّم أربعة أشهر من السنة فهم يحرّمون قدر ما حرّم الله إلا أنهم يعصون الله بتغييره عن محله، فالعدة هي العدة ولكن عين الزمان ليست هي عين الزمان، فهم يصيبون في العدة ويخطئون في تعيين المعدود، ومن هنا كانوا عصاة بذلك. هذا هو الصحيح في معنى الآية الذي لا إشكال فيه، والصور الأخر فيها نظر، ليست بصواب، وإن قال بها من قال بها من العلماء. هذا معنى قوله: ﴿لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّوا۟ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾.

﴿زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَٰلِهِمْ﴾ زين لهم الشيطان سوء أعمالهم الخبيثة. وهذا يدل على أن من أسوأ الأعمال وأخبثها تحليل ما حرّمه الله وتحريم ما أحلّ الله ﴿زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَٰلِهِمْ﴾.

﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [التوبة: آية ٣٧] هذه الآية وأمثالها

(١) انظر: ابن جرير (٢٤٨/١٤)، القرطبي (١٣٧/٨)، ابن كثير (٣٥٦/٢ ـ ٣٥٧).

بالقرآن فيها سؤال معروف، وإشكال مشهور، وهو أن يقول طالب العلم: هذه الآية وأمثالها صرَّح الله فيها بأنه لا يهدي الكافرين، مع أنَّا نشاهد الله يهدي كثيراً من الكافرين، فالله يهدي من يشاء من الكفار، ويضل من يشاء، فما وجه تعميمه في قوله: ﴿لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ هذا وجه السؤال.

وللعلماء عنه جوابان معروفان:

أحدهما: أن هذه الآية الكريمة وأمثالها في القرآن من العامّ المخصوص، أي: لا يهدي القوم الكافرين الذين سبق في علمه عدم هدايتهم وشقاؤهم شقاءً أزلياً، كقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٩٦ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ﴾ [يونس: الآيتان ٩٦، ٩٧] وقوله: ﴿لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٧﴾ [يس: آية ٧] ونحو ذلك من الآيات. وعلى أن هذه الآية الكريمة من العامّ المخصوص بآياتٍ أخر فلا إشكال.

وقال بعض العلماء: ﴿لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ ما دام الله (جلّ وعلا) مريداً منهم أن يكونوا كافرين، فإذا شاء الله أن [يهديهم هداهم. وقال بعض العلماء: لا يهديهم ما داموا مصرّين على كفرهم][(١)].

١/٧ / نقول[(٢)]: إن من عادتنا التي نجري عليها في هذه الدروس أن نتعرض لما نظن أنه يسأل عنه طلبة العلم، وقد مرّ في الآية الماضية أمس، سؤال معروف يتساءل عنه طلبَة أهل العلم، ونسينا أن نتكلم عليه، فأحببنا أن نستدركه الآن تتميماً للفائدة، ونعني بذلك: أنا ذكرنا في اليومين الماضيين، أن العلماء اختلفوا في نسخ الأربعة الحرم، وأن قوماً قالوا:

---

(١) انقطاع في التسجيل، ويمكن مراجعة جواب الشيخ (رحمه الله) على هذا الإشكال عند تفسير الآية (١٤٥) من سورة الأنعام. وما بين المعقوفين [ ] زيادة يتم بها الكلام.

(٢) تنبيه: في تفسير الشيخ (رحمه الله) لهذه الآية بقي الجواب عن إشكال معروف وهو توجيه حصار النبي ﷺ لثقيف في الشهر الحرام. وقد استدرك الشيخ (رحمه الله) هذه المسألة والجواب عنها في بداية الكلام على الآية التي بعدها، فألحقته في موضعه هنا، وجعلت الآيات (٣٨، ٣٩)، بعد جواب الشيخ عن هذا الإشكال.

نُسخت، فجاز للمسلمين الجهاد في كل السنة، وأن جماعة من العلماء قالوا: إن تحريمها باق لم يُنسخ، وذكرنا أنّا كنّا أولًا نعتقد صحة نسخها، وأنّا عرفنا بعد ذلك أن الصحيح عدم نسخها، وذكرنا أن من أصرح الأدلة على نسخها ما ثبت أن النبي ﷺ حاصر ثقيفاً بالطائف في بعض ذي القعدة وهو شهر حرام، ولو لم يكن القتال فيها حلالًا لما حاصرهم فيها، فعلمنا من هنا أن طالب العلم يقول: إذا قررتم أن التحقيق عدم نسخها فما وجه حصار النبي ﷺ لثقيف في الشهر الحرام؟!

هذا هو السؤال الذي كنا نود أن نتعرض للإجابة عنه، وهذا السؤال أجاب عنه جماعة من العلماء بما ملخصه في نقطتين وهما[١]:

أن حصار النبي ﷺ لثقيف كان ابتداؤه في شهر حلال، والدوام قد يغتفر فيه ما لا يغتفر في الابتداء؛ لأن من المسائل ما يحرم فيها الابتداء ولا يحرم فيها الدوام، ألا تَرَوْن أن الرجل المحرم لا يجوز له أن يبتدىء تزويجاً، ولو تزوج قبل إحرامه ثم أحرم لم ينفسخ تزويجه بهذا الإحرام الطارىء على تزويجه، وكذلك الإحرام يمنع ابتداء الطيب فيه، فلو كان متطيباً قبله، لا يمنع الدوامَ على الطيب الأول الإحرامُ عند جماهير العلماء، فالشاهد أن الدوام في بعض الصور قد يُغتفر فيه ما لا يُغتفر في الابتداء، وفي هذه الصورة يتأكد بشيء آخر وهو ما قدمنا في العام الماضي في كلامنا على غزوة حنين[٢] في تفسير آية: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾ [التوبة: آية ٢٥] أن النبي ﷺ لما فتح مكة في رمضان عام ثمان، ولم يكن يريد أن يغزو هوازن، سمع أن مالك بن عوف النصري، سيد هوازن جمع من أطاعه من هوازن وفيهم ثقيف؛ لأن ثقيفاً من هوازن؛ لأن ثقيفاً بن منبه بن بكر بن هوازن بن منصور، وأنهم تجمعوا له يريدون حربه، فهم الذين بدؤوا بإرادة الحرب، ولم يكن النبي ﷺ قاصداً حربهم في ذلك الوقت قبل ذلك، فلما هزمهم النبي ﷺ يوم حنين واستفاء أموالهم، رجع

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٢/٣٥٦).

(٢) مضى عند تفسير الآية (٤٥) من سورة الأنعام.

فَلُّهم (والفَلُّ بقية المنهزمين) فتحصنوا بحصن الطائف. فحصاره ﷺ للطائف ليستنزل الذين كانوا يقاتلونه في غزوة حنين من تمام غزوة حنين، وكانوا هم البادؤن بالقتال، والأشهر الحُرم إذا بُدِىء المسلمون فيها بالقتال قاتلوا، كما تقدم في قوله: ﴿ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ﴾ [البقرة: آية ١٩٤] وكما قدمناه في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ ۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: آية ١٩١] فهذا هو الذي أجاب به العلماء عن حصار النبي ﷺ لثقيف على القول ببقاء حرمة الأشهر الحرم.

يقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ (٣٨) إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (٣٩)﴾ [التوبة: الآيتان ٣٨، ٣٩].

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ﴾ [التوبة: آية ٣٨].

أجمع كافة العلماء، أن هذه الآية الكريمة من سورة براءة نزلت لما استنفر النبي ﷺ المسلمين إلى غزو الروم[١]، وفي غزوة تبوك، كان ذلك في ساعة العسرة، كما يأتي منصوصاً في هذه السورة الكريمة، وكان وقت شدة الحر، والأرض في غاية الجدب، وكان في المدينة النخيل حين أزهت ثمرته، وطابت الظلال والمياه الباردة، فركنوا إلى الدعة، وإلى نعيم الدنيا في الظل والثمار والمياه والظلال الباردة، فركنوا إلى هذا؛ لأن العدو قوي وكثير العدد جداً، والشقة بعيدة، والزمان حار؛ ولذا من تكاسلوا منهم وبّخهم الله هذا التوبيخ العظيم في هذه الآية الكريمة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ

(١) انظر: ابن جرير (١٤/٢٥١)، القرطبي (٨/١٤٠)، ابن كثير (٢/٣٥٧).

ءَامَنُوا مَا لَكُمْ﴾ أي شيء ثبت لكم يقتضي نكولكم عن الغزو واختياركم للدعة والراحة على مرضاة الله وإعلاء كلمة الله؟ ﴿مَا لَكُمْ﴾ أي شيء ثبت لكم. ﴿إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا﴾ أي: إذا قال لكم رسول الله ﷺ وأصحابه: ﴿انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ انفروا معناه: تهيؤوا خارجين متحركين لحرب الروم. ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ لأن القتال والجهاد في سبيل الله هو أعظم أنواع سبيل الله (جلّ وعلا).

﴿اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ﴾ أصله: (تثاقلتم) والمقرر في علم العربية: أن كل ماض على وزن (تفاعل) أو على وزن (تفعّل) إذا تقاربت حروفه الأولى، يكثر في اللغة العربية إدغام بعضها في بعض واجتلاب همزة الوصل لإمكان النطق بالساكن[١]، وهذا يكثر في القرآن في (تفاعل) و(تفعّل)، كقوله هنا في (تفاعل): ﴿اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ﴾ أصله: (تثاقلتم)، ﴿فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا﴾ [البقرة: آية ٧٢] أصله: (تدارأتم)، ﴿حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُوا﴾ [الأعراف: آية ٣٨] أصله: (تداركوا)، ﴿بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ﴾ [النمل: آية ٦٦] أصله: (تدارك علمهم). وكذلك هو في (فعّل) كقوله (جلّ وعلا): ﴿وَازَّيَّنَتْ﴾ [يونس: آية ٢٤] أصله: (تزينت) من (تفعّل)، ﴿قَالُوا اطَّيَّرْنَا﴾ [النمل: آية ٤٧] أصله: (تطيرنا). وهذا أسلوب عربي معروف، ومن شواهده العربية المشهورة ما أنشده الفراء من قول الشاعر[٢]:

تُولي الضَّجِيعَ إذا ما استافها خَصِراً عَذْبَ المَذَاقِ إذا ما اتَّابَعَ القُبَلُ

يعني بقوله «ما اتّابع»: تتابع.

ومعنى ﴿اثَّاقَلْتُمْ﴾ تثاقلتم، أي: تكاسلتم وتباطأتم وتقاعستم عن الخروج في سبيل الله لغزو الكفار.

ثم إن الله أنكر عليهم إنكاراً قوياً بأداة الإنكار التي هي الهمزة في قوله: ﴿أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ﴾ قد تقرر في علم العربية أن

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٧٢) من سورة البقرة، وانظر: ابن جرير (٢٥٢/١٤)، الدر المصون (٤٩/٦).

(٢) تقدم هذا الشاهد عند تفسير الآية (٧٢) من سورة البقرة.

لفظة (مِنْ) تأتي بمعنى البدل[١]، كقوله: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الزخرف: آية ٦٠] أي: لجعلنا بدلكم ملائكة في الأرض ﴿أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْآخِرَةِ﴾ أي: بدل الآخرة، وإتيان (مِنْ) بمعنى البدل، أسلوب عربي معروف، ومنه قول الشاعر[٢]:

فليتَ لنا من ماءِ زَمْزَم شَرْبةً مُبَرَّدَةً باتَتْ على طَهَيَانِ

يعني ليس لنا شربة باردة مكان زمزم؛ لأنه يؤخذ حار، ويُروَىٰ:

فليتَ لنا من ماءِ حَمْنَانَ شَرْبةً مُبَرَّدَةً باتت على طَهَيَانِ

والطَّهَيَان: عود كانوا يجعلونه مرتفعاً في جانب البيت متلقياً للهواء يعلقون عليه الماء ليبرد[٣].

وقوله: ﴿أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْآخِرَةِ﴾ الهمزة همزة إنكار؛ لأن أسفه الناس وأقلهم عقلاً هو من يرضى بالدنيا بدلًا من الآخرة؛ لأنه يعتاض القليل التافه من الكثير الذي لا يقدر قدره إلا الله، وفي هذا وبخهم؛ لأنه نقض ضمني للعقد الذي عقده معهم؛ لأن الله (جلّ وعلا) عقد عُقْدَة بينه وبين عباده المؤمنين وأبرمها، وهو أنه اشترى منهم أنفسهم وأموالهم بالجهاد، يشتري من المؤمن حياته الدنيوية وهي حياة قصيرة مُنغَّصة مشوشة بالأمراض والمصائب والبلايا والمشاق، يشتريها منه بحياة أبدية سرمدية، لا شيب فيها ولا هرم ولا مرض ولا غضب ولا ألم ولا تشويش، ويشتري منه مالًا قليلًا وعرضاً زائلًا من الدنيا بالحور العين والوِلْدان وغُرف الجنة وأنهارها وثمارها، والنظر إلى وجه الله الكريم. فهذا هو البيع الرابح، والله يقول في هذه السورة الكريمة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ

---

(١) انظر: ابن جرير (١٤/٢٥٢)، القرطبي (٨/١٤١)، الدر المصون (٦/٥٠).

(٢) البيت ليعلى بن مسلم اليشكري، أو الأحول الكندي. وهو في القرطبي (٨/١٤١)، الدر المصون (٦/٥٠).

(٣) انظر: القرطبي (٨/١٤١).

حَقًّا فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ [التوبة: آية ١١١].

هذا هو البيع الرابح والمعاملة الراجحة، أما الذي ينقضها وينكثها ويقدم للدنيا على الآخرة فهذا سفيه يستحق أشد الإنكار؛ ولذا أنكر الله عليه بقوله: ﴿أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِۚ﴾ فإنه لا يقنع بالدون إلا من هو في غاية الدون، وقد صدق من قال[1]:

إذا ما عَلاَ المرءُ رامَ العُلاَ ويقنعُ بالدُّونِ من كانَ دُوناَ

فلا يقنع بالدون إلا من هو دون كما لا يخفى، وهذا معنى قوله: ﴿أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِۚ﴾. قد قدمنا في هذه الدروس مراراً أن تسمية الله (جلّ وعلا) في كتابه للدار الذي نؤول إليها تسميته إيّاها (الآخرة) ينبغي للمسلم أن ينظر فيه ويعتبر فيه، وقد أوجب الله على كل إنسان أن ينظر في مبدئه، وإذا نظر في مبدئه دعاه ذلك إلى النظر في انتهاء أمره الذي يؤول به إلى مسمى الآخرة، وإيضاح ذلك أن الله قال بصيغة أمر سماوي من الله ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾﴾ [الطارق: آية ٥] لام الأمر في قوله: ﴿فَلْيَنظُرِ﴾ لام أمر صادرة من خالق السماوات والأرض، متوجهة إلى مسمى الإنسان، يأمره الله أن ينظر إلى الشيء الذي خُلق منه ليعلم مبدأ أمره ومن أين جاء؟ وما سبب وجوده؟ وعلى أي طريق جاء؟ ثم لينظر بعد ذلك في مصيره، وإلى أين يُذهب به، وإلى أين يصير، وإلى أين يكون آخر أمره؟ وقد بيّن لنا هذا المحكم المنزل الذي جمع الله به علوم الأولين والآخرين، مبدأ هذا الإنسان الضعيف ومنتهاه، ومصيره النهائي الذي لا يحيد عنه إلى شيء آخر، فبيّن أن أول الإنسان تراب بلّه الله بماء، وهو قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ﴾ [الحج: آية ٥] فمبدأ رحلة الإنسان ومنشؤه من التراب، بلّه الله بالماء، فصار طيناً، وهو قوله تعالى: ﴿ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ [الإسراء: آية ٦١] ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍۭ﴾ [الصافات: آية ١١] ثم جعل نسله من سلالة من طين، ثم إن الله خمّر ذلك الطين حتى صار حَمَأً مسنوناً، ثم أيبسه حتى

(١) مضى عند تفسير الآية (١٦٨) من سورة الأعراف.

صار صلصالاً كالفخار، ثم خلق منه آدم وجعله لحماً ودماً، ثم خلق منه زوجه، كما قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [النساء: آية ١] هي آدم ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ يعني حواء. وذكر ذلك في الأعراف وفي الزمر كما هو معروف، ثم بعد أن حصل رجل وامرأة صار طريقة وجود الإنسان على طريق التناسل المعروفة، يكون أولًا من نطفة أمشاج من ماء الرجل وماء المرأة، ثم يخلق الله تلك النطفة علقة وهي الدم الجامد الذي إذا صُبّ عليه الماء الحار لم يذب، ثم يجعل الله تلك العلقة مضغة، ثم المضغة عظاماً، ثم يكسو العظام لحماً، ويخلق هذا البشر السوي الذي تنظرون إليه، الذي كل موضع إبرة منه فيها من غرائب صنع الله وعجائبه ما يبهر العقول، وقد ذكرنا مراراً أن أعظم ما فُتن به ضعاف العقول من المسلمين حِذْقُ الإفرنج، في حالة الدنيا، ومن أبرع ما برعوا فيه الطب، وأنا أقول لكم: إنه لو اجتمع اليوم جميع من في المعمورة من مهَرَة الأطباء يريدون أن يعملوا عملية في جنين في رحم أمه فإنهم لا يقدرون أن يعملوا العملية حتى يشقوا بطنها ورحمها والمشيمة التي على الولد، ثم يأتوا بالأشعة الكهربائية ليمكنهم أن يروا، ثم يعملوا، فقد تموت وهو الأغلب!! وهذا خالق السماوات والأرض (جلّ وعلا)، ليس فينا ولا فيهم ولا في غيرنا أحد إلا وهو يعمل فيه آلاف العمليات الهائلة وهو في بطن أمه، من غير أن يحتاج إلى شق بطنها، ولا إلى شق رحمها، ولا إلى شق المشيمة التي على الولد ﴿يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ [الزمر: الآية ٦].

هذه الأعين قد فتحها الله (جلّ وعلا) وأنتم في بطون أمهاتكم، وصبغ بعضها بصبغ أسود، وبعضها بصبغ أبيض، وأنبت عليها هذا الشعر، وجعل لها هذا الوعاء من الجفون، وهذا الدماغ خلقه وجعله في هذا الوعاء، وخاط عليه هذه العظام هذه الخياطة الهائلة، وهذا الأنف خلقه وثقبه، وهذا الفم خلقه وثقبه، وجعل اللسان، وأجرى في الفم عيناً باردة هي الريق، يبتلع بها الطعام، لو أمسك عنه الريق لما ابتلع الزبد الذائب، وشقّ له مجاري البول، ومجاري الغائط، ومجاري العروق والشرايين للدورة الدموية، ولو نُظِر إلى موضع عضو واحد من الإنسان لوُجد فيه من غرائب صنع الله وعجائبه ما يبهر

العقول، ومع هذا كله فخالق السماوات والأرض يجعل هذه العمليات الهائلة فيكم وأنتم في بطون أمهاتكم، من غير أن يحتاج إلى بنج، بل بنج القدرة وعظمة الخالق، يُفعل للمرأة جميع هذا وهي تضحك وتفرح وتمرح وتعصي خالق السماوات والأرض، لا تشعر بشيء، لعظمة وقدرة هذا الإله الخالق العظيم (جلّ وعلا)، ثم إن الله (جلّ وعلا) يخلق هذا الإنسان بما فيه من الغرائب والعجائب الذي كل موضع إبرة منه يبهر العقول بما أودع فيه الله من بارع صنعه وغرائب عجائبه، ثم يخرجه من بطن أمه ويسهل له طريق الخروج من ذلك المكان الضيق كما يأتي في قوله: ﴿ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾﴾ [عبس: آية ٢٠] ثم يلهمه أخذ الثدي وهو في ذلك الصغر، ويلطف به حتى يكبر ويعظم ويكون قوياً يجادل في ربه، وتلك المحطة هي التي نحن فيها الآن، فقد جاوزنا ما قبلها من المحطات، وهي التي نحن فيها الآن، وهذه المحطة التي نحن فيها هي المحطة التي يؤخذ منها الزاد، والسفر أمامها طويل، والشقة هائلة، فكأن الإنسان يُقال له: يا مسكين أنت في رحلة عظيمة، وآخرها أعظم من أولها، أشد مسافة وأكبر خطراً وأعظم غرراً، فخذ أهبتك في وقت الإمكان، وليس موضع يمكنك به أخذها إلا في هذا الزمن، الذي لا تدري في أي وقت يقطعك الموت فيه ويخترمك، فعلى الإنسان أن يبادر بأعظم ما يكون من السرعة ليأخذ زاده ويستعد عدته لبقية هذا السفر العظيم الهائل الشاق، ثم بعد هذه المرحلة ننتقل جميعاً إلى مرحلة تسمى مرحلة القبور، نصير جميعاً إلى القبور كما صار إليها من قبلنا. وذكروا أن أعرابياً بدوياً سمع قارئاً يقرأ ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴿١﴾ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ﴿٢﴾﴾ [التكاثر: الآيتان ١، ٢]. قال: انصَرَفوا والله من المقابر إلى دار أخرى[1]. لأن الزائر منصرف لا محالة، ثم إنهم يوم القيامة يُخرجون من القبور إلى محطة أخرى وهي محطة عرصات الحشر، يجتمعون فيها جميعاً في صعيد واحد ينفذهم البصر ويُسمعُهم الداعي، ثم يقضي الله بين خلقه بالشفاعة الكبرى، شفاعة سيد الأنبياء محمد (صلوات الله وسلامه عليه)، فإذا انقضى حسابهم وتمت

---

(١) ذكره ابن كثير في التفسير (٤/٥٤٥).

مجازاتهم، عند ذلك صدروا أشتاتاً ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا﴾ [الزلزلة: آية ٦] فمذهوب به ذات اليمين إلى الجنة، ومذهوب به ذات الشمال إلى النار، ولا يجتمعون بعد ذلك، وهذا قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا﴾، وهذه الأشتات قد أوضح الله معناها في سورة الروم، في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الروم: الآيات ١٤ ـ ١٦]. فإذا دخلوا أماكنهم دخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، وفي ذلك الوقت يُدعى بالموت في صورة كبش أملح، في مرأى كل منهم ثم يُذبح، ويُقال: يا أهل الجنة خلود فلا موت، ويا أهل النار خلود فلا موت، وذلك هو معنى قوله: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [مريم: آية ٣٩] إذ قُضي الأمر وذبح الموت واستقر كل في منزله استقراراً أبدياً، فهذا الاستقرار الذي لا تَحَوُّل بعده، من أجله قيل للدار (الآخرة) لأنها ليس بعدها محطة أخرى ينتقل إليها، فهي آخر المحطات التي ينتقل إليها، لا يبغون عنها حولاً في الجنة، ولا خروج لهم من النار، وهذا هو معنى قوله: (الآخرة).

قوله تعالى: ﴿أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ﴾ أي: في جنبها وبالنسبة والإضافة إليها ﴿إِلَّا قَلِيلٌ﴾ جداً، قد جاء عن النبي ﷺ أنه ضرب لذلك مثلًا بمن وضع إصبعه في البحر، فلينظر بماذا يخرج به أصبعه من البحر[1]، فذلك بمثابة قلة الدنيا بجنب الآخرة، وهذا معنى قوله: ﴿أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ لأن الدنيا دار قليل ما فيها، وأهلها الذين كانوا يتمتعون بها إذا بُعثوا يحلفون أنهم ما مكثوا فيها إلا ساعة كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ [الروم: آية ٥٥] وبيّن أن أقواهم عقلاً وأثبتهم نظراً

(١) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: فناء الدنيا. حديث رقم: (٢٨٥٨) (٤/٢١٩٣).

يدّعي أنهم مكثوا يوماً أو بعض يوم، وهو قوله في طه: ﴿إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾ [طه: آية ١٠٤] وهذا معنى قوله: ﴿أَرَضِيتُم بِالْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَٰعُ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ (الدنيا) تأنيث الأدنى، وهي في غاية الدناءة والدنو؛ لأنها قيل من الدنو بأنها عرض عاجل الآن، وقيل من الدناءة بالنسبة إلى الآخرة[1].

﴿إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ [التوبة: آية ٣٩].

قوله: ﴿إِلَّا تَنفِرُوا﴾ هي (إن) الشرطية أُدغمت في (لا) يعني: إلا تنفروا، إن لم تمتثلوا أمر الله وتنفروا لجهاد أعداء الله وإعلاء كلمته فإن ذلك ضرره عليكم لا على الله ولا على رسوله.

وهذه الآية فيها سر عظيم يعلم به الإنسان أن كل ما يفعله إنما أثره راجع إلى نفسه، فإن كان شراً فهو يجني شراً على نفسه، وإن كان خيراً فهو يجلب الخير لنفسه ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ [الإسراء: آية ٧]. فعلى كل عاقل في دار الدنيا أن يعتبر بمعنى هذه الآية وما في معناها من الآيات، وهو أن ما يفعله الإنسان لا يجنيه إلا هو، وأن حركات الإنسان في دار الدنيا يبني بها مسكنه الذي يصل إليه ويخلد فيه خلوداً أبدياً يوم القيامة، فهذه الحركات والسكنات في دار الدنيا يظن الجاهل أنها أمور لا طائل تحتها، ولا يلزم الاحتياط والنظر الدقيق فيها، وهذا من أشنع الغلط؛ لأن حركات الإنسان في دار الدنيا مقبلاً ومدبراً، ذاهباً وجائياً، متصرفاً هنا وهنا، كله يبني منزله ومقره النهائي، إما أن يبني بذلك غرفة من غرف الجنة يخلد فيها، أو يبني به سجناً من سجون جهنم، هذا هو الواقع، فعلى كل مسلم أن ينظر في أقواله وأفعاله، فيعلم أنه ينفع بالطيب منها نفسه، ويضر بالخبيث منها نفسه، ليحاسِب فيجتنب الخبيث ويجتلب الطيب، وهذا معنى قوله: ﴿إِلَّا تَنفِرُوا﴾ إلا تمتثلوا أمر الله ورسوله بالنفر إلى الأعداء لجهاد أعداء الله، وإعلاء كلمة الله، ونصر

(١) مضى عند تفسير الآية (٥١) من سورة الأعراف.

دين الله ﴿يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أنتم الذين تنالون الضر من ذلك ﴿يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ الظاهر أن هذا العذاب شامل لعذاب الدنيا وعذاب الآخرة، لأن التكاسل عن مقاومة الأعداء في دار الدنيا من أسباب عذاب الدنيا؛ لأنه يضعف المسلمين ويقوي أعداءهم فيُهينونهم في قعر بيوتهم كما هو واقع الآن، لأن المسلمين، أو من يتسمون باسم المسلمين معذبون في أقطار الدنيا من جهة الكفرة، يضطهدونهم، ويظلمونهم، ويقتلونهم، ويتحكمون في خيرات بلادهم، وهذا كله من أنواع عذاب الدنيا لتركهم الجهاد وإعلاء كلمة الله (جلّ وعلا)، وما ذكره غير واحد عن ابن عباس من أنه قال: إن هذه الآية نزلت في بعض قبائل العرب، استنفرهم النبي ﷺ إلى الغزو فامتنعوا، فمنع الله عنهم المطر، وأضرهم بالقحط[1]. هذا قد يدخل في الآية في الجملة، ولا يمكن أن يكون معناها؛ لأن الله يقول: ﴿يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا﴾. فهذا يدل على أن المراد به ليس حبس المطر، وإن كان حبس المطر من أنواع العذاب التي تسببها مخالفة الله (جلّ وعلا)؛ لأن مخالفة الله وعدم القيام بأمره ونهيه هي سبب كل البلايا كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾﴾ [الشورى: آية ٣٠].

﴿يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ الأليم: معناه الموجع الذي يجد صاحبه شدة ألمه ووجعه، والتحقيق هو ما قدمناه مراراً[2]: أن الأليم بمعنى المؤلم، وأن (الفعيل) يأتي في لغة العرب بمعنى (المُفعل). فما ذكره بعضهم عن الأصمعي من أن (الفعيل) لا يكون بمعنى (المُفعل) وعليه أراد بعضهم أن يفسر الأليم بأنه يُؤلَم به أو يحصل بسببه ألم، فكله خلاف التحقيق، والتحقيق أن من أساليب اللغة العربية إطلاقهم (الفعيل) وإرادة (المُفعِل) وهذا معروف في كلامهم، ومنه ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [الأنعام: آية ١٠١] أي:

---

(١) أخرجه أبو داود في الجهاد، باب: كراهية ترك الغزو، حديث رقم: (٢٤٨٩) (١٨٣/٧)، والبيهقي (٤٨/٩)، والحاكم (١١٨/٢)، وابن جرير (٢٥٤/١٤) وهو في ضعيف أبي داود ص٢٤٦.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٧٣) من سورة الأعراف.

مبدعها، ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ﴾ [هود: آية ٢٥] أي: منذر لكم، ونظيره من كلام العرب قول غيلان بن عقبة المعروف بذي الرُّمة[(١)]:

ويرفعُ من صدورِ شَمَرْدَلاَتٍ يصكُّ وجُوهَهَا وهَجٌ أليمٌ

أي: مؤلم، وقول عمرو بن معد يكرب الزبيدي[(٢)]:

أَمِنْ ريحانة الداعي السَّميع يُؤرِّقُني وأصحابي هُجُوعُ

فقوله: «الداعي السميع» يعني: الداعي المسمع، وقول عمرو بن معد يكرب أيضاً[(٣)]:

وخيل قد دَلَفْتُ لها بِخَيْلٍ تحية بينهم ضَرْبٌ وجِيْع

أي: موجع. وهذا هو الصحيح.

﴿وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ أكثر الله (جلّ وعلا) في القرآن من ذكره أن الموجودين إذا لم يطيعوه ويمتثلوا أمره فهو غني عنهم قادر على إذهابهم وإزالتهم بالكلية والإتيان بمن يخلفهم، بل من يكون خيراً منهم، وقد قدمنا هذا مراراً وسيأتي أيضاً، فمن الآيات التي بيّن بها هذا قوله تعالى في سورة النساء: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾﴾ [النساء: آية ١٣٣] وقوله في الأنعام: ﴿وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِن بَعْدِكُم مَّا يَشَاءُ كَمَا أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ [الأنعام: آية ١٣٣] وقوله تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾﴾ [إبراهيم: الآيتان ١٩، ٢٠]. وقوله في سورة القتال: ﴿وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم﴾ [محمد: آية ٣٨] ﴿مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: آية ٥٤] أي: بدلاً من هؤلاء المرتدين، وهذا معنى قوله: ﴿وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ [التوبة: آية ٣٩] أي: يأتي

---

(١) السابق.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٧٣) من سورة الأعراف.

(٣) السابق.

بقوم يجعلهم بدلكم خيراً منكم، إذا استُنفروا نفروا، ولا يؤثرون الحياة الدنيا على الآخرة، كما دلت عليه هذه الآيات المذكورة، وهذا معنى قوله: ﴿يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾.

وقد ذكرنا مراراً[1]، أن لفظة (القوم) اسم جمع لا واحد له من لفظه، يطلق في اللغة العربية الإطلاق الأول على الذكور خاصة دون النساء؛ لأنه وُضع للذكور خاصة، وربما دخلت فيه النساء بحكم التبع إذا دلّ على ذلك قرينة، أما الدليل على أن القوم اسم جمع خاص بالرجال، في أصل وضعه: فقوله تعالى: ﴿لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾ [الحجرات: آية ١١] ثم قال: ﴿وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ﴾ فعطفه النساء على القوم يدل على عدم دخولهن في اسم القوم، ونظيره من كلام العرب قول زهير بن أبي سُلمى[2]:

وما أدري وسوف إِخَالُ أدري أقومٌ آلُ حِصْنٍ أمْ نساءُ

فعطف النساء على القوم، وربما دخلت النساء في اسم القوم بحكم التبع إذا دلت على ذلك قرينة خارجية، ومنه قوله تعالى في سورة النمل: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [النمل: آية ٤٣].

وقوله: ﴿وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ﴾ قال بعض العلماء: الضمير المنصوب في «تضروه» عائد إلى الله، أي: لا تضروا الله شيئاً بعدم امتثالكم أمره ولا سعيكم في إعلاء كلمته[3]. وهذا الوجه هو الذي يشهد له القرآن كقوله (جلّ وعلا): ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّوا۟ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ [محمد: آية ٣٢] وتدل على هذا الآيات القرآنية الكثيرة أن الله غني عن خلقه الذين

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٨٠) من سورة الأنعام.

(٢) السابق.

(٣) انظر: القرطبي (٨/١٤٢)، ابن كثير (٢/٣٥٨).

يدعوهم لطاعته، فإنما يدعوهم لنفعهم، فامتثالهم نفعه لهم، وتمردهم ضرره عليهم، كما قال تعالى: ﴿فَكَفَرُوا۟ وَتَوَلَّوا۟ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ [التغابن: آية ٦]، ﴿إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ [إبراهيم: آية ٨]، ﴿إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ [الزمر: آية ٧] إلى غير ذلك من الآيات.

وقال بعض العلماء: الضمير المنصوب عائد إلى النبي ﷺ[1]، أي: لا تضروا النبي ﷺ بذلك؛ لأن الله تكفّل له بنصره، كما يأتي في قوله: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ...﴾ الآية [التوبة: آية ٤٠] وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التوبة: آية ٣٩] معناه: أنه (جلّ وعلا) قادر على كل شيء، فهو قادر على ما شاء، وقادر أيضاً على ما لم يشأ، فهو (جلّ وعلا) قادر على هداية أبي بكر الصديق، وقادر على هداية أبي لهب، لا شك أنه قادر على الأمرين، وقد أراد أحد المقدورين، وهو هداية أبي بكر، ولم يرد المقدور الثاني وهو هداية أبي لهب، فهو (جلّ وعلا) قادر على كل شيء، لا يتعاصى عليه شيء، يقول للشيء كن فيكون، خلقه لجميع البشر كخلقه لنفس واحدة ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [لقمان: آية ٢٨] لأنه (جلّ وعلا) لا يتعاصى على قدرته شيء سبحانه (جلّ وعلا).

٧/ب / يقول الله جلّ وعلا: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [التوبة: آية ٤٠].

هذه الآية يقول الله (جلّ) فيها للذين تكاسلوا عن غزوة تبوك وتثاقلوا وتباطؤوا أن يغزوا الروم مع النبي ﷺ: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ﴾ (إن) هي الشرطية مدغمة في (لا) والضمير المنصوب في (تنصروه) عائد إلى النبي ﷺ، يعني: إن تتقاعسوا وتتثاقلوا عن نصرة نبيه ﷺ في غزوة تبوك فإن الله ناصره

(١) انظر: القرطبي (١٤٢/٨).

لا محالة، سواء تثاقلتم أم لم تتثاقلوا. وقد بيّن (جل وعلا) أنه نصره في حالة الضعف والقلة، في حالة كان هو وصاحبه داخلين في غار مختفيين عن المشركين، فلما نصره الله في حالة الضعف والقلة فكيف لا ينصره في حالة الكثرة والقوة؟ وهذا معنى قوله: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ﴾ فالله ناصره على كل حال، ثم بيّن نصره له السابق في حالة الضعف والقلة ﴿فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ﴾ على أعدائه حيث أنجاه الله منهم، وخيّب مكرهم وأبطله، ثم أظهره عليهم بعد ذلك. وهذا معنى قوله: ﴿فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ﴾.

﴿إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ حين أخرجه الذين كفروا وهم كفار مكة، ومعنى إخراجهم له أنهم اضطروه وألجؤوه إلى أن يخرج؛ لأن النبي ﷺ كان في حياة عمه أبي طالب يدفع عنه مكر قريش، ويحميه منهم، ويقول له[1]:

والـلّهِ لَـنْ يَصِلُـوا إليكَ بِجَمْعِهـم حـتـى أُوسَّـد فـي الـتُّـرابِ دَفِـيْـنَـا

فلما مات أبو طالب وجاء الأنصار وبايعوا النبي ﷺ بيعة العقبة خاف قريش من النبي ﷺ، وعظم عليهم أمره، وهالهم شأنه، فقالوا: هذا الرجل صار له أتباع في القبائل الأخرى، فما نأمن أن يغزونا بأتباعه فيحتلنا. واعتزموا على أن يقتلوه، وقد قدمنا السبب الذي ألجأ النبي ﷺ إلى الهجرة في سورة الأنفال، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾[2] [الأنفال: آية ٣٠]. وذلك أن قريشاً لما هالهم أمر النبي ﷺ وعظم عليهم شأنه، وخافوا أن تتبعه قبائل العرب فيغزوهم بهم حاولوا أن يقتلوه، فاجتمعوا في دار الندوة، واجتمع جميع سادات قبائل قريش في ذلك الاجتماع، وجاءهم إبليس ـ عليه لعائن الله ـ في صورة شيخ جليل جائياً من بلاد نجد، وقال لهم: قد علمت بما اعتزمتم عليه. وأراد أن يجلس معهم ليتبادل معهم الرأي، فأدخلوه معهم، فتشاوروا في أمر رسول الله ﷺ، فقال قائل منهم، يقال هو أبو البختري: احبسوه ونتركه محبوساً حتى يموت. فقال ذلك الشيخ الذي هو إبليس في

(١) مضى عند تفسير الآية (١٣) من سورة التوبة.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٣٠) من سورة الأنفال.

صورة ذلك الشيخ: ليس هذا لكم برأي؛ لأنكم إن حبستموه جاء بنو عمه وأتباعه فانتزعوه منكم، وغلبوكم عليه. فقال آخر: نرىٰ أن نخرجه من بلادنا وأرضنا ونصلح شأننا بعده إذا أخرجناه. فقال لهم إبليس اللعين في صورة ذلك الشيخ: ليس هذا والله برأي؛ لأنكم إن أخرجتموه فقد عرفتم حلاوة منطقه، وعذوبة لسانه، فقد يتبعه الناس فيغزوكم في دياركم فيغلبكم على أمركم. فقال أبو جهل لعنه الله: إن عندي لرأياً ما أراكم ذكرتموه، خذوا من كل قبيلة من قبائل قريش شاباً حدثاً قوياً وأعطوه سيفاً وأْمُرُوهُم يضربوه ضربة رجل واحد فيتفرّق دمه في قبائل قريش، فلن يستطيع بنو عبد مناف أن يحاربوا جميع قريش، فيقبلوا منا عقله، فنعقله ونعطيهم ديته، ونستريح من شأنه. فقال لهم إبليس اللعين: هذا والله هو الرأي. فأجمعوا رأيهم على هذا وأنهم يقتلونه، واجتمعوا لتنفيذ ذلك عند باب الدار التي ينام فيها رسول الله ﷺ، وكان أبو بكر (رضي الله عنه) قبل ذلك هاجر إلى الحبشة فيمن هاجر، فلقيه عمرو بن الدغنة سيد بني القارة، وهم بنو الهون بن خزيمة بن مدركة بن إلياس، فقال لأبي بكر: أنت لا تذهب، وأنت في ذمتي. فرجع به في ذمته، وأعطاه قريش ذمة ابن الدغنة على أن لا يظهر قراءته ولا دينه، وأن يجعل دينه سراً في بيته، فلما طال ذلك على أبي بكر (رضي الله عنه) صار يُظهر صلاته وقراءته، فأرسلت قريش إلى عمرو بن الدغنة، الذي كان في ذمته أبو بكر (رضي الله عنه)، فقالوا: نحن لا نحب أن نخفر ذمتك، وإن صاحبك صار يفعل ما لم يحصل عليه الاتفاق، فكلم ابن الدغنة أبا بكر (رضي الله عنه) فقال: إما أن تفي بالشرط الذي توافقنا عليه، وإما أن ترد إلي ذمتي. فقال له أبو بكر (رضي الله عنه): رددت إليك ذمتك، وأنا في ذمة الله تعالى. وكان أبو بكر لما أراد أن يهاجر أشار له النبي ﷺ أنه يطمع أن يؤذن له في الهجرة، فقعد أبو بكر (رضي الله عنه) طمعاً في أن يُؤذن لرسول الله ﷺ في الهجرة فيكون رفيقه، واشترى راحلتين، وكان يعلفهما الخَبَط، وهو ورق السمر، شجر معروف، علفهما إياه أشهراً عديدة، أربعة، أو ستة، أو غير ذلك. فلما اجتمعت قريش لقتل النبي ﷺ وكان النبي ﷺ يأتي بيت أبي بكر كل يوم إما أول النهار أو آخره، فبينما هم ذات يوم إذ قدم عليهم رسول الله ﷺ في حر

الظهيرة، فقال أبو بكر: هذا وقت ما جاءنا به رسول الله، والله ما جاء إلا لأمر حدث. ثم لما دخل عليه رسول الله ﷺ قال لأبي بكر: أقم من عندك. فقال: هم أهلك يا رسول الله، هم ابنتاي ـ يعني عائشة وأسماء (رضي الله عنهما) ـ فأخبر النبي أبا بكر (رضي الله عنه) أن الله أذن له في الهجرة، فقال: الصحبة يا رسول الله. فقال: الصحبة. قالت أسماء (رضي الله عنها): ما رأيت أحداً يبكي من الفرح قبل ذلك اليوم، فأبو بكر يبكي من الفرح. كذا قاله غير واحد من أهل الأخبار والسير، ثم إن قريشاً اجتمعوا لتنفيذ الخطة وقتل رسول الله ﷺ، فجاء جبريل فأخبر النبي ﷺ وأمره بالخروج، فنادى النبي ﷺ علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) وأمره أن يضطجع في مكانه، وأن ينام في البُرد الذي كان ينام فيه رسول الله ﷺ، ثم إن الله أخذ بأعينهم فمر بهم النبي ﷺ وقرأ عليهم آيات من أول سورة يٓس حتى بلغ ﴿فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [يٓس: آية ٩] ووضع على رأس كل واحد منهم التراب. ثم خرج هو وأبو بكر (رضي الله عنه). قال بعضهم: خرج من خوخة في قفى دار أبي بكر التي في بني جُمَح، وذهب هو وأبو بكر إلى الغار، وهو غار في جبل من جبال مكة يُسمى ثوراً، فدخل فيه هو والنبي ﷺ، وجاءه ليلاً، ومكثوا فيه ثلاث ليال بأيامها حتى يرجع الطلب، وآجروا رجلاً من بني دؤل بن كنانة يُسمى عبدالله بن الأريقط على دين كفار قريش، يُقال: إن له خؤولة في بني سهم بن عمرو بن هصيص بن كعب بن لؤي، فأمَّنه واستأجره على راحلتيهما وواعده بعد ثلاث ليالٍ أن يأتيهم بالراحلتين في غار ثور، وكان كافراً أميناً، كتم سرهما وحفظ عليهما أمرهما، وجاءهما في الموعد، وكان عبدالله بن أبي بكر (رضي الله عنهما) غلاماً ثَقِفاً شاباً عاقلاً، كان يأتيهم بأخبار قريش وكل ما قالوا وتحدثوا به في شأنهم في النهار يأتيهم به في الليل في الغار، وكانت أسماء (رضي الله عنها) تأتيهم بالطعام، وكان عامر بن فهيرة الطائي (رضي الله عنه) مولى أبي بكر الصديق كان عبداً مملوكاً لأولاد أم رومان، وهي أم عائشة، كانت لها أولاد قبل أبي بكر، وكان عامر بن فهيرة هذا عبداً لهم، فاشتراه أبو بكر (رضي الله عنه) فأعتقه، فكان مولى لأبي بكر، كان يريح على النبي وأبي بكر غنماً لأبي بكر (رضي الله عنه) فيحلب لهم منها

فيشربون بالليل، ثم إذا كان في آخر الليل صاح بها فأصبح مع رعاء قريش، ولا يدرون أنه كان معهم. فمكثوا فيها ثلاث ليال، فجاءهم عبدالله بن الأريقط الدؤلي ـ رفيقهم ـ وركبا، وكان خرِّيتاً ماهراً، سار بهم في طرق غير معهودة؛ لأن الطرق المعهودة عليها الرصد والعيون، وكانت قريش أخذوا قائفاً خبيراً بقص الأثر يقال هو سراقة بن مالك بن جعشم، ويقال هو غيره، فاقتص بهم الأثر حتى بلغ الغار، وقال: من هاهنا ضاع الأثر. ويقول أصحاب الأخبار والسير: إن الله قيّض العنكبوت فنسجت على الغار[1]، وقيّض حمامتين وحشيتين فباضتا على فم الغار[2]، فلما جاء كفار مكة ووصلوا فم الغار، قال أبو بكر لرسول الله ﷺ: لو أن أحدهم نظر تحت قدميه لرآنا. فقال له رسول الله ﷺ: «**ما بالك باثنين الله ثالثهما؟**»[3] فرجعوا خائبين. فلما كان بعد ثلاث ليال ورجع الطلب جاءهم عبدالله بن الأُريقط براحلتيهما وركبا ومعهما عامر بن فهيرة. وكان عامر بن فهيرة رديف أبي بكر والنبي ﷺ على إحدى الناقتين اللتين اشتراهما أبو بكر لهذا الغرض، وهي ناقته العضباء المشهورة، ولما عرضها عليه أبو بكر (رضي الله عنه) أبى أن يقبلها إلا بالثمن (صلوات الله وسلامه عليه)، فخرج بهما في طريق يُسمى طريق الساحل، وجاء إلى طرق غير معهودة، وابن إسحاق ذكر المَحَالّ التي جاء منها[4]، تارة يصلون إلى الطريق المعهودة، وتارة يخرجون عنها حتى وصلوا المدينة. ومن أشهر ما حصل في طريقهم إلى المدينة قصة أم معبد، وقصة سراقة بن

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٣٠) من سورة الأنفال.

(٢) أخرجه ابن سعد (١٥٤/١)، والبزار (كشف الأستار ٢٩٩/٢) ولا يصح في بيض الحمامتين شيء. وانظر: أحاديث الهجرة ص١٣٨.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب فضائل الصحابة، باب: مناقب المهاجرين وفضلهم، منهم أبو بكر رقم (٣٦٥٣) (٨/٧). وانظر الأحاديث رقم (٣٩٢٢، ٤٦٦٣).
وأخرجه مسلم في كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل أبي بكر الصديق. رقم (٢٣٨١) (١٨٥٤/٤).

(٤) نقله عنه ابن هشام ص٥١٤ ـ ٥١٦، وابن كثير في البداية والنهاية (١٨٩/٣). وقد جاء ذلك في بعض الروايات عند الحاكم (٨/٣)، وابن سعد (١٥٧/١/١) وانظر مجمع الزوائد (٥٥/٦).

مالك بن جعشم. ومما نزل من القرآن في هذا السفر، نزلت فيه آيات من القرآن منها قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ [القصص: آية ٨٥] قال بعض العلماء: نزلت في الجحفة في سفر الهجرة هذا، وفي هذا السفر مرّ على ديار بني مدلج، يقول بعضهم: هي قريب من قديد فقال رجل: رأيت أشخاصاً كأنهم القوم الذين يطلبهم قريش. فعلم سراقة بن مالك أنهم هم، ولكنه طمع بأن يأخذهم أو يقتلهم فينال الجعائل التي جعلتها قريش. فقال: لا، أولئك قوم خرجوا للكلأ. ثم بعد هنيهة خرج وأمر جاريته أن تسرج فرسه من وراء أَكَمَه، ثم خرج مختفياً فركب على فرسه، فلما قاربهما ساخت به قوائم فرسه في الأرض، في القصة المشهورة، فطلب الأمان من رسول الله ﷺ[1]، قال بعض أهل السير والأخبار: إن النبي ﷺ كتب له رقعة، وصار يثبط الناس ويردهم عن رسول الله ﷺ، فسمع بذلك الخبيث أبو جهل، وأرسل إلى بني مدلج يحذرهم من نصر سراقة لنبي الله ﷺ، ويقول أبو جهل لعنه الله في ذلك أشعاراً في غاية الكفر، ويعيب على سراقة نصره لنبي الله ﷺ، ومما يقول في ذلك[2]:

بني مُدْلجٍ إني أخافُ سَفِيْهَكُم ... سُراقةَ مُسْتَغْوٍ لِنَصْرِ محمدِ
عليكم به ألا يُفَرِّقَ شَمْلَكُم ... فيصبحَ شتّى بعد عزٍ وسُؤْدَدِ

فسمع بشعره سراقة بن مالك وأرسل إليه بأبياته المشهورة التي ذكرها غير واحد من المؤرخين وأصحاب السير وهو قوله (وكان أبو جهل يكنى أبا الحكم)[3]:

---

(١) خبر سراقة وما قبله مما يتعلق بالهجرة من روايات كل ذلك تقدم تخريجه في مواضع سابقة. منها عند تفسير الآية (٣٠) من سورة الأنفال.

(٢) البيتان في البداية والنهاية (١٨٦/٣).

(٣) الأبيات في دلائل النبوة للبيهقي (٤٨٩/٢)، البداية والنهاية (١٨٦/٣) مع اختلافات يسيرة في الأبيات الثلاثة الأولى، أما البيت الأخير فنصه في البداية والنهاية:

بأمرٍ تودُ النصرَ فيه فإنهم ... وإنَّ جميعَ الناسِ طُراً مُسالِمُه

وفي الدلائل:

بأمر يود النصر فيه بِإِلْبِهَا ... لو أن جميع الناس طُرّاً تسالمه

أبا حكم واللّهِ لو كنتَ شاهداً لأمرِ جَوَادي إذ تسوخ قوائمه
علمتَ ولم تَشْكُك بأن محمداً رسولٌ ببرهان فمن ذا يقاومه
عليكَ بكفّ القوم عنه فإنني أرى أمره يوماً ستبدو معالمه
بأمر يود الناس فيه بأسرهم بأن جميع الناس طراً يسالمه

ومر في هذه الطريق بعاتكة بنت خالد الخزاعية المعروفة بأم معبد (رضي الله عنها)؛ لأنها أسلمت وقد رويت قصتها عنها وعن أخيها حُبيش بن خالد ويقال خُنيس بن خالد وغيرهما[1] أنهم كانوا في شدة، وكانت أغنامهم عازبة، فمرّ بها رسول الله ﷺ ومعه أبو بكر وعامر بن فهيرة وعبدالله بن الأريقط، فسألوها هل عندها لحم أو تمر يباع؟ فقالت: لا شيء عندها. وقالت: لو كان عندنا القِرَى ما أعوزكم. لأن الحي في شدة، والأغنام عازبة، فنظر رسول الله ﷺ إلى شاة في كسر خيمتها فقال: **«ما بال هذه الشاة؟»** قالت: خلّفها الجهد. قال: **«أتأذنين لي أن أحلبها؟»** قالت: إن وجدت فيها حليباً فاحلبها. فدعا بها رسول الله ﷺ فمسح ضرعها وسمى الله، فتفاجت واجترت، ودعا بإناء عظيم فحلب فيه حتى امتلأ، فسقاها هي ومن معها، ثم سقى قومه، وشرب ﷺ وقال فيما يقول أهل الأخبار: **«ساقي القوم آخرهم شرباً»**[2] ثم أخذ الإناء وملأه مرة أخرى وتركه عندها وخرج. فلم تمكث إلا قليلاً أن جاء زوجها أبو معبد فوجد الإناء

---

(١) أخرجه البيهقي في الدلائل (٢٧٦/١)، (٤٩١/٢)، والحاكم (٩/٣)، وابن سعد (١٥٥/١/١)، وابن عساكر (انظر: تهذيب تاريخ دمشق ٣٢٦/١)، والآجري في الشريعة ص٤٦٥.

وذكره الهيثمي في المجمع (٥٥/٦) من حديث جابر (رضي الله عنه) مختصراً، وعزاه للبزار، وقال: «وفيه من لم أعرفه» ا. هـ. وأورده من حديث حبيش بن خالد (رضي الله عنه) (٥٥/٦) وقال (٥٨/٦): «رواه الطبراني في إسناده جماعة لم أعرفهم» ا. هـ.

كما أورده من حديث قيس بن النعمان (٥٨/٦) وقال: «رواه البزار ورجاله رجال الصحيح» ا. هـ.

(٢) أخرجه ابن سعد (١٥٥/١/١) في خبر الهجرة. وهذه الجملة «ساقي القوم آخرهم شرباً» وردت أيضاً في مناسبة غير سفر الهجرة كما في حديث أبي قتادة (رضي الله عنه) عند مسلم في المساجد ومواضع الصلاة، باب قضاء الصلاة الفائتة رقم (٦٨١) (٤٧٢/١).

مملوءاً من اللبن، فعجب منه وقال: كيف هذا اللبن؟ ولا حلوبة في البيت؟ فقالت: جاءنا رجل مبارك من صفته كيت وكيت، فقال: صفيه لي يا أم معبد. فوصفته وصفها المشهور، فقالت له: رأيت رجلاً ظاهر الوَضَاءة، حَسَن الخَلق، مليح الوجه، لم تعبه تُجْلَة[1]، ولم تُزر به صُعْلَة، قسيم وسيم، في عينيه دَعَج، وفي أشفاره حَوَر، وفي صوته صَحَل، أكحل أقرن أزج، في عنقه سَطَع، وفي لحيته كثافة. إذا صمت فعليه الوقار، وإذا تكلم سما وعليه البهاء، حلو المنطق، فَصْلٌ ليس بنزر ولا هَذْر، كأن منطقه خَرَزَات نظم يتحدَّرْن أو ينحدرن، أجمل الناس وأبهاهم من بعيد، وأحسنهم من قريب، رَبْعَة لا تَنسؤه عينٌ لطوله، ولا تقتحمه عينٌ لقِصَره، إلى آخر ما ذكرت من أوصافه الكريمة الجليلة صلوات الله وسلامه عليه[2].

وهذه المعاني الجليلة قد لا يفهمها كل الناس، سنُشير إلى ما لا يُفهم منها:

فقولها: (لم تعبه التُّجلَة)[3]: بضم التاء والجيم معناه عِظَم البطن وكبرها. وقيل: ارتفاع الخاصرتين ونتوؤهما.

(ولم تُزْرِ به صُعْلَة): الصُّعْلَة: صغر الرأس صغراً مفرطاً. يعني: ليس ضخم البطن، ولا صغير الرأس جداً، بل هو ضامر البطن، رأسه ليس بصغير صغراً مزرياً.

وقولها: (في عينيه دَعَج): الدَّعَج: سواد العين مع سعتها.

وقولها: (في أشفاره وَطَف): الوَطَف: هو كثرة شعر الجفن.

وقولها (أَزَجّ) تعني: قليل شعر الحاجب.

وقولها: (أقرن): تعني أن شعر حاجبيه يمتد طرف هذا حتى يقرب من هذا مع الزَّجَجَ فيه.

---

(١) المُثبت في أكثر الروايات (تُجلة)، وفي بعضها: (نُحلَة). والتُجلة: عظم البطن، والنحلة: الدقة والنحول.

(٢) هذه الأوصاف وردت في بعض الروايات عند الحاكم (٣/٩)، والبيهقي في الدلائل (١/٢٧٨ ـ ٢٧٩)، وابن سعد (١/١/١٥٦)، وابن عساكر (تهذيب تاريخ دمشق ١/٣٢٦ ـ ٣٢٧).

(٣) راجع الحاشية قبل السابقة.

وقولها: (في عنقه سَطَع): أي طول؛ لأنه ليس قصير العنق. إلى آخر ما ذكرته من أوصافه الجميلة.

فلما جاء زوجها قال: هذا والله صاحب قريش الذي يطلبونه ولأجهدن في أن أصحبه. وذكر غير واحد أنه أسلم بعد ذلك وهاجر إلى النبي ﷺ.

وفي صبيحة ذلك اليوم سمع قريش هاتفاً من الجن يسمعون صوته مرتفعاً، ولا يرون شخصه، يُنْشِد ذلك الشعر المشهور الذي يقول فيه[1]:

جَزَى اللّهُ ربُّ الناسِ خَيْرَ جَزَائِهِ ... رَفِيْقَيْنِ حَلاً خَيْمَتي أُمِّ مَعْبَدِ
هُمَا نَزَلاَ بالبِرِّ وارتَحَلا به ... فأَصْلَحَ من أَمْسَى رَفِيْقَ مُحَمَّدِ
فَيَا لَقُصَيٍّ ما زَوَى الله عَنْكُم ... بِهِ من فَعَالِ الله جاهاً وسُؤدِدِ
لِيَهْنِ بني كعبٍ مكان فَتَاتِهِم ... ومَقْعَدُهَا للمُؤْمِنِينَ بِمَرْصَدِ
سَلُوا أُخْتَكُم عن شَاتِهَا وإِنَائِهَا ... فَإِنَّكُم إن تَسْأَلُوا الشَّاةَ تَشْهَدِ

ولم يدرِ قريش أين ذهب النبي ﷺ حتى سمعوا هاتفاً من الجن على أبي قُبَيْس ينشد هذا الشعر، يسمعون أيضاً صوته ولا يرون شخصه:

فإن يُسْلِمْ السَّعْدَانُ يُصبحْ محمدٌ ... بمكَّةَ لا يخشى خلافَ المُخَالِفِ

فقال أبو جهل: ما هذان السعدان، سعد كذا أو سعد كذا[2]. فسمع بعد ذلك الهاتف يقول[3]:

أَيَا سَعْدُ سَعْدَ الأَوسِ كُن أنتَ ناصراً ... ويا سعدُ سعدَ الخزرجينِ الغَطَارِفِ
أجيبا إلى داعي الهدى وتمنَّيَا ... على الله بالفردوسِ مُنْيَةَ عارفِ
فإن جزاءَ الله للطَّالبِ الهُدى ... جنانٌ من الفردوسِ ذات رفارفِ

---

(١) هذه الأبيات ضمن الرواية المفصلة في قصة أم معبد، وقد سبق تخريجها قريباً.

(٢) القائل هو أبو سفيان. ومقالته: «من السعدان: أسعد بن بكر، أم سعد بن هُذَيم»؟ وهما قبيلتان.

(٣) أخرجه البيهقي في الدلائل (٢/٤٢٨ ـ ٤٢٩)، ونقله عنه ابن كثير في البداية والنهاية (٣/١٦٥).

ثم إن النبي ﷺ استمر في طريقه ذاهباً إلى هذه المدينة ـ حرسها الله ـ وكان الأنصار (رضي الله عنهم) سمعوا بخروج النبي ﷺ، وكان النبي في طريقه، لقي الزبير بن العوام كما ذكره البخاري[١] في قوم مسلمين جاؤوا تجاراً من الشام، فكساهم ثياباً بيضاً وجاؤوا يلبسون ثياباً بيضاً، وكان الأنصار كلما صلوا الصبح خرجوا إلى حرتهم ينتظرون رسول الله ﷺ فرحاً بقدومه، فلم يزالوا ينتظرونه حتى تغلبهم الشمس على الظلال، والزمن زمن حر في ذلك الوقت، ولم يزالوا كذلك حتى رجعوا إلى بيوتهم وقت شدة الحر بعد أن غلبتهم الشمس على الظلال، فصعد رجل من يهود على أُطم من آطامهم فأبصر برسول الله ﷺ والذين معه في ثياب بيض يزول بهم السراب، فلم يتمالك أن نادى بأعلى صوته: يا بني قَيْلَة هذا جدُّكُم الذي تنتظرون، فثار الأنصار في السلاح وتلقوه (صلوات الله وسلامه عليه)[٢]. وفي بعض الروايات الثابتة[٣] أنه لما قرب من المدينة جلس في ظل نخلة، وأن الأنصار جاؤوه في السلاح، وكان كثير منهم لم يرَ النبي ﷺ ولم يعرف هو أو أبو بكر جلس تحت ظل تلك الشجرة حتى تحول الظل عن النبي ﷺ فقام أبو بكر فظلّ عليه بردائه، فعلموا أنه هو. وجاء في بعض الروايات أنه جاء المدينة في حرّ الظهيرة[٤]. وفي بعضها[٥] أنه دخلها في الليل. وقد وفق بينهما بعض العلماء[٦] بأن أصل قدومه وقت الظهيرة، وأنه جلس تحت تلك النخلة حتى صار آخر النهار. فجاء بني عمرو بن عوف

---

(١) مناقب الأنصار، باب: هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة. حديث رقم: (٣٩٠٦) (٢٣٨/٧ ـ ٢٣٩).

(٢) الكلام إلى هذا الموضع تابع لرواية البخاري.

(٣) أوردها ابن هشام (٥١٧ ـ ٥١٨)، وابن كثير في تاريخه (١٩٦/٣).

(٤) كما في رواية البخاري السابقة عن عروة.

(٥) كما في رواية مسلم من حديث الهجرة المخرج في الصحيحين من حديث البراء عن أبي بكر (رضي الله عنهما)، وقد تقدم تخريجه عند تفسير الآية (٣٠) من سورة الأنفال.

(٦) انظر: البداية والنهاية (١٩٦/٣)، فتح الباري (٢٤٤/٧).

في قباء، وقدم أولًا على بني عمرو بن عوف من الأوس في قباء ومكث فيهم مدة. واختلف العلماء في قدر المدة التي مكث فيهم[١]، فثبت في صحيح البخاري وغيره أنه مكث فيهم بضع عشرة يوماً[٢]، وجاء علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) وأدرك النبي ﷺ وهو في بني عمرو بن عوف بقباء؛ لأن النبي ﷺ كانت تدعوه قريش (الأمين) وكان عنده كثير من الودائع يحفظها لأمانته عندهم، فخلف علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) بعد أن هاجر هو وأبو بكر حتى يرد على الناس ودائعهم، ثم يتبعه ﷺ، فلحق به وهو في بني عمرو بن عوف بقباء. كان ابن إسحاق يقول: قدم النبي ﷺ على بني عمرو بن عوف بقباء يوم الإثنين لاثنتي عشرة مضت من ربيع الأول، ومكث فيهم يوم الاثنين ويوم الثلاثاء والأربعاء والخميس[٣]، ثم سار يوم الجمعة إلى المدينة. وهذا قول ابن إسحاق. وروى البخاري عن طريق الزهري ما يقتضي أنه مكث في بني عمرو بن عوف بضع عشرة ليلة[٤]. فلما خرج من بني عمرو بن عوف ذاهباً إلى المدينة، قال ابن إسحاق وغيره[٥]: وافته الجمعة حذاء مسجد بني سالم بن عوف، المسجد الذي في الوادي بين قباء والمدينة، فصلى فيه الجمعة. قالوا: وهي أول جمعة صلاها بالمدينة، فجاءه عتبان بن مالك (رضي الله عنه) وعباس بن عبادة بن نضلة في رجال من بني سالم بن عوف، وقالوا: يا نبي الله: أقم عندنا في العزة والعدد والمنعة. فقال يعني ناقته: **«خلوا سبيلها إنها مأمورة»** فخرجت ذاهبة إلى المدينة، فلما وازى دور بني بياضة تلقاه زياد بن لبيد وفروة بن عمرو في رجال من بني بياضة فقالوا: يا نبي الله هلم إلينا في العدة والعدد والمنعة. قال: **«خلوا سبيلها إنها مأمورة»** فلما مرت بديار بني ساعدة من الخزرج تلقاه سعد بن عبادة (رضي الله عنه) والمنذر بن عمرو

---

(١) انظر: تاريخ ابن كثير (٣/١٩٨)، فتح الباري (٧/٢٤٤).

(٢) تقدم تخريجه في الصفحة السابقة.

(٣) نقله ابن هشام ص٥٢٠.

(٤) تقدم تخريجه في الصفحة السابقة.

(٥) نقله ابن هشام ص٥٢٠.

(رضي الله عنهم) وقالوا: يا نبي الله هلم إلينا في العدة والعدد والمنعة. قال: «**خلوا سبيلها إنها مأمورة**» فلما مرت ببني عدي بن النجار وهم أخواله الأقربون ﷺ؛ لأن جده عبدالمطلب أمه سلمى بنت عمرو بن زيد من بني عدي بن النجار، تلقاه منهم رجال منهم سليط بن قيس وأبو سليط. فقالوا: يا نبي الله هلم إلى أخوالك في العدد والعدة والمنعة. قال: «**خلوا سبيلها إنها مأمورة**» فلما مرت بديار بني الحارث بن الخزرج[١] تلقاه جماعة منهم، منهم سعد بن الربيع، وعبدالله بن رواحة، وخارجة بن زيد (رضي الله عنهم)، في رجال من بني الحارث بن الخزرج، فقالوا: يا رسول الله هلم إلينا في العدد والعدة والمنعة. قال: «**خلوا سبيلها إنها مأمورة**» حتى بلغت ديار بني مالك بن النجار فبركت بجنب هذا المسجد. وكان إذ ذلك الوقت مربداً، والمربد موضع إصلاح التمر، وكان ليتيمين من بني مالك بن النجار هما سهل وسهيل ابنا عمرو، وابن إسحاق يقول[٢]: إنهما في حجر معاذ بن عفراء. وجاء في صحيح البخاري من طريق الزهري ما يقتضي أنهما في حجر أسعد بن زرارة (رضي الله عنه)[٣]. فبركت الناقة، فلما بركت قال ابن إسحاق[٤]: لم ينزل عنها رسول الله ﷺ حتى قامت ومشت قليلاً ثم التفتت ورجعت إلى مبركها الأول. وتحلحلت فيه ووضعت جرانها في الأرض. والجران: باطن عنق البعير، وكان أقرب بيت لذلك بيت أبي أيوب الأنصاري ـ خالد بن زيد (رضي الله عنه) ـ فأخذ رحل رسول الله ﷺ إلى بيته، ولم يزل ﷺ في بيت أبي أيوب حتى بنى هذا المسجد، وبنى مساكنه وحُجَره التي بجنبه فانتقل إليها.

هذا ملخص عما جاء في هذا السفر المبارك، سفر الهجرة، فيه بعض روايات ثابتة في الصحيح، وفيه كثير منه في السيرة والأخبار، والسير

---

(١) كان مروره ﷺ بديار بني الحارث بن الخزرج قبل مروره ببني عدي بن النجار كما في رواية ابن إسحاق.

(٢) نقله ابن هشام ص٥٢١.

(٣) تقدم تخريجها قريباً.

(٤) وعنه ابن هشام ص٥٢١.

والأخبار تُحكى، وإنما يُحتاج إلى التصحيح فيها لما يتوقف عليه بعض الأحكام الشرعية، وهذه القصة ذكر بعض العلماء فيها أحكاماً مفيدة كثيرة منها:

أن النبي ﷺ استأمن كافراً على سره وأمنه، وانتفع بخبرة كافر، ومثل هذا يحتاج إلى التنبيه عليه اليوم؛ لأن الناس اليوم بين مُفرِط ومفرِّط في الانتفاع من الكفار، فبين مُفرِط يزعم أن تقليد الكفار يلزم في كل شيء، حتى ولو كان الانسلاخ من دين الله، ومنهم مفرّطون يقولون: لا تأخذوا عنهم شيئاً ولو من أمور الدنيا البحتة. والتحقيق أنه يؤخذ عنهم ما يجوز أخذه، ولا يؤخذ عنهم ما لا يجوز أخذه. والنبي ﷺ علّم أمته ذلك في وقائع كثيرة، من ذلك أنه لما لم يجد إلا أميناً كافراً ائتمن هذا الأمين الكافر وعامله وانتفع بخبرته العظيمة في الطرق على حد قولهم: «اجتن الثمار وألق الخشبة في النار»[(١)] ولم يكن جامداً، ولم يقل: هذا كافر، والكافر خبيث، والانتفاع بالخبيث خبيث. بل تبرأ منه. لا، بل انتفع بخبرته واستأجره؛ ولهذا نظائر كثيرة، من ذلك: أن النبي ﷺ لما سمع بقدوم الأحزاب مع كثرتهم وقلة المؤمنين قال له سلمان الفارسي: كنا إذا خفنا خندقنا[(٢)]. فالخندق خطة عسكرية ابتدعتها أذهان فارس، وهم كفار يعبدون النار، فلم يقل النبي ﷺ: هذه خطة نجسة؛ لأن الكفار ابتدعوها. بل أخذ بها وانتفع بها وهو متمسك بدينه، وقد ثبت في صحيح مسلم ما يقتضي أن النبي ﷺ همّ بمنع الغيلة، وهي وطأ المرضع؛ لأن العرب كانوا يعتقدون أن المرأة إذا كانت ترضع ولدها إذا جامعها زوجها وهي ترضع ولدها أن ذلك يضعف ولدها ويضعف عظمه ويضره، وكانوا إذا ضرب الرجل فنبا سيفه عن الضريبة، قالوا: هذا من آثار الغيلة عليه، وُطِئت أمه وهو يرضعها حتى كان شاعرهم يقول[(٣)]:

---

(١) مضى عند تفسير الآية (١١٥) من سورة الأنعام.

(٢) السابق.

(٣) السابق.

فـوارسُ لـم يُـغَـالُـوا فـي رَضَـاعٍ فَـتَـنْـبُـوا فـي أكُـفِّـهـم الـسـيـوفُ

فسمع ﷺ عن الروم وفارس أنهم يفعلون هذا ولا يضر أولادهم فأخذ هذه الخطة الطبية عن الروم وفارس[١]. وهذه الخطة العسكرية عن فارس والانتفاع بهذه الخبرة عن هذا الرجل الكافر الذي يعبد الوثن ليعلّم أمته أنهم يأخذوا من الكفار أمورهم الدنيوية البحتة، ولا يقلدهم في كفرهم وضلالهم، وهذا واضح لا إشكال فيه.

ومعنى الآية الكريمة: أن الله (جلّ وعلا) يقول: إلا تنصروا نبي الله وتتقاعسوا وتتباطؤوا عنه في غزوة تبوك فالله يكفيه ولا يحتاج إليكم وقد نصره في مواضع أعسر وأشد من هذا، فقد نصره الله حين أخرجه الذين كفروا بما ذكرنا من تواطئهم عليه وإلجائهم إلى الخروج. كان بعض العلماء يقول[٢]: يؤخذ من هذه الآية من سورة براءة بعض الأحكام الفقهية، وأن الإنسان إذا أكره إنساناً على الاعتداء، كأن أكرهه على أن يقتل أو يتلف مالًا، أن المكرِه (بكسر الراء) أعني باسم الفاعل، يلزمه غرم ذلك والقصاص فيه، لأن [الله][٣] نسب الإخراج إليهم؛ لأنهم ألجؤوا النبي ﷺ إليه. فسمى المُكْرِه فاعلًا، فهذا له وجه من النظر ظاهر. وهذا معنى قوله: ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [التوبة: آية ٤٠] كقوله: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾﴾ [محمد: آية ١٣] ﴿وَهَمُّوا۟ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ﴾ [التوبة: آية ١٣] ﴿يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ﴾ [الممتحنة: آية ١].

وقوله: ﴿ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ﴾ حال ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ في حاله ﴿ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ﴾ أي: واحداً من اثنين ليس معه إلا رجل واحد ﴿إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ﴾ بدل من قوله: ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ فـ (إذْ) الثانية بدل من (إذ) الأولى، ﴿إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ﴾ الغار هو الثقب في الجبل، والمراد

---

(١) تقدم تخريجه عند تفسير الآية (١١٥) من سورة الأنعام.

(٢) انظر: القرطبي (١٤٣/٨).

(٣) في الأصل: «النبي». وهو سبق لسان.

به الغار المذكور في جبل ثور من جبال مكة ﴿إِذْ يَقُولُ﴾ النبي ﷺ ﴿لِصَاحِبِهِۦ﴾ وقد أجمع جميع المسلمين أنه أبو بكر (رضي الله عنه). وفي هذه الآية من سورة براءة أعظم منقبة لأبي بكر (رضي الله عنه)، فما يحاول به الإمامية وغيرهم من الشيعة من الكلام في أبي بكر (رضي الله عنه) وتفنيد ما دلت عليه هذه الآية من فضله وعظمته، كله باطل لا يلتفت إليه، وقد قال بعض العلماء[1]: من أنكر أن أبا بكر صاحب رسول الله كفر لتكذيبه بهذه الآية الكريمة.

﴿لَا تَحْزَنْ﴾ الحزن في لغة العرب[2] هو الغم من أمر فائت، وربما تُطلقه العرب على الغم من أمر مستقبل نادراً، كما هنا. والخوف: الغم من أمر مستقبل، وربما أطلقته العرب على الغم من أمر فائت، أي: لا يداخلك حزن من الخوف.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: آية ٤٠] وقد قال أبو بكر في قصة الغار قصيدته الرائية المشهورة التي يبين فيها قول النبي ﷺ هذا له حيث يقول[3]:

قالَ الرسولُ ولم يجزعْ يُوقِّرُني ... ونحنُ في سُدفة من ظُلمة الغَارِ
لا تخشَ شيئاً فإن الله ثالِثُنا ... وقد تكفَّل لي منهُ بإظهارِ

إلى آخرِ القصيدة المشهورة، وهذا معنى قوله: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ العرب تقول: (حَزِن) بكسر الزاء (يحزَن) بفتحها (حَزَناً) على القياس و(حُزْناً) إذا أصابه الحَزَن، وأكثر ما يستعمل الحزن في الغم من أمر فائت، وقد يُطلق على الغم من أمر مستقبل كما هنا.

---

(١) انظر: القرطبي (١٤٦/٨).

(٢) مضى عند تفسير الآية (٤٨) من سورة الأنعام.

(٣) البيتان ذكرهما ابن كثير في تاريخه (١٨٣/٣) ولفظهما هناك:

قال النبي - ولم أجزع - يوقرني ... ونحن في سُدُف من ظلمة الغار
لا تخش شيئاً فإن الله ثالثنا ... وقد توكل لي منه بإظهار

﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ هذه معية خاصة، والله (جلّ وعلا) بيّن في كتابه أن له مع خلقه معية خاصة ومعية عامة. أما المعية الخاصة كقوله هنا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾، ﴿كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: آية ٦٢]، ﴿إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: آية ٤٦]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا﴾، فمعنى هذه المعية: أن الله ناصرهم وحافظهم وكالئهم ومعينهم، هذه هي المعية المذكورة هنا.

﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ﴾ السكينة: (فعيلة) من السكون، وهي الطمأنينة وثبوت الجأش حتى لا يكون فيه خوف ولا حَزن. ﴿عَلَيْهِ﴾ التحقيق أن الضمير عائد إلى النبي ﷺ، وقال بعضهم: هو إلى أبي بكر[1]؛ لأنه هو الحزين الذي يتشوش ضميره ﴿وَأَيَّدَهُۥ﴾ [التوبة: آية ٤٠] أي: أيّد نبي الله ﷺ أي: قواه ﴿بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾ ظاهر هذه الآية الكريمة أن وقت إتيان الكفار إلى الغار أن الله (جلّ وعلا) جعل عند النبي في ذلك الوقت جنوداً من الملائكة لم يرها الناس، لو أراد الكفار أن يفعلوا به شيئاً لأهلكوهم، وهذا هو ظاهر الآية، وأكثر المفسرين يقولون: إن معنى ﴿وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾ يعني: ما وقع من نزول الملائكة يوم بدر، ويوم الأحزاب، ويوم حنين كما تقدم إيضاحه. وظاهر القرآن أن جنود الملائكة تحيط به في ذلك الوقت، والله الذي هو أعظم معه بنصره وعزه وقوته في ذلك الوقت لا يخاف شيئاً، ولكن الله (جلّ وعلا) يشرع بأفعال رسله وأقوالهم لخلقه، فالله (جلّ وعلا) مع عظمته وجلاله وتصريح النبي بأنه معه، وأن الله أيده بجنود الملائكة، مع هذا يدخل في غار في ظلمة الليل، والغار فيه الحيات وخشاش الأرض؛ ليسن للناس ويشرع لهم حمل أعباء تبليغ الرسالة والدعوة، وأن يتحملوا في شأن الدعوة إلى الله كل البلايا والمشاق، ويستهينوا فيها بكل عظيم، هذا هو السر في ذلك،/ وهذا معنى قوله: ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ٱلسُّفْلَىٰ﴾ السفلى: تأنيث الأسفل، وهو الذي يَفْضُلُ غيره في السفالة والخساسة والانحطاط، كلمة الكفار جعلها الله هي

٨/أ

(١) انظر هذه الأقوال في ابن جرير (١٤/٢٦١)، القرطبي (٨/١٤٨).

السفلىٰ، وكلمة الكفار هي كلمة الكفر، وعبادة الأصنام، وعبادة غير الله (جلّ وعلا). ومعنى كونها هي السفلىٰ: اندحار أهلها وقمعهم وإظهار كلمة الله.

﴿وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلْعُلْيَا﴾ كلمة الله: لا إله إلا الله وما تضمنته، صارت هي العليا، وصار الحكم لها، وصار صناديد الكفَرَة بين مقتول ومأسور ومسلم، وصارت أحكام الله هي التي تنفذ، وكلمته هي التي يُعمل بها في أرضه، ودحض الله الكفار وأهلكهم. وهذا معنى قوله: ﴿وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلْعُلْيَا﴾.

﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ العزيز: الغالب الذي لا يغلبه شيء. والعزة: الغلبة، ومنه: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ﴾ [المنافقون: آية ٨] أي: للّه الغلبة ولرسوله وللمؤمنين، ﴿وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ﴾ [ص: آية ٢٣] أي: غلبني في الخصام. ومن أمثال العرب: «من عزَّ بز»(١) يعنون من غلب استلب. ومنه قول الخنساء بنت عمرو بن الشريد السلمية الشاعرة(٢):

كأن لم يكونوا حِمىً يُخْتَشَى إذ الناسُ إذْ ذاكَ مَنْ عَزَّ بَزَّا

والحكيم(٣): هو من يضع الأمور في مواضعها ويوقعها في مواقعها. وهذان الاسمان من أسماء الله (العزيز الحكيم) المتضمنان هاتين الصفتين من صفات الله، وهي عزه وحكمته وحكمه هما أبلغ شيء في امتثال أمره وطاعته (جلّ وعلا)؛ لأن عزته أي غلبته وقوته وقهره وسلطانه يجعلك أيها المسكين العظيم تخافه وتخضع لأمره ونهيه، وكونه (جلّ وعلا) حكيماً لا يأمرك إلا بما فيه لك الخير، ولا ينهاك إلا عما فيه لك الشر، ذلك يقتضي أيضاً أن تطيعه وتخضع لأمره ونهيه. وهذا معنى قوله: ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: آية ٤٠].

قال تعالى: ﴿ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٩٦) من سورة الأنعام.

(٢) السابق.

(٣) مضى عند تفسير الآية (٨٣) من سورة الأنعام.

ٱللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّٱتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنۢ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٤٢﴾ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [التوبة: الآيات ٤١ ـ ٤٣].

يقول الله (جلّ وعلا): ﴿ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾.

قال جماعة من العلماء: هذه الآية الكريمة هي أول آية نزلت من سورة براءة. قالوا: أول ما نزل منها: ﴿ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ الآية، ثم بعد ذلك نزل أولها وآخرها[(١)].

وقوله: ﴿ٱنفِرُوا۟﴾ أمرٌ بالنفر، والنفر المراد به هنا: التهيؤ والحركة للجهاد في سبيل الله، وكل متحرك بسرعة لأمر من الأمور تقول العرب: نفر له، كقولهم: النَّفْر غداة كذا. يعنون: تفرق الناس من منى ذاهبين إلى أوطانهم؛ لأنهم تنقضي مهمة حجهم فيسرعون الحركة متفرقين إلى أوطانهم. كما قال ابن أبي ربيعة[(٢)]:

لا نلتقي إلا ثلاثَ منىً ... حتى يفرقَ بيننا النَّفْرُ

فمعنى قوله: ﴿ٱنفِرُوا۟﴾ تحركوا مسرعين للجهاد في سبيل الله.

وقوله: ﴿خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ حالان، والخِفَاف جمع خفيف. والثقال: جمع ثقيل. و«الفَعِيْل» إذا كان وصفاً يكثر جمعه على (الفِعَال) جمع كثرة كما هو معروف في محله.

والمراد بقوله: ﴿خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ جاء فيه لأهل العلم ما يقرب من خمسة عشر قولًا أو أكثر[(٣)]، والمراد بها كلها: إنما هو تمثيل الخفة

(١) ذكره ابن جرير بسنده عن أبي الضحى (٢٦٩/١٤، ٢٧٠) وعزاه القرطبي (١٤٩/٨) لأبي مالك الغفاري.

(٢) البيت في ديوانه ص١٩٠.

(٣) انظر ابن جرير (٢٦٢/١٤ ـ ٢٦٩)، القرطبي (١٥٠/٨).

والثقل. والمعنى الجامع لذلك كله: ﴿ٱنفِرُواْ﴾ تحركوا مسرعين إلى جهاد الروم إلى تبوك في حال كونكم خفافاً أو ثقالاً.

والمراد بالخفاف: الذين تخف عليهم الحركة لتهيؤ أسباب القوة والحركة عندهم.

والثقال: الذين يثقل عليهم ذلك لسبب من الأسباب. وأقوال العلماء في هذا كالأمثلة لذلك، كقول من قال: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ شباباً وشيوخاً. وقول من قال: ﴿خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ مراضاً وصحاحاً. وقول من قال: ﴿خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ نشاطاً وغير نشاط. وقول من قال: ﴿خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ أصحاب عيال وغير أصحاب عيال. وقول من قال: ﴿خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ أي: أصحاب ضياع وبساتين أو غير أصحابها. فهذه أقوال كثيرة. كقول من قال: ﴿خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ مشاغيل وغير مشاغيل. إلى ذلك (...)[1].

يقول الله (جلّ وعلا): ﴿لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [التوبة: الآيتان ٤٤، ٤٥].

لما دعا النبي ﷺ المسلمين إلى النفر في غزوة تبوك جاء رؤساء المنافقين كعبدالله بن أبي بن سلول، والجد بن قيس، وهؤلاء أعظم المنافقين، ومن سار في ركابهم، جاؤوا إلى النبي ﷺ يستأذنونه في الجلوس والتخلف عن غزوة تبوك؛ لأنهم أعداء للإسلام في باطن أمرهم، فبيّن الله أن ذلك الاستئذان رغبة في التخلف ليس من فِعال المسلمين، وأنه من فِعال الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر. قال: ﴿لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ...﴾. الجمهور يقرؤون: ﴿يَسْتَـْٔذِنُكَ﴾ والسوسي: ﴿يستاذنك﴾ بإبدال الهمزة[2].

﴿لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ يصدقون بالله (جلّ وعلا)،

---

(١) في هذا الموضع انقطع التسجيل.

(٢) انظر: الإقناع لابن الباذش (٤١٢/١)، النشر لابن الجزري (٣٩٠/١).

وإيمانهم بالله الإيمان بالله إذا أطلق شمل الإيمان من الجهات الثلاث، وهو تصديق القلب بالاعتقاد، واللسان بالإقرار، والجوارح بالعمل. فالمؤمن بمعنى الإيمان الصحيح هو من آمن قلبه ولسانه وجوارحه. وهذا الاستئذان ليس من أفعال المسلمين ﴿لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾ الإيمان باليوم الآخر كثيراً ما يجعله الله مذكوراً مع الإيمان به؛ لأن من لم يؤمن باليوم الآخر لا يخاف بأساً يوم القيامة ولا يطمع في خير، فهو يفعل ما يشاء، فالكفر باليوم الآخر رأس كل شرٍ، والإيمان به رأس كل خيرٍ.

﴿أَن يُجَٰهِدُواْ﴾ (أنْ) هذه كلام العلماء فيها راجع إلى قولين[١]:

أحدهما: أنها هذه التي يُحذف قبلها حرف الجر. والمعنى على هذا: «لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله في أن يجاهدوا» أي: في الجهاد وترك الجهاد؛ لأن المؤمنين بالله مسارعون إلى مرضاة الله، منقادون إلى الجهاد، سائرون مع النبي ﷺ.

لا يستأذنون لأجل أن يؤذن لهم في التخلف، وقد تقرر في علم العربية أن حذف حرف الجر قبل المصدر المنسبك من (أنَّ) وصلتها و(أنْ) وصلتها مطرد لا نزاع في اطراده[٢]، ومحل المصدر بعد حذف حرف الجر أكثر علماء العربية يقولون منصوب، وهو الذي عليه كبراؤهم. وقال قوم: هو مخفوض. واستدلوا على خفضه بقول الشاعر[٣]:

فما زُرْتُ ليلَى أَنْ تكونَ حَبِيْبَةً   إليَّ ولا دَيْنٍ بها أَنَا طَالِبُه

قالوا: خفض «ولا دين» عطفاً على المصدر المنسبك من (أن) وصلتها بعد حذف حرف الجر. قالوا: والأصل: «وما زرت ليلى لكونها حبيبة، ولا لدين» والمحققون منهم يقولون: محله النصب. وهذا الذي عليه جمهورهم، قالوا: ولا شاهد في البيت لأنه مما يُسمى عند النحويين عطف التوهم. وحاصل عطف

---

(١) انظر: الدر المصون (٦/٥٧).

(٢) مضى عند تفسير الآية (٦٧) من سورة البقرة.

(٣) السابق.

التوهم عند النحويين أنه تكون الكلمة يجوز فيها الخفض وليست بمخفوضة، فيعطفون عليها المخفوض نظراً إلى جواز خفضها، وإن كانت غير مخفوضة في الواقع[١]. ومن شواهده المشهورة قول زهير بن أبي سُلمى[٢]:

بَدَا لِيَ أَنِّي لَسْتُ مُدْرِكَ ما مَضَى ولا سابقٍ شيئاً إذا كان جَائِيا

فقوله: (ولا سابقٍ) بالخفض في رواية بيت زهير عطفاً على «مدرك» وهو منصوب، إلا أنه يجوز جره بالباء، فيجوز: لست بمدركٍ ولا سابق. ونظيره قول الآخر[٣]:

مَشَائِيمُ لَيْسُوا مُصْلِحِيْنَ عشيرةً ولا ناعِبٍ إلا بِبَيْنٍ غُرَابُها

كما هو معلوم في محله. ونحن نذكر هذه الأشياء العربية وإن كان أكثر المستمعين لا يفهمونها لأنا نريد أن تكون هذه الدروس القرآنية يستفيد منها كل الحاضرين على قدر استعداداتهم، والله يوفق الجميع للخير.

الوجه الثاني: أنّ (أنْ) هذه هي التي تُحذف قبلها (لا) أو مضاف كقوله: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّواْ﴾ [النساء: آية ١٧٦] ففي قوله: ﴿أَن تَضِلُّواْ﴾ ونحوه وجهان. أي: يبين الله لكم لئلا تضلوا، أو كراهة أن تضلوا. هذان الوجهان في (أن) في القرآن فيما يماثل هذا كقوله: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّواْ﴾ وقوله: ﴿فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ﴾ [الحجرات: آية ٦] أي: لئلا تصيبوا، أو كراهة أن تصيبوا. وهذان الوجهان في قوله: ﴿لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [التوبة: الآية ٤٤] بل إذا أمرت بالجهاد قاموا مسرعين ممتثلين أمر الله، راغبين في غزو الكفرة لأن تكون كلمة الله هي العليا. وهذه الآية تدل على أن المؤمن بمعنى المؤمن الصحيح من صفاته الكاشفة أن يكون مبادراً للجهاد في سبيل الله مضحياً بالنفيس والغالي من نفسه وماله

---

(١) راجع ما سبق عند تفسير الآية (٦٧) من سورة البقرة.

(٢) تقدم هذا الشاهد في الموضع السابق.

(٣) تقدم هذا الشاهد في الموضع السابق.

للجهاد في سبيل الله لإعلاء كلمة الله (جلّ وعلا). وهذا معنى قوله: ﴿لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أَن يُجَـٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [التوبة: آية ٤٤] التقوى في قلوب الناس لا تخفى على الله، فالله يعلم ما في قلوب الناس، لا يخفى عليه برٌّ من فاجر، ولا متقٍ من عاصٍ.

﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ﴾ [البقرة: آية ٢٣٥] ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾﴾ [ق: آية ١٦] ﴿عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ﴾ لا يخفى عليه المتقي من العاصي، فمن زعم للنبي أنه معه، وأنه يحب الإسلام والجهاد، إلا أنه معذور بكذا وكذا لأعذار كاذبة فالله عالم بكذبه، عالم بالمتقي حقاً وبغيره، لا يخفى عليه شيء من ذلك. وفي هذا تهديد للمنافقين الذين يدّعون التقوى ويضمرون غيرها، ووعد عظيم للمؤمنين الذين تنطوي قلوبهم على تقوى الله حقاً. وهذا معنى قوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: آية ٤٤].

﴿إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [التوبة: آية ٤٥] قد تقرر عند جماهير العلماء أن (إنما) أداة حصر، والصحيح أن (إنما) أداة حصر كما حرره علماء الأصول في مبحث (دليل الخطاب) أعني (مفهوم المخالفة) والبلاغيون في مبحث (القصر)[1] فـ (إنما) أداة حصر. يعني: لا يستئذنك هذا الاستئذان الذي يُراد به التخلف عن الجهاد والقعود لأعذار كاذبة.

﴿إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ الذين لا يصدقون بالله ولا يؤمنون باليوم الآخر فلا يرغبون فيما عند الله، ولا يخافون عذاب الله.

وقوله: ﴿وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ شكّت قلوبهم. فـ ﴿وَٱرْتَابَتْ﴾ معناه: شكّت. والتاء فيه تاء الافتعال. وأصل حروفه الأصلية: الراء في محل الفاء، والياء في محل العين، والباء في محل اللام، أصل المادة (رَيَبَ) بـ (راءٍ) فـ (ياء) فـ (باء) والتاء تاء الافتعال، وأصلها (وارتيبت قلوبهم)[2]

(١) مضى عند تفسير الآية (٦٥) من سورة الأعراف.

(٢) انظر: معجم مفردات الإبدال والإعلال ص١٣٣، ٣٩١، ٣٩٣.

أي: داخلها الريب. أصل الريب في لغة العرب معناه الإزعاج والإقلاق. هذا أصل معناه الأصلي، تقول العرب: رابه الأمر. إذا أزعجه وأقلقه. وهذا هو معناه الحقيقي، ومنه قول توبة بن الحُمَيِّر الخفاجي[1]:

وكنتُ إذا ما زُرْتُ لَيْلَى تَبَرْقَعَتْ وقد رَابَنِي منها الغَداةَ سُفُورُها

أي: أزعجني وأقلقني، وكلما جاء الريب في القرآن والارتياب فمعناه الشك على كل حالٍ. وإنما سُمِّي الشاك مرتاباً وأُطلق اسم الريب على الشك لأن الشاك لا تطمئن نفسه إلى طرف الإيجاب، ولا إلى طرف السلب، فهو تارة يميل إلى الإيجاب، وتارة يميل إلى السلب، فنفسه منزعجة قلقة ليست مطمئنة إلى الثبوت ولا إلى النفي. ومعنى ﴿وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ شكّت قلوبهم والعياذ بالله. وأسند الارتياب إلى القلوب لأن القلب هو محل الإدراك الذي يكون فيه الشك، ويكون فيه اليقين، ويكون فيه العلم والإدراك. وهذا الارتياب سيبينه لهم المؤمنون يوم القيامة كما يأتي بيانه في سورة الحديد؛ لأنه سيأتي في سورة الحديد ـ إن شاء الله ـ أن كل من كان يقول: لا إله إلا الله في دار الدنيا يعطيه الله نوراً، فيكون عند المنافقين نور، وعند المؤمنين نور، فإذا ـ مثلًا ـ اشتد الأمر وصار الناس في فصل الخطاب انطفأ نور المنافقين وبقوا في ظلام دامس، وعند ذلك يقول المؤمنون: ﴿رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا﴾ [التحريم: آية ٨] ويقول المنافقون للمؤمنين: ﴿ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُواْ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُواْ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾ [الحديد: آية ١٣] فإذا ضُرِبَ ذلك السور بين المنافقين والمؤمنين قال المنافقون للمؤمنين: ﴿أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾ [الحديد: آية ١٤] ألم نكن معكم في دار الدنيا؟ وكنا نحضر معكم المساجد والغزوات، ونأتي معكم المواطن؟ ﴿قَالُواْ بَلَىٰ﴾ كنتم معنا ﴿وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ﴾ وهذا محل الشاهد. ذلك الارتياب الذي قال عنهم هنا: ﴿وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ [التوبة: آية ٤٥] هو من الأسباب التي تجعلهم يوم القيامة وراء السور ـ والعياذ بالله ـ.

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٢) من سورة الأعراف.

وقوله: ﴿فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ﴾ أي: فهم في شكهم ﴿يَتَرَدَّدُونَ﴾ أي: يذهبون حائرين تارة يقدمون رِجلًا ويؤخرون أخرى، يذهبون ويرجعون، يتوجهون إلى الإيمان مرة ويكفرون مرة (والعياذ بالله جل وعلا). وهذا معنى قوله: ﴿وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾.

﴿وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [التوبة: الآيتان ٤٦، ٤٧].

﴿وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً﴾ هؤلاء المنافقون الذين جاؤوا يستأذنون النبي ﷺ في القعود كعبدالله بن أُبي، والجد بن قيس، وأضرابهم، قال الله لنبيه إنهم يستأذنون ويعتذرون الأعذار الكاذبة وهم في باطن أمرهم مصرّون على القعود وعدم الخروج، وبيّن دليل ذلك في قوله: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ﴾ لو أراد هؤلاء المنافقون المستأذنون الخروج معك إلى غزوة تبوك ﴿وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ﴾ معك ﴿لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ﴾ أي: للخروج ﴿عُدَّةً﴾ أي: لتأهبوا للخروج وتهيؤوا له؛ لأن من يعزم على الخروج إلى قتال العدو يتهيأ قبل ذلك ويستعد لذلك بإحضار العدة اللازمة لذلك، ولكن هؤلاء لم يعدوا شيئاً، ولم يُبالوا بشيء، فدل على أنهم مصرون عازمون على التخلف. وهذا معنى قوله: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ﴾ [التوبة: آية ٤٦] أي: للخروج ﴿عُدَّةً﴾ أي: لتأهبوا له أُهبته وتهيؤوا له بإعداد ما يلزمه.

﴿وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ﴾ كره الله انبعاثهم كوناً وقدراً؛ لأن الله يعلم أنهم لو خرجوا مع رسوله ما كان في خروجهم له إلا الشر، فلا يجد منهم إلا الضرر والشر، فثبطهم عنه بحكمته لطفاً برسوله ﷺ ﴿وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ﴾ الانبعاث مصدر انبعث ينبعث إذا ذهب إلى الشيء. ومنه: ﴿إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴿١٢﴾﴾ [الشمس: آية ١٢] ومعنى ﴿ٱنۢبِعَاثَهُمْ﴾ أي: خروجهم غازين معك إلى تبوك، كره الله خروجهم معك لضرر ذلك عليك، ﴿فَثَبَّطَهُمْ﴾ عن ذلك الخروج مراعاة لمصلحتك. والتثبيط: التبطئة

والتعويق وعدم الخروج، فثبطهم عنك مراعاة لمصلحتك ومصلحة من معك من المسلمين، وهذا معنى قوله: ﴿وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمۡ فَثَبَّطَهُمۡ وَقِيلَ ٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ﴾.

﴿قِيلَ﴾ هنا مبني للمفعول حُذف فاعله، واختلف العلماء في فاعله المحذوف[(١)]، فقال بعض العلماء: قال بعضهم لبعض في سرهم وباطن أمرهم: ﴿ٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ﴾ واستَأذِنُوه لتقعدوا. وقال بعضهم: أذن لهم النبي ﷺ فقال: «﴿ٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ﴾» وعلى هذا القول ف (اقعدوا) هو الإذن. وبعضهم يقول: قوله: ﴿مَعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ﴾ أذن لهم إذناً صاحبه لا يرضى عنهم. والمراد بالقاعدين: الذين ليس من شأنهم الحضور، كالصبيان والزَّمْنَى والنساء، ونحو ذلك ممن ليس من شأنه الخروج للقتال.

وقال بعض العلماء: هو كوني قدري، الله يقول للشيء: «كن فيكون»، فقال: «اقعدوا». فكان قعودهم، واختار هذا بعض العلماء.

ثم إن الله قال: ﴿لَوۡ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمۡ إِلَّا خَبَالٗا﴾ [التوبة: آية ٤٧] لو خرج فيكم رؤساء هؤلاء المنافقين الذين يحركونهم ويرأسونهم في الشر كابن أُبي بن سلول والجد بن قيس ـ قبحهما الله ـ وأمثالهم ﴿لَوۡ خَرَجُواْ فِيكُم﴾ غازين إلى تبوك ﴿مَّا زَادُوكُمۡ إِلَّا خَبَالٗا﴾ ما حصلتم منهم على فائدة ولم يزيدوكم إلا خبالًا. والخبال معناه: الفساد. أي: ما زادوكم إلا فساداً؛ لأنهم يفسدون عليكم.

وقوله: ﴿وَلَأَوۡضَعُواْ خِلَٰلَكُمۡ﴾ العرب تقول: أوضع يُوضع إيضاعاً. إذا أسرع في سيره. فالإيضاع: الإسراع في السير. واسم فاعله (مُوضِع) ومنه قول امرىء القيس[(٢)]:

أَرَانَا مُوْضِعِيْنَ لأَمْرِ غَيْبٍ ... ونُسْحَرُ بالطعامِ وبالشرابِ

و﴿خِلَٰلَكُمۡ﴾ معناه: بينكم، يعني: لا يزيدونكم إلا فساداً على فساد،

---

(١) انظر: القرطبي (١٥٦/٨)، البحر المحيط (٤٨/٥).

(٢) ديوانه ص٤٣.

ولأسرعوا فيما بينكم بالمشي بالنميمة وإلقاء المخالفات والأراجيف والأكاذيب التي تضر المسلمين ولا تنفعهم. وهذا معنى قوله: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ لأن العدو إذا كان في ثياب صديق يفعل كل شرٍ ويضر كل مضرة من حيث لا يشعر به، فهم لا يزيدونكم إلا الفساد. أي: لا يزيدونكم شيئاً كائناً ما كان إلا الفساد والخبال، فإنهم يفسدون عليكم وكأنهم يفسدون وهم في المدينة، فإذا سافروا كان خبالهم وفسادهم أكثر؛ لأنهم يلقون بينهم بالنمائم ويلقون الأراجيف والتخويف من المشركين وإلقاء التشاويش كي يخاف المسلمون، ولتفسد ذات بينهم، وهم أعداء ـ قبّحهم الله ـ وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ﴾ ﴿يَبْغُونَكُمُ﴾ معناه يطلبون لكم الفتنة. ﴿الْفِتْنَةَ﴾ هي ما يوقعون بكم من الشر، من المعاداة بينكم بإلقاء النميمة والخوف من الأعداء بإلقاء الأراجيف الكاذبة ونحو ذلك.

وقوله: ﴿وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ﴾ في هذا الحرف وجهان من التفسير للعلماء[1]:

قال بعض العلماء: ﴿وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ﴾ أي: عيون يسمعون الأخبار ويأتونهم بها ليقدروا بذلك على ما شاؤوا من الفساد والخبال.

وقال بعض العلماء: ﴿وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ﴾ هم سادات وأشراف في قومهم، وفيكم من يسمع لهم لمكانتهم وشرفهم في قبيلته كابن أُبيّ والجد بن قيس ومن يكون له شرف وسيادة في قومه يسمعون منه وتؤثر دعايته السيئة عليهم بإلقاء الفتن والأراجيف. وهذا معنى قوله: ﴿وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ﴾ وهذه الآية الكريمة نصّ الله (جلّ وعلا) فيها على إحاطة علمه، وأنه (جلّ وعلا) من شدة إحاطة علمه بالأشياء يعلم الأشياء الذي سبق في علمه أنها لا تكون[2]، هو يعلم أن لو كانت كيف تكون؛ لأن هؤلاء المتخلفين عن غزوة تبوك كالجد بن قيس وعبدالله بن أُبي بن سلول

---

(١) انظر: ابن جرير (١٤/٢٨١)، القرطبي (٨/١٥٧)، ابن كثير (٢/٣٦١).

(٢) مضى عند تفسير الآية (٩٦) من سورة الأنعام.

لا يحضرونها أبداً؛ لأن الله كره انبعاثهم فثبّطهم عنها لحكمة إلهية، ومصلحة للمسلمين، فهم لا يحضرونها أبداً، وقد سبق في علم الله الأزلي أنهم لا يحضرونها أبداً، وأنهم لا يخرجون معه أبداً، وخروجهم هذا الذي سبق في سابق علمه أنه لا يكون صرح بأنه عالم أن لو كان كيف يكون، فعرفنا من هذا أنه (جلّ وعلا) يعلم الموجودات والمستحيلات والمعدومات والجائزات، حتى إنه من إحاطة علمه ليعلم المعدوم الذي سبق في سابق علمه أنه لا يوجد يعلم أن لو وُجد كيف يكون لشدة إحاطة علمه بالأشياء، فخروج هؤلاء لا يكون، وهو عالم ذلك الخروج الذي لا يكون أن لو كان كيف يكون، كما قال هنا: ﴿لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ الآية [التوبة: آية ٤٧] والآيات الدالة على هذا المعنى كثيرة جداً، من ذلك ما قدّمنا في سورة الأنعام من أن الكفار يوم القيامة إذا رأوا القيامة وعاينوا الحقيقة تمنوا أن يردوا إلى الدنيا مرة أخرى ليصدقوا الرسل ويؤمنوا بالله، وهذا الرد الذي تمنوه علم الله أنه لا يكون، وقد صرّح بأنه عالم أن لو كان كيف يكون، وذلك في قوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأنعام: آية ٢٧] هذا الرد الذي تمنوه هو عالم أنه لا يكون، وقد صرّح بأنه عالم أن لو كان كيف يكون حيث قال: ﴿وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الأنعام: آية ٢٨] والآيات بمثل هذا كثيرة في كتاب الله كقوله: ﴿وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّواْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [المؤمنون: آية ٧٥] وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُواْ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ الآية [النساء: آية ٦٦].

فهذه الآيات من كتاب الله دلت على إحاطة علم الله (جلّ وعلا) بكل شيء، حتى بالمعدومات التي سبق في علمه أنها لا توجد، فهو عالم أن لو وُجدت كيف يكون، فهو عالم بأن أبا لهب لن يؤمن، وهو يعلم لو آمن أبو لهب أيكون إيمانه تاماً أو ناقصاً، وهكذا. وهذا يدل على أن المحيط بالعلم هو الله (جلّ وعلا) وحده، وخلق الله لا يعلمون من العلم إلا ما علّمهم العليم

الخبير الأعظم كما دلّ عليه هذا القرآن في آيات كثيرة، وإيضاح ذلك أن أعلمَ المخلوقين الملائكة والرسل - على جميعهم صلوات الله وسلامه - فالملائكة لمّا قال لهم الله: ﴿فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ﴾ [البقرة: الآيتان ٣١، ٣٢] قولهم: ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ﴾ (لا) فيه، هي (لا) التي لنفي الجنس، فنفوا جنس العلم من أصله عن أنفسهم إلا شيئاً علّمهم الله إياه ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ﴾.

وكذلك الرسل (صلوات الله وسلامه عليهم) مع علمهم وفضلهم وجلالتهم لا يعلمون من أمر الله إلا شيئاً علّمهم الله إياه ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: آية ٨٥].

هذا سيد الرسل وأكمل الخلق نبينا محمد (صلوات الله وسلامه عليه) - وهو هو - رُميت أحب أزواجه إليه بفرية وإفك، حيث رُميت بصفوان بن المعطّل السلمي في غزوة المريسيع، وهو لا يدري ما قيل عنها أحق أو كذب، وكان يقول لها: يا عائشة إن كنت ألممت بذنب فتوبي، فإن الله يتوب عليك[1]. ولم يدرِ هل ما قيل عنها حق أو كذب حتى أخبره العليم الخبير (جلّ وعلا) قال: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ۖ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [النور: آية ٢٦].

وهذا نبي الله إبراهيم إمام الأنبياء (صلوات الله عليهم جميعاً) ذبح عجله وتعب هو وامرأته في إنضاج العجل يظن أن الملائكة يأكلون، لا يدري من هم، حتى إنه لمّا رآهم لم يأكلوا خاف منهم كما في قوله: ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ﴾ [هود: آية ٧٠] وصرّح لهم بأنه خائف منهم حيث قال: ﴿فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ﴾ [الحجر: آية ٥٢] حتى ضحكت امرأته، ولما ارتحلوا عنه ونزلوا بنبي الله لوط - وهو هو - ضاق بهم ذرعاً وقال: ﴿هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ [هود: آية ٧٧] ولم يدرِ أنهم ملائكة حتى قال كلامه المحزن: ﴿لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٩) من سورة الأنعام.

[هود: آية ٨٠] وما علم أنهم ملائكة حتى قالوا له: ﴿يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيْكَ﴾ الآيات [هود: آية ٨١].

وهذا نبي الله نوح ـ وهو هو ـ يقول لربه: ﴿رَبِّ إِنَّ ٱبْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [هود: آية ٤٥] ولا يدري أن ذلك الولد الذي يطلب ربه أن ينجيه أنه كافر ليس من أهله الموعود بنجاتهم حتى قال له العليم الخبير: ﴿يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [هود: آية ٤٦] فما قال نوح إلا أن قال: ﴿رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [هود: آية ٤٧].

وهذا نبي الله يعقوب ـ وهو هو ـ قال الله فيه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ﴾ [يوسف: آية ٦٨] ابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم، وولده في مصر بينه وبينه مراحل لا يدري ما شأنه ﴿ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ﴾ الآية [يوسف: آية ٨٧].

وهذا نبي الله سليمان ـ وهو هو ـ أعطاه الله الرياح غدوها شهر ورواحها شهر، وسخّر له مردة الشياطين والجن، ما كان يدري عن مأرب وجماعة بلقيس حتى ذهب إليهم الضعيف المسكين الهدهد، ولمّا توعد الهدهد، وكان الهدهد حصّل منهم بعض علم الجغرافيا والتاريخ، وهذا العلم لم يكن عند سليمان في ذلك الوقت، وكان سليمان يهدد الهدهد ويقول: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾﴾ [النمل: آية ٢١] فجاء الهدهد لمّا عرف بعض علم جغرافية اليمن وتأريخها، وسليمان لا يدري عنه، أفاده هذا العلم قوة ووقف أمام سليمان وقفة الرجل الصامد، ونسب الإحاطة لنفسه ونفاها عن سليمان وقال: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا﴾ الآيات [النمل: الآيات ٢٢ـ ٢٤] . فسليمان ما كان يدري عن هذا، ولم يقل له إلا أن قال: ﴿سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ وأمثال هذا كثير. فالله (جلّ وعلا) هو العليم

الأعظم، والملائكة والرسل (صلوات الله وسلامه عليهم) يعلمون من علم الله ما علمهم الله من غيبه وما لم يعلمهم لم يعلموه، وهو (جلّ وعلا) وحده هو المحيط علمه بكل شيء، العالم بما كان وما يكون، وبالمعدوم والموجود، والمعدوم الذي لا يوجد أن لو وُجد كيف يكون ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [النمل: آية ٦٥] وهذا معنى قوله: ﴿لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ﴾ [التوبة: آية ٤٧].

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ كقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: آية ٤٤] فقال في الأولى: إن تقوى المتقين لا تخفى عليه، وأن ظلم الظالمين لا يخفى عليه.

وقد قدّمنا في هذه الدروس مراراً[1] أن أصل معنى الظلم في لغة العرب هو: وضع الشيء في غير محله، مادة الظاء واللام والميم (ظَلَم) معناها وضع الشيء في غير محله. هذا هو أصل معنى هذه المادة، وأعظم أنواعها هو الشرك بالله؛ لأن الشرك بالله وضع للعبادة في غير موضعها؛ لأن من يأكل نعم الله ويتقلب في رزقه وعافيته إذا كان يعبد غيره فقد ظلم، أي: وضع العبادة في غير موضعها، كما قال تعالى عن لقمان: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: آية ١٣] وقال: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة: آية ٢٥٤] ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾﴾ [يونس: آية ١٠٦] ولأجل هذا كان الظلم في القرآن يطلق على الشرك وعلى غيره من المعاصي والمخالفات، وثبت في صحيح البخاري عن النبي ﷺ أن قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: آية ٨٢] قال: ولم يلبسوا إيمانهم بشرك[2]. هذا أصل الظلم في لغة العرب.

وهو في الشرع على نوعين: ظلم أكبر، وظلم دون ظلم، فالظلم

---

(١)(٢) مضى عند تفسير الآية (٥١) من سورة البقرة.

الأكبر هو وضع العبادة في غير موضعها، وهو الشرك بالله. وظلم دون ظلم وهو أن يطيع عدوه إبليس ويعصي ربه، فالذي أطاع الشيطان وعصى الله قد ظلم نفسه؛ لأنه عرضها لسخط الله ووضع الطاعة في غير موضعها، والمعصية في غير موضعها. وهذا معنى قوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [التوبة: آية ٤٧] وهذا المعنى مشهور في كلام العرب، أن الظلم هو وضع الشيء في غير موضعه، ومنه قد تقول العرب للذي يضرب لبنه قبل أن يروب: هو ظالم؛ لأنه وضع الضرب في غير موضعه؛ لأن ضربه قبل أن يروب يُضيع زبده، وهو معنى معروف في كلام العرب، ومنه قول الشاعر(١):

وقائلة ظلمتُ لكم سقائي وهل يخفى على العَكَدِ الظَّلِيمُ

«ظلمتُ لكم سقائي» تعني: ضربته لكم قبل أن يروب. والعَكَد: عصب اللسان. يعني: أن اللسان لا يخفى عليه الظليم وغير الظليم، أي الذي ضُرب قبل أن يروب وغيره، ومن هذا المعنى قول الآخر(٢):

وصاحبِ صِدْقٍ لم تَرِدْنِي شَكَاتُه ظَلَمْتُ وفي ظَلْمِيْ لَهُ عَامِداً أَجْرُ

ومن هنا قالت العرب للأرض الذي حُفِر فيها وليست محلًا للحفر: «مظلومة» ومنه قول نابغة ذبيان(٣):

إِلاَّ الأَوَارِيَّ لأْياً ما أُبَيِّنُها والنؤي كالحوضِ بالمَظْلُومةِ الجَلَدِ

وقالوا للتراب المنزوع من القبر «ظليم» لأن أصل القبر يُحفر في محل لم يحفر قبل ذلك عادة، فهو حفر في محل ليس موضعاً للحفر، ومنه قول الشاعر(٤):

---

(١) السابق.
(٢) السابق.
(٣) السابق.
(٤) السابق.

فَأَصْبَحَ فِي غَبْرَاءَ بعد إِشَاحَةٍ من العَيْشِ مردودٌ عليها ظَلِيْمُهَا

وجاء الظلم في القرآن الكريم بمعنى النقص في آية واحدة في سورة الكهف، وهي قوله: ﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا﴾ [الكهف: آية ٣٣] أي: لم تنقص منه شيئاً. هذه وحدها في القرآن جاء فيها الظلم بمعنى النقص. والعلماء يقولون: إن أصلها من المادة التي ذكرنا؛ لأن صاحب البستان ينفق ويصرف عليه المال، فإذا جاء بِغَلَّةٍ وثمرة طيبة فكأنه جاء بشيء في موضعه حيث ردّ لصاحبه المال ووجد منه ربحاً، أما إذا صرف فيه المال ولم يأتِ بشيء فقد ضاع المال المصروف فيه، ولم يأتِ شيء بخلفٍ منه، فكأن هذا وضعٌ للشيء في غير موضعه للضياع والرزية. وهذا معنى قوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [التوبة: آية ٤٧].

قال تعالى: ﴿لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَـٰرِهُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى وَلَا تَفْتِنِّىٓ ۚ أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾ إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ۖ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا۟ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا۟ وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [التوبة: الآيات ٤٨ ـ ٥٢].

يقول الله (جلّ وعلا): ﴿لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَـٰرِهُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [التوبة: آية ٤٨].

لمّا بيّن الله (جلّ وعلا) للنبي والمسلمين أنه ثبط عنهم عظماء المنافقين للمصلحة، وأنهم لو خرجوا فيهم ما زادوهم إلا خبالًا، أي: فساداً ومشياً بالنميمة وتثبيطاً وإلقاءً للأراجيف، بيّن أن هذا الذي ينطوي عليه المنافقون من الشر كان موجوداً فيهم قبل ذلك، قبل أن يُنزل القرآن في شأنهم وأن تطّلعوا عليهم؛ لأن عظماء المنافقين بالمدينة كعبدالله بن أُبي بن سلول، والجد بن قيس أخي بني سلمة، عندما جاء رسول الله ﷺ المدينة

وآمن الأنصار شق ذلك عليهم وعظم، وأبوا أن يؤمنوا، وصاروا يفكرون في الحالة التي يبطلون بها دعوة دين الإسلام ويخرجوا النبي ﷺ ويمنعون الناس من الإيمان، فلما جاءت غزوة بدر عرفوا قوة المسلمين. قال لهم ابن أُبي: هذا أمر مُسْتَقْبِل فآمنوا ظاهراً[1]. وهم في الباطن يتربصون بهم الدوائر، يجيلون أفكارهم في الحالة التي يضرونهم بها.

﴿لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟﴾ أي: طلبوا الفتنة، طلبوا لكم الفتنة قبل هذا من رد الناس عن الدين، وإبطال الدين، وعدم اتباع النبي ﷺ، والإفساد بين المسلمين.

﴿وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ﴾ العرب تقول: قلَّب الأمور، وقلَّب الأمر. معناه: أن يتفكر بدقة ويدبّر في الأمور ويقلبها وجهاً إلى ظهر، وظهراً إلى وجه ليتأمل في الحالة التي يحصِّل بها مقصوده. فمعنى قلَّبوا الأمور: أجالوا الأفكار ونظروا في الدهر جنباً إلى جنب من هذا الأمر إلى هذا، واحتمال هذا وهذا ليصلوا بذلك إلى رد الناس عن النبي ﷺ، والقعود في وجه الدعوة إلى الله (جلّ وعلا)، وهذا معنىً معروف في كلام العرب، تقول العرب: قلّبت أمري، وقلّبت أموري، إذا أجلت فكري في المسائل ونظرت فيها وفي احتمالاتها لنعلم أي الأمور هو الذي يعينني على قصدي. وهذا معنى معروف في كلام العرب مشهور نزل به القرآن العظيم، منه قول هبيرة بن أبي وهب المخزومي زوج أم هانىء بنت أبي طالب (رضي الله عنها)، فإن زوجها هبيرة لما فتح النبي ﷺ مكة فرّ كافراً إلى نجران، ولم يزل بها حتى مات ـ والعياذ بالله ـ وقد أرسل إلى أم هانىء من هناك من نجران هذه الأبيات ـ وفيها محل الشاهد ـ وهو قوله لها[2]:

لَعَمْرُكِ ما وَلَّيْتُ ظَهْرِيَ محمداً وأصحابه جفلاً ولا خِيْفَةَ القتلِ

---

(١) ذكره ابن كثير في تفسيره (٢/٣٦١).

(٢) مضى عند تفسير الآية (٤٨) من سورة الأعراف.

ولكنني قلَّبتُ أمري فلم أجد لسيفي غَنَاءً إن ضربتُ ولا نَبْلي
وقفتُ فلما خفتُ ضيعة موقفي رجعتُ لعودٍ كالهزبر أبي الشبلِ

ومحل الشاهد منه قوله «قلَّبتُ أمري» أي: أجلت فكري ونظرت وتأملت في الأمور فوجدت ثباتي وعدم فراري يؤدي إلى قتلي ولا نتيجة بعده. وهذا معنى قوله: ﴿وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ﴾ أي: أجالوا أفكارهم وقلّبوا الأمور ونظروا في احتمالاتها لينالوا كيداً يكيدونك به من تثبيط عن الدين، أو إلقاء شر بين المسلمين، أو إعانة عدو عليك حتى يظفر بك - قبّحهم الله -.

﴿حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ﴾ جاء الحق وهو نصر الله لنبيه بدين الإسلام، وقتل صناديد قريش يوم بدر.

﴿وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ معناها: غلب دين الله وظهر انتصاره واستقباله، فعند ذلك أسلموا إسلاماً غير حقيقي، وهم يتربصون الدوائر بالمؤمنين في باطنهم.

وقوله: ﴿وَهُمْ كَٰرِهُونَ﴾ والحال هم كارهون - قبحهم الله - لأن كل ما يناله المسلمون من نصر وفتح وخير يكرهونه ويسوؤهم، وكل ما جاءهم من شرٍ يفرحون به، وهذه عادة الكفار، لا يزالون يحاولون رد المؤمنين عن الدين حتى يقنطهم الله من ذلك، كما قال الله في الكفار: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟﴾ [البقرة: آية ٢١٧] وبيّن أنهم لم يستطيعوا في قوله: ﴿ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ﴾ [المائدة: آية ٣] كذلك المنافقون كانوا يطمعون في ضياع الدعوة، وأن النبي ﷺ يضمحل أمره حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون ذلك - قبحهم الله - وهذه من خسائس المنافقين يظهرها الله لنبيه ﷺ، ومن أسماء هذه السورة العظيمة: (الفاضحة) لأنها فضحت أسرار المنافقين كما تقدّم، وسيأتي فيها كثيراً. وهذا معنى قوله: ﴿حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَٰرِهُونَ﴾.

٨/ب / وقوله: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى﴾ [التوبة: آية ٤٩] قرأ هذا

الحرف عامة السبعة غير ورش عن نافع والسوسي عن أبي عمرو: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي﴾ بهمزة محققة، وقرأه ورش والسوسي بإبدال الهمزة واواً مادةً للّام ﴿ومنهم من يقول وذن لي﴾ أما عند الوقف فقد أجمع جميع القراء على أنك إن وقفت على ﴿يَقُولُ﴾ ابتدأت فقلت: ﴿ايذن لي﴾[1] وهو الأمر من أذِن له يأذن له. تقول العرب: أذِن له يأذن له. وإذا جاء منها أمر تقول: ائذن لي. أصله: إئذن لي. ولكن القاعدة المقررة في العربية: أن كل همزتين اجتمعتا في كلمة أُخراهما ساكنة وجب إبدالها حرف مد مجانساً للشكلة التي قبلها سواءً أكانت التي قبلها همزة وصل أو همزة قطع، وهذا حكم لا خلاف فيه بين القراء ولا بين علماء العربية ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي﴾ أي: ائذن لي في القعود ولا تكلفني بالشخوص إلى غزوة تبوك. وهذه الآية نزلت في الجد بن قيس الخبيث المنافق أخي بني سلمة، كان رجلًا سيداً فيهم، ولما قدم النبي ﷺ قال لبني سلمة: من سيدكم يا بني سلمة؟ قالوا: الجد بن قيس على أنا نبخِّله؛ لأنه بخيل لا يجود بالمال. فقال: وأي داء أدوأُ من البخل؟ إنما سيدكم هذا الشاب الأبيض الجعد[2]. يعني بشر بن البراء بن معرور. وكان حسان

---

(١) انظر: الإتحاف (٢/٩٢).

(٢) في بعض روايات الحديث أن النبي ﷺ قال ذلك في عمرو بن الجموح (رضي الله عنه)، كما في الأدب المفرد رقم (٢٩٧) من حديث جابر (رضي الله عنه). وهو في صحيح الأدب المفرد رقم: (٢٢٧). وأخرجه الحاكم (٣/٢١٩) ـ وصححه ووافقه الذهبي ـ من حديث أبي هريرة (رضي الله عنه) بنحو حديث جابر. وأورده الحافظ ابن عبدالبر في الاستيعاب (١/١٤٦) وعزاه لابن إسحاق. كما أورده الحافظ في الإصابة (١/١٥٠)، وفي الفتح (٥/١٧٨).

أما الرواية التي فيها أن النبي ﷺ قال ذلك في بشر بن البراء (رضي الله عنه) فقد ذكرها الواحدي في أسباب النزول ص٢٤٧ ـ ٢٤٨، وأوردها الحافظ في الفتح (٥/١٧٩) وعزاه للوليد بن أبان في كتاب الجود من حديث كعب بن مالك (رضي الله عنه). وقد صحح الحافظ هذه الرواية وجمع بينها وبين الرواية الأخرى. بيد أن الحافظ ابن عبدالبر في الاستيعاب (١/١٤٦)، وابن الأثير في أسد الغابة (١/٢١٨) رجحا أنها في بشر بن البراء. والله أعلم.

(رضي الله عنه) يمدح بشر بن البراء بتسويد النبي ﷺ إياه ويقول[١]:

وسُوِّد بشر بن البراءِ بجُودِهِ وحُقَّ لبشر بن البرا أن يُسَوَّدَا
فتىً إن أتاهُ الوفدُ أتلفَ ماله وقال خذوه إنني عائد غدا

فنزلت هذه الآية في الجد بن قيس على ما عليه جماعة المفسرين ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي﴾ هو الجد بن قيس أخي بني سلمة. ذكر ابن إسحاق وغيره[٢] أن النبي ﷺ في وقت تجهيزه لغزوة تبوك قال له: «**يا جد هل لك في جِلَاد بني الأصفر؟**» يعني الروم. فقال له الجد: يا رسول الله - ﷺ - ائذن لي في الجلوس فإني رجل قد علم قومي أنني لا صبر لي عن النساء، وإن نساء بني الأصفر فيهن جمال ووضاءة وجوه أخاف إن رأيتهن أن لا أصبر عنهن، فائذن لي ولا تفتني بصباحة وجوههن إذا خرجت إليهن. وهذا عذر بارد وليس قصده إلا النفاق، فأنزل الله فيه: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي﴾، أي: بصباحة وجوه نسائهم على ما قاله غير واحد.

وقال بعض العلماء وأسنده ابن جرير[٣] إن النبي ﷺ قال له: «**يا جد بن قيس هل لك في جلاد بني الأصفر لتغنم منهم سراري ووصفاء؟**» فقال: ائذن لي ولا تفتني بالنساء. هذا منزع آخر ووجه في الآية.

وجمهور العلماء يقولون: هي في الجد بن قيس، وهو عذر نفاق لا شك فيه، وهو لا عذر له، وإنما يتلمس الأعذار الكاذبة ليجلس - قبّحه الله - .

---

(١) البيتان عند الواحدي في أسباب النزول ص٢٤٨، القرطبي (١٥٩/٨) ونص البيت الثاني هناك:

إذا ما أتاه الوفد أذهب ماله وقال خذوه إنني عائد غدا

(٢) أخرجه ابن جرير (٢٨٧/١٤) من طريق ابن إسحاق. وأخرجه الطبراني في الكبير (١٢٢/١٢) وقال الهيثمي في المجمع (٣٠/٧): «فيه يحيى الحماني وهو ضعيف» ا.هـ. وأورده أيضاً الواحدي في أسباب النزول ص٢٤٧، ولم يذكر السند.

(٣) ابن جرير (٢٨٨/١٤) عن ابن زيد مرسلاً.

ثم إن الله قال: ﴿أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟﴾ الفتنة التي يزعم أنه يتوقاها وهي خوفه أن يفتتن بجمال نساء بني الأصفر هذه ليست هي الفتنة، ولكن الفتنة العظيمة هذه التي سقط فيها ووقع فيها وهي تخلفه عن الجهاد واعتذاره الكاذب لرسول الله ﷺ ونفاقه، هذه هي الفتنة والضلال. فالمعنى: هذا الذي سقط فيه باعتذاره هو عين الفتنة العظيمة لا فتنة جمال نسائهم الذي يزعم أنه هو الذي يخاف فتنته. وهذا معنى قوله: ﴿وَلَا تَفْتِنِّىٓ﴾.

﴿أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ [التوبة: آية ٤٩] في هذه الآية الكريمة وعيد شديد للمنافقين، وجهنم طبقة من طبقات النار، وتطلق على النار.

وقوله: ﴿لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ لأنها تهلكهم وتغشاهم فتحتوي عليهم من جميع الجهات، وتُغلّق أبوابها عليهم، ويُضيّق عليهم فيها كما بيّن تعالى ذلك في آيات كثيرة، فبيّن إحاطة النار بهم في قوله في العنكبوت: ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَـٰفِرِينَ ۝٥٤ يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٥٥﴾ [العنكبوت: الآيتان ٥٤، ٥٥] وقوله تعالى في الكهف: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّـٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ...﴾ الآية [الكهف: آية ٢٩]. وقال تعالى: ﴿لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ﴾ [الأنبياء: آية ٣٩] ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ﴾ [الأعراف: آية ٤١] إلى غير ذلك من الآيات الدالة على إحاطتها بهم. وبيّن (جلّ وعلا) أنها تُطبّق عليهم وتغلّق أبوابها، وهو قوله: ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ۝٨ فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍۭ ۝٩﴾ [الهمزة: الآيتان ٨، ٩] وأنها تضيق عليهم ضيقاً شديداً كما قال تعالى: ﴿وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا ۝١٣﴾ [الفرقان: آية ١٣] أعاذنا الله وإخواننا المؤمنين منها. وهذا معنى قوله: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ [التوبة: آية ٤٩].

﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ۖ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا۟ قَدْ

أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّواْ وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [التوبة: آية ٥٠].

﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ﴾ هذا مما أبداه الله لنبيه من أسرار المنافقين القبيحة ﴿إِن تُصِبْكَ﴾ يا نبي الله ﴿حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ﴾ المراد بالحسنة هنا: غلبة الأعداء والظفر والنصر. يعني: إن ظفرتم بأعدائكم وغلبتموهم ونصركم الله عليهم تسؤهم تلك الحسنة، ساءهم ذلك لأن العدو الشديد العداوة يسوؤه ما ينال عدوه من الخير، معناه: إن غزوتم ونصركم الله وغلبتم وظفرتم ساءهم ذلك وحزنوا من أجله ﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ﴾ كأن يقتل قومك، أو لا ينصروا، أو يأتيك شيء يؤذيك ويؤذي قومك ﴿يَقُولُواْ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ﴾ إذا سمعوا أن سرية من السرايا أو جيشاً من الجيوش وقع فيهم قتل أو جراح قالوا: ﴿قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ﴾ نحن خفنا من هذا وأخذنا لأنفسنا بالاحتياط فاستأذنا حتى جلسنا وسلمنا من تلك البلايا التي نالتهم من القتل والجراح ﴿وَتَوَلَّواْ﴾ عن دين الله ﴿وَّهُمْ فَرِحُونَ﴾ مسرورون من جهتين: أنكم أصابكم ذلك السوء، وأنهم هم ما كانوا معكم ـ سلموا منه ـ كما تقدّم إيضاح هذا المعنى في سورة النساء؛ لأن الله أوضحه فيها بقوله: ﴿وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَىَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾﴾ [النساء: آية ٧٢] معنى قوله: ﴿قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَىَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا﴾ حاضراً معهم فيصيبني ما أصابهم من القتل والجراح، وهو السبب الذي تولوا به وهم فرحون الآن. فالآية معناها: ﴿إِن تُصِبْكَ﴾ يا نبي الله ﴿حَسَنَةٌ﴾ أي: يعطك الله ظفراً ونصراً ﴿تَسُؤْهُمْ﴾ تلك الحسنة ﴿وَإِن تُصِبْكَ﴾ سيئة كقتل قومك وجراحهم وإدالة الكفار منهم ﴿يَقُولُواْ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا﴾ أخذنا لأنفسنا بالاحتياط وتخلفنا عن هذا الذي وقعوا فيه حذراً منّا واحتياطاً أن يصيبنا مثل ما أصابهم ﴿وَيَتَوَلَّواْ﴾ عن دين الإسلام، ونصرة رسول الله، أو يتولى بعضهم راجعاً إلى بعض، والحال ﴿وَّهُمْ فَرِحُونَ﴾ مسرورون بالسوء الذي أصابكم وسلامتهم منه، وأنهم لم يحضروه معكم. هذا معنى قوله: ﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُواْ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّواْ وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

ثم إن الله (جلّ وعلا) أمر نبيه ﷺ أن يقول لهم: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا﴾ [التوبة: آية ٥١] لن يصيبنا أذى من الأذى لا قتل ولا جراح ولا مصيبة كائنة ما كانت إلا ما كتبه لنا ربنا في أزله. وقوله: ﴿مَوْلَىٰنَا﴾ أي سيدنا وناصرنا. والمولى: أصله (مَفْعَل) من الولاية. والمولى في لغة العرب يطلق على كل من ينعقد بينك وبينه معنى تكون تواليه ويواليك به[1]؛ ولذا كثر إطلاق المولى على ابن العم؛ لأن بني العم يوالوك بعصبية القرابة وتواليهم، ويطلق على المعتِق؛ لأن العتق ولاية حصلت بينه وبين المعتَق، فهو يطلق على المعتِق وعلى المعتَق. ويطلق المولى على الصديق، وعلى كل من بينك وبينه ولاية كائنةً ما كانت[2]. وقوله تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِيَ﴾ [النساء: آية ٣٣] أي: عصبة يرثون المال، كبني العم ونحوهم من العصبات، ومن هذا المعنى قول الفضل بن العباس من أولاد أبي لهب[3]:

مهلاً بني عمّنا مَهلاً مَوالينا لا تُظهروا لنا ما كان مدفونا

وإطلاق المولى على ابن العم مشهور في كلام العرب، ومنه قول طرفة بن العبد[4]:

وأَعْلَمُ عِلْماً لَيْسَ بالظَّنِ أنّه إذا ذَلَّ مولى المَرءِ فهو ذليلُ

والله (جلّ وعلا) مولى المؤمنين؛ لأنه يواليهم بالنصر والثواب والرحمة وهم مواليه؛ لأنهم يوالونه بالطاعة، حتى إن كل شيء يوالي شيئاً يقال له: (مولى) ولذا جعل الله النار مولاهم كما قال: ﴿مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ هِيَ مَوْلَىٰكُمْ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الحديد: آية ١٥] لأنها تواليهم لما عملوا من الأعمال السيئة المؤدية لها. وهذا معنى قوله: ﴿لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٥١) من سورة الأنعام.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٤٠) من سورة الأنعام.

(٣) السابق.

(٤) مضى عند تفسير الآية (١١٢) من سورة الأنعام.

ﵟٱللَّهُ لَنَاﵞ [التوبة: آية ٥١] في أزله ﵟهُوَ مَوۡلَىٰنَاۚﵞ سيدنا ومدبر شؤوننا ونحن متوكلون عليه ﵟوَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَﵞ تقديم المعمول هنا في قوله: ﵟوَعَلَى ٱللَّهِﵞ يدل على الحصر، أي: لا يُتوكّل إلا على الله وحده. والتوكل معناه: تفويض الأمور، وكَّلتُ الأمر إليه: فوَّضْتُها إليه.

وعلى العبد أن يفوض أموره إلى ربه (جلّ وعلا) ويعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبهُ. والتوكل على الله والتفويض عليه لا ينافي الأسباب، فيجب على المسلم أن يأخذ بالأسباب كما جاء به الشرع الكريم، ويكون في قرارة نفسه متوكلًا على الله، وهذا سيد المتوكلين (صلوات الله وسلامه عليه) مرّ عليكم في الأيام الماضية أنه مع شدة توكله على الله وثقته بالله يتسبب بالمحافظة من أعدائه بأن يدخل في غار مظلم في جبل ثور ليسن لأمته التوكل على الله والأخذ بالأسباب مع التوكل على ضوء الشرع الكريم، وهذا هو الحق الذي لا شك فيه، فترك الأسباب من الضلال، والاعتماد بالكلية عليها من الضلال، والحق هو أن يأخذ الإنسان بالأسباب حسب ما جاء به الشرع الكريم متوكلًا قلبه على الله، مفوضاً أمره إليه، عالماً بأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه، وما أصابه لم يكن ليخطئه كما قال هنا: ﵟقُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوۡلَىٰنَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٥١ﵞ [التوبة: آية ٥١] وقد أوضح الله لنا في سورة الحديد أن جميع المصائب وجميع الأمور لا يصيب الإنسان منها إلا شيء كان مقدراً قبل أن يخلق الخلق، وقبل أن توجد المصيبة، وربنا يقول لنا في آية الحديد الآتية ما معناه: بينت لكم أن جميع الأمور كتبتها وحسمتها عندي لتتحصلوا على أمرين: أحدهما: أن لا تفرحوا بشيء أتاكم فإنه آتيكم لا محالة، ولا تحزنوا على شيء فاتكم لأنه فائت لا محالة، وهذا نص عليه تعالى بقوله: ﵟمَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚﵞ أي: أن نخلقها ﵟإِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞﵞ [الحديد: آية ٢٢] إنما بيّنا لكم هذا القَدَر السابق الأزلي ﵟلِّكَيۡلَا تَأۡسَوۡاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡﵞ [الحديد: آية ٢٣] لا تحزنوا على شيء فاتكم فهو فائت لا محالة؛ لأن الله كتب ذلك وقدّره ﵟوَلَا تَفۡرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمۡۗﵞ

فهو آت لا محالة. هذه الآيات القرآنية إذا تأملها المسلم وتدبّر معانيها فَهِم عن الله، وهانت عليه أمور الدنيا فلم تعظم في قلبه، وهذا معنى قوله: ﴿لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: آية ٥١].

﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [التوبة: آية ٥٢].

﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ﴾ كان المنافقون ـ قبّحهم الله ـ في المدينة يداً مع الكفار واليهود على النبي ﷺ وأصحابه يُفشون إليهم أسراره، ويُلقون الأراجيف في قلوب المؤمنين، فهم يد مع الكفار والمنافقين على رسول الله ﷺ؛ ولذا كان المنافقون والكفار واليهود كأنهم طائفة واحدة ضد الإسلام والمسلمين؛ ولذا قال هنا: أنتم أيها المنافقون المتعاونون مع إخوانكم من الكفار واليهود الذين تتربصون الدوائر بنا.

التربص في لغة العرب: الانتظار، العرب تقول: «تربص»: إذا انتظر، وتربّص بالسلعة إلى وقت الغلاء: انتظر بها. وهذا معروف، وهو مشهور جداً في كلام العرب، ومنه قول الشاعر[1]:

تربَّص بها ريبَ المنونِ لعلَّها تُطلَّقُ يوماً أو يموتَ حَلِيْلُهَا

فالتربص الانتظار. ومعنى الآية الكريمة: أنتم أيها المتربصون بنا عواقب الدهر ونوائبه راجين أن تدور علينا الدوائر فتهلكنا لا تتربصون بنا إلا واحدة من اثنتين كلتاهما أحسن من الأخرى. ﴿هَلْ تَرَبَّصُونَ﴾ أصله: (هل تتربصون) حُذفت فيه إحدى التاءين. (هل) استفهام بمعنى النفي، ما تنتظرون بنا عاقبة إلا عاقبة هي إحدى الحسنيين. الحسنى: تأنيث الأحسن، وتُجمع على الحُسَن بضم ففتح، تقول: هذه الأنثىٰ هي الحُسنى، أي: الأحسن من غيرها. وتجمعها على الحُسَن بضم ففتح كما هو معروف في

(١) مضى عند تفسير الآية (٢٤) من سورة التوبة.

محله. فالحسنىٰ صيغة تفضيل، والحسنيين تأنيث الحسنى، وهي صيغة تفضيل. والمعنى لا تنتظرون بنا إلا إحدى خصلتين كلتاهما أحسن من غيرها:

إحداهما: أن نغلب أعداءنا وينصرنا الله عليهم فنظفر بالنصر والغنيمة ورضى الله (جلّ وعلا)، وهذه الخلة لا يوجد أحسن منها، فعاقبتنا إن صارت إليها عاقبة كريمة محمودة.

والثانية: أن يقتلنا أعداؤنا فنموت فننال الشهادة، والشهادة هي أعظم فوز يناله المسلم في دار الدنيا، فهي أيضاً حسنى؛ لأنها أحسن من كل شيء.

وهذه الآية الكريمة من أعظم الآيات التي تجعل المسلم يشتاق إلى الجهاد غاية الاشتياق؛ لأنك لا تجد في الدنيا رجلًا مآله إلى خير عظيم على كل التقديرات إلا المجاهد في سبيل الله؛ لأنه إن مات نال أمنية الدنيا والآخرة، ونال الفوز والحياة الأبدية، والكرامة التي لا نظير لها، وإن نصره الله على عدوه فرجع ظافراً غانماً فائزاً فهذا أيضاً حسن، وهذا لا يكون لأحد إلا للمجاهد في سبيل الله، فمن تأمل معنى هذه الآية الكريمة اشتاق لا محالة إلى الجهاد في سبيل الله. وقد ذكر أصحاب المغازي أن النبي ﷺ لما أراد الخروج إلى المشركين في غزوة أُحد كان جابر بن عبدالله أبوه عبدالله بن عمرو بن حرام له بنات سبع، فجابر أخواته سبع، ذكروا أن النبي ﷺ أشار عليهم أن يبقى مع البنات واحد، الابن أو الأب لئلا يموتا فتبقى الإناث لا قيم عليهن، فقال الوالد وهو عبدالله بن عمرو بن حرام (رضي الله عنه وأرضاه): يا بني كل شيء أوثرك فيه على نفسي إلا الشهادة في سبيل الله، فوالله لا أُوثر على نفسي بها أحداً، واستشهد يوم أُحد (رضي الله عنه). ولا خلاف بين العلماء بأنه من الذين أنزل الله فيهم: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ إلى آخر الآيات [آل عمران: آية ١٦٩] وهذا معنى قوله: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ﴾ [التوبة: آية ٥٢] أي: ما تتربصون وتنتظرون بنا إلا واحدة من إحدى مسألتين كلتاهما أحسن من كل شيء ﴿إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ﴾ ظفر ونصر وفوز بالظفر والنصر، أو شهادة في سبيل الله. وهذا كله خير، فكل احتمال

صرنا إليه هو احتمال كريم، وهو أحسن من غيره. وهذا معنى قوله: ﴿إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ﴾.

﴿وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ﴾ ننتظر بكم خلاف ذلك: إحدى السوأيين، نحن ننتظر بكم إحدى السوأيين، كلتاهما أسوأ من الأخرى: أحدهما: أن يصيبكم الله بعذاب من عنده، كأن ينزل عليكم عقوبة فيهلككم لكفركم وتمردكم وتصيرون إلى النار، أو يسلطنا عليكم ويأمرنا بقتلكم فنقتلكم كما قال في إخوانهم الكفار: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ۝١٤﴾ [التوبة: آية ١٤] وهذا معنى قوله: ﴿وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا﴾ إذا عرفتم أنكم لا تتربصون بنا إلا الخير ونحن لا نتربص بكم إلا الشر إذن فتربصوا ونحن متربصون أيضاً، فكلنا يصير إلى ما يتربص به الآخر إليه. وهذا معنى قوله: ﴿فَتَرَبَّصُوٓاْ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ﴾ [التوبة: آية ٥٢].

يقول الله (جلّ وعلا): ﴿قُلْ أَنفِقُواْ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ ۖ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ۝٥٣ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ ۝٥٤ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ۝٥٥ وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ۝٥٦ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْاْ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ۝٥٧﴾ [التوبة: آية ٥٣ ـ ٥٧].

قرأ هذا الحرف عامة القراء السبعة غير حمزة والكسائي: ﴿أَنفِقُواْ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ بفتح الكاف، وقرأ حمزة والكسائي: ﴿أو كُرهاً﴾ بضم الكاف[1].

وقرأ عامة السبعة أيضاً غير حمزة والكسائي: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ﴾ بالتاء. وقرأ حمزة والكسائي: ﴿**وما منعهم أن يُقْبَل منهم نفقاتهم**﴾ بالياء[2].

---

(١) انظر: الإتحاف (٢/٩٣).

(٢) انظر: السبعة ص٣١٤ ـ ٣١٥.

وهذه الآية الكريمة من الآيات النازلة في الجد بن قيس أخي بني سلمة؛ لأن النبي ﷺ لما دعاه إلى الخروج في غزوة تبوك واعتذر له أعذار المنافقين المتقدمة قال له: ائذن لي في القعود، وهذا مالي أعينك به، خذ مالي نفقة مني في سبيل الله واتركني أنا أتخلف[١]. فأنزل الله في إنفاقه الذي عرض على النبي ﷺ: ﴿قُلْ﴾ يا نبي الله لهؤلاء المنافقين ﴿أَنفِقُواْ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ أي: في حال كونكم طائعين أو كارهين لن يقبل الله منكم نفقة؛ لأنه يعلم أنكم كفار في الباطن، وصيغة الأمر في قوله: ﴿قُلْ أَنفِقُواْ﴾ تقرر في الأصول[٢] أن من الصيغ التي ترد لها (افعل) قصد التسوية بين الأمرين، فمن أساليب اللغة أن تأتي بصيغة (افعل) تقصد بذلك أن تسوي بين الأمرين، المذكورين بعد ذلك، ونظيره في القرآن: ﴿فَاَصْبِرُوٓاْ أَوْ لَا تَصْبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ﴾ [الطور: آية ١٦] يعني: صبركم وعدمه سواء لا ينفعكم ذلك. ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ [التوبة: آية ٨٠] يعني: استغفارك وعدمه سواء، لا ينفع استغفارك ولا عدمه، كذلك قوله هنا: أنفقوا طائعين أو مكرهين لا ينفعكم ذلك الإنفاق؛ لأن الله لا يقبل أعمال الكفرة. وهذا معنى قوله: ﴿قُلْ أَنفِقُواْ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ [التوبة: آية ٥٣] طوعاً أو كرهاً: مصدران منكّران في موضع الحال. أي: في حال كونكم طائعين أو مكرهين. وإتيان التسوية بين الأمرين بصيغة (افعل) معروف في كلام العرب، ذكرنا له أمثلة في القرآن العظيم، ومن أمثلته في كلام العرب قول كثيّر عزة[٣]:

أَسِيْئي بِنَا أو أَحْسِني لا مَلُومةً لَدَيْنا ولا مَقْلِيَّةً إنْ تَقَلَّتِ

يعني: إن أسأت أو أحسنت إلينا فكل ذلك سواء لا يغير ودنا القديم بالنسبة إليك.

وقوله: ﴿لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ﴾ لن يقبل الله نفقتكم. قال بعض العلماء: لم يقبلها رسول الله فردها عليهم. وقال بعضهم: لا يقبلها الله، أي: لا

---

(١) أخرجه ابن جرير (١٤/٢٩٤)، والواحدي في أسباب النزول ص٢٤٧ ـ ٢٤٨.
(٢) انظر: شرح الكوكب المنير (٣/٢٧).
(٣) البيت في ابن جرير (١٤/٢٩٣)، القرطبي (٨/١٦١).

يؤتيهم عليها أجراً؛ لأنها لا يُراد بها وجه الله.

ثم قال: ﴿إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ أي: خارجين عن طاعة الله. والفسق في لغة العرب[1] معناه الخروج. وفي اصطلاح الشرع[2]: الفسق الخروج عن طاعة الله. تارة يعظم ذلك الخروج فيكون كفراً، وتارة يكون خروجاً دون خروج، وفسقاً دون فسق، فيكون بارتكاب كبيرة؛ ولأجل هذا كان الفسق يطلق في القرآن على الكفر كقوله: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا﴾ [السجدة: آية ٢٠] وتارة يطلق على ارتكاب المحرم الكبير كقوله: ﴿إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ [الحجرات: آية ٦] وقوله في القاذفين: ﴿وَلَا تَقْبَلُواْ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [النور: آية ٤].

وهذه الآية معلوم تعلق المعتزلة بها في أن السيئات تبطل الحسنات، قالوا: لأن الله صرّح بأن فسقهم أبطل نفقتهم. ومن هنا زعموا أن كبائر الذنوب تبطل الأعمال. وهذا مذهب باطل لا شك في بطلانه، وهذه الآية التي تعلقوا بها بيّن الله (جلّ وعلا) بطلان حجتهم منها في قوله بعده ـ يليه ـ: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ﴾ فصرّح بأن المبطل للأعمال هو صريح الكفر. وهذا معنى قوله: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ﴾.

والضمير في قوله: ﴿أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ﴾ منصوب في محل المفعول. أعني بقولي: (الضمير) المصدر المنسبك من (أن) وصلتها في قوله: ﴿أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ﴾ المصدر المنسبك من (أن) وصلتها في قوله: ﴿أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ﴾ في محل نصب مفعول به لـ (منع) ـ أي ما منعهم قبول نفقاتهم ـ بناءً على أن (منع) تتعدى للمفعول الثاني بنفسها، كمنعت زيداً كذا وكذا. وهو الصحيح[3].

وأما المصدر المنسبك من (أنّ) وصلتها في قوله: ﴿إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ﴾ فالتحقيق فيه أنه في محل رفع، وهو فاعل (منع) وتقرير

---

(١)(٢) راجع ما سبق عند تفسير الآية (٥٩) من سورة البقرة.

(٣) انظر: الدر المصون (٦/٦٦).

المعنى: ما منع قبول نفقاتهم إلا أنهم كفروا، أي: إلا كفرهم بالله. فإيضاح المعنى: ما منع قبول النفقات منهم إلا كفرهم بالله.

وقال بعض العلماء: إن فاعل (منع) ليس المصدر المنسبك من (أن) وصلتها، وأنه ضمير يعود إلى الله. أي: وما منع الله قبول نفقاتهم إلا أنهم كفروا، إلا لأجل أنهم كفروا. والأول هو الأظهر(١).

وقوله: ﴿إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ﴾ لأن المنافقين وإن كانوا يظهرون الإيمان ظاهراً فهم في باطن الأمر كفَرَة فجرَة، فهم كافرون في باطن الأمر، والكافر لا يقبل منه صرف ولا عدل، ولا خلاف بين العلماء أن الكفر سيئة لا تنفع معها حسنة، فلا ينتفع الإنسان بعمل إلا إذا كان مبنياً على أساس العقيدة الصحيحة.

وقد قدّمنا في هذه الدروس مراراً(٢) أن العمل الصالح الذي يُثاب به صاحبه يوم القيامة هو ما استكمل ثلاثة أمور:

الأول: منها أن يكون مطابقاً لما جاء به النبي ﷺ؛ لأن الله لا يقبل أن يتقرب إليه إلا بما شرع على لسان رسوله ﷺ، فمن تقرب إليه بما لم يشرعه لم يقبله منه ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَـٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ [الشورى: آية ٢١].

الثاني: أن يكون العبد فيما بينه وبين الله في نيته التي لا يعلمها إلا الله مخلصاً في عمله لله؛ لأن الله يقول: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة: آية ٥] ﴿قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾﴾ [الزمر: آية ١١].

الثالث: هو هذا الذي نحن بصدده: أن يكون العمل مبنياً على أساس الإيمان بالله والعقيدة الصحيحة؛ لأن العمل كالسقف، والعقيدة الصحيحة والإيمان بالله كالأساس، والسقف لا يستقيم إلا على أساس؛ ولذا من عمل أعمالاً صالحة ليست مبنية على أساس الإيمان فهي باطلة منهارة لا ينتفع

---

(١) انظر: المصدر السابق (٦٦/٦).

(٢) مضى عند تفسير الآية (٥٤) من سورة الأنعام.

بها، والله (جلّ وعلا) يقول: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ [النساء: آية ١٢٤] فقيّد بقوله: ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ وهذا لا نزاع فيه؛ لأن كل عمل يعمله الكافر ولو كان مطابقاً للشرع، والكافر مخلصٌ فيه للّه، فإن بعض الكفار يبر والديه، ويصل رحمه، ويقري الضيف، ويعين المظلوم، وينفس عن المكروب، كل ذلك يقصد به وجه الله، فهذه قُرَبٌ صحيحة موافقة للشرع هو مخلص فيها للّه، لا ينفعه الله بها يوم القيامة؛ لأن الله يقول: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفرقان: آية ٢٣] وقال (جلّ وعلا): ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [هود: آية ١٦] ﴿أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ...﴾ [النور: آية ٣٩] ﴿كَرَمَادٍ﴾ [إبراهيم: الآية ١٨] ونحو ذلك من الآيات، وقد ثبت عن النبي ﷺ أن عمل الكافر الصالح ـ كأن يبر والديه، وينفّس عن المكروب، ويقري الضيف، ويعين المظلوم، ويصل الرحم ـ يقصد بذلك وجه الله، فمثل هذا من الأعمال الصالحة إذا فعله الكفار أثابهم الله به في دار الدنيا فأعطاهم عرض الدنيا من المال وأطعمهم وسقاهم ورزقهم العافية، ولا يكون لهم عند الله جزاء، وقد ثبت هذا المعنى من حديث النبي ﷺ الذي رواه عنه أنس، ورواه مسلم في صحيحه من حديث أنس عن النبي ﷺ: أن الله يطعم الكافر بعمله الصالح في الدنيا، ويثيبه في الدنيا، فإذا جاء الآخرة لم يكن له عمل يُجازى عليه، أما المسلم فالله يثيبه بعمله في الدنيا ويدخر له في الآخرة[1].

والآيات الدالة على أن الكفار ينتفعون بأعمالهم في الدنيا جاءت في القرآن، كقوله: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾﴾ [الشورى آية: ٢٠] وما دلّ عليه هذا الحديث الصحيح من أن الكافر يُجازى بعمله في الدنيا ولا يجازى به في الآخرة، وما دلّ عليه بعض الآيات. وقال بعضهم: إن منه قوله

---

(١) مسلم في صفات المنافقين وأحكامهم، باب: جزاء المؤمن بحسناته في الدنيا والآخرة، وتعجيل حسنات الكافر في الدنيا. حديث رقم: (٢٨٠٨) (٢١٦٢/٤).

تعالى: ﴿وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ﴾ [النور: آية ٣٩] قال بعض العلماء: وفاه حسابه في دار الدنيا بما رزقه على عمله الصالح من العافية. وإن كان الوجه الآخر أصح في الآية، كل هذا الذي هو إثابة الكافر من عمله في الدنيا لا شك مقيد بمشيئة الله؛ لأن ذلك دلت عليه آية سورة بني إسرائيل، وهي قاضية على كل شيء في هذا الباب. أعني قوله تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾﴾ [الإسراء: آية ١٨] فقوله: ﴿عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾ قيد بالمشيئة للجزاء الثابت في صحيح مسلم عن النبي ﷺ من حديث أنس. وهذا معنى قوله: ﴿إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ﴾ [التوبة: آية ٥٤].

قد قدمنا في هذه الدروس مراراً[1] أن أصل مادة الكاف والفاء والراء معناها التغطية والستر، فكل شيء غطيته وسترته فقد كفرته، ومنه قيل للزُّرَّاع: (كفار)؛ لأنهم يكفرون البذر في بطن الأرض، وقيل لليل: (كافر) والعرب تسمي الليل كافراً؛ لأنه يكفر الأجرام ويغطيها بظلامه. وكفر الشيء إذا غطَّاه وستره، ومن هذا المعنى قول لبيد بن ربيعة في معلقته[2]:

يَعْلُو طَرِيقَةَ مَتْنِهَا مُتَوَاتِرٌ ... في ليلةٍ كَفَرَ النجومَ غَمَامُهَا

أي: ستر النجوم وغطاها غمام تلك الليلة. وقوله أيضاً في معلقته هذه في تسمية الليل كافراً[3]:

حتى إذَا أَلْقَتْ يداً في كافرٍ ... وأَجَنَّ عوراتِ الثغورِ ظلامُهَا

هذا أصل معنى المادة في لغة العرب، ومنه قيل لتكفير الذنوب تكفير الذنوب؛ لأن الله يسترها ويغطيها بحلمه حتى لا يظهر لها أثر، من (كفرته) إذا سترته.

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٤٥) من سورة الأعراف.

(٢) السابق.

(٣) السابق.

والكافر يغطي أدلة التوحيد ويحاول جحدها وتغطيتها وهي كالشمس في رابعة النهار، أو يحاول تغطية نِعَم الله عليه بأكله رزقه وعبادته غيره.

قوله: ﴿إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ﴾ [التوبة: آية ٥٤] هو محمد ﷺ، والرسول بمعنى مُرسل، أي: بالإنسان الذي أرسله الله (تبارك وتعالى)، وهو نبينا. والرسول (فعول) بمعنى (مُفْعَل) وأصله مصدر، وإتيان المصادر على وزن (فَعُول) بفتح الفاء نادر موجود في كلمات معدودة[1] كالقبول، والولوع، والرسول بمعنى الإرسال والرسالة. والتحقيق أن أصل الرسول مصدر، والعرب تطلق الرسول وتريد المصدر الذي هو الرسالة، ومنه قول الشاعر[2]:

لقد كَذَبَ الواشُونَ ما فُهت عندهُم ... بقولٍ ولا أَرْسَلتُهم برسُولِ

أي: ولا أرسلتهم برسالة، وقول الآخر[3]:

ألاَ أَبْلِغْ بني عمرو رسولاً ... بأني عَن فُتَاحَتِكُم غني

أبلغ بني عمرو رسالة. وإنما قلنا: إن الرسول أصله مصدر لنبين بذلك أن في ذلك حلًا لبعض الإشكالات في القرآن العظيم؛ لأن الأشياء التي أصلها مصادر إذا تنوسيت فيها المصدرية واستعملت استعمال الأوصاف جاز أن يُراعىٰ فيها أصلها وهو المصدر، والعرب إذا نعتت بالمصدر التزمت الإفراد والتذكير، ومن هنا كان الرسول يجوز إفراده مراداً به الجمع أو التثنية؛ لأن أصله مصدر؛ ولذلك جاء مفرداً في سورة الشعراء في قوله: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: آية ١٦] نظراً إلى أصل مصدريته. وجاء مثنىٰ في سورة طه: ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ [طه: آية ٤٧] اعتداداً بالوصفية العارضة وإلغاءً للمصدرية الأصلية؛ ولذلك كانت العرب تطلق الرسول وتريد

---

(١) مضى عند تفسير الآية (١٣٠) من سورة الأنعام.

(٢) السابق.

(٣) مضى عند تفسير الآية (٧٨) من سورة البقرة.

به الجمع على عادتها إذا نعتت بالمصادر، ومنه قول أبي ذؤيب الهذلي[١]:

أَلِـكْـنِـي إلـيـهـا وخَـيْـرُ الـرَّ سُولِ أعـلـمـهـم بـنـواحـي الـخـبـر

يعني: وخير الرسل. وهذا معنى قوله: ﴿إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ﴾ محمد ﷺ.

﴿وَلَا يَأۡتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ هي هذه الصلاة المكتوبة، أقامها الله وأدامها ﴿إِلَّا وَهُمۡ كُسَالَىٰ﴾ إلا والحال هم كسالىٰ، والكسالى جمع الكسلان: المتكاسل عنها الذي هي ثقيلة عليه؛ لأن الله يقول: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ﴾ [البقرة: آية ٤٥] لأن الصلاة لا تَخِفُّ إلا على من يريد جزاء الله وثوابه، أما المنافقون والذين لا إيمان لهم، فهي أثقل شيء عليهم؛ ولذا لا يأتونها إلا متكاسلين في غاية الكسل يراؤون الناس ولو كانوا بانفرادهم لا يطلع عليهم الناس لما صلوها كما تقدم في قوله تعالى في سورة النساء: ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ﴾ [النساء: آية ١٤٢] هذه حالة المنافقين ـ قبحهم الله ـ.

﴿وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمۡ كَٰرِهُونَ﴾ [التوبة: آية ٥٤] فقوله: ﴿وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمۡ كَٰرِهُونَ﴾ معناه: أن المنافقين لا يخرجون نفقة طيبة بها أنفسهم، ولا يخرجونها إلا كرهاً لئلا يطلع المسلمون على نفاقهم فيجروا عليهم أحكام الكفرة. وبهذا تعلم أن قوله: ﴿قُلۡ أَنفِقُواْ طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهًا﴾ [التوبة: آية ٥٣] أنهم كارهون على كل حال، وأن المراد بالآية تسوية جميع الحالات، الحالة الواقعة وغيرها أنهم لا فائدة لهم في ذلك. وهذا معنى قوله: ﴿وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمۡ كَٰرِهُونَ﴾ أي: كارهون ذلك الإنفاق؛ لأنهم لا يطلبون ما عند الله ولا يرجون عاقبة ولا جزاء من الله، فالإنفاق في سبيل الله يعدونه مغرماً ويكرهونه غاية الكره كما سيأتي في قوله: ﴿وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغۡرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَۚ عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۗ﴾ [التوبة: آية ٩٨].

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٠) من سورة الأنعام.

﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾ وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَـٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [التوبة: الآيتان ٥٥، ٥٦].

﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [التوبة: آية ٥٥].

نهىٰ الله نبيه ﷺ عن أن يستحسن ما أعطى للمنافقين من متاع الدنيا من الأموال والأولاد، لا يعجبك ما أعطيناهم من الأموال والأولاد فإنا أعطيناهم إياه استدراجاً منا وعاقبته سيئة ووخيمة عليهم في الدنيا والآخرة، لا تستحسن ذلك ولا تعجب به؛ ولا تمدن إليه عينيك كما قال: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾﴾ [طـه: آيـة ١٣١] وقـال: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [المـؤمـنـون: الآيـتـان ٥٥، ٥٦] ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ﴾ [سـبـأ: آيـة ٣٧] ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾﴾ [المسد: آية ٢] إلى غير ذلك من الآيات، لما بيّن الله في هذه الآيات من سورة براءة أن المنافقين لا حظ لهم من الله في الآخرة بين أن ما أعطاهم من زينة الحياة الدنيا من متاعها من الأموال والأولاد أيضاً لا ينبغي أن يستحسن، ولا أن يعجب به؛ لأنه تافه أُعطوه استدراجاً وعاقبته سيئة عليهم ﴿إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [آل عمران: آية ١٧٨] هذا معنىٰ قوله: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ﴾ العرب تقول: أعجبه الشيء يعجبه إذا استحسنه استحساناً يسره، فكل من استحسن الشيء استحساناً يُسرُّ به تقول العرب: أعجبه، أي: لا تستحسن ما أعطيناهم من متاع الدنيا استحسان سرور ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ﴾ بإعطائه إياهم ليعذبهم، هذه اللام التي تأتي في القرآن بكثرة وفي كلام العرب بعد فعل الإرادة فيها خلاف للعلماء؛ لأنه يكثر في القرآن وفي كلام العرب إتيان هذه اللام بعد فعل الإرادة كقوله: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ [النساء: آية ٢٦] ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ﴾ [الصف: آية ٨] ونحو ذلك من الآيات، وقوله هنا: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [التوبة: آية

٥٥] تكثر هذه اللام بعد فعل الإرادة ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ﴾ [الصف: آية ٨] ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [النساء: آية ٢٦] وهي موجودة في كلام العرب نحو هذا، ومنه قول الشاعر[١]:

أُريد لأَنْسَىٰ ذِكْرَها فكأنَّما   تمثل لي ليلىٰ بكل سبيلِ

هذه اللام التي تأتي في القرآن وفي كلام العرب بعد فعل الإرادة اختلف العلماء في معناها، وأظهر أقوالهم فيها قولان:

أحدهما: أنها لام نادرة المعنىٰ تأتي بمعنىٰ (أن)، وأنها لام مصدرية، وإن لم يكن علماء العربية عدوا حرف اللام من الموصولات الحرفية المصدرية، قالوا: فهذه اللام بمعنىٰ (أن) والدليل على هذا القول تعاقب هذه اللام و(أن) في قوله ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: آية ٣٢] ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ﴾ [الصف: آية ٨] ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم﴾ [التوبة: آية ٥٥] ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم﴾ في الآية الآتية. وعلى هذا القول فاللام مصدرية بمعنى (أن)، وهو قول يقل من يقوله من علماء العربية.

القول الثاني: أن المفعول محذوف، واللام لام تعليل لمحذوف، والمعنىٰ على هذا القول: إنما يريد الله إعطاءهم ومتاعهم بها لأجل أن يعذبهم بها في الحياة الدنيا. وهذا معنىٰ قوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا﴾ قال بعض العلماء: الضمير عائد إلى الأموال.

وفي هذه الآية وجهان معروفان من التفسير عند العلماء[٢]: قالت جماعة من العلماء: في الآية الكريمة تقديم وتأخير، والمعنىٰ: فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم في الحياة الدنيا إنما يريد الله ليعذبهم بها ـ أي في الآخرة ـ وعلى أن في الآية تقديماً وتأخيراً فلا إشكال في المعنىٰ. وهذا القول مروي عن ابن عباس[٣] وجماعة من السلف.

---

(١) البيت لكُثَيِّر عزة وهو في تاريخ دمشق (٨٠/٥٠).

(٢) انظر: القرطبي (١٦٤/٨)، البحر المحيط (٥٤/٥)، الدر المصون (٦٧/٦).

(٣) أخرجه ابن جرير (٢٩٦/١٤) من طريق علي بن أبي طلحة.

وقال جماعة من العلماء منهم الحسن البصري وغيره[1]: إن الآية لا تقديم فيها ولا تأخير، وأن الله يعذب المنافقين بالأموال في الحياة الدنيا. وعلى قولهم فالضمير راجع إلى الأموال فقط دون الأولاد، ومعنىٰ كون الله يعذبهم بأموالهم في الحياة الدنيا أن الله يفرض عليهم فيها الزكاة ويفرض عليهم فيها الحقوق الواجبة فتؤخذ قهراً منهم رغم أنوفهم، وأعظم ما يعظم على الإنسان إذا كان يؤخذ الشيء من تحت يده وهو محب له كرهاً رغم أنفه لا يريد به وجه الله، وأن الله أيضاً يسلط عليها المصائب والبلايا فتحزن قلوبهم وتتعذب، ولأنه يتعبهم في جمعها أولًا فتأتيهم بمتاعب من جهات متعددة، منها: تعبهم ونصبهم في جمعها أولًا وما ينزل بها من المصائب، وتكليفهم دفع الزكاة فيها، وإنفاقها في سبيل الله للجهاد ونحو ذلك، فهذا تعذيب لهم؛ لأن أشد ما يؤلم المنافق أخذ ماله من تحت يده قهراً لعزة المسلمين ونصر دين الإسلام، هذا أمر يؤلم قلوبهم جداً، وكل ما يؤلم الإنسان يسمىٰ تعذيباً له. وعلى هذا القول فلا تقديم ولا تأخير في الآية ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: ويجمع لهم مع ذلك عذاب الآخرة ﴿وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ﴾ أي: يموتوا ﴿وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ فيتصل لهم عذاب الآخرة الذي لا ينقطع بعذاب الدنيا. وهذا معنىٰ قوله: ﴿وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾.

وقوله: ﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ﴾ [التوبة: آية ٥٦] هذه عادة المنافقين يتقون بالأيمان الكاذبة ﴿وَيَحْلِفُونَ﴾ للنبي والمسلمين ﴿بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ﴾ في الباطن والظاهر، والله يقول: ﴿وَمَا هُم مِّنكُمْ﴾ بل هم أعداؤكم ولا عاشروكم إلا مرغمين على ذلك لا يجدون عنه مفراً، كما يأتي في الآية الآتية بعد هذا ﴿وَيَحْلِفُونَ﴾ للنبي وأصحابه قائلين ﴿إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ﴾ باطناً وظاهراً، والله يقول: ﴿وَمَا هُم مِّنكُمْ﴾ هم كفرة أعداء ليسوا منكم ﴿وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ﴾ يفرقون معناه: يخافون. العرب تقول: فَرِقَ الرجل بكسر الراء يَفْرَق بفتحها على القياس فَرَقاً بفتحتين فهو فَرِق إذا كان خائفاً

---

(١) أورد هذه الروايات ابن جرير (١٤/٢٩٦).

شديد الخوف[١]. وهو معنىً معروف في كلام العرب، ومنه قول أبي محجنٍ الهذلي في أبياته المشهورة[٢]:

القومُ أعلمُ أني لساعتهم إذا تطيشُ يد الرعديدةِ الفَرِقِ

الذي يرتعد إذا أراد أن يرمي فترتعد يده من الفرق وهو الخوف. أي: ﴿وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ﴾ أي: يخافون منكم فيتوددون ويحلفون لكم الأيمان الكاذبة أنهم منكم في الباطن وليسوا منكم في الباطن، بل هم أعداء كفَرَة فجَرَة، هم أعدىٰ الناس لكم كما سيأتي قريباً. وهذا معنىٰ قوله: ﴿وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ﴾ ثم بيّن شدة عداوتهم لهم فقال: ﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا﴾ [التوبة: آية ٥٧] لو كانوا يجدون ملجأً يلجؤون إليه ويعتصمون به دونكم للجؤوا إليه.

﴿أَوْ مَغَٰرَٰتٍ﴾ المغارات جمع مغارة، والمغارة: هي الغيران في الجبال. المغارة: الغار في الجبل، وهو بفتح الميم. والتحقيق أن أصل ألفه منقلبة عن واو؛ لأن المغارة من غار يغور إذا انحدر في أسفل، ومنه ﴿إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا﴾ [الملك: آية ٣٠] أي: غائراً. وكل غائرٍ منسفل فهو غور. ومعنىٰ مغارة: أي: غاراً منسفلاً ينحدرون في أسفله ويختفون فيه عنكم.

﴿أَوْ مُدَّخَلًا﴾ قراءة السبعة وجمهور القراء غيرهم: ﴿مُدَّخَلًا﴾ والمُدَّخل أصل وزنه [مفتعلًا] من دخل، أصله (مُدْتَخل) بالتاء، أُبدلت التاء دالًا وأُدغمت الدال في الدال[٣]. والمُدَّخل هو المكان الذي يُدخل فيه كالسَّرَب والنفق في باطن الأرض. أي: لو يجدون غيراناً في الجبال أو أنفاقاً وسروباً في داخل الأرض يدخلون فيها، أو ملجأً يعتصمون به لولوا راجعين إليه

---

(١) انظر: المفردات (مادة: فرق) (٦٣٤).

(٢) البيتان لأبي محجن الثقفي. وهما في تاريخ دمشق (٤٦/٦٨، ٤٧) وفيه «أني من سراتهم».

(٣) انظر: القرطبي (١٦٥/٨)، الدر المصون (٦٨/٦ ـ ٦٩)، معجم مفردات الإبدال والإعلال ص١٠٧.

عنكم/ ﴿وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾ يجمحون مضارع جمح يجمح إذا أسرع في سيره ٩/أ
إسراعاً لا يرد وجهه شيء، ومنه: فرس جموح إذا كان اللجام لا يمسكه ولا يرده عن وجهته شيء، فكل مسرع في جريه لا يرده عن وجهه شيء تسميه العرب جموحاً وجامحاً. أي: لو وجدوا أي موضع يذهبون فيه إليكم ولا يصحبونكم لولوا إليه في غاية الإسراع لا يردهم عنه شيء، ولكنهم لا يجدون طريقاً أبداً غير معاشرتكم فهم مُلجؤون إليها يعاشرونكم مكرهين لا مفر ولا ملجأ لهم، ولو وجدوا أي مفر للجؤوا إليه، وهذا غاية العداوة، بيّن الله أسرارهم وشدة عداوتهم لنبيه ليتحرز منهم؛ لأن العدو إذا كان في ثياب صديق هو أشد الأعداء:

احذر عدوك مرة واحذر صديقك ألف مرة[1]

وهذا معنى قوله: ﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَئًا أَوْ مَغَـٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [التوبة: آية ٥٧].

يقول الله (جلّ وعلا): ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَـٰتِ فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴿٥٩﴾ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَـٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱلْعَـٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَـٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾﴾ [التوبة: الآيات ٥٨ ـ ٦٠] ذكر كثير من أهل العلم أن هذه الآية نزلت في حرقوص بن زهير ذي الخويصرة التميمي رأس المنافقين. قالوا: وجد النبي ﷺ يقسم مالاً فقال: يا نبي الله اعدل فإنك لم تعدل ـ قبّحه الله ـ وقصة ذي الخويصرة معروفة ثابتة في الصحيح[2]، ولكن

---

(١) نسبه في قرى الضيف (١٢٧/٣) إلى ابن حجاج، وفي محاضرات الأدباء للراغب (٢١/٣) نسبه إلى علي بن عيسى.

(٢) أخرجه البخاري في المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام. حديث رقم: (٣٦١٠) (٦١٧/٦) وأخرجه في مواضع أخرى، انظر الأحاديث (٤٣٥١، ٦٩٣١)، ومسلم في الزكاة، باب ذكر الخوارج وصفاتهم. حديث رقم: (١٠٦٤) (٧٤١/٢) من حديث أبي سعيد الخدري (رضي الله عنه).

الذي يظهر أن هذه الآية ليست نازلة فيه، وإن زعم كثير من كبراء المفسرين أنها نازلة في ذي الخويصرة، وإنما قلنا إن الأظهر أنها نازلة في غيره أن المعروف أن القسمة التي قال فيها حرقوص بن زهير التميمي المعروف بذي الخويصرة أصل الخوارج ـ قبّحه وقبّحهم الله ـ أن ذلك في قسم النبي لغنائم حنين، قال ذلك فيه، وهذه الآية يصرح الله فيها بأنهم لمزوه في قسم الصدقات وهي الزكوات والصدقات غير الغنائم[1]، فالأظهر أن الأصوب فيها هو ما قاله ابن جريج (رحمه الله) وغيره أنها نزلت في رجل من الأنصار من المنافقين حضر النبي ﷺ يقسم مالاً من الصدقات فقال: يا نبي الله اعدل فإنك لم تعدل ـ قبّحه الله ـ فنزلت هذه الآية فيه[2].

وهذه الآيات من سورة براءة يبيّن الله فيها أصنافاً من المنافقين يقول: ومنهم من هو كذا، ومنهم من هو كذا، كما تقدم في قوله: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ﴾ [التوبة: آية ٤٩] وقال هنا: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ وسيأتي قوله: ﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ﴾ [التوبة: آية ٦١] هذه طوائف من المنافقين تعمل قبائح مختلفة الأصناف بيّنها الله في هذه السورة ﴿وَمِنْهُم﴾ أي: من المنافقين ﴿مَّن يَلْمِزُكَ﴾ يا نبي الله، واللمز معناه:

---

(١) الذي يظهر أنهما واقعتان متشابهتان:

الأولى: في قسم غنائم حنين، وذلك في الجعرانة حيث قال له رجل: «يا محمد اعدل» كما في حديث جابر (رضي الله عنه) عند البخاري (٣١٣٨) ومسلم (١٠٦٣).

الثانية: في قسم ذُهيبة بعث بها علي (رضي الله عنه) من اليمن والنبي ﷺ في المدينة. وقد قسمها رسول الله ﷺ بين أربعة نفر، فقال رجل: يا رسول الله: اتق الله... الحديث. كما في حديث أبي سعيد الذي تقدم تخريجه قريباً. وقد جاء في بعض الروايات عند البخاري ومسلم التصريح باسمه وهو ذو الخويصرة التميمي. وكذا في رواية ابن جرير (٣٠٣/١٤) والواحدي في أسباب النزول ص٢٤٩، وفيهما أيضاً التصريح بأن هذه الحادثة كانت سبب نزول الآية.

قال الحافظ في الفتح (٦٨/٨): «تنبيه: هذه القصة غير القصة المتقدمة في غزوة حنين. ووهم من خلطها بها» ا.هـ.

وقال في (٢٩٣/١٢) «وقد ظهر أن المعترض في الموضعين واحد» ا.هـ.

(٢) أخرجه ابن جرير (٣٠٢/١٤) وقد رواه ابن جريج عن داود بن أبي عاصم، ولا يخفى أن هذا له حكم الإرسال.

العيب والطعن. تقول العرب: لمزه. إذا عابه وطعن فيه، ومنه قوله: ﴿يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: آية ٧٩] ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ [الحجرات: آية ١١] أي: لا يعب أحدكم أخاه ويطعن فيه ومنه ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝١﴾ لأن اللُّمزة فُعَلة تدل على المبالغة، أي: كثير لمز الناس، أي: عيبهم والطعن فيهم. ومن هؤلاء المنافقين صنف آخر يلمزك يا نبي الله، يطعن عليك ويعيبك في قسم الصدقات ويقولون: هذه قسمة ما أريد بها وجه الله، ولم يراع فيها العدل كما ينبغي.

ثم إن الله بيّن قبائحهم وفضحهم بأن هذا القول الذي تجرؤوا عليه ما حملهم عليه إلا الطمع والشره ومحبة شيء يعطونه في خصوص أنفسهم؛ ولذا قال: ﴿فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ﴾ فإن أعطوا من الصدقات رضوا ذلك العطاء وسكتوا وفرحوا ﴿وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ﴾ (إذا) حرف مفاجأة، وقد قدمنا في هذه الدروس أن (إذا) الفجائية فيها لعلماء العربية ثلاثة أقوال: قيل: هي حرف، وقيل: ظرف مكان، وقيل: ظرف زمان، كما هو مقرر في محله[1]. والمعنىٰ: إذا لم يُعطوا من الصدقات شيئاً فاجأ ذلك سخطهم، أي: غضبهم وعدم رضاهم. فبيّن الله أن سخطهم ورضاهم منوطان بمصلحتهم الخاصة إذا أُعطوا شيئاً رضوا وفرحوا، وإذا لم يعطوا شيئاً غضبوا وسخطوا. وهذه ليست حالة من يريد وجه الله ولا المصلحة العامة؛ ولذا قال: ﴿فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾ يسخطون مضارع (سخط الأمر) بكسر الخاء (يسخطه) بفتحها (سَخَطاً) على القياس، وسُخْطاً إذا كرهه، وسَخِط الرجل بمعنىٰ غضب، ومنه: ﴿لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ [المائدة: آية ٨٠] أي: غضب عليهم ـ والعياذ بالله ـ.

ثم إن الله قال: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُواْ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ [التوبة: آية ٥٩] معروف في علم العربية أن (لو) حرف شرط في الماضي، وأن حروف الشرط إنما تتولى الجُمل الفعلية، ومعلوم أن (أن) في قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٢٠١) من سورة الأعراف.

رَضُواْ﴾ في محل مصدر، والمصدر الذي هي في محله اسم. والعلماء يجيبون عن هذا بأن متعلق (لو) محذوف[١] عامل في قوله: ﴿أَنَّهُمْ﴾ والمعنى: ولو ثبت، أو لو وقع أنهم فعلوا كذا لكان خيراً لهم ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُواْ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ رضوا أصله: (رَضِيُوا) أصله (فعِلْ) وأصل لامه واو؛ لأن أصل رضي (رضِوَ) بالواو؛ لأنك تقول منها: الرضوان بالواو، ولا تقول: الرضيان بالياء. أصلها (رضِوَ) بالواو فتطرفت الواو بعد كسرة فوجب إبدالها ياء، فقيل فيها (رضي) بالياء مبدلة من الواو[٢] ومن المعروف في علم التصريف أن كل فعل ناقص ـ أعني معتل الآخر ـ إذا أُسند إلى واو الجمع حُذفت لامه، أصله (رضيو) والياء مبدلة من واو، فحُذفت اللام التي هي ياء أصلها واو وجُعلت كسرتها ضمة لمجانسة الواو، فلذا قيل فيه: (رضوا) وأصل وزن الكلمة بالميزان الصرفي (فَعِلوا) ووزنها الحاضر الآن (فَعُوا) لأنها محذوفة اللام. وهذا معنى قوله: ﴿فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ﴾ شيئاً ﴿إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾ (إذا) الفجائية تأتي جواباً للشرط كما هو معروف في محله. ثم إن الله قال: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُواْ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ لو رضوا بنصيب الله الذي قسم لهم كما يُعطى لسائر المسلمين من الصدقات وغيرها ﴿وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ﴾ حسبنا معناه: يكفينا الله (جلّ وعلا)؛ لأن في الله خلفاً من كل شيء، وكفاية من كل شيء، فمعنى ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ﴾ يكفينا الله ﴿سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ﴾ سيعطينا الله من فضله، أي: من فضل الله على يد رسوله ﷺ، وسيؤتينا رسوله ما أمره الله به أن يؤتينا، لو حسّنوا الظن بالله، وتوكّلوا على الله، ورغبوا فيما عند الله، وقالوا: إنا إلى ربنا راغبون. أي: رغبتنا إليه، ورهبتنا إليه؛ لأن طمعنا وأملنا كله فيه؛ لأن المؤمن بمعناه الصحيح رغبته إلى الله؛ لأنه يطيع الله ويتقيه ويرغب فيما عند الله (جلّ وعلا) من الخير، كما قال تعالى مادحاً للأنبياء: ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ [الأنبياء: آية ٩٠] وقال

---

(١) انظر: البحر المحيط (٥/٥٦)، الدر المصون (٦/٧٢).

(٢) انظر: معجم مفردات الإبدال والإعلال ص٣٨٨ ـ ٣٨٩.

لنبينا ﷺ: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ۝٨﴾ [الشرح: الآيتان ٧، ٨] لأن الرغبات كلها إلى الله (جلّ وعلا)؛ لأنه هو الذي بيده الخير، وكل شيء بيده، فرغبة المؤمن إليه (جلّ وعلا) يستنزل رحمات الله وما يرجو من الله بطاعة الله (جلّ وعلا) وتقواه. وهذا معنى قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ۝٥٩﴾ [التوبة: آية ٥٩] جواب (لو) محذوف دل المقام عليه، والتقدير: لو أنهم فعلوا ذلك لكان خيراً لهم. وقد جاء في القرآن وفي كلام العرب حذف جواب (لو) إذا دلّ المقام عليه، فهو كثير في القرآن وفي كلام العرب فمن أمثلة حذف جواب (لو) في القرآن مع دلالة المقام عليه قوله تعالى: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ۝٥﴾ [التكاثر: آية ٥] أي: لو تعلمون علم اليقين لما ألهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [الرعد: آية ٣١] فجواب (لو) محذوف واختلف العلماء في تقديره على قولين متقاربين[1]: قال بعضهم: تقدير جواب (لو) في آية الرعد هذه ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ﴾ لكان هذا القرآن على حد قوله[2]:

ولو طَارَ ذُو حَافِرٍ قبلها   لَطَارت ولكنه لم يَطِرْ

وقال بعض العلماء: تقديره: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ﴾ لكفروا بالرحمٰن. ويدل لهذا قوله بعده: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [الرعد: آية ٣٠] ومن حذف جواب (لو) في كلام العرب قول الشاعر[3]:

فأُقسِمُ لو شيءٌ أتانا رسُولُه   سِوَاكَ ولكن لم نجد لك مَدْفَعَا

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٠) من سورة الأنفال وراجع ما تقدم عند تفسير الآية (١٠٩) من سورة الأنعام.

(٢) السابق.

(٣) مضى عند تفسير الآية (٥٠) من سورة الأنفال.

يعني: لو شيء أتانا رسوله سواك لدفعناه. وهذا معنى قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾ [التوبة: آية ٥٩].

﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٦٠)﴾ [التوبة: آية ٦٠].

لما كان من المنافقين طائفة يلمزون رسول الله ﷺ في قَسْم الصدقات ويفترون عليه أنه لم يعدل في قَسْمها بيّن الله لهم أن الله تولى قسمتها وبيّنها وهو ﷺ منفّذ لما أوضحه الله (جلّ وعلا) فقال: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ﴾ المراد بالصدقات هنا: زكوات المال الواجبة، فالله (جلّ وعلا) بيّن في هذه الآية من سورة براءة مصارف زكاة المال التي هي إحدى دعائم الإسلام الخمس، جعلها ثمانية، وهي: الفقراء، والمساكين، والعاملون عليها، والمؤلفة قلوبهم، وفي الرقاب، والغارمون، وفي سبيل الله، وابن السبيل، هي ثمانية، و(إنما): أداة حصر وإثبات، يعني: لا يثبت استحقاق الزكاة لشيء غير واحد من هذه المصارف الثمانية بإجماع العلماء.

﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ﴾ الفقراء: جمع فقير، والفعيل إذا كان وصفاً ينقاس جمعه جمع كثرة على (فُعَلَاء) على العادة ما لم يكن معتل اللام أو مُضَعَّفاً. وهذا معروف[1]، كل (فعيل) في القرآن وفي كلام العرب بمعنى (فاعل) لم يكن معتل اللام ولا مُضَعَّفاً ينقاس تكسيره جمع كثرة على (فُعَلَاء) ككريم وكرماء، وأديب وأدباء، وشريف وشرفاء، وعليم وعلماء، وفقير وفقراء. أما إذا كان معتل اللام أو مُضَعَّفاً فالقياس أن يُكَسَّر على (أفعِلاء) فمثال معتل اللام: كتقي وأتقياء، وسخي وأسخياء، ونبي وأنبياء. وكذلك المُضَعَّف: كحبيب وأحباء، وشديد وأشداء. كما هو معلوم في محله. فالفقراء جمع فقير، وهو جمع على القياس. والمساكين: جمع مسكين كذلك.

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٣) من سورة الأعراف.

واختلف العلماء في الفقير والمسكين أيهما أحوج وأسوأ حالًا[١]؟! والقاعدة المقررة عند علماء التفسير كما قالها غير واحد من المتأخرين ويكادون يطبقون عليها: أن الفقير والمسكين إذا اجتمعا افترقا، وإذا افترقا اجتمعا. ومعنىٰ هذا الكلام: أنهما إذا افترقا بأن جاء في آية من كتاب الله أو حديث من سنّة رسول الله اسم الفقير وحده، أو المسكين وحده، شملهما معاً، دخل الفقير في المسكين، والمسكين في الفقير؛ لأن كونهما محتاجين يشمل كلّا منهما وإن كان أحدهما أشد فقراً من الآخر، وإن اجتمعا كما نُص عليهما موجودين كقوله هنا: ﴿لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ فقد اجتمعا، فيلزم إذا اجتمعا أن يفترقا، فيكون للفقير معنىً خاص به، وللمسكين معنىً خاص به. والحاصل أنه إذا ذُكر الفقير وحده أو المسكين وحده دخل الفقير في المسكين والمسكين في الفقير، وإذا ذكرا معاً في محل واحد كهذه الآية وكمن أوصى للفقراء والمساكين كان لكل منهما معنىً يخصه.

والعلماء مختلفون في الفقير والمسكين أيهما أسوأ حالًا؟ فذهب جماعة من فقهاء الأمصار وأهل اللغة إلى أن الفقير أسوأ حالًا من المسكين، وهذا مذهب الشافعي (رحمه الله)، ورواية قوية عن أحمد (رحمه الله)، وبه قال جماعة من السلف، أن الفقير أحوج من المسكين. وقالت طائفة: إن المسكين أحوج من الفقير، وهو مذهب مالك وأصحابه، ومذهب أبي حنيفة (رحمه الله). وكل منهما يوجه قوله، أما مالك فقال: إن المسكين أحوج من الفقير لأن الله قال: ﴿أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾﴾ [البلد: آية ١٦] فوصف المسكين بأنه لاصق بالتراب لا شيء عنده، والعرب تطلق الفقير على من عنده شيء لا يغنيه، فعنده بُلغة ولكنها لا تغنيه، قال: ويدل لذلك قول راعي نمير وهو عربي قح[٢]:

أما الفقير الذي كانت حَلُوبتُه رَفْقَ العيال فلم يُترك له سَبَدُ

فسمَّاه فقيراً وعنده حلوبة قدر عياله. وأما الذين قالوا الفقير أحوج

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٤١) من سورة الأنفال.

(٢) السابق.

فإنهم قالوا: إن الفقير مشتق من فقرات الظهر؛ لأن الفاقة كأنها فقرت ظهره، أي: قصمته. وقالوا: المسكين: الله قال في سفينة الخضر وموسىٰ: ﴿فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِي ٱلْبَحْرِ﴾ [الكهف: آية ٧٩] فسمىٰ أهلها مساكين مع أن عندهم سفينة عاملة في البحر بالإيجار، فدلّ على أن الفقير أسوأ حالاً. وهذا خلاف بين أهل اللغة والعلماء معروف، جماعة يقولون: الفقير أسوأ حالاً، وجماعة يعكسون. وهذا معنىٰ قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا﴾ [التوبة: آية ٦٠] معناه: أن السهم الثاني يعطى للعاملين عليها، وهم الذين يتعبون في تحصيل الزكاة، كالجباة الذين يرسلهم الإمام ليجمعوا الزكاة من أقطار الناس ويأتون بها ويذهبون بها ليفرقونها. فالعاملون عليها كالجباة للزكاة من خارج، والمفرقين لها على الناس، فهؤلاء لهم سهم في الزكوات وهو قدر أجرتهم. وأظهر الأقوال أنه لا يتقدر فيه شيء معين إلا بقدر أجرتهم، وكل ما يعطى أحد من هؤلاء فيه خلاف كثير[1]، وأظهرها أنه كله يوكل إلى اجتهاد الإمام، ونصيب العاملين عليها يكون بقدر أجرة مثلهم بحسب ما عانوه من التعب، يعطون على قدر ذلك، سواء كانوا فقراء أو أغنياء. وهذا معنىٰ قوله: ﴿وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا﴾.

والسهم الثالث للمؤلفة قلوبهم، والمؤلفة قلوبهم المراد بهم قوم كانوا في زمن النبي ﷺ عندهم إيمان إلا أن إيمانهم ليس بقوي ولهم مكانة وشوكة إذا حسن إسلامهم اعتزّ بهم الإسلام والمسلمون وقويت شوكة المسلمين، أو ناس لهم شرف إذا كانوا في الإسلام تابعهم غيرهم، فالمراد أنه يكون رجال دخلوا في الإسلام لهم مكانة وقوة وفائدة للإسلام فيهم، وإيمانهم ليس بقوي، فتجبر خواطرهم وتؤلف قلوبهم بالمال ليستحسنوا الإيمان ويتمكن الإسلام من قلوبهم فتكون في ذلك المصلحة العامة للإسلام والمسلمين، ومعلوم أن المؤلفة قلوبهم يقسمهم كتب الفروع إلى أقسام متعددة[2] وقصدنا هناك أن نذكر ما يكون مصرفاً للزكاة، وهو الإنسان الذي

---

(١) انظر: ابن جرير (٣١١/١٤)، القرطبي (١٧٧/٨).

(٢) انظر: ابن كثير (٣٦٥/٢).

يكون في إسلامه خير للمؤمنين، والظاهر أنه لا بد أن يكون مسلماً؛ لأن الزكاة لا تدفع للكافر وهي قربة لا يستحقها إلا المسلمون، فمن قال: إنها تدفع للكافر ليسلم فالظاهر أنه خلاف الظاهر.

واعلم أن النبي ﷺ كان في زمنه نصيب المؤلفة قلوبهم، وألغىٰ عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) نصيب المؤلفة قلوبهم، ولم يكن بعد ذلك معروفاً في صدقات المسلمين وزكواتهم(١). وهذه الفقرة دخل منها كثير من الذين ينتصرون للقوانين بشيطنة وخفية وراء الستار، ويزعمون أن الشرع يتغير بتغير الأوضاع، قالوا: لأن النبي دفع نصيب المؤلفة قلوبهم وعمر لما رأى المصلحة لا تحتاج إلى ذلك لم يدفعه لهم؛ ليتصلوا بذلك إلى أن الشرع تابع للمصالح، وأنه قابل للتغيير في كل وقت وزمان تبع المصالح والتطورات الراهنة، وهذا باطل؛ لأن الشرع أنزله الحكيم الخبير العظيم الجليل العالم بكل ما كان وما يكون، فجعله شرعاً خالداً إلى يوم القيامة، مسايراً لجميع التطورات، تمكن مجابهته لكل الأحداث مهما كانت، ولا إشكال في إلغاء عمر لنصيب المؤلفة قلوبهم؛ لأن هذه الأصناف الثمانية لا يعطىٰ منها إلا شيء موجود فإذا عُدم الشيء فإنما لم يجعل له سهم لعدمه، فالإنسان إذا قطعت يده مثلًا والله يقول في الوضوء: ﴿فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ﴾ [المائدة: آية ٦] لا نقول: هذا لم يغسل يده لأن يده سقطت!! فالإسلام لما عز وتمكن من قلوب المسلمين وقويت شوكة الإسلام لم يبق هنالك مؤلف، فلما ذهب هذا الصنف ذهب نصيبه بذهابه، وقد أجمع العلماء أن كل ما ذهب من هذه الأصناف الثمانية يذهب نصيبه معه، إذا لم يوجد ابن السبيل فلا نصيب لابن السبيل، فكل ما ذهب منها ذهب نصيبه معه، فعدم إعطاء عمر نصيب المؤلفة نظراً لعدم وجود المؤلفة بالكلية؛ لأن الإسلام قوي وتمكنت شوكته وصار لا تأليف لأحد. وهذا معنىٰ قوله: ﴿وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ﴾.

وعلى كل حال فالتحقيق في هذه المسألة أن حكم المؤلفة قلوبهم باق

---

(١) انظر: ابن جرير (٣١٥/١٤)، القرطبي (١٨١/٨)، ابن كثير (٣٦٥/٢).

إذا وجدوا وكان رجال لهم مكانتهم وقوتهم في دين الإسلام، والإسلام محتاج إليهم، والمسلمون محتاجون إليهم، فإنه يرجع نصيبهم لتألفهم للمصلحة العامة كما فعل النبي ﷺ وجاء به القرآن العظيم، وإن كان لا تأليف هنالك، ولا حاجة ولا ضعف في الإسلام ولا ضعف في الإيمان، بل المسلمون في قوة ونشاط وفي عزة وقوة ومنعة فالمؤلفة غير موجودين فيسقط نصيبهم لعدمهم، وكذلك هذه الأصناف الثمانية كل ما عدم منها سقط نصيبه معه.

واعلم أن العلماء مختلفون في هذه الأصناف الثمانية هل يجب أن تكون الزكاة موزعة بينها ثمانية أجزاء ولا يجوز أن يُحْرَم واحد منها، أو يجوز أن تعطىٰ الزكاة لواحد منها، أو لاثنين، أو ثلاثة دون تعميم الآخرين[1]؟ هذا خلاف معروف بين العلماء، فذهبت جماعة من العلماء منهم مالك وأبو حنيفة (رحمه الله) وجماعة كثيرة من فقهاء الأمصار إلىٰ أنه لا يلزم تعميم هذه الأصناف، بل يجوز أن تعطىٰ الزكاة لصنف واحد منها، وأن كل ذلك موكول إلى نظر الإمام يرى الأصلح فالأصلح فيؤثر أفقرها وأحوجها وأشدها مصلحة للعامة. هذا قول مالك وأبي حنيفة وجماعة كثيرة من العلماء، قالوا: والآية إنما بينت المصارف الذي لا يجوز أن تُتعدىٰ بها الزكاة إلى غيرها وصنف واحد منها يكفي. وكان بعض علماء المالكية يقول: أكبر دليل على عدم وجوب تعميم الأصناف أنا لو أعطينا الفقراء جزءاً فإنا لا يقول أحد أننا نعمم جميع الفقراء، وإذا أعطينا المساكين جزءاً فلا يمكننا أن نعمم جميع المساكين، فإذا كان الصنف الواحد لا يمكن تعميمه فلا يلزم تعميم الأصناف جميعها؛ لأنا لو مشينا مع التعميم لزمنا أن نعمم نصيب الفقراء على جميع الفقراء ولا نترك فقيراً واحداً، ونصيب المساكين على جميع المساكين ولا نترك مسكيناً واحداً. والحاصل أن هذا خلاف قديم اختلفت فيه أنظار العلماء، فمنهم من يقول: إن المراد بـ ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ﴾ أنها لام التمليك، واستدلوا بحديث جاء عن النبي ﷺ

(١) انظر: ابن جرير (٣٢٢/١٤)، القرطبي (١٦٧/٨)، المغني (١٢٧/٤).

أن الله لم يكل قسمها إلى نبي وإنما جزَّأها ثمانية أجزاء، قالوا: واللام للتمليك، فهي شركة بين هؤلاء الثمانية، ومن حَرَمَ واحداً من هؤلاء الثمانية فقد ضمن له نصيبه؛ لأنه حَرَمَه ما أعطاه الله إياه.

وقالت جماعة من العلماء: المراد بالآية: أن هذه هي المصارف الذي لا يجوز تعديها إلى غيرها، ولم يلزم تعميمها، بل يوكل إلى نظر الإمام، فما رآه الإمام أحسن للمصلحة العامة فعله للمسلمين، فلو اقتضىٰ نظره أن يصرفها لواحد من هذه الثمانية دون غيرها لفعل. هذا ملخص كلام العلماء في هذا الموضوع.

وقوله: ﴿وَٱلْغَـٰرِمِينَ﴾ الغارمون معناه: أصحاب الديون الذين يُطلبون بالدَّين، والغارمون عند العلماء فيهم تفصيل(١): منهم من يكون غارماً لمصلحة عامة للمسلمين، كالذي يجد بعض القبائل بينها شحناء وفتن وستقع بينها قتلىٰ وبلايا ثم يتحمل الديات ويكون غارماً لتلك الديات للمصلحة العامة، فمثل هذا النوع لم يختلف العلماء في أنه يعطىٰ من زكاة المسلمين ويغرم عنه ما تحمل للمصلحة العامة للمسلمين من زكوات المسلمين ولو كان غنياً. وبعضهم يقول: لا يعطىٰ عنه إلا إذا كان فقيراً. وأما إذا كان الإنسان تحمل الديون في خاصة نفسه، كالذي يتحمل لينفق [على](٢) أهله وأولاده، وينفق في تجارته ثم يخسر، ونحو ذلك من الأمور فأكثر العلماء على أن هذا إذا كان لم يستدن في سرف، ولم يستدن في معصية، ولم يبذر المال في المعاصي أنه يدخل في الغارمين، وأنه يقضىٰ عنه قدر دينه من الزكاة، وبعض العلماء يقول: ولو عنده مال. وبعض العلماء يقول: لا يعطىٰ هذا الغارم من الزكاة إلا إذا كان لا شيء عنده، أو عنده شيء إذا أعطاه للغرماء بقي فقيراً لا شيء عنده. وأظهر القولين في هذا: أنه يقضىٰ عنه الدين إلا إذا كان ملياً يقدر على قضاء الدين ويبقىٰ عنده ما يكفيه. وبعض العلماء يقول: هو غارم على كل حال، يقضىٰ عنه سواء كان غنياً أو

---

(١) انظر: ابن جرير (٣١٧/١٤)، القرطبي (١٨٣/٨)، ابن كثير (٣٦٥/٢).

(٢) ما بين المعقوفين [ ] زيادة يقتضيها السياق.

فقيراً. والأول أظهر. وهذا معنىٰ قوله: ﴿وَٱلْغَـٰرِمِينَ﴾ ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَـٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱلْعَـٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ﴾.

قوله: ﴿وَفِى ٱلرِّقَابِ﴾ اختلف العلماء في المراد به[1]، فذهبت جماعة من العلماء إلى أن المراد بالرقاب: إعانة المكاتبين خاصة. وذهب إلى هذا الشافعي في طائفة من العلماء، واستدلوا لهذا بقوله تعالى في سورة النور: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ﴾ [النور: آية ٣٣] قالوا: ﴿مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ﴾ هو المذكور في قوله هنا: ﴿وَفِى ٱلرِّقَابِ﴾ وعلى هذا القول الذي قاله الشافعي وجماعة من فقهاء الأمصار إذا كان المكاتب عليه نجوم من كتابته فإنه يعان بما عسر عليه من نجوم كتابته من زكاة المسلمين ليتخلص حراً.

وذهبت جماعة من العلماء منهم مالك بن أنس وأصحابه في طائفة من فقهاء الأمصار إلى أن معنىٰ قوله: ﴿وَفِى ٱلرِّقَابِ﴾ أنه ليس معناه المكاتبين، قالوا: المكاتبون داخلون في قوله: ﴿وَٱلْغَـٰرِمِينَ﴾ لأن المكاتب غارم لسيده نجوم كتابته. قالوا: أما معنىٰ قوله: ﴿وَفِى ٱلرِّقَابِ﴾ فهو أنه يُشترىٰ من زكاة المسلمين عبيد ويكونون أحراراً ولاؤهم للمسلمين. قالوا: وهذا هو معنىٰ قوله: ﴿وَفِى ٱلرِّقَابِ﴾. و﴿وَٱلْغَـٰرِمِينَ﴾ تكلمنا الآن عليه.

وقوله: ﴿وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ لا خلاف بين العلماء أن الغزاة الذين ليسوا في الديوان داخلون في سبيل الله، وإيضاح هذا أن عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) لما جعل مسألة الديوان كتب أسماء الجند في ديوان قيد أسماءهم فيه، وكل قطر من الأقطار عدَّد ما فيه من المُقَاتلة وكتبهم في ديوان ليحفظوا الثغور ويعينوا على الجهاد، وكانت لهم أرزاق معروفة في بيت مال المسلمين، وهؤلاء إذا قتل واحد منهم عَقَل عنه الآخرون قبل عصبته، فهؤلاء قال العلماء: ليسوا هم المراد هنا؛ لأن

---

(١) انظر: ابن جرير (٣١٦/١٤)، القرطبي (١٨٢/٨)، الأضواء (٤٧٠/٢).

لهم أرزاقاً من بيت مال المسلمين وهم مدونون معروفون، وأن المراد بهؤلاء الغزاة: هم الذين يتطوعون ليقاتلوا ويسدوا الثغور مع المسلمين، مع أنهم لم تكن لهم أرزاق مكتوبة، ولم يكونوا مكتوبين في الديوان، فهؤلاء يعطون من زكاة المسلمين وإن كانوا أغنياء، ويعطون ما يشترون به السلاح والمراكب ليسدوا ثغور المسلمين فيجاهدوا في سبيل الله، وكون المراد في سبيل الله الغزاة هو قول الشافعي (رحمه الله) في طائفة من العلماء.

وقال الإمام مالك وأصحابه: إن المراد بسبيل الله كل ما يتعلق بالغزو والرباط فيدخل فيه جميع ما يتعلق بالغزو كشراء السلاح والكراع، والرباط في سد الثغور المخوفة التي يخشىٰ أن تدخل منها الكفار للمسلمين، أن هذا كله يدخل في سبيل الله.

وذهبت جماعة من العلماء وهو مروي عن الإمام أحمد بن حنبل أن (في سبيل الله) الحُجاج والعُمار، أنه يعطى من بيت مال المسلمين للعاجز عن الحج والعمرة ما يحج به ويعتمر. قالوا: والحج والعمرة في سبيل الله. هذا ملخص عيون كلام العلماء في هذه المصارف. وهذا معنىٰ قوله: ﴿وَٱلْغَـٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

﴿وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ السبيل في لغة العرب[١]: الطريق. ومعنىٰ (ابن السبيل) ولد الطريق، وإنما قيل للمسافر الغريب: (ابن السبيل) لأحد أمرين: قال بعض العلماء: لأنه ملازم للطريق لذهابه معها، وكل ملازم لشيء تقول له العرب ابنه، ومنه سمت الطير الملازم للماء (ابن الماء) كما هو معروف، ومنه قول غيلان ذي الرمة[٢]:

وردت اعتسافاً والثُّريا كأنها ... على قمةِ الرأسِ ابنِ مَاءٍ مُحَلقِ

فسماه ابن الماء لملازمته للماء.

---

(١) مضى عند تفسير الآية (١١٦) من سورة الأنعام.
(٢) مضى عند تفسير الآية (٤١) من سورة الأنفال.

وقالت طائفة من علماء العربية: إنه إنما قيل له (ابن السبيل) لأن السبيل وهي الطريق كأنها تمخضت لنا عنه ورمتنا به كما ترمي النفساء الناس بولدها، كان غائباً في بطن الطريق فرمتنا به، كما تكون النفساء ولدها غائب في بطنها فترمينا به. وهذا المعنىٰ يوجد في كلامهم، وقد أوضحه مسلم بن الوليد الأنصاري - وإن كان كلامه إنما يذكر مثالًا لا استدلالًا؛ لأنه في زمن الدولة العباسية، ولكنه أوضح هذا المعنىٰ - بقوله حيث يقول يذكر رجلًا سافر في فلاة من الأرض شهرين إلى أمير ليمدحه قال له[1]:

تمخضتْ عنه تمّاً بعد محمله ... شهرينِ بيداءُ لم تُضرب ولم تلدِ
ألقته كالنَّصْلِ معطوفاً على هِمَمٍ ... يعمدن منتجِعَاتٍ خيرَ مُعتمدِ

فصرح بأن هذه الفلاة تخمضت عن هذا وولدته وأنتجته، فكذلك الطريق كأنها تتمخض عنه وترميهم به. وأكثر العلماء يقولون: سُمي (ابن السبيل) لملازمته للطريق، وابن السبيل هو الإنسان الذي فنيت نفقته وانقطع زاده وهو متغرب عن أوطانه يعطى من زكاة المسلمين زاداً وما يبلغه إلى وطنه ولو كان غنياً في محله، ولا تتبع ذمته ولو كان غنياً في محله؛ لأنه مصرف للزكاة في ذلك الوقت وإن كان غنياً في بلده، وهذا من محاسن دين الإسلام وما فيه من مكارم الأخلاق. قال بعض العلماء: ويدخل في ابن السبيل ما لو كان له سفر يضطر إليه، كما لو كانت له أولاد في دار حرب أو في ضيعة وهو مضطر إلى الإتيان بهم ولا مال عنده فإنه يُعطىٰ ليذهب ويجيء ويكون داخلًا في ابن السبيل.

وقد أجمع العلماء على أن ابن السبيل إذا كان مسافراً في معصية لا يجوز أن يعطى من الزكاة شيئاً لأنه إعانة له على معصيته، والله يقول: ﴿وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ [المائدة: آية ٢] وإن كان سفره في قربة فلا خلاف في أنه يعطى. وإن كان في مباح فقد اختلف العلماء في ذلك،

---

(١) هذان البيتان سبق ذكرهما في الموضع السابق.

فقالوا: لا يعطى؛ لأن المباح لا يلزم. وقال بعض العلماء: يعطىٰ؛ لأن السفر المباح فيه جميع التسهيلات التي في السفر الواجب، فالسفر المباح تقصر فيه الصلاة، ويفطر فيه المسافر، ويفعل فيه كل الترخصات، فكذلك يعان صاحبه عليه. هكذا قال بعضهم والله تعالى أعلم.

وقوله تعالى: ﴿فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾ مصدر، أي: فرض الله هذا فريضة عليكم ﴿وَٱللَّهُ﴾ جلّ وعلا ﴿عَلِيمٌ﴾ لا يخفى عليه شيء ﴿حَكِيمٌ﴾ يضع الأمور في مواضعها ويوقعها في مواقعها.

/ يقول الله (جلّ وعلا): ﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾﴾ [التوبة: آية ٦١]. ٩/ب

قرأ هذا الحرف عامة القراء غير نافع: ﴿يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ﴾ بياء مشددة، وقرأه نافع وحده: ﴿يؤذون النبيء﴾ بهمزة[(١)]. وأبدل ورش ومن وافقه همزة ﴿يُؤْذُونَ﴾ فقرأ: ﴿يوذون﴾ وقرأ عامة السبعة غير نافع وحده: ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ﴾ بضم الذال في الحرفين، وقرأه نافع وحده: ﴿أُذْن﴾ بسكون الذال[(٢)].

وقرأ عامة السبعة غير الكسائي: ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ بالرفع، وقرأ الكسائي وحده ﴿ورحمةٍ﴾ بالخفض[(٣)].

فعلى قراءة الجمهور فهو عطف على المضاف في قوله: (أُذُنُ خيرٍ لكم ورحمةٌ) وعلى قراءة الكسائي[(٤)] فهو عطف على المضاف إليه. أي: (أُذُنُ خيرٍ ورحمةٍ لكم)[(٥)].

---

(١) مضى عند تفسير الآية (١١٢) من سورة الأنعام، وانظر: الإتحاف (٩٤/٢).

(٢) انظر: السبعة ص٣١٥، المبسوط لابن مهران ص٢٢٧.

(٣) قراءة الخفض إنما هي لحمزة وليست للكسائي. انظر: السبعة ص٣١٥، المبسوط لابن مهران ص٢٢٧، وقد استدرك الشيخ ذلك فنبّه على الصواب كما سيأتي قريباً.

(٤) الصواب: حمزة كما سبق.

(٥) انظر حجة القراءات ص٣٢٠، الدر المصون (٧٤/٦).

وقوله: ﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ﴾ هذا صنف آخر من أصناف المنافقين؛ لأن الله بيّن في هذه الآية أصناف المنافقين، قال: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ﴾ [التوبة: آية ٤٩] ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ [التوبة: آية ٥٨] ﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ﴾ [التوبة: آية ٦١] كان في المنافقين طائفة يبسطون ألسنتهم إلى رسول الله ﷺ بالكلام السيء فيعيبونه ويقولون فيه ما لا ينبغي، وهذا هو قوله: ﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ﴾ [التوبة: آية ٦١] أي: ومن المنافقين الطائفة الذين يؤذون النبي محمداً ﷺ بالاستطالة في عرضه.

﴿وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌۚ﴾ معنى هذا أنه إذا قيل لهم: كيف تقدحون في نبي الله ﷺ وتعيبونه وهو إن علم بذلك فعل بكم وفعل بكم؟ فيقولون: لا يهمنا ذلك؛ لأنه أذن!! العرب تقول: فلان أُذُن. وأُذْن بالسكون لغة فيه، إذا كان يسمع من كل من جاءه، فإذا كان الرجل كلما جاءه أحد وأخبره سمع منه وصدقه قالت العرب: هذا الرجل أذن. يعنون: هو كلما جاءه أحد بخبر صدقه، ونحن إن قيل عنا إننا آذيناه جئناه وكذبنا له وحلفنا له فيصدقنا، فنحن نؤذيه ولا تضرنا عاقبة ذلك؛ لأن مآلنا أن نكذب الحديث ونحلف له عليه، وهو أُذن يصدق كل من جاءه بخبر، فيصدقنا ولا ينشأ لنا من ذلك سوء. وهذا معنى قوله: ﴿يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌۚ﴾ لما عابوا النبي ﷺ آذوه وعابوه بأنه أُذن في زعمهم الباطل - قبّحهم الله - يعنون: يسمع من كل من حدثه، بيّن الله أنه أذن ولكنه أُذن خير خاصة، لا أُذن شر، فإذا جاءه الناس بالخير وبالحق صدّقهم في الخير والشر، أما الباطل فليس بأذن فيه ولا بمصدق أحداً فيه، ولا ينفعكم اعتذاركم الباطل. وهذا معنى قوله: ﴿قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ﴾ هو أُذن خير لكم، أي: يسمع - هو سامع - ولكنه سامع خير، سامع من كل من جاءه بخير وبحق لا من كل من جاءه بشر وبباطل مثلكم فليس بأُذن له. وهذا معنى قوله: ﴿قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ﴾ يصدق بالله (جلّ وعلا) التصديق الكامل من الجهات الثلاث، يؤمن بالله تصديقاً صحيحاً من قلبه ولسانه وجوارحه (صلوات الله وسلامه

عليه) ﴿وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ يصدق المؤمنين العدول الأتقياء إذا جاؤوه بمقالة، أما الكفَرَة الكذَبة أمثالكم فلا يصدقهم.

وجرت العادة باستقراء القرآن أن الله تبارك وتعالى إذا كان الإيمان بالله عداه بالباء، كأن يقول: ﴿ءَامَنُوا بِاللَّهِ﴾ [الحجرات: آية ١٥، النساء: آية ١٣٦] ﴿يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: آية ١١٤] وإذا كان الإيمان معناه تصديق مخلوق فإنه يعديه باللام دائماً؛ ولذا قال هنا: ﴿يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ معناه: ويصدق المؤمنين. ولا يكاد هذا التصديق المتعلق بالآدميين يوجد في القرآن إلا مجروراً باللام، كقوله: ﴿فَـَامَنَ لَهُ لُوطٌ﴾ [العنكبوت: آية ٢٦] ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا﴾ [يوسف: آية ١٧] وقوله هنا: ﴿وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: ويصدق المؤمنين الأتقياء في الخير الذي جاءه به، ولكن ليس بأذن للكفرة الفجرة أمثالكم. فقوله: ﴿وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ﴾ على قراءة الجمهور هو أُذن خيرٍ، وهو أيضاً رحمة للمؤمنين، وقد أرسله الله رحمة للعالمين.

وفي هذه الآية سؤال معروف؛ لأن طالب العلم يقول: الله قال في آية براءة هذه: ﴿وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ فقيّد كونه رحمة للذين آمنوا، وفي سورة الأنبياء قال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء: آية ١٠٧] فلم يقيد كونه رحمة بالإيمان، بل قال لجميع العالمين، وهذا وجه السؤال.

والجواب عنه: أن الله (جلّ وعلا) أرسله (صلوات الله وسلامه عليه) رحمة لجميع الخلائق، إلا أن بعضهم قبل من الله التفضل بتلك الرحمة فحازها، فخص في قوله: ﴿وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ وبعضهم لم يقبلها ولم يحزها، ولا ينافي ذلك أن الله أعطاه تلك الرحمة إلا أنه لم يقبلها ولم يحزها. وضرب العلماء لهذا مثلًا قالوا: لو أن سلطان البلد مثلًا - ولله المثل الأعلىٰ - أرسل لجميع سكان البلد إنعاماً كثيراً كأن أجرىٰ لهم المياه تأتيهم، وأجرىٰ عليهم الأرزاق والنعم، وبعضهم امتنع أن يأخذ، وبعضهم أخذ فلا ينافي أنه أنعم على الجميع. فالله أرسله رحمة للعالمين، بعض

الناس قبل من الله فضله وبعضهم لم يقبل فضله، ولا ينافي ذلك أنه تفضّل عليه ببعثه (صلوات الله وسلامه عليه).

وأما على قراءة حمزة الذي قرأ: ﴿ورحمةٍ﴾ بالخفض ـ هو حمزة لا الكسائي[1] ـ أما على قراءة حمزة ﴿ورحمةٍ للذين آمنوا﴾ هو أُذن خيرٍ ورحمةٍ. معطوف على الخير؛ لأن الله (جلّ وعلا) جعل فيه الخير والرحمة فإذاً كان سامعاً من أحد فهو سماع لا يقود إلا إلى خير من خير ورحمة لا سماع شر. ولا يخفىٰ ما في قراءة حمزة من عدم ظهور المعنىٰ، وظهور المعنىٰ على قراءة الجمهور. وهذا معنىٰ قوله: ﴿قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ بالاستطالة في عرضه بكلام السوء ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ من الله (جلّ وعلا)، وقد بيّن في الأحزاب أن ذلك العذاب مصحوب باللعنة أيضاً في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾ إلى آخر الآية [الأحزاب: آية ٥٧]. وهذا معنىٰ قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾﴾ [التوبة: آية ٦٢] قال بعض العلماء: كانت جماعة من المنافقين ومعهم غلام حدث من الأنصار يسمىٰ عامر بن قيس، فقال بعض المنافقين لبعض: والله إن كان ما يقوله محمد ﷺ حقاً لنحن شر من الحمير، فغضب ذلك الغلام وقال: أَتَشُكُّون في حق ما يقوله، والله إن ما يقوله لحق، وإنكم لشرٌّ من الحمير، ثم نما الحديث إلى النبي ﷺ، فلما سألهم: ما حملكم على أن تقولوا ما قلتم، حلفوا بالله ما قلناه، قال من روىٰ هذه القصة في سبب هذا النزول: وكان ذلك الغلام الأنصاري يدعو الله ويقول: اللهم بيّن المحق منا من الكاذب، فأنزل الله هذه الآية من سورة براءة تصديقاً

(١) سبق التنبيه على ذلك قريباً.

لذلك الرجل وتكذيباً لأولئك المنافقين[١] ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ﴾ أنما قيل عنّا لَكَذِب، ولا نقول إلا خيراً، ولا نظهر إلا الخير ﴿لِيُرْضُوكُمْ﴾ بذلك ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾ في باطن الأمر، ولم يكونوا منافقين، ولم يقعوا في نبيه ﷺ بما لا ينبغي.

وقد رد الضمير هنا على الرسول وحده قال: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾ من أن يعيبوه. قال بعض العلماء[٢]: إنما اكتفىٰ بالضمير الواحد لأن إرضاء الله إرضاء لرسوله، وإرضاء الرسول إرضاء الله ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: آية ٨٠] فلما تلازما صارا كأنهما شيء واحد.

وذهب غير واحد من علماء العربية وعلماء التفسير[٣] إلى أن رجوع الضمير على أحد المتعاطفين اكتفاءً به لأن الآخر مفهوم منه أسلوب عربي معروف كثير في القرآن العظيم وفي كلام العرب وهو كثير، أن العرب ربما حذفت بعض الأمرين واستغنت عنه بالآخر، سواء كان في ضمير أو غير ضمير، فمن أمثلته في غير الضمير قول قيس بن الخطيم[٤]:

نحنُ بما عندنا وأنت بما عندكَ راضٍ والرأي مُختلِفُ

فحذف «راضون» لدلالة «راضٍ» عليها وقد أنشد هذا لهذا المعنى سيبويه في كتابه، وأنشد سيبويه لهذا المعنىٰ أيضاً قول عمرو بن أحمر الباهلي[٥]:

رَمَاني بأمرٍ كنتُ منه ووالدي بَرِيئاً ومن أجلِ الطويِّ رَمَاني

---

(١) أخرجه ابن جرير (٣٢٩/١٤) وابن أبي حاتم (١٨٢٨/٦) عن قتادة مرسلاً، وليس فيه تسمية الذي نقل ذلك إلى رسول الله ﷺ. وعزاه في الدر (٢٥٣/٣) لابن المنذر وابن أبي حاتم.
وقد ساق رواية عند ابن أبي حاتم عن السدي مرسلًا وفيها تسمية الأنصاري. وفي المطبوع من ابن أبي حاتم رواية عن السدي تتعلق بتفسير الآية لكن لا علاقة لها بسبب النزول أو تسمية الأنصاري.

(٢) انظر: القرطبي (١٩٤/٨)، الدر المصون (٧٥/٦).

(٣) مضى عند تفسير الآية (٤٥) من سورة البقرة.

(٤) البيت في الكتاب لسيبويه (٧٥/١).

(٥) السابق.

أي: كنت بريئاً وكان والدي بريئاً، فحذف أحدهما لدلالة الآخر عليه، وأنشد له سيبويه في كتابه أيضاً: قول ضابىء بن الحارث البرجمي[١]:

فمن يكُ أَمْسَى بالمدينةِ رحلُه فإني وقَيَّاراً بها لغريبُ

فإني لغريب وقيار لغريب. هذا من أمثلته في غير الضمير، وأمثلة حذف أحد الضميرين اكتفاءً عنه بالآخر كثيرة في كلام العرب وفي القرآن العظيم، فمن أمثلتها في القرآن في المتعاطفات بالواو كما هنا: قوله: ﴿يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا﴾ [التوبة: آية ٣٤] ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ وَإِنَّهَا﴾ [البقرة: آية ٤٥] ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾ ﴿أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ﴾ [الأنفال: آية ٢٠] وأمثال ذلك كثيرة في القرآن. ومن أمثلته في كلام العرب قول نابغة ذبيان وهو شاهده المشهور[٢]:

وقد أراني ونُعْماً لاهيين بها والدهرُ والعيشُ لم يهمم بإمرارِ

يعني: لم يهمما. فرد الضمير على واحد من العيش أو الدهر؛ لأن الآخر مفهوم منه، ومنه قول حسان رضي الله عنه[٣]:

إن شَرْخَ الشبابِ والشَّعَر الأسْود ما لم يُعَاصَ كان جُنُونَا

فلم يقل: ما لم يعاصيا. وهو كثير.

وأما في المعطوف بـ(أو) فالقياس أن يرجع الضمير بالإفراد؛ لأن الضمير في المتعاطفات بـ(أو) يرجع إلى الأحد الدائر بينها، وهو القياس كقوله: ﴿وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ﴾ [النساء: آية ١١٢] وقد رده إلى أحدهما بعينه تعالى في قوله: ﴿وَإِذَا[٤] [رَأَوْا۟ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓا۟ إِلَيْهَا﴾] [الجمعة: آية ١١].

وقد يرجع إلى أحدهما في المتعاطفات بالفاء، ومن أمثلة رجوعه إلى أحدهما في المتعاطفين بالفاء قول امرىء القيس في معلقته[٥]:

---

(١) الكتاب (٧٥/١).

(٢) مضى عند تفسير الآية (٤٥) من سورة البقرة.

(٣) السابق.

(٤) في هذا الموضع انقطاع في التسجيل. وقد أثبت تمام الآية وجعلت ذلك بين معقوفين.

(٥) ديوانه ص١١٠.

فتُوضِحَ فالمِقرَاة لم يَعْفُ رسمها لِمَا نَسَجتها من جنوب وشمأل

فرده لإحداهما. وعلى كل حال فالمعنىٰ: يحلفون بالله لكم ليرضوكم والله أحق أن يرضوه ورسوله أحق أن يرضوه إن كانوا مؤمنين، ولكنهم لم يكونوا مؤمنين - قبّحهم الله -. وهذا معنىٰ قوله: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: آية ٦٢].

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾﴾ [التوبة: آية ٦٣].

قدمنا في هذه الدورس مراراً[1] أن كل فعل مضارع مجزوم بـ (لم) إذا تقدمتها همزة استفهام بأن قيل فيه (ألم) كل فعل مضارع مسبوق بـ (ألم) فيه لعلماء التفسير وجهان في جميع القرآن:

أحدهما: أن تصير مضارعته ماضوية، ويصير نفيه إثباتاً، فأصله مضارع منفي بـ (لم) فتصير حقيقة معناه أنه ماضٍ مثبت فتنقلب المضارعة ماضوية، وينقلب النفي إثباتاً، وهذا مطرد كقوله: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟﴾ معناه: علموا أن من حاد الله ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾﴾ [البلد: آية ٨] جعلنا له عينين ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾﴾ [الشرح: آية ١] شرحنا لك صدرك. فإن قيل: بأي وجه انقلبت المضارعة ماضوية، وانقلب النفي إثباتاً، مع أن النفي والإثبات نقيضان؟ فالجواب: أن انقلاب المضارعة ماضوية أمر واضح لا إشكال فيه؛ لأن (لم) حرف قلب، تقلب المضارع من معنىٰ الاستقبال إلى معنىٰ الماضي، وهذا أمر معروف لا نزاع فيه ولا إشكال، أما انقلاب النفي إثباتاً فوجهه أن همزة الاستفهام التي قبل حرف (لم) هي استفهام إنكار، والإنكار مضمن معنىٰ النفي، فيتسلط النفي الكامن في الهمزة على النفي الصريح في (لم) فينفيه، ونفي النفي إثبات. هذا وجه من قال هذا القول.

القول الثاني: أن كل فعل مضارع مسبوق بـ (ألم) في جميع القرآن هو

---

(١) مضى عند تفسير الآية (١٣٠) من سورة الأنعام.

استفهام تقرير، والمراد باستفهام التقرير هو حمل المخاطب على أن يقر فيقول: بلى، وليس المراد منه طلب فهم ألبتة. فالمراد بهذا على هذا القول أن يقولوا: بلىٰ نعلم أنه من يحادد الله ورسوله فأن له نار جهنم ﴿أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ﴾ إنما فُك الإدغام هاهنا لأن الفعل مجزوم، ومعلوم أن المضعَّف إذا جزم أو صار أمراً جاز فيه الإدغام وفَكُّ الإدغام كما هو معروف في محله. ومعنىٰ قوله: ﴿مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ﴾ أي: يشاق الله ويخالفه ويعاصيه. وأصل المحادة: من الحد؛ لأن المحاد يكون في الحد الذي ليس فيه من حاده، تقول: زيد محاد لعمرو. أي: مشاق له ومعاد له ومعاند؛ لأنه في الحد الذي ليس فيه، فهذا في الحد الذي ليس فيه هذا وذلك بعكس ذلك أيضاً. وهذا معنىٰ معروف في كلام العرب، وأعظم محادة للّه هي إيذاء نبيه ﷺ والتجرؤ على ذلك بالأيمان الباطلة الكاذبة.

﴿فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ﴾ إذا كانت (أن) مثلًا في جزاء الشرط بعد فاء جاز فيها الفتح كما هنا وجاز فيها الخفض أيضاً، وهما لغتان عربيتان. وقراءة الجمهور منهم السبعة هنا: ﴿فَأَنَّ لَهُۥ﴾ بفتح الهمزة، ولو كسرت لجاز لغة لا قراءة؛ لأن القراءة الصحيحة بعكسه ﴿فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ﴾ أضاف النار إلى جهنم لأن جهنم طبقة من طبقاتها.

﴿خَٰلِدًا فِيهَآ﴾ في حال كونه خالداً فيها، وهي حال مقدرة كما هو معلوم.

﴿ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ﴾ أي: الخلود في النار ـ عياذاً بالله ـ بسبب محادة الله ومشاقته، والخزي العظيم أي: الذل الأكبر والهوان الأعظم. فالخزي في لغة العرب: غاية الذل والهوان والانسفال. وقد صرح الله (جلّ وعلا) بأن من حاد الله في غاية الذل والمهانة والسفالة كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾﴾ [المجادلة: آية ٢٠] فقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ﴾ يبين أن الخزي هنا ـ عياذاً بالله ـ يتضمن أعلى الذل والحقار والصغار، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُوا۟ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [المجادلة: آية ٥] وذلك الكبت ملتزم لأصناف الذل

والمهانة والله (جلّ وعلا) يقول: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ﴾ [آل عمران: آية ١٩٢] أي: أذللته وأهنته - والعياذ بالله أجارنا الله منها وإخواننا المسلمين - وهذا معنى قوله: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ الضمير ضمير الشأن، والجملة هي اسم (أن)، و(أن) الثانية فيها للعلماء أوجه[1] متعددة أصحها وأقربها للصواب أنها هي (أن) الأولى كررت لما طال الفصل بينهما، وتكرير (أن) إذا طال الفصل أسلوب عربي معروف كثير في كلام العرب، ومنه هذه الآية على الصحيح. ﴿فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ﴾.

﴿خَـٰلِدًا فِيهَا﴾ الخلود معناه: المكث الطويل، والمراد بخلود أهل النار خلود لا انقطاع فيه البتة؛ لأن الله يقول: ﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَـٰهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: آية ٩٧] فليس للنار خبوة نهائية ليس بعدها زيادة سعير، وقد قدمنا في هذه الدروس[2] أن جماعة من العلماء زعموا أن النار تفنى، وأنهم يخرجون منها، واستدلوا بقوله: ﴿لَّـٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾﴾ [النبأ: آية ٢٣] وبقوله: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ في سورة هود [هود: آية ١٠٧] وبقوله: ﴿قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: آية ١٢٨] وبيّنا مراراً أن التحقيق في خلود أهل الجنة وخلود أهل النار أنه خلود أبدي لا انقطاع له أبداً لا يزول ولا يحول فهو باق بقاءً سرمدياً لا انقطاع له، أما خلود أهل الجنة فقد صرّح الله به في آيات من كتابه كقوله: ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود: آية ١٠٨] ﴿إِنَّ هَـٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾﴾ [ص: آية ٥٤] وقوله (جلّ وعلا): ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: آية ٩٦] إلى غير ذلك من الآيات، وأما خلود أهل النار فجاءت فيه آيات كثيرة كقوله: ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾ [فاطر: آية ٣٦] ﴿فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ [طه: آية ٧٤] ﴿وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾ [فاطر: آية ٣٦] ﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَـٰهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: آية ٩٧] والحاصل أن من قال من

---

(١) انظر: ابن جرير (١٤/٣٣٠)، القرطبي (٨/١٩٤)، الدر المصون (٦/٧٧).

(٢) مضى عند تفسير الآية (١٢٨) من سورة الأنعام، والآية (٣٦) من سورة الأعراف.

السلف: «إن النار تفنى ويبقى محلها لا أحد فيه» يجب حملها كما صرح به البغوي في تفسيره[1] على الطبقة التي كان فيها عصاة المسلمين؛ لأن الله يخرجهم بعد أن تطهرهم النار فيؤولون إلى الجنة فتبقى طبقتهم التي كانوا فيها خاوية، أما الكفار فهم باقون معذبون لا يموتون ولا يخفف عنهم العذاب ولا تفنى النار عنهم، وقد نفى الله فناءها بقوله: ﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا﴾ فمن يدّعي أن لها خبوة نهائية ليس بعدها زيادة سعير رُد عليه بهذه الآية الكريمة، وكذلك لا يخرجون منها؛ لأن الله يقول: ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا﴾ [السجدة: آية ٢٠] ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا﴾ [الحج: آية ٢٢] ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: آية ١٦٧] ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا﴾ [المائدة: الآية ٣٧] وكذلك لا يموتون فيها كما قال: ﴿وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾ [إبراهيم: آية ١٧] ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾ [فاطر: آية ٣٦] إلى غير ذلك من الآيات كما أوضحناه في هذه الدروس.

١٠/أ /[2] [أما آية النبأ، وهي قوله: ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾﴾ [النبأ: آية ٢٣] فقد بينتها غاية البيان آية سورة ص، وإيضاح ذلك أن المعنى: ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ﴾ أي: في النار ﴿أَحْقَابًا﴾ في حال كونهم في تلك الأحقاب ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾﴾ [النبأ: الآيتان ٢٤، ٢٥] فإذا انقضت أحقاب] الحميم والغسّاق، عذبوا بأنواع أخر من أنواع العذاب لا نهاية لها ولا يعلمها إلا الله. وإنما قلنا: إن هذه الأحقاب، مختصة بأحقاب الحميم والغساق لأن الله بيّن ذلك وصرّح به في سورة (ص) وخير ما يفسّر به القرآنُ القرآنَ؛ لأن الله يقول في (ص): ﴿هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٥٦﴾ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴿٥٨﴾﴾ [ص: الآيات ٥٥ ـ ٥٨] فبيّن أن هنالك أصنافاً أخر

---

(١) تفسير البغوي (٢/٤٠٣).

(٢) في هذا الموضع انقطع التسجيل. وتم استيفاء النقص من كلام الشيخ (رحمه الله) على هذه المسألة عند تفسير الآية (٣٦) من سورة الأعراف. وجعلت ذلك بين معقوفين.

وأشكالاً من أنواع العذاب غير الحميم والغسّاق. فبيّنت آية (ص) هذه آية النبأ، بياناً واضحاً وخير ما يفسر به القرآن القرآن.

وذكرنا[1] أن بعض الملحدين يقول: أين الإنصاف والحكمة في أن تكون أيام المعصية في دار الدنيا وأيام الكفر مدة محدودة والجزاء في مدة لا تنقضي، فأين العدل والميزان، في عملٍ في مدة معينة مع جزاءٍ في مُدَد لا تنقضي ولا تنتهي؟!

والجواب عن هذا: أن خبث الكافر الذي عُذّب بسببه هو باقٍ دائم لا يزول في جميع المُدد، فكان العذاب دائماً لا يزول؛ لأن سببه باقٍ لا يزول، والدليل على أن خبث الكفار باقٍ لا يزول أبداً فكان جزاؤه دائماً لا يزول أبداً لأنهم لما رأوا النار وعاينوا الحقائق يوم القيامة وندموا على تكذيب الرُّسل فتمنوا الردّ إلى الدنيا ليتوبوا ﴿فَقَالُواْ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنعام: آية ٢٧] قال الله فيهم: ﴿وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ﴾ [الأنعام: آية ٢٨] فصرّح (جلّ وعلا) بأنهم لو رُدوا إلى الدنيا بعد معاينة النار والعذاب وبلايا القيامة لعادوا لما نهوا عنه.

وهو تصريح بأن خبثهم الطبيعي منطبعٌ فيهم دائم لا يزول، فلذلك كان جزاؤه دائماً لا يزول. والجزاء بحسب العمل؛ ولذا قال تعالىٰ: ﴿جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾﴾ [النبأ: آية ٢٦] موافقاً لأعمالهم فخبثهم لا يزول وجزاؤهم لا يزول، وقد قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ﴾ [الأنفال: آية ٢٣] فـ (خيراً) نكرة في[2] سياق الشرط وهي تعمّ، فعرفنا أن الله لم يعلم فيهم خيراً ما في وقتٍ ما كائناً ما كان، ولما كان الخير منتفٍ عنهم أبداً والشرّ ملازم لهم أبداً، كان جزاؤهم لازماً أبداً. وهذا معنىٰ قوله: ﴿فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَا ذَٰلِكَ﴾ [التوبة: آية ٦٣] ـ والعياذ بالله ـ ﴿ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ﴾ الهوان والخزي الكبير. والعظيم صفة مشبهة من عَظُم الشيء يعظم فهو عظيم، وهو معنىً معروف لا خفاء به.

---

(١) راجع ما سبق عند تفسير الآية (١٢٨) من سورة الأنعام.

(٢) السابق.

قال تعالى: ﴿يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ هِىَ حَسْبُهُمْ ۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾ [التوبة: الآيات ٦٤ ـ ٦٨].

يقول الله (جلّ وعلا): ﴿يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [التوبة: آية ٦٤].

قرأ هذا الحرف عامة القرّاء، غير ابن كثير وأبي عمرو: ﴿أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ﴾ بفتح النون وتشديد الزاي، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو: **﴿أن تُنْزل عليهم سورة﴾** ومعنى القراءتين واحد، فالله (جلّ وعلا) في هذه السورة الكريمة يفضح ما تنطوي عليه ضمائر المنافقين، فبيّن لنبيه ﷺ في هذه الآية الكريمة أن المنافقين في غاية الخوف والقلق والحذر من أن ينزل الله على نبيّه قرآناً يكشف به أسرارهم، ويوضح ما تنطوي عليه ضمائرهم من الكفر والسوء فقال: ﴿يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ مضارع حَذِر الأمر يحذره إذا كان يخاف وقوعه خوفاً شديداً.

قوله: ﴿أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ﴾ التحقيق أن المصدر المنسبك من (أنْ) وصلتها في محل نصب مفعول به ليحذر[1]؛ لأنه (يحذر) تتعدى بنفسها دون حرف، وأنشد سيبويه لتعدي (حذر) بنفسها قول الشاعر[2]:

حَذِرٌ أموراً لا تضيرُ وآمنٌ ... ما ليس ينجيه من الأقدار

فقوله: «أموراً» مفعول به لـ (حذر) وهو الوصف من حَذِر يحذر فهو حَذِرٌ ﴿أَن تُنَزَّلَ﴾ يعني: يحذر المنافقون تنزيل سورة من الله عليهم. أي:

---

(١) انظر: الدر المصون (٦/٧٩).

(٢) الكتاب (١/١١٣).

على النبي وأصحابه تفضح المنافقين، وقال بعض العلماء: ﴿عَلَيْهِمْ﴾ أي: على المنافقين؛ لأنها إذا نزلت في شأنهم مبيّنة فضائحهم وما تنطوي عليه أسرارهم فكأنها نُزلت عليهم ﴿قُلِ﴾ لهم يا نبيّ الله ﴿ٱسْتَهْزِءُوٓا۟﴾ صيغة الأمر هنا للتهديد، يعني: دوموا على ما أنتم عليه من الاستهزاء بآيات الله وبالله وبرسوله فستلقون جزاء ذلك ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ﴾ أي: مظهر لنبيه بما يوحىٰ إليه ما أنتم تسرونه وتبطنونه، ذلك الذي تحذرون أن يفضحكم الله فيه، إن الله مخرجه ومظهره، وقد أطلع الله نبيه ﷺ على حقائقهم بعد أن لم يكن يعلمها؛ لأن قوله هنا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ﴾ يدلّ على أن النبي في هذا الوقت لم يكن يعلمه كما يأتي في قوله: ﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ﴾ [التوبة: آية ١٠١] وقد بيّن الله لنبيّه المنافقين، أشار له إلى معرفتهم بقوله: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ﴾ ثم قال: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ﴾ [محمد: الآيتان ٢٩، ٣٠] وقد أطلع الله نبيه عليهم في غزوة تبوك، وأطلع النبيّ حذيفة بن اليمان على جماعة منهم بأسمائها. وهذا معنىٰ قوله: ﴿قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: آية ٦٤].

قوله: ﴿مَّا﴾ في محل المفعول به لاسم الفاعل الذي هو (مخرج) والسؤال الذي يتبادر في هذا جوابه ظاهر، لأن (مخرج) هنا قد وقع وتعلق بالماضي، والمقرر في علم العربية أن اسم الفاعل إذا كان نكرة لا يعمل إلا بمسوّغ، ولا يعمل في الماضي، وهنا كأنه عمل في الماضي. والجواب واضحٌ؛ لأن هذه الآية تحكي ما كان في ذلك الوقت مستقبلًا؛ لأن وقت نزول هذه الآية يحكي الله (جلّ وعلا) فيها أنه سيفعل ذلك في المستقبل، فإذاً لم يتعلق اسم الفاعل بأمرٍ ماضٍ كما لا يخفى. وهذا معنىٰ قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ﴾.

ثم قال تعالىٰ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ﴾ [التوبة: آية ٦٥] نزلت هذه الآية في غزوة تبوك بإطباق المفسرين في قومٍ استهزؤوا بالله وآياته ورسوله. قال بعض العلماء: كان النبي ﷺ يسير في

غزوة تبوك وأمامه ركبٌ من المنافقين، فكان بعضهم يقول لبعضٍ: «يظن هذا أنه يفتح قصور الشام ويقدر على بلاد بني الأصفر، هيهاتَ هيهات» فأطلع الله نبيه على ذلك فاستوقفهم فسألهم: «**لِمَ قلتم هذا؟**» قالوا: كنا نخوض ونلعب، لم نقل هذا عن طريق الجدّ، وإنما قلناه عن طريق الهزل واللعب. فأجابهم الله: ﴿أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم﴾[1] [التوبة: آية ٦٥].

وذكر بعض العلماء أن النبي ﷺ ضلّت راحلته في غزوة تبوك فقال جماعة من المنافقين: انظروا إلى هذا الرجل يدّعي أنه يعلم علم الغيب، وأنه ينزل عليه الوحي وهو لا يدري أين ذهبت ناقته!! وأن جبريل أتاه فأخبره بموضعها، أمسكتها شجرة كذا بزمامها، فناداهم وقال: «**لِمَ قلتم ما قلتم؟**» قالوا: كنا نخوض ونلعب[2].

وعلى كل حال فلا خلاف بين العلماء أن هذه الآية من سورة براءة نزلت في غزوة تبوك في قوم استهزؤوا بالنبي ﷺ واستَخَفُّوا به، فسألهم رسول الله ﷺ فأجابوا معتذرينَ اعتذاراً كاذباً قالوا: ﴿إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ﴾ في الحديث ﴿وَنَلْعَبُ﴾ نهزأ ونضحك فيما بيننا لا نقول ذلك عن جدّ وقصد. وهذا معنى قوله: ﴿إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾.

﴿قُلْ﴾ لهم يا نبيّ الله: ﴿أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾ يعني تستهزئون بالله وبرسوله وبآياته؟! فالاستهزاء بالله وبآياته وبرسوله كفر بواح لا

---

(١) أخرجه ابن جرير (٣٣٤/١٤)، وابن أبي حاتم (١٨٣٠/٦)، والواحدي في أسباب النزول ص٢٥٠، عن قتادة مرسلاً. وعزاه في الدر (٢٥٤/٣) لابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

(٢) أخرجه البيهقي في الدلائل (٢٣٢/٥)، وذكره ابن هشام في السيرة ص١٣٧٥، من طريق ابن إسحاق. وانظر: الذهب المسبوك ص٢٤٩، وليس للآية ذكر في الرواية التي وقفت عليها. وقد أخرج ابن أبي حاتم (١٨٣٠/٦) وكذا أورده السيوطي في الدر (٢٥٤/٣) عن مجاهد في قوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ قال رجل من المنافقين: يحدثنا محمد أن ناقة فلان بوادي كذا وكذا في يوم كذا وكذا وما يدريه بالغيب»؟! وعزاه السيوطي لابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

عذر لصاحبه البتَّة. قال بعض العلماء[١]: يؤخذ من هذه الآية الكريمة أن من استهزأ بالله وبرسوله وبآياته ولو كان هازلًا مازحاً أنه يكون كافراً؛ لأنه لا هزل في الكفر، وقد جاء في الحديث أن بعض المسائل هزلها كجدها، كالطلاق، والعتاق، وهي ثلاث مسائل معدودة في الحديث: «**ثلاث جدهن [جد]**[٢]: **الطلاق والعتاق**...» ونسيت الثالثة[٣] مع أنها مختلف فيها هل هي الرجعة أو غيرها.

وهذا معنى قوله: ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ لَا تَعْتَذِرُوا۟﴾ الاستهزاء: الاستخفاف، ولا تعتذروا هذا الاعتذار البارد الكاذب، ليس مقبولًا منكم حتى تتوبوا توبة نصوحاً ﴿قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ أي: بعد إظهاركم الإيمان وإعلانكم إياه.

ثم قال: ﴿إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ﴾ [التوبة: آية ٦٦] قرأ هذا الحرف عامَّة القراء السبعة، غير عاصم وحده: ﴿**إن يُعف عن طائفةٍ منكم تُعذب طائفة بأنهم كانوا مجرمين**﴾ بقوله: ﴿**يُعف**﴾ بالياء وبناء الفعل للمفعول، و﴿**تُعذب**﴾ طائفة بالتاء، وضم طائفة على أنه نائب الفاعل، وقرأ عاصم وحده من السبعة: ﴿إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةً﴾[٤] بنون العظمة ونصب طائفة الثانية. وفي نظم ابن المرحِّل[٥]:

---

(١) انظر: القرطبي (١٩٧/٨).

(٢) في الأصل: «هزل». وهذا سبق لسان، والصواب: جدهن جد وهزلهن جد.

(٣) الثلاث في أشهر الروايات هي: النكاح والطلاق والرجعة.

والحديث أخرجه أبو داود في الطلاق، باب: في الطلاق على الهزل، حديث رقم: (٢١٨٠) (٢٦٢/٦)، والترمذي في الطلاق، باب ما جاء في الجد والهزل في الطلاق. حديث رقم: (١١٨٤) (٤٨١/٣)، وابن ماجه في الطلاق، باب من طلّق أو نكح أو رجع لاعباً. حديث رقم: (٢٠٣٩) (٦٥٨/١)، والدارقطني (١٨/٤، ١٩)، والحاكم (١٩٨/٢)، وابن الجارود (٤٤/٣). وللوقوف على روايات الحديث وألفاظه انظر: التعليق المغني على الدارقطني (١٩/٤)، إرواء الغليل (٢٢٤/٦).

(٤) مضت عند تفسير الآية (٥١) من سورة الأعراف.

(٥) السابق.

لـــعـــاصـــم قـــراءة لـــغـــيـــرهـــا مـــخـــالـــفـــة
إن نـــعـــف عـــن طـــائـــفـــة مـــنـــكـــم نـــعـــذب طـــائـــفـــة

فهذه قراءة عاصم وحده، برواية حفصٍ وشعبة عنه معاً.

وهذا معنىٰ قوله: ﴿لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ﴾.

قال بعض العلماء[(١)]: هذا العفو نزل في [مخشي بن الحميِّر] لأنه كان من الذين خاضوا في الاستهزاء. قال بعض العلماء[(٢)]: كانوا ثلاثة نفر اثنان استهزؤوا وواحد ضحك لهما من كلامهما، ثم إن الثالث الذي هو مخشي بن الحميّر (رضي الله عنه) تاب إلى الله، وحسن إسلامه، وعفىٰ الله عنه، وأنزل الله فيه: ﴿إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ﴾.

وقال غير واحد إن مخشياً (رضي الله عنه) تاب من نفاقه، وحسن إسلامه، وأناب إلىٰ الله، ودعا الله أن يموت شهيداً، وأن لا يطّلع أحدٌ على قبره، وقال من قال هذا: قتل باليمامة شهيداً. ولم يطلع عليه أحدٌ، ولم يعثر عليه (رضي الله عنه)، هكذا قال بعضهم[(٣)].

﴿إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ﴾ تابت إلى الله وأنابت إليه ورجعت عن النفاق إلى الإيمان الخالص والتوبة النصوح ﴿نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ﴾ أخرىٰ لم يتوبوا بل كانوا مصرّين على النفاق والاستهزاء بالله وآياته ورسوله بسبب أنهم ﴿كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ﴾ مرتكبين الجريمة، وهي الإصرار على الكفر والنفاق من غير إقلاعٍ ولا توبةٍ عنه، والمجرمون[(٤)] جمع المجرم، والمجرم مرتكب

---

(١) أخرجه ابن جرير (٣٣٦/١٤) عن ابن إسحاق مرسلاً. وقد أخرج ابن أبي حاتم (١٨٣١/٦) كما أورد السيوطي في الدر (٢٥٤/٣) شاهداً له عن كعب بن مالك (رضي الله عنه). وعزاه لابن إسحاق وابن المنذر وابن أبي حاتم. وأورده أيضاً عن ابن عباس وعزاه لابن مردويه.

(٢) انظر: القرطبي (١٩٩/٨).

(٣) جاء ذلك في أثر كعب بن مالك وابن عباس اللذين أشرنا إليهما قريباً.

(٤) مضى عند تفسير الآية (٥٥) من سورة الأنعام.

الجريمة، والجريمة هي الذنب العظيم الذي يستحق صاحبه النكال العظيم و(مجرمون) هنا اسم فاعل (أجرم) بصيغة (أفعل) بالهمزة التي صار بها رباعياً، ويستعمل هذا الفعل استعمالين: أجرم رباعياً بصيغة (أفعل) وجرم ثلاثياً مجرداً. وما جاء مستعملًا في القرآن إلا بصيغة الرباعي فقط (مجرمون). ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ﴾ [المطففين: آية ٢٩] ولم يأت بصيغة الثلاثي المجرد في القرآن ولكنه جاء بذلك في لغة العرب، ومن ذلك قول الشاعر:

ونَـنْـصُـرُ مـولانَـا ونـعـلـمُ أنـه كما الناسُ مَجْرُومٌ عليه وجارمُ[1]

لأن المجروم اسم مفعول جرمه الثلاثي المجرد بلا نزاع، وهذا معنى قوله: ﴿إِن نَّعۡفُ عَن طَآئِفَةٖ مِّنكُمۡ نُعَذِّبۡ طَآئِفَةَۢ بِأَنَّهُمۡ كَانُواْ مُجۡرِمِينَ﴾.

﴿ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتُ بَعۡضُهُم مِّنۢ بَعۡضٖۚ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمُنكَرِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَقۡبِضُونَ أَيۡدِيَهُمۡۚ نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمۡۚ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ٦٧ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ هِيَ حَسۡبُهُمۡۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّقِيمٞ ٦٨﴾ [التوبة: الآيتان ٦٧، ٦٨].

﴿ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتُ بَعۡضُهُم مِّنۢ بَعۡضٖۚ﴾ [التوبة: آية ٦٧] المنافق هو من يظهر الإيمان، ويُسر الكفر، وهو المسمَّى في عرف الفقهاء بالزنديق. قال بعض العلماء: اشتقاقه من النافقاء وهي جحر اليربوع؛ لأن جحر اليربوع يكون له أبواب مختلفة يدخل من باب ويخرج من آخر، فالمنافق يخرج بغير ما دخل به، هكذا قيل.

﴿ٱلۡمُنَٰفِقُونَ﴾ الذكور ﴿وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتُ﴾ الإناث، هذه الآية الكريمة وأمثالها في القرآن مما استدلّ به جماعة من أهل الأصول على مسألة أصولية مختلف فيها وإيضاحها أن الصفات التي يشترك فيها الذكور والإناث إذا جاءت في كتاب الله أو سنّة رسوله بصيغة خاصة بالذكور فهل يدخل فيها الإناث نظراً إلى اشتراكهنّ مع الذكور في أصل الوصف، أو يختص بها الذكور لأن البناء

---

(١) تقدم هذا الشاهد عند تفسير الآية (٥٥) من سورة الأنعام.

مختص بالذكور؟! وإيضاح هذا، أن النفاق هو صفة تتصف بها الأنثىٰ والذكر، ولكن قوله: ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ اختصّ بالذكور، فإذا جاء في كتاب الله جمع مذكر سالم أصل معناه يشترك فيه الذكور والإناث، هل يحكم بدخول الإناث أو لا يحكم بدخولهنّ إلا بدليلٍ منفصلٍ؟! هذا خلاف مشهور في الأصول[1]، قال أكثر أهل الأصول: إن الجموع المذكرة السالمة ونحوها مما يختص بجماعة الذكور، إذا ورد في كتاب الله أو سنّة رسوله ﷺ لا يدخل فيه النساء إلا بدليلٍ خاصٍ، لاختصاص الصيغة بالذكور، وإن كان الوصف شاملًا للجميع، واستدلوا على أن النساء لا يدخلن في الجموع المذكرة بمثل هذه الآية في القرآن، قالوا: لو كانت المنافقات الإناث يدخلن في اسم المنافقين بصيغة الجمع المذكر السالم لكفىٰ ذلك عن عطفهن عليهم، قالوا: والعطف دليل المغايرة وعدم الدخول، واستدلوا لهذا بكثرة نحوه في القرآن كقوله: ﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ﴾ [الأحزاب: آية ٧٣] وقوله: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ﴾ [النور: آية ٣٠] ثم قال: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [النور: آية ٣١] فقالوا: فعطف النساء على الذكور المجموعين بصيغة الجمع المذكر يدل على عدم دخولهن فيه لاختصاص الصيغة بالذكور، وإن كان الوصف شاملاً للجميع. **وكتابه**

وذهبت طائفة أخرىٰ إلىٰ أن النساء يدخلن في الجموع المذكرة وما جرىٰ مجراها؛ لأن الجميع سواءٌ في التكاليف، واستدلوا بآياتٍ من كتاب الله جاء مصرّحاً فيها بدخول الأنثىٰ في صيغة الجمع المذكر السالم، كقوله تعالىٰ في امرأة العزيز: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [النمل: آية ٤٣] فأدخل هذه المرأة في (الكافرين) وهو جمع مذكر سالم. وقوله في مريم ابنة عمران: ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا **وكتَابِهِ**﴾ [التحريم: آية ١٢] وفي القراءة الأخرىٰ: ﴿وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾[2] فأدخل مريم وهي امرأة في اسم (القانتين)

---

(١) انظر: شرح الكوكب المنير (٣/٢٣٥).

(٢) انظر: المبسوط لابن مهران ص٤٤٠.

وهو جمع مذكر سالم، قالوا: ونظيره قوله في امرأة العزيز: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَاۚ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾﴾ [يوسف: آية ٢٩] وهذا خلاف معروفٌ في الأصول. وأكثر الأصوليين يقولون: إنهنّ لا يدخلن. وأجمع العلماء على عدم دخول النساء في صيغة الذكور في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾ [المؤمنون: الآيتان ٥، ٦] فلا يجوز للمرأة أن تتخذ عبدها وتتسراه؛ لأن الإناث لم يدخلن في هذه الصيغة المختصة بالذكور، وعلى كل حال فأظهر قولي الأصوليين ـ وعليه أكثرهم ـ أن أصل اللغة يقتضي تغليب الذكور على الإناث، وهذا لا نزاع فيه، أمّا التبادر عند الإطلاق، فهل يتبادر دخول النساء في الجموع المذكرة أو لا؟ فالظاهر أنه ما دخلن في جمع مذكر سالم إلا بقرينة زائدة دالة على ذلك، وأنه إذا تجرّد من القرائن لم يدخلن فيه، وعلى هذا أكثر علماء الأصول.

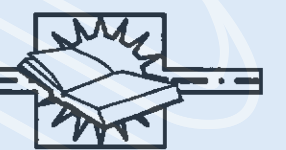
وقوله: ﴿بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍۚ﴾ [التوبة: آية ٦٧] هذه الآية تضمنت تكذيب المنافقين المذكور في قوله: ﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ﴾ [التوبة: آية ٥٦] وصدقت قوله: ﴿وَمَا هُم مِّنكُمْ﴾ [التوبة: آية ٥٦] كأن الله يقول: المنافقون يحلفون بالله إنهم لمنكم وما هم منكم. الحقيقة هم ليسوا منكم ولكن بعضهم من بعضٍ، وليسوا منكم ولستم منهم، بل هم بعضهم من بعضٍ؛ لأنهم هم المتشابهون في الأخلاق والأهداف، أخلاقهم واحدة وغرضهم واحد، فبعضهم من بعض وبعضهم أولياء بعض، وليسوا منكم ولستم منهم، فهذا معنىٰ قوله: ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍۚ﴾ ثم بيّن صفاتهم التي يجتمعون فيها وهي ضدّ صفات المؤمنين، على خط مستقيم، وهي قوله: ﴿يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ﴾ والمؤمنون يأمرون بالمعروف ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ﴾ والمؤمنون ينهون عن المنكر.

والمنكر: اسم مفعول أنكره، والمراد به كل ما أنكره الشرع ولم يأذن فيه. والمعروف: اسم مفعول (عرفه) وهو كل ما عرفه الشرع ودعا إليه وأمر به.

﴿يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾ المراد بقبض اليد هنا كناية عن البخل وعدم مدّ الأيدي بما ألزم الله بإعطائه، فهم لا يزكون ولا ينفقون، فالعرب تقول: فلان يتعوّد قبض اليد، ويده مقبوضة، ويقبض يده يكنون بذلك عن البخل. يعنون: لا يجود. فبسط اليد معناه الجود، وقبض اليد معناه البخل، قال بعض العلماء: قبضهم أيديهم: بخلهم بما يلزمهم من الزكوات وسائر الإنفاق. وقال (...)[١].



(١) في هذا الموضع انقطع التسجيل، وهو آخر ما وُجد من دروس الشيخ (رحمه الله) في التفسير.



ثبت مصادر التعليق

١ ـ **الآحاد والمثاني**: ابن أبي عاصم. تحقيق: باسم الجوابرة. ط: دار الراية، الرياض، الطبعة الأولى، (١٤١١هـ).

٢ ـ **آداب البحث والمناظرة**: محمد الأمين الشنقيطي. ط: شركة المدينة للطباعة والنشر، جدة.

٣ ـ **آداب الزفاف في السنة المطهرة**: محمد ناصر الدين الألباني. المكتبة الإسلامية، الأردن ـ عمان، الطبعة الأولى، (١٤٠٩هـ).

٤ ـ **الآداب الشرعية والمنح المرعية**: شمس الدين أبو عبدالله محمد بن مفلح المقدسي الحنبلي. ط: مؤسسة قرطبة، القاهرة.

٥ ـ **الآيات البينات**: أحمد بن قاسم العبادي الشافعي. تحقيق: زكريا عميرات. ط: دار الكتب العلمية، بيروت.

٦ ـ **الأباطيل والمناكير والصحاح والمشاهير**: الحسين بن إبراهيم الجوزقاني. تحقيق: عبدالرحمٰن الفيروائي. ط: المطبعة السلفية بنارس. الناشر: إدارة البحوث الإسلامية، بالجامعة السلفية بنارس؛ الطبعة الأولى، (١٤٠٣هـ).

٧ ـ **الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية ومجانبة الفرق المذمومة**: عبدالله بن محمد ابن بطة العكبري. تحقيق: رضا نعسان معطي، دار الراية، الرياض، الطبعة الأولى، (١٤٠٩هـ).

٨ ـ **إتحاف الجماعة بما جاء في الفتن والملاحم وأشراط الساعة**: حمود بن عبدالله التويجري. دار الصميعي، الرياض، الطبعة الأولى، (١٤١٤هـ).

٩ ـ **إتحاف فضلاء البشر بالقراءات الأربعة عشر**: أحمد بن محمد البنا. تحقيق: شعبان محمد إسماعيل، عالم الكتب، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠٧هـ).

١٠ ـ **إتحاف المهرة بالفوائد المبتكرة من أطراف العشرة**: أحمد بن علي بن محمد بن حجر العسقلاني. ط: مجمع الملك فهد ومركز خدمة السنة والسيرة النبوية بالمدينة المنورة، الطبعة الأولى، (١٤١٥هـ).

١١ ـ **الإتقان في علوم القرآن**: جلال الدين السيوطي. تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم. ط: المكتبة العصرية، بيروت، (١٤٠٧هـ).

١٢ ـ **أثر الاختلاف في القواعد الأصولية في اختلاف الفقهاء**: مصطفى سعيد الخِن. ط: مؤسسة الرسالة، الطبعة الثالثة، بيروت، (١٤٠٢هـ).

١٣ ـ **الإجابة لإيراد ما استدركته عائشة على الصحابة**: بدر الدين الزركشي. تحقيق: سعيد الأفغاني. ط: المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثالثة، (١٤٠٠هـ).

١٤ ـ **الأحاديث المختارة**: ضياء الدين محمد بن عبدالواحد المقدسي. تحقيق: عبدالملك بن دهيش. ط: مكتبة النهضة الحديثة، مكة المكرمة، الطبعة الأولى، (١٤١١هـ).

١٥ ـ **الاحتجاج بالأثر على من أنكر المهدي المنتظر**: حمود بن عبدالله التويجري. ط: مكتبة دار العليان، بريدة، الطبعة الثانية، (١٤٠٦هـ).

١٦ ـ **الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان**: علاء الدين علي بن بلبان الفارسي. قدم له وضبط نصه: كمال يوسف الحوت. ط: دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، بيروت، (١٤٠٧هـ).

١٧ ـ **أحكام أهل الذمة**: شمس الدين أبو عبدالله محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية. تحقيق: صبحي الصالح. ط: دار العلم للملايين، الطبعة الثالثة، بيروت، (١٩٨٣م).

١٨ ـ **أحكام الجنائز وبدعها**: محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف، الرياض، الطبعة الأولى، (١٤١٢هـ).

١٩ ـ **إحكام الفصول في أحكام الأصول**: أبو الوليد سليمان بن خلف الباجي. تحقيق: عبدالله محمد الجبوري. ط: مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، بيروت، (١٤٠٩هـ).

٢٠ ـ **الإحكام في أصول الأحكام**: أبو محمد علي بن حزم الأندلسي الظاهري. تحقيق: أحمد شاكر. مطبعة العاصمة، القاهرة.

٢١ ـ **أحكام القرآن**: محمد بن عبدالله المعروف بابن العربي. تحقيق: علي محمد البجاوي. ط: دار المعرفة، لبنان.

٢٢ ـ **أدب الكاتب**: عبدالله بن مسلم بن قتيبة. تحقيق: محمد الدالي. ط: مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية، (١٤٠٥هـ).

٢٣ ـ **الأدب المفرد**: محمد بن إسماعيل البخاري. ترتيب: كمال يوسف الحوت. ط: عالم الكتب، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠٤هـ).

٢٤ ـ **الأذكار**: يحيى بن شرف النووي. تحقيق: بشر بن محمد بن عيون. ط: مكتبة المؤيد، الطائف، الطبعة الأولى، (١٤٠٨هـ).

٢٥ ـ **إرشاد طلاب الحقائق إلى معرفة سنن خير الخلائق**: يحيى بن شرف النووي. تحقيق: عبدالباري السلفي. ط: مكتبة الإيمان، المدينة المنورة، الطبعة الأولى، (١٤٠٨هـ).

٢٦ ـ **إرواء الغليل**: محمد ناصر الدين الألباني. ط: المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، (١٣٩٩هـ).

٢٧ ـ **أسباب النزول**: أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي النيسابوري. تحقيق: عصام الحميدان. دار الإصلاح، الدمام، الطبعة الأولى، (١٤١١هـ).

٢٨ ـ **أسباب النزول**: جلال الدين السيوطي. ط: دار ابن قتيبة، دمشق، الطبعة الأولى، (١٤٠٧هـ).

٢٩ ـ **الاستذكار**: أبو عمر يوسف بن عبدالله بن عبدالبر. تحقيق: عبدالمعطي أمين قلعجي. ط: دار قتيبة للطباعة والنشر ودار الوعي، القاهرة، الطبعة الأولى، (١٤١٣هـ).

٣٠ ـ **الاستيعاب في معرفة الأصحاب**: أبو عمر يوسف بن عبدالله بن عبدالبر. ط: دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى، (١٣٢٨هـ).

٣١ ـ **أُسد الغابة في معرفة الصحابة**: عز الدين بن الأثير. تحقيق: محمد إبراهيم البنا، ومحمد أحمد عاشور. ط: دار الشعب.

٣٢ ـ **أسرار البلاغة في علم البيان**: عبدالقاهر الجرجاني. تحقيق: محمد رشيد رضا. ط: دار الكتب العلمية، لبنان، الطبعة الأولى، (١٤٠٩هـ).

٣٣ ـ **الأسماء والصفات**: البيهقي. ط: دار الكتب العلمية، لبنان.

٣٤ ـ **أسنى المطالب في أحاديث مختلفة المراتب**: محمد درويش الحوت. دار الكتاب العربي، بيروت، (١٤٠٣هـ).

٣٥ ـ **الأشباه والنظائر**: جلال الدين السيوطي. تحقيق: طه عبدالرؤوف سعد. ط: مكتبة الكليات الأزهرية، مصر، (١٣٩٥هـ).

٣٦ ـ **أشراط الساعة**: يوسف بن عبدالله الوابل. ط: دار ابن الجوزي، الدمام، الطبعة الأولى، (١٤٠٩هـ).

٣٧ ـ **الإصابة في تمييز الصحابة**: أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر. ط: دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى، (١٣٢٨هـ).

٣٨ ـ **إصلاح الوجوه والنظائر في القرآن الكريم**: الحسين بن محمد الدامغاني. تحقيق: عبدالعزيز سيد الأهل. ط: دار العلم للملايين، الطبعة الخامسة، بيروت، (١٩٨٥م).

٣٩ ـ **الأصنام**: هشام بن محمد الكلبي. تحقيق: أحمد زكي. مصورة عن طبعة دار الكتب سنة (١٣٤٣هـ). الناشر: الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة.

٤٠ ـ **أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن**: محمد الأمين بن محمد المختار الجكني الشنقيطي، عالم الكتب، بيروت.

٤١ ـ **الاعتقاد على مذهب السلف أهل السنة والجماعة**: أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي. صححه: أحمد محمد مرسى. ط: المطبعة العربية، باكستان.

٤٢ ـ **الأعلام**: خير الدين الزركلي. دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الخامسة، (١٩٨٠م).

٤٣ ـ **إعلام الساجد بأحكام المساجد**: محمد بن عبدالله الزركشي. تحقيق: مصطفى المراغي. الطبعة الثانية، (١٤٠٣هـ).

٤٤ ـ **إعلام الموقعين عن رب العالمين**: شمس الدين محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية. تحقيق: طه عبدالرؤوف سعد، دار الجيل، بيروت، (١٩٧٣م).

٤٥ ـ **أعلام النساء**: عمر رضا كحالة. ط: مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثالثة، (١٣٩٧هـ).

٤٦ ـ **الأغاني**: عبدالستار أحمد فراج. ط: دار الثقافة، بيروت.

٤٧ ـ **الاقتصاد في الاعتقاد**: الغزالي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠٣هـ).

٤٨ ـ **اقتضاء الصراط المستقيم**: أحمد بن عبدالحليم بن تيمية. تحقيق: ناصر العقل. توزيع: وزارة الشؤون الإسلامية. الطبعة السابعة، (١٤١٩هـ).

٤٩ ـ **الإقناع في القراءات السبع**: أبو جعفر أحمد بن علي ابن الباذش. تحقيق: عبدالمجيد قطامش. ط: دار الفكر، دمشق، الطبعة الأولى، (١٤٠٣هـ).

٥٠ ـ **الإكسير في علم التفسير**: سليمان بن عبدالقوي الصرصري البغدادي. تحقيق: عبدالقادر حسين، مكتبة الآداب، القاهرة.

٥١ ـ **إكمال الإعلام بتثليث الكلام**: محمد بن عبدالله بن مالك الجياني. تحقيق: سعد بن حمدان الغامدي. ط: مكتبة المدني، الطبعة الأولى، جدة، (١٤٠٤هـ).

٥٢ ـ **إكمال إكمال المعلم**: أبو عبدالله الأبي. ط: مكتبة طبرية، الرياض.

٥٣ ـ **ألفية ابن مالك** (الخلاصة): محمد بن عبدالله بن مالك. ط: دار طيبة للنشر، الطبعة الثانية، (١٤٠٩هـ).

٥٤ ـ **الأم**: محمد بن إدريس الشافعي. ط: دار المعرفة، لبنان.

٥٥ ـ **الأمالي**: أبو علي القالي. ط: دار الكتاب العربي، لبنان.

٥٦ ـ **الأمثال**: أبو عبيد القاسم بن سلام. تحقيق: عبدالمجيد قطامش. ط: دار المأمون، دمشق، الطبعة الأولى، (١٤٠٠هـ).

٥٧ ـ **الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أصوله وضوابطه وآدابه**: خالد بن عثمان السبت. ط: المنتدى الإسلامي، الطبعة الأولى، لندن، (١٤١٥هـ).

٥٨ ـ **الأموال**: أبو عبيد القاسم بن سلام. تحقيق: محمد خليل هراس. ط: مكتبة الكليات الأزهرية، الطبعة الثالثة، (١٤٠١هـ).

٥٩ ـ **الأنساب**: عبدالكريم بن محمد السمعاني. تحقيق: عبدالله البارودي. ط: الكتب الثقافية، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠٨هـ).

٦٠ ـ **الإنصاف**: علاء الدين أبو الحسن بن سليمان المرداوي. تحقيق: محمد حامد الفقي. ط: دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى، (١٣٧٦هـ).

٦١ ـ **أهل الفترة ومن في حكمهم**: موفق أحمد شكري. ط: مؤسسة علوم القرآن، عجمان، دار ابن كثير، دمشق، الطبعة الأولى، (١٤٠٩هـ).

٦٢ ـ **الأوسط في السنن والإجماع والاختلاف**: محمد بن إبراهيم بن المنذر. ط: دار طيبة، الرياض، الطبعة الأولى، (١٤٠٥هـ).

٦٣ ـ **إيثار الحق على الخلق**: أبو عبدالله محمد بن المرتضى اليماني. ط: دار الكتب العلمية، بيروت.

٦٤ ـ **الإيضاح في علوم البلاغة**: الخطيب القزويني. ط: الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠٥هـ).

٦٥ ـ **الإيضاح لناسخ القرآن ومنسوخه**: مكي بن أبي طالب القيسي. تحقيق: أحمد حسن فرحات. ط: دار المنارة، جدة، الطبعة الأولى، (١٤٠٦هـ).

٦٦ ـ **إيضاح المبهم من معاني السلم**: أحمد بن عبدالمنعم الدمنهوري. تحقيق: عبدالجليل العطا البكري. ط: مكتبة البيروتي، دمشق، الطبعة الأولى، (١٤١٣هـ).

٦٧ ـ **الإيمان**: أبو بكر عبدالله بن محمد بن أبي شيبة. تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني. ط: دار الأرقم، الكويت.

٦٨ ـ **الإيمان**: أحمد بن عبدالحليم بن تيمية. ط: المكتب الإسلامي، الطبعة الثالثة، (١٤٠١هـ).

٦٩ ـ **الإيمان**: محمد بن إسحاق بن يحيى بن منده. تحقيق: علي بن ناصر الفقيهي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية، (١٤٠٦هـ).

٧٠ ـ **الإيمان**: محمد بن يحيى العدني. تحقيق: حمد الحربي. ط: الدار السلفية، الكويت، الطبعة الأولى، (١٤٠٧هـ).

٧١ ـ **الإيمان الأوسط**: أحمد بن عبدالحليم بن تيمية. توزيع: مكتبة الفرقان ومكتبة الإيمان.

٧٢ ـ **الإيمان ومعالمه وسننه**: أبو عبيد القاسم بن سلاّم. تحقيق: الألباني. مطبعة المدني، مصر.

٧٣ ـ **البحر المحيط**: محمد بن يوسف أبو حيان الأندلسي الغرناطي، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، الطبعة الثانية، (١٤١٣هـ).

٧٤ ـ **البحر المحيط في أصول الفقه**: بدر الدين محمد بن بهادر الشافعي الزركشي. تحقيق: عبدالستار أبو غدة. وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالكويت، الطبعة الثانية، (١٤١٣هـ).

٧٥ ـ **بدائع الصنائع**: أبو بكر بن مسعود الكاساني. ط: دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثانية، (١٤٠٢هـ).

٧٦ ـ **بدائع الفوائد**: شمس الدين محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية. دار الفكر، بيروت.

٧٧ ـ **البداية والنهاية**: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير. مكتبة المعارف، بيروت، الطبعة الرابعة، (١٤٠١هـ).

٧٨ ـ **البدع والنهي عنها**: محمد بن وضّاح القرطبي. تحقيق: محمد أحمد دهمان. دار الصفا، القاهرة، الطبعة الأولى، (١٤١١هـ).

٧٩ ـ **البدور الزاهرة في القراءات العشر المتواترة**: عبدالفتاح بن عبدالغني القاضي. ط: مكتبة الدار، المدينة المنورة، الطبعة الأولى، (١٤٠٤هـ).

٨٠ ـ **البرهان في أصول الفقه**: أبو المعالي عبدالملك بن عبدالله بن يوسف الجويني. تحقيق: عبدالعظيم محمود الديب. ط: دار الوفاء للطباعة والنشر، الطبعة الثالثة، المنصورة، (١٤١٢هـ).

٨١ ـ **البرهان في توجيه متشابه القرآن**: محمود بن حمزة الكرماني. تحقيق: عبدالقادر عطا. ط: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠٦هـ).

٨٢ ـ **البرهان في علوم القرآن**: محمد عبدالله الزركشي. تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم. ط: دار المعرفة، لبنان، الطبعة الثانية، (١٣٩١هـ).

٨٣ ـ **بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز**: مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي. تحقيق: محمد علي النجار، المكتبة العلمية، بيروت.

٨٤ ـ **بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب**: محمود شكري الألوسي. تحقيق: محمد الأثري. ط: دار الكتب العلمية، لبنان.

٨٥ ـ **بلوغ المرام من أدلة الأحكام**: ابن حجر العسقلاني. تحقيق: محمد حامد الفقي. ط: دار الكتب العلمية، لبنان.

٨٦ ـ **البهجة في شرح التحفة**: أبو الحسن علي بن عبدالسلام التسولي. ط: مكتبة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، الطبعة الثانية، (١٣٧٠هـ). وكذا: طبعة دار المعرفة، بيروت، الطبعة الثالثة، (١٣٩٧هـ).

٨٧ ـ **بهجة المجالس وأُنس المُجالس**: أبو عمرو يوسف بن عبدالبر. تحقيق: محمد مرسي الخولي. ط: دار الكتب العلمية، بيروت.

٨٨ ـ **البيان والتبيين**: أبو عثمان الجاحظ. تحقيق: عبدالسلام هارون. ط: دار الجيل، بيروت.

٨٩ ـ **تاج العروس من جواهر القاموس**: محمد مرتضى الزبيدي. دار مكتبة الحياة، بيروت.

٩٠ ـ **تاريخ الأمم والملوك**: ابن جرير الطبري. ط: دار الفكر، (١٣٩٩هـ).
٩١ ـ **تاريخ بغداد**: أبو بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي. ط: دار الكتاب العربي، بيروت.
٩٢ ـ **التاريخ الكبير**: إسماعيل بن إبراهيم البخاري. ط: دار الكتب العلمية، لبنان.
٩٣ ـ **تأويل مشكل القرآن**: ابن قتيبة. تحقيق: السيد أحمد صقر. المكتبة العلمية، بيروت، الطبعة الثالثة، (١٤٠١هـ).
٩٤ ـ **التبصرة في أصول الفقه**: إبراهيم بن علي الشيرازي. تحقيق: محمد حسن هيتو. ط: دار الفكر، دمشق، (١٤٠٠هـ).
٩٥ ـ **التبيان في أقسام القرآن**: شمس الدين محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية. صححه وعلق عليه: محمد حامد الفقي. ط: دار المعرفة، بيروت.
٩٦ ـ **التبيان في شرح الديوان**: أبو البقاء العكبري. تحقيق: مصطفى السقا، وإبراهيم الأنباري، وعبدالحفيظ شلبي، دار المعرفة، بيروت.
٩٧ ـ **التحرير والتنوير**: محمد الطاهر ابن عاشور. ط: الدار التونسية للنشر.
٩٨ ـ **تحفة المحتاج إلى أدلة المنهاج**: عمر بن علي المعروف بابن الملقن. تحقيق: عبدالله بن سعاف اللحياني. ط: دار حراء للنشر، مكة المكرمة، الطبعة الأولى، (١٤٠٦هـ).
٩٩ ـ **تخريج الأحاديث الضعاف من سنن الدارقطني**: أبو محمد عبدالله بن يحيى الغساني. تحقيق: أشرف بن عبدالمقصود بن عبدالرحيم. ط: دار عالم الكتب، الرياض، الطبعة الأولى، (١٤١١هـ).
١٠٠ ـ **تخريج أحاديث منتقدة في كتاب التوحيد**: فريح بن صالح البهلال. دار الأثر، الرياض، الطبعة الأولى، (١٤١٥هـ).
١٠١ ـ **تخريج الأحاديث والآثار الواقعة في تفسير الكشاف للزمخشري**: أبو محمد عبدالله بن يوسف الزيلعي. تحقيق: سلطان بن فهد الطبيشي. ط: دار ابن خزيمة، الرياض، الطبعة الأولى، (١٤١٤هـ).
١٠٢ ـ **تخليص الشواهد وتلخيص الفوائد**: عبدالله بن يوسف بن هشام الأنصاري. تحقيق: عباس مصطفى الصالحي. ط: دار الكتاب العربي، لبنان، الطبعة الأولى، (١٤٠٦هـ).

١٠٣ ـ **تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي**: جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي. تحقيق: عبد الوهاب بن عبداللطيف. ط: المكتبة السلفية.

١٠٤ ـ **تذكرة الأريب في تفسير الغريب**: أبو الفرج ابن الجوزي. تحقيق: علي حسين البواب. ط: مكتبة المعارف، الطبعة الأولى، الرياض، (١٤٠٧هـ).

١٠٥ ـ **التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة**: محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي. ط: دار الفكر، لبنان.

١٠٦ ـ **التراتيب الإدارية**: عبدالحي الكتاني. ط: دار الكتاب العربي، بيروت.

١٠٧ ـ **تسهيل المنطق**: عبدالكريم بن مراد الأثري. ط: سجل العرب، الطبعة الثانية، (١٩٨٤م).

١٠٨ ـ **التعريفات**: علي بن محمد الجرجاني. تحقيق: عبدالرحمٰن عميرة. ط: عالم الكتب، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠٧هـ).

١٠٩ ـ **تعظيم قدر الصلاة**: محمد بن نصر المروزي. تحقيق: عبدالرحمٰن الفيروزآبادي، مكتبة الدار، المدينة النبوية، الطبعة الأولى، (١٤٠٦هـ).

١١٠ ـ **تغليق التعليق على صحيح البخاري**: أحمد بن علي بن حجر العسقلاني. تحقيق: سعيد عبدالرحمٰن موسى القزقي. ط: المكتب الإسلامي، بيروت، دار عمار، الأردن، الطبعة الأولى، (١٤٠٥هـ).

١١١ ـ **تفسير سورة النور**: محمد الأمين بن محمد الشنقيطي. عناية: عبدالله بن أحمد الأهدل. ط: دار المجتمع للنشر، جدة، الطبعة الأولى، (١٤١٠هـ).

١١٢ ـ **التفسير الصحيح**: حكمت بشير. ط: دار المآثر، المدينة النبوية، الطبعة الأولى، (١٤٢٠هـ).

١١٣ ـ **تفسير القرآن العظيم (تفسير ابن أبي حاتم)**: عبدالرحمٰن بن محمد بن إدريس (ابن أبي حاتم). تحقيق: أسعد محمد الطيب. ط: مكتبة نزار مصطفى الباز، مكة المكرمة، الطبعة الأولى، (١٤١٧هـ).

١١٤ ـ **تفسير القرآن العظيم**: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير. ط: دار المعرفة، بيروت، (١٤٠٢هـ).

١١٥ ـ **تفسير مبهمات القرآن**: أبو عبدالله محمد بن علي البلنسي. تحقيق: حنيف بن حسن القاسمي. ط: دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، بيروت، (١٤١١هـ).

١١٦ ـ **تفسير المشكل من غريب القرآن**: مكي بن أبي طالب القيسي. تحقيق: علي حسين البواب. ط: مكتبة المعارف، الرياض، (١٤٠٦هـ).
١١٧ ـ **تفسير المنار**: محمد رشيد رضا. دار المعرفة، بيروت، الطبعة الثانية.
١١٨ ـ **تفسير النصوص في الفقه الإسلامي**: محمد أديب صالح. ط: المكتب الإسلامي، الطبعة الثالثة، بيروت، (١٤٠٤هـ).
١١٩ ـ **تقريب التهذيب**: أحمد بن علي بن حجر العسقلاني. تحقيق: صغير أحمد شاغف الباكستاني. ط: دار العاصمة، الرياض، الطبعة الأولى، (١٤١٦هـ).
١٢٠ ـ **التلخيص الحبير في تخريج أحاديث الرافعي الكبير**: أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر. تحقيق: عبدالله هاشم اليماني المدني.
١٢١ ـ **تلخيص كتاب الاستغاثة**: أحمد بن عبدالحليم بن عبدالسلام بن تيمية. ط: الدار العلمية، الهند، الطبعة الثانية، (١٤٠٥هـ).
١٢٢ ـ **التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد**: أبو عمر يوسف بن عبدالله بن عبدالبر النمري القرطبي. تحقيق: مصطفى بن أحمد العلوي ومحمد بن عبدالكبير البكري. ط: المملكة المغربية، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الطبعة الثانية، (١٤٠٢هـ).
١٢٣ ـ **تنقيح التحقيق في أحاديث التعليق**: محمد بن أحمد بن عبدالهادي الحنبلي. تحقيق: عامر حسن صبري. ط: المكتبة الحديثة، الإمارات العربية المتحدة، الطبعة الأولى، (١٤٠٩هـ).
١٢٤ ـ **التنكيل بما في تأنيب الكوثري من الأباطيل**: عبدالرحمٰن بن يحيى المعلمي اليماني. ط: حديث أكادمي، فيصل أباد، باكستان، الطبعة الأولى، (١٤٠١هـ).
١٢٥ ـ **تهذيب الأسماء واللغات**: أبو زكريا محيي الدين بن شرف النووي. ط: دار الكتب العلمية، بيروت.
١٢٦ ـ **تهذيب التهذيب**: أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠٤هـ).
١٢٧ ـ **تهذيب سنن أبي داود**: ابن القيم الجوزية. تعليق: محمد حامد الفقي. ط: دار المعرفة، بيروت، (١٤٠٠هـ).
١٢٨ ـ **تهذيب الكمال في أسماء الرجال**: أبو الحجاج يوسف المزي. تحقيق:

بشار عواد معروف. ط: مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية، (١٤٠٣هـ).

١٢٩ ـ **تهذيب اللغة**: أبو منصور محمد بن أحمد الأزهري. تحقيق: عبدالسلام محمد هارون. دار القومية العربية للطباعة، (١٣٨٤هـ).

١٣٠ ـ **توضيح النحو**: عبدالعزيز محمد فاخر.

١٣١ ـ **التوضيح والتكميل لشرح ابن عقيل**: محمد بن عبدالعزيز النجار، الطبعة الثانية، (١٣٩٩هـ).

١٣٢ ـ **تيسير التحرير**: محمد أمين المعروف بأمير بادشاه. ط: دار الكتب العلمية، لبنان. الناشر: دار الباز، مكة المكرمة.

١٣٣ ـ **تيسير الكريم الرحمٰن في تفسير كلام المنان**: عبدالرحمٰن بن ناصر السعدي. ط: المطبعة السلفية.

١٣٤ ـ **جامع الأصول في أحاديث الرسول**: المبارك بن محمد بن الأثير الجزري. تحقيق: عبدالقادر الأرناؤوط. ط: دار الفكر، الطبعة الثانية، بيروت، (١٤٠٣هـ).

١٣٥ ـ **جامع البيان عن تأويل آي القرآن**: أبو جعفر محمد بن جرير الطبري. تحقيق: محمود وأحمد شاكر، دار المعارف، القاهرة، ومكتبة البابي الحلبي، مصر، الطبعة الثالثة، (١٣٨٨هـ).

١٣٦ ـ **جامع بيان العلم وفضله**: أبو عمر يوسف بن عبدالبر. تحقيق: أبو الأشبال الزهيري. دار ابن الجوزي، الدمام، الطبعة الأولى، (١٤١٤هـ).

١٣٧ ـ **جامع التحصيل في أحكام المراسيل**: خليل العلائي. تحقيق: حمدي عبدالمجيد السلفي. ط: الدار العربية، الطبعة الأولى، (١٣٩٨هـ).

١٣٨ ـ **جامع التفسير من كتب الأحاديث**: أشرف على إخراجه: خالد آل عقدة. ط: دار طيبة، الرياض، الطبعة الأولى، (١٤٢١هـ).

١٣٩ ـ **جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثاً من جوامع الكلم**: أبو الفرج عبدالرحمٰن بن شهاب الدين بن رجب الحنبلي. تحقيق: طارق عوض الله، دار ابن الجوزي، الدمام، الطبعة الأولى، (١٤١٥هـ).

١٤٠ ـ **الجامع لأحكام القرآن**: أبو عبدالله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (١٩٦٥م).

١٤١ ـ **الجامع لشعب الإيمان**: أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي. تحقيق: مختار أحمد الندوي. الدار السلفية، بومباي، الطبعة الأولى، (١٤١٦هـ).

١٤٢ ـ **الجدل على طريقة الفقهاء**: أبو الوفاء علي بن عقيل بن محمد بن عقيل البغدادي الحنبلي. الناشر: مكتبة الثقافة الدينية، مصر.

١٤٣ ـ **الجهل بمسائل الاعتقاد وحكمه**: عبدالرزاق بن طاهر بن أحمد معاش. ط: دار الوطن، الطبعة الأولى، الرياض، (١٤١٧هـ).

١٤٤ ـ **الجواب الواضح المستقيم في التحقيق في كيفية إنزال القرآن الكريم**: محمد بن إبراهيم آل الشيخ. مطبعة الحكومة، مكة المكرمة، (١٣٦٩هـ).

١٤٥ ـ **جواهر البلاغة في المعاني والبيان البديع**: السيد أحمد الهاشمي. ط: دار الكتب، بيروت.

١٤٦ ـ **حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح**: محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية الزرعي الدمشقي، دار الفكر، بيروت.

١٤٧ ـ **حاشية البناني على جمع الجوامع**: ط: مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، الطبعة الثانية، (١٣٥٦هـ).

١٤٨ ـ **حاشية الروض المربع**: عبدالرحمٰن بن محمد بن قاسم. ط: المطابع الأهلية، الرياض، الطبعة الثانية، (١٤٠٣هـ).

١٤٩ ـ **حاشية محمد علي الصبان على شرح علي بن محمد الأشموني لألفية ابن مالك**. دار الفكر، بيروت.

١٥٠ ـ **الحجة في بيان المحجة وشرح عقيدة أهل السنة**: إسماعيل بن محمد بن الفضل الأصبهاني. تحقيق: محمد بن ربيع. دار الراية، الرياض، الطبعة الأولى، (١٤١١هـ).

١٥١ ـ **حجة القراءات**: أبو زرعة عبدالرحمٰن بن محمد بن زنجلة. تحقيق: سعيد الأفغاني. مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الرابعة، (١٤٠٤هـ).

١٥٢ ـ **حجج القرآن**: أحمد بن محمد الرازي. ط: دار الرائد العربي، بيروت، الطبعة الثانية، (١٤٠٢هـ).

١٥٣ ـ **الحروف العاملة في القرآن الكريم بين النحويين والبلاغيين**: هادي عطية مطر الهلالي. ط: عالم الكتب، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠٦هـ).

١٥٤ ـ **حصول الأجر في أحكام وفضائل العمل في أيام العشر**: سعود الخماس. ط: دار ابن الجوزي، الدمام، الطبعة الأولى، (١٤٢١هـ).

١٥٥ ـ **حلية الأولياء وطبقات الأصفياء**: أبو نعيم أحمد بن عبدالله الأصفهاني. ط: دار الكتب العلمية، بيروت.

١٥٦ ـ **حلية الفقهاء**: أبو الحسين أحمد بن فارس. تحقيق: عبدالله التركي. ط: الشركة المتحدة، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠٣هـ).

١٥٧ ـ **الحماسة**: الوليد بن عبيد البحتري. ط: دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثانية، (١٣٨٧هـ).

١٥٨ ـ **حياة الحيوان الكبرىٰ**: كمال الدين الدميري. المكتبة الإسلامية، بيروت.

١٥٩ ـ **الحيوان**: أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ. تحقيق: عبدالسلام محمد هارون. ط: مصطفى البابي الحلبي، مصر، الطبعة الثانية.

١٦٠ ـ **خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب**: عبدالقادر بن عمر البغدادي. ط: دار صادر، بيروت.

١٦١ ـ **الخصائص**: أبو الفتح عثمان بن جني. تحقيق: محمد علي النجار. دار الكتاب العربي، بيروت.

١٦٢ ـ **الخصائص الكبرى**: جلال الدين السيوطي. تحقيق: محمد خليل الهراس. مطبعة المدين، مصر، دار الكتب الحديثة، مصر.

١٦٣ ـ **خلاصة البدر المنير في تخريج الأحاديث والآثار الواقعة في الشرح الكبير**: سراج الدين عمر بن علي بن الملقن. تحقيق: حمدي عبدالمجيد السلفي. مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الأولى، (١٤١٠هـ).

١٦٤ ـ **خير الكلام في القراءة خلف الإمام**: محمد بن إسماعيل البخاري. ط: مكتبة الإيمان، المدينة المنورة، الطبعة الثانية، (١٤٠٥هـ).

١٦٥ ـ **درء تعارض العقل والنقل**: أحمد بن عبدالحليم بن تيمية. تحقيق: محمد رشاد سالم. ط: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الطبعة الأولى، (١٣٩٩هـ).

١٦٦ ـ **الدراية في تخريج أحاديث الهداية**: أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر. تحقيق: عبدالله هاشم اليماني المدني. ط: دار المعرفة، بيروت.

١٦٧ ـ **درة التنزيل وغُرة التأويل**: محمد بن عبدالله الإسكافي. ط: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤١٦هـ).

١٦٨ ـ **الدرر المنتثرة في الأحاديث المشتهرة**: جلال الدين السيوطي. تحقيق: خليل محيي الدين الميس، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠٤هـ).

١٦٩ ـ **الدر المصون في علوم الكتاب المكنون**: أحمد بن يوسف المعروف بالسمين الحلبي. تحقيق: أحمد محمد الخراط، دار القلم، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤١٤هـ).

١٧٠ ـ **الدر المنثور في التفسير بالمأثور**: جلال الدين السيوطي، دار المعرفة، بيروت.

١٧١ ـ **الدعاء المأثور وآدابه وما يجب على الداعي اتباعه واجتنابه**: أبو بكر الطرطوشي الأندلسي. تحقيق: محمد رضوان الداية. ط: دار الفكر، لبنان، الطبعة الأولى، (١٤٠٩هـ).

١٧٢ ـ **دفع إيهام الاضطراب عن آي الكتاب**: محمد الأمين الشنقيطي (مطبوع في آخر أضواء البيان).

١٧٣ ـ **دلائل النبوة**: أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي. تحقيق: عبدالمعطي قلعجي. ط: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠٥هـ).

١٧٤ ـ **ديوان الأعشى الكبير ميمون بن قيس**: تحقيق: مهدي محمد ناصر الدين. دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠٧هـ).

١٧٥ ـ **ديوان الأقيشر الأسدي**: تحقيق: محمد علي دقه. ط: دار صادر، الطبعة الأولى، (١٩٩٧م).

١٧٦ ـ **ديوان امرىء القيس**: تحقيق: مصطفى عبدالشافي. دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠٣هـ).

١٧٧ ـ **ديوان أوس بن حجر**: شرح: محمد بن يوسف نجم. الطبعة الثالثة، (١٣٩٩هـ).

١٧٨ ـ **ديوان البحتري**: ط: دار بيروت للطباعة والنشر، (١٤٠٨هـ).

١٧٩ ـ **ديوان بشار بن برد**: شرح وتكميل: محمد الطاهر بن عاشور. ط: لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، (١٣٨٦هـ).

١٨٠ ـ **ديوان تأبط شراً**: تحقيق: طلال حرب. ط: دار صادر، الطبعة الأولى، (١٩٩٦م).

١٨١ ـ **ديوان حاتم الطائي**: شرحه: أحمد رشاد. ط: دار الكتب العلمية، لبنان، الطبعة الأولى، (١٤٠٦هـ).

١٨٢ ـ **ديوان حسان بن ثابت**: تحقيق: عبد الأمير مهنا، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠٦هـ).

١٨٣ ـ **ديوان الحطيئة برواية وشرح ابن السكيت**: تحقيق: نعمان محمد أمين طه. ط: مطبعة المدني، القاهرة، الطبعة الأولى، (١٤٠٧هـ).
وكذا: بشرح أبي سعيد السكري. ط: دار صادر.

١٨٤ ـ **ديوان حميد بن ثور الهلالي**: صنعه: عبدالعزيز الميمني. ط: دار الكتب المصرية، القاهرة، الطبعة الأولى، (١٣٧١هـ).

١٨٥ ـ **ديوان ابن دريد**: تحقيق: عمر بن سالم. ط: الدار التونسية، (١٩٧٣م).

١٨٦ ـ **ديوان أبي دلامة الأسدي**: إعداد: رشدي علي حسن. ط: مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، بيروت، (١٤٠٦هـ).

١٨٧ ـ **ديوان الراعي النميري**: شرح واضح الصمد. ط: دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤١٦هـ).

١٨٨ ـ **ديوان ابن الرومي**: شرح وتحقيق: عبدالأمير علي مهنا. ط: دار مكتبة الهلال، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤١١هـ).

١٨٩ ـ **ديوان ابن الرومي**: تحقيق: حسين نصار.

١٩٠ ـ **ديوان زهير بن أبي سلمى**: ط: دار صادر.

١٩١ ـ **ديوان شعر ذي الرمة**: تعليق: زهير فتح الله. ط: دار صادر، الطبعة الأولى، (١٩٩٥م).

١٩٢ ـ **ديوان الشنفرى**: ط: دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى، (١٩٩٦م).

١٩٣ ـ **ديوان طرفة بن العبد**: تحقيق: درية الخطيب. مطبوعات مجمع اللغة العربية، مطبعة دار الكتاب، (١٣٩٥هـ).

١٩٤ ـ **ديوان الطرماح**: تحقيق: عزة حسن. ط: دار الشرق العربي، بيروت، الطبعة الثانية، (١٤١٤هـ).

١٩٥ ـ **ديوان العباس بن مرداس**: تحقيق: يحيى الجبوري. مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، (١٤١٢هـ).

١٩٦ ـ **ديوان عبيد بن الأبرص**: تحقيق: حسين نصار، القاهرة، الطبعة الأولى، (١٣٧٧هـ).

١٩٧ ـ **ديوان عروة بن حزام**: تحقيق: أنطوان محسن القوال، دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤١٦هـ).

١٩٨ ـ **ديوان علقمة بن عبدة**: شرح: سعيد نسيب مكارم. ط: دار صادر، الطبعة الأولى، (١٩٩٦م).

١٩٩ ـ **ديوان علي بن أبي طالب**: جمعه: حسين الأعلمي. الناشر: مؤسسة النور للمطبوعات، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤١٩هـ).

٢٠٠ ـ **ديوان عمر بن أبي ربيعة**: ط: الهيئة المصرية العامة، (١٩٧٨م).
وكذا: ط: دار صادر، الطبعة الأولى، (١٤١٢هـ).

٢٠١ ـ **ديوان أبي فراس**: ط: دار صادر، الطبعة الأولى، (١٤١٢هـ).

٢٠٢ ـ **ديوان قيس بن الخطيم**: تحقيق: ناصر الدين الأسد. ط: دار صادر، الطبعة الثالثة، (١٤١١هـ).

٢٠٣ ـ **ديوان كثير عزة**: شرح: قدري مايو. ط: دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤١٦هـ).

٢٠٤ ـ **ديوان لبيد بن ربيعة**: ط: دار صادر، بيروت، (١٣٨٦هـ).

٢٠٥ ـ **ديوان المثقب العبدي**: شرح: حسن حمد. ط: دار صادر، الطبعة الأولى، (١٩٩٦م).

٢٠٦ ـ **ديوان مجنون ليلى**: شرح: عدنان زكي درويش. ط: دار صادر، (١٤١٤هـ).

٢٠٧ ـ **ديوان مهلهل بن ربيعة**: عناية: طلال بن حرب. ط: الدار العالمية للطباعة والنشر، بيروت، (١٤١٣هـ).

٢٠٨ ـ **ديوان النابغة الجعدي**: تحقيق: عباس عبدالساتر، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠٥هـ).

٢٠٩ ـ **ديوان أبي نواس**: شرح: عمر فاروق الطباع. ط: شركة دار الأرقم، بيروت، (١٤١٨هـ).

٢١٠ ـ **ديوان أبي الوليد مسلم بن الوليد**: ط: بريل، ليدن، (١٨٧٥م).

٢١١ ـ **ديوان يزيد بن معاوية**: ط: المجمع العلمي بدمشق. تحقيق: سامي الدهان.

٢١٢ ـ **الرؤية**: علي بن عمر الدارقطني. تحقيق: إبراهيم العلي وزميله. ط: مكتبة المنار، الأردن، الطبعة الأولى، (١٤١١هـ).

٢١٣ ـ **الرد على الجهمية**: عثمان بن سعيد الدارمي. تحقيق: زهير الشاويش وتخريج: محمد ناصر الدين الألباني. ط: المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الرابعة، (١٤٠٢هـ).

٢١٤ ـ **الرد على من قال بفناء الجنة والنار وبيان الأقوال في ذلك**: أبو العباس بن

تيمية الدمشقي. تحقيق: محمد بن عبدالله السمهري، دار بلنسية، الرياض، الطبعة الأولى، (١٤١٥هـ).

٢١٥ ـ **الرد على من كذب بالأحاديث الصحيحة الواردة في المهدي**: عبدالمحسن العباد. ط: مطابع الرشيد، المدينة المنورة، الطبعة الأولى، (١٤٠٢هـ).

٢١٦ ـ **الرسالة**: محمد بن إدريس الشافعي. تحقيق: أحمد شاكر.

٢١٧ ـ **الرسل والرسالات**: عمر سليمان الأشقر. ط: مكتبة الفلاح، الطبعة الثالثة، الكويت، (١٤٠٥هـ).

٢١٨ ـ **رصف المباني في شرح حروف المعاني**: أحمد بن عبدالنور المالقي. تحقيق: أحمد محمد الخراط، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق.

٢١٩ ـ **رفع الأستار لإبطال أدلة القائلين بفناء النار**: محمد بن إسماعيل الأمير الصنعاني. تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني. ط: المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠٥هـ).

٢٢٠ ـ **الروح**: أبو عبدالله محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية. تحقيق: السيد الجميلي. ط: دار الكتاب العربي، الطبعة الثالثة، بيروت، (١٤٠٨هـ).

٢٢١ ـ **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**: شهاب الدين الألوسي. ط: دار الفكر، بيروت.

٢٢٢ ـ **روضة المحبين ونزهة المشتاقين**: شمس الدين محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، دار الكتب العلمية، بيروت.

٢٢٣ ـ **رياض الجنة بتخريج أصول السنة**: محمد بن عبدالله الأندلسي (ابن أبي زمنين). تحقيق: عبدالله البخاري. ط: مكتبة الغرباء، المدينة النبوية، الطبعة الأولى، (١٤١٥هـ).

٢٢٤ ـ **زاد المسير في علم التفسير**: أبو الفرج عبدالرحمٰن بن علي بن الجوزي. المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثالثة، (١٤٠٤هـ).

٢٢٥ ـ **زاد المعاد في هدي خير العباد**: ابن قيم الجوزية. تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وعبدالقادر الأرنؤوط. ط: مؤسسة الرسالة، سوريا، الطبعة الثانية، (١٤٠١هـ).

٢٢٦ ـ **الزهد**: عبدالله بن المبارك المروزي. تحقيق: حبيب الرحمٰن الأعظمي. ط: دار الكتب العلمية.

٢٢٧ ـ **زهر الآداب وثمر الألباب**: إبراهيم بن علي القيرواني. تحقيق: علي

محمد البجاوي. ط: عيسى البابي الحلبي وشركاه، الطبعة الثانية.

٢٢٨ ـ **زيادة الإيمان ونقصانه وحكم الاستثناء فيه**: عبدالرزاق بن عبدالمحسن العباد. ط: مكتبة دار القلم والكتاب، الرياض، الطبعة الأولى، (١٤١٦هـ).

٢٢٩ ـ **السبعة في القراءات**: ابن مجاهد. تحقيق: شوقي ضيف. دار المعارف، القاهرة، الطبعة الثانية.

٢٣٠ ـ **سبل السلام الموصلة إلى بلوغ المرام**: محمد بن إسماعيل الصنعاني. تحقيق: محمد صبحي حلاق. ط: دار ابن الجوزي، الدمام، الطبعة الثانية، (١٤٢١هـ).

٢٣١ ـ **سبل الهدى والرشاد**: محمد بن يوسف الصالحي. تحقيق: عادل عبدالموجود، وعلي معوض. ط: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤١٤هـ).

٢٣٢ ـ **سلسلة الأحاديث الصحيحة**: محمد ناصر الدين الألباني. (المجلد الأول والثاني) المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الرابعة، (١٤٠٥هـ)، (المجلد الثالث) نشر: الدار السلفية، الكويت، الطبعة الأولى، (١٣٩٩هـ)، (المجلد الرابع) نشر: المكتبة الإسلامية، الأردن، الطبعة الأولى، (١٤٠٣هـ) (المجلد الخامس) مكتبة المعارف، الرياض، الطبعة الأولى، (١٤١٢هـ).

٢٣٣ ـ **سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيء على الأمة**: محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، الطبعة الرابعة، (١٣٩٨هـ).

٢٣٤ ـ **السنَّة**: عمرو بن أبي عاصم الضحاك بن مخلد الشيباني. تحقيق: الألباني. المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠٠هـ).

٢٣٥ ـ **السنَّة**: محمد بن نصر المروزي. تحقيق: أبو محمد سالم بن أحمد السلفي. ط: مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠٨هـ).

٢٣٦ ـ **سنن الترمذي**: أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي. تحقيق: إبراهيم عطوة عوض. مطبعة البابي الحلبي، مصر، الطبعة الثانية، (١٣٩٥هـ).

٢٣٧ ـ **سنن الدارقطني**: علي بن عمر الدارقطني. ط: حديث أكادمي، نشاط أباد، فيصل أباد، باكستان.

٢٣٨ ـ **سنن الدارمي**: الدارمي. تخريج وتحقيق: السيد عبدالله بن هاشم اليماني. ط: حديث أكادمي للنشر والتوزيع. باكستان، (١٤٠٤هـ).

٢٣٩ ـ **سنن سعيد بن منصور**: سعيد بن منصور. تحقيق: سعد بن عبدالله آل حميد. ط: دار الصميعي، الرياض، الطبعة الأولى، (١٤١٧هـ).

٢٤٠ ـ **السنن الكبرىٰ**: أبو عبدالرحمٰن أحمد بن شعيب النسائي. تحقيق: عبدالغفار البنداري، وسيد كسروي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤١١هـ).

٢٤١ ـ **السنن الكبرىٰ**: أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي. ط: دار المعرفة، بيروت.

٢٤٢ ـ **سنن النسائي**: أبو عبدالرحمٰن أحمد بن شعيب النسائي. تحقيق: عبدالفتاح أبو غدة، دار البشائر، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠٦هـ).

٢٤٣ ـ **سير أعلام النبلاء**: محمد بن أحمد الذهبي. تحقيق: شعيب الأرنؤوط وزملائه. ط: مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠١هـ).

٢٤٤ ـ **السيرة النبوية**: أبو محمد عبدالملك بن هشام. تعليق جماعة من العلماء. ط: دار الفكر، القاهرة.

٢٤٥ ـ **شرح الأشموني على ألفية ابن مالك**: دار إحياء الكتب العربية، ط: مطبعة البابي الحلبي.

٢٤٦ ـ **شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة**: هبة الله بن الحسن الطبري اللالكائي. تحقيق: أحمد سعد حمدان. ط: دار طيبة، الرياض.

٢٤٧ ـ **شرح تنقيح الفصول**: شهاب الدين أبو العباس القرافي. تحقيق: طه عبدالرؤوف سعد. ط: مكتبة الكليات الأزهرية، دار الفكر، الطبعة الأولى، (١٣٩٣هـ).

٢٤٨ ـ **شرح الجلال شمس الدين محمد بن أحمد المحلي على متن جمع الجوامع**: ط: مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، الطبعة الثانية.

٢٤٩ ـ **شرح ديوان أبي تمام**: شاهين عطية. ط: دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، (١٤٠٧هـ).

٢٥٠ ـ **شرح ديوان جرير**: مهدي محمد ناصر الدين. ط: دار الكتب العلمية، الطبعة الثانية، (١٤١٢هـ).

٢٥١ ـ **شرح ديوان الخنساء**: تحقيق: عبدالسلام الحوفي. ط: دار الكتب العلمية، لبنان، الطبعة الأولى، (١٤٠٥هـ).

٢٥٢ ـ **شرح ديوان زهير**: أبو العباس ثعلب. تحقيق: فخر الدين قباة. ط: دار الآفاق، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠٢هـ).

٢٥٣ ـ **شرح ديوان صريع الغواني**: مسلم بن الوليد الأنصاري. تحقيق: سامي الدهان. ط: دار المعارف بمصر.

٢٥٤ ـ **شرح ديوان أبي العتاهية**: دار الكتب العلمية، بيروت.

٢٥٥ ـ **شرح ديوان عمر بن أبي ربيعة**: عبد الأمير علي مهنا. ط: دار الكتب العلمية، لبنان، الطبعة الثانية، (١٤١٢هـ).

٢٥٦ ـ **شرح ديوان عنترة**: (بدون مؤلّف). ط: دار الكتب العلمية، لبنان، الطبعة الأولى، (١٤٠٥هـ).

٢٥٧ ـ **شرح السنة**: البغوي. تحقيق: زهير الشاويش، وشعيب الأرناؤوط. ط: المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، (١٣٩٠هـ).

٢٥٨ ـ **شرح شذور الذهب في معرفة كلام العرب**: عبدالله جمال الدين بن يوسف بن أحمد بن هشام الأنصاري.

٢٥٩ ـ **شرح الشفا**: الملا علي القاري. ط: الكتب العلمية، بيروت.

٢٦٠ ـ **شرح صحيح مسلم**: محيي الدين النووي. تحقيق: عبدالله أحمد أبو زينة. ط: الشعب، القاهرة.

٢٦١ ـ **شرح العقيدة الطحاوية**: علي بن علي بن محمد بن أبي العز. تحقيق: عبدالله التركي، شعيب الأرنؤوط. ط: مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية، (١٤١٣هـ).

٢٦٢ ـ **شرح القصائد المشهورات الموسومة بالمعلقات**: ابن النحاس، أحمد بن محمد المرادي. ط: دار الكتب العلمية، لبنان، الطبعة الأولى، (١٤٠٥هـ).

٢٦٣ ـ **شرح قصيدة كعب بن زهير**: جمال الدين محمد بن هشام الأنصاري. تحقيق: محمود حسن أبو ناجي. ط: مؤسسة علوم القرآن، الطبعة الثالثة، دمشق، (١٤٠٤هـ).

٢٦٤ ـ **شرح القصيدة الميمية**: مصطفى عراقي. ط: مكتبة ابن تيمية، القاهرة.

٢٦٥ ـ **شرح قطر الندى وبل الصدى لابن هشام**: محمد محيي الدين عبدالحميد. ط: إحياء التراث، لبنان، (١٣٨٣هـ).

٢٦٦ ـ **شرح القواعد الفقهية**: أحمد الزرقاء. صححه وراجعه: عبدالستار أبو غدة. ط: دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠٣هـ).

٢٦٧ ـ **شرح الكافية الشافية**: جمال الدين أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن مالك الطائي الجياني. تحقيق: عبدالمنعم أحمد هريدي. ط: دار المأمون للتراث، الطبعة الأولى، (١٤٠٢هـ).

٢٦٨ ـ **الشرح الكبير**: شمس الدين أبو الفرج عبدالرحمٰن بن أبي عمر بن قدامة، دار الكتاب العربي، (١٣٩٢هـ).

٢٦٩ ـ **شرح الكوكب المنير**: محمد بن أحمد بن عبدالعزيز الفتوحي الحنبلي. تحقيق: محمد الزحيلي ونزيه حماد، دار الفكر، بيروت، (١٤٠٠هـ).

٢٧٠ ـ **شرح مختصر الروضة**: نجم الدين أبي الربيع سليمان بن عبدالقوي الطوفي. تحقيق: عبدالله بن عبد المحسن التركي. مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠٧هـ).

٢٧١ ـ **شرح معاني الآثار**: أبو جعفر أحمد بن سلامة الطحاوي. تحقيق: محمد سيد جاد الحق. ط: الأنوار المحمدية، القاهرة.

٢٧٢ ـ **شرح مقامات الحريري**: يوسف بقاعي. ط: دار الكتاب اللبناني، بيروت، الطبعة الأولى، (١٩٨١م).

٢٧٣ ـ **شرح منتهى الإرادات**: منصور بن يونس البهوتي. ط: دار الفكر، بيروت.

٢٧٤ ـ **شرح المواقف في علم الكلام**: علي بن محمد الجرجاني. تحقيق: أحمد المهدي، مكتبة الأزهر.

٢٧٥ ـ **الشرك الجاهلي وآلهة العرب المعبودة قبل الإسلام**: يحيى الشامي، دار الفكر العربي، بيروت، (١٩٩٣م).

٢٧٦ ـ **الشريعة**: أبو بكر محمد بن الحسين الآجري. تحقيق: محمد حامد الفقي. ط: حديث أكادمي، باكستان، الطبعة الأولى، (١٤٠٣هـ).

٢٧٧ ـ **شعر الدعوة الإسلامي في عهد النبوة والخلفاء الراشدين**: جمعه وحققه: عبدالله الحامد. ط: دار الأصالة للثقافة والنشر، الطبعة الثانية، الرياض، (١٤٠٥هـ).

٢٧٨ ـ **الشعر والشعراء**: أبو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة. تحقيق: محمد عبدالمنعم العمران، دار إحياء العلوم، بيروت، الطبعة الثالثة، (١٤٠٧هـ).

٢٧٩ ـ **شعراء مقلون**: حاتم صالح الضامن، عالم الكتب، مكتبة النهضة العربية، الطبعة الأولى، (١٤٠٧هـ).

٢٨٠ ـ **شعراء النصرانية قبل الإسلام**: لويس شيخو. دار المشرق، الطبعة الثالثة، (١٩٦٧م)، المطبعة الكاثوليكية، (١٩٨٢م).

٢٨١ ـ **شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل**: ابن القيم الجوزية، دار المعرفة، بيروت، (١٣٩٨هـ).

٢٨٢ ـ **شمائل الرسول ﷺ**: ابن كثير. تحقيق: مصطفى عبدالواحد. دار القبلة، جدة، مؤسسة علوم القرآن، بيروت، الطبعة الثانية، (١٤٠٩هـ).

٢٨٣ ـ **الصاحبي**: أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا. تحقيق: السيد أحمد صقر. مطبعة البابي الحلبي، القاهرة.

٢٨٤ ـ **صبح الأعشى في صناعة الإنشا**: أبو العباس أحمد بن علي القلقشندي. ط: كوستانتسوماس، القاهرة.

٢٨٥ ـ **صحيح الجامع الصغير وزيادته**: محمد ناصر الدين الألباني. ط: المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثالثة، (١٤٠٢هـ).

٢٨٦ ـ **صحيح ابن خزيمة**: أبو بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة. تحقيق: محمد مصطفى الأعظمي. ط: المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، (١٣٩٩هـ).

٢٨٧ ـ **صحيح سنن الترمذي باختصار السند**: محمد ناصر الدين الألباني. المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠٨هـ).

٢٨٨ ـ **صحيح سنن أبي داود باختصار السند**: محمد ناصر الدين الألباني. المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠٩هـ).

٢٨٩ ـ **صحيح سنن ابن ماجه**: محمد ناصر الدين الألباني. ط: المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠٧هـ).

٢٩٠ ـ **صحيح سنن النسائي باختصار السند**: محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠٩هـ).

٢٩١ ـ **صحيح مسلم**: أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري. تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، المكتبة الإسلامية، استانبول.

٢٩٢ ـ **الصواعق المرسلة**: شمس الدين ابن قيم الجوزية. تحقيق: علي بن محمد الدخيل الله. ط: دار العاصمة، الطبعة الأولى، الرياض، (١٤٠٨هـ).

٢٩٣ ـ **الصواعق المحرقة في الرد على أهل البدع والزندقة**: أحمد بن حجر الهيتمي. ط: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠٣هـ).

٢٩٤ ـ **ضعيف الجامع الصغير وزيادته**: تأليف: محمد ناصر الدين الألباني. ط: المكتب الإسلامي، الطبعة الثانية، بيروت، (١٣٩٩هـ).

٢٩٥ ـ **ضعيف سنن ابن ماجه**: محمد ناصر الدين الألباني، إشراف: زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، الطبعة الأولى، (١٤٠٨هـ).

٢٩٦ ـ **ضياء السالك إلى أوضح المسالك**: محمد عبدالعزيز النجار.

٢٩٧ ـ **الطبقات الكبرى**: محمد بن سعد (كاتب الواقدي). ط: دار التحرير، القاهرة، (١٣٨٨هـ).

٢٩٨ ـ **الطرق الحكمية في السياسة الشرعية**: أبو عبدالله محمد بن أبي بكر الزرعي المشهور بابن قيم الجوزية. راجعه: أحمد عبدالحليم العسكري. ط: دار الفكر، بيروت.

٢٩٩ ـ **طريق الهجرتين وباب السعادتين**: شمس الدين محمد بن أبي بكر ابن القيم. ط: دار الكتب العلمية، لبنان، الطبعة الأولى، (١٤٠٢هـ).

٣٠٠ ـ **ظلال الجنة في تخريج السنة**: محمد ناصر الدين الألباني. ط: المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠٠هـ).

٣٠١ ـ **العُجاب في بيان الأسباب**: أحمد بن علي بن حجر العسقلاني. تحقيق: عبدالحكيم محمد الأنيس. ط: دار ابن الجوزي، الدمام، الطبعة الأولى، (١٤١٨هـ).

٣٠٢ ـ **العذب الفائض شرح عمدة الفارض**: إبراهيم بن عبدالله بن إبراهيم الفرضي. ط: مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، الطبعة الأولى، (١٣٧٢هـ).

٣٠٣ ـ **العرف وأثره في التشريع الإسلامي**: مصطفى عبدالرحيم أبو عجيلة. ط: المنشأة العامة، طرابلس، الطبعة الأولى، (١٣٩٥هـ).

٣٠٤ ـ **عقد الدرر في أخبار المنتظر**: يوسف بن يحيى المقدسي. تحقيق: مهيب بن صالح البوريني. مكتبة المنار، الأردن، الطبعة الأولى، (١٤٠٥هـ).

٣٠٥ ـ **العلل المتناهية في الأحاديث الواهية**: عبدالرحمٰن بن الجوزي. تحقيق: إرشاد الحق الأثري. إدارة ترجمان السنة، لاهور.

٣٠٦ ـ **العلل الواردة في الأحاديث النبوية**: أبو الحسن علي بن عمر بن أحمد الدارقطني. تحقيق: محفوظ الرحمٰن زين الله السلفي. ط: دار طيبة، الرياض، الطبعة الأولى، (١٤٠٥هـ).

٣٠٧ ـ **علماء ومفكرون عرفتهم**: المؤلف: محمد المجذوب. ط: دار الاعتصام، الطبعة الثالثة، القاهرة.

٣٠٨ ـ **عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ**: شهاب الدين أحمد بن يوسف الحلبي الشافعي. تحقيق: محمود السيد الدغيم. ط: دار السيد، تركيا، الطبعة الأولى، (١٤٠٧هـ).

٣٠٩ ـ **عمل اليوم والليلة**: أبو بكر بن السني. تحقيق: عبدالقادر أحمد عطا. ط: دار المعرفة، لبنان، (١٣٩٩هـ).

٣١٠ ـ **عون المعبود شرح سنن أبي داود**: أبو الطيب محمد شمس الحق العظيم آبادي، دار الفكر، بيروت، الطبعة الثالثة، (١٣٩٩هـ).

٣١١ ـ **عيون الأخبار**: أبو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوري. ط: دار الكتاب الإسلامي.

٣١٢ ـ **غاية المرام في تخريج أحاديث الحلال والحرام**: محمد ناصر الدين الألباني. ط: المكتب الإسلامي، الطبعة الثانية، (١٤٠٢هـ).

٣١٣ ـ **غريب الحديث**: أبو عبيد القاسم بن سلام الهروي. ط: دار الكتاب العربي، الهند، الطبعة الأولى، (١٣٨٤هـ).

٣١٤ ـ **غوث المكدود بتخريج منتقى ابن الجارود**: أبو إسحاق الجويني الأثري. ط: دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠٨هـ).

٣١٥ ـ **فتح الباري شرح صحيح البخاري**: أحمد بن علي بن حجر العسقلاني. ط: دار المعرفة، لبنان.

٣١٦ ـ **فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن**: زكريا الأنصاري. تحقيق: محمد الصابوني. ط: دار القرآن الكريم، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠٣هـ).

٣١٧ ـ **الفتح السماوي بتخريج أحاديث تفسير القاضي البيضاوي**: زين الدين عبدالرؤوف المناوي. تحقيق: أحمد مجتبي بن نذير عالم السلفي. ط: دار العاصمة، الرياض، النشرة الأولى، (١٤٠٩هـ).

٣١٨ ـ **فتح القدير**: محمد بن علي الشوكاني. ط: دار الفكر.

٣١٩ ـ **فتح المجيد شرح كتاب التوحيد**: عبدالرحمن بن حسن بن محمد بن عبدالوهاب. تحقيق: عبدالقادر الأرناؤوط. ط: مكتبة دار البيان، دمشق، الطبعة الأولى، (١٤٠٢هـ).

٣٢٠ ـ **الفروع**: محمد بن مفلح. ط: عالم الكتب، بيروت، الطبعة الثالثة، (١٤٠٢هـ).

٣٢١ ـ **الفروق**: شهاب الدين أبي العباس أحمد بن إدريس القرافي. ط: عالم الكتب، بيروت.

٣٢٢ ـ **الفروق اللغوية**: أبو هلال العسكري. تحقيق: حسام الدين القدسي. ط: دار الباز، مكة المكرمة، (١٤٠١هـ).

٣٢٣ ـ **فضائل الصحابة**: أحمد بن حنبل. تحقيق: وصي الله عباس. ط: مركز البحث العلمي بجامعة أم القرى، مكة المكرمة، الطبعة الأولى، (١٤٠٣هـ).

٣٢٤ ـ **فضائل القرآن ومعالمه وآدابه**: أبو عبيد القاسم بن سلام. دراسة وتحقيق: أحمد بن عبدالواحد الخياطي. ط: مطبعة فضالة، المغرب، (١٤١٥هـ).

٣٢٥ ـ **فقه السيرة**: محمد الغزالي، بتخريجات الشيخ ناصر الدين الألباني، دار الكتب الحديثة، مصر، الطبعة السادسة، (١٩٧٦م).

٣٢٦ ـ **فقه اللغة وسر العربية**: أبو منصور الثعالبي. تحقيق: فائز محمد، وإميل يعقوب. دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤١٣هـ).

٣٢٧ ـ **الفقيه والمتفقه**: أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي. تحقيق: عادل بن يوسف العزازي. ط: دار ابن الجوزي، الطبعة الأولى، الدمام، (١٤١٧هـ).

٣٢٨ ـ **فيض القدير شرح الجامع الصغير**: محمد عبدالرؤوف المناوي. ط: دار المعرفة، الطبعة الثانية، بيروت، (١٣٩١هـ).

٣٢٩ ـ **القاديانية**: إحسان إلهي ظهير. الناشر: إدارة ترجمان السنة، باكستان، الطبعة الخامسة عشر، (١٤٠١هـ).

٣٣٠ ـ **القاموس الفقهي لغةً واصطلاحاً**: سعدي أبو حبيب. ط: دار الفكر، الطبعة الثانية، (١٤٠٨هـ).

٣٣١ ـ **القاموس المحيط**: مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي. تحقيق: مكتب تحقيق التراث. مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠٦هـ).

٣٣٢ ـ **القراءة خلف الإمام**: أحمد بن الحسين البيهقي. تحقيق: محمد السعيد

زغلول. ط: دار الكتب العلمية، لبنان، الطبعة الأولى، (١٤٠٥هـ).

٣٣٣ ـ **قصص العرب**: محمد أبو الفضل إبراهيم وزملاؤه. ط: دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، الطبعة الرابعة، (١٣٨٢هـ).

٣٣٤ ـ **القطع والائتناف**: أبو جعفر النحاس. تحقيق: أحمد خطاب العمر، مطبعة العاني، بغداد، (١٣٩٨هـ).

٣٣٥ ـ **القواعد**: محمد بن محمد المقري. تحقيق: أحمد عبدالله بن حميد مطبوعات جامعة أم القرى.

٣٣٦ ـ **قواعد الأحكام في مصالح الأنام**: عز الدين عبدالعزيز عبدالسلام. تحقيق: طه عبدالرؤوف سعد. ط: مكتبة ابن تيمية، مصر.

٣٣٧ ـ **قواعد الترجيح عند المفسرين**: حسين بن علي الحربي. ط: دار القاسم، الرياض، الطبعة الأولى، (١٤١٧هـ).

٣٣٨ ـ **قواعد التفسير جمعاً ودراسةً**: خالد بن عثمان السبت. ط: ابن عفان، الخبر، الطبعة الأولى، (١٤١٧هـ).

٣٣٩ ـ **القواعد الحسان لتفسير القرآن**: عبدالرحمٰن بن ناصر السعدي. ط: دار ابن الجوزي، الطبعة الأولى، الدمام، (١٤١٣هـ).

٣٤٠ ـ **القواعد الفقهية الخمس الكبرى من مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية**: إعداد: إسماعيل بن حسن علوان. ط: دار ابن الجوزي، الدمام، الطبعة الأولى، (١٤٢٠هـ).

٣٤١ ـ **القواعد المثلىٰ في صفات الله وأسمائه الحسنىٰ**: محمد صالح العثيمين. دار ابن القيم، ومكتبة ابن الجوزي، الدمام، الطبعة الأولى، (١٤٠٦هـ).

٣٤٢ ـ **القواعد والفوائد الأصولية**: أبو الحسن علاء الدين ابن اللحام. تحقيق: محمد حامد الفقي. ط: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠٣هـ).

٣٤٣ ـ **قواعد وفوائد لفقه كتاب الله**: عبدالله بن محمد الجوعي. ط: دار الوطن، الطبعة الأولى، الرياض، (١٤١٤هـ).

٣٤٤ ـ **الكافي الشافي في تخريج أحاديث الكشاف**: أحمد بن علي بن حجر العسقلاني [ملحق بتفسير الكشاف] دار المعرفة، بيروت.

٣٤٥ ـ **الكافي في فقه أهل المدينة المالكي**: أبو عمر يوسف بن عبدالله بن عبدالبر. ط: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠٧هـ).

٣٤٦ ـ **الكافية في الجدل**: عبدالملك عبدالله بن يوسف الجويني. تحقيق: فوقية حسين محمود. ط: عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة، (١٣٩٩هـ).
٣٤٧ ـ **الكامل**: أبو العباس محمد بن يزيد المبرد. تحقيق: محمد أحمد الدالي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠٦هـ).
٣٤٨ ـ **الكامل في التاريخ**: عز الدين بن الأثير، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الخامسة، (١٤٠٥هـ).
٣٤٩ ـ **الكامل في ضعفاء الرجال**: عبدالله بن عدي الجرجاني. ط: دار الفكر، لبنان، الطبعة الثانية، (١٤٠٥هـ).
٣٥٠ ـ **الكتاب**: أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر (سيبويه). تحقيق: عبدالسلام هارون. ط: عالم الكتب، الطبعة الثالثة، (١٤٠٣هـ).
٣٥١ ـ **كتاب مناهل العرفان للزرقاني دراسة وتقويم**: خالد بن عثمان السبت، دار ابن عفان، الخبر، الطبعة الأولى، (١٤١٨هـ).
٣٥٢ ـ **الكتاب الموضح في وجوه القراءات وعللها**: نصر بن علي بن محمد الشيرازي الفارسي الفسوي. تحقيق: عمر حمدان الكبيسي. ط: الجماعة الخيرية لتحفيظ القرآن الكريم بجدة، الطبعة الأولى، (١٤١٤هـ).
٣٥٣ ـ **كتاب الوقوف من مسائل الإمام أحمد بن حنبل الشيباني**: أحمد بن محمد الخلال. تحقيق: عبدالله بن أحمد الزيد. ط: مكتبة المعارف، الرياض، الطبعة الأولى، (١٤١٠هـ).
٣٥٤ ـ **الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل**: محمود بن عمر الزمخشري. ط: دار المعرفة، لبنان.
٣٥٥ ـ **كشاف القناع عن متن الإقناع**: منصور بن يونس البهوتي. ط: عالم الكتب، بيروت، (١٤٠٣هـ).
٣٥٦ ـ **كشف الأستار عن زوائد البزار**: علي بن أبي بكر الهيثمي. تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي. ط: مؤسسة الرسالة، سوريا، الطبعة الثانية، (١٤٠٤هـ).
٣٥٧ ـ **كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس**: إسماعيل بن محمد العجلوني. تحقيق: أحمد القلاش. ط: مؤسسة الرسالة، سوريا، الطبعة الثالثة، (١٤٠٣هـ).

٣٥٨ ـ **كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون**: حاجي خليفة. ط: دار الكتب العلمية، بيروت، (١٤١٣هـ).

٣٥٩ ـ **الكشف عن وجوه القراءات السبع**: مكي بن أبي طالب القيسي. تحقيق: محيي الدين رمضان. مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الرابعة، (١٤٠٧هـ).

٣٦٠ ـ **كفاية الإنسان من القصائد الغرر الحسان**: جمع: محمد بن أحمد سيد أحمد. ط: دار ابن القيم، الدمام، (١٤٠٩هـ).

٣٦١ ـ **الكفاية في علم الرواية**: الخطيب البغدادي. ط: المكتبة العلمية، المدينة المنورة.

٣٦٢ ـ **كلمة الحق**: أحمد شاكر، دار الكتب السلفية، القاهرة، الطبعة الأولى، (١٤٠٧هـ).

٣٦٣ ـ **الكليات**: أبو البقاء أيوب بن موسى الكفوي. تحقيق: عدنان درويش ومحمد المصري. ط: مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤١٢هـ).

٣٦٤ ـ **كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال**: علي بن حسام الدين الهندي. تحقيق: بكري حياني. ط: مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الخامسة، (١٤٠٥هـ).

٣٦٥ ـ **الكنى والأسماء**: أبو بشر محمد بن أحمد بن حماد الدولابي. ط: دار الكتب العلمية، الطبعة الثانية، بيروت، (١٤٠٣هـ).

٣٦٦ ـ **الكوكب الدري فيما يتخرج على الأصول النحوية من الفروع الفقهية**: جمال الدين الأسنوي. تحقيق: محمد حسن عواد. ط: دار عمان، الطبعة الأولى، (١٤٠٥هـ).

٣٦٧ ـ **لامية الشنفرى**: عناية: عبدالمعين الملوحي. ط: مديرية إحياء التراث القديم، دمشق.

٣٦٨ ـ **لباب النقول في أسباب النزول**: جلال الدين السيوطي. ط: دار قتيبة، دمشق، الطبعة الأولى، (١٤٠٧هـ).

٣٦٩ ـ **لسان الميزان**: أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، الطبعة الثانية، (١٣٩٠هـ ـ ١٩٧١م).

٣٧٠ ـ **اللمع في أصول الفقه**: إبراهيم بن علي الشيرازي. ط: دار الكتب العلمية، لبنان، الطبعة الأولى، (١٤٠٥هـ).

٣٧١ ـ **لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية**: محمد بن أحمد السفاريني. ط: المكتب الإسلامي، مكتبة أسامة.

٣٧٢ ـ **المبسوط**: السرخسي. ط: دار المعرفة، بيروت، (١٤٠٦هـ).

٣٧٣ ـ **المبسوط في القراءات العشر**: أبو بكر أحمد بن الحسين بن مهران الأصبهاني. تحقيق: سبيع حمزة حاكمي، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، دمشق.

٣٧٤ ـ **مجالس ثعلب**: تحقيق: عبدالسلام هارون. ط: دار المعارف، مصر.

٣٧٥ ـ **المجروحين من المحدثين والضعفاء والمتروكين**: محمد بن حبان البستي. تحقيق: محمود إبراهيم زايد، نشر: دار الوعي، حلب، الطبعة الثانية، (١٤٠٢هـ).

٣٧٦ ـ **مجلة الحكمة**: مجلة بحثية علمية شرعية ثقافية. تصدر من بريطانيا.

٣٧٧ ـ **مجمع الأمثال**: أبو الفضل أحمد بن محمد الميداني. تحقيق: أبو الفضل إبراهيم. ط: البابي الحلبي.

٣٧٨ ـ **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد**: نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي. ط: دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثالثة، (١٤٠٢هـ).

٣٧٩ ـ **مجمل اللغة**: أحمد بن فارس الرازي. تحقيق: شهاب الدين أبي عمرو. ط: دار الفكر، بيروت، (١٤١٤هـ).

٣٨٠ ـ **المجموع شرح المهذب**: أبو زكريا محيي الدين النووي. ط: دار الفكر.

٣٨١ ـ **مجموع فتاوى شيخ الإسلام**: أحمد ابن تيمية. جمع وترتيب: عبدالرحمٰن بن محمد بن قاسم وساعده ابنه محمد. طبع بإشراف الرئاسة العامة لشؤون الحرمين الشريفين.

٣٨٢ ـ **محاسن التأويل**: محمد جمال الدين القاسمي. ط: دار الفكر، لبنان، الطبعة الثانية، (١٣٩٨هـ).

٣٨٣ ـ **المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها**: أبو الفتح عثمان بن جني. تحقيق: علي النجدي وزملاؤه. يشرف على إصدارها محمد توفيق عويضة، القاهرة.

٣٨٤ ـ **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**: عبدالحق بن غالب بن عطية. تحقيق: المجلس العلمي بفاس، (١٣٩٥هـ).

٣٨٥ ـ **المحلى**: أبو محمد علي بن أحمد بن حزم. ط: دار الفكر.
٣٨٦ ـ **محنة الإمام أحمد بن محمد بن حنبل**: تقي الدين عبدالغني المقدسي. تحقيق: عبدالله التركي. ط: هجر للطباعة والنشر، والتوزيع والإعلان، الطبعة الأولى، (١٤٠٧هـ).
٣٨٧ ـ **مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر**: محمد بن مكرم المعروف بابن منظور. تحقيق: رياض عبدالحميد مراد وزملاؤه. ط: دار الفكر، دمشق، الطبعة الأولى، (١٤٠٤هـ).
٣٨٨ ـ **مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة لابن القيم**: محمد بن الموصلي. ط: مكتبة الرياض الحديثة، الرياض.
٣٨٩ ـ **مختصر العلو لعلي الغفار**: شمس الدين الذهبي. تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني. ط: المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠١هـ).
٣٩٠ ـ **مختصر الفتاوى المصرية**: بدر الدين أبو عبدالله محمد بن علي الحنبلي البعلي. صححه: محمد حامد الفقي. ط: دار ابن القيم، الطبعة الثانية، الدمام، (١٤٠٦هـ).
٣٩١ ـ **مختصر قيام الليل**: أبو عبدالله محمد بن نصر المروزي. ط: المطبعة العربية، الطبعة الأولى، باكستان، (١٤٠٢هـ).
٣٩٢ ـ **مختصر المزني**: ط: دار المعرفة، لبنان.
٣٩٣ ـ **مختصر المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة**: الزرقاني. تحقيق: محمد الصباغ. ط: مكتب التربية العربي لدول الخليج، الرياض، الطبعة الأولى، (١٤٠١هـ).
٣٩٤ ـ **مختصر من قواعد العلائي وكلام الأسنوي**: محمود بن أحمد الحمودي (ابن خطيب الدهشة). تحقيق: مصطفى محمود البنجويني، (١٩٨٠م).
٣٩٥ ـ **مدراج السالكين بين منازل ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾**: محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية الدمشقي. تحقيق: محمد حامد الفقي، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى، (١٣٩٢هـ).
٣٩٦ ـ **المدخل إلى الصحيح**: الحاكم أبو عبدالله النيسابوري. تحقيق: ربيع بن هادي. ط: مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠٤هـ).
٣٩٧ ـ **المدخل لعلم تفسير كتاب الله تعالى**: أبو النصر أحمد بن محمد بن أحمد

السمرقندي المعروف بالحدادي. تحقيق: صفوان عدنان داوودي. ط: دار القلم بدمشق، دار العلوم، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠٨هـ).

٣٩٨ ـ **المدهش**: أبو الفرج جمال الدين ابن الجوزي. تعليق: مروان قباني. ط: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية، (١٤٠٥هـ).

٣٩٩ ـ **المدونة الكبرىٰ**: للإمام مالك التي رواها سحنون بن سعيد التنوخي عن ابن القاسم عن الإمام مالك. ط: مطبعة السعادة.

٤٠٠ ـ **مذكرة أصول الفقه**: محمد الأمين بن المختار الشنقيطي. ط: المكتبة السلفية، المدينة المنورة.

٤٠١ ـ **المراسيل**: أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني. تحقيق: شعيب الأرناؤوط. ط: مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠٨هـ).

٤٠٢ ـ **المزهر في علوم اللغة وأنواعها**: عبدالرحمٰن جلال الدين السيوطي. تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم وزملاؤه. ط: دار التراث، القاهرة، الطبعة الثالثة.

٤٠٣ ـ **مسائل الإمام أحمد بن حنبل**: رواية صالح. تحقيق: فضل الرحمٰن دين محمد. ط: الدار العلمية، الهند، الطبعة الأولى، (١٤٠٨هـ).

٤٠٤ ـ **المساعد على تسهيل الفوائد**: بهاء الدين بن عقيل. تحقيق: محمد كامل بركات. ط: دار الفكر بدمشق، (١٤٠٠هـ).

٤٠٥ ـ **المستدرك**: أبو عبدالله محمد بن عبدالله الحاكم. ط: دار الباز، مكة المكرمة.

٤٠٦ ـ **المستصفى من علوم الأصول**: أبو حامد محمد بن محمد الغزالي. ط: دار العلوم الحديثة، بيروت.

٤٠٧ ـ **المسند**: أبو عبدالله أحمد بن حنبل. ط: المكتب الإسلامي.

٤٠٨ ـ **المسند**: أبو بكر عبدالله بن الزبير الحميدي. تحقيق: حبيب الرحمٰن الأعظمي. ط: عالم الكتب، بيروت، ومكتبة المتنبي، القاهرة.

٤٠٩ ـ **مسند أبي داود الطيالسي**: سليمان بن داود بن الجارود. ط: دار المعرفة، لبنان.

٤١٠ ـ **مسند أبي يعلى**: أحمد بن علي بن المثنى التميمي. تحقيق: حسين سليم أسد. ط: دار المأمون للتراث، دمشق، الطبعة الأولى، (١٤٠٤هـ).

٤١١ ـ **المسودة في أصول الفقه**: أبو العباس الحنبلي الحراني. تحقيق: محمد محيي الدين عبدالحميد. ط: دار الكتاب العربي، لبنان.

٤١٢ ـ **مشاهد الإنصاف على شواهد الكشاف**: محمد عليان المرزوقي الشافعي. [ملحق بتفسير الكشاف]، دار المعرفة، بيروت.

٤١٣ ـ **مشكاة المصابيح**: محمد بن عبدالله الخطيب التبريزي. تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني. ط: المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثالثة، (١٤٠٥هـ).

٤١٤ ـ **مشكل الآثار**: أبو جعفر أحمد بن محمد الطحاوي. ط: مجلس دائرة المعارف النظامية الكائنة في الهند، الطبعة الأولى، (١٣٣٣هـ).

٤١٥ ـ **مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور**: برهان الدين أبو الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي. تحقيق: عبدالسميع محمد أحمد حسنين، مكتبة المعارف، الرياض، الطبعة الأولى، (١٤٠٨هـ).

٤١٦ ـ **المصباح المنير**: أحمد بن محمد الفيومي المقرىء. ط: مكتبة لبنان.

٤١٧ ـ **المصنف**: أبو بكر عبدالرزاق بن همام الصنعاني. تحقيق: حبيب الرحمٰن الأعظمي. ط: المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية، (١٤٠٣هـ).

٤١٨ ـ **مصنف ابن أبي شيبة**: أبو بكر عبدالله بن محمد بن أبي شيبة العبسي. تحقيق: مختار الندوي. إدارة القرآن والعلوم الإسلامية، كراتشي، (١٤٠٦هـ).

٤١٩ ـ **معارج الصعود إلى تفسير سورة هود**: محمد الأمين بن المختار الجكني الشنقيطي. ط: دار المجتمع للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، جدة، (١٤٠٨هـ).

٤٢٠ ـ **معارج القبول**: حافظ بن أحمد حكمي. ط: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠٣هـ).

٤٢١ ـ **المعارف**: ابن قتيبة. تحقيق: ثروت عكاشة. ط: دار المعارف، القاهرة، الطبعة الثانية.

٤٢٢ ـ **معالم التنزيل**: أبو محمد الحسين بن مسعود الفراء البغوي. تحقيق: خالد العك، ومروان سوار، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠٦هـ).

٤٢٣ ـ **معالم السنن**: أبو سليمان الخطابي. تحقيق: أحمد شاكر، ومحمد الفقي، دار المعرفة، لبنان.

٤٢٤ ـ **معاني القرآن**: يحيى بن زياد الفرّاء. تحقيق: أحمد يوسف نجاتي وزميله. ط: دار السرور.

٤٢٥ ـ **معاني القرآن وإعرابه**: إبراهيم بن السَّري الزجاج. تحقيق: عبدالجليل شلبي. ط: عالم الكتب، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠٨هـ).

٤٢٦ ـ **معجم الأدباء**: ياقوت الحموي، دار الفكر، الطبعة الثالثة، (١٤٠٠هـ).

٤٢٧ ـ **معجم الإعراب والإملاء**: إميل بديع يعقوب. ط: دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الرابعة، (١٩٨٨م).

٤٢٨ ـ **معجم الأمثال العربية**: رياض عبدالحميد مراد. ط: جامعة الإمام، (١٤٠٧هـ).

٤٢٩ ـ **المعجم الأوسط**: سليمان بن أحمد الطبراني. تحقيق: أبو معاذ طارق عوض الله وزميله. ط: دار الحرمين، مصر، (١٤١٥هـ).

٤٣٠ ـ **معجم البلدان**: ياقوت بن عبدالله الحموي. ط: إحياء التراث العربي، بيروت، (١٣٩٩هـ).

٤٣١ ـ **المعجم الصغير**: أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني. تحقيق: عبدالرحمٰن محمد عثمان. المكتبة السلفية، المدينة المنورة، (١٣٨٨هـ).

٤٣٢ ـ **المعجم الكبير**: أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني. تحقيق: حمدي عبدالمجيد السلفي. ط: مكتبة ابن تيمية، الطبعة الثانية.

٤٣٣ ـ **معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع**: عبدالله بن عبدالعزيز البكري الأندلسي. تحقيق: مصطفى السقا. ط: عالم الكتب، بيروت، الطبعة الثالثة، (١٤٠٣هـ).

٤٣٤ ـ **معجم مفردات الإبدال والإعلال في القرآن الكريم**: أحمد محمد الخراط، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى، (١٤٠٩هـ).

٤٣٥ ـ **المعجم المفصل في شواهد النحو الشعرية**: إميل بديع يعقوب. ط: دار الكتب العلمية، لبنان، الطبعة الأولى، (١٤١٣هـ).

٤٣٦ ـ **المعجم الوسيط**: مجمع اللغة العربية. ط: المكتبة الإسلامية، استانبول، الطبعة الثانية، (١٣٩٢هـ).

٤٣٧ ـ **معرفة الصحابة**: أبو نعيم الأصفهاني. تحقيق: محمد راضي بن حاج

عثمان. ط: مكتبة الدار بالمدينة المنورة، مكتبة الحرمين بالرياض، الطبعة الأولى، (١٤٠٨هـ).

٤٣٨ ـ **المعرفة والتاريخ**: يعقوب بن سفيان البسوي. تحقيق: أكرم العمري. ط: مكتبة الدار، المدينة المنورة، الطبعة الأولى، (١٤١٠هـ).

٤٣٩ ـ **المغازي**: محمد بن عمر بن واقد. تحقيق: مارسون جونس. ط: عالم الكتب، بيروت، الطبعة الثالثة، (١٤٠٤هـ).

٤٤٠ ـ **المغني**: موفق الدين أبو محمد عبدالله بن أحمد بن قدامة. تحقيق: عبدالله التركي، وعبدالفتاح الحلو. ط: دار هجر، الطبعة الأولى، (١٤٠٦هـ).

٤٤١ ـ **مغني اللبيب**: جمال الدين بن هشام الأنصاري. ط: دار إحياء الكتب العربية.

٤٤٢ ـ **مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة**: محمد بن أبي بكر ابن القيم. تحقيق: علي حسن عبدالحميد. ط: دار ابن عفان، الخبر، الطبعة الأولى، (١٤١٦هـ).

٤٤٣ ـ **مفحمات الأقران في مبهمات القرآن**: جلال الدين السيوطي. تحقيق: إياد خالد الطباع. ط: مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠٦هـ).

٤٤٤ ـ **مفردات ألفاظ القرآن**: الراغب الأصفهاني. تحقيق: صفوان عدنان داوودي. دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى، (١٤١٢هـ).

٤٤٥ ـ **المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام**: جواد علي، الطبعة الثانية، (١٤١٣هـ).

٤٤٦ ـ **المفضليات**: المفضل بن محمد بن يعلى الضبي. تحقيق: أحمد محمد شاكر، وعبدالسلام هارون. ط: دار المعارف، القاهرة، الطبعة السابعة.

٤٤٧ ـ **المقاييس في اللغة**: أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا. تحقيق: عبدالسلام هارون. دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤١١هـ).

٤٤٨ ـ **المقتصد في شرح الإيضاح**: عبدالقاهر الجرجاني. تحقيق: كاظم بحر المرجان.

٤٤٩ ـ **ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل**: أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي العاصمي الغرناطي. تحقيق: سعيد الفلاح. ط: دار الغرب، لبنان، الطبعة الأولى، (١٤٠٣هـ).

٤٥٠ ـ **المنتخب**: عبد بن حميد. تحقيق: أبو عبدالله مصطفى بن العدوي. ط: دار الأرقم، الكويت، الطبعة الأولى، (١٤٠٥هـ).
٤٥١ ـ **المنتخب من كنايات الأدباء وإشارات البلغاء**: أحمد بن محمد الجرجاني. تحقيق: محمد شمس الحق شمسي. ط: بإعانة وزارة المعارف والشؤون الثقافية للحكومة العالية الهندية، الهند، الطبعة الأولى، (١٤٠٣هـ).
٤٥٢ ـ **المنهاج الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى**: زين محمد شحاته. ط: مكتبة العواصم، دار بلنسية، الرياض، الطبعة العاشرة، (١٤٢٢هـ).
٤٥٣ ـ **منهج الجدل والمناظرة في تقرير مسائل الاعتقاد**: عثمان علي حسن. ط: دار إشبيليا، الرياض، الطبعة الأولى، (١٤٢٠هـ).
٤٥٤ ـ **منهج ودراسات لآيات الأسماء والصفات**: محمد الأمين الشنقيطي. الدار السلفية، الكويت، الطبعة الرابعة، (١٤٠٤هـ).
٤٥٥ ـ **الموافقات**: أبو إسحاق إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الشاطبي. تحقيق: مشهور حسن سلمان. ط: دار ابن عفان، الطبعة الأولى، الخبر، (١٤١٧هـ).
٤٥٦ ـ **الموسوعة الفقهية**: إصدار وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الكويت.
٤٥٧ ـ **الموضح في وجوه القراءات وعللها**: نصر بن علي بن محمد المعروف بابن أبي مريم. تحقيق: عمر حمدان الكبيسي. ط: بإشراف الجماعة الخيرية لتحفيظ القرآن الكريم بجدة، الطبعة الأولى، (١٤١٤هـ).
٤٥٨ ـ **الموضوعات**: أبو الفرج عبدالرحمٰن بن الجوزي. تحقيق: عبدالرحمٰن بن محمد بن عثمان. ط: دار الفكر، الطبعة الثانية، (١٤٠٣هـ).
٤٥٩ ـ **موطأ الإمام مالك**: رواية يحيى بن يحيى الليثي. ط: دار النفائس، بيروت، الطبعة الخامسة، (١٤٠١هـ).
٤٦٠ ـ **موقف ابن تيمية من الأشاعرة**: عبدالرحمٰن صالح المحمود. ط: مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الأولى، (١٤١٥هـ).
٤٦١ ـ **ميزان الاعتدال**: أبو عبدالله محمد بن أحمد الذهبي. تحقيق: علي بن محمد البجاوي. ط: دار المعرفة، بيروت، الطبعة الأولى، (١٣٨٢هـ).
٤٦٢ ـ **الناسخ والمنسوخ**: أبو جعفر أحمد بن محمد بن إسماعيل النحاس. تحقيق: سليمان بن إبراهيم اللاحم. ط: مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤١٢هـ).

٤٦٣ ـ **الناسخ والمنسوخ في القرآن العزيز**: أبو عبيد القاسم بن سلاَّم. تحقيق: محمد المديفر. ط: مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الأولى، (١٤١١هـ).
٤٦٤ ـ **النبوات**: أحمد ابن تيمية. ط: دار الكتب العلمية، بيروت، (١٤٠٢هـ).
٤٦٥ ـ **نتائج الأفكار في تخريج أحاديث الأذكار**: ابن حجر العسقلاني. تحقيق: حمدي عبدالمجيد السلفي. ط: مكتبة المثنى، بغداد، (١٤٠٦هـ).
٤٦٦ ـ **نثر الورود على مراقي السعود**: محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي. تحقيق: محمد ولد سيدي ولد حبيب الشنقيطي. ط: دار المنارة، الطبعة الأولى، جدة، (١٤١٥هـ).
٤٦٧ ـ **النحو الوافي**: عباس حسن. ط: دار المعارف بمصر، الطبعة الخامسة.
٤٦٨ ـ **نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر**: جمال الدين أبو الفرج عبدالرحمٰن ابن الجوزي. تحقيق: محمد عبدالكريم كاظم الراضي. ط: مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠٤هـ).
٤٦٩ ـ **النشر في القراءات العشر**: أبو الخير محمد بن محمد ابن الجزري الدمشقي. تحقيق: علي محمد الضباغ، دار الكتاب العربي.
٤٧٠ ـ **نصب الراية لأحاديث الهداية**: جمال الدين أبي محمد عبدالله بن يوسف الزيلعي. ط: دار المأمون، القاهرة، الطبعة الأولى، (١٣٥٧هـ).
٤٧١ ـ **النكت والعيون**: أبو الحسن علي بن محمد الماوردي. تحقيق: السيد عبدالمقصود. ط: المؤيد، الرياض، الطبعة الأولى، (١٤١٢هـ).
٤٧٢ ـ **نهاية السول**: جمال الدين عبدالرحيم الأسنوي. ط: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠٥هـ).
٤٧٣ ـ **النهاية في غريب الحديث**: مجد الدين أبو السعادات ابن الأثير. تحقيق: محمود محمد الطناحي، المكتبة الإسلامية، اسطنبول.
٤٧٤ ـ **النهج الأسمى في شرح أسماء الله الحسنى**: محمد الحمود. ط: مكتبة الإمام الذهبي، الكويت، الطبعة الثانية، (١٤١٧هـ).
٤٧٥ ـ **نواقض الإيمان الاعتقادية**: محمد بن عبدالله بن علي الوهيبي. ط: دار المسلم، الطبعة الأولى، الرياض، (١٤١٦هـ).
٤٧٦ ـ **نيل الأوطار من أحاديث سيد الأخيار شرح منتقى الأخبار**: محمد بن علي الشوكاني. ط: دار القلم، بيروت.

٤٧٧ ـ **الهداية شرح بداية المبتدي**: أبو الحسن علي بن أبي بكر المرغيناني. ط: مكتبة الحلبي، مصر.

٤٧٨ ـ **الوافي في شرح الشاطبية في القراءات السبع**: عبدالفتاح عبدالغني القاضي. ط: مكتبة الدار، المدينة المنورة، الطبعة الأولى، (١٤٠٤هـ).

٤٧٩ ـ **الوجيز في تفسير الكتب العزيز**: أبو محمد عبدالحق بن غالب بن عطية الأندلسي. تحقيق: المجلس العلمي بفاس. ط: دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.

٤٨٠ ـ **الوسيط في تراجم أدباء شنقيط**: أحمد بن الأمين الشنقيطي. ط: مطبعة المدني، مصر. الناشر: مكتبة الخانجي، القاهرة، مؤسسة منير، موريتانيا، (١٤٠٩هـ).

٤٨١ ـ **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**: أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد ابن خلكان. تحقيق: إحسان عباس. دار صادر، بيروت.





فهرس الآيات القرآنية

• آل عمران •

● المائدة ●

• الأنعام •

• الأعراف •

● الأنفال ●

• التوبة •

• يوسف •

• الرعد •

• إبراهيم •

• الإسراء •

• مريم •

• طه •

• الفرقان •

• العنكبوت •

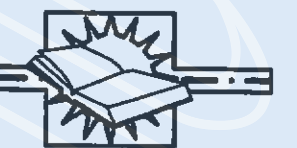
• الروم •

• ص •

• الزمر •

• غافر •

* * *



فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة